عبد الكريم الخطيب

المسيح في القرآن

والتوراة.. والإنجيل

الطبعة الأولى

١٣٨٥ - ١٩٦٦

يطلب من دار الكتب الحديثة
١٤ شارع الجمهورية تليفون ٩١٦٦١٠٧
لصاحبها : توفيق عفيفي

عبد الكريم الخطيب

المسيح في القرآن

والتوراة .. والإنجيل

يا آل إسرال هل يرجى مسيحكم
هيهات .. قد ميز الأشياء من خلبا
قلنا أتانا ولم يصلب، وقولكم
ما جاء بعد، وقالت أمة صلبا
جلبتم باطل التوراة عن شحط
ورب شر بعيد للفتى جلبا

(المعري)

الطبعة الأولى
١٣٨٥ - ١٩٦٥

الناشر
دار الكتب الحديثة
١٤ شارع الجمهورية تليفون ٩١٦١٠٧

مطبعة دار التأليف
١٨ شارع يعقوب بالمالية بمصر تليفون : ٢١٨٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

النية القائمة وراء هذا البحث منعقدة على أن يكون فى صميمه دعوة إلى الإيمان بالله ، ورسالة لتوجيه العقول والقلوب إليه ، فى ظل رحيب من الأخوّة الإنسانية ، التى تجمع الناس إلى الناس فى رحاب الله ، والتعاون على البر والتقوى ، والتواصى بالحق والصبر .

ذلك أن الدِّين خير خالص ، مرسل من الله إلى عباد الله ، كما يرسل الغيث إلى الأرض الجديب ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج !

وإن هذا الخير السماوى المبارك ليسع الناس جميعاً ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وعلى تباين أوطانهم ، وامتداد أزمانهم ، وإنه ليبسط يده المعطاءة لكل برّ وفاجر ، كما تغمر الشمس بضوئها الجبال والسهول ، والنجود والأغوار .

فالذين يلتقون بالدين ، ثم لاينتفعون به ، ولا يطعمون من ثمره ، إنما حُرِموا حظا طيبا من هذا الرزق الطيب ، وفاتهم نصيبهم من رحمة الله التى وسعت كل شىء . لأنهم استخفّوا بدعوة الله، وولّوا وجوههم عنها، وأغلقوا قلوبهم دونها .. « نسوا الله فأنساهم أنفسهم ! »

وأكثر من هؤلاء بخسا ، وأنكد حظاً ، وأسوأ موقفاً ، أولئك الذين يتخذون من الدين ذرائع لإلقاء العداوة والبغضاء بين الناس ، فى ظل التعصب للعقيدة ، وبدعوى الغيرة عليها ، والتمكين لسلطانها !

فذلك إن يخرج عن سَنن الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدل بالتى هى أحسن ، كان تشويشاً على الحق ، وتشويها للخير، وتنفيراً منه ، بل وجناية عليه .. لأن الدِّين

ليس مجرد حقائق تصورها الكلمات، وتحملها العبارات، وإنما هو — فى صميمه — معانٍ طيبة كريمة، تسكن القلب، وتخالط الوجدان، وتعايش الضمير، فتأخذ بزمام الإنسان كله، فإذاهى الموجِّهة لسلوكه، والمهيمنة على مايقول أويعمل. فإذا لم يكن للدين هذا السلطان المتمكن فى نفوس أصحاب الدين، وإذا لم يكن له هذا الأثر الطيب فى الحياة، فهو حِملٌ يُثقل صاحبه، ويُقيم عليه الحجة.

وقد ذمّ الله أولئك الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يُحسنوا الانتفاع بها، فقال تعالى: « مثلُ الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يَحملوها كَمثل الحمار يَحمل أسفارا » !

وإنه لن يكون للدين أو لأى معتقد ما، هذا السلطان القوى المتمكن من الإنسان، وهذا الأثر البارز فى سلوكه، إلا إذا التقى بالإنسان أو التقى به الإنسان لقاءً مطمئنا، بعيداً عن أى لون من ألوان الإكراه المادى أو الأدبى، وبِمنأى عن التلبيس أو التدليس، وبمجانبة لكل مامن شأنه أن يحول بين الإنسان وبين النظر إلى الدين أو المعتقد، نظراً مواجهاً.. ليس معه إلا عقله وقلبه، يتلقّى عنهما ما يَريَان، ويأخذ منهما مايعطيان !

على هذا المفهوم الواضح للدين جاءت دعوة الإسلام، تواجه الناس بوجهها المشرق الوضىء.. تدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. فكانت وَصاةُ الله سبحانه لنبيه الكريم فى دعوته: « ادْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١)

ثم كانت وَصاته جل شأنه لمن يستجيبون لدعوة الإسلام، ويؤمنون بالله وبرسوله، امتداداً لهذه الوصاة: « ولاتجادِلوا أهل الكتابِ إلا بالتى هى أحسنُ.. إلا الذين ظلموا منهم » (٢)

وليس هذا شأن الدعوة الإسلامية وحدها، وإنما هو شأن كل رسالة سماوية،

---

(١) آية : ٦٢ من سورة الجمعة (٢) آية : ١٢٥ من سورة الإسراء .

لأنها جميعها من معدن واحد ، ومن مطلع واحد،وإن أى رسالة سماوية تخرج عن هذا السَّمت ، وتنحرف عن هـذا القصد ، فإنها لاشك قد دخل عليهـا ماغيّر وجهها ، وانحرف بوجهتها . فما كانت رحمة السماء التى يحملها الدين إلا الصفو الذى لايشوبه كدر ، والخيرَ الذى لاَ يتبعهُ ضُرّ ولا أذى .!

وليس ينال منعظمة هذه الحقيقة ، أو يذهب ببعض بهائها وجلالها ، أن يقع فى محيط الدعوات السماوية أو غيرها من دعوات الإصلاح بعض صور الصراع العنيف ، الذى ربما ذهب بنفوس كثيرة ،من أنصار الدعوة وأعدائها جميعا . . فذلك أمر لابد أن يقع فى مطلع كل خير !

إنها آلام الوضع التى تعانيها الحياة ، كما تمخضت عن وليد جديد ، وإنها صدمة اللقـاء بين الحق والباطل ، والنور والظلام ، والهـدى والضلال ، كلما واجه أحدها الآخر ، مواجهة صريحة متحدية ! .

وإذن فلا بأس مما تقتلعه الدعوات السماوية مما يعترض طريقها ، ويعوّق سيرها، من أصحاب النفوس، التى تحمل فى كيانها أمراضا خبيثة معدية ، فإن فى ذهابها صيانة للإنسانية ، وحفظا لسـلامتها ، إذ لاضير على السيل – لكى يقيم مجراه – أن يقتلع ما فى طريقه من أحجار ، وأن يُلقى بما يلقاه من غُثاء ! .

وإنه لابأس أيضاً من أن يذهب فى هذا الصراع بعض الأخيار من عباد الله ، فإنهم الثمن المجزى لهـذا الخير الذى يفيض على الناس ، ويفتح لهم أبواب الرشـد والفـلاح ! .

* * *

والدعوات السماوية أوْلى دعوات الخير كلها بأن تَخْـلُص للخير، وتَمْـحض للسلامة — إن كان فى الحياة خير خالص ،أو سلامة خالصة — فيلتقى أتباعها جميعاً على المودة

والرحمة والإخاء، إذ كانت وجهتهم جميعاً إلى معبود واحد ، هو الله رب العالمين ، الذى دعاهم إليه على لسان رسله : « أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه »(١) .

وكل دعوة سماوية إنما مِلاكُها هو وصل الناس بعضهم ببعض ، وربطهم برباط المودة والأخوة ، وإن أى تصور لحقيقة أية دعوة سماوية يقوم على غير هذا المفهوم هو تصور خاطئ ، وانحراف مضلل للدعوة ، من شأنه أن يعكر صفوها ، ويكدر موردها ، ويصد الناس عنها .

ومن هنا نستطيع أن نقرر بأن أكثر ما وقع بين أصحاب الديانات السماوية من شقاق ، وماقام بينهم من خلاف ، وما نشب من قتال ـ إنما مردّه فى الأعم الأغلب ـ إلى فساد فى الفهم السليم للدين ، وإلى خلط الحقائق الدينية بالنوازع الذاتية والأهواء الشخصية ، التى يجد أصحابها فى الدين سلطانا متمكنا على الناس ، فيدعونهم إليهم باسمه ، ويَدخلون عليهم من طريقه . ولا عليهم إذا هم حققوا غاية ، أو بلغوا مراداً ، أن يزيّفوا الدين ، وأن يغيروا معالمه ، ثم لا عليهم أيضاً إذا هَلكوا وَأهلكوا !.

ونودّ أن نذكر هنا أنه إذا كانت العصور الوسطى قد سجلت كثيرا من المخازى الإنسانية ، فى مختلف صور الحياة ، وفى جميع مستوياتها ، وأن الضلال والجهل قد أصابا فيما أصابا من معالم الفطرة الإنسانية السليمة هذا الزاد الطيب الكريم الذى حمله الدين إلى أتباعه ، ليحفظ على هذه الفطرة سلامتها ، وليمسك عليها مشاعر المحبة والأخوة والرحمة بين الناس ـ حتى لقد وقع ماوقع بين الديانتين المسيحية والإسلامية من حروب دامية متصلة ، سالت فيها دماء الإنسانية أنهاراً ، وتحولت بسببها مناطق كبيرة من العالم إلى خرائب موحشة ، بعد أن كانت عمرانا ممتدا ، وحضارة مزهرة —

— نقول : إنه إذا كانت القرون الوسطى قد شهدت هذا الضلال الإنسانى ،

---

(١) آية ١٣ من سورة الشورى

وسجلت على الإنسانية هذه الصحف السود باسم الدين ، وتحت رايته ، فإنه قد صار حقاً لازماً على هـذا العصر ـ عصر العلم والحضارة والنضج العقلى ـ أن يمحو هـذه الصفحات السود من تاريخ البشرية ، وأن يطمس عليها ، بما يسجل من صحف إنسانية مشرقة ، تحدّث عن الأخوة والحب والمودة التى تعمر قلوب الناس ، وتؤلف بينهم ، فإن ذلك هو الذى يردّ للإنسانية اعتبارها ، ويغفرلها ماسلف من جهلها ، وغبائها ، وصَغارها .

* * *

ويحمل إلينا العصر ـ أعنى العصر الحديث ـ بوادر طيبـة ، تبشر بأن روح التعصب الأعمى للدين قد أخذ يزايل كثيراً من النفوس ، التى حررها العلم من الانقياد إلى غير العقل ، والاستجابة إلى ما لايخضع لمنطقه ، وتقبّل أية دعوى لايقوم عليها دليل بيّن ، ولاتستندها حجة واضحـة مشرقة . . وبهذا خرج النـاس عن سلطان المضللين والمخادعين ، الذين كانوا يسوقون الناس باسم الدين إلى كل مجهل ومتاهة ، كما يساق القطيع بعصا الراعى الأحمق الجهول !!

وفوق هذا . فقد كان للعلم أثره فى تنقية الدين من كثيرمن الضلالات والأباطيل ، التى أضيفت إليه ، وتلبست به ، فحجبت الأنظار عن رؤية مواقع الخير والهدى فيه ، وحرمتهم الانتفاع بما يحمل من معالم الحق والخير . ومن هنا وقع بين النـاس وبين معتقداتهم الدينية كثير من الجفاء والنفره ، حتى لقد خُيل لـكثير من الناس أن عصر العلم يجافى الدين ويعاديه ، وأنه كلما حصّل الإنسان علما كلما ازداد تفلتـاً من الدين ، ومجانبة له . . والحق من وراء هذا . . فما الدين الحق إلا الحق المشرق ، وإلا الحقيقة الناصعة ، وإلا العلم المبين الذى لايعلق به شبهة ، وإلا المعرفة المتجددة التى لايصادفها العقل على تمامها ، وكمالها ، وجلالها ، إلا فى رحاب الدين ، والدين وحده !.

وإنه يوم ينفصل العقل عن الدين ، أو يبعد الدين عن العقل ، فَلينظرْ ناظر من

أية جهة كان هذا ، ومن أى مدخل دخل ؟ ثم ليتَّـهِم نظره وعقله، إن هو أدان الدين ورماه بتهمة ، أو أخذه بجريرة فى هذا المقام . فالدين فى حقيقته أبعدُ من أن يـكون بموضع ظِنةٍ أو تهمة . . وحاشا لله أن يجىء ـ سبحانه ـ بأمر يدعو فيه الناس إليه ، ثم يكون فيه مايقطعهم عنه ، ويباعد بين عقولهم وبينه . . وإنما هى العقول المريضة ، والنفوس السقيمة ، لاتجد مساغا للشراب المرىء ، ولا الطعام الهنىء ! .

وإنه ـ والأمر كذلك ـ لمطلوب من كل ذى دين أن ينظر فى دينه ، نظراً باحثاً متفحصاً ، حتى يصفّى موارده من شوائب الزيف والزَّغل ، ويرفع عن حقائقه ماغَشَّى عليها من ألوان التمويه والتضليل ، وبذلك يلتقى بدينه ، ويتعرف على حقائقه . . ويومَها يجد أصحاب الأديان أنهم على طريق واحد ، وعلى وجهـة واحدة ، فلا تتشعب بهم السبل ، ولاتتفرق المذاهب . وإن وقع ثمّ خلاف . ففى الصور والأشـكال ، لافى المقاصد والغايات .. « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثمَّ وجه الله » !

* * *

يقول الدكتور « ميشال الحائك »(١) : إن هناك فرضاً قاطعا على عنق المسيحيين، وهو أن يُقبلوا على تفهم الدين الإسلامى بإخلاصٍ لمعتقد الغير ، وانفتاح على مابينـه وبين المسيحية من قربى ، وأن يقبلوا بعد ذلك على إظهار دينهم لإخوانهم المسيحيين بلغة عربية مبينة ، فيتكون من ذلك أدب مسيحى عربى ، يجنى منه كل واحد ـ مهما كانت عقيدته ـ ثمار الخير والوفاق ، وإنهم دون شك واجدون عقائد وتقاليد ثابتة ، تؤمّن للجميع ثمرة الأخوة ، التى لاتعادلها غنائم الخصومات مهما عظمت .

ثم يقول : « وفى زحمة هذه الأعاصير الهابّة على العالم من كل حدب وصوب —

(١) دكتوراه فى اللاهوت ، وأستاذ فى المعهد الكاثوليكى بباريس

لابد للمؤمنين بإلـه « إبراهيم » من أن يقفوا صفاً واحداً للدفاع عن قضية الإيمان ، التى هى قضية الإنسان .

ثم يتابع القول : « والحق أن الإنسان اليوم أكثر منه فى تاريخه الغابر بحثا عن معبود ، وأن التطاحن العالمى فى دنيا الاقتصاد والسياسة والثقافة ليس سوى عوارض سطحية ظاهرة للاصطدام الباطنى العميق ، بين الإيمان والكفر . . بين الخير والشر . . بين الله والشيطان » (١) .

وهذه ـ لاشك ـ بادرة طيبة ، ودعوة كريمة ينبغى أن يتلقاها كل متدين بالقبول الحسن لها ، والحمد الخالص لصاحبها ، دون أن يَحمل نفسه على مركب التعسف والشطط ، فيحمّل الكلمات ما لاتحتمل ، ثم يخرج منها مُوقَرا بحمل ثقيل من سوء الظن ، الذى إن يكن له وجه من الحمد فى بعض المواطن ، فإنه فى هذا الموطن مقبوح مذموم !

إنها دعوة كريمة . وقعت من نفسى أجمل موقع ، لأنها تكشف عن الصميم من الدين ، وتحدث عن المشاعر الطيبة التى تعلق منه بالنفوس السليمة المستجيبة للخير ، المتقبلة للرشاد والهدى ، المهيأة للانتفاع بكل خير يدنو منها ، ويغشى حماها .

والحق أن مثل هذا الصوت الإنسانى الرقيق يجدّد فى النفوس أملا منعشاً ، بما يفتح للناس من أبواب الرجاء فى مستقبل الإنسانية ، وفى توثيق روابط الأخوة ، التى قطعتها نوازع العصبية الدينية والمذهبية والإقليمية والجنسية ، والتى أغرت الناس بالبغى والعدوان ، فأكل بعضهم بعضاً ، وولغَ بعضهم فى دم بعض ، حتى لقد أشرفت الإنسانية على الهلكة والضياع ، وباتت تترقب الفاجعة التى تقضى القضاء الذى لايبقى ولايذر ، من دارٍ ولاديار .

(١) من كتاب « المسيح أمام المسلمين » (بفتح الهمزة من أمام) ص ١٤ ، تأليف الدكتور ميشال الحائك .

والمسلم يستقبل مثل هذه الدعوة إلى التلاقى والتآخى فى رحاب الدين ـ بالحفاوة، ويلقاها بالترحاب ، ويفتح له أذنا صاغية ، وقلبا واعيا ، إذ كانت متجاوبة مع الصميم من دعوة الإسلام ، آخذة الطريق الذى تأخذه رسالة هذا الدين .

فالإسلام يدعو أتباعه بدعوة عامة إلى الإيمان بما أرسل الله سبحانه وتعالى إلى عباده من رسل ، وما أنزل عليهم من شرائع : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون[1] » . ذلك أن دين الله واحد ينزل على الناس بقدر ، حسب مقتضيات الأحوال ودواعيها : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبرهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه » [2] .

إنها دعوة إلى وحدة إنسانية شاملة ، فى ظل دين الله ، فليس ما يدين به قوم من الأقوام من شرع الله الذى نزل على رسول من رسله بداعية لهم إلى الانعزال عن الأقوام الآخرين الذين جاءتهم رسل الله ، وكتب الله . . فالرسل رسل الله ، والكتب كتب الله ، والشرع شرع الله ، والناس جميعا عباد الله . . فكيف يساغ أن يكون الدين ـ مع هذا ـ مصدر تفرقة ، وداعية عداوة وبغضاء ؟ إن ذلك إن يكن فليس مما شرعه الله وأذن به . وإنما هو ـ كما قلنا ـ بدع وضلال ، جاء به مبدعون وضلال !

* * *

وعن هذا الهدى السماوى الكريم الذى نزل به القرآن فى الدعوة إلى الإخاء والمودة بين الناس ، وبهذا الأسلوب التربوى الحكيم ، يهتف القرآن بأهل الكتاب

---

(١) آية : ١٣ من سورة البقرة (٢) آية : ١٣ من سررة الشورى

أن يلتقوا بالمسلمين فى رحاب الله ، وأن يسلموا له جميعا وجوههم وقلوبهم : « يا أهل الكتاب .. تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

فأهل الكتاب جميعاً — قبل غيرهم — مدعوون إلى الإيمان بالله ، إيمانا لا يخالطه شرك ، ثم إنه إذا صحّ هذا الإيمان — على هذا الوجه — لم يكن ثمة ما يعزل المؤمنين بالله بعضهم عن بعض ، إذ هم على دين واحد ، هو دين الله الذى ارتضاه لعباده جميعا ! .

* * *

وإذا كان اليهود قد عزلوا أنفسهم عن المجتمع الإنسانى منذ كان لهم مجتمع ، وكان لهم دين ، وإذ زيّن لهم الشيطان أنهم أبناء الله ، وأنهم شعبه المختار ، وأن الناس — ما عداهم — همل ، لا ينظر إليهم الله ، ولا ينالهم برحمته . . إذا كان هذا شأن اليهود ، وذلك موقفهم الذى ساقهم إليه الغرور والشقاء ، من المجتمع الإنسانى عامة ، ومن أصحاب الديانات السماوية خاصة — فإن الذى بين المسلمين والمسيحيين ليختلف عن هذا اختلافا مبينا ، إذ ليس فى النصرانية ولا فى الإسلام تعصب للجنس ، حيث كان أتباعهما من كل جنس وقبيل .. ولهذا لم تقم بين الإسلام والنصرانية تلك الحواجز الصفيقة التى تحول بين أى منهما وبين أن ينظر فى دين صاحبه ويتعرف عليه ، بل كان نظر كل فريق منهما إلى دين الآخر ومعتقده مصوبا إليه دائما ، حيث يقع على كل ما فيه من وجوه الاتفاق أو الاختلاف .

وقد تكشف هذا اللقاء المستمر بين المسيحية والإسلام عن وجوه كثيرة من الاتفاق بين أهل الديانتين ، وكان لذلك أثره فى أن تقوم بينهما روابط المودة

---

(١) آية : ٦٤ — من سورة آل عمران .

والتواصل، على خلاف ما كان مع اليهود من بغضة وعداوة، وفى هذا يقول الله تعالى: « لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قِسِّيسين ورُهبانا، وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أُنزِلَ إلى الرسول ترى أعينَهم تفيض من الدمع مما عَرَفوا من الحق » (١).

والخلاف الوحيد الحادّ الذى بين الإسلام والمسيحية إنما هو فى تصور ذات الإله.. فهم جميعاً يؤمنون بأن لهذا الوجود إلها عظيما، قائما على تدبيره، ولكن تصور هذا الإله.. فى ذاته وفى صفاته، هو موضوع الخلاف بينهم!

وهذا الخلاف على عظم شأنه، وجلالة خطره يمكن أن يلتقى فيه الفريقان على الحق، إذا خَلَصت القلوب من دواعى الهوى، وسلمت النفوس من دخائل السوء، وقصدت وجه الحق، دون التفات إلى شىء آخر سواه!

والفرصة مواتية فى هذا الوقت بالذات، إلى التعرف على الله، وإلى تصوره على الوجه الذى يليق بعظمته وجلاله، حيث كشف العلم كثيراً من الآفاق التى يمكن أن يَنظر بها العقل إلى الله، وأن يتصوره على الوجه الذى ينبغى أن يكون له.. من كمال وجلال!.

* * *

والمسيح عليه السلام هو مركز الخلاف بيننا وبين إخواننا المسيحيين!.

فهم يقولون فيه أقوالا ترفعه من عالم البشرية — كما يراه المسلمون — إلى مقام الألوهية.. كما يتصوره المسيحيون.

---

(١) آية : ٨٢ — من سورة المائدة

أما اليهود فإنهم يقولون فى المسيح وفى أمه أقوالا شنيعة ، تنال من شرف مولده ، ومن طهر أمه البتول .

والقرآن الكريم يقول فى المسيح وفى أمه غير مايقول هؤلاء ، وهؤلاء .. جميعا .

وغاية هذا البحث إنما هى عرض شخصية المسيح فى « إطارات » ثلاث : كما تصورها المسيحيون ، ثم كما توهمها اليهود ، ثم على ماصورها القرآن .

والنية المنعقدة وراء هذا البحث ـ كما قلنا فى مفتتح هذا التقديم ـ هى أن يكون عملنا هذا دعوة إلى الإيمان بالله ، وتجميع قلوب المؤمنين على كلمة سواء فيه ، لا فتح جبهةٍ جديدة من جبهات الفُرقة والخلاف بين المتدينين عامة ، وبين المسلمين والمسيحيين خاصة .

فالمسلمون والمسيحيون يمثلون اليوم معاً الجانب الأكبر من الإنسانية ، ويضعون أيديهم على مراكز الحياة والقوة فى هذا العالم ، وللدين عند الفريقين صوت مسموع فى ضمير كل متدين ، وإنه ليمكن أن يُلْجأ إلى الدين فى هذا العصر الذى استشرى فيه الشر بين الناس ، وحشدت فيه فى الشرق والغرب حشود التدمير والهلاك للجنس البشرى كله ـ ليكون رسولَ رحمة ، وداعية محبة ومودة بين الناس ، وبهذا يمكن أن يطلع على الإنسانية فجر جديد ، يبشّر فيه بالأمن والسلام ، وبهذا تنجو الإنسانية من هذا المصير المشئوم الذى يترصدها ، ويتربص بها ، ويرقب يومها من قريب !

والله سبحانه نسأل أن يسدد خطانا ، وأن يأخذ بناصيتنا إلى غايات الهدى والخير ، لنحقق ما انعقدت عليه نيتنا من تأليف القلوب ، وربطها بعواطف الحب والإخاء والمودة بين الناس جميعاً ، إنه سميع مجيب ؟

القاهرة : يونية سنة ١٩٦٥

مدخل إلى البحث

الديانات الموسوية والعيسوية ، هما اللتان أدركهما الإسلام من بين الديانات السماوية التى أنزلها الله على رسله ، وأجرى لها فى القرآن الكريم ذكرا .

فلقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من الرسل ، كما ذكر الأصول العامة التى قامت عليها دعواتهم إلى أقوامهم ، وموقف هؤلاء الأقوام من تلك الدعوات ، والمصير الذى صاروا إليه .

ومن هؤلاء الرسل نوح ، وإبرهيم ، ولوط ، وصالح ، وهود ، وشعيب ، وداود وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وعيسى ، وغيرهم .

هذا ، ومع أن كل رسول كان يحمل إلى قومه رسالة ـ سماوية ـ فإن القرآن الكريم لم يذكر من هذه الرسالات ـ عدا التوراة والإنجيل ـ إلا صحف إبرهيم ، وزبور داود .

وقد ذهبت صحف إبرهيم ، ولم يبق لها أثر مادى ، وإن كانت هى أصل أصيل لرسالات السماء التى جاءت بعدها .. وهذا أمر ملفت للنظر .. إذ كيف تكون هذه الصحف التى نزلت على إبرهيم ـ أبى الأنبياء ـ بمنزلة الأصل لما جاء بعدها من رسالات ، ثم تندثر ، وتذهب جملة ، ولا يكون لها من التدبير السماوى ما يحفظها على الزمن ؟

ويبدو لنا أن التدبير السماوى كان يراد به تصفية هذه الرسالة ، وكذلك كل رسالة تؤدِّى دورها ، وذلك لتفسح المجال للتى تجىء بعدها ، فى صورة مجددة ، يختص بها الرسول الذى يختاره الله لها ، وبهذا يكون للرسول رسالة يلقى بها قومه ، باعتبار أنه صاحب دعوة غير مضافة إلى غيرها ، وبهذا أيضاً تتحدّد شخصية

الرسول ، وتقوى عزيمتــه ، ولا يداخله شعور بأنه مضاف إلى من سبقه ، تابع له .

ومن جهة أخرى، فإن فى إنهـاء الرسالات السابقة بالرسالات اللاحقة إفساحاً لتطور الحياه وتقدمها ، ومسايرة لتقلب الناس وانتقالهم من حال إلى حال !

فلو أن هذه الرسالات السماوية التى تلقاها أنبياء الله ورسله منذ استأهل الناس أن يُخاطَبوا برسالات السماء ــ لو أن هـذه الرسالات جميعها ظلت باقيـة عاملة فى الحياة ،يتوارثها النـاس جيلا بعد جيل لوقعوا فى حرج شديد ، ولوجدوا كثيراً من الأحكام يناقض بعضها بعضاً ، حيث كانت هذه الأحكام التى يحملها ــ كل رسول إلى قومه ــ مسايرة لأحوال هؤلاء القوم وظروفهم ، واستعداداتهم العقلية والنفسية والمادية ، ثم لانكشف للنـاس ماكان فى الإنسانية من صغار وجهل ، وهى تخطو خطواتها الأولى فى الحياة ، ذلك الصغار وهذا الجهل اللذان كانت تعالجهما رسالات السماء، وتَطِـبُّ لهما ، فى حكمة ولطف ورفق ،فى أدوار الإنسانية الأولى .. وقدأحسن الله بالإنسان إذ حجب عنه هذا الدور الطفولى، الذى كان يمثله فى طفولته ، دون أن يشعر به ، ولو اطلع عليه بعد أن رَشَدَ واكتمل لذل وخزى ، ولـكان خطوه إلى الأمام متعثراً فاتراً !

أما الأصل الذى تقوم عليه الرسالات السماوية كلها وهى الإيمان بالله وإفراده بالوحدانية ، وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد ، فقد حملته كل رسالة ، وجعلته فى صميمها ، ثم كانت كل رسالة لاحقة تنقل عن الرسالات السابقة ، أسلوب دعوتها إلى الله ، ومُحاجّة الناس بتلك الدعوة ، وموقفهم منها .

وفى التوراة والإنجيل مواقف متعددة ، يذكر فيها كثير من الرسل ، وماجاءوا به إلى أقوامهم فى مجال العقيده والشريعة معا !

وفى القرآن الـكريم كثير من قصص الأنبياء من آدم إلى عيسى عليهما السلام ،

وفى كل قصة تلخيص لرسالة الرسول وموقف قومه منه ، دون ذكر لما كانت تحمله الرسالة من شرائع وأحكام وراء الإيمان بالله ، إلا ما كان داء ممتدا فى الإنسانية.. كالجور بالتطفيف فى الكيل والميزان ،والتطاول على الناس بالبغى والعدوان ، وكالانحرافات التى تحمل بعض ذوى النفوس المريضة على الخروج عن سنن الطبيعة ، والفطرة السليمة . . كفعل قوم لوط . . مثلا.

ومن أجل هذا لم يعرض القرآن الكريم للديانات التى اندثرت كتبها السماوية، بعد أن أدت دورها فى الحياة ، ولم يحل أتباعه على شىء من أحكامها ، ولم يتحدث عن موقفه منها ، ولاهيمنته عليها ، إذ كانت مجرد تاريخ قد مضى ، ومضى أهله !

أما الديانتان الموسوية والعيسوية فقد كان شأن القرآن معهما غير هذا الشأن .. إذ كان كتابا هما ـ التوراة والإنجيل ـ لايزالان بأيدى الناس ، حين نزل القرآن ، وبهما كان يدين كثير من الأمم والشعوب فى مشارق الأرض ومغاربها ، فكان من الطبيعى أن يلتقى بهما ، وبأتباعهما ، وأن ينجم عن هذا اللقاء احتكاك عقلى ومادى، شأن كل دعوة جديدة ،تواجه دعوة أو دعوات سابقة لها .

القرآن والرسالات السابقة:

والقرآن ينظر إلى الرسالات السماوية السابقة على أنها مغارس هدى ورحمة فى حقل الإنسانية ،قد أدت دورا مثمرا ناجحا فى تربية البشرية ، وفى تثبيت خطوها فى الحياة ، وفى دفع الضلالات وكشف العمايات عنها ..

فما الدعوة الإسلامية — والأمر كذلك — إلا امتداد للرسالات السماوية السابقة ،وإلا تجميع لما تفرق منها .. وفى هذا يقول الله تعالى مخاطبا النبى الكريم : « نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ،وأنزل الفرقان »(١) ..ويدعو سبحانه وتعالى نبيّه إلى الإيمان بما سبقه من كتب ورسل . . « قل آمنا بالله ، ومآ أنزل علينا ، ومآ أنزل على إبرهيم وإسماعيل

(١) آية ٣ : سورة آل عمران

وإسحق ، ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١) » . . وهذا أمر عام للنبى ولأتباع النبىّ ، ملزم لهم جميعاً ، إذ كان النبى أسوة وقدوة لكل مسلم . . ولكن حرص الإسلام على تقرير هذا المعنى وتوكيده قد جعله يجىء به فى صورة عامة شاملة : « قولوا آمنا بالله ، وماأنزل إلينا ، وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحق ويعقوب والأسباط ،وماأوتى موسى وعيسى ، وماأوتى النبيون من ربهم لانفرّق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (٢) .

وهذا إنما ينبىء عن حقيقة واحدة ، وهى أن دين الله واحد ، وقد سماه سبحانه وتعالى « الإسلام » ،الذى هو شريعة الأنبياء والرسل جميعاً ..«شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وماوصينا به إبرهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولاتتفرقوا فيه (٣) »

يقول « ابن تيمية » : « وكان دينه — تعالى — الذى ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام ، الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل .. ولايقبل من أحد ديناً غيره ، لامن الأولين ، ولامن الآخرين ، وهو دين الأنبياء ، وأتباعهم ، كما أخبر بذلك عن نوح ومَن بعده ،إلى الحواريين : قال تعالى : « واتل عليهم نبأ نوح : إذ قال لقومه ، ياقوم ، إن كان كَبُر عليكم مَقَامى، وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لايكن أمركم عليكم غُمّة ، ثم اقضوا إلىّ ولا تُنظِرون ، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرْىَ إلاّ على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين (٤) .. وقال عن إبراهيم : «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من

---

(١) آية ٨٤ سورة آل عمران
(٢) آية ١٣٦ سورة البقرة
(٣) آية ١٣ سورة الشورى
(٤) آية ٧٢ سورة يونس

سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلمْ .. قال أسلمتُ لرب العالمين ، ووصَّى بها إبرهيم بنيه ويعقوب يا بَنىّ إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن ، إلا وأنتم مسلمون » (١) وقال عن يوسف الصديق : « ربِّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطرَ السموات والأرض أنت وليِّى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » (٢) وقال تعالى على لسان موسى : « ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » (٣) وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون : « وما تنْقِم منا إلا أن آمنا بآيات ربِّنا لمّا جاءتنا ، ربنا أفرِغ علينا صبرا وتوَفَّنا مسلمين » (٤) وقال عن بلقيس ملكة سبأ : « رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (٥) وقال عن أنبياء بنى إسرائيل : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » (٦) وقال تعالى عن المسيح : فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » (٧)

ثم يعلق ابن تيمية على هذا بقوله : « فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم ، هو دين الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وعبادته تعالى فى كل زمان ومكان بطاعة رسله عليهم السلام ، فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ماجاءت به رسله ، ولا يكون مؤمنا به ، ولا عابدا له إلا من آمن بجميع رسله ، وأطاع

---

(١) آية : ١٣٢ سورة البقرة
(٢) آية : ١٠١ سورة يوسف
(٣) آية : ٨٤ سورة يونس
(٤) آية : ١٢٦ سورة الأعراف
(٥) آية : ٤٤ سورة النمل
(٦) آية : ٤٤ سورة المائدة
(٧) آية : ٥٢ سورة آل عمران

من أرسل إليه ، فيطاع كل رسول إلى أن يأتى الذى بعده ، فتكون الطاعة للرسول الثانى (١) . . . »

والإسلام هو أن يُسلِم الإنسان وجهه ، وعقله ، وقلبه ، لله وحده ، و أن ينخلع عن كل معبود سواه . . بهذا جاءت دعوات الرسل جميعا ، فكان مفتتح رسالة كل رسول إلى قومه : « أنِ اعْبدوا الله مالكم من إلٰه غيره » .

فكل دين سماوى إسلام ، وكل من آمن برسالة سماوية فهو داخل فى عداد المسلمين ، وإن يكن « الإسلام » « والمسلمون » مما اخْتُصَّت به آخر الرسالات السماوية ، وصار علماً لأتباعها وحدهم دون غيرهم . وكان ذلك تكريما لمحمد ورسالته وأتباع رسالته ، استجابة لدعوة إبرهيم عليه السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ..ربنا تقبلْ منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلِمَيْنِ لك ، ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك » (٢) فالذرية المسلمة من نسل إبراهيم وإسماعيل هى الأمة العربية التى حملت رسالة الإسلام ، وبهذا امتنّ الله على العرب بقوله تعالى: « هو اصطفاكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » (٣) .

واختصاص الدعوة التى حملها « محمد » باسم « الإسلام » دون الرسالات السماوية السابقة فضلا عما فيه من مزيد نعمة وفضل لرسالة الإسلام وللمسلمين ، فإنه يؤكد حقيقة ما بين الديانات السماوية من وشائج القربى ولحمة النسب ، إذ كان اللّاحق منها امتداداً للسابق ومكملاً له . . وفى هذا يقول السيد المسيح : « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء . . ما جئت لأنقض بل لأكمل (٤) » ثم يجىء هذا

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية جزء ١ حد ١٢

(٢) آية :١٢٨ سورة البقرة

(٣) آية :٧٨ سورة الحج

(٤) إنجيل متى ٥:١٧

المعنى مؤكداً مشروحاً فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلّا وُضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللَّبِنة ، وأنا خاتم النبيين (١) »

فكان من وضع الأمر فى موضعه أن تأخذ آخر دعوة سماوية الاسم الجامع لدين الله ، والمتخير لرسالات الرسل ، إذ هى التى جمعت ماتفرق منها ، وهى التى كان بها تمام دين الله .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٢) .. فاليوم الذى نزلت فيه هذه الآية الكريمة كان مختتم الرسالة الإسلامية ، إذ كانت تلك الآية الكريمة آخر القرآن نزولا ، فى أصح الأقوال ، وبها ختمت الرسالة الإسلامية ، حيث تمت وكملت .. وبهذا أصبح هذا الدين الذى نزل به القرآن أهلا لأن يحمل الاسم المتخير لدين الله ، وهو « الإسلام » ، الذى رضيه الله لعباده ديناً . يصحبهم ماصحبتهم الحياة ، أو صحبوا هم هذه الحياة.

وقد ترتب على هذا — من وجهة نظر الإسلام — أمور .. منها :

أولا : أنه وقد كمل الدين بنزول القرآن ، فقد أصبح هذا الدين هو مجمع الأديان السماوية التى سبقته . وأن هذه الأديان وإن سميت إسلاماً فهى بعض الإسلام ، وليست كل الإسلام .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إن الدين عند الله الإسلام » .. أى أن الإسلام هو الدين الذى ختمت به رسالات السماء ، والذى به تم الدين وكمل ، ولم يعد فى حاجة إلى رسالة أو رسالات أخرى ، تكمل منه ، ناقصاً أو تنسخ ما لاضرورة له .. بحكم أزمان الناس وأحوالهم .

وثانيا : لكى يصبح أهل الكتاب الذين التقوا بالدين الإسلامى — فى عداد

---

(١) صحيح مسلم جزء / ٧ ص ٦٤
(٢) آية : ٣ سورة المائدة

المسلمين ، يجب عليهم أن يؤمنوا بالقرآن ، وبالرسول الذى نزل عليه القرآن ، وإلا فهم غير مؤمنين ، وبهذا يخاطب الله تعالى أهل الكتاب ، وكل من يدين بدين غير الإسلام — يخاطبهم بقوله : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين (١) »

هذا هو موقف القرآن من أهل الكتاب ، حسب وجهة نظره !

فهل التقى أهل الكتاب مع القرآن عند وجهة نظره هذه ؟ وهل آمنوا به وبالنبى الذى تلقاه من ربه ، كما آمن المسلمون بأنبياء الله جميعاً وبالكتب التى تلقوها من ربهم ؟

الأمر مختلف !

فلقد تفرقت بأهل الكتاب مذاهب الرأى فى محمد ، وفى الرسالة السماوية التى بين يديه.. فآمن منهم من آمن، وكفر من كفر ، وسالمه منهم من سالم، وحاربه من حارب.. ولكن مع هذا ظلت دعوة الإسلام قائمة على أهل الكتاب ، تدعوهم إليه ، وتأخذ عليهم سبيل الإفلات من تلك الحجة القائمة عليهم : « يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٢) » . . وهذه الكلمة السواء المدعوون إليها هى من صميم الدعوة التى حملها إليهم كل من النبيَّيْن الكريمين: موسى ، وعيسى ، والتى جاء القرآن مصدقاً لها : « يا أهل الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردَّها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا (٣) » .

---

(١) آية : ٨٥ سورة آل عمران

(٢) آية : ٦٤ سورة آل عمران

(٣) آية : ٤٧ سورة النساء

وقد قلنا إن أهل الكتاب الذين أجرى لهم القرآن فيه ذكرا ، وجعل بينهم وبين المسلمين موقفاً اقتضى هذا الاحتكاك المتصل بينهم — هؤلاء هم أتباع النبيَّيْن الكريمين : موسى ، وعيسى ، عليهما السلام .. أعنى اليهود والنصارى ، اللذين كان التفات الدعوة الإسلامية إليهما التفاتا قويا واضحا ، لأنهم كانوا فى الوقت الذى التقى بهم الإسلام فيه أقربَ أصحاب الديانات التى كانت تسود العالم يومذاك — إلى الحق والخير ، كما كانوا أهدى سبيلا ، وأصدق قِيلاً فى تصور الألوهية ، وفى إدراك الصلة بين الخالق والمخلوقين . وإن كان هذا التصور قد اختلط بكثير أو قليل من اللبس ، والغموض ، وسوء الفهم ، وفساد التأويل ..لما نضح على العقول من معتقدات الوثنية التى اختلطت بهاتين الديانتين : من بابلية ، وفرعونية ، وفارسية ، وهندية ، ويونانية ورومانية ، وغيرها .. كما سنرى ذلك فى ثنايا هذا البحث .

والإسلام يفرِّق — من أول الأمر — تفرقة واضحة ، بين أتباع هاتين الديانتين ، وبين غيرهم من أصحاب الديانات الوثنية . . وإنه لكى يجعل لهم سمة خاصة بهم ، ودلالة مميزة لهم أطلق عليهم اسم : « أهل الكتاب » . . فحيث ورد فى القرآن لفظ « أهل الكتاب » كان مرادا به اليهود والنصارى ، على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم .

ثم لقد كان لهذه التفرقة بين أهل الكتاب وغيرهم آثارها فيما قررت الشريعة الإسلامية من صِلات وعلاقاتٍ بين المسلمين وبينهم .

فمن ذلك :

أولا : حرَّم الإسلام على المسلم أن يَطْعَمَ من طعام الوثنيين وأمثالهم ، ممن لا يدينون بكتاب سماوى ، كما حرم التزوج منهم أو التزويج لهم ، على حين أباح للمسلم طعام أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كما أباح التزوج منهم ، دون التزويج لهم ، وفى هذا يقول الله تعالى مخاطبا المسلمين : « اليومَ أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصَنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب

من قبلكم ، إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ، ولا متخذى أخدان »(١)

والإسلام بهذه التفرقة بين أهل الكتاب وغيرهم ، فى هذه الجزئية ، لا يقيم هذه التفرقة على أساس العصبية القومية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، وإنما يقيمها على ميزان التقوى ، الذى أقامه الإسلام فى موقف المفاضلة بين إنسان وإنسان : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢)

وأساس التقوى هو الإيمان بالله ، إيمانا خالصاً من أية شائبة من شوائب الشرك ، ثم ما يحمل هذا الإيمان بالله ، من امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، إذ التقوى كما يحدد مفهومها هذا الأثر الإسلامى .. هى : « ألا يراك الله حيث نهاك ، وألا يفتقدك حيث أمرك » !.

فأهل الكتاب فى ميزان الإسلام — مهما يكن مادخل على معتقدهم — هم على شىء من المعرفة بالله والإيمان به .. ومن هنا رجحت كفتهم كفة غيرهم ، ممن لا يدينون بكتاب سماوى — وكانوا على مستوى إنسانى يدنيهم من الإسلام ، ويخلطهم بأهله فى الحياة العامة ، وتبادل المنافع ، وصلات المودة ، كالمواكلة والمصاهرة ، وغيرهما ، مما يؤلف بين الناس والناس !

هذا ، على حين لا يقيم الإسلام وزنا للوثنيين ، حيث يراهم فى معتقداتهم الفاسدة قد نزلوا بإنسانيتهم إلى مرتبة الحيوانية ، وإذ يصل الإنسان إلى هذا المدى من الانحدار فقد أهدر آدميته ، وحُقَّ عليه أن ينعزل عن الناس وأن ينعزل عنه الناس ، عزلة نفسية وعقلية ، وألا يخالطوه بأنفسهم ، إذ هو أقرب إلى عالم الحيوان ، وعالم الحيوان أحق به وأولى!

وثانيا : بدأ الإسلام دعوته فى محيط الشرك والوثنية ، فقطع المرحلة الأولى من مراحل الدعوة — وهى فترة ماقبل الهجرة — فى مواجهة الشرك والمشركين ، فكانت مكة — أم القرى — وماحولها ، المجالَ الذى تتحرك فيه رسالة الإسلام ، لإجلاء الشرك ، الذى انعقدت سحبه ، وتكاثفت فى سماء هذا البلد وماحوله ، إذ كانت

---

(١) آية : ٥ سورة المائدة (٢) آية : ١٣ سورة الحجرات

قريش رأس الوثنية ،والقوّامة على أصنامها وطقوسها ،فى البلد الحرام ،والبيت الحرام !

وهذا يعنى أن الإسلام كان يرى أهل الكتاب — على ماهم عليه — أقربَ إلى الإيمان ، وأدنى إلى السلامة والنجاة من هؤلاء الوثنيين المشركين ، وأنه وقد جاء ليستنقذ البشرية من الضلال ، والهلاك ، كان عليه — بمقتضى الحكمة — أن يبدأ أولا بهذا الجانب المتداعى من بناء الإنسانية ،فيدعمه ويقيمه على أسس سليمة ، ويأتى على مالا يرجى إصلاحه منه ، ثم يلتفت بعد ذلك إلى الجوانب الأخرى المتصدعة من هذا البناء ، فيصلح مابها من ثقوب وصدوع .

ولهذا ، فإن القرآن الكريم — فى العهد المكى — لم يلق أهل الكتاب لقاء مواجهاً، ولم يكشف لهم ماتلبس بمعتقدهم من شُبَه وانحرافات ،بل عدَّهم فى هذه المرحلة، من دعوته ،جبهة تظاهره ، وتقف إلى جانبه فى المعركة بين الإيمان والإلحاد ، لما بينه وبينهم من صِلات روحية ،تنبعث من الولاء لله ، والإيمان به ، وبكتبه ورسله ، واليوم الآخر ! .

ولقد ظل القرآن طوال هذه الفترة حريصاً على استمالة أهل الكتاب ، مستشرفا إلى انضوائهم إليه ،ووقوفهم معه ،فجاء إليهم متلطفا ،يدعوهم إلى قولة الحق فيه ، وفى النبى الذى أُوحى إليه به ... « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون (١) » .

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق ، وهم يعلمون (٢) » . . بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا ، فيدعو المشركين إلى أن يسألوا أهل الكتاب ، فعندهم شاهد على القرآن وعلم به . بما فى كتبهم من حديث عنه : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون (٣) »، وأكثر من

(١) آية : ١٢١ سورة البقرة
(٢) آية : ١٤٦ سورة البقرة
(٣) آية : ٤٣ سورة النحل

هذا أيضا، فقد دعى النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن يجد الشاهد للحق الذى بين يديه بسؤال أهل الكتاب: « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآياتنا فتكون من الخاسرين » (٤) وما بمحمد شك ولا ارتياب ، ولا تكذيب بآيات الله ، ولا بالكتاب الذى نزل عليه، ولكنه أسلوب من أساليب البلاغة العربية ، يراد به المبالغة فى استبعاد الأمر الواقع أن يقع تحت هذا الحكم بحال أبداً.

وهذا الموقف الذى وقفته الدعوة الإسلامية من أهل الكتاب فى مراحلها الأولى.. من ملاطفة ، وموادعة ، ومداناة — هذا الموقف قد فهمه كثير من أهل الكتاب — قديما وحديثا — على غير وجهه الذى ينبغى أن يفهم عليه ، وقالوا : إن محمداً قد تحول بدعوته من مصلح اجتماعى فى محيط قومه ، إلى ملك سياسى ، يريد أن يحقق مآرب وأطماعا له ، ولقومه ، وأن يقيم امبراطورية عربية، هو سيدها . بعد أن تحقق له النصر على قومه ، وضمهم إلى جناحه .. فهذا النصر الذى أحرزه فى محيط القبائل العربية ، والذى به تم جمع العرب فى أمة واحدة ، قد أغراه — كما زعموا ويزعمون — أن يمد بصره إلى غير العرب ، وأن يتحول بالدين الذى جاء به إلى العرب ، من دين قومى إلى دين عام ، يسوق إليه الناس سوقا بحد السيف، كلما وجد للسيف قوة فى يده ! !

والذى زين هذا القول لقائليه وأغراهم به، هو أنهم ينظرون إلى « محمد » على أنه مصلح اجتماعى ، أو داعية سياسى ، أو محترف حرب ، أو طالب دولة وسلطان ، وأن ما يسميه قرآنا ليس وحيا من عند الله ، بل هو عمل من عمله ، وتدبير من تدبيره ، لحساب غاية أرادها ، وأمر بيته.

وعلى هذا التقدير الخاطىء يضيفون إلى النبى كل ما جاء به القرآن ، وأن محمداً إنما كان ينطق بهذا القرآن حسب تقديره للظروف المحيطة به ، وحسب مقتضيات كل ظرف ودواعيه !

---

(٤) آيه : ٩٤ سورة يونس

فهو يشتد أو يضعف ، ويحارب أو يسالم، ويقطع أو يصل ،حسب الأحوال المتلبسة به ، وحسب مواتاة الظروف له .. ولم يقع فى حساب هؤلاء القوم أن « محمدا » إنما يأتمر بأمر ربه ، ويبلغ مايؤمر به ، ويتحرك حسب مايأمره به الله ، دون أن يملك من الأمر شيئا . . فما هو إلا رسول اختاره الله لرسالة يحملها إلى عباد الله ، ويبلغهم مضمونها ، ويفتح لهم الطريق المستقيم إليها . . «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى»(١) .. « قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله ،ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء..إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »(٢) « قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى (٣) » . . فما كان لمحمد أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً،مما نزل إليه من ربه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ،لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤) .

ولكن القوم يرون « محمداً » مصطنع رسالة ، ومدبر أمر ، ومبيت غاية ، يعمل لحسابه ، ويتحرك بدوافعه وأهوائه !

يقول صاحب« الإنجيل فى القرآن» (٥):

« كان القرآن فى مكة توحيداً كتابيا محضاً ، فأمسى فى المدينة توحيدا

---

(١) آية : ١١ سورة الكهف
(٢) آية : ١٨٨ سورة الأعراف
(٣) آية : ١٥ سورة يونس
(٤) آية : ٤٤ — ٤٧ سورة الحاقة

(٥) « الإنجيل فى القرآن » دراسات فى مجموعة أجزاء ، تناقش الرسالة الإسلامية وموقفها من أهل الكتاب ،ولا يذكر مؤلفها إلا تحت هذا الاسم « الأستاذ الحداد » كما لا تذكر الجهة الصادرة عنها ،ولا السنة التى طبعت فيها ، ويغلب على الظن أنها دراسة لهيئة أو جماعة مسيحية لم تكشف عن حقيقتها .

عربياً على طريقة الحنفاء .. وهذا التوحيد الحنفى فى المدينة ظل كتابيا فى جوهره ، كما كان فى مكة ، ولم يتغير إلا التشريع ، فبينما كان فى مكة ينحو نحو الشريعة الكتابية، أخذ فى المدينة يهمل أحكام التوراة ويتقرب من شرائع قومه ، مع صبغها ودمجها بالتوحيد ، كما كان يفعل الحنفاء ! !

ثم يقول :

« فى سورة النساء ،فى آيتين متتابعتين ،اقتفاء القرآن سنن أهل الكتاب ، ثم العدول عنها .. « يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . . . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » . فالتخفيف عن قومه فى الشرائع والأحكام الكتابية هو سبب الخلاف بين محمد وأهل الكتاب ، وليس الإيمان بالله واليوم الآخر ! » (١)

فمحمد بمقتضى هذا الفهم لاينازع أهل الكتاب معتقدهم فى الإيمان بالله ، وتصورهم للإلـٰه الذى يؤمنون به، وهذا لاشك افتراء سافر على الواقع الذى يجابه الحواس .. فإن الذى بين القرآن وبين أهل الكتاب إنما هو الخلاف على الإيمان بالله ، وإفراده بالألوهية . ولو أن أهل الكتاب استجابوا لما دعاهم إليه القرآن فى هذا الأمر لانحسم النزاع ،ولالتقوا معه على سواء : « يا أهل الكتاب تعالوْ إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم .. ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله »(٢) .. فكيف يقبل مع هذه الدعوة الواضحة الصريحة القول بأن سبب الخلاف بين محمد وأهل الكتاب هو التخفيف عن قومه فى الشرائع والأحكام ، وليس الإيمان بالله واليوم الآخرة . ! ؟

وعن هذا الفهم الخاطىء اتسعت الهوة بين أهل الكتاب وبين النبى . لأنهم ينظرون إليه كإنسان جاء يغير شرائع سماوية شرعها الله . . ولو أنهم نظروا إلى

---

(١) الإنجيل فى القرآن «للأستاذ الحداد» ص ٣٥. (٢) سورة آل عمران آية: ٦٤

« محمد » وإلى دعوته ، نظرة حق وعدل ،لرأوا أكثر من أمر ، يعدل بهم عن هذا الطريق الجائر المضلل !

فأولا : لو كان أمر الدعوة الإسلامية إلى « محمد » أو إلى أى بشر لما سلك بهاهذا المسلك ، ولما سار بها على هذا النهج الذى سارت فيه ، ولكان لها مذاهب وطرق أخرى تسير فيها ، حيث تبدو أقرب إلى منطق العقل ، وإلى دواعى الواقع !

لو كان أمر الدعوة الإسلامية إلى محمد ، لجاء إلى قومه من أول الأمر بدين عربى خالص ، يأخذ شريعته من عادات الأمة العربية وتقاليدها ، دون أن يلجأ إلى أهل الكتاب،يزكى شريعتهم ، ويفرق بينهم وبين قومه المشركين..الأمر الذى يباعد بينه وبين قومه ،بمايثيرفيهم من دواعى العصبية ،ونوازع الغيرة والحمية ،إذ كانوا يرون أنهم سادة الجزيرة العربية ، وليس لأهل الكتاب فى محيطهم شأن ، ولا لوجودهم حساب عندهم !

وثانيا : لوكانت الدعوة الإسلامية من عمل «محمد »وتدبيره ،أكان يلقى قومه من أول دعوته بهذا الموقف الحاد ، الذى جعل شقة الخلاف بينه وبينهم على هذا الوضع، الذى ثارت به ثائرة قريش ، والذى استقبل به المسلمون فى ضعفهم وقلة عددهم ما استقبلوا من بلاء واضطهاد ، حتى أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وفارقوا أهليهم وأوطانهم ،فراراً بدينهم ، وطلبا للنجاة من الهلاك المحيط بهم ؟ أكان من الحكمة والتدبير أن تدخل الدعوة الإسلامية على قريش من هذا المدخل الذى تواجه فيه باطلهم مواجهة صريحة متحدية ، فاضحة لهذا الباطل ، مسفهة لتلك العقول ، التى تقيم وجودها عليه ، وتغتذى منه — ثم تعود هذه الدعوة بعد أن تدمغ الباطل وتهزمه هزيمة منكرة فاضحة — تعود إلى مهادنته وملاطفته ، وتلتقى بهؤلاء المبطلين بعد أن تخلوا عن باطلهم فتردَّهم إليه ، وتقيم لهم شريعة منه ؟ أذلك مما يقبله عقل ، ويسوغه منطق ؟ وإذن ففيم كان هذا الصراع المرير بين النبى وقومه ؟ ولماذا كان هذا

الإصرار الراسخ منه على موقفه منهم ، ومن معبوداتهم وعاداتهم ، حتى تقطعت بينه وبينهم الأرحام ، وتمزق الشمل !؟

ولكن « محمداً » فى هذا الأمر ليس إلا رسولا يبلغ ما أنزل إليه ، ويتبع ما أُمر به ، ويسير بالدعوة على المنهج الذى وضعته السماء لها وأجرتها فيه . . فكان أن تخيرت الدعوة لجولتها الأولى ،ميدان الإلحاد والشرك ، إذ كان مصاب الإنسانية هنا أفدح وأقتل .. أما أهل الكتاب ، فهم — على مابهم — أصح عقيدة ، وأسلم شريعة ، وسوف يلتقى بهم الإسلام ، ويمد يده إليهم ،بعد أن يفرغ من انتشال هذه السفينة الغارقة واستنقاذ ما يمكن استنقاذه منها . . هكذا كان تقدير العزيز الحكيم، وهكذا كان تدبير رب العالمين .

وثالثا : لو كانت الدعوة الإسلاميه من عمل محمد ، ولحسابه ، لكان له من تلك الانتصارات التى حققتها الدعوة ، والتى وضعت الجزيرة العربية كلها بين يديه ، ومكنت له من كل شىء فيها ـ لكان له من ذلك عائدة تعود عليه ، شأن كل مغامر أو فاتح أو زعيم، ولكان له من ذلك السلطان المتمكن فى مظاهره المادية كلها ، فيعيش عيش الملوك والقياصرة ، يحف به النعيم ، وتحتشد له الحشم والخدم .. ولكن « محمدا » عاش إلى آخر أيامه فى هذه الدنيا عيش الكفاف.. فما شبع من طعام قط، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى !

أفهذا العزوف عن الدنيا ، وذلك التعفف عن الجاه والسلطان فيها يكون من إنسان قام بدعوة لحسابه ، وبذل لها أعز ماعنده ، وأغلى مايملك ، وضحى فى سبيل ذلك بالأحبه والأعزاء من أهله ؟ أذلك يكون إلا إذا وقع لحساب المبدأ والعقيدة ، وفى سبيل الحق الذى قامت عليه السموات والأرض ؟ إن ذلك هو سبيل الأنبياء والراشدين من دعاة الإصلاح وأنصار المثل العليا !

ولن يستكثر على محمد — كما تشهد سيرته ، وكما سجل التاريخ — أن يكون في مقدمة هذا الركب الكريم من أنبياء الله ورسله الكرام !

القرآن وموقفه من التوارة والإنجيل :

أما موقف القرآن فيما دخل على التوراة والإنجيل من تبديل وتحريف فهو موقف واضح صريح ، وخاصة فيما يختص بالتوراة التى هى كتاب العقيدة والشريعة عند اليهود ، كما أنها كتاب الشريعة لأتباع المسيح ، حسب ماقرر المسيح نفسه ، إذ يقول لأتباعه : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه، ولكن حسب أعمالهم لاتعملوا ، لأنهم يقولون، ولا يفعلون به!»

والقرآن يدين الفريقين ويحملها أوزار ماوقع فى التوراة والإنجيل من تغيير وتبديل ، كما يحمل الأجيال المتعاقبة منهما وزر متابعة أسلافهم وإقرارهم هذا التحريف والتبديل، وقبوله ،دون الاحتكام إلى عقولهم فيما بين أيديهم من نصوص محرفة ، وصم آذانهم عما دعاهم إليه القرآن من هدى ، ومالفتهم فيه إلى ما زيف عليهم الأحبار والرهبان: « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا .. وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولانشرك به شيئا ،ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله.فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٢)

وليس فيما بين أصحاب المذاهب المختلفة والعقائد المتباعدة دعوة أعدل ، ولاأحكم ولا أرفق من دعوة الإسلام هذه إلى الله .. دعوة مجردة عن التعصب للرأى ، مبرأة من الأثرة وحب الذات ، خالصة من كل نزعة إلى تسلط أو سلطان . . إنها دعوة مطلقة من كل قيد . قائمة على الإنصاف ، آخذة بمقود كل من يريد الحق ، ويؤثر العقل على الهوى !

هذا، وسيظل موقف القرآن كما هو من التوراة والإنجيل، على اعتبار أنهما كتابان

---

(١) متى ٢٣ : ٢

(٢) آية ٦٤ سورة آل عمران

سماويان يجب على المسلم أن يؤمن بهما . وبكل كتاب سماوى.. إيمانا مجملا . . هذا الإيمان الذى لايكون بموقع اليقين والاطمئنان ،حتى يثبت أن الكتاب الذى يُدْعى إلى الإيمان به ،قد سلم من كل تحريف وتبديل .. «ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم . . . (١) » .. ومن تمام إقامة التوراة والإنجيل ، العودةُ بهما إلى أصولهما الأولى، كما أنزلهما الله ،ورفع مادخل عليهما من تحريف وتبديل .. إن كان ذلك ممكنا .فإلا يكن ممكنا ـ وهو الأرجح ـ فلاأقل من الاعتدال والقصد فى تأويل النصوص القائمة ، وأخذ مدلولاتها من قريب ، دون التعسف والشطط فى تخريجها وتمزيقها ، وخلط ما فيها من حق بما فى نفوسهم من باطل وهوى . « يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون» (٢)

القرآن وموقفه من موسى وعيسى :

وإذا كان هذا هو موقف القرآن من التوراة والإنجيل مع أتباعهما — فما موقفه من الرسولين الكريمين ـ موسى وعيسى — صاحبى هذين الكتابين ؟

الأمر مختلف !

فمن جهة «موسى »لم يذكر القرآن شيئاً فيما يتصل بشخصيته ، وماورد فى التوراة عنها ، حيث لم تخرج به التوراة عن سنن الأنبياء من قبله ، ولا عن كونه عبداً من عباد الله ، الذين اختارهم لحمل رسالته إلى عِباده .. وهذه النظرة هى نفس نظرة الإسلام إلى أنبياء الله ورسله جميعا ،فهم بعض عباد الله ،اصطفاهم لرسالاته ، واختارهم لهداية عباده ، ودعونهم إليه .

أما « عيسى » عليه السلام ،فقد بلغ به أتباعه مبلغ الألوهية ، وقالوا فيه وفى أمه

---

(١) آية :٦٨ سورة المائدة

(٢) آية :٧١ سورة آل عمران

مقولات جعلتهما إلـٰهين مع الله ، فكان الآلهة ثلاثة: الأب ، والابن وروح القدس.

وقد دفع القرآن هذه المقولات دفعا عنيفا ، وفضح الذين يعتقدون هذا المعتقد فى المسيح وأمه، بمنطق واضح ، وحجة بالغة ، لايستطيع عاقل أن يمارى فيها ، أو يفلت من بين يديها .

غاية هذا البحث :

وهذا البحث إنما هو عرض لمقولات القرآن الكريم فى المسيح عليه السلام ، وفى تصحيح ما ألبس على الناس من أمره ،فيما جاء فى الإنجيل ،وما حمل على التوراة من مقولات فيه .

وطبعى أننا لا ندعى فى تصدينا لهذا الموقف أننا سنحسم الخلاف فيه ، أو أن نقول كلمة الفصل التى يلتقى عندها المختلفون . . ذلك أن مخلفات الجدل فى هذه القضية لاتكاد تحصر ، وأن حصيد المعارك التى دارت حولها قد بلغ آفاقا تحسر الأبصار عنها ، ولايزال هذا الحصاد يزداد يوما بعد يوم ، وهيهات أن يقف عند حد !

وقد يبدو غريبا أننا ونحن نبغى بهذا البحث تفاهما وتقاربا بين المتدينين بدين الله ، والمؤمنين بكتبه ورسله — أن نفتح جبهة واسعة للخلافات ، بإثارة قضية المسيح، التى هى عقدة العقد ،فيما استحكم من خلاف بين أهل الديانات السماوية الثلاث . !

قد يبدو هذا غريبا . . تقضى الحكمة بالعدول عنه إلى غيره ، مما هو أقرب إلى التقاء وجهات النظر بين هذه الجبهات المختلفة ، فلايثار فى هذا المجال ما كان الخلاف فيه عميق الجذور ،بعيد الأغوار، كقضية المسيح هذه ! .

ولكنا مع هذا لانستطيع أن نتحدث إلى إخواننا المسيحيين فى أمر يجمع بيننا وبينهم فى الدين، دون أن نعرض للأساس الأول الذى يقوم عليه الدين — أى دين — وهو الإلـٰه المعبود ..والصورة التى يتصورها عليه عابدوه !

فلابد إذن من أن يكون بيننا وبينهم فهم مشترك للإلـٰه الذى نعبده ، ونقيم

وجوهنا إليه ، ثم لا بأس من أن نختلف كثيرا أو قليلا ، فيما وراء العقيدة فى ذات الله، وفى تصور هذه الذات .

وإذن فالحديث عن المسيح أمر ضرورى ، إذ كانت تنعقد حول شخصيته الكريمة سحب كثيرة ، تعمّى السبل على الناظرين فى المسيحية من المسلمين . . الأمر الذى لا يكون معه لقاء ، إلا إذا انكشفت الرؤية ، ووضحت معالم الطريق!

هذا ، وهناك أمر جَدّ فى هذه الآونة ، يستحثنا لعرض هذه القضية — قضية المسيح — ويهتف بنا أن نعجل بعرضها من وجهة نظر الإسلام ، لنواجه بهذا العرض ما قرره المجمع المقدس المنعقد فى « روما » خريف هذا العام « ١٩٦٤ » م من تبرئة اليهود .. من دم المسيح!!

ذلك أن الذى دار فى هذا المجلس ، من مناقشات حول صلب المسيح ، وما أدين به اليهود فى هذا الأمر ، وما انتهى إليه رأى المجمع المقدس من قرارات تبرىء اليهود مما أدانهم التاريخ المسيحى ، والتاريخ العام به — هذا يجعلنا طرفا ثالثا من أطراف هذه القضية ، إذ كانت من صميم العقيدة الإسلامية ، وإن كان الإسلام يَدين فيها بغير ما دان به هؤلاء وهؤلاء فى موضوع الصلب . . فكان لا بد — والأمر كذلك — من أن يُسمع صوت الإسلام هنا ، وأن يذكر الناسون، وينبّه الغافلون ، ويستبصر المستبصرون ، فالتذكر بمواقع الحق ، والتنبيه إلى مواطن الهدى ، أمر من أمر الإسلام ، وشريعة من شريعته ، فالله سبحانه وتعالى يقول : «فذكِّرْ إن نفعت الذكرى » والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: من رأى منكم منكرا فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطيع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» !

ونحن — المسلمين — نرى منكرا يدسه اليهود على المسيحيين ، بأساليب يحسن اليهود اصطناعها ، وحبكها، فيما أرادوا المجمع المقدس له ، وحملوه عليه ، ليكتب لهم

وثيقة تبرئهم من أمر، هو من عقيدة المسيحيين فى الصميم . . إذ قامت المسيحية من من أول يومها على أن اليهود هم الذين ساقوا المسيح إلى الصلب . وقد سجلته الأناجيل التى بين أيديهم فى ملحمة تثير الشجن والأسى ، وتبعث الحنق والمقت لأولئك الذين فعلوا هذه الفَعلة النكراء ، التى لم تشهد الإنسانية مأساة مثلها . .

ففى الأناجيل تصوير دقيق مفصل لكل حركة ، أو همسة ، أو خلجة لهذه المأساة ، إذ لم يترك كاتبو الأناجيل أية خطوة من خطوات المسيح ، وهو يساق إلى ساحة الصلب — حسب معتقدهم — إلا سجّلوها ، وسجلوا ماتلبس بها ، من دقيق وجليل . . !

ثم إن الصلب — من جهة أخرى — هو المسيحية بكل مافيها من عقيدة وشريعة، ولو أن هذا الصلب لم يقع — كما تصوروه — لما كان للمسيحية مكان بين الديانات!

وقد عاش المسيحيون خلال هذه القرون الطويلة يتعبدون للسيد المسيح ، ويتقربون إليه ، باللعنات يصبّونها على اليهود صباح مساء ، وفيما بين كل صباح ومساء ! فكيف يتحول المسيحيون اليوم عن هذه العقيدة ؟ وهل جاء المسيح بوحى جديد يدخل على الأناجيل وينسخ مافيها ، ويبدل ماتقول؟ وكيف يفسر المسيحيون موقفهم من اليهود خلال هذه القرون العشرين ؟ ومن يحمل تلك الأوزار التى اقترفوها فى حق اليهود قرابة ألفى عام ؟ وإذا برىء اليهود من دم المسيح فإنه لابد أن يدان المسيحيون بتلك الدماء التى أريقت من اليهود ، خلال هذه القرون، بفعل أتباع المسيح، انتقاماً له ، وشفاء لما فى صدورهم ، ممن صلبوا إلٰههم ومثّلوا به ! !

إننا لانغرى بهذا الحديث أحدا على أحد ، ولانريد أن نستعدى به المسيحيين على اليهود . وإنما نريد مخلصين أولا وقبل كل شىء أن تظل صلة إخواننا المسيحيين بكتابهم قائمة ، وألا تنقطع بينهم وبينه هذه الخيوط الواهية ، التى لاتزال عالقة بالقلة

القليلة منهم، بعد أن وهت أو انقطعت العلاقة بين الإنجيل وبين غالبيّتهم. حين نظر كثير منهم بعين العلم إلى مايقدّم إليهم من مقولات العقيدة ، فنظروا إليها بفتور . واستقبلوها بالشك ، ثم الجفاء والقطيعة !

ونحن حريصون أشد الحرص على أن تنكسر موجات الإلحاد والزيغ الزاحفة على المسيحية اليوم . إذ أن من مصلحة الإسلام والسلام معاً أن تقوى جبهة الأديان، وأن يتكاثر أعداد المتدينين ، وأن تتجمع جموعهم ليكونوا جبهة واحدة فى وجه الإلحاد ، الذى يغزو العالم كله ، والذى إن قدر له أن يكسب المعركة ، استحوز على كل مافى كيان الإنسانية من خير واطمئنان وسلام . حيث ينزع كل مافى القلوب من مودة ورحمة ،ويذهب بكل مابين الناس من حب وإخاء . ويومها تعود الإنسانية كلها إلى شريعة الغاب ، ويتحول الناس إلى حيوانات ضارية يأكل بعضها بعضا . ويومها تواتى اليهود الفرصة التى طال انتظارهم لها ، ويتحقق لهم الحلم الأثيم الذى يحلمون به .. من التسلط على العالم وامتلاك ناصيته !

إن ذلك الكيد الذى يكيد به اليهود للمسيحية اليوم ، بحمل مجمعها المقدس على إدخال تأويلات جديدة على الأناجيل ، وقسر نصوصها على معطيات تأباها كل الإباء — إن ذلك الكيد هو جانب من مخطط يهودى، لإجلاء الأديان عن هذه الأرض ، دينا بعد دين . حتى يخلو لهم وجه الحياة ، وتتندد كل قوة تقف لأطماعهم . وحينئذ يسوقون القطيع الإنسانى إلى الغايات التى يريدونها ، ويعملون لها ، منذ كان لهم مجتمع بين الناس !!

ولايحسبَنّ أحد أن هذا الفهم لحملة اليهود التى تواجه المسيحية اليوم ، فيه شىء من المبالغة والإسراف ، فى تقدير النتائج المترتبه عليه ، بل إن العكس هو الصحيح . حيث أنى — كما يبدو لى — أجد أى خيال مهما جمح وأى تصور مهما بولغ فيه، فى تقدير الأخطار الناجمة عن هذه الحملة ـ هو دون ماسينجم عنها .. وستكشف الأيام

عن قريب عما يصيب المسيحية من تصدع ، وانقسام ، وانهيار ، إن هى قبلت هذا الأمر الذى يريدها عليه اليهود . ويبذلون له كل مايملكون من حول وحيلة !

وسنرى فى ثنايا هذا البحث قضية « الصلب » ، وكيف أنه كان الأساس الذى قام عليه بناء المسيحية ومفهومها . ويوم يتغير هذا الوجه الذى أقامت عليه المسيحية عقيدتها فى صلب المسيح وصالبيه ـ يومها ينهار بناء المسيحية كله من أساسه ، ويتلفت أتباع المسيح فلا يجدون فى أيديهم شيئا يمسكون به من دينهم . . وهذا مانشفق أشد الإشفاق منه . ونحاذر أن يقع من وراء هذا التدبير الماكر ، الذى يبيته اليهود . . للدين ، وللمتدينين !

● ● ●

الباب الأول

مصادر القضية

تقييم المصادر :

التوراة ،والإنجيل ، والقرآن، هى الكتب الثلاثة التى نعتمد عليها فى هذه القضية — قضية المسيح — إذ كانت ثلاثتها كتبا سماوية ، يعرف لها أتباعها قدرها، ويحلونها منهم محل التقديس والتعبد !

وإذ كان الأمر كذلك، فقد كان ينبغى أن تلتقى هذه الكتب الثلاثة على طريق سواء، فى مبادىء الدين العامة ، وأن تتعارف ، ولا تتناكر ، لتقيم على الأرض دين الله . . ودين الله واحد لا اختلاف فيه !

فإذا وقع بين مقولات هذه الكتب تناقض ، أو تضارب فى حقيقة من حقائق الدين، كان معنى ذلك أن شيئا ما ،دخل عليها ، وأن تغييرات وتحريفات ما وقعت فيها . .فى هذا الكتاب أو ذاك!

ولقد وقع الاختلاف فعلا فى مقولات كثيرة، بين أصحاب الديانات الثلاث ، القائمة على الكتب الثلاثة . . وكان لابد أن يقع ما يترتب على هذا الخلاف من آثار ، وهو أن يدّعى أصحاب كل كتاب أن كتابهم هو الصحيح السليم ، وأن غيره هو المحرف ، أو المبدل فيه ، والمفترى عليه ! . . ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى تباعد — يضيق حينا ، ويتسع أحيانا — بين أصحاب هذه الكتب . . فى الروابط النفسية ، والروحية والعقلية . . تلك الروابط التى كان من شأن الدين أن يوثقها ، ويُحكم عَقْدها !

ولعل أوضح مثل وأبرزه لهذا الخلاف بين الكتب الثلاثة . وبالتالى بين أتباعها — هو الخلاف الذى وقع فى شأن المسيح عليه السلام !

فاليهود يقولون فيه أقوالا سيئة منكرة !

والمسيحيون يقولون فيه أقوالا تقيمه إلـٰهاً مع الله ، أو مقام الله رب العالمين ذاته!

والإسلام يقول فيه غير ما يقول هؤلاء وأولئك !

وإن الجمع بين هذه المقولات المختلفة أمر مستحيل وقوعه . . إذ كان كل منها يذهب مذهبا ، بحيث لا يلتقى بوجه صاحبه أبدا .

فالاجتماع هنا — فى أمر المسيح — على مقولة يرتضيها أصحاب الديانات الثلاث أمل غير مطموع فى تحقيقه ، إلا أن يسترخص الإنسان عقله ، أو يهدر منطقه!

وإنما الذى يمكن أن يتحقق ، هو ترديد النظر فى هذه المقولات ، واحدا واحداً ، بعد الاستيثاق من سلامة النصوص ، التى تُحدث عنها ، وتشهد لها .. ثم اختيار أقرب هذه المقولات إلى العقل . وأدناها إلى الحق ، الذى يطمئن إليه القلب ، ويجيزه العقل!

وإنه لن يأمن الإنسان طريقه هنا ، ولن يبلغ الغاية التى يريد ، حتى يقف فى منطقة حيادية ، ويتجرد — على قدر ما يستطيع — من مؤثرات عقيدته ، وأن يأخذ القضية على أنها مسألة علمية ، يريد تحقيقهـا . فيجرى عليها أساليب البحث العلمى ، ويأخذهـا بوسائله ، ثم يتقبل راضيا مطمئنا ما يقع ليده من ثمار هذا البحث !

وإنه لتنزع بنا الرغبة ، ويحدونا الأمل فى أن نتجرد فى هذا البحث من العاطفة الدينية ، بالقدر الذى يسعف به الحال ، ويسعه الجهد ، فى صرف النوازع الذاتية ، والعواطف الشخصية . إذ المعتقد الدينى ذو سلطان متمكن من النفوس . متسلط على المشاعر ، مستول على الكيان الإنسانى كله . .

ومع هذا . فإننا سنحاول أن نقيم أنفسنا على ميزان العدل والإنصاف ، وإنه « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ! « وإنما الأعمال بالنيات » !

وهذا المقطع من البحث إنما يراد به تقييم المراجع الثلاثة : التوراة ، والإنجيل والقرآن . . قبل أن نتلقى عنها مقولاتها فى أمر المسيح . . إذ هى التى سنأخذ بشهادتها فى هذه القضية . ومن حقنا أن ننظر فى الشاهد قبل أن يدلى بشهادته . فنعرف إن كان عدلا ، أو مُجَرَّحا ، أو مستور الحال . . وبهذا الحساب يكون لنا ن نقبل شهادته أو نردها .

وطبيعى أننا لسنا بصدد دراسة « أكاديمية » لتحقيق هذه الكتب ، وإلا اقتضانا الأمر أن نقف الجهد كله على كتاب واحد منها ،أو ناحية واحدةمن نواحى هذا الكتاب ، أو ذاك !

وإنما يكفينا هنا نظرةرائدة ، نتفرس فيها وجوه هذه الكتب ، فيقع لنا من تلك النظرة مايقع لمن ينظرفى وجهٍ برىء ، وآخر متهم،ووجه محق وآخر مبطل!فإنه بنظرة واحدة تستبين الأمارات الدالة على هذا أو ذاك . « ومايستوى البحرانُ : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . . » « قل..هل يستوى الأعمى والبصير.. أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ » . . وها نحن أولاء على أول الطريق . . فى مواجهة أول هذه الكتب الثلاثة . وهو التوراة !

أولاً: التوراة

تنزيلاً وتدويناً

معناها :

التوراة كلمة عبرية ، أصلها « تورة » ومعناها الهدى والرشاد !

ويطلق عليها فى اللغة اليونانية « بنتاتوش » ومعناها الملفات الخمسة (١)

ويقصد بالملفات الخمسة الأسفار الخمسة من العهد القديم . وهى سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر التثنية .

وليست التوراة بوضعها الذى انتهت إليه محصورة فى هذه الأسفار الخمسة ، التى حددتها كلمة « بنتاتوش » ، بل أُلحق بالتوراة عدد من الأسفار يزيد كثيرا عن هذا الأصل ، وأصبحت هذه الملحقات جزءا مكملا للعهد القديم ، يدين به اليهود والمسيحيون جميعاً . .

وتقع هذه الملحقات فى أربعة وثلاثين سفرا ، وهى :

يشوع ، والقضاة ، وراعوث ، وصموئيل الأول ، وصموئيل الثانى ، والملوك الأول . والملوك الثانى . وأخبار الأيام الأول ، وأخبار الأيام الثانى، وعزرا ، ونحميا ، واستير ، وأيوب، والمزامير ، والأمثال ،والجامعة ،وتشيد الإنشاد . وإشعياء ،وأرمياء، ومراثى أرمياء ، وحزقيال . ودانيال . وهوشع ، ويوئيل ، وعاموس، وعوبدياً ، ويونان ،وميخا ، وناحوم . وحبقوق ، وصفتيا . وحجى . وزكريا ، وملاخى .

هذا إلى أسفار أخرى يذكر المؤرخون أنها كانت ثم ضاعت ، أو أخفيت . أو أبطلت . !

« ومما فُقِد وضيع من هذه الكتب : كتاب «سفر حروب الرب » الذى جاء

الحضارة ـــ الجزء الثانى ، من المجلد الأول : ص ٣١٧ (هامش)

ذكره فى العدد الرابع عشر من الإصحاح الحادى والعشرين من سفر العدد . . قال « هنرى واسكات » فى تفسيره : « الغالب أن موسى كتب هذا السفر لتعليم يوشع. وكان فيه بيان حدود أرض مواب »

« والثانى : « سفرياشر » الذى جاء ذكره فى العدد الثالث عشر من الإصحاح العاشر ،من كتاب « يوشع »

« والثالث والرابع : سفر أخبار ناثان النبى ، وسفر أخبار النبى « حاد » الرأى الغيب ،اللذين جاء ذكرهما فى العـدد الثلاثين من الإصحاح التـاسع والعشرين من سفر « أخبار الأيام الأول » ..

« الخامس والسادس : كتاب شمعيا . وكتاب عدوّ الرأى الغيب ، اللذين جاء ذكرهما فى العدد الخامس عشر من الإصحاح الثانى عشر من سفر « أخبار الأيام الثانى ... »(١)

وهذه الأسفار الخمسة(التوراة)لايدرى أحد على التحديد كيف كتبت . ولامتى أو أين كتبت!ويسأل« ول ديورانت » هذا السؤال. ثم يجيب عليه بقوله : « سؤال برىء لا ضير منه، ولـكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد . . ! » ثم يستطرد قائلا :« ويجب أن نفرغ منه هنا فى فقرة واحدة، نتركه بعدها من غير جواب ! ! »

ويحدثنا «ول ديوارنت» فى هذه الفقرة حديثا يزيد الأمر غموضاً ، ويضيف إلى عقدها عقدة جديدة . . يقول : إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان ، المنتصلة كلتاها عن الأخرى فى سفر التـكوين . . تتحدث إحداهما عن الخالق باسم « يهوه » ، على حين تتحدث عنه الأخرى باسم « إلوهيم »، ويعتقد هؤلاء العلماءأن القصص الخاصة بيهوه كتبت فى « يهوذا » ،وأن

---

(١) كتاب السيف الصقيل ص ٦٥

القصص الخاصة بألوهيم كتبت فى « أفرايم » ، وأن هذه وتلك قد امتزجتا فى قصة واحدة بعد سقوط السامرة . . وفى هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية ؛ وأكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتّاب الأسفار سالفة الذكر .. وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد !! والرأى الغالب أن هذه الفصول تكوّن الجزء الأكبر من « سفر الشريعة » الذى أذاعه « عزرا [١] » . ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى ٣٠٠ ق . م .

ثم يقول :

« وكانت أساطير الجزيرة – يقصد ما بين دجلة والفرات – هى المعين الغزير الذى أُخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان ، التى يرجع عهدها فى تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد . .

ويجىء «ول ديورانت» بشاهد على ما بين مقولات التوراة وبين المعتقدات التى كانت شائعة قبلها فى المناطق المجاورة للبلاد ، ويرى فى ذلك دليلا على أن التوراة قد اندست فيها عناصر غريبة أدخلها اليهود عليها ، مما وقع فى تصوراتهم ، من مخالطة الأمم ، أثناء اضطرابهم فى موكب الحياة ، وتقلبهم بين الأسر والتشتيت .. وهذا الشاهد كما يسوقه الكاتب هو :

---

(١) قصة الحضارة – الجزء الثانى من المجلد الأول ص ٣٦٦

(١) يتحدث التاريخ اليهودى عن عزرا هذا – وهو كاهن عالم – أنه دعا الكهنة والعلماء إلى اجتماع خطير وذلك فى سنة ٤٤٤ ق . م . وشرع يقرأ عليهم « سفر شريعة موسى » وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون على الشعب ما تحويه ملفات هذا السفر ولما فرغوا من قراءتها أقسم الزعماء والشعب أن يطيعوا هذه الشرائع ، ويتخذوها دستورا لهم يعتقونه ، ومبادىء خلقية يسيرون عليها (قصة الحضارة – الجزء الثانى من المجلد الأول ص ٣٦٦)

« تقول القصص الفارسية ، وقصص التلمود الخاصة بالخلق : إن الله خلق فى البدء إنسانا مكونا من ذكر وأنثى ،متصلين من الخلف ، كالتوأمين الساميين !

« ثم رأى بعد ذلك أن يفصل أحدهما عن الآخر . . !

« وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة غريبة وردت فى سفر التكوين ـ الآية الثانية من الإصحاح الخامس ـ « يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ، ذكرا وأنثى خلقه ،وباركه ، ودعا اسمه آدم »

ويعلق «ول ديورانت »على هذا النص بقوله:« ومعنى هذا أن أبانا الأول كان ذكراً وأنثى معاً .. ويبدو أن أحداً من رجال الدين ـ إذا استثنينا «أرسطو فاينز »ـ لم يفطن إلى هذه العبارة » (١).

والواقع أن الذى ينظر فى أسفار التوراة الخمسة ، والأسفار الأربعة والثلاثين الملحقة بها من مقولات الأنبياء ورؤاهم ـ يجد أنه أمام صور كثيرة مهزوزة ، لا يمكن أن يقبلها العقل ، كدعوة من دعوات السماء للهداية إلى الإيمان بالله . .فهناك مواقف كثيرة يبدو فيها الإله أشبه بالإنسان ،فى أحوال ضعفه وقوته ، وفى ضلاله ورشده، وفى حلمه وجهله . . حتى لكأن الإله قد اتخذ له خيمة مع اليهود وعاش بينهم . . ولهذا أمثلة كثيرة ،قلَّ أن تخلو منها صفحة من صفحات العهد القديم .

ولا بأس من أن نعرض بعض الشواهد . . وندع لمن يريد المزيد منها أن ينظر فى التوراة ، ليرى فى كل صفحة شاهدا أو أكثر من شاهد لهذا .

١ — « وقال الرب لموسى : اذهب انزل . . لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر . . زاغوا سريعاً عن الطريق الذى أوصيتهم به .. صنعوا لهم عجلا

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٨

مسبوكا ، وسجدوا له ، وذبحوا له ، وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر .. وقال الرب لموسى : رأيتُ هذا الشعب ، وإذ هو شعب صُلب الرّقبة ، فالآن اتركني ليحمَى غضبي عليهم وأفنيهم فأصيّرك شعبا عظيما ! فتضرع موسى أمام الرب إلهه ، وقال : لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من مصر بقوة عظيمة ، ويد شديدة ؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم « بخبث » - سبحانك هذا بهتان عظيم - ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض !! ارْجعْ عن حمو غضبك ، واندمْ على الشر بشعبك ! . فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه ! »(خروج : ٣٢)

ولا نقول : إن هذا الموقف بين موسى وربه لم يحدث ، ولكن نقله على تلك الصورة الجافية ، البعيدة عما ينبغى أن يكون لله من تقديس وإجلال ، هو الذى يلقى ظلالا كثيفة من الشكوك والرّيب حول نصوص التوراة ، وهذا الموقف بالذات قد ذكره القرآن الكريم ذكراً يليق بعظمة الله وجلاله ، ويفرِّق تفرقة واضحة بين الخالق والمخلوق .. يقول الله تعالى : « ولما سكتَ عن موسى الغضبُ أخذ الألواح ، وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يَرْهبون ، واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال :رب لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا ، وارحمنا ، وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هُدنا إليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون والذين هم بآياتنا يؤمنون »(١) .

٢ — ومن المقولات التى تنسبها التوراة إلى بعض الأنبياء ما لا يليق أن يصدر من نبى كريم فى مقام الإله العظيم .. من ذلك ما تقوله التوراة عن إيليا « إلياس »: وصرخ

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٥

إلى الرب قائلا : أيها الرب إلٰهى : أأيضاً إلى المرأة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟ » الملوك الأول ١٧ :

إن التوراة ــ على فرض صحتها صحة مطلقة ــ قد ترجمت ترجمات رديئة حملت معها مشاعر القوم يوم كانوا على تلك الحال من الغلظة والبداوة والجفاء !. وقد ظلت هــذه المشاعر متلبسة بتلك الترجمات ، تنتقل من لغــة إلى لغــة ومن جيل إلى جيل، فتزداد مع التنقل بعداً عن الواقع وابتعادا عن الحق الذى نزلت به ، وهذا مايجعلنا نستقبل كثيرا من المواقف التى تعرضها ، بشىء غير قليل من الانفصال عن مشاعر الجلال ، ونحن بين يدى كتاب مقدس طهور !

وسوء هــذه الترجمة ورداءتهــا قد سمحت لــكثير من الــكهان الذين اشتغلوا بجمع التوراة أن يدسوا فيها مايعنّ لهم من مقولات يرونها مؤدية ــ حسب تقديرهم ــ إلى إصلاح الشعب ،والإمساك به فى العواصف الهوجاء ،التى كانت تهب عليه من كل مكان ،وتلقاه فى كل وجه من وجوه الأرض ، حيث حل أو ارتحل !

وإذا كان عهد البداوة والجهل قد سمح لمثل هذه المقولات أن تندس فى التوراة، فهل يعقل أن تظل هذه المقولات بمافيها من غباء وجهل بمكانها منها ،ثم لاتثير فى النفس مثارات كثيرة للشك والارتياب فى الــكتاب المقدس كله ! ؟

٣ ــ يقول الرب لموسى وقد بعثه إلى فرعون ليستنقذ بنى إسرائيل : « ولــكنى أعلم أن ملك مصر لايدعكم تمضون ولا بيد قوية ، فأمد يدى وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيهــا ، وبعد ذلك يطلقــكم ، وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين ، فيــكون حينما تمضون أنتم ،لاتمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتهــا ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب ، وثيابا ، وتضعونهــا على بنيكم وبناتكم لتسلبوا المصريين » !(١)

(١) سفر الخروج : ٣

أرأيت كيف يصور هـذا الموقف ، وكيف يدخل الرب مع اليهود فى مؤامرة سلب وسرقة وخيانة أمانة ؟ أهذا يليق بالإلـه الخالق الذى يبعث رسله لهداية الناس ولإقامة الحق والعدل بينهم ؟ ولـكن هذا كله يصبح سائغـاً لبنى إسرائيل ، مقبولا عندهم فى شأن الإلـه ،لأنه ليس ربَّ العالمين، وإنما هو إلـههم وحدهم من دون الناس.. إنه إلـه إسرائيل .. ورب الجنود !

ولقد نفّـذ بنو إسرائيل هذه الوَصاة ، وأمضوا تلك المؤامرة ،فسلبوا المصريين ما أعاروهم إياه ، من فضة وذهب وثياب ! « وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى.. طلبوا من المصريين أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب وثيابا ، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم . . فسـلبوا المصريين ! » (١) وكان ذلك السلب ـ كما تقول التوراة ـ بوحى من الله وتدبيره وتحت رعايته . . تعـالى الله عما يقولون علوا كبيرا ! !

وأغرب من هذا أن تتحـدث التوراة عن هرون عليـه السـلام ـ وهو النبى الـكريم ـ بأنه قد صنع لبنى إسرائيل عجلا جسداً من ذهب على أنه الإلـه المعبود .! فقد جاء فى سفر الخروج « الإصحاح ٣٢ » : « ولما رأى الشعب أن موسى أبطـأ فى النزول من الجبل ،اجتمع الشعب على هرون، وقالوا له قم ! اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى ،الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ؟ فقال لهم هرون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائـكم وبنيكم وبناتـكم وأتونى بهـا ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالأزميل ،وصنعه عجلا مسبوكا ، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من مصر ..! »

(١) سفر الخروج : ١٢

أيعقل هذا الفعل المنكر من نبيّ أرسله الله لإنقاذ الناس من الضلال ودعوتهم إلى عبادة الله ؟ فماذا يبقى للضلال والمفسدين بعد هذا ؟ وأي فرق بين هرون النبي وفرعون الذي قال : أنا ربكم الأعلى ؟! إن ميزان فرعون هنا يرجح ميزان هرون ، لأن فرعون ـ أيا كان ـ خير من العجل المصنوع ! لما فيه من قوة وبطش ، ولما له من سلطان يغري الناس ويفتنهم ! !

والذي فعل هذه الفعلة الشنعاء ـ كما يقول القرآن الكريم ـ هو إنسان آخر غير هرون ، دعاه القرآن « السامري » ! وأن هرون قد غُلب على أمره في دفع هذه الفتنة التي أشعلها السامري بين اليهود (١) .

ولا ندري لماذا حرص الذين كان إليهم أمر تدوين الشريعة اليهودية على إضافة هذا العمل إلى هرون ! أذلك لأنهم استكثروا على « السامري » أن يقيم العجل على تلك الصورة التي تخيل إلى الناس منه أنه كائن حي له خوار ، وأن ذلك لا يكون إلا على يد نبي تلقَّى قوته من الله .. ثم ليلقوا تبعة هذه الفتنة آخر الأمر على الله؟.. غير مستبعد هذا .

وأيا كان الأمر ، فإن في التوراة وملحقاتها مداخل كثيرة ، تثير الريب والشكوك في أنها جميعها من عند الله .! إذ ما أكثر ما يختلط فيها الحق بالباطل ، والرأي بالهوى ، والجد بالعبث ! ولو كان كل ما فيها من عند الله لما وقع هذا التباين والاختلاف ، ولجاءت كلها على مستوى واحد ، لا اختلاف فيه بين أوله وآخره ، وهذا ما جاء عليه القرآن الكريم ، وكان حجة من الحجج المفحمة الدالة على وحدة المتنزّل الذي نزل منه .. قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرن . . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » (٢)

---

(١) سورة طه الآيات : ٨٢ — ٩٨

(٢) النساء :٨٢

ولا بأس هنا أن نستعرض بعض آراء النقاد ، ممن نظروا فى هذه القضية ، من علماء الغرب المسيحيين ، الذين تصلهم بالتوراة صلة صاحب الدين بدينه .

فى فصل ممتع تحت عنوان : « أدب التوراة وفلسفتها » كتب « ول ديورانت » تعليقات كثيرة له ولغيره من العلماء ، تكشف عن الشكوك التى تساور القوم من جهة وحدة المصدر ، الذى جاءت منه مقولات التوراة وملحقاتها . .

يقول « ول ديورانت » : « ليس العهد القديم شريعة فحسب . بل هو فوق ذلك تاريخ وشعر وفلسفة ، من الطراز الأول . . وإذا ما أنقصنا من قيمة الكتاب ما فيه من أساطير بدائية ، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم .. إذا ما فعلنا هذا فإنا لا نجد فى الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب ، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل الكتابات . . ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل - كما يعتقد بعض العلماء - فى أثناء السَّبى ، أو بعده بقليل ، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشتت كسير ، ويحتفظون بها على مدى القرون .

« وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده ، بل من وضع طائفة من الشعراء ، كتبوها بعد الأسر اليهودى بزمن طويل . ويغلب أن يكون ذلك فى القرن الثالث قبل المسيح .. إن أجمل ما فيها أنها تصف لحظات من نشوة التُّقى والهيام الروحى ، والإيمان القوى المحرك للعواطف . ولكن يفسدها علينا ما فيها من لعنات مريرة وتأوهات وشكايات مملة ، وقلق لا ينتهى « ليهوه » الذى يصب الدخان صبا من خياشيمه . والنار من فمه .. » « المزمور السابع »

ثم يتحدث « ول ديورانت » عما يشيع فى التوراة من أدب شهوانى مكشوف يفصل القارىء أو المستمع له ، عن كل شعور دينى يبعث على الاستقامة والتقى ،

ويغرقه فى طوفان من الأحاسيس الشهوانية الرخيصة المهيِّجة للجانب الحيوانى فى الإنسان .

يقول : « وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين، فقد تكون مجموعة من الأغانى البابلية الأصل ، تشيد بذكر « اشتار » و« تموز » ! وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين ... ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى ، ولكنه سر ساحر جميل ! ! ولسنا ندرى كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية . فأجازوا وضعها بين أقوال « إشعيا » والخطباء !؟(١) »

وفى التوراة كثير من هذه الصور التى يتحدث عنها الكاتب ، وهى فى وضوح معانيها وكشف دلالة ألفاظها وتعريتها وتجريدها من كل ستار يخفى وراءه إحساسا بالرمز أو الإشارة ، هى فى هذا الوضوح لاتقبل تأويلا ولاتخريجا عمانطقت به ألفاظها من غزل إباحىّ صريح ،لا يُحمل على أى محمل آخر غيره . فلا يمكن أن يقال عنها مثلا : إنها غزل صوفى أو عذرى . وإنما هى غزل ماجن خليع كغزل بن أبى ربيعة أو بشار أو أبى نواس !

و« نشيد الإنشاد » يكاد يكون كله قصيدة غزل من هذا اللون الشهوانى الصريح .

اقرأ هذا النشيد :

«فى الليل على فراشى ..طلبت من تحبه نفسى!

«طلبته .. فما وجدته!

«إنى أقوم وأطوف فى المدينة !..

«فى الأسواق وفى الشوارع!

---

(١) قصة الحضارة، الجزء الثانى من المجلد الأول ص ٣٨٨

أطلب من تحبه نفسى !!

طلبته فما وجدته !

وجدنى الحرس الطائف فى المدينة !

فقلت : أرأيتم من تحبه نفسى ! ؟

فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدت من تحبه نفسى !

فأمسكته ، ولم أرخه ، حتى أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى ! (١) .

* * *

أحلفكن يابنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل .

ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء !!

* * *

ها أنت جميلة ياحبيبتى !

عيناك حمامتان من تحت نقابك !

شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد ! !

أسنانك كقطيع الجزائز الصادرة من الغسل .

اللواتى كل واحدة مُتْئم .. وليس فيهن عقيم !

شفتاك كسلكة من القرمز .

وفمك حلو !

خدك كفلقة رمانة تحت نقابك !

عنقك كبرج داود المبنى للأسلحة ..

ثدياك كخشفتى ظبية توأمين يرعيان بين السوسن ! !

كلك جميل ياحبيبتى !!

---

(١) وهذا البيت هو غزل مكشوف ، إن صاحب النشيد يدخل بمحبوبته إلى حجرة أمه التى ولدته .. تلك الحجرة التى تمارس فيها عملية إنجاب الأولاد

ليس فيك عيبة !(١)»

أفيعقل أن يكون مثل هذا الغزل مما تتنزل به السماء على لسان الأنبياء ، لدعوة الناس إلى الهدى والرشاد ؟ ثم أيعقل أن ينطق نبى كريم بمثل هذا القول ، ويصرح به ، ويشيعه فى الناس ؟ .

وأمر آخر من أمر التوراة يقف عنده الإنسان دهشا عجبا . . ذلك ، هو هذا الإسراف فى تتبع الحياة اليومية للناس ، وفى عرضها معرض التشريع السماوى ، الأمر الذى يقتل فى الإنسان كل إحساس بوجوده وبأهليتـه للنظر والتقدير فى الشئون العارضة ، التى يفعلها الإنسان بغريزته ، قبل أن يفـكر فيها بعقله!

فالتوراة تعرض لـكل شأن من شئون الإنسان .. طعامه وشرابه ونومه .وكيف يأكل وكيف يشرب وكيف ينام .. وذلك فى تفصيل يتناول كل صغيرة وكبيرة مما يدعو إلى السأم والملل ، إزاء حديث لا يكاد يلتفت إليه العقل ، ولا يستقبل من جهته أى شىء جديد عليه ! .

يقول الفيلسوف الفرنسى « رينان » : لقـد صارت تلك الشريعة أضيق رداء شُدّ على جسم الحياة الإنسانية . . فقد جعلت الطعام والدواء والشئون الصحية الفردية وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة والانحراف الجنسى ، والشهوات البهيمية . كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الآلهية !»

إن يكن ذلك عن تدبير سماوى لا عن وحى إلهى — وهو ما لا يقبل إلا مع كثير من الشك والارتياب — فإن معناه أن الإلـٰه عاش مع الجماعة اليهودية عيش مساكنة ومرافقة ، يجدونه مع كل خطوة من خطواتهم ، ومع كل نَفَس من أنفاسهم ، وهذا ماقصد إليه زعماء اليهود وقادتهم من سوق هذا القطيع المعربد بعصا الدين ، وتجميده

(١) نشيد الإنشاد : (الإصحاحان الثالث والرابع) .

داخل هذه القوالب الدينية حتى لايشرد بعيداً عن الجماعه ، وحتى تتأصل له عادات وتقاليد يمكن أن تجمع الجماعة عليها ولا تتبدد شيعا وأحزابا ، والعدو لها بمرصد فى كل مكان !

إن ذلك تدبير سياسى أكثر منه تشريع سماوى !

وأكثر من هذا .. ماتحمله أسفار التوراة من أحاديث وأحداث عن الأنبياء والرسل ، وفيها من الشناعات والحماقات ماجاءت الأديان السماوية لمحاربته ، وتسفيه أهله ، وأخذهم بالوعيد ، وترصدهم بالنذر ، ورميهم بصواعق الهلاك فى الدنيا ، قبل أن يلقوا مصيرهم البئيس من عذاب السعير فى الآخرة!

ولا ندى ماذا كان يريد أصحاب هذه الأخبار التى أدخلوها على أسفار التوراة ، وشوهوا بها وجوه أنبياء ورسله ؟ .

أذلك مما كان يكيد به « اليهود » لأنبيائهم ، وما كانوا يرمونهم به ، وهم يدعونهم إلى الله ، ويفتحون لهم معالم الحق والهدى ؟ . . فلقد مكر اليهود بأنبيائهم أشنع المكر ، وآذوهم أشد الأذى. وفى التوراة مواقف كثيرة مثيرة، لتلك الأحداث التى وقعت بينهم وبين أنبيائهم .. وقد سجل القرآن الكريم بعض هذا العنت ، وهذا الضر ، الذى كان يرمى به أنبياء بنى إسرائيل من قومهم . . فقال تعالى فى شأنهم: « أفكلما جاءكم رسول بمالاتهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون (١) » . . وقال سبحانه ملفتا أبناءهم إلى ما كان من آبائهم : « فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين (٢) »

نقول — : أهذه الشناعات وتلك الحماقات التى حوتها أسفار التوراة منسوبة

---

(١) آية :٨٧ سورة البقرة

(٢) آية : ٩١ سورة البقرة

إلى الأنبياء — أهى من بقايا تلك المقولات التى كان يَلـَقى بها اليهود أنبياءهم : ويرمونهم بها ، ثم رسخت هذه المقولات بينهم ، وتناقلتها أجيالهم حتى إذا بدالهم أن يجمعوا التوراة الضائعة كانت هذه المقولات أبرز وأوضح مايعلمون من أخبار الأنبياء ؟ قد يكون هذا . . !

ولـكن الذى يدعو إلى العجب حقاً أن تظل هذه المقولات مقبولة عقلا ، وعقيدة، وأن يـكون لها احترام وتوقير فى نفوس قوم يؤمنون بالله ، ويعرفون لرسله ماينبغى أن يـكون فيهم وفى سلوكهم من معالم الحق ، والفضل والخير !

وننظر فى التوراة وأسفارها فنرى لأنبياء الله ورسله صورا شائهة ، وسلوكا مضطربا ، وأفعالا مشينة ، يتقزز منها كل ذى مروءة وخلق ! !

ماذا تقول التوراة عن إبراهيم ؟

وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الله وخليل الله كما يقول القرآن : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » (١) ولـكن التوراة تحدث عنه أن محتال كذاب ! !

ففى سفر التـكوين ترد هذه القصة : « وحدث جوع فى الأرض ، فانحدر أبرام « إبراهيم » إلى مصر ، ليتغرب هناك ، لأن الجوع فى الأرض كان شديدا ، ولماقرب أن يدخل مصر قال لساراى امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . . قولى :إنك ، أختى ، ليـكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك!! فلما دخل أبرام إلى مصر رأى المصريون المرأة أنها حسنة جدا ، ورآها رؤساء فرعون،ومدحوها لدى فرعون، فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصُنع إلى إبرام خير بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد

(١) آية : ١٢٥ سورة النساء.

وإماء وأُتن وجمال . . فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة، بسبب ساراى امراة أبرام ، فدعا أبرام وقال له : ماهذا الذى صنعته بى ؟ لماذا لم تخبرنى أنها امراتك ؟ لماذا قلت لى هى أختى حتى أخذتُها لتكون زوجتى ؟

والآن . . هوذا امرأتك . . خذها واذهب » (٢)

فكم سقطة ، وكم زلة وقع فيها إبراهيم فى هذا الذى تقوله التوراة عنه ؟

لقد كذب ، فقال عن امرأته إنها أخته !

ثم لقد حرّض زوجه «ساراى» على أن تكذب !

ثم لقد باع امرأته لقاءَ الخير الذى كان يرجوه من الاتجار بحسنها وجمالها..

ثم لقد قبض ثمن هذا .. « فصنع له خير بسببها ، وصار له غنم ، وبقر وحمير ، وعبيد ، وإماء وأتن وجمال ! !

أيرضى إنسان من الناس له مروءة وخلق ،أو بقية من مروءة وخلق أن يبيع امرأة ويتجر بها ، وبحسنها وجمالها ؟ فكيف بنبى من أنبياء الله ، بل وبأبى الأنبياء وخليل الرحمن !؟

وإذا كان الأنبياء هم الأسوة والقدوة للناس فيما يأتون ومايدعون من أعمال . . فهل من حرج على الناس إن هم فعلوا هذا ؟ بل إن ذلك هو ماينبغى أن يفعلوا ، إن أرادوا أن يُحمدوا ، ويشرفوا !

وهل هذا الذى ينسب كذباً وزورا إلى هذا النبى الكريم ممايكسب حمدا وشرفاً ! .

قد يكون ذلك ممايتعامل به اليهود . . ومماجاء أنبياء الله لمحاربته فيهم ، . ولكنه لايكون أبداً ممايتعامل به الناس وتقبله الحياة !

---

(١) سفر التكوين (الإصحاح الثانى عشر)

وماذا تقول التوراة عن لوط ؟ :

وعن لوط تحكى التوراة قصة أشنع وأبشع مماحكت عن إبراهيم ،عليهما السلام.

فى سفر التكوين : « وصعد لوط من صوغر ، وسكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر ، فسكن فى المغارة ، وقالت الكبرى للصغرى : إن أبانا قد شاخ ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ! هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه ، فنحيي من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة ، ودخلت الكبرى واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث فى الغد أن الكبرى قالت للصغرى : إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى. فهلم نسقيه خمرا الليلة أيضا . وقامت الصغرى واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها .

«فحملت ابنتا لوط من أبيهما !

«فولدت الكبرى ابنا ، ودعت اسمه مواب. وهو أبو الموابيين إلى اليوم !

والصغيرة أيضا ولدت ابنا . ودعت اسمه عمان . وهو أبو العمانين إلى اليوم[١]»

ويسأل صاحب السيف الصقيل تعليقا على هذه الحكاية . . فيقول :

« لو فرضنا صدق هذه الحكاية المحال وقوعها — وأنها صادرة عن علم موسى عليه السلام ، فما الحامل له على ذكرها ! وما الغرض والفائدة من بثها . مع أنه لم يلحقها بوعيد عذاب ولا شديد عقاب ؟

« حاشا لجنابه الشريف أن يتعرض لهتك أعراض الأنبياء النزهة أعراضهم عن عروض مثل هذه الأعراض .. وماهى إلا دسيسة دسها من لا يخشى الله فى الكتب السماوية ! » [٢]

ونقول :إن التلفيق واضح فى القصة ، والكذب مفضوح فيها . وذلك من

---

(١) سفر التكوين (الإصحاح التاسع عشر)

(٢) السيف الصقيل ص ١١

تدبير الله سبحانه ، وحفظه لأنبيائه ، وصيانته لسيرتهم الطيبة أن يلم بها دنس ، أو يعلق بها زور وبهتان !

فليس يقع فى عقل عاقل أن إنسانا يسكر حتى يفقد الوعى فقدانا كاملا ، حتى يأتى هذا الفعل الذى يقال ـ زوراً ـ إنه فعله ، دون أن يحس أو يشعر . أو يذكر شيئا حتى بعد صحوه !! أذلك شىء يقع فى عالم السكارى والمخمورين !

وإذا حدث مرة ،فهل يتكرر ؟ وفى الليلة التالية ؟

وإذا حدث هذا وذاك . . فهل من الحتم اللازم أن تحبل البنتان بعد المضاجعة ؟ وهل كانتا معاً فى حال مهيأة للحمل !؟

إن القصص الخيالية لا يقبل الخيال فيها أن تظل هذه الثغرات دون أن تعالج بحيلة ما،حتى تكون أقرب إلى القبول !

وماذا فى التوراة عن يهوذا !

ويهوذا هو ابن يعقوب عليه السلام،وقد خلف أباه فى رياسة بنى إسرائيل ، بعد « يعقوب » .

واقرأ هذه الحكاية .. من سفر التكوين :

« وأن « يهوذا » زوّج ابنه بكره « عير » امرأة اسمها ثامار ، وكان « عير » بكر يهوذا رديا بين أيدى الرب !فقتله الرب !وقال يهوذا لابنه«أونان» :ادخل على امرأة أخيك وكن معها ، وأقم زرعا لأخيك ، فلما علم أونان أن الخلف لغيره كان إذا دخل إلى امرأة أخيه يسفد فى الأرض ، لئلا يكون زرعا لأخيه ، فظهر ذلك منه سوء أمام الرب لفعله ذلك ،وقتله الرب .. فقال يهوذا لثامار كنته اجلسى أرملة فى بيت أبيك حتى يكبر «شيلا» ابنى . . . .

« ثم أعلموا ثامار قائلين : هو ذا حموك صاعدا إلى تمنة ،ليجز غنمه ، فطرحت

عنها ثياب الترمل ، وأخذت رداء وتزينت وجلست فى قارعة الطريق . . . فلما رآها يهوذا ظن أنها زانية ، لأنها كانت قد غطت وجهها لئلا تُعرف ، ودخل عندها وقال لها : دعينى أدخلَ إليك ، لأنه لم يعلم أنها كنته ،فقالت له : ماذا تعطينى لكى تدخل على ؟ فقال لها : إنى أرسل اليك جَدْى معزى من الغنم !!فقالت له: أعطنى رهناً حتى ترسله ! فقال لها يهوذا أى شىء أعطيك رهنا ؟

فقالت : خاتمك وعمامتك ، وعصاك التى بيدك ! !

فأعطاها لها ، ودخل عليها فحبلت منه ! ! » ...

«فلما كان بعد ثلاثة أشهر أخبروا يهوذا قائلين : زنت ثامار كنتك ، وهو ذا قد حبلت من الزنا ! !

« فقال يهوذا : أخرجوها لتحرق!

« وإذا هم أخرجوها أرسلت إلى حميها قائله:

« مَن الرجل الذى هذه له حبلتُ أنا !

« فاعرف لمن هو الخاتم والعمامة والعصا !

« فعرفها يهوذا !

« وقال : تبررتْ هى أكثر منى !! (١) ».

والحادثة فى غنى عن التعليق !

ولايفوتنا أن نذكر هنا أن ثامار ولدت من « يهوذا » حميها من هذا الزّنا ولدين توأمين . !

وأن نذكر أيضا أن أحد هذين الولدين هو « فارص » الذى من نسله داود ، وسليمان ، وعيسى .. عليهم السلام !

---

(١) سفر التكوين « الإصحاح الثامن والثلاثون »

ومن جهة أخرى فإنا نجد فى أسفار التوراة المختلفة ما يشعر بأن الإلٰه المعبود الذى كان يعبده بنو إسرائيل ليس إلٰهاً واحداً ، وحتى إنهم حين تصوروه واحداً فى فترة من تاريخهم ، اعتبروه إلٰه إسرائيل ورب الجنود ، لا يمتد سلطانه إلى أوسع من الرقعة التى يعيشون فيها ، ولا يعمل إلا لهم ومن أجلهم.

يقول صاحب قصة الحضارة .

« ولم يكن « يهوه (١) » الإلٰه الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده ! وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه فى الوصية الأولى من الوصايا العشر هو أن يكون مقامه فوق مقام كل سائر الأرباب .

« وقلما كان اليهود قبل « أشعيا » يفكرون فى أن يهوه هو إلٰه الأسباط جميعا ، أو حتى إلٰه العبرانيين جميعاً ، فقد كان للموابيين إلٰههم « شمش » وكان « بلزبوت » إلٰه عكرون و « ملكوم » إلٰه عمون .. ذلك أن النزعة الانفصالية التى كانت تتملك نفوس أولئك القوم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ـ قد أدت بطبيعة الحال إلى ما نستطيع أن نسميه استقلالا دينيا .. » (٢)

وإذا كانت الآلهة قد وجدت سبيلها إلى قلوب اليهود ، فكان فى كل قلب أكثر من إلٰه ، فكيف يساغ أن يكون ذلك الضلال زاحفاً على قلوب الأنبياء ، آخذا بتفكيرهم ؟ وكيف يعقل عاقل أن يبعث الله رسولا يؤمن بأن هناك آلهة غير الله ، ثم لا يهديه الله ، ولا يشرح صدره لمعرفته ؟

---

(١) من بين الآثار التى وجدت فى كنعان عام (١٩٣١) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٢٠٠٠ ق ٠ م) عليها اسم إله كنعانى يسمى ياه أو « ياهو » ويستنتج بعض الباحثين من هذا أن اليهود قد أخذوا اسم إلههم من الكنعانيين . وهذا الاستنتاج فيه شطط وتعسف ، فاليهود أصحاب ديانات سماويه متوارثة من أقدم العصور ، فلا يعقل أن يكونوا عالة على غيرهم فى التعرف على اسم الإله المعبود .

(٢) قصة الحضارة المجلد الثانى من الجزء الأول ص ٣٤٣

واسمع واعجب

تقولى التوراة على لسان موسى . « مَن مثلك بين الآلهة يارب » (خروج ١٥)

وتقول على لسانه أيضاً : « الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة (خروج ١٨)

أفيعقل أن يكون مفهوم الإلٰـه عند موسى على هذا النحو المشاع !

وتقول التوراة على لسان سليمان أيضاً : « إلٰـهنا أعظم من جميع الآلهة ! »

ومعاذ الله أن يكون فى أنبياء الله ورسله من ينطق بهذا ، أو يرد على خاطره ! ولـكن الذين دونوا التوراة كانوا فى حال لا يتصورون معها الإلٰـه على هذا المفهوم الذى بشّر به الأنبياء والرسل فى أقوامهم، بل كانت قد غشيتهم موجات الوثنية ، التى كانت تغطى وجه الأرض فى الأمم المحيطة باليهود ، وقد غرق اليهود فى هذا الضلال ، كما تنبأت بذلك التوراة !

: « وقال الرب لموسى — وذلك عند موته — . هاأنت ترقد مع آبائك ؛ فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين فى الأرض التى هو داخل إليها فيما بينهم ويتركنى ، وينـكث عهـدى الذى قطعته معه »(١) . . وهـكذا عبد الإسرائيليون آلهة الوثنيين بعد موت موسى عليه السلام ، وقد أشار القرآن الـكريم إلى تلك النزعة الخبيسة التى كانت مندسة فيهم ! وموسى وهرون بين أظهرهم ، وبمجرد أن أنجاهم الله من فرعون وخلصهم من الذل والاستعباد تلفتوا إلى آلهة غير الإلٰـه الذى عرفوه.

وفى هذا يقول الله تعالى : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى : اجعل لنا إلٰـها ، كما لهم آلهة قال إنـكم قوم تجهـلون أن هؤلاء متَبَّر ماهم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير الله أبغيـكم إلٰـها » (٢) .

---

(١) تثنية ٣١ : ١٦

(٢)سورة الأعراف ١٣٨ — ١٤٠

ويقول «ول ديورانت »: « لقد كان ما بين اليهود من فوارق وما كان لهم من استقلال كافيين لأن تبقى لطوائفهم آلهتهم الخاصة، حتى فى زمن «أرميا» الذى يقول : « على عدد مدنك صارت آلهتك يايهوذا »

«فلما نشأت الوحدة السياسية فى أيام داود وسليمان ، وتركزت العبادة فى الهيكل بأورشليم أخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ،وأمسى« يهوه» إله اليهود الأوحد

ثم يقول : « ولم يخط اليهود نحو التوحيد خطوة غير هذه الخطوة ، وهى : أن لليهود إلـٰهاً واحداً يعلوعلى جميع آلهة غيرهم من البشر ..حتى كان زمن الأنبياء (١)»

ولقد تصوراليهود إلـٰههم « يهوه »من خلال الأحداث التىمرت بهم ، فكانوا يخلعون عليه أزياء ، ويصفونه بصفات ويرونه فى أوضاع ،حسب الأحوال التى كانت تغشاهم وتلفهم فى ليلها الأسود البهيم .

« ويلوح أنه ـ أى يهوه ـ كان فى بداية الأمر إلـٰها للرعد يسكن الجبال ، ويعبده الناس للسبب الذى كان « جوركى » الشاب يؤمن من أجله بالله ، إذا أرعدت السماء ! !

« وحول كاتبو أسفار موسى الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة ـ حولوا إلـٰه الرعد هذا إلى إلـٰه للحرب.. فأصبح « يهوه» فى أيديهم القوية إلـٰها للجيوش ، يدعونه للفتح والاستعمار . يحارب من أجل شعبه بنفس القوة التى كان يحارب بها آلهة الإلياذة !، وفى ذلك يقول موسى: « الرب رجل حرب! » . ويردد داود صدى هذا القول نفسه فيقول : « الذى يعـلّم يدى القتال » !

«وتمر عدة قرون من الهزائم العسكرية ،والخضوع السياسى، والتطور الأخلاقى

---

(١) المصدرالسابق صـ ٣٤٤ .

حتى يستحيل هذا الإلـٰه إلى والد « هلل (١) » . وإلى « المسيح » أى أن يهوه قد تحول آخر الأمر إلى إلـه حب ورحمة ، بعد أن كان « رجل حرب» ، وذلك بعد أن تشتت بنو إسرائيل ، ولاقوا مرارات الضياع والتشرد !

ونحن أمام فرضين للتعليل لوجود مثل هذه المفارقات التى نجدها فى التوراة . والتى ينفر منها العقل والضمير والحياء ، والتى إذا ألمت بكتاب أى كتـاب ـ ذهبت بوقاره وجلاله . . فكيف بـكتاب سماوى مقدس . يصفه القرآن الـكريم بقول الله تعالى : « إنا أنزلنـا التوراة فيها هدى ونور ؟ »

نقول نحن أمام فرضين لتأويل هذا :

فإما أن تكون الإنسانية فى وقت نزول التوراة ـ أو جماعة اليهود على الأقل ـ كانت فى مستوى إنسـانى طفولى ، لايتسع إدراكهـا ولايحتمل تفكيرها تصور الألوهية تصورا حقاً ، ولا إدراك ماينبغى أن يكون عليه سبحانه من عظمة وجلال ، ولهذا صور الإلـٰه فى أسفار التوراة على هذا النحو الذى لايرتفع به كثيرا عن إنسان ذا شأن ، وذا قوة وسلطان .. مسكنه السماء ،وجنده الملائكة . . وهو يستطيع النزول إلى الأرض ، والصعود إلى مستقره فى السماء . . وهو يحزن ويندم ويرجع على نفسـه باللائمة ،على مافاته من حسن التدبير والتقدير !

تقول التوراة :

« فحزن الرب أنه عمل الإنسـان فى الأرض وتأسف فى قلبه ! ! فقال الرب :

---

(١) « هلل » معلم من معلمى الشريعة اليهودية ، ولد فى مدينة بابل سنة ٧٤ ق . م من أسرة كريمة معروفة ، وكان يدعو إلى التسامح ، وإلى الإخاء الإنسانى

(٢) المصدر السابق ٢٤

« أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته . . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء .. لأنى حزنت أنى عملتهم »! (تكوين: ٦).

وتقول التوراة أيضا :

« وقال الرب فى قلبه : لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان ، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ، ولا أعود أيضاً أميت كل حى كما فعلت ! » (تكوين : ٦) .

ومن مقولات التوراة أيضا على لسان الرب لبنى اسرائيل :

« وضعت قوسى فى السحاب ـ قوس قزح ـ لتكون علامة ميثاق بينى وبينكم ، فيكون متى أُنشر السحاب على الأرض تظهر القوس فى السحاب ، أنى أذكر ميثاقى بينى وبين كل نفس حية فى جسد ، فلا تكون أيضاً المياه طوفانا ليهلك كل ذى جسد ! » (تكوين : ٩).

ومن مقولات التوراة كذلك :

« تنزّل الرب لينظر المدينة والبرج « برج بابل » اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب : هو ذا شعب واحد ، ولسان واحد لجميعهم ، وهذا ابتداؤهم بالعمل ، والآن لايمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . . هلم ننزل ، ونبلبل لسانهم ، حتى لايسمع بعضهم لسان بعض ! » (تكوين :١١)

وهذه الفقرة الأخيرة تصور الله الخالق فى صورة من يحسد الناس وينفس عليهم أن اجتمعوا وتعاونوا وأثمروا ثمرا طيبا .. فبدد شملهم ، حتى لايبلغوا بالمدينة والبرج أكثر مما بلغوا !

والسؤال الذى يلح هنا هو : ماذا يصنع الله بالإنسان اليوم ، وقد ركب مراكب الفضاء وغزا السماء ، التى تراها التوراة كرسى الله؟

وندع هـذا ، لنقول إن هذا الفرض الذى افترضناه لوجود هـذه التصورات الطفولية لله ـ إن يكن مقبولا يومذاك فى آفاق الحياة التى لم تشرق عليها دعوات السماء ولم تظهر فيها الأنبياء والرسل ـ فإنه لا يمكن أن يقبل فى محيط الدعوات السماوية التى كانت تطرق اليهود صباح مساء ، إنه لا يقبل هذا الفرض إلا إذا صحبه فرض آخر وهو أن الدعوات السماوية لا تمسك من الحق إلا بالقدر الذى يتفق مع تفكير الناس وتصوراتهم ، وأنها لكى تجمع الناس إليها كانت تجىء على المستوى الذى يعيشون فيه ، وعلى وَفق ما يجرى فى خواطرهم وأفكارهم .

وهذا الرأى إن كان له وجه من القبول ، فإن هناك وجوها أخرى تشجبه ، وتنقضه ! .

فأولا : الدعوات السماوية ثورات على الباطل وحرب على الضلال ، بلا مهادنة ، ولا موادعة ، ولا مساومة ، وخاصة فى مجال الدعوة إلى الله والتعريف به ، حيث لا مجال هنا إلا لكلمة واحدة ، هى توحيد الله وإفراده بالجلال والعظمة ، والإقرار بالعبودية له ، والاعتراف بقيّومته على الوجود كله .. له وحده الخلق والأمر .. فلا يقبل والأمر كذلك القول بأن دعوة سماوية تقبل أن يكون من تعاليمها أن الله واحد من الآلهة ، أو أنه أعظم الآلهة ، أو رئيس الآلهة ، أو أن يكون إلـه شعب بعينه ، أو مدنية بذاتها . . ولو لم تجىء الدعوات السماوية لتحرير الإنسان من الاستعباد النفسى ، والإذلال العقلى ، والعمل على خلاصه من هـذا الرق الاختيارى لآلهة اتخذها من الأحجار والحيوان ونحوها ـ لو لم تجىء لهذا لما كان لمجيئها حكمة ، ولما كان لها فضل على الدعوات الضالة التى كانت ـ ولا تزال ـ تتحرك على الأرض ، وتدب فى كل مكان ! .

وثانيا : عرفت الإنسانية ـ قبل التوراة وبعدها ـ التوحيد النقى المشرق الخالص من كل شائبة من شوائب التحديد أو التجسيد لذات الله .. فى رسالات الرسل السابقين

من نوح إلى عيسى . كما يحدث بذلك القرآن الكريم ، وكما ينبغى أن يكون فى محاميل الرسالات السماوية . . كذلك عرفت الإنسانية هذا التوحيد النقى عن طريق النظر العقلى عند فلاسفة اليونان ، وكهنة الفراعنة وغيرهم من أولى الرأى والبصيرة من عباد الله . . فلا يعقل — والأمر كذلك — أن تكون دعوة من الدعوات السماوية المنزلة من عند الله فى مركز متخلف عن دعوة العقل الذى لا يستند إلى هدى سماوى . . ! وإذن فلا محل للقول بأن دعوة التوراة كانت على هذا المستوى الذى يُنزل من قدر الله سبحانه وتعالى ويجعله أحد الآلهة ، أو إنسانا بشرا يعيش مع الناس ، ويتقلب فى عواطفه وأهوائه كما يتقلبون فى أهوائهم وعواطفهم .

وأما الفرض الثانى الذى نفترضه لوجود هذه المفارقات فى التوراة ولتصور الإله فيها ، فهو أن تكون التوراة نفسها قد حرفت وبدلت ، وألقى عليها جامعوها وكاتبوها كثيراً مما كانت تنزع إليه نفوسهم ، وتجيش به آمالهم وتصوره أحلامهم . . فاختلط الحق بالباطل ، وامتزج فيها ما نزل من السماء بما أنبتت الأرض ، وانتهى الأمر إلى هذه المتناقضات التى رسخت وصارت معتقدا لا يجرؤ أحد على التغيير والتبديل فيه . وإن جرؤ على مناقضته والخروج عليه !

وهذا الفرض — فى رأينا — أكثر احتمالا ، وأقرب إلى الواقع . . إذ شهدت له وقائع التاريخ . وقد نقلنا بعضها من قبل . . وننقل هنا بعضا منها فتكون تذكيراً بما سبق نقله وتوكيدا له .

فمن رسالة لأيوب صبرى [١] يقول فيها وهو يُحاجّ بطريركية الأقباط ويقدم الأدلة على تحريف التوراة :

---

(١) أيوب صبرى مسيحى دخل الإسلام بعد أن درس المسيحية وعاش فيها ليكون رجلا من رجال الدين ، ثم لما لم يطمئن قلبه إلى ما وقع له من المسيحية =

«أثبت مئات من محققى المؤرخين ضياع التوراة من صندوق الشهادة التى كان موسى عليه السلام ـ أمر بوضعها فيه وعدم إخراجها إلا مرة كل سبع سنين لتلاوتها على بنى إسرائيل . كما أوضح كيفية وضعها فى الصندوق بآية ٩ من الباب ٣١ تثنية [١] وكيفية ضياعها منه بآية ٩ باب ٨ سفر الملوك » [٢].

ثم يأتى ـ أيوب صبرى ـ بأقوال العلماء المتخصصين فى دراسة هذا الموضوع فيقول :

«قال جامل تركا تلك فى الصحيفة ١١٥ من كتابه المطبوع سنة ١٨٤٣ م: اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية ، وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت من أيدى عسكر بختنصر . ولما ظهرت نقولها بواسطة عزرا النبى ضاعت تلك النقول أيضا فى حادثة « انتيوكس » .

ويقول : قال دكتور « كنى كات » فى المجلد الرابع من إنسائى كلوميدباريس: إن نسخ العهد العتيق التى هى موجودة الآن كتبت ما بين سنة ١١٠٠ و ١٤٠٠ ،وأن

= وبعد أن ظل مضطربا سنين طويلة يدرس الديانات المختلفة ـ درس الإسلام ودخله عن يقين واطمئنان .. ورسالته المشار إليها هى : بهجة التفريح بحقيقة السيد المسيح، وهى مطبوعة على هامش كتاب « السيف الصقيل » للشيخ بكر بن السيد عمر التميمى .

(١) يقول هذا النص : « وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ بنى إسرائيل وأمرهم موسى قائلا : فى نهاية السبع السنين فى ميعاد سنة الإبراء فى عيد المظال حينما يجىء إسرائيل لكى يظهروا أمام الرب إلهك فى المكان الذى يختاره تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل فى مسامعهم »

(٢) يقول هذا النص وهو يروى ما كان من سليمان لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود (صهيون) : « لم يكن فى التابوت إلا لوحات الحجر اللتان وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر».

جميع الكتب التى كانت كتبت فى المئة السابعة والثامنة أعدمت ، بأمر محفل شورى اليهود ، لأنها كانت تخالف اعتقادهم مخالفة كبيرة »

وقال المحقق « والتن » : إن النسخ التى مضت على كتابتها ستمائة سنة قلما توجد ، والتى مضت على كتابتها سبعمائة أو ثمانمائة سنة فى غاية الندرة » (١)

وموقف المسيحيين أنفسهم من كتاب العهد القديم ـ مع أنه شريعتهم ـ كان محوطا بالتهم والشكوك فى كثير من كتب هذا العهد، وقد ظلوا أزمنة طويلة مترددين فى قبول هذه الكتب ورفضها فى مؤتمرات متلاحقة ، كان يجتمع لها رؤساؤهم الروحانيون وأصحاب الكلمة فى دينهم . كما سجل ذلك التاريخ ، وحوته محاضر هذه المؤتمرات .

وإن من يطلع على مقدمة كتاب المحقق « جيرون » يجد أن ثمانية كتب من العهد القديم كانت موضع شك عند المسيحيين إلى سنة ٣٢٤ م وهذه الكتب هى :

١ — كتاب أستير

٢ — « باروخ

٣ — « طوبيا

٤ — « يهودية

٥ — « وزدم

٦ — « باستيكس

٧ — « المقابين الأول

٨ — « المقابين الثانى

---

(١) السيف الصقيل (هامش ص ٢٤٣ وما بعدها)

وفى سنة ٣٢٥ انعقد مجلس من العلماء المسيحيين بأمر الملك « قسطنطين » فى بلدة «نائس» للنظر فى أمر هذه الكتب.. وقد انتهى المجلس إلى مقررات ..منها :

١ — أن كتاب «يهودية » واجب التسليم .

٢ — يبقى الحال بالنسبة للكتب السبعة الباقية كما هو . دون القطع بصحتها ، أو زيفها .

وفى سنة ٣٦٤ انعقد مجلس « لوديسيا » وفيه انتهى العلماء إلى التسليم بصحة كتاب « استير ، وتركوا الستة الباقية كما هى بمكانها من الشك والريبة .

وفى سنة ٣٩٧ انعقد مجلس « كارت هيج » وكان المجتمعون فيه مائة وسبعة وعشرين من مشهورى العلماء ، ومنهم المحقق « اكستاين » وقد انجلى مؤتمر القوم عن التسليم ببقية الكتب ، لكنهم جعلوا كتاب « باروخ » بمنزلة جزء من كتاب « أرميا » فألحقوه به ، على اعتبار أن باروخ كان بمنزلة نائب لأرميا .

ثم انعقدت بعد ذلك ثلاثة مجالس أخرى ، وهى مجلس « تركو » ومجلس « فلورانس » ومجلس « ترنت » وفيها تم إقرارالقرارات السابقة . . وبهذا أصبحت الكتب المذكورة مسلمة بين جمهور المسيحيين إلى مدة ألف ومئتى سنة ! !

ولما ظهرت فرقة « بروستنت » رفضوا حكم أسلافهم فى خمسة كتب ، وهى : باروخ ، وطوبيا ، ويهودية ،ووزدم ، وباستيكس .

وسلموا بكتابى المقابين الأول والثانى .

أما كتاب « أستير » فقد سلموا فى جزء منه ، ورفضوا التسليم فى الجزء الآخر لأن هذا الكتاب كان ستة عشر بابا ، فسلموا بالأبواب التسعة الأولى منه ، وفى ثلاث آيات من الباب العاشر ، وردوا باقى الكتاب .

وأقوى حجج « البروستنت » على موقفهم هذا ، هو أن اليهود أنفسهم يقولون إن هذه الكتب ليست إلهامية ، أى أنها ليست من عند الله ، ومعنى هذا أنها لاتكون حجة يقوم عليها معتقد دينى ينسب إلى السماء ! والكنيسة الرومانية نفسها لم تسلم بهذه الكتب إلا بعد أكثر من أربعمائة سنة من ظهور المسيحية .!

ويعلق « أيوب صبرى » على هذه الحقائق بقوله :

« فمن علم ذلك كيف يمكنه أن يقبل الكتب التى كانت غير مقبولة إلى سنة ٣٢٤ م، لتحريفها ، وكونها غير إلهامية ،والتى جعلها الأسلاف واجبة التسليم وأدخلوها فى الكتب المقدسة الإلهامية ،بعد أن أجمع ألوف من رؤسائهم على حقيقتها وإلهاميتها؟ والكنيسة الرومانية بأسرها تصر على كونها إلهامية ، وقد ردت ماردته منها فرقة « بروستنت » بعد ألف ومئتى سنة من إجماع السلف على تسليمها ،وقد استأصلتها من مجلدات العهدين فى مطبوعاتها التى انتشرت فى معظم بقاع الأرض ؟ » (١)

هذه هى شهادة التاريخ فيما عرض للتوراة وملحقاتها من تبديل وتحريف . وإنه على الرغم من « الترميات » الكثيرة التى دخلت عليها لتسوية ما وضح عوجه منها ، فإنها ظلت موضع نظر وجدل وخلاف بين أتباعها من فرق اليهود والنصارى .

وشهادة القرآن الكريم فى تبديل التوراة وتحريفها شهادة لاترد ، إذ تجىء من كتاب لم تَشُبْهُ شائبة منذ نزل إلى يوم الناس هذا ، ولم تعلق به تهمة كذب ، ولم يقع خبر من أخباره موقع شك على كثرة ماجاء فيه من أخبار وأحداث، وما أخذت به هذه الأخبار وتلك الأحداث من تمحيص واختبار ، سواء ما كان منها متعلقا بأخبار الماضى وأحداثه مما اندثر وضاع فى طوفان الحياة ، ولم يكنْ عند أحد علم به إلارجوماً وظنونا، كقصة أصحاب الكهف ، وذى القرنين،أو ما كان من أخبار وأحداث مستقبلة

---

(١) السيف الصقيل (هامش ص ٢٥٠ ومابعدها)

لم ينكشف للناس وجهها ، كإخبار القرآن مستقبلا عن انتصار الروم على الفرس وكوعده للنبي والمسلمين بفتح مكة ودخول البيت الحرام ، وكتوعده لأبى لهب وغيره من كفار مكة بالموت على الكفر .

والقرآن يتهم اليهود بأنهم بدلوا وغيروا فى شريعتهم ،ومزجوها بأهوائهم لدواعٍ سياسية واجتماعية وطائفية . فيقول سبحانه وتعالى فى شأن اليهود متوعدا : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » (١)

والقرآن الكريم لم يناقش قضية التحريف هذه مناقشة تفصيلية ، تقف عند كل جزئية منها . إذ كان ذلك يخرج به عن مهمته من الهداية ،إلى خوض معركة لاتنتهى، يكثر فيها الجدل على غير طائل ، وإنما اكتفى بالإخبار بهذا التحريف على وجه التعميم ، بأن اليهود قد حرفوا وبدلوا .، وليس يخطىء الناظر فى التوراة مواقع هذا التحريف والتبديل فيها ، إذا هو نظر بعقله ،وتجرد من الهوى والتقليد الموروث .وقد أشرنا من قبل إلى شىء من هذا .

وفى القرآن الكريم آية تكشف عن تلك الطبيعة الخبيثة المندسة فى « اليهود » والتى بها يتعاملون مع الله والناس ،فيمكرون بآيات الله تحريفا وكتمانا ، ويمكرون بالناس غشا وخداعا . فى هذه الآية يقول الله تعالى مخاطبا المسلمين الدين كانوا يتوقعون استجابة اليهود للاسلام ، لما بينهم وبينه من قرابة قريبة : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله . ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون ؟ »

إنه تحريف عن عمد وإصرار ،لاعن جهل وخطأ . ومن كان هذا شأنه مع الحق المنزل من السماء فلن يرجى لدائه دواء، ولا لعلته شفاء !

(١) آية : ٧٩سورة البقرة

فهم خاطىء :

وقد حاول « الأستاذ الحداد ! » فى كتابه : « الإنجيل فى القرآن » — حاول أن يجد مطعنا فى التهمة التى دمغ بها القرآن اليهود فى تحريفهم للتوراة .

وقد استعرض لهذا آيات القرآن التى ورد فيها مايشير إلى التحريف فى التوراة ، واقعاً أواحتمالا .. [1] ثم يعلق « الحداد » على هذه الآيات بقوله : إن تهمة التحريف ماوردت إلا فى السور المدنية فقط ، ولا ذكر لها مطلقا فى السور المكية . . . ومن ثم فلو كانت تهمة التحريف قديمة لوجدنا لها أثرا فى حياة النبى المكية . . حيث نرى محمدا يستشهد فى العهد المكى — بمن عنده علم الكتاب على صحة قرآنه « ؟ » . . أيجوز أن يستشهد بمحرفين ، وبكتاب محرّف ؟ »

وقد رددنا من قبل على مثل هذا الرأى الذى يرى فى اختلاف موقف الدعوة الإسلامية إزاء أهل الكتاب فى المدينة عنه فى مكة ،ما يدل على أن القرآن هو من عند « محمد » وأنه لهذا يعدل سير الدعوة ويغير مواقفها من الكتب المقدسة ومن أتباعها — اليهود والنصارى — حسب ظروفه وأحواله . . .

رددنا على مثل هذا الرأى من قبل، ولاحاجة بنا إلى إعادته ... غير أننا نذكّر به فى كلمة واحدة ،وهى أن الدعوة الإسلامية فى مكة كانت تواجه كفرا صريحاً ،وإلحادا واضحا ، فكانت معركتها فى هذا الميدان وحده مماتقتضيه الحكمة .. أما أهل الكتاب فستكون مواجهة الدعوة لهم بعد أن يخفت صوت هذا الشرك العلنى فى مكة، ليفضح شركهم الخفى المندس فى الصدور وبين السطور . !

(١) من هذه الآيات : (٤١ — ٤٤) . (٧٥ — ٨٠) . (٨٩ — ٩١) . ١٠١ . ١٢١ ، ١٣٦ ، (١٧٤ — ١٧٦) ؛ ٢١٣ من سورة البقرة . . والآيات : (٦٩ — ٧٣) ؛ ٧٨ ، ٩٨ ، ١٧٨ من آل عمران ، الآيات ٤٤ — ٤٧ من سورة النساء ؛ والآيات : ١٤ ؛ ١٥ ؛ ٤٤ من المائدة .

وأرانا قد أطلنا هذه الوقفة مع التوراة ، أو بمعنى أدق مع التحريف المتلبس بها .. إذ أن التوراة هى شريعة المسيحيين ، ثم هى من جهة أخرى المعتمد الأول عند أتباع المسيح فى الاستدلال على معتقدهم فى المسيح ، وفى تصورهم الألوهيه ، بما يستخرج منها من نصوص يتأولونها التأويل الذى يجعل من المسيح إبنا لله ، أو إلـٰها مع الله ، أو هو الله ذاته نزل إلى الأرض ، وصلب ، ليكفر خطيئته آدم !!

سلامة النص والاطمئنان إليه شرط أول — قبل الشرح والتأويل — تقبول معطياته أو رفضها ، على أى وجه تستقيم أو لا تستقيم عليه!

وقد رأينا فى هذه الوقفة مع التوراة مدى ما يمكن أن يقال فى سلامة النصوص المأخوذة منها لأية قضية من القضايا ، وأن أقل مايقال فى هذه النصوص أنها ليست فوق مستوى الشبهات،وأن جانبا كبيرا منها لا يسلم به على إطلاقه ،ولا يتلقى بالقبول كتلك النصوص التى فيها تجديف على الله ، ونزول بعظمته وجلاله ، وكتلك التى تعرض للأنبياء والرسل بما هو خارج على معايير التقوى التى ينبغى أن يكون الأنبياء على الحظ الأكمل والأتم منها .. كما رأينا ذلك فى تلك النصوص التى قدمناها من التوراة آنفا .

هذا ، وقد اعتمد أصحاب الأناجيل والرسل اعتمادا كبيرا فى إثبات ظهور المسيح وفى ألوهيته ، وتجسده ، وصلبه ــ على أقوال الأنبياء فى التوراة وعلى رؤاهم .

والتوراة نفسها تشهد بأن هناك أنبياء كثيرون لا يوحى إليهم ، وإنما هم كذبة متنبئون ، تجرى على ألسنتهم أقوال صادقة أو كاذبة ، كما تجرى على ألسنة المنجمين ومن إليهم !

تقول التوراة فى هذا : « فإذا قام فى وسطك نبى أو صاحب رؤيا ، وأعطاك آية أو أعجوبة فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو صاحب الرؤيا إن دعاك إلى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، ولو صدقت الأعجوبة أو الآية» « ١٣ تثنية »

وتقول التوراة على لسان أرميا : « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق الأرض كلها ، فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبئون لكم ، فإنهم يبطلون عملكم ، ويتكلمون برؤى قلوبهم »

وقالت التوراة على لسان « ميخا » مخاطبا ملك إسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل روح كذب فى أفواه أنبيائك » !ويكفى أن تكون هذه الأقوال فى صلب التوراة التى ضمت إليها عشرات الأسفار لقولات أنبياء ورؤاهم ،وأصبحت تحمل بهذا اسم « العهد القديم » ـ يكفى أن يكون هذا لنأخذ حذرنا من تلك الأقوال التى تخالف الصميم من دعوة التوراة التى تلقاها موسى من ربه ؛ وهى دعوة الإيمان بالله ، وإفراده سبحانه وتعالى بالألوهية والعبودية ، وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد .

هذا ، وسنرى كيف كان اعتماد دعاة المسيحية على كتب العهد القديم ؛ وتأويل نصوصها فى إثبات البشارات بميلاد المسيح ، وألوهيته . . وذلك بعد أن ننظر فى الإنجيل ، لنتعرف على مدى سلامة النصوص التى حملها ، ومقدار انطباقها على رسالة عيسى عليه السلام.

ثانيا: الإنجيل.. والأناجيل (١)

رواية ودراية

أناجيل لا إنجيل :

وأول مايلقانا من الإنجيل أنه ليس إنجيلا واحدا ، وإنما هو جملة : أناجيل متعددة مختلفة ، بلغت عدتها مئات ، ثم حصرت فى نحو سبعين انجيلا ؛ ثم انتهت بعد مراحل من التصفية والغربلة إلى الأربعة الأناجيل المعروفة الآن ، والمعتمدة من طوائف المسيحيين ؛ وهى إنجيل متى ، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا !

هذا ، ولم يقف الأمر عند حد هذه الكثرة من الأناجيل التى كتبها أصحابها عن نية حسنة ، وعن قصد طيب . وإن وقع منهم الخطأ والنسيان ، بحكم أنهم بشر — لم يقف الأمر عند هذا بل دخل إلى هذا الميدان ـ ميدان الكتابة فى حياة المسيح ـ أعداد لاحصر لها مما يريدون الشهرة ويطلبون السلطان والتسلط على الناس . . فكان هذا العدد الوفير ممن دعاهم « بولس » الأنبياء الكذبة ، وممن انخدع الناس فيهم، واطمأنوا لأقوالهم ، وصاروا جبهة أخرى تقابل جبهة بولس وأتباعه .

يقول بولس الرسول فى رسالته إلى أهل غلاطية وكانوا قد استجابوا لدعوته ، وللانجيل الذى بشر به . ثم دعاهم داع أو دعاة آخرون باسم المسيح ، فاستجابوا للدعوة الجديدة ، وآمنوا بهـا . . يقول لهم : ثم إنى أعجب من أنكم أسرعتم بالانتقال

---

(١) لفظ إنجيل تعنى باللغة الانجليزية ، اخبار سارة ، وهى ترجمة للأصل اليونانى الذى يبدأ به ، إنجيل مرقس ، الذى يبدأ هكذا : « بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله » الذى قد جاء ، وأن فى مجيئه خلاص الإنسان .

عمن استدعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ، وهو ليس بإنجيل ، بل إن معكم نفرا من الذين يزعجونكم ، ويريدون أن يحرفوا إنجيل المسيح . »

ويقول « آدم كلارك » وهو من كبار علماء المسيحيين البروستنت عن ظهور أناجيل مختلقة من أصلها : « هذا الأمر محقق ،أن الأناجيل الكثيرة الكاذبة كانت رائجة فى أول القرون المسيحية. وكثرة هذه الأقوال الكاذبة غير الصحيحة هيّجت لوقا على تحرير الإنجيل .. ويوجد ذكر أكثر من سبعين ، إنجيلا من هذه الأناجيل الكاذبة والأجزاء الكثيرة من هذه الأناجيل باقية . وكان الفاضل « فابرىسيوس» جمع هذه الأناجيل الكاذبة . وطبعها فى ثلاثة مجلدات » (١)

والقرآن الكريم يتحدث عن إنجيل واحد. هو الكتاب الذى أوحى إلى عيسى عليه السلام ، وبشر به بين اليهود . . كما أن الواقع والعرف لا يسمحان بأن يكون لعيسى أكثر من كتاب هو دستور رسالته ، التى دعا إليها وبشر بها .

فما تأويل هذا ؟

لوأن الأناجيل الأربعة المعتمدة كانت قد اختلفت ألفاظها وعباراتها ثم اتفقت فى محتواها ومضمونها، لما كان لهذا الاختلاف كبير أثر فى هذا المقام . إذ يمكن القول بأن الأناجيل الأربعة ترجمات مختلفة للإنجيل الأصلى.وأن ما بينها من خلافات فى الشكل هو من عمل المترجمين . وأنها من هذه الجهة مقبولة ،حيث تلتقى على مفهوم واحد ! وبهذا يمكن عدها إنجيلا واحدا !

ولكن الأمر على غير هذا، فبين الأناجيل الأربعة خلافات كثيره فى المضمون والمفهوم . الأمر الذى لايستقيم معه أن تكون مستقاة من مصدر واحد ، أوأن يجتمع بعضها إلى بعض فتكون إنجيلا واحدا !

---

(١) السيف الصقيل .. ص ٢٤٤

فالخلاف بين الأناجيل الأربعة خلاف بعيد . يجعل لكل واحد منها ذاتية مستقلة . وهذا ماحمل المجمع الدينى الذى وكل إليه أمر النظر فى الأناجيل أن يُبقى على الأناجيل الأربعة بعد أن ألغى عشرات الأناجيل الأخرى التى كانت عاملة فى المجتمع المسيحى .. ولو كان من الممكن التوفيق بين الأناجيل الأربعة ، والتجاوز عن الخلافات البعيدة التى بينها لما أبقى المجتمع على أربعة أناجيل ، بل لتخير واحدا منها ، ليكون هو إنجيل المسيح ، الذى بشر به فى أتباعه، وألقاه على أسماعهم .

ومع هذا نعود فنقرر أن المسيح عليه السلام قد جاء بإنجيل . تلقاه وحياً من ربه ، وألقاه على أسماع تلاميذه وحوارييه . وبشر به فى كل من اتصل بهم من اليهود !

فأين هو هذا الإنجيل ؟

يمكن أن يجاب على هذا السؤال ، بأنه هو هذه الأناجيل الاربعة مجتمعة ، والتى هى عمدة الديانة المسيحية .

ولكن يعترض على هذا الجواب بجملة اعتراضات ، منها :

أولا : أن بين هذه الأناجيل خلافاً يصل إلى حد التضاد والتناقض . وهذا لايستقيم معه أن يكون من هذه الأناجيل كتاب يضم بين دفتيه هذه المتناقضات.. فكيف إذا كان هذا الكتاب كتاباً سماويا ، مضافا إلى الله رب العالمين ؟

وثانيا : إذا أمكن قبول الأناجيل الأربعة على أنها فى مجموعها الإنجيل المنزل على عيسى – عليه السلام – مع التجاوز عن الخلافات التى بينها ، فإنه يلقانا بعد ذلك سؤال هو : ماحساب هذه الأناجيل الكثيرة التى ظلت عاملة فى المجتمع المسيحى عدة قرون ، قبل أن يُقضى فيها هذا القضاء « الرسمى » ، وتُحبس عن التداول، وتعزل من العمل ! .. ثم يلقانا بعد ذلك سؤال آخر هو : إذا أمكن التجاوز عن الخلاف بين

الأناجيل الأربعة ، باعتبار أن لكل منها ذاتية مستقلة ، فكيف يمكن التجاوز عن الخلافات والمتناقضات الواقعة فى الإنجيل الواحد منها .

وشواهد ذلك كثيرة لمن يقرأ أى صفحات من أى منها .

ففى إنجيل « متى » مثلا — وهو عمدة الأناجيل الأربعة — عشرات من هذه المتناقضات . . ويكفى أن نشير إلى بعضٍ منها ، من غير تخير .

يقول السيد المسيح لبطرس — أحد الحواريين الإثنى عشر — : وأنا أقول لك أيضا : أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقدر عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء . وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات » .

فبطرس — كما يقول الإنجيل على لسان المسيح — هو الصخرة التى يقيم عليها المسيح بناء دعوته ، ويشدها إليه ، وهو صخرة راسخة لاتنال أبواب الجحيم منها ، وأن إلى يده مفاتيح ملكوت السموات !

هذا هو « بطرس » كما نرى صورته فى إنجيل « متى » وفى الإصحاح السادس عشر منه .

ثم لاتكاد العين تتملّى هذه الصورة العظيمة لبطرس! حتى تلقاها صورة أخرى مضادة لها ، تمسخ هذا الحوارى مسخا ، وتحيله من إنسان إلـهى إلى شيطان مريد .!

وأين ذلك ؟

فى إنجيل متى نفسه ، وفى نفس الإصحاح ، وبعد آيتين فقط من كلمات السيد المسيح المبشرة له بهذه الوعد الكريم .. يقول متى :

« من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يُظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم

ويتألم كثيراً ، من شيوخ ورؤساء الكهنة ، والكتبة ، ويقتل ، وفى اليوم الثالث يقوم . !

« فأخذه بطرس إليه ، وابتدأ ينتهره قائلا : حاشاك يارب . . لايكون هذا ! ! فالتفت المسيح وقال لبطرس : « اذهب عني ياشيطان ! أنت معثرة لى ، لأنك لا تهتم بما لله ، بل بما للناس !»

فكيف يتفق هذا وذاك ! وكيف يُقبل أن يكون السيد المسيح هو الذى يضع بطرس فى هذه المنزلة الرفيعة ويعده لحمل الرسالة من بعده ، ثم يهوى به هوِيًّا إلى هذا الدرك الأسفل ، وينزله منازل الشياطين ! ؟

ومثل آخر فى إنجيل متى . وفى الإصحاح السادس عشر أيضا :

يقول السيد المسيح للحواريين الاثنى عشر الذين معه . « متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده . تجلسون أنتم على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر (١) » !

إن المعروف عن « يهوذا الأسخريوطى » الذى أسلم المسيح لليهود ، ودلهم عليه لقاء دريهمات معدودات ، ليقدموه للمحاكمة ، فالصلب ـ المعروف أنه واحد من هؤلاء الاثنى عشر حواريا . . فكيف يكون ليهوذا الإسخريوطى هذا ، تلك المنزلة الرفيعة ، وهو الذى فعل هذه الفعلة الشنعاء !

وكيف يكون لهذا الرجل عذر مقبول أو شفاعة نافعة ، والمسيح عليه السلام يقول ، مصورا هذا المصير المشئوم الذى ينتظر ذلك الشقى الأثيم الذى يسلمه لأعدائه ـ يقول السيد المسيح فى حق هذا الرجل : « ولكن ويل لذلك الرجل الذى يسلم ابن الإنسان . . كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد (٢) »

---

(١) متى ١٦ : ٢٩

(٢) متى ٢٦ : ٢٣

وفى الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى فى خطاب المسيح لليهود : « من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة ، وآتيا على سحاب السماء . . »

وهـذا مالم يقع . لأنه لا اليهود، ولا غيرهم رأوْا المسيح آتيـا على سحاب . ولا جالسا على يمين القوة .. بل الذى رآه الراءون شيئا آخر . . هو إنسان مصلوب كان فى حسابهم هو المسيح !

وفى الإصحاح العاشر من إنجيل مرقس يخاطب السيد المسيح تلاميذه وحوارييه قائلا : « الحق أقول لـكم .. ليس أحد ترك بيتا ، أو إخوة ، أو أبًا ، أو أما ، أو امرأة ، أو أولاداً ،أو حقولا لأجلى ولأجل الإنجيل . إلا ويأخذ مئة ضعف الآن فى هذا الزمان ، بيوتا ، وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولا مع اضطهادات . وفى الدهر الآتى الحياة الأبدية » !

وقد ورد هذا الخبر فى إنجيل لوقا « الإصحاح الثامن عشر » كما ورد فى إنجيل متى كذلك « الإصحاح التاسع عشر » ..

ويعلق صاحب « السيف الصقيل » على هذا الخبر الذى تلاقت عليه الأناجيل الثلاثة .. فيقول :

« وهو ـ أى الخبر ـ غلط يقينا . لأن الإنسان إذا ترك امرأة لأجل الإنجيل أو المسيح لا يحصل على مائة امرأة فى هذه الدنيا يقيناً . لأن المسيحيين لا يجوزون التزوج فى هذا الزمان بأزيد من امرأة واحدة .. وإذا كان المراد بهن فى هـذا القول المؤمنات بالمسيح عليه السلام بدون عقد النكاح يكون الأمر أفحش وأفسد ، والعياذ بالله تعالى .. وقوله «حقولا مع اضطهادات »لا معنى له . فإن الـكلام هنا فى حسن المـكافأة والمجازاة . فما دخل الشدائد والاضطهادات هنا ؟»[1]

---

(١) السيف الصقيل ص ١٩٨

ونقول إن الجزم بمضاعفة الجزاء إلى مئة ضعف فى الحياة الدنيا . . فى البيوت ، والإخوة ،والأخوات ، والزوجات ، والأولاد والحقول ..لايمكن أن يتحقق لكل إنسان أخلى يده من كل هؤلاء من أجل المسيح والإنجيل ، ولو كان ذلك أمراً محققا ـ وهو ماينبغى أن يكون فى أخبار الرسل والأنبياء ، فضلا عن المسيح المقول بألوهيته ـ نقول لو كان ذلك أمرا محققا لكان الناس جميعاً أسرع شىء إلى إجابة هذه الدعوة ، ولكشفت التجربة الواقعة منها عن معطيات يستبق الناس إليها ، ويقتتلون من أجلها !

وفى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل لوقا ، يقول على لسان السيد المسيح : « إن كان أحد يأتى إلىّ ولايبغض أباه وأمه وامرأتة وأولاده وإخوته فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » . .

ويعلق صاحب السيف الصقيل على هذا بقوله : « وهذا الأدب عجيب ،وليس من كلام السيد المسيح ، فإنه قال موبخا اليهود هكذا : « إن الله أوصى قائلا : أكرم أباك وأمك ، ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا » فبغض الوالدين ليس من أكرامهما، فكيف يعلّم ببغضهما . . حاشا جنابه الشريف أن يصدر عنه هذا . » (١)

وفى الإصحاح الحادى عشر من إنجيل يوحنا ، فى الإعداد لمحاكمة المسيح . . يقول : « فقال لهم واحد منهم ، وهو قيافا وكان رئيساً للكهنة فى تلك السنة : أنتم لستم تعرفون شيئا ، ولاتفكرون أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب ، ولا تهلك الأمة كلها... ولم يقل هذا من نفسه، بل إذ كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة ، وليس عن الأمة فقط ، بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ».. يقول صاحب «المسيح الصقيل » تعليقا على هذا : إن هذا النبى الصادق

(١) السيف الصقيل ص ١٩٩

الذى ثبتت نبوته عند يوحنا الإنجيلى، هذا الذى كان رئيسا للكهنة حين صلب المسيح، هو الذى أفتى بقتله وكذبه ـ كما تشهد بذلك الأناجيل ».

ونسأل : كيف يكون السيد المسيح هو صاحب هذه الأقوال المتناقضة . . وهو من هو ؟ وإن أقل مايقال فيه أنه نبى معصوم لاينطق عن الهوى ؟ وكيف يقع أصحاب الأناجيل فى هذا التناقض الجسيم ، وهم ـ كما تقول الأناجيل ـ يستمدون مقولاتهم من روح القدس ؟

إنا لا نجد جوابا لهذا كله ، إلا الصمت على حيرة وبلبال !

التحقيق العلمى والأناجيل :

هذه الكثرة الكثيرة من الأناجيل التى سجلها التاريخ ، وهذه المتناقضات التى وقعت بينها قد أثارت فى النفوس شكوكا فيها ، جملة وتفصيلا . وأفسحت المجال والتحقيق فى مصادرها ،وفى أشخاص مؤلفيها ، وفى الظروف والأحوال المتلبسة بهم عند كتابتها ..وقد اتسعت لهذا دوائر البحث والنظر ، قديما وحديثا ، وما زال العلماء من رجال الدين وغيرهم يديرون أنظارهم إليها ،ويستعرضون الآراء المتعددة التى تتهم وتدين أوتبرىء . ومازالت المعركة قائمة ، وستظل ، دون أن تتوقف يوما .

لقد كان الشك فى صحة الأناجيل يساور كثيرا من العلماء والدارسين منذ الأيام الأولى للمسيحية، حيث لم يكن هناك مصدر واحد يتلقى الناس عنه إنجيل المسيح . . . بل لقد ذهب كل من كان عنده علم من أمر المسيح ، أو خبر مروى من أخباره — ذهب يسجل ذلك ، ويصوغه الصياغة التى ترضى مشاعره ،وتصور أحاسيسه لهذه الهزة العنيفة المزلزلة ، التى أحدثها ظهور المسيح ، والنهاية التى انتهى إليها .

لم يحتفظ التاريخ بنسخة للانجيل فى حياة المسيح ، ولا فى الخمسين سنة التالية التى أعقبته . وقد يعلل لذلك بتلك الضربة القاسية التى وجهها اليهود إلى تلاميذ المسيح من بعده . تلك الضربة التى شتتت شملهم وأزعجتهم عن أن يحتفظوا بشىء من مخلفاته.

وإن بقى كثير منهم يحتفظ فى صدره بقدر غير قليل من كلمات المسيح ، ووصاياه ، وحكمه ، وأمثاله .

فلما سكن هذا الغليان الذى أعقب المسيح ، وفترت حدة المطاردة التى سلطها عليهم اليهود ، وأخذوهم بها ، رجع تلاميذ المسيح إلى مافى صدورهم من ذكريات عن تلك الحياة التى عاشوها مع المسيح فتحدثوا بها إلى الناس ، وسجلوا ما استطاعوا تسجيله منها فيما يشبه المذكرات . . تلك المذكرات التى بنيت منها الأناجيل وقامت عليها .

وفى بدء إنجيل « لوقا » مايشير إلى الدوافع التى دفعت كتّاب الأناجيل إلى كتابتها ، والمشاعر التى حملتهم على تدوين ماعرفوا عن المسيح ، وما سمعوا منه .

يقول « لوقا » فى مطلع أنجيله :

« إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف « قصة » فى الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدّاما للكلمة ، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز « ثاوفليس » لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » ... فالذى كان يكتبه الذى كتبوا عن المسيح ليس الإنجيل الذى حمله عيسى إلى قومه ، وبشر به فى اليهودية ، وإنما هو قصص مؤلفة ، وحكايات تروى عمن كانوا منذ البدء معاينين ومعايشين للمسيح . . وأقل مايقال فى مثل هذه المرويات أنها محسوبة على رواتها ، مختلطة بأحاسيسهم ، ممتزجة بمشاعرهم . . وعلى هذا فالخلاف بين الكاتبين فى تصوير الوقائع والأحداث أمر لابد منه .

من أين جاءت الأناجيل ؟

قلنا إنه لم يثبت تاريخيا أن المسيح خلف وراءه إنجيلا مكتوباً ، ولهذا فإن كل ما كتب على لسان المسيح أو عنه إنما هو من عمل التلاميذ والحواريين ومن إليهم .

وندع الأناجيل الكثيرة التى عاشت فى المسيحية زمنا ، ثم تقرر بعد ذلك إلغاؤها وعدم الاعتراف بها ، ونقف عند الأناجيل الأربعة المعتمدة ، لنجيب على هذه الأسئلة :

متى كتب ؟ ومن كاتبوها ؟ ومن أين كانت مصادرها ؟

١ — إنجيل مرقس :

صاحب هذا الأنجيل لم يجتمع بالسيد المسيح ، وإن عُدّ من السبعين ، وقد بشر بإنجيله فى الإسكندرية باللغة اليونانية بعد صعود المسيح بنحو ثلاثين سنة .

يقول « ول ديورانت » : يتفق الناقدون الثقاة على أسبقية إنجيل « مرقس » فى الزمن على سائر الأناجيل ، وتحديد تاريخه بين عامى ٦٥ ، ٧٠ م .. ومن حقنا أن نحكم بأن إنجيل مرقس فى جوهره صحيح » .

٢ — إنجيل متى :

وصاحبه الحوارى « متى » من تلاميذ المسيح الاثنى عشر الذين لازموه ، وعاشوا معه ، قد وكتب إنجيله باللغة السريانية بأرض فلسطين ، بعد المسيح بثمانين سنة ، وقد ضاعت النسخة الأصلية ، ولم يبق إلا ترجمتها اليونانية ، كما تقول بذلك المصادر المسيحية .

ويقول « ول ديورانت » : تقول الرواية المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها !! والنقاد يميلون إلى القول بأنه تأليف أحد أتباع « متى » وقد نسبه إلى هذا الحوارى ليقع من الناس موقع الاطمئنان والقبول !

ثم يقول : « وإذ كان الغرض الذى يبغية متى — إن كان الإنجيل من عمله — هو هداية اليهود — فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التى تعزى إلى

المسيح [١] ، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن أكبر تنبؤات العهد القديم قد تحققت على يد المسيح » !

٣ — إنجيل لوقا .

وكاتبه هو القديس « لوقا » وليس من الحواريين الاثنى عشر ، وإنما هو من السبعين . . وقد بشر بإنجيله باليونانية . بإسكندرية . بعد صعود المسيح بثمانية وعشرين سنة .

« ويعلن لوقا فى مقدمة إنجيله ، أنه يهدف إلى هداية الكفرة ـ لا اليهود [١] ـ وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود . لأنه كان صديق « بولس » . . وهو مؤلف سفر « أعمال الرسل » وهو يقتبس كثيرا من كتابات مرقس، كما يقتبس منه متى . . فإنك تجد فى إنجيل متى ٦٠٠ آية من ال ٦٢١ آية التى يشتمل عليها النص المعتمد لانجيل مرقس ، وتجد منها ٣٥٠ آية فى انجيل لوقا تكاد تكون هى بنصها » [١]

٤ — إنجيل « يوحنا »

وصاحب هذا الإنجيل من الحواريين الاثنى عشر . وقد بشر بإنجيله فى مدينة « أفسس » باللغة اليونانية التى تعلمها فى الشيخوخة ، بعد أن كان لا يعرف الكتابة والقراءة فى لغته الأصلية .

---

(١) وهذا خروج بدعوة المسيح عن الدائرة التى كانت تعمل فيها . والتى حددها بقوله : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (متى ١٥ : ٣٤) والتى وصى بها تلاميذه إذ يقول لهم : إلى طريق أمم لا تمضوا ' وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (متى ١٠ : ٥،٦) .. فكيف يخرج لوقا عن هذا الطريق الذى رسمه السيد المسيح لنفسه ولاتباعه ؟

(٢) قصة الحضارة الجزء الحادى عشر ص ٢٠٨

« ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر للاهوتية . بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية . فهو يناقض الأناجيل الأخرى فى كثير من التفاصيل ، وفى الصورة العامة التى يرسمها للمسيح .

« وإن مايصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من القائلين بأن الخلاص لايكون . بالإيمان ، بل المعرفة ، ومافيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية قد جعل الكثيرين من الباحثين فى الدين المسيحى يشكون فى صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا »(١)

هذه هى الأناجيل الأربعة التى اعتمدت عليها المسيحية فى إقامة عقيدتها ، والتى منها كانت تصورات الدعاة والمبشرين بالمسيحية وبالمسيح .

ويبدو من النظرة الأولى فيها ، وفى الظروف التى كتبت فيها ـ دون النظر فى موضوعها ـ أنها غير مسلمة عند الباحثين من المسيحيين أنفسهم . وأن نسبتها إلى الحواريين والتلاميذ الذين كتبوها ليس مقطوعا بها . . وهذا أقل مافيه أنه يبيح للناظر فيها أن يكون على حذر من جهتها ، وألا يأخذ قضاياها مأخذ التسليم . وخاصة إذا كان فيها مايناقض العقل أو يجافى المنطق ، أو يكذب وثائق التاريخ !

ونظراً لأن كتاب الأناجيل قد اعتمدوا فى أغلب الأحيان على أنفسهم ، فى تصوير حياة المسيح ، وما كان يتناقله الناس من أحاديث عن تلك الفترة المثيرة التى قضاها بين اليهود ، مبشرا بدعوته ـ فإنه وقع من أجل ذلك خلاف شديد بين تلك الأناجيل . إذ لم تكن منقولة عن مصدر واحد . الأمر الذى كان من شأنه ألا يسمح بوجود شىء من الخلافات أو التناقض بينها ، وإن وجد شىء من هذا كان أمره هينا ، لايعدو أن يكون تحريفا ، أو خطأ يمكن إصلاحه ، ولكن مصدرها لم يكن واحدا . فاختلفت وتباينت !

وقد عُنى كثير من الدارسين بمقابلة الأناجيل بعضها ببعض . وبحصر ماوقع

---

(١) المصدر السابق .

بينها من اختلافات فى الوقائع والأحداث، فكان ذلك شيئاً كثيرا، لايكاد يتصوره العقل، فى أمر هو فى أصله وحى من عند الله !

يقول صاحب السيف الصقيل فى مناقشة بعض هـذه الخـلافات الواقعة بين الأناجيل الأربعة :

« من قابل نَسَب المسيح المدروج فى الإصحاح الأول من إنجيل « متى » ببيان النسب المدروج فى الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا وجد فيها خمسة وجوه مختلفة :

الأول . « يعلم من « متى » أن يوسف النجار ابن يعقوب . . ومن « لوقا » أنه ابن هالى

الثانى . يعلم من متى أن السيد المسيح عليه السلام من نسل سليمان بن داود عليهما السلام، ويعلم من لوقا أنه من نسل ناثان بن داود عليه السلام .

الثالث . يعلم من متى أن شالتيئيل بن يكنيا، ومن لوقا أنه ابن نيرى

الرابع . يعلم من متى أن اسم ابن « زرّبابل » أبيهود، ومن لوقا أن اسمه ريسا، وقد عرف أن أسماء أولاد زربابل مصرح بها فى الإصحاح الثالث من سفر « أخبار الأيام » الأول وليس فيها أحد اسم أبيهود، ولاريسا .

الخامس . يعلم من « متى » أن من داود إلى المسيح ستة وعشرين جيلا، ويعلم من لوقا أنهم واحد وأربعون جيلا ».

«فلو كان متلقى هذه الأناجيل عن وحى لما كان ممكنا أن يقع فيها مثل هذ الخلاف البعيد » .

ومن الخلافات الواقعة بين الأناجيل ماجاء فى إنجيل متى (١) من « أن المسيح عليه السلام لما كان راجعاً من بيت عنيّا إلى أورشليم جاع فنظر على الطريق شجرة

---

(١) متى ٢١ : ١٨

تين ، فجاء إليها فلم يجد فيها شيئا إلا ورقاً فقط ، فقال لها : لايكون منك ثمر بعد إلى الأبد ، فيبست التينة فى الحال ، فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين : كيف يبست التينةفى الحال ؟ » وجاء فى إنجيل مرقس عن هذه الحادثة:«أن المسيح عليه السلام .. خرج إلى بيت عنيا مع الاثنىعشر ، وفى الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع فنظرشجرة تين من بعيد عليها ورق ، وجاء لعله يجد فيها شيئا ، فلما جاء إليهالم يجد شيئا إلاورقاً. لأنه لم يكن وقت التين ، فأجاب يسوع وقال لها لايأ كل أحد منك ثمرا بعد إلى الأبد ، وكان تلاميذه يسمعون،وجاء إلى أورشليم . وفى الصباح إذ كانوا مجتازين رأوا التينة قد يبست من الأصول ،فتذكر بطرس وقال له : ياسيدى. .انظر إلى التينة التى لعنتها قد يبست » !!.

والخلاف بين الروايتين ظاهر لايتسع له عذر ..فى مجال نسبة النقل إلى الوحى!

وخلاف آخر . . وما أ كثره !

فى إنجيل متى (١) أن المسيح . عليه السلام ــ جاء إلى يوحنا المعمدان ليعتمد منه بماء الأردن الذى لتكفير الخطايا،ولكن منعه يوحنا قائلا : إنى محتاج أن أعتمد منك فأجاب يسوع وقال : اسمح الآن ، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر ، حينئذ سمح له ، فلما تعمد يسوع ، صعد للوقت من المـاء فنزل عليه روح القدس شبه حمامة ».

وفى إنجيل لوقا (٢) تروى الحادثة على لسان يوحنا هكذا : « وشهد يوحنا قائلا : إنى رأيت الروح عليه نازلا مثل حمامة من السماء فاستقر عليه ، وأنا لم أ كن أعرفه : لكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء قال لى : الذى ترى الروحَ نازلاومستقرا عليه فهذا هو الذى يعمد بالروح القدس . »

(١) متى ٣ : ١٣

(٢) لوقا : ١ : ٣٢

وفى إنجيل متى يجىء هذا الخبر : « أما يوحنا فلما سمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ »

والعبارات الثلاث يناقض بعضها بعضا مناقضة صريحة ، لاتنفعها شفاعة الشافعين .

ولهذا الخلاف البعيد ، والتناقض الواضح بين الأناجيل ، تعرضت هذه الأناجيل لاحكام قاسية ، من علماء المسيحيين أنفسهم ،قبل غيرهم . .

يقول «ول ديوارنت» فى تعليق عام على الأناجيل الأربعة : «وملاك القول أن ثمة تناقضا كثيرا بين الأناجيل ، وأن فيها نقطا تاريخية مشكوكا فى صحتها ، وكثيرا من القصص الباعثة على الريبة والشبيهة بمايروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيرا من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد، لإثبات كثيرمن النبوءات الواردة فى العهد القديم (١)

والحق أن الأناجيل قد أسرفت إسرافاً كبيرا فى استجلاب آيات من العهد القديم ،كشهود سماوية على المسيح ، وصلبه ، وتقديم نفسه فداء للبشرية ،ورفعا للخطيئة الموروثة التى أحاطت بها .

والذى ينظر فى هذه الآيات التى استشهد بها أصحاب الأناجيل للأحداث التى وقعت فى حياة المسيح يرى أن ماتنطق به هذه الآيات والظروف المتلبسة بها ليس فيها مايشير إلى المسيح من قريب أو بعيد ، إلا إذا حُرِّف الكلم عن مواضعه ، وتخلت اللغة عن مدلولها .

يقول «متى» فى إنجله :« وحينئذ كمل قول النبى، «أرميا» حين قال :«فقبضوا الدراهم الثلاثين من الثمن » وذلك بعد أن ذكر أن يهوذا الاسخريوطى قد اتفق مع اليهود على أن يدلهم على المسيح لقاء ثلاثين من الفضة .

وقد كانت هذه الحادثة موضع شك وتحقيق من علماء المسيحية قبل غيرهم ،فلم

---

(١) قصة الحضارة جزء ١١ ص ٢١٠

يسلموا بأن حواريا من حواريّي المسيح يبيع عقيدته ، ويخون سيده الذى رأى ماراى من آيات ومعجزات جرت على يديه ـ لقاء هذه الدريهمات . كذلك قوى دواعى الشك فى هذه الحادثة ما كان من اختلاف الأناجيل فى روايتها اختلافا ينقض بعضه بعضا .

قال المحقق « هورن » فى الصحيفة ٣٨٥ ، ٢٨٦ من تفسيره المطبوع سنة ١٨٢٢ وفى تعليقه على هذه الحادثة والاستشهاد عليها من الكتاب المقدس ، قال :

« فى هذا النقل إشكال ، لأنه لايوجد فى كتاب « أرميا » مثل هذاالقول ، ويوجد فى الآية ١٣ من الإصحاح ١١ من كتاب زكريا مايشابه ذلك ، لكن لاتطابق ألفاظ متى ألفاظه »

وقال بعض الباحثين : « إنه وقع الغلط فى نسخة متى ، وكتب الكاتب ، أرميا » موضع « زكريا » ، أو أن هذا اللفظ إلحاقى « أى أضيف إلى الإنجيل الأصلى » .

وفى إنجيل «متى» أيضا (١) .

« وهذا كله لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل هوذا العذراء تحبل ، وتلدابنا . وتدعو اسم عمانويل » .

والمراد بالنبى عند علماء أهل التثليث « أشعيا » عليه السلام حيث قال فى الإصحاح السابع من كتابه : « يعطيكم الرب عينه علامة .. ها العذراء تحبل ، وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانويل »

ويعلق صاحب السيف الصقيل على هذا بقوله : فما نقله « متى » غلط من وجوه :

« الأول » أن المسيح عليه السلام مادعاه أحد بعمانويل أصلا . لا أمه .ولاأبوه

---

(١) متى ١ : ٢٢

ولا أحد من الناس ، وإنما اسمه «يسوع» و كان الملَكُ قال ليوسف النجار فى الرؤيا : «وتدعو اسمه « يسوع » كما صرح بذلك متى (١) فى إنجيله : « وكان جبريل ـ عليه السلام ـ قال لأمه مريم هكذا : ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه «يسوع».. وكما صرح بذلك لوقا فى انجيله (٢) .. والمسيح عليه السلام لم يدع فى يوم من الأيام بعمانويل .

الثانى :أن القضية التى وقع فيها هذا القول من كلام أشعيا تأبى أن يكون مصداق هذا القول هو المسيح عليه السلام. فإن من رجع إلى ذلك الإصحاح وتأمله يعلم أن الله سبحانه وتعالى جعل علامة لخراب مملكة الملك « رصين » ومملكة الملك « نقح » أن امرأة عذراء تلد ابنا ، تدعو اسمه عمانويل ، وتصير أرض هذين الملكين خربة قبل أن يميز هذا الولد الخير من الشر.. وقد ثبت أن أرض الملك« نقح» قد خربت بعد مدة إحدى عشرة سنة من هذا الخبر . . فلابد ـ لمصداق هذا القول ـ أن يولد هذا الولد قبل هذه المدة . وتخرب المملكة قبل تميزه . . وأما المسيح عليه السلام فقد ولد بعد سبعمائة وإحدى وعشرين سنة من خرابها . وقد اختلف علماء اليهود فى مصداق هذا الخبر . فاختار البعض أن «أشعياء» يريد بالعذراء زوجته . وهذا القول هو الحرى بالقبول والقريب من القياس .

الثالث : أن اللفظ الذى ترجمه متى الإنجيلى. ومترجم كتاب أشعيا « بالعذراء » علمه ومعناه بالعربية عند علماء اليهود المرأة الشابة ، سواءاً كانت عذراء أم غير عذراء. وفُسّر هذا اللفظ بالمرأة الشابة فى التراجم اليونانية الثلاثة.يعنى ترجمة «إيسكوئلا » وترجمة « تهبودوش » وترجمة « سميكس »...

---

(١) متى ١ ٠ ٢٢

(٢) لوقا : ١ : ٣١

فعلى تفسير هذه التراجم القديمة ، وتفسير علماء اليهود يـكون ماجاء فى إنجيل متى ظاهر الفساد ! » (١)

ونقول : إن أمر هذه الواقعة لايحتاج إلى نظر طويل للوقوف على مافيهـا . ذلك أن مجرد عرض الواقعة كما وردت فى سفر « إشعيا » يعطى دلالة قاطعة على أن المولود ، والوالدة « العذراء » قد كانا فى زمن أشعيا عليه السلام ، وأن النبوءة قد تحققت فى عهده على الوجه الذى تنبأت به .

فإن من تأمل فى سياق هذه العبارة المرتبط بعضها ببعض من أول الإصحاح السابع إلى آخر الإصحاح التاسع .. يظهر له جليا أن المعنى غيرما وجهت إليه ـ عند أهل التثليث ـ وأن النبوءة المذكورة كانت من آحاز الملك عن مولود يولد لأشعيا النبى، وأن كلام أشعيا النبى فى هذا المعنى هو عن المولود المذكور كما هو مصرح به فصيحا بقوله (٢): «ثم عاد الرب فكلم آحاز قائلا : اطلب لنفسك آية ... فقال آحاز لاأطلب ، ولاأجرب الرب.. إلى قوله « ولـكن يعطيكم السيد نفسُه آية » ، يعنى أن الله يأتى بالآية من غير طلب ، لأن فى الطلب تجربة لله ، ولا يريد آحاز أن يجرب ربه ، لا أن المعنى على أن الله نفسه يكون هو الآية كما أول ذلك المؤولون، ليكون المسيح الذى ظهر هو الله ، وهو الآية الموعودة!

ثم تمضى النبوءة قائلة : « ها العذراء تحبل وتلد ابنا ، وتدعو اسمه عما نويل » .. زبدا ، وعسلا يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير .. لأنه قبل أن يعرف الصبى أن يرفض الشر ويختـار الخـير تخلى الأرض التى أنت « خاشى » من ملِكيها ... »

---

(١) السيف الصقيل صـ ١٨٦ ، ١٨٧

(٢) أشعياء ٧ : ١٠ — ١

ومعنى هذا واضح صريح فى أن هذا الصبى سيعقب مولده تغير فى حال إسرائيل فيأكل عسلا وزبدا ، حيث الأمن والاستقرار ، وأن هذا الأمر سيتحقق فى أيام الملك « آحاز » إذ ستخلى الأرض من الملكين اللذين يخافهما . ويتوقع الشر منهما .

وفى الإصحاح الثامن يقول النبى أشعيا : « قال لى الرب خذ انفسك لوحا كبيراً واكتب عليه بقلم إنسان : « لِمَهِير شلال حاش بَزْ » وأن أُشهد لنفسى شاهدين أمينين : أوريا الكاهن وزكريا بن يَبْرَخْيا . . فاقتربت إلى النبية فحبلت وولدت ابنا . فقال لى الرب ادع اسمه لمهير شلال حاش بز . . لأنه قبل أن يعرف الصبى أن يدعو يا أبى ويا أمى تحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك آشور » (١)

وليس بعد هذا القول الصريح القاطع مجال للتأويل والتخمين .. فإن النبى أشيعا قد أخذ لوحا وكتب عليه الكلمات التى أمره الله بكتابتها أمام شاهدين . ثم أقترب إلى أمرأته « النبية » أى زوج النبى فحملت ، وولدت ابنا وعندئذ أمره الله بأن يسمى هذا الابن « لمهير شلال حاش بز » وهى الكلمات التى كان الله أمره بكتابها فى اللوح قبل أن يلتقى بامرأته وتحبل بهذه الوليد . ثم إن هذا الوليد قبل أن ينطق باسم أبيه واسم أمه وقبل أن يعرف أن يرفض الشر ويختار الخير تحمل ثروة وغنيمة السامرة قدام ملك آشور » .

وهذا ماحدث فعلا ، وتحقق الوعد فى حينه .. فكيف يقال بعد هذا أن النبوءة إنما هى إرهاص بمولد المسيح ؟

إن كلمة « العذراء » هى التى أغرت بدس هذا النص وحمله على المسيح ، لأن أظهر ما فى حياة المسيح أنه ولد من عذراء !

---

(٢) أشعياء ٨ : ١ — ٤

وإذ وضح من هذا أن هذه المقولة التى وردت فى إنجيل متى نقلا من سفر أشعيا لا صلة بينها وبين ميلاد المسيح ـ عليه السلام ـ من عذراء ، كان وجودها فى هذا الإنجيل باعثا على النظر والتساؤل ! !

ومن جهة أخرى فإن « الميلاد » من عذراء ليس خصيصة مريم وحدها . فقد ثبت طبيا أنه يمكن أن تحبل المرأة وهى عذراء . دون أن تفتض بكارتها .. وإنما المراد بعذرية مريم طهارتها وعفتها . كما قال القرآن الكريم على لسانها : أنى يكون ولد ولم يمسسنى بشر . ولم أك بغيا » (١)

ونخلص من هذا إلى القول بأحد أمرين :

إما أن تكون هذه الآية مدسوسة على إنجيل متى .. ويلزم من هذا أن هذا الإنجيل حرف وبدل . ودخل عليه ما ليس منه . . وهذا يعنى أيضا ألا يكون موضع ثقة وتسليم ، وكذلك الشأن فى بقية الأناجيل . لأنه هو عمدتها .

وإما أن يكون « متى » هو الذى وضع هذه الآية بمكانها من إنجيله . . وهذا يعنى أن هذا الإنجيل ليس وحياً من عند الله ، إذ لو كان وحيا لما وقع فيه هذا وهكذا بقية الاناجيل ، لما قررنا من قبل من أنه هو عمدتها .

ونود أن نقرر هنا أن هذه المتناقضات لو كانت فى كتاب تاريخى أو علمى لانزلت كثيرا أو قليلا من قدره . ثم لظل بعد هذا مصدرا يرجع إليه . إذ كانت الأعمال الإنسانية لا تخلو من نقص ، ولا تسلم من عيب ، ولهذا سار الناس على التجاوز وغض النظر عما فى الكتب العلمية من قصور .

أما الكتب المقدسة فشأنها غير هذا الشأن . إذ كانت ـ فى حقيقتها ـ فوق كل نقص أو خلل ، إذ كان الناس لا يتوقعون منها إلا الكمال المطلق . . فإذا

---

(١) مريم : ٢٠

لاحت فيها أية هنة من الهنات زال جملةً كل مالها فى النفوس من تنزيه وتقديس ، وحق للناس أن يستبيحوا حماها ، وأن يعرضوها فى معرض النقد والتجريح والتعديل.

ومع هذه الشواهد المحسوسة التى تنطق بصوت صارخ بما فى الأناجيل من أمور تتنافى والقداسة التى ينبغى أن تكون لها ـ مع هذا فقد ذهب كثير من علماء المسيحية إلى مجابهة الواقع وتحديه ، فلم يسلموا بشىء من هذا ، ولم يقبلوا أن يكون شىء من هذه الوقائع مخلا بواجب القداسة والتنزيه للأناجيل .

وإذا كنا نجد لهذه المكابرات والمغالطات عذرا فى مجال العاطفة الدينية ، وما تجد النفس من مكابدة ومشقة فى الخروج على ناموسها المستقر فى كيان الإنسان ـ فإنا لا نجد مثل هذا القدر فى مجال النظر العلمى ، الباحث عن الحقيقة !

وفى مناقشة علمية تصطنع أساليب العلم، وحجج الفلسفة ، وقضايا المنطق ـ فى هذا الأسلوب جاء الأستاذ « الحداد » يجادل ويدافع عن تهمة التحريف التى قيل إنها لحقت الأناجيل . .

ونحن لا ننكر على الأستاذ « الحداد » ولا غيره من أتباع الإنجيل أن ينتصروا لعاطفتهم الدينية ، وأن يدافعوا عنها ، فذلك حق مشروع لكل ذى مذهب أو رأى ! . .

وهذا الحق المقرر المشروع ، لا يحول بيننا وبين حق مقرر مشروع كذلك لنا ، وهو مناقشة كل رأى أو مذهب ! !

وندع الأستاذ « الحداد » يدلى بحجته فى نفى التحريف عن التوراة والإنجيل ، ويقدم الأدلة على صحتهما .

يقول « الأستاذ الحداد ! » مستعرضا الوجوه التى يمكن أن يأتى منها التحريف ، ثم يوصدها بحكم دامغ هو « الاستحالة » ـ يقول :

يستحيل التحريف تاريخيا :

«إن مهمة التحريف لا تستند أبدا عندهم ـ أى عند القائلين به ـ إلى زمان ومكان معين . . فإذا سألت : من المحرِّف ؟ اليهود؟ أم النصارى ؟ أم الاثنان معاً؟ الأقدمون أم المحدثون ؟ العرب منهم أم الأجانب ؟ ما أحاروا جوابا .

«وإذا استوضحت عما هو محرف : الكتاب كله ؟ أم جله ؟ أم بعضه؟ ما نبسوا قط ببنت شفة . . يظنون أن التحريف واقع فى الآيات التى تنبأت عن محمد . . ولكن ما هى ؟ ومن يعرفها ؟ وهل كان ذلك قبل المسيح أم بعده ؟ قبل محمد أم فى زمانه ؟ لا نعلم ! .

«ومهما يكن من أمر فإن إثبات تهمة تحريف تاريخيا تقتضى إظهار النص الأصلى ، والنص المحرف ، ثم مقابلتهما الواحد بالآخر . فأين الأول وأين الآخر(١) ؟

ثم يقول الأستاذ الحداد :

يستحيل التحريف فلسفيا :

« من المسلمات البديهية ألاّ يجتمع الإيمان بشىء والكفر به على صعيد واحد ، وفى آن واحد ، فلا يمكن من ثَمّ أن يؤمن اليهود بكتابهم ويحرفونه..لا يمكن أن يؤمن النصارى بإنجيلهم ويغيرونه ! لا يمكن أن يؤمن المسلمون بقرآنهم ويبدلونه ! وهب أن نفرا فاسقا قصد ذلك، فلا يعقل أن يكفُر جميع المؤمنين معاً، حتى يفعلوا بكتابهم ما يفعلون . . وإذا ما قلّة فاسقة حاولت التحريف تصدت لها الكثرة الصالحة، وأبطلت محاولتها . . » ! !

ثم يقول أيضا :

---

(١) ونسأل بدورنا : وأين هو النص الأصلى ؟ وأى من الأناجيل الأربعة هو الإنجيل ؟ .

يستحيل التحريف اجتماعيا :

«من اليقين الثابت أن الإنجيل والتوراة كانا قد انتشرا قبل محمد، فى كل زمان ومكان انتشارا عظيما جدا ، حتى أسميا الكتاب، وسمى اليهود والنصارى أهل الكتاب ، فهو عَلَمٌ معلم على جميع الكتب المبثوثة فى العالم ، وأصحابه معروفون، كما يظهر ذلك من القرآن نفسه ، الأمر الذى يجعل محاولة التحريف شيئا مستحيلا ، إذ لا يمكن أن يتواطأ جميع الناس من كل الأمم ، وكل الألسنة ، والأجناس ـ على جمع كل النسخ ، وكل النشرات ، وكل الترجمات ، ويحرفون كلام الله ، وما يكون بقية باقية تنتصر للوحى الكريم ، وتبعث صرخة الاعتراض مدوية . ! !

ويعود فيقول أيضا .

يستحيل التحريف منطقيا :

« لقد اختلف اليهود شيعا متضاربة ، واختلف النصارى فرقا متحاربة ، واختلف المسلمون بدعاً متباغضة ، وقد قال ذلك حديث شريف « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ... » ومع ذلك فالكتاب واحد بنصه عند الجميع ، كلٌّ يقرأ هذا النص بلفظه ، وكل يؤيد رأيه مما يشتق من هذا النص ومن آيه . . فلا يمكن التحريف والكل عين على خصمه . (١) .

* * *

وهذه الدفوع التى قدمها (الحداد!) هنا ، تقوم على منطق سفسطائى يُغرق من يتصدى للرد عليه فى لجة من الجدل العقيم، الذى لا ينتج إلا محصولا وافرا من الكلام،

(١) الإنجيل فى القرآن . . ص ٨٨ - ٨٩ .

لا يحصل منه المرء على شيء ، ولا يصل به إلى حكم قاطع يُحسم به الأمر !

ونسأل بدورنا الأستاذ الحداد : كم من المعتقدات الفاسدة ، والمذاهب المضللة ، قد جرفت الناس فى تيارها أزمانا طويلة ، وعاشت فيها الجماعات مطمئنة إليها راضية بها ، ثم أبلاها الزمن ولفظها العقل ؟ أكان يمكن مواجهة مثل هذه المعتقدات وتلك المذاهب، بنصوص أصلية ، تكشف زيف تلك النصوص العاملة فى عقول الناس، وفى حياتهم ؟ إن العقل وحده هو الذى يُحتكم إليه فى مثل هذه الأحوال . . ليقول : إن ذلك حق ، وذاك باطل .. والأمر كذلك فيما يتصل بالكتب المقدسة .

إنها رسالات قائمة على الحق ، والخير ، وموازية للحكمة والعقل.. فإذا وجُد فيها شيء لا يتمثل فيه الحق والخير ، ولا يلتقى مع الحكمة والعدل . . فماذا يقال فيه ؟

لا مَعْدَى من أحد قولين : إما اتهام الله سبحانه وتعالى ، وتجديف عليه ، وانتقاص لكماله . . إذ جاء إلى الناس مما لا يليق ، وخاطبهم بما لا يقبله العقل ، ولا ترضاه الحكمة . . من حيث كانوا يتوقعون الكمال كله ، والعقل كله ، والحكمة كلها . . ولهذا يقول نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه فى وَصاة مَن يتصدّوْن للدعوة إلى الله وكشف معالم الطريق إليه يقول :

(خاطبوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله ؟) .

وإما أن يُتهم الناس .. بأنهم حرفوا وبدلوا فيما أنزل الله ، وعرضوه هذا المعرض المنحرف عن جادة الحق ، والخير ، والعقل ، والحكمة !

وأحسب أن الأستاذ (الحداد) يؤثر أن يكون هذا القول الأخير هو الذى ينبغى أن يقال فى هذا المقام !

ولكم كان يسعدنا كل السعادة لو أن هذه الأحكام التى أصدرها الأستاذ

(الحداد) كانت تقف فى وجه هذه الوقائع الماثلة للعيان ، والشاخصة لكل عين تنظر فى الأناجيل !

ولو كان من الممكن أن يسوى حساب هذه المتناقضات التى تتحدى بدهيات العقل ومسلمات الواقع ، لكننا – نحن المسلمين – أسرع الناس إلى تسوية هذا الحساب، وقبوله على علاته . فإن قيام الكتب السماوية إلى جانب القرآن مما يظاهر حجته على المعاندين والمبطلين، ويجعل بينه وبين هذه الكتب وحدة قوية متماسكة فى وجه الكفر والإلحاد. ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . . ففى التوراة والأناجيل ماتقف إزاءه العقول المؤمنة فى حيرة وذهول . لا تدرى ما تقول فى وجه كتب سماوية : تلقاها عباد مُكَرمون من عباد الله، وتركوها ميراثاً كريماً ، وأمانة موثقة العهود بين الناس.. ولكن ما أكثر ما نكث الناس العهود ، وخانوا الأمانات !

ولا نرد على الأستاذ (الحداد) بمثل منطقه ، ولا ننقض عليه حججه الكلامية بمذهب كلامى ، فذلك أمر يباعد الخلاف بيننا ، وإنما نلقاه بما يقوله علماء المسيحيين أنفسهم ، وما انتهى إليه بحثهم ودرسهم فى الكتاب المقدس ! !

يقول القسيس (نورتين) فى تاريخه المطبوع سنة ١٨٣٧ م : (إن التوراة جعلية يقينا ، ليست من تصنيف موسى). وقال القسيس (هنرى) فى تفسيره للكتاب المقدس ، نقلا عن القسيس (اكستاين) : (إن اليهود قد حرفوا النسخة العبرانية فى بيان زمن الأكابر ، الذين كانوا قبل الطرفان وبعده إلى زمان موسى (١) . وفعلوا هذا الأمر لتصير الترجمة اليونانية (٢) غير معتبرة ، ولعناد الدين المسيحى !) .

وقال المفسر فى صفحة ٢٨٢ من المجلد الثالث من تفسيره فى مقدمة سفر يوشع : (إن المتن المقدس – يقصد هذا السفر – حرف تحريفاً لاريب فيه ، وظاهر من اختلاف

---

(١) يريد ان التغيير الذى حدث فى التوراة كان واقعاً فى سفر العدد ؟

النسخ ، لأن العبارات الصحيحة فى العبارات المختلفة لا تكون إلا واحدة ، وهذا الأمر مظنون ، بل أقول قريب من اليقين أن العبارات القبيحة جداً دخلت فى بعض الأحيان فى المتن المطبوع ، ولكن لم يظهر دليل على أن التحريفات فى سفر هوشع أكثر من سائر أسفار العهد العتيق .

ثم يقول فى ص ٢٨٥ : « هذا القول صادق بلا ريب : « أن المتن العبرى فى النقول التى كانت عند الناس كان بعد حادثة بختنصر ، بل لعله قبلها أيضا قبلية يسيرة ـ كان فى أشنع حالة التحريف ، بالنسبة إلى الحالة التى حصلت له فى وقت ما بعد تصحيح عزرى » .

أيريد الأستاذ (الحداد) استدعاء شهود آخرين . شهود من أهله ؟

هذه شهادة القسيس (آدم كلارك) العالم المسيحى المحقق : (كان اليهود فى عهد (يوسيفس) يعنى — المؤرخ اليهود المشهور — يريدون أن يزينوا الكتب المقدسة باختراع الصلوات ، والغناء ، واختراع الأقوال الجديدة) !

وهذه شهادة العالم المسيحى (كريزا ستم) فى تفسيره لإنجيل متى : « امحى كثير من كتب الأنبياء ، لأنهم — اليهود — ضيعوا كتبا لأجل غفلتهم ، بل لأجل عدم ديانتهم ، ومزقوا بعضها ، وأحرقوا بعضها » !

وهؤلاء شهود عدول عندنا ، وإن أعلّهم الأستاذ (الحداد) وجرحهم ، ذلك أن القرآن الكريم يزكى أقوالهم هذه ، ويصادق عليها . إذ يقول الله سبحانه ، فى كتابه العزيز، بما يَجْبَه اليهود بهذا الداء المقيم فيهم: « إذقالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ! قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه

---

(١) ترجمت التوراة إلى اليونانية بعد المسيح لأنها شريعة المسيحيين ، ولتكون بين يدى اليونانيين الذين دخلوا فى المسيحية

قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » . (١)

هذا عن التوراة ، أما عن الإنجيل أو الأناجيل ، فقد عرفنا مقولات العلماء والباحثين فيها . وبقى أن نعرف ما يقول القرآن الكريم فيها :

القران وتحريف الإنجيل .

والقران الكريم وثيقة تاريخية.لها حسابها وتقديرها فى هذه القضية ـ قضية تحريف الإنجيل ـ حيث عرض لها القرآن ، وأسمع الناس رأيه فيها .

ولم يدخل القرآن إلى هذه القضية مجادلا مع المجادلين ، فإن ذلك عمل إن التفتت إليه دعوى من الدعوات ، أو رسالة من الرسالات السماوية ، أو غير السماوية ، عَدَلَ ذلك بها عن طريقها ، وقصّر بها عن غايتها ، بما يشغلها به الصراع فى ميدان السفسطة والجدل .

والذى فعله القرآن هنا هو لمسات خفيفة تشير إلى أن خللا ما قد وقع ، ليتنبه الغافلون ، وليأخذوا حِذرهم مما قد يندس إلى مشاعرهم،إن هم أسلموا عقولهم للكتب المقدسة ، وقبلوا كل ما وجدوه فيها !

فهذه اللمسة الخفيفة تأذن لأتباع القرآن أن ينظروا إلى هذه الكتب من خلال عقولهم ، وأن يزنوها بميزان القداسة الكاملة ، والكمال المطلق اللذين ينبغى أن تجىء عليهما رسالات السماء ، وكتب الله ! يقول القرآن فى إحدى لمساته تلك . (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيّنُنّه للناس ، ولاتكتمونه ، فنبذوه

---

(٣) سورة الأنعام آية ٩١

وراء ظهورهم ، واشتروْا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون[١]» .. وأهل الكتاب هم أتباع التوراة والإنجيل .. والحكم فى هذه الآية واقع عليهم جميعاً .

ومن هذا اللمسات أيضا قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل[٢]» وإقامة التوراة والإنجيل لا تتحقق إلا مع سلامة النص قبل كل شيء ، ثم عرض هذا النص على الوجه الذى جاء عليه ، دون إفساده وطمسه ، بالتأويلات الفاسدة ، والتخريجات المضللة .

ومن لمسات القرآن أيضا ، أنه أخذ على أهل الإنجيل خاصة أنهم خرجوا على تعاليم الإنجيل ، وأسرفوا على أنفسهم فى تأويل آياته وتخريجها ، وذلك فى المضمون الأول من مضامينه ، وهو الإيمان بالله إيمانا منزها عن كل نقص .. إيمانا يجعل لله العزة المطلقة ، والكمال المطلق .. فى تفرده بالألوهية ، وتنزهه عن الصاحبة والولد .

وفى هذا يقول الله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » [٣] .

ثم لا يقف القرآن عند هذا ، بل يضبط فرقاً كاملة من أتباع الإنجيل قد جعلوا الله كائنا يمشى على الأرض ، ويعيش فى الناس ، يأكل ، ويشرب ، وينام ، ويتقلب فى كل أمر يتقلب فيه الناس .. إنه المسيح ابن مريم . ! وفى هذا يقول القرآن : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم .. قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ، ومن فى الأرض جميعاً » [٤] ثم يفضح

---

(١) آل عمران : ١٨٧

(٢) المائدة : ٦٨

(٣) النساء : ١٧١

(٤) المائدة : ٧٢

القرآن طوائف أخرى من أتباع المسيح ، الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة : الأب ، والابن وروح القدس ... «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة، وما من إلٰه إلا إلٰه واحد ، وإن لم ينتهُوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم » (١) .

إن القرآن إنما يلفت أتباع الإنجيل إلى تلك القضية الخالدة ، قضية الألوهية ، ويؤاخذهم على ما أحدثوا فيها من مقولات وتصورات ، لا تستقيم مع الإنجيل الذى جاء به المسيح ، ولا تلتقى مع أية دعوة من دعوات السماء فى هذا الأمر ، الذى هو ملاكُ كل دعوة سماوية . لم تختلف فيه دعوة ، حيث كان مفتتح كل رسالة ، وكلمة كل رسول إلى قومه : (أن اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره) .

فإذا حدث خطأ فى تصور الألوهية ، ووقع اختلاف واضطراب فى مفهومها ، ثم كان مستند ذلك كتاباً من الكتب السماوية، لم يكن مفرٌّ من القول بأن هذا الكتاب ليس الكتابَ المنزل من السماء ، وإن يكن فقد دخل عليه ما ليس منه ، وأصابه ما أصابه من تحريف وتبديل !

وإذن ، فقد كان موقف القرآن من الإنجيل فيما دخل عليه من تحريف هو أعدل وأحكم موقف يَبين معه وجه الحق الذى لا يقبل مراء أو جدلا !

فهناك مِحَك تُختبر به سلامة الرسالات السماوية ، اختبارَ الصيرفىّ للمعدن الكريم . . وذلك أنه إذا كانت محاميل الرسالة عن الألوهية قائمة على وجه الصحة والسلامة ، كان ذلك دليلا قويا ظاهرا على صحة تلك الرسالة وسلامتها . . إذ كل شىء هين فى مجال العقيدة، إذا كان الإيمان بالله إيماناً مبرأ من الزيف ، مُعافىً من الضلال.

هذا ، ونود أن نذكر أن القرآن مع ما قرر فى شأن أتباع الإنجيل من تحريفهم له ، أو انحرافهم عنه لم يعزل الإنجيل الذى بأيديهم عن الكتب السماوية . ولم يقطعه

---

(١) سورة المائدة : ٧٣

عن القداسة التى ينبغى أن تكون له ، ذلك أن أكثر ما أصاب الإنجيل ليس فى تحريفه ، هذا التحريف الذى يرجع معظمه إلى سوء الترجمات من لغة إلى لغة ، الأمر الذى يمكن أن يُستلافى ، لو خاصت النيات ، وتجردت من الأهواء التى دخلت عليها من المبشرين الذين أقاموا بناء المسيحية على أصول مختلطة . . من الإنجيل وغير الإنجيل . . ولكن الذى ألقى على الإنجيل ظلالا من الريب والتهم هو تلك الشروح والتأويلات ، التى أخذت بها نصوصه ، فاستولدت منها مقولات وتصورات ليس بينها وبين ما جاء فى الإنجيل أو الأناجيل وجه شبه ، من قريب أو بعيد !

فليس فى الأناجيل ما يحدّث عن المسيح بأنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث الثلاثة ، وليس فى معتقد المسيحية الأولى ـ حسب نص الأناجيل ـ ما يشير إلى أن المسيح أو حوارييه أو تلاميذه عرفوا شيئا من هذه الوجوه التى عُرف بها المسيح بعد ذلك . فما عَرَف عنه أحد ، ولا خاطبه أحد فى حياته بأنه الله ، ولا أنه ابن الله ، ولا أنه الأقنوم الثالث من أقانيم الإله ، وإنما جاء كل ذلك بعد أن أدى المسيح رسالاته ، وفارق هذه الدنيا . وسنرى ذلك مفصلا فى الفصول التالية من هذا البحث .

والتهمة القائمة هنا إنما تتجه أولا وقبل كل شىء لا إلى الإنجيل ، وإنما إلى مغالاة أهل الإنجيل فى تأويله وتحميله ما لا يحتمل من المقولات والتصورات .

وهذه هى آفة أهل الكتاب ـ من يهود ومسيحيين ـ قد غشّت على أبصارهم ، وأرتهم غير الحق فى كتبهم ، وفى هذا يقول الله تعالى: « يا أهل الكتاب. لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق » (١).

ولا نقول فى الأناجيل أكثر من هذا ، وإن كان مجال القول فسيحا واسعا ، نأخذه من أفواه أهل الأناجيل أنفسهم ، ورأيهم فيها ، وموقفهم منها . . وحسبنا

(١) سورة النساء : ١٧١

بعض ما قلنا هنا ، وما عرضنا من متناقضات فى الإنجيل الواحد ، ومن اختلافات بعيدة بين الأناجيل وبعضها .. وقليل من هذا الذى عرضناه يكفى فى تقييم الأناجيل ومقولاتها فى المسيح ، وفى الوزن الذى توزن به ، فى الوصول إلى الحكم فى تلك القضايا التى تتصل بالمسيح !

بقى المصدر الثالث من مصادر هذه القضية ـ قضية المسيح ـ وهو القرآن الكريم ، ومدى سلامة نصوصه وما لها من وزن فى هذه القضية .

فماذا فى هذا المصدر ؟ وماذا يقال فيه ؟ وكيف ينظر إليه ؟

سننظر ، ونرى !

* * * *

ثالثاً : القرآن الكريم

بحثنا فى القرآن الكريم كمصدر من المصادر المعول عليها فى الكشف عن شخصية المسيح عليه السلام ـ يدور حول أمرين :

أولهما: مايتعلق بالمصدر الذى جاء منه القرآن الكريم، والجهة التى ينسب إليها.. أهو من عند الله ، أم من عمل محمد ؟ . . أهو سماوى المتنزَّل ، أم أرضى المنبع ؟

وثانيهما : ما يتعلق بمدى احتفاظه بالصورة التى حملها (محمد) إلى الناس ، يوم أعلنهم به ، ودعاهم إليه .. سواء أكان هذا الكتاب من عنده ، أم من عند الله..

والسؤال الوارد هنا هو: هل حدث تغيير فى هذه الصورة؟ وما مداه؟ وما الأيدى التى أحدثت هذا التغيير ؟ وما غايتها منه ؟

المصدر الذى جاء منه القرآن :

فى هذا الأمر يختلف موقف أهل الكتاب ، وخاصة أتباع المسيح ، إذ يضطرب موقفهم من القرآن اضطرابا شديداً . . فهم حين يجدون فى بعض آياته مالا يرضون عنه يقولون : إنه من عمل « محمد » أو من تلقيات تلقاها (محمد) من بعض الرهبان ، ونحو هذا، وأن (محمدا) سار بقرآنه هذا فى الطريق الذى يتفق مع تقديره وتدبيره للخطط التى أعدها ، وعمل لها حسابه ، فى فترة طويلة من شبابه ، قضاها فى الرياضة والخلوة ، ومدارسة أهل الكتاب ! ذلك على حين أنهم إذا رأوا فى القرآن مايرضون عنه ، ممايقيم لهم حجة ، أويضع بين أيديهم شبهة فيه ، تمسكوا به ، وجادلوا فيه ، وجعلوه مستنداً ، للأمر الذى يعنيهم .

وهذا موقف أقل ما يوصف به أنه جاف للانصاف ، لا منطق له . . إذ القرآن الكريم كيان واحد ، فإما أن يُقبل كله أو يرفض كله .. فهو حق أو باطل .. سماوى أو أرضى .. من عند الله ، أو من صنعه بشر ! فوجه واحد يقام عليه – وإن يكن الأدنى – خير وجهين متناقضين .. أشبه بوجهى المنافق! وقد كشف القرآن الكريم عن مثل هذا الموقف اللئيم ، الذى يقف فيه بعض الناس من القضايا الواقعة موقفاً قائماً على حرف .. يميلون إلى هذا الجانب أو ذاك ، حسبما يبدو وجه المصلحة لهم فيه .. حتى فى صلتهم بالله ، وتعاملهم معه . . قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأنّ به ، وإن أصابته فتنة انقلبَ على وجْهه ، خَسِر الدنيا والآخرة . . ذلك هو الخسران المبين . [1]) . .

ومع القرآن الكريم وبين يديه شواهد كثيرة ، تشهد بأنه من عند الله ، وأن ليس لمحمد فيه إلاّ أنه الرسول المبلغ له ، امتثالا لأمر الله فى قوله تعالى . (يأيّها الرسول بلّغ ماأُنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) [2]. ويأمره الله سبحانه ، بأن يرد على الذين يقترحون عليه آيات ، بقوله تعالى . (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . . إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد) [3] . . وبقوله سبحانه . (قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآن غير هذا أو بدله . قل ما يكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى [4]) .

ولو كان (محمد) هو صاحب هذا القرآن ، وكانت الرسالة التى حملها إلىّ الناس

---

(١) سورة الحج : ١٣
(٢) « المائدة : ٦٧
(٣) « الرعد : ٧
(٤) « يونس : ١٥

لحسابه خاصة ، ثم نَسَب ذلك إلى الله ، أو إلى أية جهة أخرى ، لكان ظالماً لنفسه أشد الظلم ، إذ بخسها حقها ، وحرمها هذا المجد العظيم الذى يؤهلها له هذا الكتاب العظيم ،الذى تحدّى به الإنس والجنّ ،وأعجزهم أن يأتوا بمثله،ولكان مِن حق مَن يصدر عنه هذا الكتاب المعجز القاهر أن يكون فوق العالمين ، مستنداً إلى ذاته ، لا إلى قوة إلٰهية تسنده ، وتمده بهذا العمل المعجز ، ولكان له أن يدّعى أنه إلٰه فى الأرض ، لا يناظره أحد ، ولا يلحق به أحد !

لكن محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، يعرف أين مكانه من ربّه ، وأنه ليس إلا عبداً من عبيده ، أنعم عليه برسالة كريمة ، يدعو الناس إليها ، ويبلغهم ماأُنزل إليه من ربه وربهم .

فالقول بأن الكتاب من عند محمد دعوى باطلة ، يدفعها محمد لأنه لايدّعى ما ليس له ، ولأن أى بشر يدّعى أن القرآن من عمله يفضْح نفسه بما تنطبق به آيات القرآن من إعجاز ، ليس فى قدرة بشر أن يقوم له !

القرآن وسلامة نصوصه :

أما الأمر الثانى ، وهو ما يتعلق بمدى احتفاظ القرآن الكريم بالصورة التى بلغّها محمد إلى الناس ، فإن الخطب فيه هين ، والحساب يسير . . ذلك أن متعلق المتعلقين بالطعن فى صحة القرآن من هذه الجهة لا وزن له ، على فرض التسليم به ، وثبوته تاريخياً ، ذلك الثبوت الذى لم يقم إلى اليوم دليل قاطع عليه .

فأولا : ما يقال من أن القرآن لم يكن فى حياة النبى مجموعاً فى كتاب واحد ، كما هو الآن، بل كان ـ على قول العلماء ـ محفوظاً فى صدور الناس ، وكان كل واحد من المسلمين يسمع ويحفظ غيباً جزءاً منه ، على حسب وعيه واقتداره ، فكان واحد يحفظ سورة ، وآخر سورة أخرى ، وهذا بعض آيات ، وذلك آيات أخرى . . وهكذا .

أما ما كان مكتوباً من القرآن فـكان مفرقاً موزعاً أيضاً .. كان بعض القرآن مكتوباً على جلد ، وبعضه على سعف النخل ، وبعضه على عظام .. ولم يكن القرآن فى هذه الصحف — إن صح أن تسمى صحفاً — مرتب السور والآيات كما هو الآن ..

هذه هى أكبر الشبه التى يلقى بها الطاعنون فى صحة القرآن ، بين يدى كل مقولة يقولونها فيه ، ويشوشون بها عليه ! .

وهذه الشبهة تبدو فى ظاهرها مقبولة واقعة ، إذ تحمل فى طياتها كثيراً من الواقع. فالقرآن الكريم لم يكن مجموعاً فى كتاب واحد فى حياة النبى صلوات الله وسلامه عليه .. كذلك لم يكن فى الصحف والرقاع التى جُمع فيها مرتبَ الآيات والسور . . وإنما كانت كل رقعة تحوى سورة أو بعض سورة ..

هذا صحيح ، لا نجادل فيه ، وقد سجله التاريخ القرآنى ، وأثبته المحققون من علماء المسلمين، كما ذكر البخارى ذلك فى صحيحه ، ونقله السيوطى فى إتقانه ، ورواه كثير من العلماء والفقهاء ! .

ولـكن هـذه الصورة التى نسج الطاعنون فى صحة القرآن خيوطها من بعض الواقع، الذى سجله المسلمون أنفسهم تنقصها خيوط أخرى، أشد فتلا ، وأحكم غزلا ، لا تتماسك الصورة إلا بها ، ولا تقبل إلا معها ..

فإذا كان فى المسلمين فى حياة النبى من يحفظ السورة ، أو أكثر ، وإذا كان فيهم من يحفظ الآية أو الآيات ، فقد كان فيهم كثيرون يحفظون القرآن كله حفظاً تاماً ، لم تنخرم منه كلمة ، ولم يضع حرف .. وكان كثير من هؤلاء الحفاظ يـكتبون القرآن كله كما حفظوه ، خوف ضياعه ونسيانه ، ورغبة فى قضاء أكبر وقت معه ، وفى الاشتغال به كتابة وترتيلا .. وهؤلاء الحفاظ كانوا على كثرتهم — درجات .. بعضهم أكثر من بعض حفظاً ، وضبطاً ، وفقهاً ... فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمرو

ابن العاص قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : خذوا القرآن من أربعة : عبد الله ابن مسعود ، وسالم (١) ، ومُعاذ (٢) ، وأبىّ بن كعب » . .

وليس هذا الحصر دليلا على أن الحفاظ للقرآن هم هؤلاء الأربعة وحدهم فى عهد النبوة ، بل يحتمل أن يكون ذلك الحصر فى وقت كان فيه الحفاظ بعيدين عن المدينة فى الغزو والجهاد فى سبيل الله ، وقد يكون بعضهم مبعوثاً إلى القبائل لتعليم القرآن.

وقد روى البخارى فى صحيحه أنه قُتل من حفاظ القرآن سبعون حافظا فى غزوة بئر معونة ، وهؤلاء الحفاظ كانوا يسمون القراء !! .

فهذا الحفظ الغيبى للقرآن فى الصدور وثيقة موثقة لحفظه وصيانته من الزيادة أو النقص ، وذلك إذا عرفنا الأمة العربية ، وكيف كان اعتمادها على حافظتها فى كل أمورها .. إذ كانت الأمية فيهم داعية إلى تربية ملكة الحفظ على هذه الدرجة من القوة، التى أصبحت فيهم طبيعة تورث، كما تورث الصفات الجسدية والروحية والعقلية ، من الآباء إلى الأبناء !

أما القول بأن القرآن لم يكن فى حياة النبى مرتب الآيات فى الرقاع وبالصحف التى كتب فيها ، فهذا قول لا يصح على إطلاقه ، وإن صح أن بعض الذين كتبوا شيئاً من القرآن كانوا يكتبون ما تسعفهم به الحال من كتابة آية أو بعض آيات ،دون أن يكون فى تدبيرهم أنهم يجمعون القرآن . . وإنما هم يلتقطون آية من هنا وآية من هنا وآية أو آيات من هناك ، كما يفعل بعض الخطاطين الذين يكتبون آيات من القران الكريم !

ولكن حين كان يقف المسلم فى مواجهة القرآن كله ، كان ـ وذلك بعد أن تم

---

(١) هو سالم بن عبد الله : مولى حذيفة .

(٢) هو معاذ بن جبل .

نزول القرآن — يجد نفسه أمام سور ، تضم كل سورة آيات مرتبة ترتيباً تلقاه المسلمون عن الرسول ، وعرفوا به موضع كل آية فى سورتها ، وبين ما سبقها أو لحقها من آيات .

وليس هناك ثمة شك فى أن ترتيب الآيات فى السور عمل توقيفى، تلقاه الرسول من السماء ، وبلغه كما تلقاه . .

وهذا الترتيب ، هوجزء من إعجاز القرآن، لا يتم الإعجاز إلا به، ومعه ، حيث أن أدنى تغيير أوتبديل فى ترتيب الآيات فى السورة ، يخرج بها عن وصفها الذى جاءت متحدية به ! فقد جاء التحدى بسورة ـ أى سورة من القرآن ـ وذلك فى قوله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (١) » ! .

وهذا التحدى لا يقوم ، ولا يكون ، إلا إذا ظلت السور محتفظة بصورتها التى نزلت بها ، وإلا بطل إعجازها ، وكان من الممكن الإتيان بمثلها ، وهذا ما لم يقع ، ولن يقع !

وهذه الحجة فى غنى عن أى مستند آخر يدعمها ويقويها ، إذ هى صمام الأمن فى القرآن وفى إعجازه..وما دام القرآن قائماً معجزاً ، متحدياً بإعجازه ، فإن معنى ذلك أن هذا الصمام — وهو ترتيب الآيات فى سورها — لم يزل على ما نزل عليه من السماء .

ومع هذا ، فإن كثيراً من الأحاديث والأخبار الموثقة تحدث عن أن الآيات كانت معروفة منسوبة إلى سورها .. فآية كذا فى سورة كذا . أو من سورة كذا ، كانت حديثاً جارياً على ألسنة الصحابة ، ولم يكن مقصوداً بهذه الأحاديث

---

(١) سورة البقرة : ٢٣

الرد على تهمةِ أن القرآن غير مرتب الآيات فى السور ! فما كان لمثل هـذا القول وجود فى ذلك الوقت .. وإنما كانت إخباراً عن فضل آية ، أو أخذ حكم شرعى من آية ، إلى غير ذلك مما يدور فى محيط القارئين للقرآن ودارسيه ..

ففى مسند أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذ شَخَصَ ببصره ثم صوّبه ، ثم قال: أتانى جبريل، فأمرنى أن أضع هذه الآية هـذا الموضع من السورة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى .. الآية » .

وروى مسلم فى صحيحه عن عمر رضى الله عنه قال : « ما راجعت النبى صلى الله عليه وسلم فى شىء ماراجعته فى الـكلالة ، وما أغلظ فى شىء ما أغلظ لى فيه ، حتى طعن بإصبعه فى صدرى وقال: ياعمر..ألا تـكفيك آية الصيف [1]التى فى آخر سورة النساء . . . »

والأخبار كثيرة متواترة بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سوراً كاملة فى الصلاة .

فقد روى النسائى أنه صلى الله عليهوسلم قرأ :(قدأفلح المؤمنون) فى الصبح، حتى إذا جاء ذكر موسى وهرون أخذته سعلة ، فركع ! .

وروى الطبرانى أن النبىصلى الله عليه وسلم قرأ سورة الروم ، فى الصبح ، و« الم تنزيل ، وهل أتى » .

وهذه القراءة كانت بمشهد من الصحابة ، وبصفة دائمة فى الصلوات الخمس ، فـكيف يكون لأحد بعد ذلك أن يعيد ترتيب الآيات ، وينظم عقدها من جديد ؟ إن فى ذلك تبديلا لـكلمات الله ، وافتراء على الله ، لا يقبله مسلم على دينه ، فـكيف

---

(١) آية الصيف: سميت بهذا لنزولها فى وقت الصيف ، وكانت آيةالـكلالة التى فى أول سورة النساء قد نزلت شتاء .

بصحابة رسول الله ؟ وكيف بالصحابى الأول أبى بكر ، الذى جمع القرآن الكريم الجمع الأول بين دفتى كتاب هو « المصحف » . ؟

ثانياً : ما يقال عن اختلاف القراءات بين القراء ، فى حياة النبى ، وبعد وفاته. وذلك مظنة شك فى صحة القرآن ، وداعية تهمة فى أنه منزل من السماء .. عند من يلتمسون للمطاعن فى الكتاب الكريم .. حيث يقولون: إنه لو كان القرآن من عند الله لكان وجهاً واحداً لا اختلاف فيه .. وأما وقد تعددت وجوهه فإن فى ذلك مقالا لقائل ..

والذين ينظرون إلى القرآن الكريم هذه النظرة الحاردة الحانقة يقدمون هنا حديثا ورد فى صحيح البخارى ، ويخرّجونه تخريجاً سقيما ، ويعرضونه عرضاً مبهماً ، ملتوياً ..

فقد روى البخارى فى صحيحه أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — كان يقول : «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره [1] فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلّم ، فلببته بردائه ، فقلت له : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلت . كذبت ! فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها على غير ما قرأت ! .

«فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله [2] .. اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت ! ثم قال : إقرأ ياعمر.. فقرأت القراءة التى أقرأنى .

---

(١) أساوره: أى آخذ برأسه
(٢) أى أطلقه من يدك

فقال صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت .. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه » .

وهذا الاختلاف فى القراءة ، يقيم عند أصحاب العلل والأسقام من جهة القرآن شهادةً على أنه لم يحتفظ بصورة واحدة ، بل تعددت صوره واختلفت وجوهه .. !

وفى هذا ما يفسح لهم القول بأن يقولوا : إن هذا القرآن ليس من عند الله !

ولو أخذ هؤلاء المتخرصون على القرآن تخرصاتهم عن نظر خاص بهم ، أو من واقعة تاريخية حفظتها كتبهم ، لقلنا إنهم معذورون ، إذ نظروا فضلّوا ، وتابعوا من سبقهم من قومهم فلم يهتدوا ..

ولكن القوم قد أعماهم الغرور ، وأغراهم التبجح ، فجاءوا إلى القرآن بشاهد من أهله ، بل الشاهد الأول الذى جاء به من عند الله ، وأخذوا منه دليل الاتهام والإدانة له .

ولو عقل هؤلاء لكان لهم وجوه كثيرة للصيد فى مجاهل مختلفة من الأرض .. ولكنهم ركبوا حماقاتهم فجاءوا ينصبون شباكهم فى حرم المأسدة !

ولو أن هؤلاء القوم تدبروا بعض التدبر ، فى هذه الحادثة لعلموا منها يقيناً أن القرآن الكريم وجه واحد ، ينبع من مصدر واحد ، ويؤخذ من جهة واحدة ، هى الرسول الكريم ! .

فهشام بن حكيم .. لم يقرأ شيئاً من عنده ! وإنما قرأ ما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

وعمر بن الخطاب .. لم يقرأ شيئاً من عنده كذلك .. وإنما قرأ ما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً ! .

وكل قارىء للقرآن من صحابة رسول الله إنما قرأ من القرآن ما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

ولا شك أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » . لم يكن مراداً به أن يكون لكل قارىء قرآناً يقرؤه .. فيُحْدِث فيه ما شاء من تحريف ، وتبديل ، وإضافة ، وحذف ! هذا ما لا يقبله عقل ، ولا يحتمله منطق عاقل ، وإلا لما كان للرسول مكان فى هذه الخصومة ، التى وقعت بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم ! ولكان لكل منهما أن يذهب المذهب الذى يرضاه !

والفهم الذى لا يمكن أن يكون للحديث الشريف هنا فهم غيره ، هو أن اختلاف أداة النطق عند الناس ، لا تجعل الكلام الواحد يخرج مخرجاً واحداً عندهم جميعا .. واختلاف اللهجات بين قبائل العرب هو نتيجة لاختلاف أداة النطق، بحكم البيئة والوراثة .. «ولكل قبيلة نحوى اتجهت إليها مخاطباتهم ، ومحاوراتهم ، بعبارات تفصح عما تميل إليه طباعهم ، وتقضى به عاداتهم وأخلاقهم ، وتجرى عليه معاملاتهم وسائر أحوالهم، التى اقتضتها جامعتهم الخاصة .. وفيهم الكبير العانى ، والشيخ الفانى ، والأعرابى القح ، والعجوز الهِمَّة ، والفتاة المترعرعة ، والشاب الحدث ، والغلام اليافع . . ومَن لازم نفى عادته ، وحَمَل لسانه على غير دُربته تكلف منه حملا ثقيلا ، وعالج منه عناءاً شديداً ، ثم لم يكسر غَرْبَه ، ولم يملك استمراره إلا بعد معاناة وشدة .. فأسقط الله عنهم هذه المحنة ، وأراحهم من متاعب التكليف بما ليس من أخلاقهم ، وأباح لهم القراءة على لغاتهم ، وحمل حروفهم على عاداتهم .. بشرط السماع

من النبى صلى الله عليه وسلم والأخـذ عنه(١) » .

فالمراد بالأحرف السبعة ، اللغات أو اللهجات .. وذلك على أصح الآراء التى انتهى إليها العلماء فى هذا ! .

واختلاف عمر بن الخطاب ، وهشام بن حكيم ، وهما قرشيان، لا ينقض هذا القول ، بل يؤكده ، وهو أن الأحرف السبعة أو اللهجات السبع التى نزل القرآن بها هى توقيفية ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرىء بها أصحابه ، حسب ما تيسر منها ..

فقد رُوى عن صفوان بن سالم أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ: «يا يحيى» بالإمالة ، وهى غير لغة قريش ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «هى — أى الإمالة — لغة الأخوال من بنى سعد » ! .

وإذن ، فالاختلاف فى تلك القراءات ليس من شأنه أن يغير وجه القرآن ، ولا أن يحرف كلماته ، وإنما هو من باب التيسير للناس ، وعدم حملهم على ما لا يطيقون من النطق ببعض الحروف التى لم تتعودها ألسنتهم ، ولم تمرن عليها أداة النطق عندهم ! .

فى الصحيحين عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقرأنى جبريل على حرف ، فراجعته ، فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف » .

وروى الترمذى فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : إنى بُعثت إلى أمة أميّة ، فيهم الشيخ الفانى ، والعجوز الكبيرة ، والغلام ، قال: فمرهم أن يقرءوا على سبعة أحرف » .

---

(١) انظر كتاب : تنوير الأذهان فى الرد على مدعى تحريف القرآن .. لمحمد زكى الدين ص ٥٦ « من هامش كتاب السيف الصقيلى » .

وليس من معنى هـذه التوسعة على الناس أن النبى صلى الله عليه وسلم أطلق للناس أن يغيروا ويبدلوا كيف يشاءون فى القرآن .. فالقرآن أولا وقبل كل شىء مسجل فى كتاب أشرف عليه النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ، واتخـذ له من بين من يحسنون الـكتابة من أصحابه من يكتبون الوحى أولا فأولا ، منذ الأيام الأولى للوحى السماوى .. وذلك إلى جانب الحفظ الغيبى من الرسول وصحابته ! .

وهذا الحرص الشديد من النبى صلى الله عليه وسلم على كتابة القرآن الـكريم ، له دلالاته الواضحة ، فى أن يضمن للمسلمين مرجعاً يرجعون إليه ، ويأخذون عنـه القرآن ، إن اختلفوا فى آية من آياته ، أو كلمة من كلماته ، أو حرف من حروفه ! .

ثالثاً : يشغب الشاغبون على القرآن بأن خلافاً قد وقع فى كلمات لا فى حروف ، وأن هناك زيادات أو نقص بين بعض المصاحف التى كانت فى أيدى الصحابة .. بل إن الأمر لأكثر من هـذا ، فهناك سور كاملة توجد فى بعض المصاحف ، على حين خلت الأخرى منها !! .

فـكيف يقال بعد هذا ، ومع هذا ، إن القرآن لم يغير ولم يبدل ! ؟

والقوم إنما يحاجّـون هنا بما أثبته علماء المسلمين وفقهاؤهم ، وبما نقلوا عن النبى صلى الله عليه وسلم من أحاديث ! .

ونقول فى إيجاز ــ حيث أن هذه الشبهة مَحيلة باهتة تسقط لأول نظرة ــ نقول: إن مايقال عن اختلاف بين المصاحف، فى بعض الـكلمات ، إنما سببه تعليقات خاصة لأصحاب هذه المصاحف ، أرادوا بها تقييد لفظ مطلق ، كما وجد فى مصحف عائشة فى قوله تعالى فى كفارة اليمين « فصيام ثلاثة أيام » إذ ألحق بها كلمة « متتابعات » .. وهذه الـكلمة ليست قرآنا من غير شك ، وإنما هى قيد لهذا الحـكم المطلق ، كما تلقته

من النبى صلى الله عليه وسلم ، فأثبته لترجع إليه ، وليكون تحت نظرها عند الرجوع إلى هذا الحكم .

وهكذا كل ما جاء من ألفاظ زائدة ، هو من هذا القبيل .. هى تعليقات وشروح، فى هذه المصاحف الخاصة ، التى لم تكن إلا لأصحابها وحدهم ، ولم تكن للتداول بين الناس .

وكذلك الشأن فيما يروى من وجود سور زائدة فى القرآن .. مثل ما يقال عن سورتى الحفد والخلع ، فهى أدعية وتسابيح ، تلقاها المسلمون عن الرسول ، فأثبتوها فى مصحف إلى جانب صحف القرآن ، وليست قرآنا .

وأما ما يتعلق به أصحاب هذه الشبه من الحديث النبوى الذى رواه أحمد فى مسنده ، والذى جاء فيه أن جبريل قال بعد أن استزاده النبى صلى الله عليه وسلم حتى بلغ سبعة أحرف : كل شاف كاف ، مالم تختم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب» وأن ذلك قد فتح الباب على مصراعيه لمن يغير ويبدل فى القرآن حسب ما يحضره منه — فإن هذا المتعلق إنما تولد من سوء نية ، واعتلال قصد ، وإلا فإن هذه التوسعة ليست على إطلاقها ، وإنما هى لمن يقرءون القرآن للذكر ، أو فى الصلاة ، فى أحوال لا يحضرهم فيها النص المحرر للآية . فيقرؤها القارىء كما وعاها ، ثم لا عليه إن قرأ كلمة مكان كلمة بمعناها . ويكون هذا أشبه بمن يقرأ آية مترجمة بمعناها ، ثم يبقى بعد هذا الرجوعُ إلى القرآن كما هو مكتوب فى المصاحف ، أو محفوظ فى صدور الحافظين ، يطلبه الطالبون عند التحقيق والتثبت ، فيجدون النص الذى نزل به ! .

وفى هذا ما فيه من اليسر ، ورفع الحرج عن قارىء القرآن فى أحوال لا يجد فيها النص المحرر بين يديه ! .

ومما يشهره المحاربون للإسلام والطاعنون فى القرآن من أسلحة مفلولة ، هذا الخبر الذى يروى عن ابن عمر ، أنه كان يقول : « لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله ،

وما يُدريه ما كلّه ؟ فقد ذهب منه قرآن كثير ، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر » .

ويمسك المبطلون من هذا الخبر ببعض ألفاظه ، منقطعة عن بعضها ، ومعزولة عن السياق الذى ينتظمه الخبر كله .. مثل النهى عن القول . بأخذت القرآن كله .. فقد ذهب منه قرآن كثير ! .

وظاهر هذا أن شيئاً من القرآن قد ضاع ، بل وهذا الضائع قرآن كثير ! .

وعلى هذا . فالقرآن بصورته تلك التى يتحدث عنها ابن عمر ليس هو القرآن الذى بلّغه النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو بعض هذا القرآن ! !

ومن ثَم كان القول بأن القرآن لم يُبدل ولم يغير قول لا يتفق والواقع ، الذى يشهد به شاهد من أهل القرآن .. هو ابن عمر ! .

ومع أن بن عمر يتحدث حديثاً واضحاً عن القرآن ، وما يحمل من وجوه المعانى — كما سنكشف عن ذلك بعد قليل — فإن بعض العلماء والفقهاء قد فهموه على غير وجهه ، وخرجوه تخريجاً وقع بعيداً عن القصد الذى قصد إليه ! .

فالسيوطى فى إتقانه قد فهم هذا الخبر على أنه إشارة إلى ما فى القرآن من ناسخ ومنسوخ ، وأن الكثير الذى ذهب من القرآن هو ما نُسخ منه ! وهذا ما لا يمكن أن يكون من معطيات هذا الخبر بحال أبداً .

وإنه على فرض وجود النسخ فى القرآن — وهو مالانسلم به(١) فإن المنسوخ إن كان قد نسخ حكمه وبقيت تلاوته فهو قرآن ، لايدخل تحت حكم النهى عن القول

---

(١) انظر كتابنا « إعجاز القرآن » — الجزء الثانى — « النسخ فى القرآن »

بأخذت القرآن كله ، إذ هو جزء من هذا الكل ، وإن كان المنسوخ قد نسخ حكمه وتلاوته ، فهو ليس قرآناً أصلا ، لا يتعلق به قول ، ولا يتجه إليه حكم ! .

والرأى عندى فى خبر ابن عمر هذا، كما تنطق كلماته فى وضوح مشرق ،هوأن القرآن حمّال وجوه، وأنه يطوى فى كيان كلماته وآياته من دقيق المعانى ،ووجوه الحقائق ، ما لا ينكشف للنظرة الأولى ، ولا الثانية ، ولا الثالثة،ولا لمئات النظرات ، وإنما تنكشف هذه المعانى وتلك الحقائق ، حالا بعد حال ، بل وعصراً بعد عصر ، دون أن تنفد ! .

فابن عمر، يلفت قارىء القرآن ودارسه إلى هذه الحقيقة ، حتى لا يدخل فى حسابه إذا نظر فى آية أنه أخذ كل معطياتها .. وما يدريه ما كل معطياتها .. إنها شىء كثير ، لا ينفد أبداً ..

وانظر فى قول ابن عمر : « فقد ذهب منه قرآن كثير » تجد الضمير فى« منه » يتجه اتجاهاً مباشراً إلى قارىء القرآن ودارسه ، لا إلى القرآن نفسه ، كما فُهم الخبر خطأ على هذا الوجه ! .. وتجد لهذا المقطع من الخبر معنى يتسق اتساقاً لازماً مع المقطع الذى جاء بعده ، متمماً له ، وشارحاً .. « ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر » .. فكلمة ما ظهر هى مفتاح الخبر كله ، وركيزة مضمونه ..

ويكون مفهوم الخبر كله هكذا : لا يحسبن قارىء القرآن ودارسه أنه أخذ من القرآن كل ما فيه من معان وأسرار ، وإنه إن يكن قد أخذ شيئاً فقد غابت عنه أشياء ، وخفيت أشياء ، وما خفى وغاب أكثر مماأخذ ، والقول الحق ،هو أن يقول: « أخذت ما ظهر لى منه ، وما وفقنى الله إلى فهمه ، وهدانى إلى معرفته ، مما يحمل من الحقائق والأسرار ! .

ذلك هو الذى ينطق به ابن عمر ، وما كان لابن عمر أن يقول فى القرآن غير

هذا ، أو أن يتحدث عنه بما يشعر بنقصه وضياع أكثره ! فذلك من شأنه أن يدير النظر عن القرآن الباقى إلى القرآن الذى ذهب ، ويفتح أبواب التساؤل عن هذا الذى ذهب من القرآن . ما هو ؟ ولم ذهب ؟ وأين ذهب ؟ وما السبيل إلى العثور عليه ؟.. وهكذا إلى مئات الأسئلة التى لا تجد إلا الحيرة جواباً لها ؟ .

أفهذا رأى ابن عمر فى القرآن ؟ وهذا معتقده فيه ؟ .

بل أهذا ما يمكن — على أى وجه من وجوه الإمكان — أن تُفهم عليه كلمات هذا الخبر ، وتحدث به ؟.

والجواب ما حدثتك به ..

وإن شئت فالتمسه فى أى وجه تراه !

* * *

وبعد، فإنه ما كان بنا من حاجة إلى الحديث عن القرآن ، وعن الدفاع عن صحته وسلامته .. إذ القرآن مستغن بذاته عن أن يقوم إلى جانبه من يدافع عنه ، أو يدفع الشبه عن وجوه الحق فيه .. وهو فى معرض النظر لكل ناظر منذ أربعة عشر قرناً . وقد أخذته الأنظار من كل صوب : تتفحصه ، وتتلمس العلل للطعن فيه ، من أول يوم التقى فيه بالناس . فما رأى فيه الراؤون إلا جلالا تخضع له الأعناق ، وإلا روعة تخشع لها القلوب .. من عدو وصديق ! ثم . مع هذا كله ، وبعد هذا كله .. فهذا هو القرآن قائما يتحدى العالمين أن يأتوا بسورة من مثله ، أو ينقضوا حقيقة من حقائقه . أو يبطلوا حكما من أحكامه .. فإن فعلوا ، فقد أذِن لهم القرآن أن يقولوا فيه ما يقولون ، وأن يصفوه بما يصفون . ويومها — ولا يوم لهذا اليوم — لا يجدى عن القرآن دفاع ، ولا يغنى عنه مدافعون ! .

ولكن حديثنا عن القرآن هنا ، كان فى مقابل التوراة والإنجيل ، وكان فى مواجهة ما يقول أصحاب التوراة والإنجيل عنه ، حتى إذا حاكمناهم إليه فى قضية المسيح، كنا قد أبرأنا ذمتنا بإزالة الشبه التى علقت بعقولهم عنه ، وكنا قد أنصفناهم ،إذ عرضنا لهم ما بأيدينا من حق ، فإن أخذوا به « فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » ! .

* * *

وأما وقد عرضنا مصادر القضية الثلاثة — التوراة والإنجيل والقرآن — وعرفنا وجوهها ، وما يقوم بين يدى كل منها من أمارات تشهد لها أو عليها — فإنه قد آن لنا أن نلتقى بالقضية مواجهة ، وأن نستدعى لها شهودها ، ونستمع لمقولاتهم فيها .. وسيكون لنا مع كل شاهد حساب وتقدير .

والقضية كما تعلم ، ذات شعب أربع . التجسيد ، والتثليث ، والصلب ، والقيامة.

وعلى هذا فسيكون نظرنا فيها آخذا وجهته مع هذه الشعب .. واحدة ، واحدة .. ثم تكون لنا نظرة عامة تحيط بجوانب القضية كلها .. !

وهذا ما نحن آخذون به منذ الآن .

* * * *

الباب الثانى

التجسيد

الفصل الأول

الكلمة تتجسد :

بدأ « يوحنا » إنجيله بهذا المقطع : « فى البدء كان الكلمة .. والكلمة كان عند الله .. وكان الكلمة الله .. كل شىء به كان .. وبغيره لم يكن شىء مما كان .. فيه كانت الحياة .. والحياة كانت نور الناس .. والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا » .

هذا النص هو إحدى الدعائم القوية التى قامت عليها عقيدة « التجسيد » عند أتباع المسيح ، وهو الركيزة الأولى التى استند إليها دعاة المسيحية الأولون ، فى تشكيل العقيدة المسيحية ، وفى إعطائها الصورة التى طلعت بها على الناس ! .

لقد فهم دعاة المسيحية ومبشروها من هذا النص أن الكلمة هى الله ، وأن الله هو الكلمة ، أن الكلمة قد خلق كل شىء ، وأنه صار جسداً وحل بيننا فى شخص المسيح ، الذى رآه الناس فى عصره الذى ظهر فيه ، فى أرض اليهودية ، وقام بدعوته فى مواجهة اليهود ، وطلع عليهم بمعجزات قاهرة ، اختلف الناس من أجلها فى تصور حقيقته ! .

ومفهوم هذا النص على هذا الوجه ، لا يسلَّم به ، إلا مع كثير من التجوز الذى يحْرِج المنطق ، ويختل العقل عن وجوده ! .

فهناك مثلا :

كلمة : « فى البدء » .

أى بدء تعنى ؟ ما حدّه الزمنى ؟ وإذا كان له حد زمنى ، فهل يكون له متعلق بالله ؟ وهل ذلك مما يليق بكمال الله الذى لا يحصره شىء .. زمانا أومكاناً ؟ .

«والكلمة هو الله» والكلمة كان فى البدء.. فهل لله بدء؟ وماذا كان قبل البدء ؟

لا يقول بهذا القول أحد من المؤمنين بالله ، والمقرين بوحدانيته ، ومنهم بالطبع أتباع المسيح ، الذين يقولون بعد تفريق الأقانيم الثلاثة وجمعها . « إله واحد.. آمين» ! .

فالله سبحانه — أول بلا إبتداء ! .

ثم كلمة : « والكلمة كان عند الله » !

فماذا تعنى « العندية » هنا ؟ .

وكيف يتفق أن تكون « الكلمة » بدءاً ، بمعنى الأولية المطلقة .. ثم توصف بأنها كانت عند الله ؟ ثم أخيراً .. كيف ترتفع هذه « العندية » ويكون «الكلمة» هو الله ، لا عند الله ؟ .

هذا التناقض هو ما يعطيه هذا النص ، كما تنطق بذلك ألفاظه وعباراته .. أما حمله على غير هذا المحمل فهو من واردات المتأولين ، ولحسابهم !

فهل يرجع ذلك إلى التسامح فى الترجمة ، وعدم دقتها ؟ قد يكون ! .

أو أن ذلك كان عن مفهوم سابق لقضية مفروغ منها ، ثم حُملت القضية حملا على هذا النص ، وألزمت ألفاظه إلزاماً أن تلبسه ، وتتسع له ؟ قد يكون .. وهو الأولى ، والأظهر ! .

ولكن يحسن بنا أن نستحضر هنا ما أشرنا إليه من قبل ، عن الظروف والملابسات التى كتبت فيها الأناجيل ، وما نجم عن ذلك من اختلاف وتناقض فيما بينها .. فذلك من شأنه أن يجعل لنا الحق فى أن نناقش نصوص الأناجيل ، وألا نمنحها التسليم المطلق ، كما لو كانت الإنجيل الذى نزل على المسيح ، وبشر به ! كما يحسن بنا أيضاً ، ونحن مع هذا النص من إنجيل « يوحنا » أن نلتفت لفتة خاصة إلى هذا الإنجيل بالذات ، وما قيل فيه من مقولات ، كما ننظر فى الحال التى كتب فيها ، والغاية التى قصد إلى كتابته من أجلها ! .

فهذا الإنجيل « لا يدعى كاتبه — كما يقول ول ديورانت — أنه ترجمة يسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية ، بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ للبشرية ! » .

ومعنى هذا أن كاتب هذا الإنجيل ، كان وهو يكتبه يضع نصب عينيه قضية ، يريد أن يقيم لها حيثياتها ، من حياة المسيح ، ومن بشارات العهد القديم عنه !

ولهذا فإنه لم يقف عند شىء من الأحداث والأخبار التى جاءت فى الأناجيل الثلاثة الأخرى عن حياة المسيح ، والتى لم يكن لها أهمية فى خدمة هذه القضية التى قصد إليها كاتب هذا الإنجيل ، وهى تجلية شخصية المسيح باعتبارات ثلاثة ، هى . أنه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية !

يقول « ول ديورانت » عن إنجيل يوحنا هذا : « وهو يناقض الأناجيل الأخرى فى كثير من التفاصيل ، وفى الصورة العامة التى يرسمها للمسيح ، وأن ما يصطبغ به من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان ، بل بالمعرفة .. وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية — قد جعل الكثير من الباحثين

فى الدين المسيحى يشككون فى القول بأن واضعه هو الرسول « يوحنا »[1] .

ومن جهة أخرى .. فإن « ول ديورانت » يعلق على فكرة « التجسيد » التى أبرزها « يوحنا » فى إنجيله ، وينسب ذلك إلى تأثره بالأفكار التى كانت سائدة فى عصره ، من التفكير اليونانى .. يقول « ول ديورانت » :

«وكان بطليموس من قبله — أى من قبل يوحنا — قد نشر تلك العقيدة الخطيرة القائلة : « إن أفكار الله هى النمط الذى شكلت بمقتضاه الأشياء كلها » .. « ثم جمع الرواقيون هذه الأفكار فى عبارتهم المألوفة « فكرة الله المحض » .. ثم جسد الفيثاغوريون الجدد هذه الأفكار فجعلوها شخصاً قدسياً ، ثم استحالت على يد « فليون » [2] إلى « عقل الله » . . أى إلى عنصر ثان ، به يخلق الله الخلق ، ويتصل بالعالم»..[3] وسنرى أن العقل المسيحى قد أخذ هذه الفلسفة كما هى، وتنقل بالمسيح فى أطوارها طوراً طوراً ، فكان الكلمة المتولدة عن فكر الله المحض ، ثم كان الكلمة المتجسدة فى شخصه القدس .. ثم كان « العقل » الذى يقوم فى ذات الله ، والذى يخلق الله به العالم ، ويتصل بالكائنات .

ثم كان من مفهوم الكلمة التى تجسدت ، أو تأنست — أى صارت إنساناً قدسيا فى جسد — هو أن الله أراد أن يعلن عن ذاته للناس ، حتى يستطيعوا أن يروه عياناً ، وعن قرب ، بعد أن ظلوا دهوراً طويلة — قبل المسيح — يبحثون عنه بطرق شتى ، فيتراءى لهم من خلال أوهام وظنون ، ويتحدث إليهم من وراء حجب وأستار ! .

---

(١) قصة الحضارة جزء ١١ ص ٢٠٩ .

(٢) فيلسوف يهودى ، من أكبر فلاسفة اليهود ، ولد سنة ٣٠ ق . م . وتوفى سنة ٥٠ م .

(٣) قصة الحضارة .. جزء ١١ — ص ٢٧٤

يقول ج . ر . و . سنوت صاحب كتاب « المسيحية الأصلية »

«عندما يبلغ الإنسان فى تفكيره حد البحث عن الله يقف حائرا مشدوها، يتخبط فى ظلام ، ويتعثر فى دياجير الدجى ، فيضيع » !

« ولكن . . هل فى هذا غرابة ؟

« لأن الله أيا كان كائن سرمدى ، دائم غير محدود . . بينما نحن البشر كائنات فانية محدودة . . إنه فوق إدراكنا !

« كذلك مع أن عقولنا كآلات عجيبة فعالة ومتوقدة فى الميادين الأخرى ، تضحى عديمة النفع فى هذا المضمار، فهى أقل من أن ترقى إلى فكر الله السرمدى..»

وهذا كلام سليم جميل، يسلم به كل عاقل .. فالله سرمدى غير محدود ، وعقولنا قاصرة فانية ، محدودة ، وليس للمحدود أن يدرك غير المحدود ويحيط به !

وكان من مقتضى منطق هذا القول أن تقف عقولنا عند حدها ، و ألا تقتحم هذا الحمى الذى لا سبيل لها إليه ، وإلا ضلت وهلكت !

ولكن اللسان الذى يقول هذا القول ويرسل هذا المنطق المستقيم ، لا يلزم نفسه به ، بل إنه لا يكاد يفرغ منه حتى يضرب به وجه الأرض ، ويحمل تفكيره على طريق مخالف له ، وكأنه إنما يتعمد هذه المخالفة . . ويعالن بها ! !

وإلا فما معنى أن يقرر الإنسان أمرا ، ويقيم له منطقا ، ليقع موقعه من القبول والرضا فى العقول وفى القلوب — ثم يعود من قريب مشاقا لهذا الأمر ، آخذ الوجه المخالف له ؟

هكذا يفعل أصحاب التجسيد والتثليث . . ! !

يقولون : إن الله أزلى أبدى ، واحد ، لاشريك له ، بعيد عن متناول القوى ، لاتحيط به المدارك ولا تحتويه الظنون — يقولون هذا ثم يعودون فيعرضون الله عرضا مجسدا ، يقلبونه بين أيديهم وكأنه بضاعة مزجاة . وإذا بهم يدخلون فى ذات الله ،فيرون له عقلا ، ويرون لهذا العقل تفاعلا مع الذات، ويرون لهذا التفاعل أثرا.. هو « الكلمة » . . ثم ينتهى بهم المطاف إلى أن ينقسم الله فى ذاته إلى ثلاث ذوات، لكل ذات عملها وشأنها ، وكأنها جارحة من الجوارح فى جسد بشرى !

ثم لعلك نسيت مايقرره صاحب « المسيحية الأصلية » من تقديس لذات الله فى الكلمات التى نقلناها عنه منذ قليل . . فعد إليها لتكون على ذكر منها وأنت تقرأ هذه الكلمات الموصولة بها ، والتى تجىء إليك بوجه آخر عن الله ، غير هذا الوجه الذى رأيته فى كلماته السالفة . . فها هو ذا يقول عن ذات الله وعما بين هذه الذات وبين الكائنات المخلوقة ، من تعالٍ وسمو :

« فلا يوجد سُلّم . ولكن توجد فقط هوة واسعة لاحد لها . . ! !

«ولو لم يكن الله بادر وتدارك الأمر ابقيت الحالة على ماهى عليه ، ولظل الإنسان بلارجاء ، يتخبط فى دياجير اللا أدرية .

« ولكن الله تكلم !

« لقد بادر وأعلن نفسه ! »

هذا وجه من تفكير المسيحية فى الله ، ثم فى إعلانه عن ذاته ،وتجسد الكلمة فى المسيح . .

لقد كان بين الله والناس هوة واسعة لاحد لها ، قبل إعلانه عن نفسه فى هذه الصورة المجسدة ، أما بعد أن تجسد فقد سويت هذه الهوة وملئت بظهوره فى المسيح !.. هكذا يقولون !

وكان الناس من قبل بلا أمل ولا رجاء فى الله ، يتخبطون فى دياجير الـلا أدرية قبل أن يروا الله عيانا مجسدا فى الـكلمة « يسوع » !

فلما أعلن الله عن نفسه هذا الإعلان، داناه الناس، واتصلوا به وقويت آمالهم فيه، وفى رحمته ومغفرته ! وهكذا يتصورون !

والسؤال الذى يلح على العقل هنا هو :

كيف كان إيمان الأنبياء والرسل الذين كانوا قبل المسيح ؟ وكيف كان رجاؤهم فى الله ، وتعاملهم معه ؟ وكيف كانت صلتهم بالله مع وجود هذه الهوة الواسعة التى لاحد لها، والتى تفصل بينهم وبينه ؟

إنه إيمان باهت غامض ، بل إنه ليس إيمانا مطلقا . . إنه أوهام وظنون !

هكذا يتصور أصحاب التجسد ما بين الله والناس من عزلة باردة مقفرة.. لا يقطعها عقل ، ولا يحوم فيها خاطر . . حتى جاء المسيح فوصل ما بين الله والناس !

ولم يقع فى تفـكير أصحاب التجسيد وهم يتصورون هذا التصور ، أن عدل الله يضطرب ميزانه هنا، حين ترك الإنسانية تلك الدهور الطويلة فى عزلة وجفوة منه. ثم إذا به فى آخر الزمان يبدى لها وجهه ، ويمد إليها يده !

لقد ذهبت الإنسانية كلها مع أنبياء الله ورسله إلا هذه البقية التى أدركها المسيح — ذهبت كلها بيد الضلال والضياع . . ثم كيف يقال مع هذا إن الله أحب الإنسان: « أحب عالما مليئا بالخطاة الأئمة ، وسعى وراءهم ومات من أجلهم». (١) «أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملـكوت ابن محبته »(٢) . . «أحب العالم حتى بذل ابنه

---

(١) المسيحية الأصلية صـ ٢٣

(٢) رسالة بولس إلى أهل كورنثة : ١ ، ١٣

الوحيد، لكى لايهلك كل من يؤمن به، حتى تكون له الحياة الأبدية (١) كيف يقال مع هذا إن الله نسى الإنسان .. هذا الذى بذل له نفسه أو ابنه الوحيد لإنقاذه ؟

إن الذى ذهب من الإنسانية أضعاف أضعاف مايقدر له النجاة منها ، إن كانت النجاة والخلاص لايتحققان إلا بعد تجسد الله أو الكلمة فى المسيح ، ثم الإيمان بهذا التجسد والدخول فى شركة الجسد معه ؟

ثم ماهذه الهوة التى بين الله والناس ؟ أو بين الله والوجود كله ؟ ألأن الله فى علوه وسموه يكون بعيداً عن العالم منعزلا عنه ؟ أهو كائن مادى إذن ؟ لاسلطان له ينفذ به إلى كل موجود أوجده ؟ إن الشمس على بعدها البعيد تغمر هذا الوجود الأرضى بنورها وتبسطه على كل جانب منه ؟

فكيف بالله وبقدرته التى لاحدود لها ، وبسلطانه الذى يعلو كل سلطان ؟

ألا تستطيع قدرة الله أن تملأ هذا الفراغ أو تلك الهوة السحيقة التى بين الله — فى علوه ، وبين المخلوقات فى انخفاضها ؟

ثم هذه المخلوقات .. ألا يحتويها شعور بسلطان الله عليها وامتلاكه لناصيتها ؟ إن كثيرا من أصحاب القوة والسلطان فى الناس ، يخشاهم الناس ويتمثلون شخوصهم حاضرة فيهم ، قائمة عليهم ، من غير أن يروهم رأى العين ، بل وأكثر من هذا .. فقد يكون هذا السلطان الشخصى وهمياً لاوجود له ، تخلقه فى عقول الناس دعوات أو دعايات لاتقوم على أساس ، ولا تستند إلى واقع ! !

فالهوة العميقة التى يقال إنها قائمة بين الله والناس لاوجود لها فى أى تصور للإله

(١) إنجيل « يوحنا » ٣ : ١٦

المعبود . . فما عبد الناس الإله الذى عبدوه إلا وقد وصلوا أنفسهم به ، وتمثلوه قائما عليهم، فى كل شأن من شئونهم ، دون أن يروه أو يعرفوا له وجها .. سواء أكان هذا الإله هو الله الحق أم كان من تصورات الوهم والضلال.. إنه على أى حال قوة لها حسابها ، ولها وجودها القائم فى كل عقل ، وسلطانها المبسوط على كل قلب !

إن هذه الهوة إنما هى من زعمات الزاعمين ، ليجيئوا إليها بمن يملؤها ؛ وان يملأها ـ فى زعمهم ـ إلا الله نفسه ، أو من كان نائبا عنه ، ممثلا له ..! متجسدا فى جسد إنسان !

وندع هذا إلى خاتمة هذا البحث، حيث تكون لنا وقفة مع مقولات المسيحية كلها.. وننظر الآن فى قضية « التجسيد » وفى الفلسفة التى خرّجها عليها العقل المسيحى وصورها به !!

* * * *

الفصل الثانى

من أين تبدأ قضية التجسد ؟

تقوم عقيدة التجسيد عند المسيحية على فلسفة عميقة ، ذات جذور بعيدة ضاربة فى أعماق التفكير الإنسانى ، منذ كان للعقل قدرة على البحث والنظر فى أعماق الوجود، ومنذ كان له تطلعات إلى ماوراء الطبيعة !

لم يكن فى وسع دعاة المسيحية الأولين أن يبشروا بمسيحية لا تقرر وحدانية الله ، إذ كان هؤلاء الدعاة أنفسهم يهودا يؤمنون بإله واحد ، وكانت عقيدة اليهود قد رسخت الإيمان بوحدانية الله، منسجلة ذلك فى أسفار العهد القديم ، وفى الفلسفات التى دارت فى محيطها !

ولهذا، فإن دعاة المسيحية ـ وخاصة داعيتها الأول « بولس » ـ قد حاولوا أن يُنزلوا الله الواحد إلى الأرض، حتى يراه الناس رأى العين، وبخاصة الرومان، الذين كانوا يرون أربابهم ممثلة فى تلك التماثيل، التى يرمز كل منها إلى إله ذى تصريف خاص به فى هذا الوجود، فهذا إله للرياح ، وذاك إله للخصب ، وتلك إلهة للجمال ، وهذا إله للخمر وذا إله للحرب . . وهكذا . .

وكان هذا التدبير من دعاة المسيحية فى تجسيد الإله، منظورا إليه ـ باعتبارين :

الاعتبار الأول: أن « المسيح » وقد بهر الناس بمعجزاته وآياته قد انتهت حياته نهاية محزنة مفجعة ، لم يكن يتوقعها له أحد من أتباعه ، الذين شهدوا ماشهدوا من القوى الروحية المشتمل عليها فى كيانه، كما رأوا عن قرب ومداناة، لطفه ووداعته ورقة

شمائله ،وعفة لسانه ، ورحمة قلبه ،وسلامة طويته .. فكانت النهاية التى انتهت بها حياته ـ كما شهدوها بأعينهم ـ داعية إلى إدامة النظر والتفكير ، وتقليب وجوه الرأى فى حياته كلها،حتى يمكن أن يقع العقل منها على صورة تجمع بين أولها وآخرها، وتؤلف بين بدئها وختامها !

ولو أن المسيح قتل قتلا ، أو شنق شنقا لكانت نهايته على هذا الوجه أمراً يمكن أن يقبل أو يحتمل ،حيث لقى كثير من أنبياء الله ورسله مثل هذا المصير ، على يد الأشقياء الأغبياء من أقوامهم ، فكان موتهم على تلك الصفة شهادة مبرورة لهم عند الله . .

ولكن المسيح لم يقتل ، ولم يشنق . ! بل مات ميتة شنيعة .. مات مصلوبا!!

والصلب فى شريعة اليهود ـ كما يشهد الكتاب المقدس ـ هوحكم على المصلوب باللعنة الأبدية ، والطرد من رحمة الله !!

« ملعون من عُلّق على خشبة » . . هكذا يقول الكتاب المقدس

وهذا هو حكمه على كل من لقى مثل هذا المصير المشئوم ! ! . . اللعنة والطرد من رحمة الله . . إذ كان لا يصاب إلا من جدّف على الله وكفر به !

وقد وقع المسيح تحت هذا الحكم وصلب ! لأنه فى نظر اليهود الذين ساقوه إلى الصلب ـ كان مجدفا على الله كافرا به ، إذ أخذوه بكلمات جرت على لسانه ، مثل قوله لشخص : « مغفورة لك خطاياك » ! ولا يغفر الذنوب إلا الله !

فكانت تهمة المسيح عند اليهود أنه مجدف وإذ كان المسيح يهوديا فإنه ينبغى أن يدان بشريعة اليهود . . وهو الصلب !

فما المخرج من هذا الحكم الذى لا شك ـ عند أتباع المسيح ـ فى أنه وقع محققا ؟

كان لا بد من أن تلتمس وسيلة ينجو بها « المسيح » من هذه اللعنة ، لعنة الصلب

ثم لابد أن يكون لموته على تلك الصورة ثمن مجزٍ ، فلا يذهب دمه هَدَرا ؟

وقد فكر دعاة المسيحية وقدّروا ، ثم فكروا وقدروا ، ثم أطالوا التفكير والتقدير . ! وانتهى بهم هذا إلى مقولات يقولونها فى صلب المسيح ، ويخرّجون مأساته عليها !

فهو لم يصلب عبثا ، وإنما كان ذلك عن حكمة وتدبير ! ! إنه لخلاص الإنسانية من الخطيئة التى ولدت فيها منذ معصية آدم ! (١)

وكيف يكون صلب إنسان واحد خلاصا للإنسانية وغفرانا لخطيئتها ؟

سؤال أجابت عليه المسيحية ، أو بمعنى أصح أجاب عليه دعاتها وواضعو لاهوتها من أول الأمر . .

قالوا : إن الذى صلب ليس مجرد إنسان . . وإلا لما كان لصلبه هذا الأثر الذى أحدثه ، ولا كان للإنسانية فيه هذا الأمل الذى تقدره !

وماذا يكون إذاً هذا المصلوب ؟

إنه هو كلمة الله . . أو ابن الله الوحيد !

وكيف يرضى الله لابنه أن يُصلب ، ويلقى هذا المصير المفجع ، ويتحمل هذه الآلام التى صورتها الأناجيل ؟

هنا يبدأ دور الفلسفة للإجابة على هذه الاعتراضات وتسويتها على وجه له منطق ، وله حجة ، وبين يديه ومن خلفه ، الأدلة والبراهين .

وندع قضية الصلب وحكمتها . . فلها بحث خاص فى هذا الكتاب ،(٢) وننظر فى حقيقة هذا الابن المصلوب ؟

---

(١) سنعقد لقضية الصلب بحثا خاصا ، والذى ننظر إليه هنا من هذه القضية هو لمحة خاطفة تلقى ضوءا على تجسد المسيح .

(٢) انظر البحث الخاص فى هذا الكتاب عن قضية الصلب .

وهل من الجائز أن يكون لله ابن ؟

القضية قديمة :

ونسبة البنوة إلى الله ليست غريبة على العقل البشرى ، ولاهى بالمستحدثة فى تفكيره . .

فقد كان فراعنة مصر يعتقدون أنهم آلهة وأبناء آلهة . . وكذلك كان الشأن عند قياصرة الرومان وأكاسرة الفرس وغيرهم من أصحاب الملك والسلطان . . إنهم كانوا ينظرون إلى الناس من سماوات عالية ، كما كان ينظر إليهم الناس من هذه الأرض ، على أنهم آلهة ، نزلوا من السماء ، فقدسوهم وعبدوهم . . ! !

« وكان أتباع الفيلسوف اليونانى فيثاغورس (١) يعتقدون أنه ابن الإله « أبولون » وأنه لم يمت وسيبعث بعد حين ، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ، ويلقنهم عظات الحكم والأخلاق الحسنة (٢)» .

وعلى هذا فإنه إذا قال دعاة المسيحية بأن المسيح ابن الله فإنهم لم يقولوا بدعا من القول لم يعرفه العقل البشرى ، وإن يكن بدعاً وتجديفا فى الشرائع السماوية كلها . . « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله . . إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ... سبحان الله عما يصفون » (٣) .

سائغ إذن لدعاة المسيحية أن يواجهوا العقل الإنسانى فى ذلك الحين الذى بشروا فيه بدعوتهم ـ وخاصة العقل الرومانى :

---

(١) فيثاغورس ، فيلسوف يونانى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد .
(٢) المسيح ، للعقاد : ص ٧
(٣) سورة المؤمنون : ٩١

سائغ لهم أن يقولوا إن «المسيح» الذى ولد من مريم العذراء ، وبشّر فى اليهودية ، وصُلب فى عهد بيلاطس الرومانى ـ هو ابن الله الوحيد ، الذى أرسله إلينا ليخلص العالم من خطيئته، وليرفع سلطان الموت والفناء الأبدى عن البشرية ، التى كانت لولا المسيح وتجسّده وصلبه ـ صائرة إلى هذا المصير ! !

سائغ أن يقال مثل هذا القول ..

ولكن هنا سؤال يُسأل :

كيف ولد الله هذا الابن ؟ وكيف يلد غير المتجسد متجسداً ؟

هذه قضية جديدة ، فتح لها الجدل ألف كتاب وكتاب ،دون أن ينتهى بها إلى غاية ، أو يقف بها عند حد !

وتتضارب آراء أصحاب التجسيد أنفسهم ،وتأخذ مقولاتهم صوراً وأشكالا مختلفة مع مرور الزمن وانكشاف كثير من جوانب الضعف فى هذه المقولات . . إذ كان كلما أظهر الزمن عُوار مقولة وتهافتها أتبعوها بمقولة أخرى تمسكها من أن تسقط ، فتكون النتيجة أن يسقطا معا ، فترسل إليها ثالثة . ورابعة . . وهكذا !

وهذه المقولات لاتجىء هكذا أحكاماً مرسلة ، بل تلبس أثوابا زاهية من الخيالات والرؤى، وتبرز فى موكب فخم ينتظم أحداث ماقبل التاريخ .. وهنا يكون الكلام خارجا عن سلطان العقل ، لأنه من واردات ماوراء المعقول !

صور من ملحمة التجسيد:

وتحكى قصة التجسيد ملحمة من أروع الملاحم وأكثرها إثارة للخيال وإيقاظا لمواجد الإنسان وتطلعاته إلى ماوراء المحسوس !

ولابأس من أن نعرض هنا بعضا من مشاهد هذه الملحمة وصورها ، على ماصورها عليه دعاة المسيحية ، وواضعو لاهوتها . .

١ — التجسيد من أجل الفداء :

إذا كانت « قضية التجسيد » ـ تجسيد الله أو كلمة الله ـ هى مركز الدائرة فى العقيدة المسيحية ،فإنها لم تبرز كقضية تحتاج إلى حيثيات وإلى أدلة وبراهين تستند إليها تلك الحيثيات ، إلا بعد أن انتهت حياة المسيح ،وإلا بعد أن فُجع أتباعه فى هذا المصير الذى صار إليه ،وصار به واقعا تحت اللعنة ،حسب حكم الناموس ، الذى قضى باللعنة على كل من عاق على خشبة !

فكان هذا الحكم ـ كما قلنا ـ هو الذى أزعج أتباع المسيح،وأرّقهم طويلا ، فذهبوا يلتمسون له وجها تنزع به عن المسيح هذه اللعنة ، فإلا يكن ذلك ممكنا ، كان لا بد أن يلتمس لهذه اللعنة مبرر ، وأن يكون ذلك المبرر بحيث يتكافأ مع قبول المسيح « للعنة » واحتماله الصلب والآمه !

وقد تشعبت الآراء واختلفت وجوه النظر أول الأمر . . ثم التقت بعد قليل على أمر لم يكن هناك سبيل إلى غيره ، إذا أريد أن يكون لصلب المسيح وجه غير هذا الوجه الظاهر منه !

هذا الأمر ، هو أن المسيح ينبغى أن يكون إلٰها.. نزل من السماء، وأنه قدّم نفسه ذبيحة لرفع الخطيئة التى ورثها أبناء آدم من آدم !

وينبنى على هذا التصور للمسيح أمران :

أولهما : أن اللعنة التى حلت بالمسيح فى صلبه ليست بالتى تعلق به ،أو تُنزل من قدره ،كما تعلق بالناس إذا أصابتهم وتمس أقدارهم. وتهوى بهم فى مهاوى الهالكين. ذلك أنه إلٰهى حين تجسد ولبس ثوب الإنسان وتقلب فيما يتقلب فيه الناس من شئون الحياة وأعراضها !

وثانيهما : أن دم المسيح الإلٰهى لا يكون كفارة محدودة محصورة فى عدد من

الناس ، ولـكنه يتسع لحمل ذنوب الناس جميعا .. وبهذا ينفتح للناس باب الأمل في المغفرة ، إذا هم آمنوا به ،واتبعوا رسله ودعاته !

كان هذا التصور هو أقرب شيء إلى العقل الذى واجه هـذه المفـارقات التى كانت فى حيـاة المسيح ، وفى مماته ! . . فى حيـاته المشرقة الوضيئة ، وفى موته المفجع المهين !

إنه لايملأ هذه الهوة السحيقة التى بين حياته النقية الطاهرة ، وبين صلبه المؤثم إلا ذات إلهية لاتخضع لمنطق الحيـاة الإنسانية ، ولاتنزل على أحكامها ولاتقـاس بمقاييس البشر !

٢ — التجسد ليعلن الله عن نفسه :

وكان من تأويلات « المسيحية » للتجسيد بعـد أن عاشت زمنا فى عقيدة « التجسيد » من أجل غفران الخطايا ـ كان من هذه التأويلات أن « التجسيد » لم يكن « للمسيح » . . كلمة الله . . وإنما كان لله ذاته . !

فقد تدرجت المسيحية بالمسيح خطوة خطوة . . من إنسان يشبه يوحنا المعمدان، إلى إنسان فوق الناس ودون الملائـكة ، كما يقول عنه بولس فى رسالته إلى العبرانيين: « ولـكن الذى وضع قليلا عن الملائـكة « يسوع » نراه مـكللا بالمجد والـكرامة من أجل ألم الموت لـكى يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد»[1]..إلى كلمة الله ، ثم إلى ابن الله . . ثم إلى الله ذى الثلاثة أقانيم [2] .

نقول : وصلت المسيحية بالتجسد إلى أنه لذات الله .. أو المسيح الذى هو الله، ممثلا فى أقنوم « الابن » من أقانيمه الثلاثة !

---

(١) عبرانيين : ٢ : ٩

(٢) انظر مبحث التثليث فى هذا البحث

ولم يكن هذا التجسد للفداء وحسب، وإنما كان أيضا ليرى الناس الله رأى العين ، ولتملىء الهوة التى كانت تفصلهم عن الله طوال العصور التى مروا بها . وأطالوا النظر والتطلع إلى الله دون أن يروه !

يقول الدكتور ميشال الحائك ، مقارنا بين تصور المسلمين لله والتصور المسيحى له ، وما بين هذين التصورين من فروق ، وما يترتب على هذا من آثار ، حيث يبدو الإله فى التصور الإسلامى بعيدا منعزلا عن الناس ، تقوم بينهم وبينه هوة سحيقة ، لا يملؤها فكر أو خيال ، على حين لا توجد بين الله والناس قيد شعره فى التصور المسيحى له ، فهو إله متواضع ! يلبس جسد إنسان ، ويعيش فى طبيعة إنسان . . بل إنه لا يلقى الإنسان فى منتصف الطريق كما يقولون ، وإنما يلتقى به من أول الطريق .. فيولد طفلا متخلقا فى رحم !

— يقول الدكتور الحائك .

« فالإسلام يقوم على إله لم يعلن سر ذاته لأحد !

«وعلى قاب قوسين منه وقف محمد ليلة معراجه على حسب القرآن ، ولم يعط البشر من معرفتهم له سوى جهلهم به ، حسب قول أحد الصوفيين (١) » .

« فبين العبد والمعبود هوة عميقة لا يقطعها إنسان . . فليس إذن على العبد إلا التسليم أو الإسلام للإرادة التى لا تحتكم إلا إلى ذاتها ، فتهدى من تشاء وتضل من تشاء ! »

ونسأل : ماذا يمكن أن يكون للعبد من إرادة مع الله ؟ هل يملك أحد من أمر

(١) بل إن ذلك هو مقولة كل مسلم ، وقد روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان يقول : البحث فى ذات الله إشراك والجهل بذاته إدراك .

الله ومشيئته شيئا ؟ وهل يجوز فى حق الله وفى جلاله وعظمته أن يحتكم فى إرادته إلى غير ذاته . . ليهدى من يشاء ويضل من يشاء ؟

ثم يقول الدكتور الحائك .

« ولا تقلّ المسيحية تنزيها لله حين تعلن أن الله لا يدركه المحدود البشرى ! » ولـكنها توقن أن الله أوحى هو ذاته ذاتـه وسر وجوده !

« فذاته محبة » وهذه المحبة لا تدرك (١) ! !

إذ أن بها ـ أى بالمحبـّة ـ تجسدت « كلمة الله » فى ناسوت المسيح ، فأصبح الله قريبا للإِنسان فى المسيح !! »

ثم يقول :

«فعلى المسيح كان الاختلاف.. هو صخرة الشك التى بها يصطدم الناس جميعا، وعليه يقتتلون لو يعلمون !! كذا كان الأمر منذ ألفى سنة بين معاصريه فى أورشليم ، وكذا كان الأمر من بعده فى التاريخ ،وسيكون كذلك إلى نهاية الزمان ! »(٢)

وهذا قول يثير العجب والدهش ، ينـكر بعضه بعضا ويتبرأ أوله من آخره !

فالله يعلن نفسه للناس ، ليعرفوه ،وليجمعوا عقولهم المشتتة الضالة فى البحث عنه ! وهاهو ذا الله يتجسد فى المسيح .قريبا قريبا من الإنسان.. فى شخص الوسيط بين الله والإنسان . . المسيح ! !

---

(١) من قال إن كنه ذات الله هو المحبة ؟ إن ذلك تحكم فى ذات الله وتسلط قاهر من العقل عليها !! وإذا قيل فى الكتب إن « الله محبة » فليس معنى ذلك أن ذات الله هى المحبة ، بل الاقتراب من رضى الله والتعرض لرحمته هو فى المحبة التى تقوم بين الناس والناس!

(٢) المسيح « أمام المسلمين » — بفتح الهمزة من « امام » للدكتور ميشيل الحائك ص ١٥ .

فماذا كان ؟

كان هذا الاختلاف . . وكان هذا الشك الذى يصطدم به الناس جميعاً ،وعليه يقتتلون ! ! كذا كان الأمر منذ ألفى سنة بين معاصريه فى أورشليم،وكذا كان الأمر من بعده فى التاريخ ، وسيكون إلى نهاية الزمان !!

يا سبحان الله !

إن الأمر جد لا عبث فيه . . إنه يتعلق بذات الله والتعرف إليه ، ووصل العقل والضمير به . .

فماذا هذا التجديف على العقل ، والعبث بمنطقه ؟

هذه واحدة من مقولات القائلين « بالتجسيد » والشارحين لحكمته !!

وتلك مقولة أخرى . .

يقول صاحب المسيحية الأصلية :

«ولكن إذا أراد الإنسان أن يعرف الله «شخصيا» وأن ينال غفران خطاياه ، وأن يدخل فى شركة وعلاقة مع الله — ظهرت حاجته أكثر إلى إعلان عملى حبى . وأن ما يحتاج إليه الإنسان هو أن يكشف له الله نفسه ، لا سيما فى قداسته ومحبته وقدرته على الخلاص من الخطية . . وقد سُرّ الله أن يفعل ذلك . . وبهذه الوسيله وصلت « كلمة الله » إلى أنبياء كثيرين،إلى أن جاء يسوع المسيح أخيرا: « والكلمة صار جسدا وحل بيننا (يوحنا ١ ، ١ ، ١٤) (١)

لقد وجدت المسيحية فى هذا التجسد الإلهى للمسيح ،سواء أكان للفداء أو للإعلان

---

(١) المسيحية الاصلية ص ١٠ .

عن الله ،أو للأمرين معا — وجدت المخرج الذى تُخرج به المسيح من اللعنة التى عَلِقت به ، من الصلب على خشبة ، ذلك الصلب الذى اتخذ منه «اليهود» حجة قائمة على المسيح بأنه دَعِىّ ، مجدف على الله ، وإلا لما أوقعه الله تحت هذا الحكم ، الذى لا يقع تحته إلا الخطاة الآثمون المطرودون من رحمة الله !

ولكن هذا المخرج قد فتح على المسيحية ثغرات كثيرة من الاعتراضات ، لم يكن من اليسير سدها ، بل إنه كلما سد منها جانب فتحت جوانب أخرى ، ثم زادت اتساعا وعمقا ! !

وهكذا ظلت قضية التجسد تدور فى مجالات شتى ، وتتبدل أثوابا بأثواب . . دون أن تجد الثوب الذى تعيش فيه وتَلْقَى الناس به !

* * * *

الفصل الثالث

الشخصية المتجسدة .. من تكون ؟

قلنا إن قضية التجسد قد لبست أثوابا متعددة متباينة ، باختلاف الأحوال والأزمان ، وبتغاير النظرات التى كانت تنظر إلى المسيح، وتبحث عن المكان المناسب الذى تراه أهلا له .

وتكاد تجتمع وجوه الرأى – عند أصحاب التجسيد – فى شخص الذات المتجسدة ،فى ثلاثة وجوه:

الكلمة . . الابن . . الله

وهذه الوجوه الثلاثة التى تنقلت فيها عقيدة التجسيد إنما تمثل –كما قلنا – تطور العقل المسيحى ، واختلاف نظرته إلى المسيح ، من طور إلى طور ، حسب ماتقضى به الأحوال ،من تعديل وجه العقيدة،وإقامته على الوضع الذى يخفى ماأظهرت الأيام فيه من ميل أو عوج !

وإنه لكى تتضح لنا مسيرة العقل المسيحى مع قضية التجسيد – ينبغى أن ننظر من وراء النظر المسيحى إلى تلك القضية،فى وجوهها ،وجها وجها ،حتى إذا أخذنا القضية كلها بنظرة واحدة ،وجدنا هذا العقل يمسك بها من أطرافها ،ويقيمها على منطق أشبه بمنطق تداعى المعانى ، حيث لايحتاج معه الأمر فى ربط المعانى بعضها ببعض إلى داعية لازمة ، بل يكفى أبعد المناسبات وأوهاها لشد المعانى ووصلها ، فى سلسلة متتابعة الحلقات من غير أن تكون بينها رابطة نسب أو قرابة !

فالكلمة تتجسد ..!

ثم يتولد من هذه الخاطرة . . ابن ،هو الذى تجسدت فيه الكلمة !

ثم يتولد من هذه الصورة الجديدة للكلمة مفهوم للابن ،الذى ولد منها .. ويكون هذا المفهوم هو الله ذاته !

وأرانا قد عجلنا فأصدرنا الحكم ،من قبل أن ننظر فى وجوه القضية . . فلننظر إذن فى هذه الوجوه .

« الكلمة » تتجسد :

والكلمة التى تعنيها المسيحية هنا ،ليست واحدة من كلمات الله التى خاطب بها أنبياءه ، أو خلق بها مخلوقاته ، وإنما هى « فكر الله » أو «عقله» .

« فالمسيح » هو منتوج هذه الكلمة التى هى عقل الله أو فكره.. بل هو هذه الكلمة ذاتها ،حل فى جسد بشرى ، اتخذه من عذراء طاهرة وتجسد فيها ..

يقول صاحب « رسالة التثليث والتوحيد » :

« إن المسيح لم يُدع كلمة الله لأنه مخلوق بكلمة الله ،بل دعى بذات كلمة الله .. وإلا فكل الخلائق مخلوقة بكلمة الله . . فهل ندعوها كلمة الله ؟

« وكلمة الله هذه غير كلمته المكتوبة فى الكتاب المقدس !

ثم يقول :

« فكلمة الله ذات ، اسمه المسيح ،والكلمة المكتوبة ليست بذات!

«وكلمة الله تجسدت ،والكلمة المكتوبة لم تتجسد!

«والكلمة المكتوبة ليست الله ، والكلمة المتجسدة هو الله!

ثم يقول أيضاً :

« وقد دُعى المسيح « كلمة الله » استعارة وتشبيها بالكلمة التى نتفوّه بها وقت التكلم.

« فالكلمة هى :

(أولا) إعلان المتكلم (أى إظهاره) ، لأنها ترجمان أفكاره، وتبيان مقاصده، ودليل على سجاياه . . فكذلك المسيح هو إعلان الله للناس ، وبدونه لا نعرفه تعالى كقوله : « الله لم يره أحد قط .. الابن الوحيد الذى فى حضن الأب هو خبر »(١).

و (ثانياً) الكلمة هى قوة المتكلم ،ولأن إرادته تنفذ بتأثيرها ، كما جاء فى سفر الجامعة: « حيث تكون كلمة الله فهناك سلطان »(٢) فكذلك المسيح، هو قوة الله الذى به خلق العالم ، وخلص البشر ! »

و(ثالثا) الكلمة هى ذات وجود دائم ملازم للعاقل الناطق ، فكذلك المسيح موجود أزليا مع الأب، لذلك لقب بكلمة الله لوجوده الأزلى معه، ولأنه منه فهو،حسب الجوهر مع الأب والروح القدس ذات إلهية واحدة (٣)».

وهذا التأويل الذى أولت به «الكلمة » هنا ،إنما جاء بعد أن عرفت المسيحية وجوه التجسيد كلها، وألبستها أثوابها جميعها.

ولهذا فإننا نرى « الكلمة » تخرج عن أن تكون إحدى كلمات الله التى بها خلق المسيح ، فإذا هو «قوة الله الذى به خلق العالم وخلص البشر».. ثم يكون هو الذات الإلهية مع الأب والروح القدس !

---

(١) يوحنا : ١ : ١٨

(٢) جامعة : ٨ : ٤

(٣) رسالة التثليث والتوحيد ص ١٧٤

وواضح فساد هذا التخريج « لـكلمة » الله ،وصلتها به ،ومقارنة ذلك بما بين الـكلمة والمتـكلم . . فذلك ـ على مابه من خلط بين الخالق والمخلوق ، ومناظرة كل منهما للآخر ـ إن سلمنا به ، فإنا لانسلم بالنتائج المترتبة عليه .

فالـكلمة إذا كانت إعلانا عن المتـكلم، وترجمانا لأفـكاره،وتبيانا لمقاصده، فإنها شيء والمتـكلم شيء آخر . . إنها كيان منفصل عنه .. وإنه هو الخالق لهـا ، والمصور لوجودها الذى وجدت به ! وشتان بين الذات المتـكلمة والـكلمة أو الـكلمات التى تتـكلم بها !

فالقول بأن الـكلمة والمتـكلم ذات واحدة ، قول ظاهر الفساد ، كما يشهد بذلك واقع الحال بين كل ذى نطق وما نطق به!

والـكلمة إذا كانت قوة المتـكلم، لأن إرادته تنفذ بتأثيرها ـ فإنها كذلك ليست هى ذات المتـكلم .. فالنفخة التى ينفخ بها الإنسان فيشعل بها النار أو يطفئها ليست هى ذات الإنسان . وإن تـكن قوة نفذت بها إرادته ! وهكذا كل ماتنفذ به إرادة الإنسان ،من أقواله وأعماله . . ليست هى ذلك الإنسان وإن صدرت عنه !

والـكلمة ليست ذات وجود دائم ملازم للعاقل الناطق ـ كما قيل هنا ـ وإنما هى عمل متخلق من إرادة الإنسان، يستدعيها فتستجيب له،وليست ذاتاً حالة فيه ومتلبسة به!

فالقول بأن كلمة الله هى الله ،قول ظاهر الفساد، من أى وجه نلقاه منه . . !

الـكلمة .. الابن متجسدا :

تجسدت الـكلمة . . فـكانت المسيح !

وقد نظر أتباع المسيح إلى هذه « الـكلمة » المتجسدة فى هذا الجسد البشرى. فرأوا المسيح أول الأمر ،إنسانا مخلوقا على صورة لهـا حساب خاص غير حساب البشر،

إنه أسمى من كل إنسان ، إذ لم يولد من دنس وحبل، كما يولد سائر الناس ! بل ولد بكلمة الله ، التى اتخذت من مريم العذراء الطاهرة جسدا تظهر به فى صورة بشر!!

ولكن هذا الميلاد الفريد لم يخرجه عن أن يكون مخلوقا لله . . وأنه إن ارتفع فلن يكون فى أعلى منازله ، مسامتا للملائكة، لأن الملائكة لم يلبسوا صورة بشرية، ولأن «المسيح» كما كان ينظر إليه أول الأمر ـ كان مولوداً من جسد بشرى، ولبس جسداً بشريا . . فهو أنزل درجة من الملائكة . . !

وقد تحدث عنه « بولس » فى رسالته إلى العبرانيين فقال :« ولكن الذى وُضع قليلا عن الملائكة ، يسوع .. نراه مكللا بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت، لكى يذوق بنعمة الله الموت ، لأجل كل واحد » ! (١)

ونعلم أن بولس هو الذى دفع بالمسيح إلى مقام الألوهية ، بعد أن دخل به إلى العالم السماوى ووصل نسبته بالملأ الأعلى ومع ذلك فإن نظرته إليه هنا لم ترفعه إلى أن يكون ملكا من الملائكة.. وكان ذلك النظر إلى المسيح هو أول الطريق الذى سلكه « بولس » لتأليه المسيح !

ثم كانت الخطوة الثانية التى أُدخل بها المسيح إلى ذات الله ، فكان ابنا لله . !

وهذه البنوة ، بدأت بنوة عقلية ، ثم انتهت إلى بنوة نَسَبية . . بنوة لله على الحقيقة ، لا المجاز !!

يقول « الحداد » فى كتابه «الإنجيل فى القرآن»:

« فالمسيح هو ابن الله . . أى فكر الله الجوهرى . . أو نطق الله الجوهرى . !

---

(١) عبرانيين ٢ : ٩

ثم يعقب على هذا بقوله :

« فهل يمكن أن يكون الله بدون عقل ؟ وهل يكون عقله إلا غير محدود كذاته ؟

« وفكره الذى هو منتوج عقله ، وهو غير محدود كعقله ، وهو مايسميه الإنجيل بلفظ علمى فلسفى لاهوتى : « كلمة الله » وبتعبير شعبى تفهمه الجماهير : « ابن الله » !!

ثم يقول :

« والشعب البسيط نفسه .. ألا يسمى الأفكار « بنات العقل » ؟ وعندما يستعمل الإنجيل لفظة « كلمة » يدل بصراحة على أن بنوة الابن من الأب وفى الأب ، ضمن الذات أو الطبيعة الإلهية الواحدة — هى بنوة فكرية نطقية عقلية ، وأن الولادة فى الجوهر الإلهى الفرد — هى روحية إلهية فوق الزمان والمكان وفوق الجسد المخلوق بتسلسل كلمة الله من جوهر الله ، كما يصدر نطقنا من عقلنا .. وهذا التسلسل أو الصدور غير المخلوق نتيجة التفاعل الإلهى — لا يمكن التعبير عنه بكلام مخلوق .. فيسميه الإنجيل بلغة بشرية ، تقرب غير المدرك من إدراكنا ، « ولادة » وبنوة « ثم ابنا وأبا » !

« فكلمة الله ، أو نطق الله الصادر من القوة العاقلة فى الله ، هو فى وضع يشبه عند البشر وضع ابن من أبيه ، وفى علاقة روحية وبنوة عقلية تشبه فينا ولادة الفكر من العقل ! »

ثم ينتهى « الحداد » من ذلك إلى نتيجة يراها لازمة لهذا التصور الذى تصوره ، للعلاقة بين الله وكلمته .. فيقول :

« فليس فى ذلك إذن رفع مخلوق إلى صفة الخالق ، ولا حطّ الخالق إلى درجة المخلوق ، بل هو تفاعل روحى ، وتسلسل عقلى ، بل هو ولادة روحية ، وبنوة عقلية ، فى الذات الإلهية الواحدة ! » (١)

---

(١) الإنجيل فى القرآن ص ٢٧٤ :

وإذا سلمنا بهذه المقولات ، وأخذناها على علاتها .. كما هى ، وكما يفترض فى الله تلك الفروض التى تجعله أشبه بإنسان !

وإذا سلمنا بأن لله عقلا ما ، تحتويه ذاته ، وأن لهذا العقل فكرا ، وأن لهذا الفكر نطقا ، وأن هذا النطق هو « كلمة » — إذا سلمنا بهذا كله ، وهو غير مسلم به إطلاقا ، لأنه نظر فى ذات الله ، وكشف تحايلى لها ، وذلك مالا يقع فى الإمكان — فكيف يمكن التسليم بأن هذه الكلمة بالذات هى « المسيح » الذى ولد من مريم ؟ إنها دعوى يمكن أن تدعى للملائكة مثلا — فهم أولى بها ، لأنهم خلق غير متجسد !

ثم إن المسيح — على هذا القول — تجسد فى كلمة واحدة . .

فهل عقل الله هذا الذى يقال عنه ، وهل فكره ، ونطقه ، والتفاعل الذى يقوم بين عقله وفكره ونطقه — هل كل هذا لم يلد إلا كلمة واحدة ، ثم عقم هذا العقل إلى الأبد فلم يلد شيئا ؟ أم أن لله كلمات لا تنفد ولا تحصى ؟ وإذا استحقت هذه الكلمة أن تنتسب إلى الله بالبنوة الفكرية والنطقية والعقلية ، وأن تكون ولادتها ولادة روحية إلهية ، فوق الزمان والمكان ، وفوق الجسد — أفلا تكون تلك الصفات كلها منسحبة على كلمات الله جميعها ؟

قد يقال : إن كلمات الله كثيرة . . لا تنفد . . ولكن الكلمة الأولى التى ولدها « عقل الله » هى وحدها التى تستحق نسبة البنوة الروحية إلى الله ، دون سواها ، وأن ماجاء بعدها بتسلسل الولادة الروحية لا يكون بمنزلتها .. وهذا قول يقوم على ادعاء بلا بينة !

فإذا كانت الكلمات هى منتوج عقل واحد ، فلا يعقل أبدا أن يكون السابق منها خيرا من اللاحق . . وإذا كان ثمة مفاضلة بينها ، فربما كان العكس هو الصحيح ، إذ اللاحق يأخذ حكم السابق ، ويزيد عليه .. ولكن المسيحية تقول غير

هذا القول ، وتسمى « المسيح » ابن الله البكر ، وبكر الخليقة . . باعتبار أنه الكلمة الأولى لله . . ثم لاحساب لكلمات الله بعد هذه الكلمة !!

وسواء أكان هذا أو ذاك ، فإن « الكلمة » أو الكلمات التي أنتجها التفاعل الروحي للعقل الإلهي - كما يزعم الزاعمون - هي بهذه الصفة مخلوقة لله ، إذ كان الله وكان عقل الله ، قبل أن يحدث هذا التفاعل الروحي في عقله ، وقبل أن توجد « الكلمة » أو « الكلمات » التي يطلقون عليها منتوج عقل الله ! !

المسيحية الأولى في تصورها للكلمة التي تجسدت في المسيح أو تجسد فيها المسيح - كانت تعتقد أن « الكلمة » مخلوقة ، وأنها شيء ، والله سبحانه خالقها ، كما يخلق الأشياء كلها . وإن كانت تعدها - مع ذلك - أول مخلوقات الله ، أو أنها « بكر » المخلوقات ! وأنها الواسطة التي بها تسلسلت المخلوقات وتوالدت !

وللقديس أثناسيوس الرسولي (وهو من دعاة المسيحية الأولين ، ولد في أواخر القرن الثالث (٢٩٧ م) - له رسالة في تجسد الكلمة ، وفيها مقولات كثيرة ، تتحدث عن الكلمة بأنها مخلوقة لله ، وليست هي الله ، ولا هي داخلة في شركة معه .

يقول القديس اثناسيوس الرسولي في إحدى مقولاته تلك : « ويليق بنا حينئذ أن نبدأ بحث هذا الموضوع ، بالتحدث عن خلقة الكون ، وعن الله بارئه .. وعندئذ يمكننا أن ندرك أن تجديد الخليقة كان من عمل نفس الكلمة التي خلقها (الله) في البداية . . لأنه سوف يتضح أنه لم يكن أمرا مخالفا أن يتم الله خلاص العالم بذاك الذي خلقه به أولا ». (١) والذي يريد أن يقرره القديس اثناسيوس هنا هو :

---

(١) تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس الرسولي ، نقله إلى العربيه القس مرقس داود ، صـ ١٥ .

أن الله خلق الكلمة أولا ..

وأنه بهذه الكلمة خلق خليقة !!

وأن الخليقة (أى الناس) قد فسدت بمعصية آدم !

وأن إعادة خلقها من جديد ـ لكى يصح وجودها ـ لايكون إلا بالكلمة التى خلقت بها.

لهذا كان ظهور الكلمة ، ثم تجسدها فى جسد ـ هو أمر لازم لإعادة الإنسان إلى وضعه الأول من الله .. قبل (الخطيئة) !

وصريح هذا النص ينطق بأن الكلمة مخلوقة لله ، وإن تكن أول هذه المخلوقات. ومع هذا فإن القديس اثنا سيوس كان يرى أن « الكلمة » المخلوقة من الله هى ابن لله ، وليست هى الله .. حيث لم تكن فكرة التثليث قد ظهرت بعد .. وحيث كانت عقيدة المسيحية تقوم على أمرين : « الله » باعتباره الإله الخالق الذى لاشريك له .. والابن الذى هو كلمة الله ، وأول ماخلق الله ، وبه كانت عملية الخلق.

ويقول القديس : « لأن الله صالح ، أو بالحرى لابد أن يكون هو مصدر الصلاح .. والصالح لايمكن أن يبخل بأى شىء .. لذلك فإنه لايضن بنعمة الوجود على أى شىء — خلق كل الأشياء من العدم بكلمته ـ يسوع المسيح ربنا[١] .. وإلى هذا يشير بولس الرسول بقوله : « بالإيمان نفهم أن العالمين أتقنت بكلمة الله» !!

ويقول القديس اثنا سيوس مخاطبا صديقه الذى ألّف من أجله هذه الرسالة : « حتى لاتفوتك معرفة ظهور كلمة الأب الجليل القدر فى الجسد ، وحتى لاتتوهم أنه

---

(١) تعنى كلمه رب هنا معنى السيد لا الإله .. كما هى مستعملة فى الأناجيل بهذا المعنى !.

كان من مستلزمات طبيعة مخلصنا أن يلبس جسدا ، بل لكونه خاليا من الجسد بطبيعته، ولأنه هو الكلمة منذ الأزل، قد ارتضى ـ بتحنن أبيه وصلاحه ـ أن يظهر لنا فى جسد بشرى ، لخلاصنا[٢] . » !!

فالله (الأب) ذات خالصة من شركة الابن معها فى تلك الذات . .

والابن هو ذات أيضاً . . هو كلمة الله الأزلية !

ثم إن بين الأب والابن ما بين الخالق والمخلوق . .

فالأب خالق . . والابن « الكلمة » مخلوق . .

والابن لا يملك من أمره شيئاً . . إلا ما يأذن به الأب له . .

هذا هو تصور « الكلمة « أو الابن » فى العقيدة المسيحية الأولى . .

فلم تكن هناك شركة للابن فى الذات الإلٰهية ، ولم يكن الابن أقنوما من أقانيمها التى تكشفت للعقل المسيحى بعد ذلك .

يقول القديس اثنا سيوس فى موضع آخر من رسالته ،فى الرد على الماديين الذين لا يؤمنون بوجود الله : « وأما المبتدعون فيتوهمون لأنفسهم خالقا آخر لكل الأشياء غير أبى ربنا.. يسوع المسيح..» (٢) فالله هو الخالق، وليس المسيح الكلمة، كما قيل بذلك ، بعد هذا القول .

لماذا تجسد الكمة فى صورة إنسان ؟

المسيح هو كلمة الله المتجسدة فى صورة إنسان !

وهو إذ كان كلمة الله فهو ابن الله !

---

(٢) تجسد الكلمة صـ ١٥

(٣) تجسد الكلمة صـ ١٨

وتجسده فى صورة إنسان لم يخرجه عن أن يكون ابنا لله !
وكيف يتجسد ابن الله وهو روح ؟ !
ثم لماذا يتجسد ؟
هذه مقولات المسيحية فى المسيح.

أما كيف تجسد ، ولماذا تجسد . . فذلك ما حاول العقل المسيحى أن يجد الجواب له..

ورسالة تجسد الكلمة « للقديس » اثنا سيوس تلخص الجواب الذى أجاب به العقل المسيحى على هذا السؤال .

ونحن نكتفى بعرض مقتطفات من هذه الرسالة . . معلقين على ما يحتاج منها إلى تعليق . . فذلك وحده يكفى فى إعطاء صورة مقاربة لتجسد الكلمة ، فى المسيح ابن الله ! على الوجه الذى عرفه أتباع المسيح.

يقول القديس اثناسيوس :

«عند التحدث عن ظهور المخلص بيننا، يتحتم علينا التحدث عن أصل البشر ، لكى نعلم أن نزوله ـ أى المخلص ـ إلينا كان بسببنا ،وأن عصياننا استدعى تعطف الكلمة لكى يسرع الرب فى إغاثتنا ، والظهور بين البشر ..

ولأن إغاثتنا كانت هى الغرض من تجسده ، ولأجل خلاصنا أظهر محبته العظمى إلى حد أن يظهر ، ويولد فى جسد بشرى !

ثم يقول :

«فالله إذا خلق الإنسان ، قصد أن يبقى فى عدم الفساد ، أما البشر فإذ احتقروا ورفضوا التأمل فى الله واخترعوا ودبروا الشر لأنفسهم فقد استحقوا حكم الموت الذى

سبق فأنذرهم به[١]، ومن ذلك الحين لم يبقوا على الصورة التى خلقوا عليها، بل فسدوا حسبما أرادوا لأنفسهم، وساد عليهم الموت كملك، لأن تعديهم الوصية أحالهم إلى حالتهم الطبيعية، حتى أنهم كما نشأوا من العدم، كذلك يجب ألا يتوقعوا إلا الفساد الذى يؤدى إلى العدم مع توالى الزمن.

ثم يقول: « لأنهم – أى البشر – كانوا بحضور الكلمة قد دعوا إلى الوجود من الحالة الطبيعية الأولى، وهى عدم الوجود فإنهم بطبيعة الحال متى تجردوا من معرفة الله عادوا إلى العدم، ويجب أن تكون النتيجة بطبيعة الحال الحرمان إلى الأبد من الوجود، طالما يستمدون وجودهم من الله الموجود .. وبتعبير آخر، يجب أن تكون النتيجة الانحلال، وبالتالى البقاء فى حالة الموت والفساد! »

وهنا لنا أن نسأل:

هل تجسد الكلمة وماتبع هذا التجسد من الصلب قضى على الشرور والآثام من طبيعة الناس، وأعادهم إلى الحالة التى كان عليها الإنسان الأول فى الجنة التى أسكنه الله إياها، قبل أن يزل ويسقط، وينزل إلى الأرض؟ وهل تحول الناس بعد تجسد الكلمة وظهورها بينهم وموتها من أجلهم – هل تحولوا عن طبائعهم التى كانوا عليها؟

والجواب، هو ما نشهده فى واقع الناس اليوم وقبل اليوم، منذ المسيح إلى الآن، وماوقع من شرور عامة شاملة، وما يقع كل يوم فى كل مكان.. بين كل إنسانين يجتمعان!

وإذن فلم يكن لهذا التجسد وهذا الصلب شىء من الآثار التى كانت تعقدها المسيحية الأولى عليه، وتتوقعها منه!

وإذن أيضاً.. فهذا التعليل لتجسد الكلمة ونزولها إلى الأرض هو تعليل غير مقبول شكلا.

---

(١) يشير إلى ما جاء فى الكتاب المقدس من قول الله لآدم بعد أن خلقه وأسكنه جنته: « من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » (سفر التكوين).

ويقول القديس اثناسيوس :

«ولأن « الكلمة » سكن فيهم ـ أى الناس ـ فحتى فسادهم الطبيعى (! !) لم يجسر أن يقترب منهم .. كما تقول الحكمة: « لأن الله خلق الإنسان فى عدم البلى وصنعه على صورة أزلية ، لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم . .!

« وعندما تم ذلك بدأ البشر يموتون ، وصار عليهم الفساد من ذلك الوقت فصاعدا ! وصار له سلطان على الجنس البشرى أكثر من سلطانه الطبيعى ، لأنه أتى نتيجة تهديد الله فى حال العصيان . » (١)

كان « تهديد » الله لآدم ـ حسب نص الكتاب المقدس ـ هو أن يموت إذا أكل من الشجرة المحرمة ، ومعنى هذا أن يخرج من عالم الخلود ، وأن ينزل إلى عالم الفناء ، وأن يشارك الكائنات الأرضية حياتها وما تتقلب فيه من توالد وموت !

ولو كان « التجسد » هو الذى يعيد إلى الإنسان وضعه الأول ، ويرفع عنه سلطان الموت والفناء الأبدى لكان ذلك بالأولى أن يقع لآدم منذ اللحظة التى نزل فيها إلى الأرض .. لا أن ينتظر به حتى يتوالد وتكثر مواليده وأمواته ، وتمتلىء الأرض من هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلقاهم الكلمة المتجسدة لتعيدهم إلى الحال الأولى ! ولتجعل من كل واحد منهم صورة من آدم الأول ، قبل أن يلبس ثوب الخطيئة ، ويدخل فى سلطان إبليس!

ومع هذا ، فنقول ماقلناه من قبل ، وهو أن « التجسد » لم يغير من الأمر شيئاً ! فما زال الناس يولدون ويموتون ، ومازال سلطان الموت قائما عليهم .. فأين ما للتجسد

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢

من أثر فى هذا الأمر الذى يقال إن المسيح قد جاء له ؟

ثم يقول القديس :

« إذن فمن أجل هذا (الخطيئة) ساد الموت البشر ،وعمهم الفساد، وكان الجنس البشرى سائرا نحو الهلاك ، وكان الإنسان العاقل الذى خلق على صورة الله آخذا فى الاختفاء ،وكانت صنعة الله آخذة فى الانحلال ! لأن الموت- كما قلت سابقاً - صارت له سيادة شرعية علينا، منذ ذلك الوقت،ولم يكن ممكناأن يُنقض الناموس،لأن الله هو الذى وضعه بسبب التعدى ،وأصبحت النتيجة فى الحال مرعبة(!!) حقا وغير لائقة! لأنه:

(أولا) - كم يكون مرعبا لو أن الله بعد ما تكلم يكون كاذبا . . إن كان بعد أن صدر حكمه على الإنسان بأن يموت موتا إن تعدى الوصية- لا يموت ، بل تبطل كلمة الله . . وإن كان إنسان لايموت بعد أن قال الله إننا نموت لأصبح الله غير صادق ! ! .

(ثانيا) — وكان أيضاً غير لائق على الإطلاق أن تتلاشى صنعة الله بين البشر...!»(١)

ومفهوم هذا القول : هو أن الإنسان محكوم عليه بسبب الخطيئة أن يصير إلى العدم . . ثم كان من جهة أخرى - أن يبادر الله وينقذ هذا الإنسان . .

كان على الله أن ينفذ فيه حكمه الذى لا ينقض ، وهو الفناء ، بعد أن أكل من الشجرة المحرمة .

وكان على الله أن يتداركه برحمته التى لا تتخلف . !

وإنها لمشكلة !

فما الحل ؟

---

(١) المصدر السابق صـ ٢٤.

يقول القديس اثناسيوس الرسولى :

« لهذا كان أمام « كلمة الله » مرة أخرى [١] أن يأتى بالإنسان الفاسد ، إلى عدم فساد ، وفى نفس الوقت أن يوفى مطالب الأب العادل. المطالب به الجميع. وحيث أنه هو كلمة الأب ويفوق الكل ، فكان هو وحده الذى يليق بطبيعته أن يجدد خلقة كل شيء (!!) وأن يتحمل الآلام عن الجميع ، وأن يكون نائبا عن الجميع لدى الأب!

« لأجل ذلك نزل إلى عالمنا « كلمة الله » الخالى من الجسد والعديم الفساد وغير المادى . . . وإذ لم يحتمل أن يرى الموت تصير له السيادة لئلا تفنى به الخليقة وتذهب صنعة أبيه فى البشر هباء ، فقد أخذ لنفسه جسداً لا يختلف عن جسدنا . . جسد طاهراً وخالياً بالحق من زرع بشر . . . لأنه هو القادر على كل شيء ، وبارىء كل شيء ، أعد الجسد فى العذراء ليكون له هيكلا ، وجعله جسده بالذات ، واتخذه أداة يعلن ذاته فيها ، ويحل فيهـا .

« فإنه ــ أى المسيح ــ إذ أتى إلى عالمنا واتخذ إقامته فى جسد واحد بين أترابه ، فقد بطلت كل مؤامرة العدو (إبليس) ضد الجنس البشرى منذ ذلك الحين ، وزال عنهم فساد الموت الذى كان سائدا عليهم من قبل ، لأنه لو لم يكن الرب مخلص الجميع ، ابن الله ، قد جاء إلينا وحل بيننا ليوفى غاية الموت ، لكان الجنس البشرى قد هلك.[٢] »!!

وليس تجسد الكلمة عند أصحاب التجسيد لمجرد أن تطهر الإنسانية وتخلص من الخطيئة وتنجو من الفناء الأبدى . . ولكن لهذا التجسد حكمة أو حكم أخرى . . سيذكرها أصحاب التجسد ، ويقيمون البراهين لها .

---

(١) المرة الأولى هى التى خلق فيها الإنسان وأخرجه من العدم

(٢) المصدر السابق ص ٣٠

ويبدو واضحا من هذا التدبير أن دعوى التجسد لخلاص الإنسانية وإعادتها إلى الطهر والصفاء اللذين كانا لها قبل وقوع آدم فى خطيئته ـ هذه الدعوى لم نجد فى تلك المدعيات لها ، وجهاً مقبولا فى العقل ، ولا مكاناً مستقراً فى الحياة وواقع الناس . .

فالناس هم الناس منذ نزل أبوهم إلى هذا العالم الأرضى إلى اليوم ـ إنهم أبناء هابيل وقابيل . . فيهم الخير والشر ، ومنهم الأخيار والأشرار . . لم يغيّر تجسد الكلمة من حالهم شيئاً !

كذلك لم يكن تجسد «الكلمة» وموته على الصليب بالذى يدفع عنهم يد الموت ، ولم يغير من طعمه على أفواههم وفى نفوسهم !

وإذ سقطت هذه المدعيات لحكمة تجسد الكلمة وموتها على الصليب ، وإذ أصبحت هذه المدعيات ضمن الأقوال المقدسة التى لا سبيل إلى إغفالها وصرف النظر عنها ، فضلا عن الرجوع فيها ، فقد أصبح لزاماً على أصحاب التجسد أن يسندوا هذه المداعيات المتداعية بمدعيات أخرى تمسك دعوى التجسد من أن تسقط وتنهار ؟

وقد كان من هذه المدعيات ما حدثتك عنه من قبل ، وهو أن تجسد الكلمة كان الإعلان المتجسد الحى لذات الله ، لا فى صورة الله ذاته ، ولكن فى صورة تشبه صورته . . هى صورة ابنه الوحيد المتجسد من كلمته !

فإذا لم يكن فى التجسيد لخلاص البشرية من الموت الأبدى مقنعا للعقل ، أو إجابة لتحديات الواقع ـ كان فى القول الآخر ما يلهى العقل عن هذا القول ، أو يبدد نشاطه ويوزعه بين هذا وذاك ؟

ونستمع للقديس اثناسيوس الرسولى وهو يعرض سبباً آخر للتجسد ، ويكشف عن حكمته . . يقول :

« سبب آخر للتجسد !

«أن الله إذ عرف أن الإنسان بطبيعته لم يكن فى مقدوره معرفته ، وهبه معرفته ، لكى يستطيع أن يجد فائدة من وجوده فى الحياة . . لقد خلقه على صورة « الكلمة » ، حتى يستطيع بذلك أن يعرف « الكلمة » وبه يعرف الأب !

« أما هو — أى الإنسان — فإذ احتقر هذه المعرفة ، هوى إلى العبادة الوثنية ، تاركا الله غير المنظور ، واتبع الشعوذة ، وذلك كله رغما من إعلانات الله المتعددة عن نفسه » .

ويزيد القديس هذا المعنى شرحا وتوضيحا فيقول :

« عندما خلق الله الضابط للكل ، الجنس البشرى بكلمته ، ورأى ضعف طبيعتهم ، وأنها لا تستطيع من نفسها أن تعرف خالقها ، أو أن تكون أية فكرة عن الله على الإطلاق . . . لهذا تحنن الله على الجنس البشرى على قدر صلاحه ، ولم يتركهم خالين من معرفته ، لئلا يروا ألا منفعة على الإطلاق من وجودهم فى الحياة » ! !

ونسأل : كيف يرى الناس ألا منفعة لهم على الإطلاق من وجودهم فى الحياة ، إذا هم لم يعرفوا الله ، فى حين أنه لم تكن تنزع بهم نازعة إلى معرفته ؟ .

وماذا لو كان شأنهم شأن بقية المخلوقات الأرضية من حيوان ونبات وجماد ؟ .

ثم يقول تعقيبا على قوله السابق : « لأنه أية منفعة للمخلوقات إذا لم تعرف خالقها ؟ » .

ونقول : هذا يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أن الناس لا يضيرهم إذا كانوا كسائر المخلوقات فى معرفتها الله أو عدم معرفتها.. ثم لم كان التجسد من أجل الإنسان وحده ليُحمل حملا على معرفة الله ، إذا لم يكن ذلك طبيعة وجبلة فيه ؟ .

ثم يقول أيضا فى هذا المعنى : « كيف يمكن أن تكون المخلوقات البشرية عاقلة بدون معرفة كلمة (وفكر) الأب ، الذى أوجدهم فى الحياة ؟ .

ونقول : ألا يكون الإنسان عاقلا إلا إذا دخل بعقله فى ذات الله ، ودار فى أرجائها ، وقلب أركانها ، وأمسك بكلتا يديه عقل الله وفكره ؟ .

ألهذا خلق الله الإنسان ؟ وهل كان الأنبياء والرسل والحكماء والفلاسفة الذين عاشوا قبل نزول الكلمة وتجسدها — هل كانوا بلا عقل ؟ .

ويتابع القديس أثناسيوس القول فيسأل :

« لماذا خلقهم الله إن كان لا يريدهم أن يعرفوه ؟ .

ونقول : هل الله سبحانه وتعالى — هو الذى دعا الناس وحملهم على ألا يعرفوه ؟ .

لقد عرفه كثيرون، وآمنوا به ،وعبدوه ،وأسلموا وجوههم ووجودهم له.. أما من عمى عن معرفته فقد استحب العمى على الهدى ،وصرف نفسه عن النور إلى غيابات الظلام .

ومع هذا ، فماذا جدّ على الناس بعد أن أعلن الله لهم نفسه فى كلمته « المسيح »؟ هل عرفوه أكثر من ذى قبل ؟ وهل تفتحت العيون العمى والقلوب الغلف والآذان الصم.. فعرفت الله وآمنت به ؟ إن الإلحاد ما زال يملأ وجه الأرض ،وما زالت الوثنية تبسط سلطانها فى كل مكان !

ثم يقول القديس الرسولى فيما فعله الله لأجل أن يفتح أبصار الناس وبصائرهم إليه :

« وتفاديا من هذا — أى من الضلال عن الله — أعطاهم الله بصلاحه نصيبا من صورته ـ ربنا يسوع المسيح — وخلقهم على صورته ومثاله[١] حتى إذا ما رأوا

---

(١) على صورة الكلمة أى المسيح كما قرر ذلك من قبل ، والكتاب المقدس يقول: « إن الله خلق الإنسان على صورته .. على صورته خلقه » .

تلك الصورة ـ أى كلمة الأب ـ استطاعوا أن يكوّنوا فكرة عن الأب . . .

« ثم لأنه وإن كان نعمةُ مماثلةِ الصورة الإلهية كافيةً فى حد ذاتها لمعرفة الله « الكلمة » ومعرفة الأب به ، إلا أن الله إذ يعرف ضعف البشر أعد علاجا شافيا لإهمالهم ، حتى إذا كانوا لا يعنون بمعرفة الله من تلقاء أنفسهم استطاعوا بواسطة المخلوقات أن يعرفوا الخالق . . . ! »

ولا بد من إعادة النظر فى هذه الفقرة . . فإنه لأول مرة نرى القديس الرسولى يتحدث عن « الكلمة » بأنها الله ، فيقول : الله « الكلمة » .. فالرسالة كلها تتحدث عن الكلمة بأنها الابن ، لا الله !

وفى أغلب ظننا أن هذا النص قد حرف ، ليخدم قضية التثليث ، التى ستولد بعد هذا الوقت الذى ظهر فيه صاحب هذه الرسالة . . وليس هذا التحريف المقصود ببعيد ، فلقد حرفت رسائل الرسل ، ومن قبلها حرفت الأناجيل وبدلت نصوصها ، كما رأينا فى عرضنا لهذه القضية ، قضية التحريف ، تحت عنوان : « تقييم النصوص » !

ثم إن فى الرسالة نفسها ما يكشف هذا التحريف ويفضحه . .

فصاحب الرسالة ـ كما قلنا ـ لم يتحدث عن الكلمة إلا بأنها ابن الله .. وهو فى هذه الفقرة بالذات يجمع بين الكلمة ، والله الأب . . « لمعرفة الله الكلمة ، ومعرفة الأب به » ثم ها هو ذا عقب هذا النص يقول :

« وهكذا كان فى استطاعتهم — أى الناس — إذا تطلعوا للسماء وأدركوا جمال الخليقة وتناسقها أن يعرفوا مدبرها « كلمة الأب » الذى يعرّف الأب للجميع ، بسلطانه على كل الأشياء ، والذى يحرك كل الأشياء لهذه الغاية عينها ، حتى يستطيع الجميع أن يعرفوا الله . . أو إن لم يك ذلك فى مقدورهم كان ممكننا لهم أن يلتقوا

(١) المصدر السابق ص ٣٤ .

على الأقل بالقديسين ،وبواسطتهم يعرفون جابل (أى خالق) الأشياء ، أو بالمسيح، ويعرفون أن عبادة الأوثان كفر بالله ، ومملوءة من كل فساد ».

فالكلمة ما زالت عند كاتب الرسالة ابنا لله ،وليس هو الله مجسدا فى كلمة .. ! وعلى هذا فإن النص السابق منحرف عن اتجاه الرسالة ، وبعيد عن كل مقولاتها .

ثم إذ يرى صاحب الرسالة أن خلق الناس على صورة « كلمة الله » لم تعرفهم بالله أو لم تكن كافية لتعرفهم به . . فإنه يسأل هذا السؤال فيقول :

إذن فماذا كان ممكناً أن يفعله الله ؟(١) وماذا كان ممكناً أن يتم سوى تجديد تلك الخليقة التى كانت فى صورة الله ،وبذلك يستطيع البشر مرة أخرى أن يعرفوه.. ولكن كيف كان ممكنا أن يتم ذلك إلا بحضور نفس صورة الله .. ربنا يسوع المسيح ؟ . . كان ذلك مستحيلا أن يتم بواسطة البشر ، لأنهم إنما خلقوا على مثال تلك الصورة ، ولا بواسطه الملائكة ، لأنهم لم يخلقوا على صورة الله . . !

«لهذا أتى كلمة الله بشخصه ، لكى يستطيع — وهو صورة الأب — أن يجدد خلقة الإنسان على مثال تلك الصورة !!».

ووضع الله ـ فى هذا النص ـ فى حيز الممكنات وإلزامه واحدامنها فيه عدوان على جلال الله وقدرته وعظمته . . فالله سبحانه وتعالى فوق كل شىء . . لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . .

وندع هذا . .

لنستقبل ما بقى من فصول هذه القصة ، أو الملحمة ..!!

يقول القديس الرسولى :

« وإذ رأى الكلمة » أن البشر حصروا أفكارهم فى الأمور الجسدية ، تنازل

---

(١) وهل يليق بقدرة الله أن تقف إزاء الممكنات وتتخير منها ما تقدر عليه ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ..

إلى مستوى تفكيرهم ، وأخذ جسدا ، والتقى بإحساساتهم فى منتصف الطريق ، وسواء اتجهت ميولهم إلى عبادة الطبيعة أو البشر أو الأرواح الشريرة أو الموتى — فقد أظهر نفسه ربـًّا على كل هؤلاء . . .

« وكما أن المعلم الصالح الذى يعنى بتلاميذه — يتنازل إلى مستواهم إن رأى أن البعض منهم لم يستفيدوا بالعلوم التى تسمو فوق إدراكهم ويقدم إليهم تعاليم أبسط .. هكذا أيضا فعل كلمة الله .. !!

« لأنه — كلمة الله — إذ رأى البشر رفضوا التأمل فى الله ، وانحطت نظراتهم إلى أسفل ، كأنهم قد غاصوا فى العمق باحثين عن الله فى الطبيعة ، وفى عالم الحسيات ، ومخترعين لأنفسهم آلهة من البشر القابلين للفناء ، ومن الطين — لهذا فإن مخلص الكل ، المحب ، كلمة الله ، أخذ لنفسه جسدا .. وكإنسان مشى بين الناس ، وقابل إحساس كل البشر فى منتصف الطريق حتى يستطيع من يتخيلون الله « هيوليا »[1] أن يدركوا الحق ، بما يعلنه الرب فى جسده ، ويدركوا الآب فيه !! .

« وهكذا ، لأن البشر هم بشر ، ولأن أفكارهم أصبحت بشرية (ومتى كانت إلهية ؟) ففى كل الأمور التى ركزوا فيها إحساساتهم وجدوا أنفسهم قد قوبلوا فى منتصف الطريق ، وعلموا الحق من كل ناحية ! ! .

« فإن نظروا إلى الخليقة بدهشة ورهبة رأوها تعترف بالمسيح ربا ! وإن اتجهت عقولهم نحو البشر ليتوهموا أنهم آلهة وجدوا أن أعمال المخلص — إن قارنوها بأعمال البشر — قد أظهرته وحده ابن الله ، دون سائر البشر ، لأنه لم يقم بينهم قط من استطاع أن يأتى بالأعمال التى عملها كلمة الله !

« لأنه إذ انحط فكر البشر نهائيا إلى الأمور الحسية فقد توارى « الكلمة »

---

(١) أى ذا جسد .

بظهوره فى الجسد ، لكى يستطيع كإنسان أن ينقل البشر إلى ذاته ، ويركز إحساسهم فى شخصه ، ومن ثمّ فإذ يتطلع إليه البشر كإنسان فإنهم يقتنعون بالأعمال التى عملها أنه ليس مجرد إنسان ، بل هو إله أيضاً « وكلمة الله الحق ، وحكمته ! (١) » .

ولا بد من وقفة أخيرة هنا مع هذه المقولات فى تجسد الكلمة ، للإعلان عن الله وهدايته الناس إليه .

(فأولا) تلك القوى التى أعطيت للسيد المسيح قد أعطى مثلها وأكثر منها الأنبياء من قبله . . .

فإنه إذا كان قد أحيا الموتى فقد أحيا غيره من الرسل مئات من الموتى ، كالذى أحيا الله على يديه قرية كاملة كانت قد ذهبت واندثرت . .

ثم إن إحياء الموتى هو دون قلب العصا حيّة .. كما كان ذلك لموسى عليه السلام ، لأنه يبعث الحياة فى جماد ، أما المسيح فكان يعيد الحياة إلى أحياء !

وإن كان المسيح قد مشى على الماء فقد فلق موسى البحر بعصاه ، وأقام فيه طريقا يبساً .. سلكه هو وسائر قومه ! . . وسليمان .. قد سخر الله له الجن ، وجعل له الريح مركبا ، يغدو به ويروح كيف يشاء .

(وثانياً) إن ظهور مثل هذه المعجزات على يد إنسان إن أقامت له عند الناس حجة على أنه الله أو ابن الله كان ذلك مدخلا إلى الفتنة والضلال .

ذلك أنه إذا آمن الناس بإله فى صورة إنسان ليس بين يديه إلا خوارق وعجائب يلقاهم بها ، ويتحدى قدراتهم — كان ذلك مما يغرى كثيراً من المغرورين والمشعوذين ، وأصحاب المطامع — بالتسلط على الناس ، بأن يدّعوا الألوهية ، وليس يعجزهم أن يخيلوا

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ — ٤٢ .

للناس بالأباطيل وبالادعاءات الكاذبة ، يذيعها لهم فى الناس أناس يشترونهم بالمال وبالأمانى : أنهم أبناء الله ، أوهم الله ذاته !

وكم ادعى الألوهية مدع ؟ وكم ادعاها لهم أتباع وأنصار ؟ وكم انخدع لهم أقوام وآمنوا بهم ؟

أذلك خير لتثبيت العلاقة بين الله والناس وإقامتها على الصحة والسلامة، أم أن خيراً منه لتحقيق هذه الغاية هو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يقع فى مجال الحواس، أوأن يحل فى أى جسد ! فلا تقوم لمدع دعوى أنه إله أو ابن إله ؟

وحلول الله فى جسد إنسان ، هو فتنة لا تعدلها فتنة من يقول بحلوله فى أى كائن آخر غير الإنسان ، على ما فى ذلك من بهتان عظيم وضلال كبير . . ذلك أن القول بحلول الله فى أى كائن غير بشرى لا يعطى لأحد من الناس سلطاناعلى الناس، ولا يجعل له من هذا الادعاء بالألوهية قوة متسلطة عليهم ، بخلاف ما إذا نظر ناظر إلى الشمس أو القمر أوإلى أى كائن آخر ، فمثّل له ظنه وضعف إدراكه أن ذلك هو الإله الخالق . . إنه لا يعطى هذا الإله أكثر من بعض المشاعر الغامضة من الرغب والرهب . على خلاف الإله الإنسان ، فإنه يعطيه وجوده كله ، المادى والروحى والعقلى جميعاً . . فى السراء والضراء . . على السواء !

وأيا كان الأمر فإن ظهور المسيح فى صورة إله لا يخدم بحال أبداً قضية الألوهية ، ولا يعمل على تصفية مافى عقول الناس من خيالات التجسيد وأوهامه وضلالاته .

فلو كان المسيح إلهاً حقاً لكان ظهور الله فى تلك الصورة البشرية داعية إلى التشويش على التفكير الإنسانى فى سبيل التعرف على الله . . إذ أن الله بظهوره فى تلك الصورة المجسدة قد أعلن عن ذاته ، وكشف للناس عن وجهه ، وصار قريباً مدانياً

لهم ، بعد أن ظل دهوراً طويلة ، محجباً عنهم ، فى بهائه وجلاله ، لاتناله الأبصار ، ولا تحتويه العقول . !

فهذا الإعلان ـ فى الواقع ـ فوق أنه داعية لشرود العقل ، وتشتت الفكر فى ذات الله ـ هو إعلان يقلل من شأن الله ،وينقص قدره ، ويذهب بالكثير من جلاله وعظمته ، وما تتلقى النفوس من مشاعر الولاء والخضوع لله الكبير المتعال ..حين تنظر إليه من وراء حجاب !

فالنفس البشرية طُلَعة ، تتوقد أشواقها إلى المجهول ، وتتحرك نزعاتها إلى عالم الغيب ، فإذا انكشف لها المجهول ، أوظهر لها ماوراء الغيب،سكنت نزعاتها، وبردت أشواقها نحو هذا الشىء ، الذى كانت تسعى إليه وتجدّ فى البحث عنه !

ولو ظهر الله للناس عيانا ـ على يقين استحالته ـ لسقطت هيبته من النفوس بعد حين ، ولجاء اليوم الذى يصبح « الله » وهو يغدو ويروح بين الناس ، كواحد من الناس !

ويحدّث القرآن الكريم عن عجب قريش ودهشهم من أن يكون إنسان من الناس رسولا، بين الله وبين عباده . . فذلك فى نظرهم شىء كثير على أى إنسان ، ولو كان هذا الإنسان «محمداً» الذى عرفوا منه مالم يعرفوا من إنسان غيره..من عفة ونزاهة وأمانة وصدق ، ومن كل ماتطلعت إليه الإنسانية من مكارم الأخلاق .

يحدث القرآن عن هذا العجب والدهش الذى استولى عليهم، حين قال لهم «محمد»: إنى رسول من رب العالمين .. فقال تعالى .. على لسانهم : « وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً » ؟ .. فهم إذ يرون الرسول إنساناً منهم لم يتغير منه شىء تتبدل به طبيعته الإنسانية.. يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويتقلب فيما يتقلب فيه الناس من شئون الحياة.. هم إذ يرون

هذا ينكرون أن يكون رسول الله على شاكلتهم . . إنه ينبغى أن يكون ـ حسب تقديرهم ـ من عالم غير عالم الناس . . فإذ كان ولابد أن يكون إنساناً، وجب أن يكون إلى جانبه ملك من ملائكة السماء ، يحدث الناسَ عنه بأنه رسول الله ، ويقيم له هذه الشهادة بينهم.. وإلا فهم فى مرية من أمره !

ويقول القرآن عن مقولاتهم فى البشر الرسول : « أَبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسُعُر (١) . . ويقول أيضاً : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ؟ » (٢) ويقول : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب » (٣) .

فهذا العجب والدهش من أن يتنزل الله ويخاطب إنساناً ويوحى إليه ! إن ذلك ـ فى نظر الناس ـ مما يُنزل من قدر الله ، ولا يليق بجلاله ، ولهذا كان بين يدى الرسل دائماً آيات سماوية ، تشهد لهم أنهم رسل الله ، فيدفعوا بهذه الآيات تلك التصورات التى يتصورونها فيما بين الله والإنسان من بعد بعيد ، فى منازل الجلال والعظمة ، التى ليس فى مقدور إنسان أن يدنو منها أو يقارب حماها !

فكيف الأمر إذا كان الله ذاته هو ذلك الإنسان بين الناس ؟ يحيا حياتهم ، ويخضع لكل مايخضعون له من ظروف الحياة وأحوالها؟ أيصدق الناس هذه الدعوى التى يدعيها ذلك الإنسان عن نفسه من أنه هو الله أو ابن الله؟ وإذا صدقوه ـ وهيهات

---

(١) سورة : القمر : ٢٤

(٢) سورة : الإسراء : ٩٤

(٣) سورة : ق : ٢

هيهات ـ فهل يبقى لله ما كان له فى نفوسهم من خشية وجلال ؟ إن هذا الرصيد الذى كان يملأ القلوب من جلال الله وخشيته سيذوب شيئاً فشيئاً ، حتى لا يبقى منه شىء ! ويومئذ يبحث الإنسان عن إله جديد.. يجرى وراءه ، ويُطمع القلب والروح فى مناجاته ، وترقب الفضل والنعمة والخير من جهته !

وإذ كان ذلك طبيعةً فى الناس .. يشوقهم المجهول ،ويملأ عليهم وجودهم رهبة وخشية ـ إذ كان ذلك فقد اصطنع الأباطرة والقياصرة والملوك وأصحاب الجاه والسلطان ـ اصطنعوا الحجب التى تحجبهم عن الناس ، وتقيم بينهم وبين عيونهم ستاراً لاتخترقه الأبصار . . فإذا طلعوا عليهم طلعوا من غير مداناة ولاانكشاف ، وبهذا يظل خيال الناس متعلقاً بهم ، وتظل أنظارهم متجهة إليهم ، ولو أنهم دانوهم وخالطوهم لذهب ذلك كله،ولذهب مالهم فى القلوب من هيبة ورهبة !

الوجه الثالث : الكلمة .. الله متجسداً :

ولا حاجة بنا هنا إلى الحديث عن الكلمة وتجسد « الله » فيها .. فهذا التجسد هو النمو الطبيعى للفكرة التى تقول بتجسد الكلمة ، فإذا تجسدت « الكلمة » فكانت فكر الله أو عقله ، ثم نمت وتطورت فكانت « ابن الله » بنوة روحية أولا ، ثم بنوة نسبية ثانياً ـ إذا كان ذلك كذلك فإن الخطوة التالية هى أن تتجسد الكلمة فى الله ذاته ، أو بمعنى أصح أن يتجسد « الله » ذاته فيها !

هذا هو آخر طور من أطوار تجسد الكلمة ، فى مجال التفكير المسيحى !

فقد قالت المسيحية بهذه المقولات الثلاث ، وتنقلت بها من طور إلى طور : من الكلمة المتجسدة ، فى عقل الله أوفكره ، إلى الكلمة المتجسدة فى ابن الله ، إلى الكلمة المتجسدة فى « الله » .

والمسيح فى هذه الأطوار الثلاثة هو «الكلمة» المتجسدة لفكر الله ،ثم الكلمة المتجسدة فى ابن الله ، ثم الكلمة المتجسدة « لله » ! .

وهذه المقولات الثلاث لم تولد فى وقت واحد بل وُلدت – كما قلنا – فى أزمان متعاقبة على هذا الترتيب : عقل الله ، ابن الله ، الله .

ولو أنها ولدت فى وقت واحد لما أمسك العقل المسيحى بغير واحدة منها ، ولما ارتفى الجمع بين هذه الوجوه المتغايرة المتعددة لذات الله .

وأما وقد جاءت متعاقبة تحت إلحاح الظروف التى كانت تستدعى إحلال مقولة بأخرى ، مع الاحتفاظ بالمقولة المعدول عنها ، لأنها أصبحت جزءاً من العقيدة ، إذ كانت متلقاة عن وحى – فقد وجب الاحتفاظ بها جميعها ، وعدها معتقداً لايتم الإيمان ، ولايقبل إلا به !

وقد رأينا أن القول بتجسد الكلمة عقلا لله ، كان من تأثير الفلسفة اليونانية فى العقل المسيحى ، الذى بشر بالدعوة المسيحية فى البلاد اليونانية ، ثم ليكون هذا القول تمجيداً للمسيح ولميلاده بكلمة الله « الأولى » . . كما رأينا أن القول بتجسد الكلمة « ابنا لله » ليرفع عن « المسيح » اللعنة التى قضى بها الناموس على كل من عاق على خشبة . . فإذا كان المسيح ابن الله فقد خرج عن سلطان هذه اللعنة التى لا تنال إلا من وقع تحت حكمها من الناس . . أما المسيح فهو إلٰهى سماوى . . ابن الله !

أما تجسد الكلمة «ذات الله» فهو وليد القول بأن لله ابنا .. حيث أن المتجسد هنا لم يكن ابن الله ولكنه الله ذاته !

وكيف يكون لهذا القول مساغ وقد قيل إن المتجسد هو ابن الله ؟ وكيف وقد قيل أيضاً إن المتجسد هو عقل الله ؟ .

ذلك ماحاول العقل المسيحى أن يجيب عليه ، فكان القول بالتثليت ، الذى يفرّق الذات الإلٰهيه فى ثلاثة أقانيم ، ثم يجمعها فى إلٰه واحد ! !

وذلك ماسنعرض له بعد أن نفرغ من قضية التجسيد .

الفصل الرابع

التجسيد ومقولات التوراة والإنجيل

كانت نظرتنا فى قضية التجسد قائمة إلى الآن وراء النظر المسيحى ، حسب ما انتهى إليه هذا النظر فى كل مرحلة من مراحلها الثلاث ، ولم يكن من همنا أثناء ذلك أن ننظر فى التوراة أو الإنجيل نظرا مباشرا لنتعرف على ما لهـذه القضية من شأن فيهما ، إذ كان - كما هو مفروض - أن تنزع أصول هذه القضية إلى هذين الكتابين ، اللذين هما لأصحاب « التجسيد » كتابا عقيدة وشريعة معا !

فواجب إذن قبل أن نترك هذا البحث أن ننظر نظرة - ولو عابرة - فى هذين الكتابين ، لنرى ما يمكن أن نراه فيهما من مقولات عن «التجسيد» ، تصريحا كان ذلك أو تلميحا . . فذلك إن يكن فهو شاهد يمكن النظر فى شهادته .

ماذا فى التوراة عن التجسيد ؟

يكاد يكون الكتاب المقدس كله بين يدى دعاة المسيحية من أصحاب التثليث والتجسيد والصلب - يكاد يكون كله معرضا لتقرير ألوهية المسيح وتجسده أو تأنسه ، وصلبه وقيامته ، حتى ليخيل لمن ينظر فى الآيات التى يستدعونها من أسفار العهد القديم أن رسالات الرسل من آدم إلى يحيى « يوحنا » - عليهم السلام - لم يكن لها من غاية إلا رصد هذا الميلاد العجيب ، التبشير به ، والإعلان عنه . .

أما هداية الناس ، وأما دعوتهم إلى الله وكشف ما ركبهم من جهالات وضلالات فذلك - فى تصور المسيحية - مالا شأن لأنبياء العهد القديم به .. بل وأكثر من هذا ، فإن الحياة الخاصة لهؤلاء الأنبياء . . من دعوات وابتهالات وصلوات ،

تـكاد تـكون لحساب (المسيح) وإذاعة البشرى بمولده ، وما يتبع هذا المولد من حياة تجرى فيها الخوارق ، وتنقلب بها حياة الناس وتتبدل أحوالهم !

فإذا ضحك أحد الأنبياء، فإنما يضحك لأنه يرقب ساعة الميلاد ،ويعيش فى الآمال المسعدة فيها ، وإذا شكا أو حزن أو صرخ ، فإنه إنما يفعل ذلك لما يرى بظهر الغيب من هذا المصير الذى يترصد المسيح يوم صلبه ! !

وهكذا يبدو كل شىء ـ حسب تقدير دعاة المسيحية ومبشريها ـ فى أسفار العهد القديم ، حديثا عن المسيح وإعلانا بيوم مجيئه وصلبه وقيامته ! !

ولا نستطيع أن ننقل كل ما قيل من تأويلات وتفسيرات لآيات الـكتاب المقدس ، فى جميع أسفاره، مما عدّه دعاة المسيحية إعلانا عن المسيح وتبشيرا به ، فذلك يحتاج إلى مضاعفة أجزاء هذا الـكتاب، بنقل التوراة وأسفارها[١] الملحقة بها، وماقيل فى ذلك من تأويلات وتفسيرات.. وهذا ما لا يحتمله البحث ، ولا تدعو إليه الحاجة على هذا الوجه . . وإنما بحسبنا هنا بعض الأمثلة لهذا ، ففى قليلها مايغنى عن الـكثير ، فى بيان التهافت على استدعاء هذه الآيات من الـكتاب المقدس وإنطاقها قسرا بما ليس فى كيانها شىء منه !

ماذا يقول العهد القديم عن تجسد الـكلمة ؟

والذى ننقله من آيات العهد القديم فى الاستشهاد لتجسد الـكلمة ليس أمرا اجتهاديا، وإنما هو مما أجمع عليه المسيحيون وصار مدخلا إلى الإيمان بالمسيح وبألوهيته.

وهذا بعض ما أوردوه من تنبوءات العهد القديم :

١ — « سجل » داود النبى (١٠٠٠ ق . م) فى (مزمور ٤٠ : ٨) خطاباً

(١) فى الـكتاب المقدس ستة وستون سفرا ، كتبها تسعة وثلاثون نبيا .

بوجهه إلى الله فى أقنوم الابن[(١)] (بصفته الناسوتية التى كان عتيدا أن يظهر بها فى العالم) . . جاء فيه :

« ذبيحةً ومحرقة لم تُسَرّ ..

« أذنى فتحت . .

« محرقة وذبيحة خطيةٍ لم تطلب .

« حينئذ قلت:

« هأنذا جئت:

« بدرج الكتاب مكتوب عنى أن أفعل مشيئتك يا إلهى . .

« سررت !

ويعلق الأستاذ (عوض سمعان) على هـذه المناجاة التى ناجى بها داود ربه . . فيقول :

« وقد اقتبس هذه الآية كاتب الرسالة إلى العبرانيين (سنة ٧٠ م) فقال (بالوحى) : « لا يمكن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا ، لذلك عند دخول المسيح إلى العالم يقول (مخاطبا الله الأب) : ذبيحة وقربانا لم ترد ، ولكن هيأت لى جسدا ، لأن بمحروقات وذبائح للخطية لم تسر، ثم قلتَ: ها أنذا أجىء لأنه فى درج الكتاب مكتوب عنى لأفعل مشيئتك ياألله » .

ونقف هنا عند هذا النص الذى قاله داود ، والذى اقتبسه منه بالوحى ـ كما يقال ـ كاتب الرسالة إلى العبرانيين ـ وهو بولس ـ وننظر فنرى :

أولا : أن داود عليه السلام — فى جميع مزاميره — يسبح بحمد ربه ، ويبث آلامه ومواجعه ،ويستغفرلخطاياه ، التى يراها كبيرة، وهى فى ذاتها صغيرة.. كل ذلك

(١) أى أنه يخاطب « الابن » أى المسيح .. أو بمعنى أوضح يخاطب وجها من وجوه « الله » وهو أقنوم الابن ، ولا يلتفت إلى الوجهين الآخرين من الله !!

فى صلوات ضارعة خاشعة ،يغرّد بها فى نشيد صداح حينا ، وينتحب فى نشيج منغوم حينا آخر ! . .

وهذه الكلمات التى نقلت عنه هنا هى إحدى ترنيماته ، يناجى بها الله ، ويضرع بين يديه .

وصريح هذه الكلمات لا يحتاج إلى بيان . .

فداوود عليه السلام يناجى ربه قائلا :

يا ألله !

إنك بما قدمت لك من ذبائح لم تسر !

ها قد فتحت أذنى ، أسمع نداءك الذى تلقيه إلىّ .

وها أنت ذا لم تطلب إلى أن أقدم ذبيحة للخطية !

لم يبق إذن إلا أن أقدم نفسى بين يديك . . لتفعل بى ما تريد .

لأن مشيئتك فوق كل مشيئة ، وليس لأحد أن يخرج عنها !

فليكن ما تريد . . لا ما أريد !

هذا هو منطوق هذه المناجاة ، او هو شيء قريب منه !

فكيف يتصور مع هذا أن تكون هذه المناجاة موجهة من داود إلى أقنوم الابن ، بصفته الناسوتية التى كان عتيدا أن يظهر بها للعالم ، كما يقول بذلك القائلون؟

من أين جاء هذا ؟

وكيف يكون المسيح هو الموجه إليه هذا الخطاب ؟ وماذا يقع فى نفس داود ومنه ؟

ونستمع إلى مناجاة داود على هذا الوجه الذى أريد لها أن تؤول عليه :

« أيها الكلمة ».. المسيح .. ابن الله !

إنك بذبيحة وتقدمة لم تسر !

محرقة وذبيحةَ خطية لم تطلب !

لأنك لم تجد فى كل هذا ما يكفر خطيئة البشر !

لذلك هيأتَ لك جسدا !

ثم قلتَ : ها أنذا أجىء .. لأنه فى درج الكتاب مكتوب عنى أن أفعل مشيئة الله .

« يا إلهى سررت » !

فهذا المقطع الأخير، يختم به داود مناجاته للسيد المسيح، بأنه قد سر إذ رأى الإله يتجسد فى شخص المسيح ، ويكون ذبيحة لخطيئة الإنسان !

وثانيا : كيف يسرّ داود عليه السلام إذ يرى الإله الذى يعبده قد تحول إلى ذبيحة ؟

أهذا يكون مبعث سرور لنبى يرى الإله الذى يعبده قد صار قربانا لخطيئة الإنسان ؟

لقد أبصر داود ـ فى هذا التقدير ـ إلهه يذبح ، ولم يره يقوم من بين الأموات مرة أخرى . . ولو كان قد رآه لمجده ، وقدسه !

إن الذين استجلبوا هذه الآية من مزامير داود إنما لفتتهم منها كلمة « ذبيحة » .. والمسيح صار ذبيحة ! وإذن فهو المقصود بها ! وإذن فلتقم كلمات الآية كلها لخدمة هذه الكلمة : « ذبيحة » ! ثم ليخرج منها « المسيح » أو الله مصاوبا .

نص آخر : ـ قال « أشعياء » النبى قبل ميلاد المسيح بسبعمائة وخمسين سنة : « ها العذراء تحبل وتلد ابنا ، وتدعو اسمه عمانوئيل (أشعياء ٧ : ١٥) وقد اقتبس « متى » هذه الآية فى إنجيله (بالوحى) ! بعد المسيح بأربعين سنة تقريبا ، فقال ، بعد

تسجيله لحديث الملاك مع العذراء : « وهذا كله لكى يتم ما قيل بالنبى القائل : ها العذراء تحبل ، وتلد ابنا ، وتدعو اسمه « عما نوئيل » .. الذى تفسيره الله معنا » .

وصاحب الإنجيل يأخذ من نبوءة « أشعياء » شاهدا على أنها بشارة بميلاد المسيح من عذراء ، وتجسد الكلمة فى هذا الجسد الذى ظهر فيه !

وإن الذى يجمع بين كلمات أشعياء « ومتى » هو « العذراء تحبل وتلد » ! حيث أن المعروف هو أن العذراء التى وَلدَت من غير رجل ، هى مريم .. وإذن فلا تأويل لهذا القول إلا بعد أن تجىء مريم العذراء بمولودها !

يقول صاحب كتاب : « الله . . طرق إعلانه عن ذاته » تعليقا على هذا «النص» الذى ورد من أقوال أشعياء.. فى العهد القديم ، والنص المقتبس منه كما ورد فى إنجيل متى .. يقول : « يدّعى بعض الناس أن هذه النبوءة يقصد بها الإشارة إلى أن النبى المذكور « أشعياء » سينجب ولدا . . ولكن هذا الادعاء لا نصيب له من الصواب (!!) . . وذلك للأسباب الآتية :

ا ـ « أن التى ستلد هذا الشخص مكتوب عنها أنها عذراء . .

« والشخص الوحيد الذى ولد من عذراء ، هو المسيح ، كما هو معلوم لدينا ! !

ب ـ « أن اسم النبى المذكور لم يكن عمانوئيل ، بل كان «مهير شلال حاشبز» كما يتضح من (أشعياء ٨ : ٣) .

جـ ـ « أن اسم عمانوئيل ينطبق على المسيح وحده ، لأن معناه: الله معنا ، أو الله الظاهر لنا . .[1] والمسيح هو « الله معنا » أو الله الظاهر لنا[2] » .

(١) هذا التفسير الثانى تفسير معلول ، جاء متأخرا عن التفسير الأول «الله معنا» الذى فسر به متى كلمة « عما نوئيل » . . فلما عرفت المسيحية تجسد الله=

ونحن نلاحظ على هذا التأويل ما يأتى :

١ ـ أن قول «أشعياء» (ها العذراء تحبل وتلد) ليس من الحتم اللازم أن يُقصد بالعذرية معناها اللفظى، بل يمكن أن يفهم على أنه مراد بها العذراء الطاهرة، التى تزف إلى رجلها ، وتعيش معه فى عفافها وطهرها، وبهذا يكون المولود منها أهلا لأن يرجى منه الخير والصلاح لبنى إسرائيل ، الذين كان قد فسد أمرهم وساء حالهم .

وكلمة « عذراء » مترجمة عن العبرية ، وليس لها فى العبرية هذا المدلول «الحرفى» للعذرية بمعنى البكارة . .

وقد قرر « دافيد ستروس» أحد علماء اللغات فى القرن ـ الماضى، أن الكلمة المترجمة « بالعذراء » فى هذه الآية معناها « المرأة » ، ولكن العالم الإنجليزى « جيمس أور » والأستاذ « دشيان » أستاذ اللغة العبرية فى جامعة أكسفورد قالا : إن هذه الكلمة هى فى الأصل العبرى « غَـلَما » أى «غلامة» أو فتاة فى سن الزواج ، أو بالحرى « عذراء » (١) .

وواضح من هذا أن كلمة «عذراء » ليست هى المعنى المباشر للكلمة العبرية، وإنما هى إحدى لوازم هذا المعنى . . إذ الترجمة الحرفية للكلمة العبرية هى « غلامة» أو فتاة فى سن الزواج ،ومن لوازم الفتاة أن تكون عذراء .. وليس هذا اللازم بالحتم المقضى به ، فقد تكون « الغلامة » عذراء ما دامت فى سن الشباب والفتاء !

٢ ـ أن كلمة عمانوئيل التى فسرها الإنجيل بمعنى «الله معناه» كما تصدق على المسيح تصدق على كل من يؤمل منه الخير ويرجى من جهته الإحسان.. إذ ليس معنى الله

= فى المسيح جاءت بهذا التفسير « الله الظاهر لنا » إلى جوار « الله معنا » .

(٢) هامش ص ٣٣ من كتاب ـ الله طرق إعلانه عن ذاته ـ للاستاذ عوض سمعان

(١) بتصرف : من كتاب ـ الله طرق إعلانه عن ذاته ـ هامش ص ٢٢ .

معنا، أن الله بذاته مشخص وموجود معنا، بل الموجود معناهو عونه ورعايته، كقول القائل: « الله معنا » إنما يقصد به معونة الله وتوفيقه ورعايته، وعلى هذا، فإن « عما نوئيل » هو مبعوث من عند الله ليعين ويرعى قومه ! وأنه إذا كان اسم المولود لأشعياء ليس اسمه عما نوئيل، فكذلك المسيح ليس اسمه «عما نوئيل» وإنما جاء لفظ عما نوئيل فى نبوّة أشعياء صفةً لهذا المولود، وليس اسما له.

وقد تحدثنا فى غير هذا الموضع عن نبوءة أشعياء هذه، وكيف أنها كانت له وللمولود الذى ولد منه، وأنها قد تحققت فى زمنه، وتحقق معها كل ماورد منها من أحداث !

وإذن فإن ما ورد فى العهد القديم من مقولات يقال إنها تنبأت بظهور الله، أو ابن الله، متجسدا فى صورة إنسان هو المسيح — هذه المقولات — كما رأينا — ليس بينها وبين المسيح وميلاده من صلة، وإنما كان الذى يسوقها فى هذا المساق، ويوردها هذا المورد هو لفظة واحدة عابرة، يتصيدها المتصيدون، فيبنون منها قصورا فى الهواء.. مثل كلمة «ذبيحة» وكلمة « عذراء » .. حتى ولو كانت الذبيحة حَمَلا، وكانت العذراء فراشة !!

وماذا فى العهد الجديد عن التجسد ؟

لم يرد فى الأناجيل شىء عن تجسد الله أو الكلمة، إلا ما رأينا فى مطلع إنجيل يوحنا، الذى بدأ إنجيله بهذا المقطع: «فى البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله.. وكان الكلمة الله . . . والكلمة صار جسدا وحل بيننا » .

وقد رأينا فى هذا النص أمورا تثير حوله الشكوك من كل ناحية، منها: هذا التناقض الذى بين مقرراتها، مثل: فى البدء كان الكلمة. ثم تكون هذه الكلمة عند الله . . ثم يكون الله هو الكلمة !

وقد رأينا أيضا أن الأناجيل الثلاثة الأخرى المعتمدة ، لم تشر إلى شيء من هذا ، ولم تتحدث عن الكلمة التى كانت بدءا .. والتى تحولت فصارت جسدا وحلت بيننا .

فكيف يعلن السيد المسيح عليه السلام هذه الحقيقة الكبرى : «الكلمة كان عند الله ، وكان الله الكلمة . . والكلمة صار جسدا وحل بيننا» . . كيف يعلن المسيح هذا ولا تلتفت الدنيا كلها إلى هذه الحقيقة ، التى تعلن ظهور الله فى جسد حل بين الناس ؟ وكيف لا يذكر أصحاب الأناجيل الثلاثة وفيهم كبار الحواريين الذين عاشوا مع المسيح ولازموه ملازمة الظل ـ كيف لا يذكرون هذه الحقيقة التى هى أساس العقيدة المسيحية ، على حين ينفرد بها « يوحنا » وحده ؟

وندع هذا لنقول إن ما جاء عن التجسيد فى العهد الجديد (الأناجيل والرسائل الملحقة بها) إنما كان معتمدُ القائلين به هو ما جاء فى رسائل « بولس » إلى جانب هذا البدء الذى ورد فى إنجيل « يوحنا » الذى أشرنا إليه !

يقول صاحب كتاب « الله . . طرق إعلانه عن ذاته » فى الاستشهاد لتجسد « المسيح » من العهد الجديد :

« فضلا عن شهادة المسيح عن نفسه بأنه « ابن الله »(١) . . أو بالحرى هو «الله» ظاهراً (٢) . . فقد شهد رسله بالوحى مبشرات الآيات عن هذه الحقيقة » .

ثم يسوق الكاتب بعض هذه الشهادات :

---

(١) هذه الشهادة لا تعطى المسيح بنوة لله أكثر من بنوة الناس جميعا له ، كما تشهد بذلك كلماته التى وردت فى الأناجيل ، وكما يدل على ذلك سياقها .

(٢) هذه المقولة من تاويلات المتأولين وإلا فإن المسيح ما نطق بهذه المقولة حتى فيما نقل عنه فى الأناجيل .. فهذا مفهوم إضافى وارد على العقيدة — المسيحية .

١ ـ قال بولس الرسول : (ولكن لما جاء ملء الزمان(١) أرسل الله ابنه مولودا من امرأة، مولودا تحت الناموس، ليفتدى الذين تحت الناموس، لننال التبنى) (غلاطية ٤ : ٤) .

وعلى ما عرفنا من أن « بولس » هو واضع اللاهوت المسيحى ، وأنه لذلك قد فسّر المسيحية تفسيرا يتفق مع تفكيره ذى المزاج اليونانى ـ فإن هذا النص الذى صرح به بولس لا يعطى صريح المعنى ، بأن الله قد تجسد فى كيان بشرى ،ولا يمكن أن يفهم من النص أكثر من أن الله قد أرسل رسولا من عنده ، مولودا من امرأة، وأنه يسمّى ابن الله ، كما يسمّى الناس أبناء الله ،وخاصة المصطفْين منهم ، العاملين بوصاياه . . وليس يعنى هذا أن « بولس » لم يقل بتجسد الكلمة فى المسيح ، وأن المسيح هو الله متجسدا ، بل لقد قال ذلك فى أكثر من موضع من رسائله . . ولكن قوله هنا لا يدل على المعنى الذى نحن بصدده ، وهو تجسد الكلمة أو الذات !

٢ ـ وقال بولس أيضا : « وبالإجماع عظيم هو سر التقوى .. الله ظهر فى الجسد .. تبرّر فى الروح . . » (أتيموتاوس ٣ : ١٦).. وهذا نص صريح فى أن الله قد تجسد فى جسد بشرى هو المسيح . . وهو كما قلنا مما دخل به بولس على المسيحية ، وبشر به فى المدن اليونانية !

٣ ـ يقول بولس أيضا : « وإذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم اشترك هو أيضا » أى (المسيح) فيهما (أى فى اللحم والدم) لكى يبيد الموتُ ذلك الذى له سلطان الموت (أى أبليس) « عبرانيين ٢ : ١٥ » .

يريد بولس أن يقول : إن أولاد آدم قد ورثوا الخطيئة التى خالطت اللحم

---

(١) ملء الزمان اصطلاح دينى يراد به الزمن المعين عند الله ، الذى تتم فيه مقاصده الأزلية .

والدم منهم ، وإن الموت قد تسلط عليهم بسبب هذه الخطيئة، وإنه لكي يمكن القضاء على سلطان الموت المتمكن منهم، كان لابد أن يتجسد الله ، وإن يشترك مع الناس فى صورة اللحم والدم ، وأنه بهذا يستدعى الموت إليه ، ويدخله فى جسده ، وهو على الصليب ، وبهذا يستوفى الموت سلطانه فى جسد المسيح ، ومن ثم فلا يكون له بعد هذا سلطان على أحد ! !

هذا ما يريد بولس أن يقرره ويقيم منه حجة لتجسد الله فى شخص المسيح !

وقد أراد بهذا القول أن يجعل منه مدخلا إلى حتمية الصلب وضرورته ! !

٤ ـ وقال يوحنا الرسول : « والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأيناه مجده » (يوحنا ٤ : ٢ ، ٣) .

وقد عرفنا أن يوحنا بدأ إنجيله بمثل هذا البدء الذى جاء فى رسالته هذه ، وأن إنجيله الذى كتبه لم يكن ترجمة ليسوع ، وإنما هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية ، بوصفه كلمة الله وخالق العالم ومنقذ البشرية !

٥ ـ ويقول يوحنا أيضا : « بهذا تعرفون روح الله ، كل روح يعترف بيسوع المسيح : قد جاء فى الجسد.. فهو من الله، وكل روح لايعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فليس من الله » (١ يوحنا ٤ : ٢ ، ٣) .

وفى هذا النص نجد « يوحنا » ينفصل عن هذا الشعور الذى كان مستوليا عليه فى كل ما كتب عن المسيح ، وهو أنه الله متجسدا .. فهو هنا يراه روحا من الله ، لا الله ذاته !

وهذا غريب يثير الدهشة والعجب !

ولكن إذا عرفنا أن قضية التجسد قضية فريدة بين القضايا التى التقى بها العقل البشرى ، وأن هذا العقل سيظل أبدا يدور حولها ، دون أن يحصل منها على مكان يقف

عنده موقف الاطمئنان ـ إذا عرفنا هذا فلا نعجب إذا رأينا تلك المقولات المتضاربة حيالها ،حتى عند الشخص الواحد ! بل وفى المقولة الواحدة.

وقد لاحظنا أن ما جاء فى العهد الجديد لم يكن إلا من مقولات بولس ويوحنا ، دون سائر أصحاب الأناجيل وأصحاب الرسائل !

وبولس أمره مشهور ، ودوره فى تشكيل العقيدة المسيحية واضح ، لا يحتاج إلى بيان !

أما « يوحنا » فقد عرفنا أنه كتب إنجيله عن ذكريات خاصة عن المسيح ، وأنه كان يضع نصب عينيه وهو يكتب هذا الإنجيل أن يكسب للمسيحية أنصارا من غير اليهود . . من الرومان على الأخص، أصحاب السلطة فى اليهودية، ولهذا فقد خالف الأناجيل الثلاثة فى كثير من المواقف ذات الخطر فى دعوة المسيح ، والتفت إلى أشياء جانبية ، ألقى عليها من عاطفته ماضخمها وكثفها .. ومن هذا ـ مثلا ـ أخذه كلمة « ابن الله » الواردة فى الأناجيل والانطلاق بها فيما وراء العالم المادى ، ثم المناداة بها إلها متجسدا ، هو المسيح !

يقول « ول ديورانت » : « ولم يقل المسيح فى الأناجيل الثلاثة المتشابهة ـ متى ومرقس ولوقا ـ أنه هو والأب إله واحد ، أو يسوى نفسه به ، فقد سأل أحد أتباعه : لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحد صالحا إلا واحد ،وهو الله » وقال وهو يصلى فى جتسمانى » مناجيا ربه ـ : ليكن لا ما أريد ، بل ما تريد أنت »(١) .

وكفى بهذا شاهدا على أن المسيح لم تؤثر عنه كلمة واحداة تشير إلى ألوهيته أو بنوته لله !

ماذا يقول القرآن عن التجسيد :

حاول كثير من علماء المسيحية أن يسوقوا القرآن إلى تلك الغاية التى ساقوا

(١) قصه الحضارة جزء ١١ ص ٢٠٨ .

إليها التوراة والإنجيل ، للاستدلال على تجسد الكلمة من نصوص الكتب المقدسة، ليكون ذلك شهادة للعقيدة القائلة بتجسد الله ، أو كلمته ، فى المسيح عيسى ابن مريم !

وقد رأينا تهافت الأدلة المستخلصة من المقولات التى استدعيت لهذه القضية من الكتاب المقدس ، بعهديه القديم والجديد ! وأنها استشهادات متصيدة بغير سلاح الواقع ، الذى تنطق به النصوص فى صريح ألفاظها !

والقرآن إذ يُستدعى ليقيم شهادة لهذه القضية ، ينظر فى وجوه أولئك الذين استدعوه ومدوا أيديهم إليه ، فيرى فى وجوههم المنكر .. إذ كانوا لا يؤمنون به ، ولا يشهدون أنه منزل من عند الله .. !

فماذا عسى أن تنفعهم شهادته هنا ، وهو المجرَّح المكذَّب عندهم ؟

وإذا استقامت لهم شهادة منه يرضون عنها .. فهل يجدون مقالا يقولونه للخصم الذى يدفع شهادة القرآن بمقولاتهم التى يقولونها فيه ، وبالتهم التى يرمونها به ؟ ماذا عسى أن يقولوا لمن يقول لهم : إن القرآن ليس من عند الله ، وأنه حديث مفترى ، لا تقبل شهادته ، ولا يعول عليها !! أتراهم يقولون: كلا ، إنه هنا ـ فى قضية التجسيد ـ قرآن كريم ، تنزيل من رب العالمين ؟ وهل يقبل منهم هذا القول ، ويسلم لهم به ، مع مقولاتهم المفكرة فيه ؟

ندع هذا ..

وننظر فيما يتأولونه من آيات القرآن الكريم لقضية التجسيد ..

ونكتفى هنا بشاهد واحد ، فهو مثل يغنى فى هذا المقام عن كثير مثله :

يقول (الأستاذ الحداد) فى صدد الاستدلال من القرآن على مولد عيسى

عليه السلام، على هذا الأسلوب الفريد الذى ولد به ،دون سائر البشر،وأن هذا الميلاد يعطى دلالة قوية على مقولات المؤمنين به ، بأنه إله أو ابن إله .. يقول :

« فى قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » يقول :

« تترك النصوص القرآنية التى سبقت هذا النص فى نفس القارىء فكرة عظيمة عن سمو المسيح ، حتى لقد تخرج به عن طبيعة البشر . . وتترك الباب مفتوحا لاعتقاد النصارى بتأليه عيسى ! . . فجاء هذا النص الإضافى (! !) فى زمن متأخر ، يقاوم ذلك الشعور ، ويعلل القضية على هذا النحو »(١) .

ولا بد من وقفة هنا مع هذه المقولة الكبيرة ، التى تقال فى القرآن الكريم !

يقول « الحداد » إن القرآن قد شهد لعيسى شهادة تخرج به عن طبيعة البشر، وتترك الباب مفتوحا لاعتقاد النصارى بتأليهه . . ثم دخل على القرآن بعد ذلك نص متأخر إضافى ، يفسد هذه الصورة التى رسمها للمسيح من قبل !

فماذا قال القرآن فى عيسى وفى مولده وسمو هذا المولد ـ قبل هذا النص المشار إليه ؟

يقول القرآن الكريم فى هذا: « يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم . . وجيهاً فى الدنيا والآخرة ،ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد ، وكهلا ، ومن الصالحين.. قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ قال كذلكِ الله يخلق مايشاء .. إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم

---

(١) الإنجيل فى القرآن صـ ٢٤١ .

إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدىّ من التوراة ، ولأحلّ لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون . . إن الله ربى وربكم فاعبدوه .. هذا صراط مستقيم [١] » .

هذه هى الآيات التى ذكرها القرآن فى شأن عيسى ، والتى يعترف بها علماء المسيحية ،ويعدونها «قرآنا» لم يدخل عليه تبديل أو تحوير، ويستدلون منها على شهادة القرآن فى شأن عيسى ، وفى البلوغ به إلى مقام الألوهية !

والقرآن الكريم إنما ينطق بالحق فى شأن عيسى ، وفى كل شأن عرض له . .

فهو يرفع قدر هذا النبى العظيم،ويعلى شأنه فى العالمين، ويدفع عنه وعن أمه كل دنس ورجس ، يلحق بمولده الطهور ، المبرأ من كل تهمة .. فهو كلمة الله وروح منه !

فهل يقبل أصحاب التجسيد والتثليث شهادة القرآن التى تنطق بها هذه الآيات ؟

ولقد قبلوها فعلا ! ولكن على حسب ما يتأولون ! وإلا فإن هذه الآيات ـ وإن رفعت قدر المسيح ـ وهو ذو القدر الرفيع ـ فإنها لم تقل فيه إلا أنه عبد من عباد الله وخلق من خلقه .. وقد كان جواب المَلك الذى أجاب به مريم وهى تستنكر أن يكون لها ولد من غير رجل ـ كان جوابه ما تلقاه من ربه : « قال كذلكِ الله يخلق مايشاء ».. فالمسيح الذى بُشرت به مريم هو بعض من خلق الله،على الصورة التى أرادها الله ، و « الله يخلق ما يشاء » مما يشاء ! . . فهل فى هذا ما يجعل للمسيح سبيلا إلى الألوهية ؟ . . سبحانك . . هذا بهتان عظيم ! .

والقرآن يقول فى هذا النص عن المسيح : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل ».. فهو ـ أى المسيح ـ رسول إلى بنى إسرائيل،

(١) سورة آل عمران: ٤٧-٥١

بعد أن يعلمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.. فهل مَن هذا شأنه يكون إلٰها مع الله ؟ . . تعالى عما يشركون !

والقرآن إذ يتحدث عن المعجزات التى تظهر على يد المسيح والمخلوقات التى يخلقها، أنه ــ أى المسيح ــ إنما يفعل ذلك « بإذن الله » . . فهل يحتاج الإلٰه إلى من يأذن له بما يفعل ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا !

وقد أنكر الذين قالوا بألوهية المسيح أن يقول القرآن عقب هذه الآيات : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون» ــ أنكروا على القرآن هذا القول . . وقالوا كيف يرفعه إلى مقام الألوهية فى الآيات السابقة ، ثم يعود فى هذه الآية فيجعل خلقه شبيها بخلق آدم ؟ إن هذا النص (يعنى هذه الآية) قد ألحقت فى زمن متأخر، لتدفع هذا الشعور الذى تعطيه الآيات السابقة عن المسيح ، وعن المدخل الذى يدخل به إلى الألوهية !

وهذا خلط عجيب . ومغالطة صريحة لا شفيع لها ، ولا عذر لمن يساق إليها . .

فهذه الآية والآيات التى سبقتها نسق واحد ، يمسك بعضه بحجز بعض . . لا ينخرم منه حرف ، ولا تنحرف منه كلمة إلى يوم القيامة !

فالخلق الذى خُلق عليه عيسى، والآيات التى جاءت تحدث به.. لا يخرجه شىء من ذلك عن أن يكون بعض ما خلق الله . . وإذا ضل ضال أو غوى غاو فأراه عقله أن هذا الإنسان العجيب فى خلقه، والمعجب بآياته ومعجزاته التى بين يديه ــ هو شىء يتطاول إلى حمى الألوهية، ويشارك فيها .. فلينظر فى خلق آدم الذى خلق من لاشىء .. من غير أب ولا أم . . من تراب هامد ، فكان بشرا سويا ! ثم لينظر إلى المسيح ، عيسى بن مريم ، الذى خلق من أمّ ، من غير أن يتصل بها رجل . . عندئذ يرى أن

خلق آدم أدخل فى باب العجب من خلق عيسى . . وأنه إذا كان لعيسى مدخل واحد يدخل به إلى الألوهية ، فلآدم أكثر من مدخل إليها ! ولم يقلْ أحدعن آدم إنه إله أو ابن إله !!

وموقف القرآن من المسيح واحد لم يتغير فى حال منه عن حال ، فهو عبد الله ورسوله ، ليس له مع الله شركة فى نسب، ولامشاركة فى خلق شيء مما خلق ! « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه »(١) « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل(٢).

والقرآن ليس هو الكتاب الذى يقال عنه إن فيه نصا إلحاقيا،أو إضافيا ، دخل عليه لخدمة غاية ذاتية ، أو تحقيق أمر وراء الدعوة التى جاء بها .. إذ هو كلمات الله ، تلقاها رسول الله،وألقاها إلى صدور صحابته وأودعها صحفا مطهرة ، وقد تحدثنا من قبل عن هذا ، وقلنا إن الله سبحانه قد وعد وعدا لا يخلفه ، بأنه نزل القرآن وتولى حفظه ، وقد جعل هذا الوعد قرآنا كريما يتلوه التالون ،ويرتله المرتلون، ويتعبد به المتعبدون ، فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (١) » .

ونقول قولة واحدة : إن مقطع القول فى القرآن، هو أن تقوم بيّنة على أن كلمة واحدة من كلماته قد حرفت أو بدلت ، أو أن آية من آياته قد ذهبت، أوأن آية منه دخيلة عليه، وليست من كلام الله رب العالمين.. كلمة واحدة ،أو آية واحدة ، هى مناط الفصل فى القرآن كله ! فمن تسعفه الأيام بهذه أو تلك ، فقد أمسك بيده الحكم الذى يقضى على القرآن كله ، ويسقط كل حجة له بأنه كلام الله ، وأنه من عند الله !

---

(١) سورة النساء : ١٧٠
(٢) سورة الزخرف : ٥٩
(٣) سورة الحجر : ١٥

لقد تحدى القرآن العرب بأن يأتوا بسورة من مثله . . وقد ظل هذا التحدى قائما ، وسيظل قائما إلى يوم الدين ، دون أن يقوم لهذا التحدى أحد من عباد الله ! !

والقرآن يتحدى الناس جميعا . . وما معهم من علم ومعرفة أن يقيموا شاهدا يشهد بأن آية من آيات الله قد بدلت أو حرفت !

وسيظل هذا التحدى قائما لا تنقضه الأيام، ولا يقوم له الناس،ولو اجتمعوا له.. « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا.. لا مبدل لكلماته .. وهو السميع العليم[١] .

* * * *

---

(١) سورة الأنعام : ١١٥

الفصل الخامس

الذات الإلٰهية وتصورها

الله متجسدا.. ولماذا ؟

الله ذات متصرفة فى هذا الوجود ، يضاف إليها كل شىء فيه . .

ومن هنا كانت العقول دائما متجهة إلى تلك الذات ، ناظرة فيها متعلقة بهـا ، تحاول جاهدة أن تمسك بالصورة التى تتمثلها لها ، وتتصورها عليها ..

وطبيعى أن العقل على كثرة ما يتوارد عليه من تصورات لذات « الله » ، وعلى كثرة ما بين هذه الواردات من اختلاف ، فإنه يتقبل هذه الصور جميعا ، بل ويطلب المزيد منها . . فلا يزال أبدا يرصد الذات الإلٰهية ، ويتصيد ما يقع لفكره وخاطره وخياله من وارداتها .

وبالتجربة الواقعة ، يستيقن العقل أنه لا يمكن أن يضبط لله صورة ، وأن يقيم معتقده عليهـا . . ولكنه مع هذا جاد فى البحث ، لا يقر له قرار ، ولا تسكن له رغبة.. تدفعه إلى ذلك أشواق ، وتحدوه إليه نزعات .

وليست هذه الآلهة التى خلقها العقل الإنسانى وأنزلها إلى عالمه الأرضى ، وألبسها صورا مختلفة من صور الإنسان والحيوان والنبات والجماد ـ ليست إلا بعض ماورد على تفكير الإنسان وما وقع فى تصوراته وأحلامه ورؤاه للإٰله !

ويتحدث القرآن عن تطلعات العقل البشرى إلى الله ، وتشوقه إلى رؤيته . رؤية مباشرة ، حتى تهدأ حيرته وتجتمع أشتاته وشوارده !

فهذا موسى عليه السلام يتجه إلى ربّه فى شوق ولهَف :

« قال رب أرني أنظر إليك ! قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر

مكانه فسوف ترانى ، فلما تجـّلى ربه للجبل جعله دكّـاً ، وخرّ موسى صعِقا (١) .

ووقوف العقل إزاء الذات الإلٰهية وعجزه عن النظر المباشر لها، لم يحل بينه وبين أن يترضّى تطلعاته ، بخلق الأساطير التى تصور له تلك الذات،وتقبلها،والإيمان بها.!

فهذه رغبة من الرغبات الملحة عند أبناء آدم ، قد وجدت فى الناس من يلقاهم بها، ويشفى ما بصدورهم منها.. فكان أن أظهروا لهم الله عيانا فى تلك الصور الكثيرة التى عبدها العابدون ، وقدموا لها الولاء .. فى رضى وسخاء !

ولعل أعجب هذه الصور وأكثرها جرأة وقدرة على مواجهة العقل ، هى تلك الصورة التى تعرض الله فى إنسان من الناس .. يراه الناس واحدا من آحادهم ، يولد بينهم،ويتنقل فى أطوار الحياة بين أعينهم.. من جنين فى بطن أمه..إلى طفل..إلى صبى.. إلى آخر مراحل العمر ، ثم مع هذا تفرض عليهم الرغبة المستقرة فى كيانهم والأحلام الجاثمة على صدورهم ،والشوق أو الجوع المستبد بهم ـ أن يقبلوا هذا الإنسان على أنه «الله» الذى نظروا إليه طويلا فلم يروه ، وهتفوا به فى سر وجهر ، فلم يسمعوا صوته ، ولم يبصروا شخصه . . وكثيرا ما يجد الظمآن فى السراب متعلقا يتعلق به ! !

العقيدة وما حول العقيدة :

وليس ثمة من بأس فى مجاوبة هذه الخواطر، وإجازة تلك التصورات التى تطلع فى آفاق الخيال، وتتراءى فى هجسات النفس عن ذات الإلٰه ، فهى مما لا يملك الإنسان دفعه إلا إذا ظل قائما يقظا أبدا على حراسة عقله وإمساك كل خاطرة تمر به ـ وهذا إن كان ممكنا ـ وهو غير واقع فى حيز الإمكان ـ فيه كبت شديد للإنسان ، وضغط قاس على كيانه العقلى، الأمر الذى لا يَسْلم معه هذا الكيان من التصدع أو الانهيار.

لكن ـ إذا أجزنا للعقل أن يجيز مثل هذه الخطرات ، وإن يمنحها القبول

(١) سورة الأعراف : ١٤٢

فى لمسة عابرة ، فإنه ينبغى أن يردّ الإنسان كل هذه الخطرات ، وتلك التصورات عن دائرة معتقده فى الله ، الذى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . . وأن يكون على يقين أبدا وفى كل حال ، من أن ذات الله أبعد من أن ينالها العقل ،أو يحويها الفكر،أو يستوعبها النظر .. وأن كل ما يخطر على البال من ذات الله ، فالله على خلافه !

وقد حرصت الرسالات السماوية كلها على أن تؤكد هذه الحقيقة ، وأن تتحدث عن الله فى جلاله وعظمته ، وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته ... إلى غير ذلك مما للخالق العظيم ، دون أن ترسم له صورة أو تعرض لذاته بما يحدد معالمها ويكشف حقيقتها !

ولهذا كان رسل الله وأنبياؤه هم حملة رسالات الله إلى عباده ،بتلقونها وحيا من الله، أو تلقيا من ملائكته ، وبين يدى كل رسالة معجزة أو معجزات يجريها الله على يدى حامل الرسالة ، لتشهد له بصدق ما بلغ به ، وأنه من عند الله !

ولو كان لله أن يظهر للناس ، وكان للناس قدرة على استقبال هذا الظهور الذى دكّت منه الجبال، لما كان لإرسال الرسل معنى، ولجاء الله إلى الناس فى ذاته على أية صورة يشاؤها ، ولكان مجيئه قاطعا على الناس كل سبيل إلى النظر والتردد ، ولما كان هناك مجال للاختبار والاختيار، ولخضع الناس جميعا خضوعا قاهرا لهذا الجلال الذى يملأ عليهم وجودهم كله !

وهذا ما لم يقع ، ولن يقع أبدا !

وفى هذا يقول الله تعالى: « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء . . إنه علىّ حكيم»(١) .

---

(١) سورة الشورى : ٥١

فالبشر ليسوا على استعداد فى جميع أحوالهم وأزمانهم لأن يخالطوا الله ، ويعايشوه ، ويتحدثوا إليه ، ويتلقوْا منه مباشرة . . لأن ذلك ـ كما قلنا ـ أمر فوق طاقه البشر . و « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

وقد كان الإمام « على » رضى الله يلبس ثوب الألوهية فى نظر جماعات من الملاحدة وأصحاب البدع والأهواء . . فخدّ لهم أخدودا فى الأرض ، وملأه حطبا، وأوقد فيه النار ، ثم عرضهم على النار، أو ترك معتقداتهم الشنعاء ، فأبوا ، وأصروا، فألقاهم فى الأخدود ، واحداً بعد واحد ، وهم يتهافتون على النار تهافت الفَرَاش !

ولا زال فى أقطار كثيرة من الأرض أناس كثيرون يدينون بألوهية أناس، كانوا فى عالم الأحياء إلى سنوات قليلة مضت ، وآخرهم « سليمان المرشد » الذى ظهر فى ربوع الشام ، وفتن كثيرا من أهلها . .

الله فى جسد المسيح :

والذين آمنوا بالمسيح إلها يقولون : إن تجسد « الله» فى المسيح ليس إلا إعلانا صريحا لله ، بعد أن كان يظهر للناس من وراء حجاب !

فالرسل والأنبياء كانوا على صلة مرئية بالله.. كانوا يتلقون كلماته منه مباشرة ، وكان الملاك الذى يظهر لهم هو « الله » فى تعيـّن من تعينات الذات !.. هكذا يقولون !

وعلى هذا، فليس لله ملائكة هم رسله، يتخيرهم لرسالته إلى الناس ، من أنبياء ورسل .. وإنما كل ما تحدثت به الكتب المقدسة عن (ملاك الرب) هو الرب نفسه !

يقول الأستاذ عوض سمعان فى كتابه : « الله . . طرق إعلانه عن ذاته » :

« إن كلمة » ملاك » أو « ملاك الرب » وردت فى الكتاب المقدس مراداً بها اسم « الرب » أو « الله » . . فقد قال زكريا النبى :

« مَثَلُ الله مثل ملاك الرب » (زكريا ١٢ : ٨) .. وقال الوحى عن يعقوب : « جاهدَ مع الله ، جاهد من الملاك » (هوشع ١٢ : ٣) .

وقال يعقوب عندما رأى ابنى يوسف: « الله الذى رعانى، الملاك الذى خلصنى، يبارك الغلامين » (تكوين : ٤٨ : ١٥ و ١٦) .. »

وواضح من هذه النصوص أن « كلمة الله » فى كل نص مقصودة لذاتها ، وأن كلمة ملاك، أو الملاك، أو ملاك الرب، تعنى ذاتا أخرى غيرذات الله ،وهى القوة الروحية التى يرسلها الله إلى المصطفَيْن من عباده فى هيئة ملاك ، فتعين ، وترشد ، وتبلّغ !

ولكن أصحاب التثليث يقيمون هذه النصوص على غير هذا الوجه !

الذين رأوا الله ! ! :

كثير من الناس أبى عليهم معتقدهم فى الله إلا أن يُنزلوه إلى واقع تصوراتهم ، وأن يلبسوه — كما قلنا — الصورة التى تروق لهم ، وتحقق الخيالات التى تدور فى رؤوسهم عن ذات الله !

ومن تلك الأزياء التى ألبسها الواهمون لله — الزى الإنسانى فتمثل لهم الله بشرا سويا !

واعجبْ لإله يعيش فى الناس ، وهو يعلم سرهم ونجواهم ، ويحيط بكل ما يخفون وما يبدون ، ويرزقهم ويحييهم ويميتهم ، ثم هم مع هذا يسكنون إليه ويحيون معه !

أى إله هذا ؟

وأين علمه وحكمته وقدرته ؟

علمه الذى يحيط بالوجود كله ،وحكمته المدبرة لكل مافى هذا الوجود ،وقدرته الممسكة بكل ذرة من ذراته .. فى السموات وفى الأرض ؟ ؟

لقد انحصر ذلك كله فى هذه الرقعة المحدودة من الأرض التى يتحرك فيها ، وفى هذه الأيام المعدودة التى يغدو ويروح بين جماعة من الناس فيها !

ونقول : ـ إنه مع ذلك قد تقبل العقل الإنسانى هذا الإله ، وآمن له ، وأعطاه ولاءه وتقديسه !

لقد آمنت ملايين البشر بالإنسان الهندى « كرشنا » واعتبروه الإله (فشنو) قد تجسد فيه ، وجاء به إلى العالم ، ليخلص الناس من خطاياهم التى غرقوا فيها .. !

وقد مات « كرشنا » مقتولا . . ثم قام من بين الأموات ، وصعد إلى السماء .. وشهد له كثيرون أنهم رأوه وهو يصعد إليها . . !!

وتذكر الأساطير البوذية أن « بوذا » إله ترك الفردوس ، وجاء إلى العالم فى صورة إنسان ، لكى يصلح من الناس ما فسد ، ويحمل عنهم خطاياهم التى كان جديرا بها أن تدفع بهم إلى مهاوى الجحيم ! . . وقد صعد « بوذا » إلى السماء بعد أن أدّى دوره على الأرض !

ولكن انظر لترى عجبا :

يقول الأستاذ عوض سمعان ، تعليقا على النصوص السابقة التى أوردها : « إن كلمة « ملاك » ليست فى الأصل اسما للمخلوق الذى يعرف بها ، بل إنها اسم للمهمة التى يقوم بها ، وهذه المهمة هى تبليغ الرسائل !

« فالاصطلاح «ملاك الرب» ، معناه حسب الأصل: «المبلغ لرسائل الرب» !

« ولما كان » الرب » هو خير من يقوم بتبليغ رسائله ، لأن كل ما عداه محدود ، والمحدود لا يستطيع أن يعلن إعلانا كاملا ذات أو مقاصد غير المحدود ، لذلك يحق أن يسمَّى الرب من جهة ظهوره لتبليغ رسائله: « ملاك الرب » ! ! بمعنى المعلن لمقاصده أو المعلن لذاته ! ! أو بالحرى بمعنى : « ذاته معلَنا أو متجليا ! » لأنه لا يعلن ذات الله سوى الله ... !! »[1] .

---

(١) الله .. طرق إعلانه عن ذاته ص ١٢ .

ولا ندرى لماذا يركب الأستاذ عوض سمعان هذا المركب الوعر، ويتعسف هذا التعسف، الذى يتحيف ذوات الألفاظ ويغتال حقائقها ؟

ليقل السيد الجليل ما شاء أن يقول، ولكن على ألا يهدر مدلول الكلمات، ومعانى الألفاظ المتعارف عليها، وإلا تقطعت به السبل إلى قارئه. وانقطعت وسائل التفاهم بينهما.

يقول : « ملاك الرب » معناه حسب الأصل : « المبلغ لرسائل الرب ».

هذا كلام واضح مفهوم، نقبله منه، ونتفق معه عليه !

ثم ليسمح لنا السيد الكريم أن نفهم من هذا :

أولا : أن « ملاك الرب كلمتان متضايفتان.. وأن المضاف غير المضاف إليه... إذن فهما ذاتان، لكل ذات وجودها المستقل عن الآخر مهما يكن ما بينهما من صلات!.. فعين فلان غير فلان هذا، وكذلك وجهه، وقلبه، وعقله، وكل ما يضاف إليه...

وثانيا: «المبلغ لرسائل الرب».. هنا ثلاث ذوات: ذات المبلغ، وذات الرسائل، وذات الرب.

أهناك من يقول فى هذا قولا غير ما نقول ؟ أظن لا، فإن اللغة التى نتعامل بها لاتعطى غير هذا. ولكن الأستاذ « عوض سمعان » يقول غير هذا، ويضرب باللغة، وبمدلولاتها التى قامت عليها عرض الحائط.. كما يقولون !

فهاهو ذا يقول تلك القولة: « لذلك يحق أن يسمى « الرب » من جهة ظهوره لتبليغ رسائله : «ملاك الرب» !

أرأيت ؟ « الرب » يمكن أن يسمى « ملاك الرب » !!

أى أن الرب يرسل نفسه فيكون مرسلا من الرب، وهو فى الوقت نفسه يسمى ربا !!

ولم هذا ؟

لما لا يقال إنه « الله » قولة واحدة ؟

لماذا لا يقال جاء « الله » ودخل « الله » ووقف « الله » مكان : جاء « ملاك الله » ودخل « ملاك الله » ووقف «ملاك الله».. إن كان الله سبحانه هو ذاته الذى فعل هذه الأفعال وواجه الأنبياء والرسل فى ذات مجسدة ؟

ولماذا « تحشر » كلمة « ملاك » بين الله وبين وما يقول أو يفعل ؟

وندع اللغة ومنطق ألفاظها ، ومدلولات تراكيبها .. فإن اللغة حين تساق إلى سوق الجدل والسفسطة، وحين تحمل على محامل الرغبات والأهواء — تفقد وجودها ، وتتخلى عن وظيفتها ، وتصبح أصواتا يتأولها المتأولون ، كما تملى لهم نزعاتهم ومتطلباتهم !

ندع منطق اللغة إذن :

ونسأل الواقع الذى كانت تعيش فيه هذه الكلمات، فى عقول أصحابها وقلوبهم ، وكيف كانوا يفهمونها ، وعلى أى وجه كانوا يتعاملون بها ؟

أكان بنو إسرائيل الذين تلقوا هذه الآيات وتلك المقولات عن أنبيائهم ورسلهم : —

— أكانوا يفهمون منها أن «ملاك الرب» هو « الرب » أو أن « الملاك » هو الله ؟

ثم أكان الأنبياء أنفسهم على علم بأن الذى كان يلقاهم ويتحدث إليهم من ملائكة الله ، أنهم هم « ذات الله » ؟

والذى يقرأ أسفار العهد القديم كلها يجد فيها أن « الله » هو « الله » ، وأن الملاك هو « الملاك » .. أى رسول من الله إلى أحد عباد الله !

والذى يقرأ أسفار العهد القديم يرى للأنبياء والرسل مواقف خاصة مع « الله » ، وحديثاً خاصاً ، ومناجاة خاصة .. فما قال أحد منهم فى صلاته أو دعائه « ياملاك الرب » بل كان قولهم واحداً ، هو : « ياألله » !

والمقولات التى يجمع فيها الخطاب بين الله والملاك ، يكون الله فيها مقصوداً لذاته ، ويكون ملاك الله مقصوداً لذاته كذلك ..

وقول يعقوب : « الله الذى رعانى ، الملاك الذى خلصنى ، إنما يعنى به : الله الذى أمده برعايته ، فبعث الله الملاك الذى خلصه ! فالله رعاه ، والملاك خلصه !.. وهكذا كل موقف يجتمع فيه « ملاك الرب » ، مع « الرب » ، بل إن الذى يقرأ أسفار العهد الجديد « الإنجيل وملحقاته » يرى ملائكة الله يغدون ويروحون بين السماء والأرض ، محملين بأوامر الله إلى عباد الله !!

فى الإصحاح « السابع عشر » من رؤيا يوحنا اللاهوتى (١) يقول : « ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الجامات وتكلم معى ... »

فهؤلاء سبعة ملائكة .. فهل هم سبعة آلهة ؟ أم هم الله ذو السبعة أقانيم ؟

وفى الإصحاح الثامن من سفر الرؤيا أيضاً يقول يوحنا اللاهوتى : « ثم إن السبعة الملائكة الذين منهم السبعة الأبواق تهيأوا لى لكى يبوقوا ... »

فهؤلاء ملائكة آخرون ، لهم عملهم الموكلون به . فهل هم آلهة ؟ أم أنهم الله فى أقانيمه التى لا حصر لها ؟

---

(١) ويقال إن كاتب هذه الرؤيا هو يوحنا صاحب الإنجيل الرابع وكاتب رسالة أعمال الرسل ٩ . (قصة الحضارة : الجزء الحادى عشر) .

وما لنا ولهذا . ؟

لقد كفانا الأستاذ عوض سمعان مئونة هذا . . .

يتحدث الأستاذ عوض ، معللا عدم تحدث الرسل من أتباع المسيح عن المسيح بأنه هو « الله » .. فيقول

إننا إذا رجعنا إلى تاريخ علاقة الرسل بالمسيح (أى الحواريين) وجدنا أنهم لم يجرءوا فى أول الأمر على الاعتراف بأنه هو « الله » !

ولم ؟

إليك الجواب ، من فم الأستاذ عوض ، ومن فم كل من اعتقد بالتجسيد:

« لأنهم ـ أى الرسل أو الحواريين — كيهود كانوا يعلمون تمام العلم أن الاعتراف بأن إنساناً هو الله يعتبر تجديفاً يستحق الرجم فى الحال (تثنية ١٣ : ١٠) .. ولأنهم كيهود أيضاً كانوا يستبعدون أن يظهر الله فى هيئة إنسان !

ثم يقول :

« نعم، كانوا ينتظرون « المسيَّا » لكن «المسيا» بالنسبة إلى أفكارهم التى توارثوها عن أجدادهم ، لم يكن سوى رسول ممتاز ، يأتيهم من عند الله ، وليس هو ذات الله » (١) .

وليس بعد هذا مقال فى تأويل آيات « العهد القديم وتلقى مابلغه الرسل منها إلى بنى إسرائيل ! فما عرف اليهود وما اعترفوا أبداً ـ كما يقول المؤلف ـ بأن إنساناً

(١) الله .. طرق إعلانه عن ذاته : للأستاذ عوض سمعان صـ ٢٨

هو الله ، وأن القول بهذا تجديف على الله ، يستحق صاحبه الموت صلباً ، وقد أدانوا هم المسيح بهذا ، إذ شهدوا عليه بأنه قال عن نفسه إنه ابن الله ! ! فصلبوه !

وهذا معناه أن جميع النصوص الواردة فى العهد القديم ، والتى أولت بأنها تحدث عن « المسيح » المتجسد فى الله أو الإله المتجسد فى المسيح ـ جميع هذه النصوص لم يكن لها هذا المفهوم عند أحد من اليهود ، ولا عند أحد من أنبيائهم . .

فلمن إذن كانت هذه الآيات التى يقال عنها إنها نبوءات عن المسيح الإله ؟ لمن ؟ إذا كان الأنبياء الذين تلقوها لم يفهموها هذا الفهم ، ثم كان اليهود الذين آمنوا بها لم يؤمنوا بها على هذا الوجه ؟

أ كان ذلك ليكون أتباع المسيح ـ لا المسيح نفسه ـ هم الذين يفهمون هذه البشارات على حقيقتها ويقيمونها على وجهها ؟

قد يكون ! ! ولكن ينبغى أولا ألا يكون ذلك بمحضر من العقل والعقلاء ؟ وقد كان . . . فعلا . !

ثم يقول المؤلف :

« ولكن بعد ما عاشوا ـ يقصد رسل المسيح ـ زمناً طويلا ، وشاهدوا فيه تصرفاته وأعماله فى كل ناحية من نواحى الحياة ـ أدركوا كل الإدراك أنه لم يكن إنساناً عادياً ، ومن ثم أخذوا يفكرون فى شخصيته ، ويجتهدون فى الكشف عن حقيقتها. فقالوا مرة: « إنه ملك إسرائيل » مع أنه كان فقيراً كل الفقر بعيداً كل البعد عن أسباب السياسة والملك : وقالوا مرة أخرى :إنه « المسيح » أو « المسيا » مع أنه كان موضع استهزاء رجال الدين ، الذين كانوا يعتبرون أكثر الناس معرفة

بصفات «المسيح» أو «المسيا» ، وقالوا مرة غيرها: إنه « ابن الله الحى»[١] قاصدين بذلك أنه الكائن الذى يشبه الله كل الشبه ، مع أنه حسب الظاهر كان إنساناً فقيراً محتقراً من الناس مرذولا !!

ثم يقول:

« وهكذا استمروا ـ أى الحواريون والرسل ـ فى الارتقاء بأفكارهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى ، ليروا أيّة مرتبة تتناسب مع ذاته وصفاته ـ حتى مات على الصليب موت العار والشنار !

« وحينئذ خامرهم الشك فى حقيقته ! واعتقدوا أنهم كانوا مخدوعين فى الاعتراف بأنه « ملك إسرائيل » والمسيّا ، وابن الله الحى » !

«ولكن عندما رأوا أنه قام بعد ذلك من القبر، تبددت كل شكوكهم، وتحولت إلى يقين ما بعده يقين ، من جهة شخصيته ، أو حقيقة ذاته ، ولذلك صاح من كان أكثرهم ريباً وشكا فيه مخاطبا إياه بالقول «ربى وإلهى» وقد صادق المسيح على هذه الشهادة كل المصادقة ، إذ أجابه بالقول : « لأنك رأيتنى يا « توما » آمنت ، طوبى للذين آمنوا ، ولم يروا » (يوحنا ٢٠ : ٢٩) كما دنا منه باقى التلاميذ وسجدوا له[٢]» .

ولا بد من وقفه هنا ، وإن كنا سنضطر إلى إعادة أقوال قلناها أكثر من مرة ، إذ نجد نفسنا دائماً ـ أمام كل جزئية من قضية المسيح ـ أننا فى مواجهة القضية كلها ! !

---

(١) الظاهر أن كلمة الحى صفة لله ، وليست للابن ، أى أنه ابن الله العظيم الحى الذى لا يموت ولكن أصحاب التثليث يجعلون هذه الصفة للابن

(٢) الله .. طرق إعلانه عن ذاته للأستاذ عوض سمعان ص ٢٨ ، ٢٩

إذ كانت كل جزئية من تلك الجزئيات ،تفتح للمسيح بابا يدخل به إلى الألوهية، وتُحلُه مكان الإله ..رب العالمين !

وفى هذه الوقفة نرى :

أولا : أن تلاميذ المسيح وحوارييه لم يتمثلوا حقيقة المسيح خلال الفترة التى قضاها بينهم . وأنهم كانوا يقولون فيه مقولات مختلفة لاتتحدد بها شخصيته !

وهذا يعنى أن المسيح لو كان هو « الله » متجسداً لما أخفى هذه الحقيقة عن حوارييه وخُلصانه ، ولما تركهم للشك والحيرة والاختلاف .

وثانياً : أنَ كل مقولة فى المسيح من أتباعه بأنه ملك اليهود أو أنه المسيّا أو أنه ابن الله الحى – كل مقولة من تلك المقولات قد ظهرت فى زمن ثم اختفت ، ليحلّ محلها غيرها ، وأن اللاحق منها يلغى السابق ، ويبطله !

ولكن لنا أن نسأل :

١ – إن كانت هذه المقولات قيلت على لسان «الرسل» وهم إنما يقولون بالوحى، كما تصرح بذلك الأناجيل . . فكيف يكون ما يقال على فم رسول من هؤلاء الرسل باطلا ؟

٢ – إن كل مقولة من هذه المقولات قد أقيمت لها شواهد وآيات من الكتاب المقدس . . فالقول بأن المسيح (ملك إسرائيل) قد سجله (لوقا) فى إنجيله إذ يقول على لسان ملاك الرب ، أو الرب نفسه مخاطباً مريم : (ها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه (يسوع).. هذا يكون عظيماً وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية) (١) .

---

(١) إنجيل لوقا ١ : ٣٢ - ٣٣

والقول بأنه (المسيح) أو (المسيا) قد أخذه لوقا أيضا وسجله في إنجيله ، نقلا عن سفر (أشعياء) إذ يقول : (روح الرب عليّ ، لأنه مسحني ، لأبشر المساكين . .) ؛ وقد عد لوقا هذه الآية نبوءة عن (المسيح).. وذلك أن المسيح حين ذهب إلى الناصرة وقدمت إليه التوراة فتحها فوجد هذه الآية ، فقرآها ثم طوى التوراة !

والقول بأنه (ابن الله) قد سجله لوقا أيضاً في إنجيله كما ذكرنا من قبل، إذ يقول على لسان ملاك الرب أو الرب : (وابن العلى يدعى) .

وليس لوقا وحده هو الذى انفرد بتسجيل هذا ، بل شاركه غيره من أصحاب الأناجيل والرسالات .

فما موضع هذه الآيات في الأناجيل ؟ وأين يذهب تأويلها !

ثالثاً : (وهكذا استمر الرسل في الارتقاء بأفكارهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى ليروا أية مرتبة تتناسب مع ذاته وصفاته).

إذن فهي مسألة اجتهادية تلك المنزلة التي يوضع فيها المسيح ، يقررها الناس حسبما يبدو لهم . . وليست مسألة عقدية ، متلقاة من وحى سماوى .

رابعاً : عند ما صلب المسيح ومات تلك الميتة الشنيعة — كما يقولون — (خامرهم الشك في حقيقته ، واعتقدوا أنهم كانوا مخدوعين في الاعتراف بأنه ملك إسرائيل ، أو المسيا ، أو ابن الله العليّ)

وهذا يعنى أن (المسيح) قد تحول في نفس أتباعه إلى (أكذوبة) يوم صلبه ، وأنه لو لم يجدّ في الأمر شيء بعد هذا لما كان المسيح ولما كانت المسيحية !

خامساً : (ولكن عندما رأوا أنه قام بعد ذلك من القبر تبددت كل شكوكهم وتحولت إلى يقين ما بعده يقين ، من جهة شخصيته أو حقيقة ذاته) !

وهكذا خرج المسيح من القبر إلٰهـا يملأ الوجود كله ، ويملك ملكوت السموات والأرض !

ولسنا هنا فى صدد مناقشة قضية « القيامة » التى يقال إن المسيح لبس بها ثوب الحياة والألوهية بعد صلبه ، فلهذا الموضوع بحث خاص به . .

ولكن هذا لا يمنعنا من أن نشير إلى أن « ألوهية المسيح » لم تعتمد على شيء مطلقا ـ فى نفوس تلاميذه وحوارييه ورسله ـ من بشارات العهد القديم أو العهد الجديد ، ولم يشفع لها شيء من حياة المسيح وأعماله ، وأن كل ذلك — إن كان له وجود قبل الصلب — فهو من قبيل الظنون التى لا تقيم يقينا ، بل لقد ذهب ذلك كله هباء يوم الصلب . . !

وقيامة المسيح ـ التى يقال عنها ـ هى وحدها المستند والدليل ، لا على أنه ملك إسرائيل أو « المسيا » أو « ابن الله » وإنما على أنه الله رب العالمين !

هذا المستند هو ـ فى الواقع ـ كما تحدث الأناجيل وكما يقص التاريخ ـ هو أوهى الأدلة ، وأضعفها ، إذ لا يجد الناظر فى مقولات الأناجيل أو فى روايات التاريخ عن حادثة القيامة شيئاً يمسك به !

وسنرى ذلك فى موضعه من هذا الكتاب . . إن شاء الله .

* * * *

الباب الثالث

التثليث

الفصل الأول

فكرة تعدد الآلهة

منذ فتح الإنسان عينيه على هذا الوجود ووصل وجوده به ، وهو يدور بعقله في كل مدار ، بحثا عن تلك القوى الخفية التي ، تندس في هذا الوجود ، وتحرك دولابه بقوتها الهائلة ، وتقلب وجوهه كيف تشاء ، دقة وروعة وإحكاماً !

ولم يكن التفكير الإنساني في طفولته بالقادر على أن يجمع هذه القوى كلها في كائن واحد ، وأن يردها إلى مصدر موحد ، تنبع منه ، وتصدر عنه . . فكان له في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة نظرة متجهة إلى قوة مصرفة لها ، متحكمة فيها . . فالمطر ، والسحاب ، والبرق والرعد ، والشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والريح... وكثير غيرها من مظاهر الكون .. ينتمي كل منها إلى قوة غير منظورة ، تدبره وتصرفه .. وإنه لكي يكون الإنسان على علاقة طيبة بالوجود الذي يتحرك فيه ، فقد أعطى ولاءه لهذا القوى في صور شتى ، من الصلاة والقربات ، وغيرها ، مما تنتظمه الطقوس الدينية في مختلف صورها وأشكالها .

ومن هنا كانت تلك الكثرة الكثيرة من الآلهة التي عبدها الناس ، وأعطوها ولاءهم وإخباتهم .

ثم كانت الخطوة التالية بعد هذا ، هي تجسيد هذه القوى وإبرازها في صور

وتماثيل، ترمز إليها ، وتكشف عن مشاعر الناس نحوها .. فكانت التماثيل المختلفة لتلك الآلهة المتعددة أولَ عمل إنسانى تجسدت فيه أفكار الناس ومشاعرهم عن الله! وأولَ نُصب أقامه الناس ليحجوا إليه ويسجدوا بين يديه !

وشيئا شيئا.. أخذت هذه الآلهة تختفى ،وينضوى بعضها إلى بعض، حتى إذا أشرق عقل الإنسان بنور ربه ، عاف النظر إلى هذه التماثيل وحقر شأنها، وسما بعقله إلى النظر فى وجه إله واحد . . يراه فى ضميره ولا يدركه ببصيرته !. . فكان التوحيد الذى جاءت به الديانات السماوية ، وحمله الأنبياء والرسل إلى الناس !

الله الواحد . . وكيف يُتصور ؟

ومع هذا التوحيد الخالص لله والتنزيه المطلق لذاته ،من أن يحيط به عقل أويحده نظر . . مع هذا فإن العقل لم يستطع أن يحبس نفسه عن النظر فى ذات الله ، والبحث فى كنه هذه الذات وتصورها على صورة ما ، يسكن إليها ويطمئن !

والحق أن العقل الإنسانى مع إيمانه بالله وإقراره بوحدانيته لا يستطيع أن يسكن إلى إله لا متصور له عنده . . . وكان من أجل هذا — أن انطلق كل عقل للبحث عن الصورة التى يمكن أن يرتضيها للإله ، والتى تمثل الجلال والكمال الذى ينبغى له !.. فكان لكل إنسان إلٰهه الذى تصوره ، من خلال مفهومه له ، بل وإن الأمر لأكثر من هذا . . فما يتصوره العقل للإله لا يمكن أن يظل قائما على صورة واحدة — بل إن تلك الصورة لاتستقر لحظة واحدة على حال واحدة ، فهى دائما أبدا فى تماوج واضطراب .. تظهر ثم تختفى ثم تظهر فى صورة مغايرة . . ثم تختفى . . وهكذا ، فى صور متصلة .. لا تنتهى أبدا .

ومع أن النظر فى ذات الله نظرا مباشرا لا يمكن أن يرجع العقل منه إلا بالحيرة والبلبال .. فإن العقل — كما قلنا — محمول على هذا النظر .. لا يملك من أمره شيئا يحول بينه وبين أن ينظر وينظر . . دائما وأبدا !

فكيف يتقى الناس هذا النظر ؟ وكيف يدفعون عن أنفسهم ضلال الحيرة ، وفتنة الضلال إن هم نظروا فى ذات الله نظراً دائماً محدقا ؟

إن أول موقف ينبغى أن يقفه الإنسان حيال هذا الشعور الخفى الذى يدفعه إلى النظر فى ذات الله ومحاولة تكييفها ، هو أن يدع عقله يتحرك ، ولكن فى حذر وقصد، وفى مصاحبة شعور آخر ، هو أن كل تصور يقع للعقل عن ذات الله ، فالله ــ سبحانه ــ على خلافه !

هذا ماينبغى أن يلتزمه كل ذى دين حريص على أن يسلم له دينه ، وأن يقيم علاقته بالله على فهم سليم ، يحتفظ فيه لله بما ينبغى له من تقديس وإجلال !

ولكن بعض العقول يأبى إلا أن يركب متن الشطط ، وأن يلقى بنفسه فى غمار أمواج متلاطمة فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . . . وهنا يحدث مالا بد أن يحدث من اضطراب وتخبط وضلال ، فتجىء تلك التصورات المختلطة الممسوخة المضطربة ، التى يحاول العقل جاهداً أن يسوى لها وجهاً ، وأن يجعل لها مفهوما . . وهيهات . . هيهات ! !

أمثلة من هذه التصورات :

ولعل أكثر هذه التصورات الخاطئة قبولا ، تلك التى تجعل الألوهية قسماً بين إلٰهين : إلٰه للخير ، وإلٰه للشر ، إذ بدا للعقول أنه من المحال أن يكون الإلٰه متصفاً بصفتين متناقضتين ، فرأت أنه خير من ذلك أن يكون الإلٰه خيراً خالصاً ، أو شراً محضا . . أو أن يكون نوراً ، وأن يكون الآخر ظلاما .. وهذا التصور يعنى الصراع القائم فى هذا الوجود ، ذلك الصراع الذى لا يكون إلا بين جهتين متباينتين .

ومن تلك التصورات أيضاً أن يكون الإله ذكراً ، وأن تقابله من الجهة الأخرى، أنثى . . ثم يكون لهما ولد أو أولاد .. من بنين وبنات ! !

وقد تصور العرب أن الملائكة بنات الله . . . فجاء القرآن يسفّه هذا الرأى، وينكر على القائلين به قولهم : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ! أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون »(١)

وكانت العرب العاربة فى الجنوب على وثنية فلكية ، انتهت إلى عبادة ثلاثة كواكب : هى القمر ، والشمس ، والزهرة . . الأب ، والأم ، والابن ..... أو الإله « ود » والإلهة « شمس » وعشتر ابنهما . . وقد نعى القرآن على هذا المعتقد الفاسد وأبطله: « لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن »(٢) .. وقد ذكر القرآن الكريم على لسان الهدهد ماوجد عليه ملكة سبأ وقومها من عبادتهم الشمس من دون الله :« وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لايهتدون . . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض . . . (٣) » .

وكما وُلدت هذه الصور المجسدة من خيالات وتصورات ، فإنها قد أخذت تنحل مع الزمن ، وتتحول إلى خيالات وتصورات . ثم أصبحت أفكاراً مصورة فى العقل تقوم بين يديها الحجج والبراهين المنطقية والفلسفية .

وأقرب مثل لدينا هنا هو « المسيح » . .

فقد ظهر فى الناس إنسانا ، يحمل دعوة الحب والسلام ،ويبشر بها فى اليهود الذين امتلأت قلوبهم حقداً ويأسا وشراً !

---

(١) سورة الزخرف : ١٩ (٢) سورة فصلت ٣٧

(٣) سوره النمل : ٢٥

ثم انقسم فيه الناس فريقين : فريقاً يجعله فوق مستوى الإنسانية،ويضيفه إلى الله، ابنا على المجاز أو على الحقيقة..وفريقا ــ وهم غالبية اليهود ــ يرمونه بالبهت والكذب والتجديف على الله ! ويعدّونه ابنا غير شرعى ليوسف النجار !

ثم بالغ المؤمنون به فجعلوه ابن الله حقيقة ، وهو فى هذا الجسد الإنسانى الذى عاش فيه مع الناس .. يمشى ويأكل وينام !

ثم كانت الخطوة الأخيرة . . وهى أن المسيح ليس ابنا لله على ماهومعروف من بنوة وأبوة بين الكائنات الحية ، وإنما هى بنوة من نوع خاص ، بنوةلاتفصل الابن عن الأب ولا تجعل منهما اثنين . . فهما أب وابن معا ، تجمع بينهما المحبة والحياة ويطلق عليها « روح القدس » !

وقد دخلت المسيحية بهذا التصور للإله،فى صراع عقلى عنيف، لايزال يزداد مع الأيام حدة وعنفا ، كلما خطا العقل خطوات فى مجال المعرفة ، وكلما اتسعت مداركه وازداد علمه . .

وإنه ليحسن بنا أن نقف وقفة عند هذه المرحلة من مراحل الدعوةالمسيحية، التى بدأت تظهرفيهامقولات القائلين بالإله المثلث الأقانيم ، وباشتراك السيد المسيح فى واحد منها،هو «أقنوم» الابن.. وذلك لنرى كيف دخلت هذه المقولة على الدعوة المسيحية، ومن أين جاءت تلك الدوافع التى دفعت بها إليها ، وكيف استقام لها مفهوم عند القائلين بها ؟ وماذا وقع فى أيديهم من حجج يقيمونها بين يديها ؟

الأب ، والابن ، وروح القدس :

تقوم المسيحية على هذه الكلمات الثلاث : الأب ، والابن ، وروح القدس .. لتجعل منها إلـها واحداً هو الله !

وأنت ترى بادىء ذى بدء أن وضع هذه القضية فى معادلة رياضية أمر لا يقبله منطق العقل، ولا يصدقه، وإن جُلبت له الحيل من كل وجه .. فالثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة أبداً.

ومع هذا، فتلك هى القضية!

والمسيحيون يسلّمون مقدما بأن هذه المسألة ليس مجالها العقل، وأنها إذ تُعرض عليه فليس المطلوب منه أن ينظر فيها بمنطقه، وأن يردها إلى حكمه .. وإنما يلقاها من أول الأمر بالتسليم، من غير بحث أو جدل .. وإلا فخير له أن يدع النظر فيها .. فيريح ويستريح!

ولماذا هذه البحوث المضنية؟

وتسأل: لماذا هذه الدراسات الطويلة، وتلك البحوث المضنية، وهذه الشروح التى لا حصر لها، وكلها تدور حول هذه القضية ومحاولة إيجاد حل معقول لها؟

ونقول إن ذلك أمر لابد منه، مهما تكن غرابة القضية، واستحالة البرهنة عليها، والاستدلال لها.

إن أحداً لا يمكن أن يحمل عقله على التسليم بهذه البدهيات المغلوطة .. الثلاثة واحد، أو الواحد ثلاثة!! وإنه لكى يكون لهذه القضية أرض تقف عليها ـ ولو كانت أرضا قائمة على الوهم والخيال ـ كان لابد من هذه الشروح، وتلك الإضافات، التى تزداد مع الأيام، لمواجهة الاعتراضات الكثيرة، التى تواجهها فى كل زمان، ومن كل مكان!

ولو كانت تلك القضية مما يخضع لحكم العقل أو مما يمكن أن تلتمس له الأدلة والبراهين لفرغ الناس منها منذ قرون طويلة، ولوجدت لها العقول الكبيرة التى التقت بها، الحجة الدامغة، والبرهان الساطع المشرق!

ولكنها — كما قال عنها أصحابها ودعاتها — قضية فوق مستوى العقل، ووراء متطلعاته !

يقول الأستاذ يسى منصور، فى كتابه: (رسالة التثليث والتوحيد): «على أنه من الصعب أن نحاول فهم هذا الأمر — يريد التثليث — بعقولنا القاصرة، كما قال الدكتور « توراس » لأن الله روح[١]، والأعداد مبدئيا من خصائص العالم الطبيعى! فتعترضنا صعوبة إذا حاولنا تصور كائن روحى بصور الفكر الطبيعى .. وأيضاً .. الله غير محدود، ونحن محدودون، وهو تعالى يسكن فى نور لا يدنى منه، ومحاولتنا شرح وحدانية الله المثلثة، بشرح فلسفى، هى محاولة وضع حقائق غير المحدود، فى صور وهيآت فكر محدود[٢].

ويقول صاحب كتاب (الله : ذاته ونوع وحدانيته) إننا لا ننكر أن التثليث يفوق العقل والإدراك، ولكنه يتوافق مع كمال الله كل التوافق[٣] !! »

وندع الآن التعليق على هذه الأحكام، التى تبنى على أسس لا معقول لها .

وننظر فى مقولات المسيحية، وفى محاولتها عرض هذه القضية وتقديم الحل أو الحلول الملائمة لها .

من هم الثلاثة ؟

أو بمعنى آخر .. ماهى الأقانيم الثلاثة للإله الواحد ؟

الرأى الغالب عند المسيحيين أن الأقانيم الثلاثة هى : الأب، والابن، وروح القدس . .

---

(١) ومن يجزم بأن الله روح ؟ وما الروح ؟

(٢) رسالة التوحيد والتثليث ص ٣٢

(٣) الله : ذاته ونوع واحدانيته ص ٤

أما الفرق التى تجعل أم المسيح أقنوما من تلك الأقانيم ، فهى من الفرق الشاردة، التى خرجت على رأى الجماعة عند المسيحيين . . أشبه بتلك الفرق التى نجدها مضافة إلى الإسلام ، من مرجئة وقدرية وحشوية وغيرها .. وهؤلاء يسمون المريميين .

وعلى هذا، فإننا لا ننظر فى مقولات هذه الفرق المنحرفة عن الجماعة المسيحية ، فى تصور الألوهية ، ونقف عند المقولة التى ارتضتها المسيحية فى الله ، وهو أنه ذو أقانيم ثلاثة : أب ، وابن ، وروح قدس ، وأن المسيح هو أحد هذه الأقانيم ، وهو أقنوم الابن .

ماذا فى الأناجيل ؟

وقبل أن نعرض قضية التثليث كما انتهى إليها الرأى عند المسيحيين ، يحسن بنا أن نقف وقفة مع الأناجيل ، لنرى مستنداً لمقولة التثليث فيها ، إن كان فيها شيء يستند إليه فى هذه الدعوى ، وإلا كان علينا أن نمد النظر إلى آفاق أخرى ، نلتمس عندها المستند الذى اعتمدت عليه المسيحية ، فى تصوير هذه الدعوى ، وبناء أركانها .

ونود أن ننبه من أول الأمر إلى أن هناك أعداداً كثيرة من الأناجيل قد ذهبت أو احتبست عن التداول ، وذلك بعد أن أصبح أمر هذه الأناجيل مثار فتنة وإزعاج لأتباع المسيح ، لما بينها من خلافات حادة ، لا يمكن تلافيها أو الجمع بينها ، بأى حال، وعلى أية صورة من صور التخريج والتأويل .

وما زالت الأناجيل تتساقط وتختفى واحداً إثر آخر حتى استقر الرأى فى مؤتمر « نيقة » على إعدام جميع الأناجيل المتداولة ، عدا أربعة الأناجيل المعروفة ، والمتداولة إلى اليوم !

وعلى هذا ، فإن نظرتنا إلى التثليث فى الأناجيل ستكون قاصرة على هذه الأناجيل

الأربعة ، وإن كان ذلك يحجب عنا كثيراً من الأضواء التى يمكن أن نجدها فى الأناجيل الأخرى ، ونجد منها مايعين على الرؤية فى مسالك هذه القضية ودروبها . . ولكنا مع هذا قد التزمنا الوقوف بالنظر عند الأناجيل الأربعة المعتمدة ، إذ هى التى يأبى أن يحتكم المسيحيون إلا إليها . . ونحن من جانبنا حريصون على أن نمسك هذه القضية من أطراف محدودة ، وألا نستجلب لها شهوداً غير الذين يقدمهم أصحابها ويرضون شهادتهم .

وهؤلاء الشهود ، هم : الأناجيل الأربعة المعتمدة التى يدين بها أتباع المسيح جميعاً ، على اختلاف طوائفهم ، وعلى ما بينهم من خلاف فى مفاهيمها ، فهى الشاهد الذى لا ترد شهادته عندهم ، إذا أنطقوه هم بما يملون عليه من آراء ، وما يحملونه من مدعيات . أما إذا نطق الإنجيل بما فيه ، أو أنطقه غيرهم بما تشهد به كلماته فذاك موقف آخر ، تكثر فيه الأقاويل ، وتساق له المفتريات والتهم !

* * * *

الفصل الثانى
الأناجيل والتثليث

الأناجيل والتثليث :

إذا كانت الأناجيل الأربعة المعتمدة هى كتاب المسيحية الأولى ، وهى دستور عقيدتها وشريعتها ،أو هذا ما ينبغى أن يكون - فإنه لا بد من نظرة فى هذه الأناجيل انستطلع مقولاتها فى الإله، وفى تصوره، وفى الأقانيم الثلاثة التى تدين بها المسيحية .. من الأب والابن وروح القدس .

وبعبارة أوضح وأصرح : ماذا تقول الأناجيل عن المسيح ؟ أهو الله ؟ أم هو ابن الله ؟ وإذا كان ابنا لله فما معنى هذه البنوة ؟ وما العلاقة التى بين الأب والابن؟ وما الأقنوم الثالث - روح القدس - الذى يجتمع مع الأب والابن ؟

ماذا تقول الأناجيل فى هذا كله ؟ وفى أى صورة تصوره ؟

ونستطيع أن نقول إن الأناجيل لم تتحدث عن الله ، هذا الحديث الذى عرفته المسيحية بعد ، أنه مثلث الأقانيم ، وما عرف أحد من حواريى المسيح وتلاميذه والمستمعين إليه ، ممن آمنوا به ، والذين لم يؤمنوا أى حديث منه عن الله غير ما جاءت به الرسل والأنبياء .. من أن الله إلـه واحد له ملك السموات والأرض.. بيده كل شىء ، وهو على كل شىء قدير !

وإنك لتقرأ الأناجيل الأربعة ،فصلا فصلا ، وكلمة كلمة ، فلا تجد فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى ما يعرف بالأقنوم أو الأقانيم . . بل إنها تتحدث عن الله باعتباره ذاتا واحدة، فى كمالها وجلالها وسلطانها ، سواء كان ذلك على لسان المسيح أم غيره ، فكلمة أقنوم كلمة غريبة مولدة ، لم يقل بها المسيح ، ولم تثبتها الأناجيل المعتمدة المتحدثة عنه .

فى موقف بين إبليس والمسيح ، يقول إبليس المسيح، بعد أن أخذه إلى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها .. يقول له ليجرّبه: « أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى ! حينئذ قال له يسوع : اذهب ياشيطان ! لأنه مكتوب ، للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (متى ٤ : ٨ ، ٩ ، ١٠) .

فالمسيح هنا يولى وجهه شطر معبود واحد هو الله . لا إلى الإله ذى الثلاثة أقانيم ، ولا إلى أقنوم واحد منها : « للرب إلهك تسجد » !

وفى موقف آخر يتقدم أحد الناس إلى المسيح قائلا : « أيها المعلم الصالح . . أى صلاح أعمل ، لتكون لى الحياة الأبدية ؟ فقال له : لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحد صالحاإلا واحد ، وهو « الله » (متى ١٩ : ١٦ ، ١٧)

وفى إحدى المرات سأل أحد الكتبة السيد المسيح قائلا : « أية وصية هى أول الكل؟ فأجابه يسوع : إن أول الوصايا هى: اسمع ياإسرائيل : « الرب إلهنا »رب واحد » (مرقس ١٢ : ٢٩) .

ويقول إنجيل لوقا : « وفيما هو يتكلم رفعت امرأة صوتها بين الجميع وقالت : طوبى للبطن الذى حملك والثديين اللذين رضعتهما .. أما هو فقال: بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه « (لوقام ١١ : ٢٧ ـ ٢٨) .

وفى إنجيل يوحنا يدور حديث بين اليهود والمسيح ، وفى هذا الحديث يقول المسيح لليهود: « لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ،ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى ، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . . هذا لم يعمله إبراهيم.. أنتم لاتعملون أعمال أبيكم ؟ فقالوا له ـ يعرّضون به ـ إننا لم نولد من زنا ! لنا أب واحد، وهو الله!! فأجابهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت

من قِـبَل الله ، وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى ، بل ذاك أرسلنى .. « (يوحنا ٨ : ٣٨ ، ٤٣)

وفى الأناجيل مئات من كلمات المسيح ،يتحدث عن (الله) بأنه الله ذو المفهوم الواحد ، ولم يتحدث عنه مرة واحدة بأنه ذو ومفاهيم ثلاثة : أب وابن وروح قدس ! ولو أن هذا كان من رسالة المسيح لما تركه لتلاميذه من بعده ، ولا لغيرهم، يبينونه للناس ويدعونهم إلى الإيمان به ، ولـكان ذلك إلى المسيح نفسه ، فهو أولى الناس به ، وأقدرهم على شرحه وتبيانه ! وإذا كان المسيح يتخلى عن التعريف بالله، ـ هذا التعريف العميق البعيد الأغوار ـ وهو مطلوب ديانة ومعتقدا ، فـكيف يكون قد أدى رسالته ،وفتح للناس معالم الهدى إلى الله؟ وهل هناك ماهوأهم وأولىمن هذا العمل ، لو أنه كان مما تقوم عليه عقيدة الناس ،ويتم به إيمانهم ؟

وقد يقال إنلأناجيل الأربعة رددت كثيرا هذه الـكلمات: الأب، والابن،وروح القدس . . وترديدها لهذه الـكلمات يعنىأنها تحدث عن اللهبها ،باعتبار أنها صفاته أو أقانيمه .. وأنه إذا كانت الأناجيل قد جاءت بها متفرقة فى أكثر الحالات ، فقد جاءت بها مجتمعة فى بعض الأحوال .. كما جاء فى خاتمة إنجيل متى : (وأما الأحد عشر تلميذا فانطلقوا إلى الجليل.. إلى الجبل حيث أمرهم يسوع ، ولما رأوه سجدوا له ولـكن بعضهم شكّـوا ،فتقدم يسوعوكلمهم قائلا:دُفع إلىّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض .. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس)

وكانت هذه المقولة التى تضاف إلى المسيح إنما رويت عنه — كما قالوا — بعد صلبه وقيامته ـ فى معتقدهم ـ والتقائه بتلاميذه فىالجليل!!ونقول:إن كلمات:الأب،

والابن ،وروح القدس، التى تردد ذكرها فى الأناجيل ، قد جاءت فى سياقات تعطى لكل منها دلالة مستقلة ، ومفهوما خالصا ، بحيث لا يمكن أن يجتمع منها مفهوم واحد أو دلالة مشتركة . . فالأب أب ، والابن ابن ، والروح القدس هو الروح القدس . . لكل منها ذاتيته ، وشخصيته. وسنقدم لذلك بعض الشواهد من نصوص الأناجيل .

الأب :

حيث يرد ذكر الأب فى الأناجيل ، فمعناه «الله» بالمفهوم المطلق الذى للإله، على ما يتصوره المؤمنون بإله واحد لا شريك له .

يقول السيد المسيح فى إحدى وصاياه لتلاميذه : « أحبو أعداءكم ، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ،ويطردونكم.. لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات « متى : ٤٤ » .

فالأب هنا هو الله سبحانه وتعالى .. ليس للابن ولا لروح القدس شركة معه .

ويقول السيد المسيح أيضاً « احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات (متى ٦ : ١) .

ويقول: « فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك علانية (متى ٦ : ٤) .

ويقول : فصلّوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ... (متى ٦ : ٩) .

ومن مقولات السيد المسيح أيضا : « فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة ، فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات ، يهب خيرات للذين يسألونه » (متى ٧ : ١١) .

ومن مقولاته:« ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات » (متى ٧ : ٢١) .

ويقول السيد المسيح لأحد أتباعه وقد جرد سيفه ليدفع عنه أولئك الذين جاءوا للقبض عليه واقتياده إلى المحاكمة : « رد سيفك إلى مكانه ، لأن الذين يأخذون السيف، بالسيف يهلكون . . أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة ؟ فكيف تكمل الكتب ؟ إنه هكذا ينبغى أن يكون ! (متى ٢٦ : ٥٢ ــ ٥٣) .

ومن مقولاته : « أحمدك أيها الأب رب السماء والأرض ، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفقهاء وأعلنتها للأطفال . . نعم أيها الأب لأن هكذا صارت المسرة أمامك (لوقا ١٠ : ٢١) » .. والتفت إلى تلاميذه ذات مرة وقال : « كل شىء دفع إلىّ من أبى ، وليس أحد يعرف من هو الابن إلا الأب ولا من هو الأب إلا الابن ، ومن أراد الابن أن يعلن له » (لوقا ١٠ : ٢٢ ــ ٢٣) .

وفى إنجيل يوحنا موقف بين اليهود والسيد المسيح ، وفى هذا الموقف يسأل اليهود المسيح قائلين : « من أنت ؟ فقال لهم يسوع : أنا من البدء [1] ما أكلمكم أيضا به . . إن لى أشياء كثيرة أتكلم وأحكم بها نحوكم ، لكن الذى أرسلنى هو حق ، وأنا ماسمعته منه فهذا أقوله للعالم.. ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الأب ، فقال لهم يسوع : متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أنى أنا هو ولست أفعل شيئا من نفسى بل أتكلم بهذا كما علمنى أبى والذى أرسلنى هو معى ، ولم يتركنى الأب وحدى ، لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه » (يوحنا ٨ : ٢٥ ــ ٢٩) .

ولا نستكثر من عرض هذه الشواهد، وهى كثيرة مبثوثة فى صفحات الأناجيل.. وهى أيضا واضحة الدلالة على أن المقصود بالأب هو « الله » سبحانه وتعالى . . وأنه شىء والابن الذى يتحدث باسمه شىء آخر . . . الأب فى السماء . . لا يراه أحد . والابن على الأرض يسعى بين الناس ويتحدث إليهم ! !

---

(١) يريد بالبدء هنا بدء وجوده معهم ، وحديثه إليهم ، وتبشيره بينهم .

وليست إشارة السيد المسيح إلى الأب بأنه فى السماء مرادا بها تحديد الذات الإلهية ، وحصر مكانها فى السماء ، ولكنها إشارة إلى علو الذات وبعدها عن متناول الحواس ، وإن كانت قائمة فى الوجود كله مستولية على كل شيء . والأبوة التي يضيف إليها المسيح نفسه هنا ليست أبوة نسب ، كتلك التى هى من اللحم والدم ، والتى تجمع بين الأبناء والآباء ، ولا هى أبوة ولادة روحية كما يقول بذلك المتأولون لهذه الأبوة ، ولكنها أبوة رعاية وعناية ورحمة ، أشبه بها تلك التى تكون من الآباء نحو الأبناء . . فالله هو الأب الحانى على مخلوقاته ، الراحم لها ، المقدر لأقواتها وأرزاقها . .

ولهذا فإن المسيح يخاطب الناس جميعاً بأنهم أبناء الله ، وأنه لم ينفرد من بينهم ببنوة خاصة لله .. فالله سبحانه هو الأب الراعى لهذه المخلوقات والمدبر لأمورها . . وقد ذكرنا لذلك أمثلة منذ قليل .

الابن :

وردت كلمة الابن كثيرا فى الأناجيل مضافة إلى الله هكذا: « ابن الله » كما وردت مقطوعة عن الإضافة معرفة بالألف واللام هكذا : « الابن »، وهى فى جميع هذه الأحوال مقصود بها المسيح عليه السلام .

ففى إنجيل « متى » يقول إبليس للمسيح وهو فى دور التجربة معه « إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا » ... ثم قال له مرة أخرى : « وإن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل » (متى ٤ : ٣ : ٦) .

وفى إنجيل متى أيضا . . سأل المسيح تلاميذه مرة قائلا : « من يقول الناس أنى أنا ابن الإنسان ؟ فقالوا : قوم .. يوحنا المعمدان ! وآخرون ، إيلياء ! وآخرون ، أرميا أو واحد من الأنبياء ! . . قال لهم : وأنتم من تقولون أنى أنا ؟ فأجاب سمعان

بطرس : أنت هو المسيح ابن الله الحى » (متى ١٦ : ١٣ - ١٦) .

وفى إنجيل مرقس ، يتحدث المسيح إلى تلاميذه عن يوم الدينونة فيقول : «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن، إلا الأب » (مرقس ١٦ : ٣٣) .

والبنوة التى وردت فى الأناجيل كلها هى من هذا القبيل ، تتحدث عن الصلة التى تصل المسيح بالله ، وهى صلة البنوة الواقعة تحت رعاية الله وعنايته وعطفه ورحمته، وليست صلة قرابة جسدية أوروحية،ولهذا فإن، السيد المسيح - كما تتحدث الأناجيل- يجعل تلاميذه والناس جميعا آخذين بحظهم منها ، فهم جميعا أبناء الله ، خلقهم ودبر أمورهم . .

يقول : « وصلوا للذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » (متى ٥ : ٤٤) .

وحيث ننظر إلى الأبوة والبنوة معا فى تلك النصوص التى وردت فى الأناجيل نجد أن « الأبوة » يراد بها الله سبحانه.. منفردا بذاته وكمالاته ، على حين نجد البنوة مرادة لذاتها ، يراد بها شخص المسيح، كما يراد بها ذوات الأشخاص الذين يتحدث عنهم ، أو ذوات الناس جميعا .

وإنه ليس من الممكن على أى وجه من وجوه التأويل لهذه النصوص أن تكون بين الأب والابن أو الأبناء صلة قرابة أو نسب ، مادى أو روحى ، وإنما هى صلة رعاية وعناية وتدبير .. كما أشرنا إلى ذلك قبل .

وإنه لأكثر من هذا بُعدا عن الإمكان ، وقربا إلى الاستحالة ،أن يكون الأب هو الابن ، أو الابن هو الأب أو أن يكونا معا شيئا واحدا . .

فليست بنوة المسيح المذكورة فى الأناجيل بالتى تجعل منه ابن الله ، ولا الله ،

ولا تجعل منه أقنوما من الأقانيم الثلاثة التى تجعل المسيحية منها الله ذاتا موزعة بينها .

فنى إنجيل يوحنا، وهو الإنجيل الذى انفرد من بين الأناجيل الأربعة باصطباغه بالصبغة اليونانية وبأخذه بكثير من مقولات الفلاسفة اليونانيين ، لغايات أشرنا إليها من قبل ، وكشف عنها الباحثون والدارسون من علماء المسيحية أنفسهم ـ فى هذا الإنجيل ـ على ما به ـ نجد المقولات الآتية .

ـ « الأب يحب الابن ، وقد دفع كل شىء فى يده » (٣ : ٣٥) .

ـ « الذى يؤمن بالابن له حياة أبدية والذى لايؤمن بالابن لن يرى حياة ، بل يمكث عليه غضب الله » (٣ : ٣٦) .

ـ « الحقّ الحق أقول لكم : لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا إلا ماينظر الأب يعمل ... لأن الأب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعلمه وسيريه أعمالا أعظم من هذه ، لتعجبوا أنتم » (٥ : ١٩ ـ ٢١) .

ـ « الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية (٥ : ٢٤) .

ـ « أنا قد أتيت باسم أبى ولستم تقبلوننى (٥ : ٤٣) .

ـ « لاتظنوا أنى أشكوكم إلى الأب.. يوجد الذى يشكوكم ، وهو موسى الذى عليه رجاؤكم ، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى ، لأنه هو كتب عنى ، فإن كنتم لستم تصدقون كُتب ذاك ، فكيف تصدقون كلامى ؟ (٥ : ٤٥ ـ ٤٦) .

ـ «لأنى قد نزلت من السماء ، ليس لأعمل مشيئتى ، بل مشيئة الذى أرسلنى، وهذه مشيئة الأب الذى أرسلنى ، إن كل ما أعطانى لا أتلف منه شيئا ، بل أقيمه فى اليوم الأخير » (٦ : ٣٨ ـ ٣٩) .

ــ « أنا معكم زمانا يسيرا ثم أمضى إلى الذى أرسلنى » (٧ : ٣٣)

ــ « أبى الذى أعطانى هو أعظم من الكل ، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبى . . أنا والأب واحد » (١٠ : ٢٩ / ٣٠) .

ــ «لأنى لم أتكلم من نفسى، لكن الأب الذى أرسلنى هوأعطانى وصية: ماذا أقول لكم؟ وبماذا أتكلم ؟ وأنا أعلم أن وصيته هى حياة أبدية ، فما أتكلم أنا به فكما قال لى الأب .. هكذا أتكلم » (١٢ : ٤٩ ــ ٥٠).

ــ « الكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ، لكن الأب الحالّ فىّ هو يعمل الأعمال .. صدقونى أنى فى الأب والأب فىّ » (١٤ : ١٠-١١).

«لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون ، لأنى قلت أمضى إلى الأب ، لأن أبى أعظم منى (١٤ : ٢٩) .

ــ «أنا الكرمة الحقيقية وأبى الكرام . . كل غصن فىّ لا يأتى بثمر ينزعه . . وكل ما يأتى بثمر ينقيه ليأتى بثمر أكثر » (١٥ : ١ — ٢) .

ــ « أنا الكرمة وأنتم الأغصان ، الذى يثبت فىّ وأنا فيه ، هذا يأتى بثمر كثير لأنكم بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئا » (١٥ : ٥) .

ونكتفى بهذا القدر من إنجيل يوحنا .

وننظر فى هذه المقولات فنجد أن المسيح يتحدث عن نفسه بوصفه « ابن الله » كما نجد أن هذه البنوة أيا كانت صفتها منفصلة تماما عن « الأب » ، وأن هناك بين الأب والابن علاقات متعددة ، لا يمكن أن تقوم إلا إذا كانت ذات كل منهما غير الذات الأخرى . فهناك علاقة حب . . بين محب ومحبوب ، وعلاقة عمل . . بين داع إلى العمل وعامل ، وعلاقة عطاء . . بين معط وآخذ . . وعلاقة إرسال : بين مرسل ومرسَل .. وعلاقة شكوى: بين شاك ومشتكى إليه . . كما نجد بين الابن

والأب تقابلا فى الصفات . . فهناك عظيم وأعظم منه ، وهناك الكرمة وصاحب الكرمة . .

وكل هذا يعنى ، أن الابن غير الأب ، الأمر الذى لا يستقيم معه أن يكون الابن هو الأب ، أو أن يكون وجها من وجوهه ، وإلا لزم أن تكون الذات غير ذاتها ، أو أن تنقسم الذات نفسها فيكون بعضها أعظم من بعض ، وهذا محال فى ذواتنا الناقصة المحدودة ، فكيف بذات الله ، وما ينبغى أن يكون لها من كمال وجلال ؟ .

فالابن هو ذات مستقلة استقلالا تاما بوجودها وحياتها وأعمالها ومشيئاتها عن ذات الأب ، وإن كان يفعل بمشيئة الأب ويتحرك بسلطانه وينطق بما أنطقه !

وأما ما جاء فى إنجيل « يوحنا » من كلمات مثل (أنا فى الأب والأب فى) (. . أنا والأب واحد) . .

(الأب حال فىّ وهو يعمل الأعمال) ـ فإنه محمول على التفانى فى الولاء والطاعة لله ، والتسليم المطلق له ، حيث لا يرى الإنسان لنفسه حياة ولا وجودا ، ولا مشيئة ، إلى جانب حياة الله ووجوده ومشيئته .. وهذا ما ينطق به لسان الحال عند بعض العارفين بالله ، حين تستبد بهم نشوة التوافق مع الله ، فلا يرون لذواتهم وجودا ، بل هى قطرة ماء ألقت بها السحب فى عباب المحيط !

روح القدس :

وقد جعلت المسيحية من هذا المسمى « أقنوما » ثالثا من الأقانيم التى تصورت فيها الذات الإلهية . .

ونقدّم أولا بعض النصوص التى وردت فى الأناجيل متحدثة عن روح القدس

ثم ننظر فيما يراد به منها فى هـذه النصوص . . . ثم نعرض أخيراً المفهوم الذى لها فى التوراة والقرآن .

ففى إنجيل « متى » فى الحديث عن ولادة المسيح نجد هذه المقولة :

« لما كانت أمه مخطوبة ليوسف ، قبل أن يجتمعا ،وُجدت حُبلى من الروح القدس (١ : ١٨) . . ثم نجد ملاك الرب يجىء إلى يوسف فى حلم ويقول له : «يايوسف ابن داود ،لاتخف أن تأخذ مريم امرأتك ، لأن الذى حُبل به فيها هو من روح القدس » (١ : ٢٠) .

ومفهوم هذا أن مريم حبلت من الروح القدس ، أى بوساطته ، أو منه هو مباشرة .

وفى هذا الإنجيل يقول المسيح : « ومن قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له ، لا فى هذا العالم ولا فى الآتى » (١٢ : ٢٢) ،

ومفهوم هذا القول أن من جدف على « ابن الإنسان » وهو المسيح فهو فى معرض أن يغفر الله له ، وأما من جدّف على « الله » فلن يغفر له ،لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . . فروح القدس هنا تعنى الله سبحانه وتعالى .

وفى ختام هذا الإنجيل يتحدث المسيح إلى تلاميذه حين التقى بهم بعد خروجه من القبرفيقول:(دفع إلىّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس) .

فهناك ثلاثة متعاطفات يدعو السيد المسيح تلاميذه أن يبشروا بها: الأب والابن والروح القدس . . وهى ذوات مستقلة لا يمكن أن تجمع فى ذات واحدة ، وإلا لجمعها

المسيح فى تلك الذات ، فقال مثلا : عمدوا باسم « الله » الذى تقول المسيحية إن هذه الأقانيم هى « الله » فى مجموعها ، ولو كانت هى الله للزم أن ينظر أولئك الذين جعل المسيح إليهم التبشير برسالته — أن ينظروا إلى الله ثلاث نظرات : نظرة إلى الأب ، ونظرة إلى الابن ،ونظرة إلى روح القدس، وأن يكون لكل نظرة من تلك النظرات حسابها ومعطياتها !

وفى إنجيل مرقس يقول المسيح لتلاميذه : « فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا ، بل مهما أعطيتم فى تلك الساعة، فبذلك تكلموا ،لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس » (١٣ . ١١) ومفهوم هذا أن « روح القدس» يلقى فى روعهم مايتكلمون به ، وروح القدس هنا إما أن يكون الله سبحانه، أو جبريل ، أو ملك من ملائكة الله الكرام .

هذا ، ويلاحظ أن مرقس لم يذكر فى إنجيله تلك الوصاة التى وصى بها المسيح أتباعه ،حين لقيهم بعد خروجهم من القبر ، على ماذكر « متى » فى إنجيله ، إذا قال لهم: « وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس » وهذا يدعو إلى الحيرة والعجب . . إذ كيف لاتكون قولة المسيح هذه التى قيل إنه قالها بعد أن قام من الأموات ،والتى جعلها دستورا يترسمه أتباعه وتلاميذه . . كيف لاتكون هذه المقولة فى قلب كل من عاصر المسيح من أتباعه وأتباع أتباعه ؟ وكيف يغفل عنها حوارى كتب عن الوحى هذا الإنجيل ؟ . . بل كيف يدع المسيح هذه الرسالة حتى يصلب ، ويقوم بعد الصلب دون أن يبلغها لأتباعه الملازمين له ؟

وفى إنجيل لوقا ، وفى الحديث عن ميلاد السيد المسيح، يقول صاحب الإنجيل: « وفى الشهر السادس من الحمل بيوحنا — أرسل جبريل الملاك من الله إلى مدينة من

الجليل ، اسمها ناصرة ، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود ، اسمه يوسف ، واسم العذراء مريم . . . فقال لها الملاك لا تخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع ، هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ، ويعطيه الرب الإلـه كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية »[١] (١ : ٢٦ — ٣٣)

فروح القدس الذى جاء ذكره فى صدر إنجيل « متى » هو جبريل الذى بشر مريم بمولودها الكريم ، الذى ستلده .. وإذن فيكون معنى روح القدس هو جبريل عليه السلام .

وأيا كان الأمر فإن روح القدس حين يراد به الله — عند المسيحيين — يعنى ذات الله ، ولا يعنى أقنوما من أقانيمه ، كما يطلق أحيانا فيراد به جبريل ، لا جزء من الله ! فهو ذات مستقلة غير داخلة فى شركة مع أحد ، سواء أكانت إلـها أو ملكا من ملائكته .

هذا ، وقد تعلق المسيحيون بما جاء فى القرآن الكريم عن عيسى ابن مريم وتأييده بروح القدس فى قوله تعالى « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس[٢] » وفى قوله سبحانه : « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس . . تكلم الناس فى المهد وكهلا[٣] » .

---

(١) يلاحظ أن هذه النبوءة لم تتحقق، فما جلس المسيح على كرسى داوود أبيه ، ولاملك على بيت يعقوب يوما واحداً ولا إلى الابد، ولا أقام نفسه على ملك له نهاية أولانهاية له ؟ ثم أين الملك الذى لا نهاية له فى هذه الدنيا ؟

(٢) سورة البقرة : ٨٧

(٣) سورة المائدة : ١١

لقد تعلق المسيحيون بهذا الذى ذكره القرآن من تأييد الله للمسيح بروح القدس، وقالوا إن هذا التأييد لم يكن إلا للمسيح، وهو ليس تأييدا بالملائكة لأن ذلك عامة فى الأنبياء والرسل، وإنما المراد بروح القدس هنا هو « روح الله » الذى اختص به عيسى !!.

يقول الأستاذ « الحداد » فى كتابه الإنجيل فى القرآن :

« فليس روح القدس، روح عيسى التى نفخها الله تعالى فيه، كما قال «أبو مسلم »(١) فإن التأييد للمسيح بروح القدس حاصل بعد وجوده.. فالروح القدس إذن غير روح عيسى.

« وهب أن مازعم حق، فلن يبقى فى الآية من اختصاص عيسى بميزة فضله الله بها على غيره.. وليس هو — أى روح القدس — جبريل، وقد سموه — أى المسلمين — كذلك، على المشاكلة، تشبيها له بحال محمد مع الوحى إليه، ولوجود اسم جبريل موصوفا بروح القدس فى قوله تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك » .. فهو هنا صفة ظاهرة لجبريل الموحى إليه.. وأما عن المسيح فهو اسم ذات غيرها.

« ثم يقول » : والمعلوم من التوراة والإنجيل والقرآن أن الملائكة كانت واسطة الوحى بين الله والأنبياء، فتخصيص المسيح بتأييد جبريل لا يفيد معنى التخصيص المطلوب.. وبقيت النكتة المقصودة !...

« فروح القدس إذن الذى به أيد الله المسيح، هو ذات قائمة بنفسها، غير ما ذكر، وهى روح الله، لا كما قال الحسن، أو الذى كان يحيى به عيسى الموتى، كما قال ابن عباس (٢) »

---

(١) أحد أئمة المفسرين.

(٢) الإنجيل فى القرآن — (١) ص ٢٢٠

وروح الله الذى يجعله « الحداد » خصيصة لعيسى قد جاء فى القرآن فى خلق آدم . . قال تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »(١) وإذن فليس روح الله الذى هو « روح القدس » والذى أيد الله به عيسى، مما اختص به عيسى ،فقد شاركه فى ذلك آدم .

ويقول ابن تيمية تعقيباً على مقولة المسيحيين فى روح القدس :

« وأما روح القدس فهى لفظة موجودة فى غير موضع من الكتب عندهم ـ أى عند أهل الكتاب ـ وليس المراد بها حياة الله ، باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحل فى إبراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين . والقرآن قد شهد أن الله أيد المسيح بروح القدس ، كما قال تعالى : وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . . . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت :« إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » وقال : « اللهم أيده بروح القدس » . . وروح القدس قد يراد به الملك المقدس، كجبريل ، ويراد به الوحى والهدى والتأييد . فإن الملك ينزل بالوحى ، والوحى ينزل به الملك ، والله يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى . . . « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » (٢) . .

ثم يقول ابن تيمية : «وإذا كان روح القدس معروفا فى كلام الأنبياء المتقدمين والمتأخرين أنه أمر ينزله الله على أنبيائه وصالحى عباده ، سواء كان ملائكة تنزل بالوحى والنصر، أو وحيا وتأييدا ، مع الملك وبدون الملك . وليس المراد بروح القدس أنها حياة الله القائمة به ، كما فى قول المسيح :« عمدو الناس باسم الأب والابن وروح

---

(١) سورة ص: ٧٢

(٢) سورة المجادلة : ٢٢

القدس ، ومراده : مرو الناس أن يؤمنوا بالله ونبيه الذى أرسله ،وبالملك الذى أنزل عليه الوحى الذى جاء به» (١)

الرب :

ترد هذه اللفظة فى الأناجيل مرادا بها السيد المسيح عليه السلام ، يدعوه بها أتباعه وحواريوه . . فماذا كان يراد بها ؟ وهل تعنى المعنى المقصود بها على إطلاقه ،فتكون اسما من أسماء الله تعالى مرادفاً لكلمة « الله » أو الإلٰه؟

نعرض بعض النصوص التى أوردتها الأناجيل فيها ، ثم ننظر فى المعنى الذى كانت تراد له !

فى إنجيل« متى » على لسان السيد المسيح نجد هذا النص :« ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات ، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات (٧ : ٢١) »

وواضح من هذا النص أن الرب هنا غير الله الذى يشير إليه السيد المسيح بأنه أبوه الذى فى السموات ، ففى هذا الإنجيل أيضاً ترد هذه الكلمة على لسان بطرس مخاطبا السيد المسيح : « فأخذه بطرس إليه (أى أخذ المسيح) وابتدأ ينتهره قائلا : حاشاك يارب . . لايكون لك هذا (١٦ . ٢٣) .

وغير مقبول عقلا ومنطقا أن يكون بطرس فى حضرة « الله » ثم ينتهره أو يعترض عليه بقول أو فعل . . وإذن فلا تعدو كلمة « رب » أن تكون للتعظيم والاحترام ، بمعنى ياسيد أويامعلم ، فقد كان تلاميذ المسيح ينادونه بياسيد ، ويامعلم ، ويارب ، وهى جميعها ذات مدلول واحد . .

---

(٣) القول الصحيح « لابن تيمية » الجزء الثانى ص ٩٦

والحوارى بطرس الذى نادى السيد المسيح « يارب » يناديه أيضاً ، ياسيد ، كما جاء فى إنجيل متى : « فأجابه بطرس وقال ياسيد: إن كنت أنت هو فمرنى آتى إليك (١٤ : ٣٨).

وفى إنجيل لوقا يقول المسيح مخاطبا من حوله : « ولماذا تدعوننى يارب وأنتم لاتفعلون ماأقوله ؟ » (٦ : ٤٦) .

وطبيعى أن الذين كانوا مجتمعين إلى السيد المسيح لم يكن يقع فى تصورهم أنهم فى حضرة الله ، وإنما هم فى حضرة إنسان له فى نفوسهم كل مايقدرون عليه من احترام وتقدير .. فكانوا ينادونه بتلك الكلمة « يارب » ،ولا يريدون بها إلا أنه السيد المحبوب المطاع (١) .

وفى إنجيل لوقا أيضاً : « إذ كان يصلى فى موضع . لما فرغ قال أحد تلاميذه : يارب علمنا أن نصلى كما علم يوحنا تلاميذه » .. وفى تشبيه المسيح بيوحنا مايقطع بأن المراد بكلمة « رب » الموجهة إليه لاتعنى أكثر من كلمة « سيد » أو « معلم »

وفى هذا الإنجيل أيضاً « وأما الفريسى فلما رأى ذلك تعجب أنه لم يغتسل أولا قبل الغذاء ، فقال له الرب : أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة ، وأما باطنكم فمملوء اختطافا وخبثا » (١١ : ٣٨ — ٣٩) .

وفى هذا الإنجيل كذلك ، وفى موقف كان السيد المسيح يعظ تلاميذه : « فقال الرسل للرب: زد إيماننا ، فقال الرب لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذه الجميزة انقلعى وانغرسى فى البحر فتطيعكم » (١٧ : ٥ ، ٦)

---

(١) من الاحصاءات الطريفة التى أحصاها المسيحيون فى الأناجيل الأربعة وملحقاتها أن كلمة « رب » جاءت مستعملة فى حق الأب والابن وروح القدس وأن عدد المرات التى جاءت فيها كلمة الرب مرادا بها الله الأب هى ١٧٢ ، ومرادا بها الله الابن ٣٧٣ ومراداً بها الله روح القدس خمس مرات .

وينقل صاحب الإنجيل على لسان أحد اللصين اللذين صلبا مع المسيح أنه قال ليسوع وهو يصلب : « اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك » (٢٣ : ٤٢) . .

وكلمة « رب » فى هذه المواضع جميعها لاتعنى إلا التعظيم والإجلال لشخص الإنسان المخاطب .

وهناك فى إنجيل « يوحنا » تفسير صريح قاطع لكلمة « الرب » التى كان يخاطَب بها السيد المسيح من أتباعه ، وأنها تقابل كلمة « السيد ».

يقول يوحنا : « وفى الغد أيضاً كان يوحنا — يقصد يوحنا المعمدان ـ واقفا واثنان من تلاميذه . فنظر إلى يسوع ماشيا ، فقال هذا هو حمل الله، فسمعه التلاميذ يتكلم ، فتبعا يسوع فالتفت يسوع ونظرهما يتبعانه فقال لهما : ماذا تطلبان ؟ فقالا : ربى ـ الذى تفسيره يامعلم ـ أين تمكث ؟ فقال لهما تعاليا وانظرا ». (١ ـ ٣٥ ـ ٣٩).

وواضح من هذا أن يوحنا ـ كاتب الإنجيل ـ لم يشأ أن يطلق كلمة « ربى » من غير تفسير ، حتى لا تحمل على معنى الألوهية ، بل فسرها فى صلب الإنجيل بقوله: الذى تفسيره يامعلم! »

وهذا يعنى أيضاً أن المسيح لم يكن يُعرف عند حوارييه بأكثر من أنه أستاذ ومعلم..وهذا ماينبغى أن يكون ، لأنهم لو عرفوه إلٰها أو شبه إنٰه لما استقام خطوهم معه ، ولزلزل بهم من أول نظرة إليه ، إن كان فى الإمكان النظر إلى الإلٰه !

وكيف يمشى الإلٰه على الأرض ؟ وكيف يعايشه الناس ؟

لقد اقترح المشركون عل النبى محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون إلى جانبه ملك من ملائكة الرحمن ، ليكون معه شاهدا على أنه رسول من رب العالمين، وكان من مقولاتهم ماذكره القرآن فى قوله تعالى : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا[1] » وقد تولى

(١) الفرقان : ٧

القرآن الكشف عن بطلان هذا المقترح وفساده وعدم إمكان تقبل الحياة له، فقال تعالى: «قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا»(١).

وفى إنجيل يوحنا أيضا تتحدث مريم المجدلية إلى السيد المسيح بعد قيامته من الأموات: «فالتفتت تلك وقالت: ربونى ـ الذى تفسيره يامعلم ـ فقال لها يسوع: لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى» (يوحنا ٢٠ : ١٦ ـ ١٧) وفى إصرار «يوحنا» على تفسيره هذه الكلمة وضبط معناها فى موضعين من إنجيله، الأمر الذى لم يقع فى الاناجيل الثلاثة الأخرى، فى هذا مايدعوا إلى التوقف والنظر.

فيوحنا — كما عرفنا — كان يبشر بإنجيله فى غير اليهود.. بين الرومانيين، الذين أراد أن يستميلهم إلى الدعوة الجديدة، وأن يخرج دعوته على وجه مقارب لما كان يقع فى تصوراتهم للألوهية، وأنه من أجل هذا بدأ إنجيله هذا البدء الغريب بالحديث عن الكلمة، وأنها كانت البدء وكانت عند الله!! ومع هذا فإنه لم يدع كلمة «رب» التى كانت مستعملة استعمالا شائعا بمعنى «سيد» أو معلم — لم يدعها دون أن يحدد مدلولها الذى لايحتاج إلى تحديد، وماذاك إلا ليذود عن نفسه شعورا كان مستوليا عليه، هو ألوهية المسيح، الأمر الذى لم يكن فى مستطاع أحد يومئذ أن يجهر به، أو يدعو إليه فى بيئة اليهود، والناس قريبو عهد بالسيد المسيح، وكثير منهم كان قد رآه رأى العين، إنسانا يعيش مع الناس، كما أن كثيراً ممن لم يروه قد علموا أخباره، وما انتهى إليه أمره! فما كان — والأمر كذلك — ممكنا أن يقول أحد فى هذا الوقت عن المسيح إنه إله أو ابن إله!

---

(١) الإسراء : ٩٥

هذا وقد كانت كلمة « رب » بمعنى سيد مستعملة فى المجتمع اليهودى . وفى أسفار التوراة نجد هذه الكلمة تدور على الألسنة كثيرا ، ولا يعنون بها إلا التعظيم للإنسان الذى يراد تعظيمه .

وقد نقل بنو إسرائيل هذا اللفظ إلى مصر ، بمعناه الذى يدل على السيادة ، فكان من كلمات يوسف عليه السلام التى نقلها القرآن عنه : « إنه ربى أحسن مثواى »(١) يريد بهذا « العزيز » حاكم مصر . . كما استعمل القرآن هذه اللفظة فى قصة « يوسف » مرادا بها العزيز أيضا ، فى قوله تعالى : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » أى رأى أمارة من الأمارات الدالة على قدوم العزيز ، إلى حيث كانت امرأته ويوسف .

* * *

ونعود بعد هذا لنقرر أن الأناجيل الأربعة ، ومن بينها إنجيل يوحنا لم يكن فيها أى حديث عن المسيح ، بأنه الله ، أو ابن الله بمعنى أنه أحد الأقانيم التى جعلتها المسيحية ، الله ، بعد ذلك . .

وإن شخصية المسيح فى هذه الأناجيل شخصية لها وجودها الذاتى ، إلى جانب وجود الله الذاتى ، وأن البنوة التى تقال عن المسيح ونسبته إلى الله فيها لاتعدو أن تكون بنوة حب ورعاية واصطفاء ، وأن المسيح ليس وحده هو الذى انفرد بهذا النسب الكريم ، بل إن عباد الله جميعا هم أبناؤ الله . . . كما صرح بذلك الأناجيل على لسان المسيح نفسه !

كذلك كلمة « رب » التى ترددت فى الأناجيل فى مخاطبة تلاميذ المسيح وحوارييه له ، لم تكن تحمل أكثر من معنى الاحترام والتوقير ، وأن المقصود بها لا يخرج عن معنى « معلم » أو « سيد » .

---

(١) سورة يوسف : ٢٣

وأخيرا فإن كلمات الأب ،والابن ،وروح القدس ، جاءت متفرقة فى الأناجيل، لكل منها معنى خاص يدل عليه ، ولم يرد فى أى نص من نصوص الأناجيل مايشير من قريب أو بعيد إلى الجمع بين هذه الكلمات فى ذات واحدة ، يكشف كل واحدة منها عن وجه من وجوه تلك الذات .

وفى الأناجيل وملحقاتها تحديد واضح لطبيعة المسيح ، وأنه لا يدخل مع الله فى شركة ، بل هو ذات مستقلة أيا كانت طبيعة هذه الذات ، بشرية أو ملائكية أو فوق الملائكية . .

« يقول بولس » فى رسالته الأولى إلى أهل « كورنثوس » : « ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله » !

وهذا يعنى أن المسيح له قوامة على الناس أو على أتباعه ، أشبه بقوامة الرأس على الجسد ، من حيث التدبير والتسديد ، كما أن للرجل قوامة على المرأة، فهو أشبه بالرأس المدبر لها . . أما المسيح فإنه من الله بمنزلة الجسد من الرأس ، يخضع لله ، ويمتثل أمره !

ويقول « لوقا » فى رسالة « أعمال الرسل » مخاطبا الرومانيين : « فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضيا عن أزمنة الجهل ، لأنه أقام يوما هو فيه مزمع أن يَدين المسكونة بالعدل ، برجل عيّنه ، مقدما للجميع إيمانا ،إذ أقامه من الأموات » (١٧ : ٣٠ — ٣١) .

ومحال أن يكون هذا الرجل الذى عينه الله وأقامه من الأموات — محال أن يكون هو الله ، أو أحد أقانيمه الثلاثة التى يعرفه بها أصحاب التثليث !

فإذا كان من المستساغ عقلا أن يُنظر فى ذات الله هذا النظر الفلسفى الذى يحلل

الذات ويركبها ، ويفرقها ويجمعها، فإنه ليس من المستساغ منطقيا أن يُدخل على ذات الله ذات أخرى ، معترف بوجودها المستقل كشخيصة المسيح ! فإذا صلح أن يكون التثليث مذهبا فلسفيا، أو معتقدا دينيا فإن اعتبار المسيح أقنوما فى الذات المثلثة الأقانيم مما يفسد الصورة الذهنية لتلك الذات! وإنه لأقرب إلى العقل أن يقال عن المسيح إنه إلٰه فى مجمع آلهة ثلاثة، من أن يقال إنه ثُلث إلٰه ، فى شركة مع إلٰه ذى ثلاثة وجوه!

ونسأل بعد هذا :

إذا كانت الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى المسيحيين لم يتحدث واحد منها على لسان المسيح ولا على لسان حوارييه ، أى حديث عن « التثليث » الذى عرفته المسيحية ، وحددته بالأب والابن وروح القدس ـ فمن أين جاء هذا المفهوم للإلٰه المثلث الأقانيم ؟.

ونرجىء الجواب على هذا السؤال إلى ما بعد نظرة سريعة ننظر بها فى المرحلة التالية ، لدعوة المسيحية بعد المسيح ، على يد رسله وحوارييه . . نعنى بهذا الرسائل التى ألحقت بالأناجيل الأربعة ، وهى أعمال الرسل التى تنسب إلى لوقا صاحب أحد الأناجيل الأربعة ، ثم أربع عشرة رسالة أخرى تنسب إلى بولس ، ورسالة تنسب إلى يعقوب ، ورسالتان لبطرس ، وثلاث رسائل ليوحنا ، ورسالة ليهوذا.. ثم أخيرا رؤيا يوحنا اللاهوتى .

وهذه الرسائل جميعها معتبرة — عند أتباع المسيح — رسائل سماوية تلقاها أصحابها وحيا من عند الله ..

وعلى هذا فإن لها ما للأناجيل من حساب وتقدير .

أعمال الرسل : ورسالة أعمال الرسل كتبها « لوقا » كما قلنا ، أو هكذا يقال .. إذ ليست نسبتها إلى هذا الحوارى نسبة سلمت من الاعتراض والشك .

ونجد فى هذه الرسالة أنها تتحدث عن المسيح باعتباره إنسانا طاهرا ، يعيش على هذه الأرض ، مستمدا القوة والعون من الله . .

يقول لوقا : « أيها الرجال الإسرائيليون . . اسمعوا هذه الأقوال : يسوع الناصرى ، رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده ، فى وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون . . هذا أخذتموه مُسلَّماً بمشورة الله المحتومة ، وعلمه السابق ، وبأيدى أَثَمَة صلبتموه وقتلتموه . . الذى أقامه الله ناقضا أوجاع الموت : إذ لم يكن ممكنا أن يُمسَك منه (٢ : ٢٢ – ٢٤)

ويكفى أن يقال عن المسيح إنه « رجل » ليكون بمعزل عن أن يدخل فى شركة مع الله بأقنوم البنوة أو غيره . ويكفى أن يقال هذا من رسول من رسل المسيحية ، بعد صلب المسيح وقيامته ، ورفعه إلى السماء ، حسب معتقدهم فيه !

ويقول أيضاً: «فليعلم يقينا جمع بيت إسرائيل . . أن الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه ربا ومسيحا (٢ : ٣٦) ويقول على لسان موسى عليه السلام متنبئا بظهور المسيح : « فإن موسى قال للآباء : إن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلٰهكم من إخوتكم له تسمعون فى كل ما يكلمكم ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب (٣ : ٢٢) .

فالمسيح فى هذه النصوص شخصية لها وجودها الذاتى ، تستمد من الله العون ، وتخضع لمشيئته فى كل ما أراد ، وأنه فى كل هذا لم يخرج عن أن يكون عبدا من عباد الله ورسولا من رسله كما جاء على لسان موسى فى قوله : إن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلٰهكم من إخوتكم » . . ولا يعنينا هنا إن كانت نبوءة موسى تعنى المسيح أم غيره ، ولكن الذى يعنينا هو استشهاد لوقا بهذه النبوءة وجعلها للمسيح ، حيث ينظر إليه « لوقا » من خلال هذه النبوءة نبيا . مثل موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل .

ويقول لوقا أيضا : « إن إلـه إبراهيم وإسحق ويعقوب ، إلـه آبائنا مجد فتاه يسوع ، الذى أسلمتوه أنتم وأنـكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه (٣ : ١٣) .

وكلمة فتى الله التى وردت على لسان لوقا هنا لا تعنى بنوة حقيقية لله ، وإنما تعنى الولاء لله ، والعمل بمرضاته ، كما يقال « رجل الله » للإنسان الذى أسلم وجوده لله وسكن إليه . .

وقد نقل لوقا على لسان الحوارييْن بطرس ويوحنا هذه المناجاة التى يناجيان الله بها ، وفيها يقولان : « أيها السيد .. أنت هو الإلـه الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، القائل بفم داود فتاك : لماذا ارتجت الأمم وتفـكر الشعوب بالباطل ؟ قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه .. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذى مسحته ، هيردوس وبيلاطس البنطى مع أمم وشعوب إسرائيل ليفعلوا كل ما سبقتَ فعينتْ يدك ومشورتك أن يكون (٤ : ٢٤ ـ ٢٨)

ويقول لوقا أيضا على لسان بطرس مخاطبا اليهود : إله آبائنا أقام يسوع الذى أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة ، هذا رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلصا ليعطى إسرائيل التوبة وغفران الخطايا (٥ : ٣٠ ـ ٣١) .

وهذا النص على ما فيه من دلالة على وجود المسيح مشخصا بقيامه عن يمين الله ، فإنه يعطى حكما قاطعا بأن المسيح إنما جاء لخلاص اليهود وغفران خطاياهم وحدهم . . وقد خرج دعاة المسيحية فيما بعد على هذا الحـكم ، وجعلوه عاما شاملا لخلاص الإنسانية كلها فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وفى رسالة أعمال الرسل هذه يروى لوقا على لسان بطرس تلك المقولة : « الـكلمة التى أرسلها الله إلى بنى إسرائيل يبشر بالسلام ، يسوع المسيح هذا ، هو رب « ١ » »

---

(١) لاحظ أن معنى رب هنا هو سيد أو معلم كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

الكل . . أنتم تعلمون الأمر الذى صار فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل بعد المعمودية التى كرز بها يوحنا ، يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة (١٠ : ٣٧ ـ ٣٨) .

فى هذا النص نجد الله قد مسح مسيحا هو « يسوع » كما نجد ما مُسح به ، وهو الروح القدس والقوة . . إن هنا ثلاث ذوات منفصل بعضها عن بعض بحيث لا يمكن أبدا أن تكون ذاتا واحدة .

وهكذا نستعرض هذه الرسالة ـ أعمال الرسل ـ فلا نجد فيها إشارة واحدة إلى تأليه « المسيح » أو جعله أحد أقانيم ثلاثة ، هى التى تمثل حقيقة الذات الإلـهية ، حسب عقيدة التثليث .

رسائل بولس :

فاذا جئنا إلى رسائل « بولس » وجدنا أنها تكاد تأخذ نمطا واحدا فى ابتدائها وخواتيمها . . تتحدث بنعمة الله الأب ، والرب يسوع المسيح ! فى رسالته إلى أهل رومية يقول : « إلى جميع الموجودين فى رومية أحباء الله مدعوين قديسين ، نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح (رومية ١ : ٧) .

ورسالته إلى أهل كورنثوس تبدأ بمثل هذا البدء : بولس المدعو رسولا ليسوع المسيح بمشيئة الله . . نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح . أشكر إلهى فى كل حين من جهتكم على نعمة الله المعطاة لكم فى يسوع المسيح » .

وتبدأ الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس أيضا هكذا : « بولس » رسول يسوع المسيح بمشيئة الله . . نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح : مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح (١ : ١ ـ ٣) :

ورسالة « غلاطية » يبدؤها بولس بقوله « بولس رسول ، لا من الناس ، ولا بإنسان ، بل يسوع المسيح، والله الأب الذى أقامه من الأموات »!

ونجد فى هذا البدء شيئا من الغرابة ، حيث يفهم من نفى بولس الإنسانية عن المسيح أنه كائن غير بشرى ،وإن ظل ذاتا مستقلة عن الله : وهذا مدخل يمكن أن يستدرج المتأولين إلى مقولات تقال فى المسيح ، بما يرفعه إلى مقام المداناة لله، ثم للدخول معه فى شركة «الأقنومية» التى قيل بها بعد ذلك ،وصارت الصورة النهائية للعقيدة المسيحية !

ولكن مع هذا البدء الذى تشوبه التعمية والغموض ، تمضىهذه الرسالة معترفة بوجود ذاتى لله ، مستقل عن ذاتية المسيح . . فيقول صاحب هذه الرسالة مثلا « أفأستعطف الآن الناس أم الله ؟ أم أطلب أن أرضى الناس ، فلو كنت بعد أرضى الناس لم أكن عبداً للمسيح » (غلاطية ١ : ١٠)

وفى رسالة بولس إلى أفسس : يبدؤها على نحو مابدأ بهغيرها .. يقول : «بولس رسول يسوع المسيح بمشيئة الله.. نعمة لكم وسلام من الله أبينا ،والرب يسوع المسيح

« مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح . . » (١ : ١ — ٣)

وهكذا تمضى رسائل بولس متحدثة فى بدئها وختامها ، عن الله ، وعن يسوع المسيح . . كل منهما له مقامه ، فالله هو الذى مسح المسيح ،وهو الذى أرسله ، وهو الأب الحانى عليه ، اللطيف به.

فإذا ألقينا نظرة على متن هذه الرسالات رأينا المسيح فيها ذاتا غير الله ، وغير الشركة الأقنومية القائم بها فى الله .. ولكن تبدو الصور التى تجمع الله والمسيح صوراً مهزوزة متماوجة ، حتى ليكاد يختلط الأمر على كثير من الناظرين فلا يستبين وجه الإله من المألوه !

ففى الرسالة إلى أهل « كولوسى » يقول بولس: « فإن كنتم قد قمتم مع المسيح

فاطلبوا مافوق ، حيث المسيح جالس عن يمين الله » (٣ : ١)

فهذا الجلوس عن يمين الله قد أعطى للمتأولين فيما بعد أن يجعلوا لله يمينا وشمالا ، فعلى يمينه المسيح ، وعلى شماله روح القدس .. وبذلك يكتمل الثالوث ، ومن ثم أمكن فيما بعد أن يقال إن الله ثلاثة : وسط وجانبان .. أ ب (يحتل مركز الوسط) وابن (يأخذ جانب اليمين) وروح قدس (يأخذ جانب اليسار) !

وفى الرسالة إلى العبرانيين يزيد بولس هذا الأمر شرحا وتوضيحا .. يقول :

«الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه الذى جعله وارثاً لكل شىء .. الذى به أيضاً عمل العالمين ، الذى وهو بهاء مجده ، ورسْم جوهره ، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته ، بعد ماصنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس على يمين العظمة فى الأعالى ، صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ماورث اسماً أفضل منهم .

« لأنه لِمن من الملائكة قال قط أنت ابنى أنا اليوم ولدتك ، وأيضاً أنا أكون له أبا وهو يكون لى ابنا ؟ ...

« ثم لِمن من الملائكة قال قط اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدمك » (١ : ١ — ١٤)

والحق أن رسالة العبرانيين قد صاغ فيها « بولس » الدعوة المسيحية صياغة جديدة ، بما أدخل عليها من تصورات للمسيح لم يجر لها فى الأناجيل ذكر ، ولم تقع فى تفكير أتباعه ولا فى نظرتهم إليه .. بل لقد قطع الجزء الأكبر من حياته معهم لايرون فيه إلا أنه أحد أبنائهم الذى يمكن أن يكون منه نبى من أنبيائهم .!!

يقول لوقا فى إنجيله : «ولما ابتدأ يسوع — أى يبشر برسالته — كان له نحو ثلاثين

سنة ، وهو على ما كان يُظن ابن يوسف بن هالىمن متثات ابن لاوى ....بن شيث ابن آدم ابن الله ! (٣ : ٣٣) » .

هذا ما كان يراه أغلب الذين عاصروا المسيح حتى الكثير من أتباعه وحوارييه، إلى أن ظهرت معجزاته ،فآمن به من آمن على أنه نبي ، وقلة منهم آمنوا بأنه المسيح الموعود ، الذى جاء لخلاص بنى إسرائيل . .

ولكن « بولس » وقد قضى شطر حياته بين الرومانيين الذين بلغ من تقدير بعضهم له أن اعتبروه إلهاً نزل إلى الأرض - كما يقول هو فى إحدى رسائله - قد أبى عليه تواضعه إلا أن يزهد فى هذه الصفة وأن يخلعها على من هو أولى بها منه . . على المسيح الذى يدعو باسمه ويبشر برسالته !

سؤال سألناه آنفا :

إذا كانت الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين لم تتحدث على لسان المسيح ولا على لسان أحد من أتباعه أى حديث عن التثليث الذى عرفته المسيحية ، وحددته بالأب والابن وروح القدس — فمن أين جاء هذا المفهوم للإله المثلث الأقانيم ؟ وإذا لم يكن شىء من هذا قد جاء فى الأناجيل، ولم يثبت فيها للمسيح حديث عنه ، فهل بعد المسيح من يملك القول عنه فى رسالته وفى تحميلها محاميل جديدة ، لم تكن معروفة لها ؟

سألنا هذا السؤال من قبل ، وأرجانا الجواب عليه حتى ننظر فى رسائل الرسل ، التى ألحقت بالأناجيل وأصبحت جزءاً متمما لها !

وقد نظرنا فى رسائل الرسل هذه . . فماذا رأينا ؟

الذى رأيناه ،هو أن « بولس » قد بدأ رسالاته بدءا مقاربا لمقولات الإنجيل، وإن كان قد ألقى فى ثناياها عبارات غامضة يمكن أن تحمل على محامل شتى،حتى إذا

كان فى آخر رسالاته وهى التى كتبها للعبرانيين ، رأيناه يكشف عن تلك المعانى الغامضة التى كانت تدور فى رأسه ، وإذا المسيح ليس هو المسيح الذى كنا نعهده ونتمثله،فيما تحدث به الأناجيل عنه ، وإنما هو « الله » قد حل فى جسد إنسان .. كما ينطق بذلك بدأ هذه الرسالة:« الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه » . . ومفهوم هذا صريح فى أن المسيح حين كان يتكلم ويبشر بدعوته ، لم يكن هو سوى الله الذى يتكلم فى هذا الجسد الإنسانى ! !

ثم تكشف الرسالة عن صفات أخرى للمسيح ، فهو الذى جعله الله وارثا لكل شىء . . « الذى أيضا عمل العالمين » . . وهو « بهاء مجد الله ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته » . . وهذه الصفات التى وصف بها المسيح هى التى دخل بها فى شركة مع الله ، فكان أحد أقانيمه الثلاثة . !

نستطيع أن نقرر بعد هذا أنه منذ أذاع بولس هذه المقولات فى رسالته إلى العبرانيين انفتح ذلك الباب الذى دخل منه المسيح إلى الله ، ثم ظل يقترب شيئا فشيئا حتى أصبح الجزء الذى عاد إلى كله .. وذلك بعد دورة طويلة دارتها تلك المقولات وخلفت حولها أجواء عاصفه، مزقت وحدة العقل المسيحى ، وأحدثت به صدعا مزعجا ـ الأمر الذى أدى إلى انعقاد كثير من المؤتمرات المتتابعة ، لالتماس وسيلة أو وسائل لتخفيف حدة هذا الصداع أو تسكينه .. ولو إلى حين ! !

ومنذ الأيام الأولى للمسيحية والمجامع المسكونية تنعقد لتسوية وجوه الخلافات، التى كانت تقع بين المسيحيين فى صميم العقيدة ، وقد أصبح لهذه المجامع السلطان المطلق فى أن تقول القولة الفاصلة التى لا ترد ، فى كل أمر يتصل بالدعوة المسيحية ، وفى تعديل ما ترى تعديله من وجوهها ! ! .

وأول مجمع مسكونى عقد ، كان فى أورشليم سنة ٥١ م برياسة يعقوب الرسول ، للنظر فى مسألة ختان الأمم، وقد انتهى الرأى فى هذا المؤتمر إلى إعفاء الأمم[١] من « الختان »، مع أنه أساس من أسس الناموس الذى اعترف المسيح به ، وبأنه ماجاء لينقض الناموس ، بل ليكمله .

والختان فى الشريعة اليهودية أصل من أصول هـذه الشريعة ،وعهد موثـق بين الله وبينهم منذ أبيهم الأكبر إبراهيم عليه السلام . . وقد كان المسيح نفسه مختتنا بحكم هذا العهد . . وكذلك جميع الحواريين ! !.

فنى سفر التكوين : « قال الله لإبراهيم . . هـذا هو عهـدى الذى تحفظون بينى وبينك وبين نسلك من بعدك : يختن منكم كل ذكر ، فتختتنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم ..وأما الذكر الأغلف الذى لايختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . . إنه نكث عهدى » [٢] .

وإذا كانت التوراة شريعة المسيح وأتباعه فإن الخروج على حكم من أحكامها خروج على الشريعة ، وتبديل لها،واصطناع شريعة ملفقة ، لم يأذن بها الله ولم تحملها رسالاته ورسله .

وموضوع الختان أول موقف عملى اصطدمت فيه تعاليم المسيحية بعادات الرومانيين واليونانيين وغيرهم من الأمم اليهودية . . إذ كان الختان شيئا ثقيلا ، بل ومخيفا عند تلك الأمم التى ليس لها عهد به . . فكان لابد من التماس مخرج من هذا الحرج بإزالة العقبات التى تعترض هؤلاء الذين يدعونهم المبشرون بالمسيحية ، إلى الدخول فى هذا الدين الجديد .

---

(١) أى غير اليهود

(٢) تكوين : الإصحاح السابع عشر

وقد انتهى الرأى إلى التخفيف عن الأمم غير اليهودية — بإعفائها من «الختان».

ومن هنا أخذ دعاة المسيحية فى التعريض بالمختونين واتهامهم بأنهم غير مختونى القلوب وإن ختنوا بالأجسام، وهذا يعنى أن الختان هو ختان القلب، وأما الختان بالجسد فهو طهارة ظاهرية، لاقيمة لها إلى جانب طهارة الباطن!

يقول لوقا فى رسالته (أعمال الرسل) من رسالة بعث بها الرسل المبشرون بالمسيحية إلى أهل أنطاكية وسورية وكيليكية الذين دخلوا فى المسيحية، ثم رجعوا عنها حين قيل لهم إنكم لن تُقبلوا عند الله إذا لم تختتنوا ... فى هذه الرسالة يقول الرسل: «قد سمعنا أن أناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال، مقلقين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس، الذين نحن لم نأمرهم رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبنا برنابا بولس: رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل ربنا يسوع المسيح، فقد أرسلنا يهوذا وسيلا، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها لأنه قد رأى الروح القدس، ونحن، لانضع عليكم ثقلا أكثر من هذه الأشياء الواجبة: أن تمتنعوا عن الذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا . . » (١٥ : ٢٤ — ٢٨)

فهذا تشريع جديد لم يكن فى شريعة موسى أو عيسى، وإنما هو أمر رآه الرسل وروح القدس!!

وأكثر من هذا . .

كان الخنزير ومازال نجسا عند اليهود، لايؤكل لحمه، على حين كان من الحيوانات التى يقتنيها الرومانيون واليونانيون ويُقبلون على أكل لحومها . .

وقد رأى دعاة المسيحية الأولون ألا يواجهوا هؤلاء الأقوام بحكم الشريعة والناموس فى الخنزير وغيره من الحيوانات المحرمة التى كان أكلها مباحا عند غير اليهود . . . وذلك لئلا يكون فى هذا مايعوق هذه الأمم عن الدخول فى المسيحية،

إن هى دعيت — أى هذه الأمم — إلى ترك عادات عاشت فيها وألفت صحبتها .

وكان المخرج من هذا فى رؤيا رآها « بطرس » أحد الحواريين !! وهى كما جاءت فى أعمال الرسل ، هكذا :

« ثم فى الغد فيما هم يسافرون ويقتربون إلى المدينة صعد بطرس على السطح — سطح السفينة — ليصلى نحو الساعة السادسة ، فجاع كثيرا واشتهى أن يأكل ، وبينما هم يهيئون له ، وقعت عليه غيبة ، فرأى السماء مفتوحة وإناء نازلا عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومدلاة على الأرض ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء ، وصار إليه صوت عظيم : قم يابطرس .. اذبح وكل ! فقال بطرس : كلا يا رب لأنى لم آكل قط شيئا دنسا أو نجسا . فصار إليه أيضا صوت ثانية : ماطهر الله لاتدنسه أنت ! وكان هذا على ثلاث مرات ثم ارتفع الإناء أيضا إلى السماء (١٠ : ٩ — ١٦) .

وبهذه الرؤيا — التى جاءت على جوع شديد — أحل بطرس والذين معه ما كان محرما على بنى إسرائيل وما لم يجىء المسيح بحله ، وبهذا صار كل مادب على الأرض من هوام وحشرات وزحافات وسباع وكلاب وخنازير وغيرها — حلالا أكله فى غير اضطرار ومخمصة ! !

وطبيعى ألا ينحسم الأمر بهذا التدبير الجزئى ، إذ لاتزال هناك أمور كثيرة تتصل بالصميم من العقيدة ، فقد اتسعت شقة الخلاف بين أتباع المسيح فى المسيح ذاته ، بعد أن ذاعت المقولات التى تقول عنه إنه الإله أو ابن الإله !

وحين لم تنفع المجادلات والمناظرات القائمة فى كل مكان ، فى إنهاء هذه الخلافات أو التخفيف من حدتها لم يجد أولو الشأن فى الدعوة المسيحية بدا من الدعوة إلى مؤتمر عام يجتمع له رجال الدين من كل مكان ، ليكون لهم الفصل فى هذا

الأمر ، وليلتزم المسيحيون بمقرراتهم فيه ، على حين يعتبر الخارج عليه خارجا على المسيحية، مستوجبا الطرد والحرمان والموت أحيانا !

ففى سنة ٣٢٥ م اجتمع المؤتمر المسكونى فى « نيقية » بأمر الملك قسطنطين الكبير وقد حضر هذا المؤتمر (٣١٨) أسقفا من شتى أنحاء العالم ومن مختلف طوائف المسيحية . .

وكانت المسألة الأولى والوحيدة التى ناقشها المؤتمر ، هى طبيعة المسيح ، وذلك بعد أن قرر القس « أريوس » الإسكندرى رأيه فى المسيح ، وأنه مخلوق !

ويروى سعيد بن البطريق — بطريك الاسكندرية — فى تاريخه المعروف المسمى « نظم الجواهر » — يروى مقالة (أريوس) هذه ، وما كان لها من آثار فى إثارة الخلاف والفرقة بين المسيحيين وما انتهى إليه الرأى فيه وفى مقولته .

يقول ابن البطريق : « كان بالاسكندرية رجل يقال له « أريوس » يقول إن الأب وحده هو الله الفرد ، والابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن ! ! فقال البطريك — أى بطرك الاسكندرية — لتلميذيه : إن المسيح لعن « أريوس » فاحذرا أن تقبلا قوله ، فإنى رأيت المسيح فى النوم مشقوق الثوب (١) ، فقلت له ياسيدى من شق ثوبك فقال لى « أريوس » فاحذروا أن تقبلوه ، وأن يدخل معكم الكنيسة ، كنيسة الله . . .

« فبعث قسطنطين الملك، إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع فى مدينة « نيقية » بعد سنة وشهرين ، ألفان وثمانية وأربعون أسقفا ، وكانوا مختلفى الآراء ومختلفى الأديان ! فمنهم من يقول : المسيح ومريم إلهان من دون الله ، وهم المريمانية . ومنهم من يقول إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار تخلقت من شعلة نار فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها ، وهى مقالة « سبارينون » وأتباعه ، ومنهم من كان يقول :

---

(١) وانظر إلى الله يلبس ثوباً ، ثم يجىء أحد الناس ويشق هذا الثوب !!!

لم تحمل مريم لتسعة أشهر، وإنما مر نور فى بطن مريم، كما يمر الماء فى الميزاب. لأن كلمة الله دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد ، من ساعتها ـ وهى مقالة « إليان » وأشياعه ، ومنهم من يقول إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منافى جوهرة ،وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى، صحبته النعمة الإلهية ، فحلت فيه المحبة والمشيئة ،فلذلك سمى ابن الله ، ويقولون إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد يسمونه بثلاثة أسماء — ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس ،وهى مقالة « بولس الشمشاطى » بطريرك انطاكية وأشياعه ، وهم البولينيون، ومنهم من كان يقول بثلاثة آلهة : صالح وطالح وعدل بينهما !! وهى مقالة مرقيون وأشياعه .. ومنهم من كان يقول: ربنا هو المسيح.. وتلك هى مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفا .»

ثم يقول ابن البطريق :

« فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم تعجب من ذلك ، وأخلى لهم داراً ، وتقدم لهم بالإكرام والضيافة ، وأمرهم أن يتناظروا فيما بينهم، لينظر من معه الحق فيتبعه ، فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا على دين واحد ورأى واحد ، فناظروا بقية الأساقفة — فأفلجوا عليهم حججهم وأظهروا الدين المستقيم (١) » .

أما أهم ماقرره المجمع — مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر — فهو هذا القرار الذى جعل المسيح رباً . . هو ابن الله ومساويا لله فى جوهره .

وأما صيغة هذا القرار فهى :

« نؤمن برب واحد ،وأب، ضابط الكل ، خالق السموات .. والأرض ..كل مايرى وما لايرى .

---

(١) ابن البطريق .. نقلا عن : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية جزء / ٣ ص ٢٠ ومابعدها — وقد عقد هذا المؤتمر فى سنة ٣٢٥ م فى مدينة (نيقة)

« نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد .. المولود من الأب قبل كل الدهور ، من نور . . إله حق ، من إله حق .. مولود غير مخلوق . ، مساوٍ للأب فى الجوهر .. الذى به كان كل شىء ، هذا هو الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاص نفوسنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء وتأنس (أى صار إنسانا) وصلب على عهد بيلاطس البنطى ، وتألم ، وقبر ، وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث ، كما فى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات .. الذى ليس لملكه انقضاء » .

ولا نسل عن الجهود المضنية التى بذلها المجمع فى الوصول إلى هذا القرار ، الذى اعتبر تفسيرا مقدسا لما كان يضمره المسيح فى نفسه عن حقيقته ، وحقيقة الألوهية المثلثة الأقانيم .

فلقد كان من تدبير أصحاب الرأى فى هذا المجمع أن يلتزموا نصوص الأناجيل ورسائل الرسل ، فى تصوير هذا القرار ، وألا يأتوا بكلمة من عندهم ، حتى لا يكون هناك اعتراض لمعترض ، أو حجة لمخالف .. إذ كل كلمة بين يديه هى من واردات الأناجيل والرسائل المتفق عليها — إجمالا — عند عامة المسيحيين ! كما التقطت منها كلمات من التوراة وأسفارها .

ولكن انظر كيف جمعت كلمات هذا القرار . .

إنها من أودية مختلفة ، وفى مقامات متباينة ، وفى أحوال متغايرة لا يجمع بينها حال أو مقام ، وإن تكن مسطورة فى الأناجيل والرسائل ...

ثم هى مع هذا أشلاء ممزقة قد انتزعت انتزاعا من أصولها ، ثم ضرب بعضها ببعض فكانت هذا الكائن العجيب من أكوان النظم الكلامى !

ولا ندعك تسىء الظن بما نقول . . فتحسب أننا نجاوز الحقيقة إلى المجاز ،

ونقيم الخيال مقام الواقع ، حيث لاحرج — فى مثل هذا المقام — من اصطناع هذا الأسلوب الأدبى فى تصوير الأحداث والوقائع . . وكلا ، فإننا هنا لانجد بيانا أبلغ وأوفى وأوضح من بيان الواقع ..فى منطوقه أومفهومه !

ولهذا فإننا نضع بين يديك فقرات هذا القرارفقرة ، ونضع إزاءها المصدرالذى جُلبت منه . . فترجع إليه إن شئت !

« نؤمن بإله واحد . . . . (يوحنا ١٧ :)

« آب . . . . (١ تس ٢ ، ٤)

« ضابط الكل . . . . (متى ١٠ : ٢٩ و ٣٠)

« خالق السموات والأرض مايرى ومالايرى (متى ١١ :٣٥) و (خروج ٢٠ :١١)

« نؤمن برب واحد . . . . . . (عبرانيين ١ : ٨) و (رؤيا ١٩ : ١٦)

« يسوع المسيح . . . . (عبرانيين ١٣ : ٨)

« ابن الله الوحيد . . . . (يوحنا ٣ : ١٦)

« المولود من الأب قبل كل الدهور . . . . (ميخا ٥ : ٢)

« نور من نور . . . . (عبرانيين ١ : ٣)

« إله حق . . . . (يوحنا ٥ : ٢)

« من إله حق . . . . (يوحنا ١٧ : ٥)

« مولود غير مخلوق . . . . (يوحنا ٥ : ٢٦)

« مساو للأب فى الجوهر . . . . (يوحنا ١٠ : ٣٠)

« الذى به كان كل شيء . . . . (يوحنا ١ : ٣)

« هذا هو الذى من أجلنا نحن البشر
« ومن أجل خلاص نفوسنا } من كلام المجمع

« نزل من السماء وتجسد . . . . . (يوحنا ٤ : ١٤) وعبرانيين ١٠ : ٥)

« من الروح القدس ومريم العذراء . . . . (لوقا ١٠ : ٣٥) »

« وتأنس . . . . (يوحنا ٨ : ٤٠) »

« وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى . . . . . . (يوحنا ١٩ : ١٩) »

« وتألم . . . . (١ بطرس : ١ : ١١) »

« وقبر . . . . (أشعيا ٥٣ : ٩) و (متى ٢٧ : ٦٠) »

« وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب (رؤيا ١٤ : ٩) »
و (١ كو ١٥ : ٩) »

« وصعد إلى السموات . . . . (لوقا ٢٤ : ٥١) »

« وجلس عن يمين أبيه . . . . (مرقس ١٦ : ١٩) »

« وأيضا يأتى فى مجده . . . . (متى ٢٥ : ٣١) »

« ليدين الأحياء والأموات . . . . (١ عبرانيين ١٠ : ٤٢) »

« الذى ليس لملكه انقضاء . . . . (لوقا ١ : ٣٣) »

ونود أن ننبه إلى أن هذا التخريج ليس من عندنا ، وإنما هو كما خرج عليه المؤتمرون قرارهم ، وقدموه به ، محمولا بين يدى هذه المذكرة الإيضاحية ! (١)

وإذا جاوزت هذا التدبير ومافيه من تعسف وشطط بعيدين غريبين تجد أن الصورة التى رسمها القرار للألوهية ينقصها الوجه الثالث من وجوه التثليث ، وهو « روح القدس » !

فالإيمان الذى يبشر به هذا القرار هو إيمان بالأب ، والابن فقط . ! أما « الروح القدس » فهو مما دخل فى تجسد الابن من مريم العذراء ،وهو فى هذا الوضع قد يكون ملاك الرب « أو جبريل » أو كلمة الله أو « الابن » .

ونستطيع أن نتخذ من هذا القرار وثيقة تاريخية محققة للقول بأن « التثليث »

(١) انظر رسالة التثليث .

المسيحى لم يكن معروفا إلى سنة ٣٢٥ من ميلاد المسيح ،ولم يعترف المؤتمر المنعقد في هذا العام بغير الأب والابن !! .

كما نستطيع أن نقرر أيضا أنه إلى ذلك الحين لم يكن « المسيح » قد دخل ببينوته فى شركة مع الله على هذا النحو الذى يجعل منه « الله » مندمجا فى أقنوميه الآخرين: الأب وروح القدس . . وإنما غاية ما كان يتصور فى هذه البنوة أنها فرع عن أصل . وأنها إن دانت الإله فلن تكون هى الإله !

وفى هذا القرار إعلان صريح عن الله (الأب) بأنه خالق السموات والأرض أما (الابن)فلم يكن له فى خلق السموات والأرض يد !

ولكن المسيحية بعد هذا أصبحت تدين بأن الله (الأب) لم يخلق شيئا وإنما المسيح (الابن) هو الذى خلق كل شىء . . فأقنوم الابن هو القائم بعملية الخلق كما انتهى إلى ذلك معتقد المسيحية . . فيما بعد !

إن المسيحية إلى ما بعد منتصف القرن الرابع لم تكن قد استكملت حقيقتها بعد ، وما زال موقف المسيح متأرجحا مضطربا بين الإله والإنسان !

وإن الأمر ليحتاج إلى خطوة أو خطوات أخرى لسد هذه الفجوة العميقة التى تتذبذب فيها شخصية المسيح مترجحة مضطربة بين الإله والإنسان !

وليس يقوم لهذا الأمر إلا « مجمع مقدس » يسوى ألوان هذه الصورة المهزوزة ، ويحدد ملامحها !

وهذا ما قد كان فعلا !

فى سنة ٣٨١ م أمر الملك « تاودوسيوس » الكبير بعقد مجمع مقدس فى مدينة القسطنطينية،للنظر فى مقولة « مكونيوس » بطريك القسطنطينية ،التى كان ينادى بها فى محيط كنيسته ويذيعها فى أتباعه ، وهى أن « الروح القدس » مخلوق كسائر المخلوقات ! ! » .

وواضح من هذا أن أمر الروح القدس لم يكن قد استقر بعد ، وأصبح وجها من وجوه « الله » وأقنوما من أقانيمه ، متساويا مع الأب والابن فى الرتبة !

وقد اجتمع فى هذا المؤتمر مئة وخمسون أسقفا ، يمثلون جميع الهيئات المسيحية وكان من بينهم « تيموتاوس » بطريق الإسكندرية الذى أسندت إليه رياسة المجمع !

وانتهى المؤتمر بإدانة مكونيوس ومن كان على رأيه من الأساقفة.. ثم خرج المجمع بالمصادقة على قرار مجمع « نيقية » ثم إضافة نص جديد إليه فى شأن « روح القدس » .

وكان نص القرار ما يأتى :

« نعم (١) .

« نؤمن بالروح القدس . . . . (يوحنا ١٤ : ٢٦)

« الرب . . . . (٢ كو ٢ : ١٧ و ١٨)

« المحيي . . . . (رومية ٨ : ١١)

« المنبثق من الآب . . . . (يوحنا ١٥ : ١٦)

« نسجد له ، ونمجده مع الأب والابن . . . . (متى ١٨ : ١٩)

« الناطق فى الأنبياء . . . . (١ بطرس ١ : ١١)

« وبكنيسة . . . . (متى ١٦ : ١٨)

« واحدة . . . . (رومية ١٣ : ٥)

« مقدسة . . . . (افسوس ٥ : ٣٦)

« جامعة . . . . (يوحنا ١١ : ٥٣)

---

(١) و المراد « بنعم » فى صدر هذا القرار هو المصادقة على القرار السابق الذى اتخذه المجمع الاول فى نيقية .

« رسولية . . . . (أفسوس ٣ : ٣٠)»
ونعترف بمعمودية واحدة . . . . (أفسوس ٤ : ٥)»
« لمغفرة الخطايا . . . . (١ عبرانيين ٣ : ٣٨)»
« وننتظر قيامة الأموات . . . . (٣ عبرانيين ٣٤ : ١٥)»
« وحياة الدهر الآتى .. آمين . . . . . . (لوقا ١٨ : ٣٠)»

وقد جُمع هذا النص كسابقه من أشتات الكلمات الملتقطة من الأناجيل والرسائل ، والمنتزعة من مواطنها انتزاعا ، فى غير رفق ، أو تلطف ، لتلتقى هنا على غير إلف أو تعارف .

وفى هذا النص يظهر الوجه الثالث للثالوث المقدس ، ثم تبدأ المسيحية النظر فى الإله ذى الأقانيم الثلاثة نظرا فلسفيا لاهوتيا : تختلط فيه الفلسفة باللاهوت ، ويمتزج فيه الواقع بالخيال ، ويعمل العقل المسيحى فى جد وبراعة فى نسج ملحمة من أبرع الملاحم التى تصل السماء بالأرض وتخلط الله بالإنسان !

ولكن القصة لم تتم فصولا بعد . . .

فما زال هناك فجوات ، تنتظر المجامع المقدسة لتملأها ، بتلك الكلمات التى تلتقطها من شتيت الصفحات فى الأناجيل والرسائل .

ففى سنة ٤٣١ م أعلن « نسطور » بطريرك القسطنطينية قوله : إن العذراء لم تلد إلها متأنسا ، بل ولدت إنسانا عاديا ساذجا ، ثم حل فيه الإله بإرادته لا بالاتحاد ، فهو لهذا ذو طبيعتين وأقنومين .

وقد انقسم المسيحيون — أعنى الأساقفة والقساوسة — إزاء هذا الرأى ، فكان بعضهم فى جانب نسطور ، وكان بعض آخر فى الجانب المخالف له ، على حين وقف كثيرون موقف الحيرة والتردد .

ومن أجل هذا دعا الملك (تاوديوس) الصغير ملك القسطنطينية إلى عقد المجمع المقدس ، فحضره نحو مئتى أسقف ، وبعد مناقشات طويلة انتهى الرأى إلى القول : بتجسد الكلمة واتحاد الطبيعتين (اللاهوتية والناسوتية) بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ! !

والذى يلفت النظر فى مقررات هذا المؤتمر أنها لم تخرج مخرج المقررات التى صدرت فى المجمعين السابقين ، حيث لم تكن فى صورة دعوة إلى إيمان بحقيقة جديدة ،وإنما جعلت هذه المقررات مقدمة لقانون الإيمان ،وكأن المؤتمرين قدروا الخطر الناجم عن تبدل صور العقيدة وما يدخل على قلوب الناس وعقولهم من هذه الإضافات التى تحدث كلما حدثت أحداث وبرزت آراء . . فذلك من شأنه أن يجعل الناس يتهمون المقولات التى تلقى اليهم من جهة الدين ويتشككون فى إضافتها إلى السماء . . إذ لا تبديل لكلمات الله ـ نقول كأن المؤتمرين قدّروا هذا كله فلم يجعلوا مقراراتهم شيئا جديدا يدخل فى مجال العقيدة وإنما جعلوه مقدمة إلى العقيدة ومدخلا إلى الايمان !

وقد حملت هذه المقدمة ثلاث مقولات : عن العذراء ، والمسيح ،والثالوث . . وها هى ذى كما صدرت عن المجمع :

١ — تطويب العذراء :

« نعظمك . . . . (لوقا ١ : ٤٨)

« يا أم النور الحقيقى . . . . (لوقا ١ : ٤٣)و (ويوحنا ١ : ٩ : ١٠)

ونمجدك . . . . (مزمور ٩١ : ١٥)

« أيتها العذراء القديسة . . . . . . (أشعياء ٧ : ١٤) ولوقا (١ : ٢٧)

« لأنك ولدت لنا مخلص العالم كله . . . . (لوقا ٣ : ١١)

« أتى وخلص نفوسنا . . . . (لوقا ١٩ : ١٠)

٢ تمجيد السيد المسيح :

« المجد لك يا سيدنا . . . . (اشعيا ٤٣ : ٨)

« وللملكنا المسيح . . . . (لوقا ١ : ٣٣)

« فخر الرسل . . . . (غلاطية ٦ : ١٤)

« إكليل الشهداء . . . . (أشعيا ٣٨ : ٥)

« تهليل الصديقين . . . . (يوحنا ٨ : ٥٦)

« ثبات الكنائس . . . . (يوحنا ١٥ : ٣٤)

« غافر الخطايا . . . . (متى ٩ : ٣)

٣ — التبشير بالثالوث الأقدس :

« نكرز ونبشر . . . . (١ عبرانيين ١٠ : ٤٣)

« بالثالوث الأقدس . . . . (متى ٢٨ : ١٩)

« لاهوت واحد . . . . (يوحنا ٥ : ٧)

« نسجد له ونمجده . . . . (متى ٤ : ١٠)

« يارب ارحم — يارب ارحم . . . . (مزمور ٣٣ : ١)

« يارب بارك آمين . . . . (لوقا ٣٤ : ٥١)

والناظر فى هذه الأناشيد التى تمجد العذراء والسيد المسيح لا يجد فيهاشيئاجديدا عما سبقت إذاعته فى المؤتمرين السابقين ،بل إن المسيح يبدو هنا وكأنه إنسان خالص الإنسانية . . (فخر الرسل . . إكليل الشهداء . . تهليل الصديقين . . ثبات الكنائس . . عافر الخطايا ..) إنه لا وجه لألوهيته هنا ،ولا لشركته مع الإلـه فى الثالوث الأقدس .

كذلك ما جاء فى التبشير بالثالوث الأقدس .. لم يذكر أبا ولا ابنا ولا روح قدس ، إنما هو ثالوث مجمل ، مندمج بعضه فى بعض .

أما المشكلة التى أثارها نسطور فإنها لم تحل، ولم يصل المؤتمر إلى قول قاطع فيها.

والقرار الذى أصدره مجمع نيقية.. ثم أكمله مجمع القسطنطينية قد أحرج العقل المسيحى وألقى عليه عبئا ثقيلا يبهظه ويفتنه ، حين دفع به فى مواجهة الذات الالهية يحدق فيها ، ويحيط بها إحاطة كاملة تدرك كنهها.. والعقل ـ أى العقل — مهما بلغ من العلم والمعرفة فى قيد العجز المطلق أمام هذه الحقيقية المطلقة ، التى لاتحيط بها العقول مجتمعة ومتفرقة ، كما يعترف بذلك علماء المسيحية وفلاسفتها! فيحيلون الإيمان بتلك المقولات المتناقضة فى ذات الله ـ إلى التسليم بها تسليم عجز واستخزاء أمام تلك الأسرار التى لا تخضع للإدراك ولا تنزل على منطق العقل !

يقول صاحب رسالة التثليث :(١)

« وهذا الإله المتعالى عن الشبه والمنقطع النظير .. تعلّمنا التوراة عنه أنه واحد فى جوهر اللاهوت ذو ثلاثة أقانيم متعادلين متساويين فى جميع الأنعات ، والصفات والأعمال والكرامات الإلهية.

« ولهذا نؤمن بتوحيده من جهة الجوهر وبتثليثه من جهة الأقانيم » (١) .

ألست ترى أن هنا ثلاثة آلهة تطل بوجوهها . . ثلاثة متعادلين . . متساوين فى جميع الألقاب والصفات والأعمال والكرامات الإلهية ! ؟

ثلاثة آلهة على صورة واحدة . . ثلاث نسخ مكررة !

أليس إلها واحدا منها يغنى عن الاثنين الآخرين ؟ إنه لامعنى لوجودهما ، الذى لايضيف جديدا إلى الحقيقة الإلهية .

---

(١) رسالة التثليث / ص ٤٠

إن القول بثلاثة آلهة مختلفة الجوهر والعمل ، خير من هذا القول، إذ يوجد لكل إله عمل يعمله وفراغ يملؤه! إن كان لابد من هذا التعدد !

ثم إن فى هذه المقولة . . وهى مقولة المسيحيين جميعا — تقولا على التوراة التى لم تعرف ولم يعرف أتباعها هذه الوجوه الأقنومية للإله ، ولو كان ذلك من مقولات التوراة لكان اليهود أولى به ، وكان لأنبيائهم مواقف طويلة حياله .

يقول الدكتور وهيب عطا الله جرجس فى المؤتمر المسيحى العالمى بالقدس (فى أبريل سنة ١٩٥٩) ممثلا الكنيسة الأرثوذكية المرقسية باسكندرية .

« إن الإيمان الأرثوذكسى — كما تعترف به كنيستنا — هو أن ربنا يسوع المسيح كامل فى لاهوته ، وكامل فى ناسوته ، ومع ذلك لانجرؤ على القول بأنه إله وإنسان معا ، لأن هذا التعبير ينطوى على الشرك! وإنما نقول بالحرى إنه الإله المتجسد .. فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تاما ، فى الجوهر ، وفى الأقنوم ، وفى الطبيعة .. ليس هناك انفصال أو افتراق بين اللاهوت والناسوت فى ربنا يسوع المسيح . . بل إنه منذ اللحظة التى حل كلمة الله فى رحم السيدة العذراء اتخذ الأقنوم الثانى من الثالوث القدوس من دم — أى من دم العذراء — جسدا بشريا ذا نفس إنسانية ناطقة عاقلة ، واتحد بالناسوت الذى أخذه من القديسة مريم العذراء .

ثم يقول : « فالمولود من القديسة مريم إذن هو « الإله المتجسد » جوهر واحد شخص واحد ، أقنوم واحد ، طبيعة واحدة ، أو قل هو طبيعة واحدة من طبيعتين .. وبعبارة أخرى . . يمكن أن نتكلم عن طبيعتين من قبل أن يتم الاتحاد ! .

«أما بعد الاتحاد فهناك طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعتين . . . !!»

وهذا خلط عجيب تدور له الرءوس وتذهل العقول . .

إله ، وإنسان . . معا ؟ إله كامل فى لاهوته ، وإنسان كامل فى ناسوته ،

يلتقيان فى ذات واحدة ، أشبه بالتقاء الإنسان والحيوان فى صورة أبى الهول الفرعونى!!

ثم كيف يقال مع هذا « ليس هناك انفصال أو افتراق بين اللاهوت والناسوت فى ربنا يسوع المسيح؟» فأين الإله وأين الإنسان فى هذه الذات التى عرفت بالمسيح؟ يقولون : هو الإله المتجسد ! . . جوهر واحد أقنوم واحد . . طبيعة واحدة !

فلم إذن هذه التجزئة للجوهر الواحد ، والشخصية الواحدة ، والطبيعة الواحدة ؟ وهل يقبل الجوهر الواحد انقساما ؟ وهل يتفق مع كمال الشخصية هذا الازدواج ، الذى يذهب ببعضها يمينا وببعضها الآخر يسارا ؟

إله تجسد فى إنسان ، وإنسان يذوب فى إله . . فلا يمكن ـ والحال كذلك ـ أن يقال عن الذات المتولدة من هذا المزج الكيمائى إنها إله ، أو إنسان ، وإنما هى ذات جديدة تجميع صفات الإله ، وصفات الإنسان .

يقول ابن تيمية فى كتابه الجواب الصحيح . فى التعليق على مقولة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت : بمعنى أن كلا من اللاهوت والناسوت دخلا فى هذا الاتحاد بوجودهما كله كاملا . . الإله كامل فى لاهوته والإنسان كامل فى ناسوته . .
يقول ابن تيمية فى شجب هذا التناقض :

« فإن كان اللاهوت والناسوت قد اتحدا ـ كما زعموا ـ فقد استحالت صفة اللاهوت،واستحالت صفة الناسوت ، فلم يبق اللاهوت لاهوتا ولا الناسوت ناسوتا بل صارا جوهرا ثالثا . . لا لاهوت ولا ناسوت ! !

«وهم ـ أى القائلون بهذا الاتحاد ـ ينكرون هذا القول ـ أى مفهوم الاتحاد على هذا الوجه ،فإن رب العالمين لا يبدل وتستحيل صفاته بصفات المحدثات ، ولا ينقلب القديم ولا شىء من صفاته محدثا ، ولا يستحيل الرب القديم الخالق والمخلوق المحدث إلى شىء ثالث . . بل صفات الرب التى لم يزل ولا يزال موصوفا بها، لاتتبدل

ولا تستحيل ، فضلا عن أن تستحيل إلى أمر ثالث . . ثم إن هذا الثالث إن كان قديما خالقا صار هنا خالقان قديمان، وإن كان مخلوقا محدثا كان الخالق قد صار مخلوقا محدثا ، ومعلوم أن استحالة الخالق إلى خالق آخر أو مخلوق ، ممتنع، ظاهر الامتناع!»[١]

يريد ابن تيمية أن يقول إن القائلين باتحاد اللاهوت والناسوت ينكرون أن يتولد من اتحادهما ذات ثالثة ، ليست لاهوتا ولا ناسوتا ، ويقولون إن هذا الاتحاد لا يغير من صفات الله القديم . . لأنه اتحاد من نوع خاص فوق إدراك العقول !!

ثم يقول ابن تيمية :

« ومما يوضح هذا أن مامثلوا به من الحديدة المحماة بالنار، هي جوهر ثالث، يجرى على نارها مايجرى على حديدها، فإذا طرقت فالطرق واقع على نارها ، كما هو واقع على حديدها ، وكذلك إذا مدت ، وكذلك إذا ألقيت فى الماء ، فإن كان هذا التمثيل مطابقا لزم أن يكون ماحل بالناسوت قد حل باللاهوت، فيكون رب العالمين هو الذى صفع عندهم ، وبصق على وجهه ، وجعل الشوك على رأسه ، وضرب بالسياط ، وصلب ، وتألم ، ومات .. وهذا لازم لكل من قال بالاتحاد ، حتى النسطورية إن قالوا إنهما متحدان بالمشيئة بمعنى أن مشيئة هذا عين مشيئة هذا، بخلاف ما إذا قالوا إن مشيئته موافقة لمشيئته ، وليست إياها ! » . [١]

ويقول « يوطيخيا » — أحد علماء المسيحية وفلاسفتها — إن ربنا يسوع المسيح طبيعة واحدة !! ولكن على أساس أن ناسوت المسيح قد تلاشى تماما فى لاهوته ، واختلط به وانعدم فيه ! مثل نقطة الخل عندما تختلط بالمحيط ! ![٢] » .

إن المادة لا تفنى ! فكيف فنى شخص المسيح وانعدم ناسوته فى لاهوته ؟

(١) الجواب الصحيح : جزء / ٢ ص ٢٧

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية جزء / ٢ ص ٢٨ .

وإن نقطة الخل التى ذابت فى المحيط لم تفن ، بل هى موزعة فى مياهه .

ولا يرضى الدكتور وهيب بهذا القول الذى انتهى إليه مجمع « خلقيدونية » الذى يقول بألوهية المسيح ألوهية خالصة من كل شائبة ناسوتية . . فيقول :

« إن الكنائس الأرثوذكسية التى لا تعترف بمجمع « خلقيدونية » تقول إن السيد المسيح طبيعة واحدة ، تجتمع فيها جميع الصفات والخصائص الإنسانية ، وجميع الصفات والخصائص اللاهوتية ، بدون اختلاط ، وبدون امتزاج ، وبدون تغيير . . وهذا هو الإيمان الذى يجهر به الكاهن فى القداس القبطى عندما يتلو الاعتراف الأخير وهو يحمل الصينية المقدسة على يديه : « آمين . . آمين . . آمين . . آمن وأعترف إلى النفس الأخير هو الجسد الحى الذى أخذه ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح . من سيدتنا وملكتنا كلنا والدة الإله ، القديسة مريم ، وجعله واحدا من لاهوته ، بغير اختلاط ولا امتزاج ، ولا تغيير بالحقيقة ، أو من أن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة أو طرفة عين » .

وهذا الاعتراف يشخص النظر إلى :

أولا : الأب الذى يوجه إليه الكاهن هذا الخطاب ويحدثه عن ابنه الوحيد وما كان منه .

ثانيا : الابن الوحيد . . الرب . . الإله . . المخلص . . يسوع المسيح . .

ثالثا : السيدة مريم العذراء . . والدة الإله . . وقد أخذ ابنها جسده منها .

رابعا : الأب ، والابن ، والقديسة العذراء . . . ثلاث ذوات . . كل ذات منها لها وجود مستقل وعمل خاص فى هذه الملحمة الشعرية التى جمعت بينهم .

خامسا : اللاهوت والناسوت فى تلازم دائم لم يفترقا لحظة واحدة أو طرفة عين ، يعنى أن الناسوت واللاهوت على قدم المساواة ، من حيث القدم أو الحدوث !

وهذه متناقضات ، يرجم بعضها بعضا ..

فمن هذه الصورة لا يمكن أن يقوم إله واحد .. حيث تبدو العزلة واضحة بين الأب والابن الذى يتشكل ويتجسد ، على حين يظل الأب من غير تشكل أو تجسد ! .. وروح القدس — وهو الأقنوم الثالث فى الثالوث الأقدس — لا وجود له هنا .. فأين هو ؟

ويحاول الدكتور وهيب أن يجد لهذه المتناقضات وجها أو وجوها من الأعذار فيقول : « ولكن كيف صار هذا الاتحاد ؟ وكيف يكون بطبيعة السيد المسيح الواحدة صفات اللاهوت وصفات الناسوت معا بدون اختلاط ، وبدون امتزاج ، وبدون تغيير ؟ وكيف يكون للسيد المسيح صفات الطبيعتين ولا تكون له الطبيعتان ؟

ويجيب الدكتور على هذه الأسئلة التى تغلى بها مراجل الحيرة والبلبلة — يجيب عنها فى كلمة واحدة هى قوله :

« هذا ما لا نعرف ! ! »

ومن قال لا أدرى فقد أفتى كما يقولون !

ولكن الذى كان ينبغى أن يكون هو أن يقال ذلك القول من أول الأمر .. فلا نعرض للبحث فى ذات الله وفى تركيبها وتحليلها ، إذا كنا لا نستطيع أن نجيب على ما يعترض العقل من مشكلات فى عملية التحليل والتركيب !

إن الذى يشكل « فزورة » أو يصنع « لغزا » لا بد أن يعرف حل هذه الفزورة وذلك اللغز ، وإلا كان عمله هذا شعوذة وتدليسا وادعاء بعلم ما لم يعلم !

يقول الدكتور وهيب — فى الإجابة على حل هذه الألغاز والطلاسم : « هذا ما لا نعرف . إنه سر من الأسرار الإلهية .. لا يمكن أن نفهمه أو نعيه أو نحتويه فى عقولنا .. من هنا سمى فى الاصطلاح الكنسى بسر التجسد الإلهى ..

فنحن نؤمن بنوع من الاتحاد يفوق كل فهم بشرى وكل تصور ! ! » .

يا سبحان الله ! !

وإذا كان هذا سرا من الأسرار الإلهية . . لا يمكن أن نفهمه أو نعيه ، أو نحتويه فى عقولنا . . فكيف نبيح لعقولنا الخوض فيه ؟ وكيف نلقى بها فى أعماق هذه الأسرار الإلهية التى لا سبيل إلى فهمها ، أو وعيها أو احتوائها ؟ وما الذى يحملنا على هذا ؟ وما الضرورة الملجئة إلى وضع عقولنا أمام هذه الأبواب الموصدة ، تخبط فيها حتى تنفلق وتتمزق ؟ ما جدوى هذا كله ؟ وما حصيلته ؟ لاشىء إلا البوار والخسران والهلاك !

يقول الدكتور وهيب :

« فالكنائس الأرثوذكسية — غير الخلقيدونية — تؤمن بلاهوت المسيح كما تؤمن أيضا بناسوته . . ولكن المسيح عندهم طبيعة واحدة مع ذلك ! .

«وقد يبدو فى هذا نوع من التناقض ، ولكن على الرغم مما يبدو فى هذا من تناقض منطقى عقلى !! إلا أن كنيستنا لا ترى فيه شيئا من التناقض!! لأنها تنظر إلى طبيعة السيد المسيح نظرة صوفية روحانية ينحل فيها كل ما يبدو أمام الفكر البشرى أنه متناقض أو محال . . هذه التجربة الصوفية أو الروحية تعلو على كل تناقض عقلى أو فلسفى . . فيها لا يسأل المسيحى: لم ؟أو كيف ؟

« إن فى ديانتنا أسرارا نؤمن بها ، ونقبلها بكل يقين وإيمان ! ! لا لشىء إلا لأنها أعلنت لنا من الله !! ونحن نؤمن بها على الرغم من معارضتها لحواسنا ومناقضتها لعقلنا المادى !! لا لشىء إلا لأننا أيقنا أنها من الله : وكما نؤمن بوجود الله وأنه قادر على كل شىء ، كذلك نؤمن بأسرار ديانتنا من دون أن نكون فى حاجة إلى أن نسأل : لم ؟ وكيف ؟ »

ثم يقول :

«ولا شك أن العقل الفلسفى لا يستطيع أن يقبل هذا الإيمان الصوفى .. ولكن العقل الفلسفى ليس فى الواقع عقلا روحيا على الحقيقة . . إنه عقل لا يؤمن إلا بقدر مقاييسه وحدها ، . والديانة بالنسبة إلى العقل الفلسفى هى علم يمكن أن يوضع على قدم المساواة مع أى فرع من فروع المعرفة الإنسانية !

« والعقل الفلسفى يحاول أن يخضع الديانة لذات المنهج العلمى الذى تخضع له كل فروع المعرفة المادية .. ومن هنا فقد يدخل إلى الدين مناهج التحليل أو التصنيف والاستنباط والاستقراء وما إليها ، من أجل أن تجعله أكثر إساغة وقبولا للعقل الفلسفى ! !

« ويا للأسف ! ! إننا لا نستطيع بهذا المنهج فى معالجة المسائل الدينية والحقائق اللاهوتية ـ أن نفهم روح الديانة . . فعندما يتدخل العقل تقف التجربة الروحية الصوفية ، بل وتختفى !

« إن لنا أن نستخدم عقولنا إلى حد معين ، وحينئذ يجب أن يقف العقل ، ويسلم قياده للتجربة الروحية الصوفية (١) » .

وإذن فمطلوب من كل مسيحى يريد أن يعرف دينه أن يكون صوفيا ، يتجرد من عقله ،وينخلع عن تفكيره المادى ، ويُقبل على الرياضة الروحية ، ويعيش فيها، حتى تنفتح له مغالق الأسرار وتنزاح الحجب التى تقف بين العقل وبين الدخول إلى حمى هذه الأسرار !

وندع الواقع ينطق بما يمكن أن تحققه هذه الدعوة فى محيط الحياة الإنسانية .. فهل تحتمل الحياة أو يتقبل الناس أن يلبسوا هذه الحياة الصوفية وأن يعيشوا فيها ؟

---

(١) من كتاب دعوة الحق أو الحقيقة بين المسيحية والإسلام للأستاذ منصور حسين عبد العزيز ص ٢٧٣ وما بعدها .

وهل إذا قبلوها وعاشوا حياتهم فيها تنفتح لهم مغالق الأسرار وترفع دون عقولهم الحجب ؟ ذلك إن وقع — وهيهات — للقليل النادر من الناس ، فإنه لا يقع للكثرة الكثيرة منهم !

* * *

وندع هذا لننظر نظرة مباشرة فى مقولات المسيحية فى التثليث ، وفى كل وجه من وجوه هذا المثلث المقدس — الأب ، والابن ، وروح ، القدس ، لنرى كيف صار الحال بهذه الوجوه الثلاثة بعد أن وضع بولس الرسول الملامح الأولى لها فى رسائله .

ولكن قبل أن ننظر نظرا مباشرا فى الأقانيم الثلاثة يحسن أن نقف وقفه قصيرة عند كلمة « أقنوم » لنعرف دلالتها اللغوية والاصطلاحية !

الأقنوم..ماهو؟

ولا نلجأ إلى معاجم اللغة العربية نسألها معنى هذه الكلمة ، فإن هذه الكلمة عربية على لغتنا ، وحديث المعاجم عنها إنما هو نقل عن الاستعمال اللاهوتى أو الفلسفى الذى لها فى اللاهوت أو الفلسفة .

وإذن فمن المفيد هنا أن نأخذ معناها من أهل الذكر فى اللاهوت المسيحى ، فهم أعرف بها وبالمفهوم الذى لها .

يقول الأستاذ عوض سمعان فى كتابه: « الله بين الفلسفة والمسيحية » شارحا كلمة أقنوم:

« الأقنوم » أو « القنوم » كلمة سريانية يطلقها السريان على كل من يتميز عن سواه ، على شرط أن يكون مما شخص وله ظل . . . ولذلك فإنه يراد بالأقنوم التعيين ! .. وقد وردت فى اللغة اللاتينية كلمة تشبه هذه الكلمة فى النطق تماما ، وهى

«أقوانيمتس» ومعناها الصدارة . . وقد تعنى أيضا : » الانسجام فى الفكر والشعور والصفات الطيبة .

«أماالقول بأن كلمة « أقنوم » معناها « أصل» كما ورد فى بعض كتب الفلسفة فليس بصحيح ،إذ فضلا عما تقدم من دليل لغوىفإننا لانؤمن بأن الأقانيم هم«أصول» العالم ،لأنهم تعين الله ، أو الله معينا ، والله دون سواه هو أصل العالم ومبدعه ».

وينسى الأستاذ عوض أن قوله «هم» أصل العالم يشير إلى جماعة لا إلى واحد ، لأن « هم » ضمير جماعة العقلاء . . وقوله « هم أصل العالم » لا « أصول العالم » لا يغير من أن الأقانيم جماعة لا واحد ،ولو كانوا واحداًلأمكن أن يقول « هو » ولكن ذلك ينقض القول بأنهم ثلاثة !

ثم يقول :

« والقول بأن كلمة « أقنوم » معناها « أصل » منقول كما أعتقد من قاموس (مختار الصحاح ص ٥٥٣) . فقد جاء فيه : « الأقانيم : الأصول ..وواحدها أقنوم » ومع كل فإن صاحب المختار نفسه قد اعترف أنه لم يتحقق من مصدر هذه الكلمة فقد قال فى الصحيفة المذكورة : « وأحسبها رومية » والواقع أنها ليست رومية كما يتضح لكل من له إلمام باللغة اليونانية (التى يسميها صاحب المختار الرومية) كما لايزال يسميها بعض الناس إلى الوقت الحاضر . .

ثم يقول: « وليس لكلمة أقنوم مرادف فى اللغة العربية أو غيرها من اللغات يؤدى معناها تماما، لأن كلمة شخص ومايراد فها فى اللغات الأخرى تدل على الذات المنفصلة عن غيرها،والأمر ليس كذلك من جهة كلمة « أقنوم » وقد أشار إلى هذه الحقيقة « إيليا » مطران نصيبين فى القرن الحادى عشر ، فقال فى إحدى رسائله : « ليس فى اللغة العربية لفظ يعبر به عن الموجود الذى كيانه ليس عاما (أى الذى

ليس شريك فى كيانه) أو ذا عرض (أى الذى له مظهر عادى) ولذلك عبرنا عنه بالسريانية بكلمة « أقنوم » .

ثم يتابع الأستاذ عوض حديثه عن الأقنوم فيقول :

« فكلمة الأقانيم تختلف كل الاختلاف عن كلمة الأشخاص من ناحيتين رئيسيتين :

« الأولى : أن الأشخاص هم الذوات المنفصل أحدهم عن الآخر — أما الأقانيم (فهم) ذات واحدة .هى ذات الله .

« الثانية : أن الأشخاص وإن كانوا يشتركون فى الطبيعة الواحدة إلا أنه ليس لأحدهم ذات خصائص أو صفات أو مميزات الآخر .

« أما الأقانيم — فمع « تميز » أحدهم عن الآخر فى الأقنومية — هم واحد فى الجوهر بكل صفاته وخصائصه ومميزاته لأنهم ذات الله الواحد » (١) .

وهذه الفقرة الأخير من كلام الأستاذ عوض هى خلاصة العقيدة المسيحية فى مفهومها لله ، وهى من جهة أخرى « اللغز » الذى لم تجد العقول وجها تفهمها عليه .

« الأقانيم مع تميز أحدهم عن الآخر فى الأقنومية هم واحد فى الجوهر . . بكل صفاته وخصائصه ومميزاته ! ! »

كيف هذا ؟ . . . مع تميز أحدهم عن الآخر فى الأقنومية .. هم واحد ؟

كيف مع هذا التميز الذى لأحدهم عن الآخر يكونون واحدا ؟ وواحدا فى الجوهر ، وفى كل الصفات والخصائص والمميزات ؟

وأين التميز الذى يختص به كل واحد ؟ وفى أى شىء يكون ؟

إنهم يتميزون ، ولايتميزون !!

---

(١) الله بين الفلسفة والمسيحية للأستاذ عوض سمعان ص ١٠٢

ولاداعية لاجتماع هذا التناقض إلا لأنهم ذات الله الواحد !

وكيف تجتمع فى ذات الله ثلاثة ذوات متميزة ، ثم تكون واحدا ؟

يقول الاستاذ عوض فى مقدمة كتابه : (الله .. ذاته ونوع وحدانيته)

« إن الكتاب المقدس لاينبيء عن وحدانية الله فحسب بل إنه ينبيء أيضا عن كنه ذاته التى تسمو فوق العقل والإدراك سموا لاحد له . . » .

ولمن إذن أعلن الله كنه ذاته ؟ وإذا كان العقل لاسبيل له إلى إدراكها فما الحكمة فى إعلان حقيقة لاتدرك ؟ وبأى وسيلة إذا لم يكن العقل - يستطيع الإنسان أن يتعامل مع هذه الحقيقة ويجعلها له معتقدا ودينا !

ثم يقول الأستاذ عوض :

« فهو - أى الكتاب المقدس - لاينبيء فقط أن الله لاشريك له ولانظير، وأنه لا أجزاء فيه ولاتركيب ، بل ينبيء كذلك أنه ليس « أقنوما » واحدا بل ثلاثة أقانيم (١) !! وحقيقة وحدانية الله يطلق عليها « التوحيد » وحقيقة كونه ثلاثة أقانيم يطلق عليها التثليث .

ثم يقول أيضا :

وقد حاول كثيرون من رجال الفلسفة توضيح إعلانات الكتاب المقدس عن ذات الله أو بالحرى عن ثالوث وحدانيته فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ! ! لأنهم انحرفوا عن أقواله واعتمدوا على عقولهم وحدها » (٢) .

ونسأل مرة أخرى :

إذا كان الفلاسفه قد عجزوا عن فهم هذه الإعلانات التى أعلنها الله فى الكتاب

(١) لاحظ أن الكتاب المقدس - التوراة والأناجيل - لم يذكر شيئا مطلقا عن الأقنوم أو الأقانيم .

(٢) الله . . ذاته ونوع واحدانيته . . للأستاذ عوض سمعان (مقدمة الكتاب) .

المقدس عن كنه ذاته ، فمن يفهمها إذن ؟ وما موقف عقول عامة الناس إزاءها ؟

وليس لهذا جواب إلا أن نردد قول أبي العلاء :

هـذا كلام له خـبىء معناه ليست لنـا عقول

وندع الأناجيل ، ورسائل الرسل وما رأينا فيها من مقولات فى قضية التثليث، لنقف وقفة قصيرة مع التوراة وملحقاتها، لنرى إن كان فيها مستند لهذه القضية يصلح أن يؤخذ به كحجة لها ..

ذلك أن أصحاب التثليث يؤمنون بالتوراة وملحقاتها ويعدونها كتابهم المقدس مع الإنجيل ، ويعتمدون عليها اعتمادا يقينيا فى مقولاتهم عن المسيح ومايقولون فيه !

* * * *

الفصل الثالث

التوراة التثليث

حاول مؤسسو اللاهوت المسيحى أن يقيموا دعائم هذا اللاهوت على أسس من المقولات المسلم بها عند أصحاب الشريعة السماوية القائمة يومئذ ، وهى مقولات التوراة، وذلك لتكون هذه الأصول هى الركيزة التى يبنى عليها كل قول فى المسيح والمسيحية ، حتى يطمئن الناس إلى هذه الأقوال ، ويقبلوا ماتحمل فى طياتها من تصورات ! .

ولهذا فقد عمد دعاة المسيحية منذ قيامها إلى « التوراة » وملحقاتها ، واتكئوا عليها بكل كيانهم ليجدوا منها الشاهد الذى يشهد لهم بما يقولون فى المسيح من مقولات لم يعرفها أصحاب التوراة وأتباعها ! ولم يقولوا بها . . !

وهذا من أعجب الأمور . .

فأهل التوراة لم يعرفوا «التثليث» ولا الأقانيم ،ولا اعتقدوا يوما هذا المعتقد ، ولاحدثهم به نبى من أنبيائهم ، ولا كان لهم نظر فيه ولا علم به !

ثم بعد أكثر من ألفى سنة يجىء « المسيح » ليكون تفسيرا جديدا للكتاب «المقدس» ،يكشف فيه عن أسرار وخفايا ، لم يكن للمؤمنين بالتوراة ـ التفات إليها ، ولاعلم بها !

وندع هذا الآن !

وننظر فيما تقول التوراة عن « التثليث » أوعلى الأصح ماينطقها به القائلون بالتثليث عن هذا الأمر !

ماذا فى التوراة عن التثليث :

لقد نظر المبشرون بالمسيحية إلى التوراة نظرا راصدا لخطوات المسيح وسكناته وكلماته . . فأحالوا كل كلمة فيها حديثا عاليا ، يحدث عن المسيح ، ويعلن عن بنوته لله ،وألوهيته ، وتجسده ، وصلبه ، وقيامته ! .

وفى قضية التثليث التى ننظر فيها هنا ، نجد ذلك واضحا أشد الوضوح ، .

فإذا قالت التوراة :

(ا) « وقال الله نصنع الإنسان على صورتنا كشبهنا » (تكوين ١ : ٣٦)

كان ضمير الجمع (نا) الذى تحدث به الله عن نفسه ـ كان ذلك عند المسيحيين إعلانا عن التثليث ـ فإن الله لم يتكلم بصيغةالجمع إلا باعتباره ثلاثة فى واحد ! . .

(ب) وإذا قالت التوراة :

« فقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفا الخير والشر » (تكوين ٣ : ٢) . . . .

كان المتكلم هو الله.. ممثلا فى أقانيمه الثلاثة !

(جـ) وإذا قالت التوراة :

« منذ وجوده أنا هناك . . والآن السيد الرب أرسلنى وروحه » (أشعياء ٤٧ : ١٦) .

فمفهوم هذا عند أتباع المسيح ـ أن ضمير « أنا » يشير إلى « الابن » و«السيد الرب» يشير إلى الأب « وروحه » هو « روح القدس » !

(د) وإذا قالت التوراة على لسان موسى مخاطبا الأسباط الاثنى عشر ، معلنا فيهم وصاة الله لهم :

« وهكذا تباركون إسرائيل قائلين لهم :

« يباركك الرب ويحرسك ..

« يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك ! . .

« يرفع الرب بوجهه عليك ويمنحك سلاما . .

« فيجعلون اسمى على بنى إسرائيل ، وأنا أباركهم . .

ـ كان تأويل هذا ـ عند المبشرين بالمسيحية . . هكذا :

« الله الأب يُظهر محبته ويحرسهم .

« وربنا يسوع المسيح يُظهر نعمته ويرحمهم !

« والروح القدس يظهر شركته ويمنحهم سلاما (١) .

هـ ـ وإذا قالت التوراة على لسان يعقوب وهو يبارك حفيديه :

« الله الذى سار أمامه أبواى : إبراهيم واسحق . .

« الله الذى رعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم :

« الملاك الذى خلصنى من كل شر :

« يبارك الغلامين . .   (تكوين ٤٨ : ١٥ : ١٦)

إذا قال يعقوب هذا كان مفهومه عند المثلثين هكذا :

شخص يعقوب ببصره إلى الله قائلا : « الله الذى سار أمامه أبواى إبراهيم وإسحق !

وأشار للروح القدس قائلا : الله الذى رعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم !

« وأشار للابن قائلا : « الملاك الذى خلصنى من الشر . .

« وأشار إلى الثالوث بصيغة الفرد قائلا : « يبارك الغلامين (٢) .

---

(١) رسالة التثليث والتوحيد ، ليست منصور ص ٣٧

(٢) المصدر السابق ص ٤٣

وهكذا تحمل كل كلمة فى طياتها محاميل غريبة وتلد مواليد عجيبة .. يستولدها المثلثون : من غير أب ، وبلا حبل !

ولا ندرى كيف يمسك عقل الإنسان ــ أى إنسان ــ هذه الوجوه الثلاثة لله ! فيراه مرة أبا، ويراه مرة ثانية ابنا، ويراه مرة ثالثة روح القدس: ويخاطب كل واحد منها خطابا خاصا ،ويعنيه وحده بحاجة يلتمسها منه ويرجوها عنده ــ لا ندرى كيف يكون هذا ثم يعود العقل بعد ذلك فيخلط هذه الوجوه ويضرب بعضها ببعض ليقيم منها وجها واحدا ، هو الله ؟

وهل كان يعقوب حقا يتعامل مع الله على هذا الأسلوب . . . يفرقه ثم يجمعه ؟ ويلقاه أول الطريق ثلاث ذوات ثم يلتقى به فى آخر الطريق ذاتا واحدة ؟

فأى إله هذا ؟

وإذا كان على تلك الصفة . . فأين العقل الذى يحتمل هذه المفارقات البعيدة ويؤلف بينها ؟

وكلمة واحدة لا يحتمل الموقف هنا غيرها . . وهى أن التوراة والأسفار الملحقة بها، لم تقل شيئا ــ تصريحا أو تلميحا ــ من تلك المقولات التى يضيفها إليها أصحاب التثليث ويحسبونها عليها ويعدونها حجة سماوية تشهد للتثليث ، وتقيم وجهه !

* * *

هذا ، ولما كان أصحاب التثليث لا يقفون عند «الكتاب المقدس» فى الاستشهاد لعقيدة التثليث ، بل حاولوا أن يتخذوا من القرآن الكريم شاهدا يشهد لتلك العقيدة، ويزكيها ــ فقد كان لزاما علينا أن نستمع لشهادة القرآن وأن نقيمها على الوجه الذى ينطق به .

* * *

الفصل الرابع

القرآن والتثليث

الإسلام والوثنية :

كان أول وجه اصطدم به الإسلام فى دنيا الناس،هو هذا الوجه الكريه السفيه الجهول . . المطل من الوثنية العربية ، حيث كان الناس فى جاهلية عمياء ، أسلموا فيها وجودهم إلى تلك الدمى من الأصنام والأبداد ، يطوفون بها، ويضرعون بين يديها ، فى كل أمر ينوب ، ولكل حدث يُتوقع أو يقع !

لقد تحول الجهل وتطاوُل الزمنِ بالأمة العربية عن دين جدها الأكبر «إبراهيم» وأبيها الأول « إسماعيل » . . عليهما السلام . . إلى تلك الوثنية الغليظة الجافية . . فنسوا الله الذى عرفوه وعبدوه ، وتعلقوا بهذه الأحجار المنحوته وتلك الخشب المنجورة، يعبدونها من دون الله،ويضرعون بين يديها،فى ذلة مخزية،واستخزاء فاضح !

أما الله ــ سبحانه وتعالى ــ فلم يبق له فى ضميرهم إلا خيالات باهتة ، وإلا ظلال مضطربة ، وإلا خيوط واهية ،تشد هذه الآلهة الصماء إليه ، وتقيم تلك الربات وهذه الأرباب شفعاء للناس عنده . . « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ! ! »

فكان على الدعوة الإسلامية أن تجلى هذا الضلال عن العقول ،وأن تصحّح نظرة العرب إلى الله ، وأن تقيم وجوهم إليه وحده ، بعد أن تصفى هذه التركة المكدسة من الأحجار والأخشاب ، وأن تحطمها بأيدى عابديها ، ليكون ذلك شاهدا عليهم من أنفسهم أنهم كانوا فى ضلال مبين .

وقد أدركت الدعوة الإسلامية غايتها من هذا الأمر ، فحطم العرب بأيديهم

آلهتهم تلك ، وطمسوا معالمها ، ودخلوا فى دين الله ، ووجهوا وجوههم إلى رب الأرباب وحده ،لا شريك له !

الإسلام والنصرانية :

وفى الجزيرة العربية ـ غير مشركى العرب ـ التقى الإسلام بأهل الكتاب من اليهود والنصارى . . وكان له مع كلا الفريقين موقف كشف به الإسلام ما دخل على دين هؤلاء وهولاء من مدعيات ، غيرت وجه الدين ، الذى ارتضاه الله لعباده !

وقد سجل القرآن الكريم على الفريقين ما ابتدعوا وحرفوا ، كما سجل عليهم موقفهم من الإسلام ، ومقولاتهم فى دين الله !

وقضية الإسلام الأولى هى « **التوحيد** »..توحيد الله وإخلاء العقول والقلوب من كل معبود غيره !

وفى الفرق والجماعات التى التقى بها الإسلام من اليهود والنصارى شرك ظاهر أو خفى . . حيث كان اليهود يرون أنهم أبناء الله وأن بينه وبينهم نسبا ، كما كان النصارى يدينون بالمسيح إلها يعبدونه من دون الله.

واليهود على ما حرفوا وبدلوا فى كتابهم ظلوا مؤمنين بإله واحد ، وإن كان تصورهم له معيبا ناقصا ، إذ اعتبروه إلههم من دون الناس جميعا ، ثم ـ من جهة أخرى — أضافوا أنفسهم إليه إضافة الأبناء إلى الأب إضافة نسب وقرابة !

أما أتباع المسيح فقد كان ما وجده الإسلام فيهم من مقولات عن المسيح أمرا ينبغى أن يلقاه لقاء صريحا مواجها ،إذ كان لا يختلف كثيرا عما كان عليه العرب الجاهليين من وثنية وشرك بالله !

رأى الإسلام فى المسيحية الإله متجسدا فى شخص بشرى . . هو المسيح .

ورأى كذلك المسيحَ الإله المتجسد يُدعى ابنا لله .

فهناك إذن إلهان : الله وابنه . . أو الأب والابن . .

ثم رأى كذلك أما تلد إلها . . هى مريم . . وهى بهذه الصفة إله أو إلهة أيضا .

وإذن فالآلهة ثلاثة . . لا اثنان .

وقد واجه الإسلام هذه المقولات جميعها وعدها كفرا صُراحاً . .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم . . قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا (١) » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٢) » .

وكان على الإسلام فى مواجهة هذه العقيدة فى الله — أن يلقاها بما عنده من مفهوم الألوهية الخالصة من كل شائبة ، من شوائب التجسيد أو التحديد أو التعدد !

وقد كان من تدبير الدعوة الإسلامية فى هذا :

أولا : إزالة كل شبهة فى ذات الله ، من حيث وحدانيته وتنزيهه عن الشريك ، والصاحبة ، والولد .

ثانيا : إزالة الشبهات التى قامت حول المسيح فى ميلاده من غير أب ، وفى المعجزات المذهلة التى حملها على لسانه وبين يديه !

---

(١) المائدة : ١٧

(٢) المائدة : ٧٣

وسنرى فيما يأتى كيف كان موقف الإسلام فى هذين الأمرين، وكيف كانت حجته على مخالفيه فيهما.

ذات الله ووحـدانيته :

ففى مجال إزالة الشبهة فى ذات الله وفى وحدانيته، كانت دعوة الإسلام كلها قائمة وراء هذه الحقيقة، لتقريرها، وترسيخ أساسها فى العقول والقلوب.. وإنزالها فيهما فى مواطن اليقين والاطمئنان.. بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة.. فما خلا موقف من مواقف القرآن من غير أن يذكّر بالله، ويرفع الأبصار والبصائر إليه، حيث تشهد جلالته وعظمته وحكمته، وقدرته: فيما أبدع وصور على صفحات هذا الوجود، من آيات حكمته وقدرته.

« قل هو الله أحد.. الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد(١) ».

« وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولىٌّ من الذل » (٢).

« ذلكم الله ربكم.. لا إله إلا هو.. خالق كل شىء فاعبدوه.. وهو على كل شىء وكيل.. لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (٣) » « الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت (٤) ».

ولم يكتف القرآن بهذه الأحكام التقريرية، يدعو إلى تلقيها والإيمان بها من غير مستند ولا دليل.. إذ كانت من الوضوح والانكشاف بحيث لا يحتاج معها الإنسان العاقل الرشيد إلى أكثر من الإلفات إليها، والتذكير بها ـ لم يكتف القرآن بهذا، بل وضع أمام العقل ميزانا مستقيما عادلا يزنها فيه، حتى يرى رأى العين فرق

---

(١) الإخلاص
(٢) الإسراء : ١١١
(٣) الأنعام : ١٠٢
(٤) الأعراف : ١٥٨

ما بين النور والظلام، وفيصل ما بين الحق والباطل ، وبُعدما بين الخالق والمخلوقين!

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إلٰه . . إذن لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضُهم على بعض [١] » .

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. فسبحان الله رب العرش عما يصفون [٢] »

إن العقل ليسلم زمامه لهذا المنطق الذى لا يقبل جدلا .

فلو كان مع الله إلٰه أو آلهة أخرى لما استقر لهذا الوجود نظام ، بل ولما بقى له وجود . . إذ لا بد من منازعة ، ومطاولة ، ومنافسة ، ولكان لكل إلٰه متجه ومذهب ، ولكان لكلٍّ منزع إلى مكان القيادة والزعامة . . « إذن لذهب كل إلٰه بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » .

وإذن فلابد من برهان قاطع ملزِم ، يُقنع العقل أن يقبل إلٰهاً أو آلهة مع الله.. وإلا فهو الغَرر والمخاطرة بالتسليم لمن لا يُعرف شىء من أمره !

« ومن يدع مع الله إلٰهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه . . إنه لا يفلح الكافرون [٣] » .

والبرهان الذى يدعو القرآنُ العقلَ إلى التماسه لقبول إلٰه أو آلهة أخرى مع الله، أو رفض ذلك ــ هو إمعان النظر فى هذا الوجود، وفى تدبر ما فيه من نظام وإحكام وإبداع . . ثم مقايسة ذلك بما فى طوق غير الله أن يخلق أو يدبر .

استمع إلى هذه الآيات التى تنطق عن ذات الله ، وتحدث عن قدرته وتشهد بتدبيره وحكمته .

---

(١) المؤمنون : ٩١ (٢) الانبياء : ٢٢

(٣) المؤمنون : ١١٧

« أمّن خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة . . ما كان لكم أن تنبتوا شجرها .. أإلٰه مع الله ؟ . . بل هم قوم يعدلون ! (١) » .

« أمّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ؟ . . أإلٰه مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون (٢) » .

« أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإلٰه مع الله ؟ . . قليلا ما تذكّرون (٣) » .

« أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بُشرا بين يدىْ رحمته؟ أإلٰه مع الله ؟ . . تعالى الله عما يشركون (٤) .

« أمن يبدأ الخلق ثم يعيده. ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإلٰه مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (٥) » .

هذه معارض لقدرة الله، يعرض فيها ما أبدعت يد القدرة من آيات ، وما أخرجت من نعم، وما بثّت من مخلوقات ، وقد حملت كل معروضة بين يديها لافتة ، تَلقَى كل من ينظر فيها ـ بهذا السؤال التقريرى : لمن أنا ؟ من صورنى وأبدع فيما صور ؟ وتتلجلج ألسنة فلا تدرى ما تقول . . وتتحرك ألسنة فتنطق بالحق ، وتلتوى ألسنة فترمى بالباطل ! ويجىء صوت علوى يملأ أسماع العالمين : « أإلٰه مع الله ؟ .. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ؟.. بل أكثرهم لا يعلمون . . قليلا ما تذكرون.. تعالى الله عما يشركون .. ولا يكتفى القرآن بهذه المعارض التى تبدأ مجهولة الصانع

(١) النمل : ٦٠ (٢) النمل ٦١
(٣) النمل : ٦٢ (٤) النمل ٦٣ .
(٥) النمل ٦٤ .

ثم تنتهي مضافة إلى الله .. بل يجيء بمعارض أخرى يبدو فيها المعبودون من دون الله وكأنهم مدعوون إلى امتحانِ حولِهم وقدرتهم إلى جانب حول الله وقدرته ... فلا يكون إلا العجز والاستخزاء !

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة . . من إله غير الله يأتيكم بضياء . . أفلا تسمعون ؟

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة.. من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون .. ؟

«ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » (١) .

« قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده . . فأنّى تُؤفكون ؟ » (١) .

« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله . . أروني ماذا خلقوا من الأرض . أم لهم شرك في السموات ؟» (٣) .

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم ، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ؟ (٤) » .

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون(٥) » .

وهكذا تتعدد معارض الامتحان التي تنكشف فيها أحوال تلك المعبودات ،

---

(١) القصص : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣

(٢) يونس : ٣٤ — (٣) فاطر : ٤٠

(٤) الأعراف : ١٩٤ — (٥) الأحقاف : ٥

وتظهر لعابديها فى قيود العجز والضعف : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .. ضعُف الطالب والمطلوب . »

هذا فى مجال الدعوة إلى وحدانية الله . . دعوة عامة إلى أهل الكتاب وغير أهل الكتاب . . حيث الطريق واضح مستقيم، لكل من صحب عقله ، ورزَقه الله حسن الانتفاع به .

أما فى مواجهة أهل الكتاب مواجهة خاصة ، فقد نبه القرآن إلى أن رسل الله الذين حملوا رسالات السماء التى أمرهم بتبليغها ، لن يكون لهم أبدا أن يخونوا هذه الأمانة ، وأن يدْعوا الناس إلى تأليههم وعبادتهم من دون الله .. إن ذلك لا يكون أبدا من رسول تخيره الله لتلك الأمانة ، وإن ذلك إن يقع ـ ولن يقع أبدا ـ ففيه اتهام لله بالعجز والجهل فى حسن اختيار رسله ، وعصمتهم من الزيغ والضلال . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا !.

وفى هذا يقول الله سبحانه : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقولَ للناس كونوا عبادا لى من دون الله » (١) .

وهذه الآية تشهد شهادة قاطعة بأن الرسل قد أدّوْا رسالات الله على وجهها ، وأنهم بلّغوا ما أمروا به .. من غير تبديل أو تحريف .

والدعوة إلى وحدانية خالصة من كل شائبة، هى فى المقام الأول من مهمة الرسل .. فإذا ادعى قوم أنهم على دين سماوى ، وأن بأيديهم كتابا منزلا من عند الله ، ثم كان لهم فى الله ما يُدخل اللبس والإيهام فى ذاته ، أو التعدد والشرك فى وحدانيته — فالتهمة قائمة على هؤلاء القوم أنهم بدلوا وغيروا فى دين الله ، وما أنزل على رسوله !

---

(١) آل عمران : ٧٩

وتمهد الآية السابقة تمهيداً مباشرا لما يقال فى المسيح وألوهيته . . إذ هى تنفى نفياً قاطعا أنّ أحداً من أنبياء الله لن يكون داعية فى الناس أنه إله أو ابن إلـه ، ثم هى تنفى ضمنا أن يكون المسيح قد ادعى لنفسه هذه الدعوى التى ينقلها عنه رواة الأناجيل والرسل والمبشرون بدعوته ، فى رسائلهم التى ضُمّ عليها (العهد الجديد) .

ومعنى هذا أنه لا يُلتفت إلى أى شىء ينسب إلى المسيح مما يشم منه رائحة دعوى الألوهية من قريب أو بعيد . . إذ عصمه الله كما عصم سائر الرسل والأنبياء ، من أن يقعوا فى هذا الضلال ، وأن يُلقوا بأيديهم إلى التهلكة وهم الذين جاءوا لاستنقاذ الإنسانية من ضلالها ، وإخراجها من الظلمات إلى النور .

المسيح ومولده من غير أب :

ثم تكون بعد هذا خطوة أخرى هى المواجهة المباشرة بالمسيح، وبما يقال عنه .

فها هو ذا القرآن يستحضر مشهدا من مشاهد يوم القيامة، وكأنه قد وقع فعلا .. وفى هذا المشهد يُسأل المسيح عما نسب إليه .. «وإذ قال الله ياعيسى بن مريم: أأنت قلت للناس اتخذونى وأمىَ إلهين من دون الله .. قال: سبحانك . . ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . . إن كنت قلته فقد علمتَه ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . . ماقلتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنتُ عليهم شهيدا مادمتُ فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » (١) .

وهنا تبرأ ساحة المسيح ــ وإن كان هو البرىء الذى لا تعلق به شبهة أو ريبة ــ ولكن بهذه الصورة تنكشف حال المتقولين على المسيح ، ويتعرون من كل ستر يدارون به فريتهم العظيمة تلك .. فى هذا اليوم العظيم . . يوم « تذهل كل مرضعة

(١) سورة المائدة : الآيات : ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سُكارى وماهم بسكارى.. ولكن عذاب الله شديد » .

وهنا يلتفت القرآن إلى أولئك الذين قالوا ! فى المسيح ماقالوا، فيلقاهم فى كل مدَّعىً يدّعونه فيه . .

فولادته العجيبة التى كانت بابا واسعا تنفذ منه تلك المدعيات التى تُدّعى لألوهيته ـ هذه الولادة على ما فيها من غرابة ، ليست بعيدة عن قدرة الله . . !

فالإنسان الأول من أين جاء ؟ « أولاَ يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً ؟ »

إن آدم خلق من غير أب ولا أم . . والمسيح خلق من أم وبلا أب .. والناس يتوالدون من أم وأب ، وحواء خلقت من أب وبلا أم ـ كما تقول التوراة .

فهذه صور ميلاد البشر ، وكل صورة منها تناظر الأخرى فى الدلالة على قدرة الله . . فليس منها ماهو هين وما هو صعب فى جانب الله .. فكل هين لايعجز القدرة الإلهية شىء منه . .

فإذا قسنا ذلك بمقاييسنا ، وقدّرناه بحسابنا ، لم تكن الولادة من أب وأم دون الولادة من أم بلا أب ، فهذه القدرة التى تخلق النطفة ، وتودعها رحم الأم ، وتنتقل بها من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، إلى عظام، إلى لحم يكسو العظام .. إلى جنين مصور فى صورة إنسان بما له من جوارح .. كل دور من هذه الأدوار فى المولود الواحد تعجز الإنسانية كلها عن أن تقوم له .. « ياأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له.. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ! »

ثم إذا كان الأمر فى الخلق أمرَ عسر ويسر، أومألوف وخارج على المألوف ،فى

صعود المولود إلى درجة الألوهية ـ فآدم المولود من غير أب ولا أم ، أولى بهذا من المسيح ، الذى ولد من أم ، بل «حواء» أولى منه إذ ولدت من رجل ـ آدم ـ وليس لها أم ، كما تقول التوراة .

فما أكثر ما رأى الناس مواليد من أمهات ولا أب لهم ! فيعرف الناس أن لهم آباء وإن لم يُعرفوا .. فلايستغربون ذلك وإن أنكروه من ناحية الدين أو الخلق.

وقد ولد المسيح من مريم العذراء فلم يثر غرابة ، وإن أثار استنكارا من أهلها وخطيبها، كما تصرح بذلك الأناجيل ، وكما ينطق القرآن . . وقد ظل المسيح حياته وهو ينسب إلى زوج أمه «يوسف النجار»،على حين أنه عند اليهود ابن زنى. لا يدرى أحد من أبوه ! كما تصرح بذلك الأناجيل (١) .

إن ميلاد المسيح من غير أب لايستدعى بحال نسبته إلى الله أيا كانت تلك النسبة البنوية : جسدية أو روحية .

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة ، كانا يأكلان الطعام » (٢) ومن كان من شأنه أن يأكل الطعام كان من لوازم ذلك أن يتغوط ويبول ،وكان من لوازمه أيضا أن يجوع ويظمأ ، وليس يليق بذات الإله شىء من هذه الأعراض !

وقد حرص القرآن على أن يذكر المسيح منسوبا إلى أمه مريم: «المسيح ابن مريم»

« إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم : وروح منه » (النساء : ١٧١) .

وقد تعلق المسيحيون بهذه الأوصاف التى وصف بها القرآن المسيح . . « كلمته

---

(١) انظر إنجيل يوحنا فى تعريض اليهود بالمسيح و بمولده .
(٢) المائدة : ٧٥

ألقاها إلى مريم وروح منه » . . فقد جسدوا « الكلمة » فكانت الأقنوم الثانى من ذات الله ، وهو الابن ، وكان « الروح » الذى نفخ الله به فى مريم هو الأقنوم الثالث « روح القدس » .

فهم يقولون : إن القرآن قال عن المسيح إنه « كلمة الله » وهم أى ـ المسيحيون لم يقولوا أكثر من هذا، لأن كلمة الله هى الذات ، ومن الذات .. كما سنرى ذلك فى مبحث التجسيد .

يقول الأستاذ الحداد فى كتابه : « الإنجيل فى القرآن » فى التعليق على الآية الكريمة : «إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » (١) يقول :

« هذا هو الولد الموعود به .. أربعة ألقاب تسميه ، وأربعة أوصاف تعنيه ! ابنك يامريم هو كلمة الله .

ثم يقول :

« فى هذا اللقب يضطرب المفسرون المسلمون أيما اضطراب ، ولايجدون له مخرجامستساغا ،لأنهم يريدون تجريده من المعنى الذى نزل فى الإنجيل وردده القرآن!

ثم ينقل آراء بعض المفسرين فى تفسير كلمة الله ، فى قوله تعالى : « وكلمته ألقاها إلى مريم » .. « قال البيضاوى : سمى لذلك لأنه وجد بأمره تعالى ، دون أب فشابه البدعيات (٢) التى هى من عالم الأمر !

« وقال الجلالان : سُمِّى كلمة الله لأنه خلق بكلمة كن » !

---

(١) آل عمران ٤٥ ، ٤٦

(٢) أى التى يبتدعها الله تعالى ابتداعا على غير مثال سبق .

ويعلق « الحداد » على هذه الآراء التى ينقلها عن المفسرين فيقول :

« ولكن الملائكة والأنبياء والأولياء وآدم ، وموسى ، ومحمد خلقوا بأمر الله وبكلمة « كن » ومع ذلك لا يلقب القرآن أحدا منهم بلقب كلمة الله . . وسياق الآية يظهر لنا أن كلمة الله اسم شخص مرسل معروف قائم بذاته خاصة ، اسمه المسيح، فليس هو اسم شيء أو معنى أمر . . والآية (١٧٠) من سورة النساء ترينا أن الملقب والمتجسد والمحبول به فى مريم والمولود منها هو الكلمة : فهل يكون هذا مجرد أمر ؟ « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ».. فهل حملت العذراء وولدت أمرا معنويا لاغير ؟ لا ، بل بشرت بشخص، وحملت شخصا، اسمه: كلمة الله ،وروح الله ، ومسيح الله ، ورسول الله ،واسمه المسيح عيسى بن مريم (١)

ونقول : نعم : بشرت العذراء بشخص وحملت شخصا اسمه كلمة الله ، وروح الله ورسول الله ، والمسيح بن مريم : ولكن لم تكن الكلمة التى ألقيت إلى مريم هى الجسد الذى ولد باسم المسيح عيسى بن مريم، ولم يكن الروح الذى نفخ فيها هو هذا الجسد كذلك ، وإنما بالكلمة كان المسيح !

يقول الإمام أحمد : « ليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان .. فالكن من الله ، قوله ، وليس الكن « مخلوقا » .

ونقول أيضا : إن المسيح عليه السلام كان « بالكلمة » يحيى الموتى ، وبالكلمة كان يبرىء الأكمه والأبرص . . فهل تجسدت كلماته تلك فكانت شخوصا بدل تلك الشخوص التى أبرأها ؟ .

كان المسيح - عليه السلام - يقول للمقعد : قم واحمل سريرك - كما تقول

---

(١) الإنجيل فى القرآن «١» ص ١٧٩

الأناجيل — فيقوم المقعد من فوره ، ويحمل سريره ! وكان يقول للأبرص: « أريد فاطهرْ » فيبرأ فى الحال .

فهل تحولت كلمات المسيح هذه إلى دواء عولج به المريض حتى شفى ؟ أم هى إرادة نافذة وسلطان مبين، أمده الله به ، فيستجيب لدعوته كل مدعو ؟ أفلا يكون لله سبحانه وتعالى سلطانا على الأشياء كسلطان المسيح ؟ ثم ألا يكون لكلماته من النفاذ ما لكلمات عبده ، أو ابنه كما يقولون ؟

إن كلمات المسيح نفسه التى صنع بها ما صنع من معجزات هى الشاهد الذى ينفى قولة القائلين فيه إنه كلمة الله مجسدة . . فإذا أحيا المسيح — الميتَ بكلمة ، فليس على الله بمستكثر أو مستنكر أن يخلق مخلوقا بكلمة : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

والقرآن الكريم نفسه قطع على المتأولين تأويلهم فى نسبة المسيح إلى الله بالكلمة التى ألقاها إلى مريم ، إذا جاءت الآيات القرآنية الكريمة مصرحة فى أكثر من موضع بانتفاء نسبة المسيح إلى الله ، وأنه ثالث ثلاثة معه... وإنما هو عبد من عباد الله ، ومخلوق من مخلوقاته .

يقول الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى يجد المسيحيون فيها شاهدا يشهد لهم ببنوة المسيح لله . . « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . . إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة .. انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا .. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا [١] » .

(١) النساء : ١٧١ .

إن ميلاد المسيح — على مافيه من خروج على مألوف الحياة — لايجعل منه الإلـٰه.. رب العالمين ، لأنه ـ على مارآه الناس ـ حادث، وُجد بعد أن لم يكن موجودا، وفى ظهور الله سبحانه وتعالى فى إنسان ، فتنة للنـاس وفساد كبير ، وباب يدخل منه المدّعون للألوهية والمؤلهون للناس !

وقد تأثر بدعوى ألوهية المسيح بعض المفتونين ، والمغرورين ، والجهال . . فى أكثر من مرة . . فادعى بعض المغرورين الألوهية لأنفسهم ، وفتن بعض الجهال ببعض من ادعوا هذه الدعوى فآمنوا بألوهيتهم . . وكان أمامهم المثل الماثل فى ألوهية المسيح التى ادعاها له أتباعه ، وتابعهم على تلك الدعوى ملايين لاتحصى من البشر ! !

وفى حياة على بن أبى طالب رضى الله عنه ظهر قوم ـ ممن دخلوا فى الإسلام ـ بدعوى الألوهية له، وعلم أمرهم فدعاهم إليه وقال لهم : ويلـكم ! قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ! قال : ويلـكم . إنما أنا عبد مثلـكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون .. إن أطعت الله أثابنى إن شاء ،وإن عصيته خشيت أن يعذبنى.. فاتقوا وارجعوا ، فأبوا . .

ولما كان الغد دعاهم إليه ، وأعاد فيهم مقالته ، فأبوا إلاَّ إصرارا على ماقالوا فيه.

فلما كان اليوم الثالث قال لهم: لئن قلتم ذلك الذى تقولونه لاقتلنـكم شر قتلة، فأبوا أن يتحولوا عن رأيهم فيه !

فأمر أن يخدّ لهم أخدود بين باب المسجد وبيت الإمارة ، وأمر بالحطب أن يطرح فى الأخدود ويضرم بالنار ،ثم قال لهم: إنى طارحكم فيها أو ترجعوا فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها » !

معجزات المسيح :

والمعجزات التى جرت على يد المسييح كانت بابا من أبواب الافتتان به،أكثر

مما كان لميلاده من غير أب .. إذ كانت تلك المعجزات حاضرة دائما معه ، يدعوها فتستجيب له والناس بمشهد منها ، تطلع عليهم من حيث لايحتسبون ، فتخشع لها القلوب ،وتشخص الأبصار ، وتخرس الألسنة ! أماميلاده من غير أب فلم يكن بالأمر المتيقن عند جميع الناس ، بل كان واقعا عند أكثرهم موقع الظنة والاتهام فى نسبته إلى يوسف بن هالى « النجار » كما يقولون .

والذى يلفت النظر فى أمر هذه المعجزات أن الأناجيل أغفلت الكثير منها، كما أنها لم تذكر ماذكرته من تلك المعجزات إلا على خوف وحذر ، وعلى استحياء واضطراب ، يدل على ذلك كله ماوقع بين الأناجيل من اختلاف فى تصوير هذه المعجزات . كما حدث فى شجرة التين ، وهل جفت لوقتها، كما تقول بعض الأناجيل، أو جفت فى اليوم التالى ، كما يقول بعضها الآخر . .

أما القرآن الكريم فقد كشف عن معجزات المسيح كشفا مجليا ، وتحدث عنها حديثا واضحا صريحا قاطعا .. فهو يُلقى إلى أمه بالبشارة بمولده محملة بتلك المعجزات قبل أن يولد : « قال كذلك الله يخلق مايشاء . . إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم . . . » (١)

والأناجيل ورسائل الرسل لم تقل عن المسيح شيئا من هذا . . لم تقل إنه كان — عليه السلام — يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا.. ولم تقل إنه كان يخبر الناس بما كانوا يأكلون ومايدخرون فى بيوتهم .

---

(١) سورة آل عمران : ٤٩

بل وأكثر من هذا ،فإن القرآن أخبر أن المسيح تكلم فى المهد ، ودافع عن طهارة أمه وعفتها ، وفى هذا يقول القرآن :

«فأتت به قومها تحمله..قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا :يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا.. فأشارت إليه، قالوا: كيف نكلم من كان فى المهد صبيا؟ قال إنى عبد الله . . آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (١) » .

ذكر القرآن الكريم ذلك عن السيد المسيح ، على حين لم يكن لذلك ذكر مطلقا ، لافى الأناجيل ، ولافى رسائل الرسل ، ولافى كتب التاريخ التى أرخت لهذه الأحداث التى جرت فى حياة المسيح !!

وهذا من القرآن يدل دلالة قاطعة على أنه إنما ينطق بالحق، ولايلتفت إلى شيء وراءه ،من اعتبارات أخرى، ولايعمل حسابا إلا للحق، وللحق وحده ، سواء أكان ذلك مما يرضى الناس أو يسخطهم .

ولو أن القرآن كان من عند « محمد » أو من تدبير بَشَر ، لما كان مما يلتفت إليه أبدا أن يزكى المسيح وأمه،ويطهرهما،ويرفع قدرهما إلى حيث لايطاولهما أحد ، وأن يعرض من معجزات المسيح مالم يجرؤ أتباعه على الجهر به،حين كُتبت الأناجيل والرسائل فى تلك الظروف القاسية ، التى كانت تحيط بالمسيحية ودعاتها ، حتى إذا سكنت الأحداث ، كان قد فات الأوان الذى يقال فيه عن المسيح شيء جديد ! !

يقول القرآن الكريم هذه المقولات عن المسيح،ويجلّى عن وجهه المشرق الوضيء،

---

(١) سورة مريم : ٢٧ — ٣٢

ويضع بين يديه تلك المعجزات القاهرة ، ويدفع عن أمه البتول مايرميها به السفهاء من زور وبهتان.. يفعل القرآن كل هذا فى الوقت الذى يُنزل فيه المسيحَ وأمَّه عن مرتبة الألوهية التى يدعيها لهما المدعون . . وإن غير ذلك كان أولى بالقرآن لو أنه كان من عمل بشر، أوكان مما يمكن أن يدخل عليه ماليس منه ! . . فلقد كان من حسن السياسة والتدبير- على مستوى البشر- أن يصمت القرآن، وألا يقول شيئا عما غفل عنه المسيحيون أنفسهم أو أزعجتهم الأحداث عن تسجيله .. كان أولى بالقرآن - لو أنه من عمل بشر- ألا يضع فى يد الخصم سلاحا ماضيا وهو يريد أن يدخل معه فى معركة فاصلة ، فى شأن المسيح،فلا يقول فيه هذا القول الذى يرفعه هووأمه إلى هذه المنزلة الكريمة العالية ، وأن يدع مقولات اليهود وافتراءاتهم عليه وعلى أمّه ، تعمل عملها فى تلك المعركة !

ولكن القرآن ليس لمحمد . . ولا لحساب محمد . . وإنما هو من عند الله ، ولعباد الله .. والله حق ، ولا يصدر منه غير الحق !

ثم إنه مع هذا المقام الكريم الذى رفع إليه القرآن شخص عيسى ، ومع هذه المعجزات التى حدث الناس بها عنه ، فإنه لم يخرج به عن أن يكون عبدا من عباد الله ، ورسولا من رسله .. وفى هذا يقول القرآن : «إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه هدًى لبنى إسرائيل » [1] .

وفى قوله تعالى : « وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » مايتفق مع ماجاء فى الأناجيل على لسان المسيح نفسه من أنه إنما جاء لخراف بنى إسرائيل الضالة . . يقول ذلك القرآن ودعوة المسيح وأتباع المسيح فى محيط غير محيط بنى إسرائيل ، ومع أتباع من أمم شتى !

---

(١) سورة الزخرف : ٥٩

ويقول القرآن عن المسيح وأمه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم . قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا (١) » .

ويقول : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »(٢)

ويقول : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون .(٣) »

ويقول : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام » (٤)

فالمسيح ليس إلها ولا ابن إله ، ولا ثلاثة ، ولا ثالث ثلاثة .

وأمه ليست إلهة ولا زوج إله .

وليس ما كان للمسيح من معجزات بالذى يخرجه عن دائرة البشرية .

« إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » . .

يقول صاحب السيف الصقيل :

« فلو كان إحياء الموتى موجبا للألوهية لكان موسى عليه السلام أحق بها منه . . لأن عمله فى قلب العصا حية أبلغ من عمله فى إعادة الحياة إلى من كان حيا ثم مات .

« وكذلك « حزقيال » أحق بها منه لأنه أحيا ألوفا من الأموات وهى عظام بالية ، كما هو مصرح بذلك فى الإصحاح السابع والثلاثين من كتاب حزقيال » . . وكذلك « إيليا » عليه السلام قد أحيا ميتا ، كما هو مصرح بذلك فى الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الأول (٥) .

---

(١) سورة المائدة : ١٧ (٢) سورة المائدة : ٧٣ (٣) سورة النساء : ١٧٢ .
(٤) سورة المائدة : ٧٥ (٥) السيف الصقيل ص ١١٠

متعلق المسيحيين بما فى القرآن من صفات الله :

يتعلق الباحثون من المسيحيين بما فى القرآن الكريم من صفات الله ، ويتخذون من ذلك دليلا على أن الله ليس واحدا ، فى ذاته ، بل إنه يقوم مع ذاته أو فى ذاته صفات عاملة . . كالإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها !

يقول الأستاذ عوض سمعان فى كتابه : « الله بين الفلسفة والمسيحية » : « الله - مع وحدانيته وعدم وجود تركيب فى ذاته - يتميز بمميزات خاصة ... إذن فهذه المميزات لا يمكن أن تكون غير ذاته ، لأنه لاشريك له ، ولا يمكن أن تكون عناصر أوأجزاء فى ذاته ،لأنه لاتركيب فيه !ولا يمكن أن تكون مادية بل هى روحية، لأنه لا أثر للمادة فيه ! ولا يمكن أن تكون محدودة بأى نوع من الحدود ، بل هى منزهة عن الحدود ، لأن ذاته لايحدها حد .. كما أن العلاقات الناشئة بسببها لا يمكن أن تكون متوقفة على وجود الكائنات ، بل هى أولاً وقبل كل شىء بينه وبين ذاته نفسها أزلا ، لأنه كامل كل الكمال منذ الأزل الذى لابدء له .. ولا يكتسب شيئا من الأشياء ، ولا يتغير أو يتطور على الإطلاق [(١)] » .

وقد نقل الأستاذ عوض سمعان كثيرا من آراء الفلاسفة والمفكرين .. من القدامى والمحدثين .. من اليونانيين واليهود والمسيحيين والمسلمين، فيما بين الله وبين ما يصفه به الواصفون من صفات .

ولا بأس من أن نعرض هنا بعض هذه المقولات ، لنرى كيف كان مسير العقل فى بحثه عن ذات الله ..

رأى أرسطو:

يقول أرسطو : « الله يتنزه عن الإرادة ، لأن الإرادة تقتضى الطلب ، والله لا يطلب ! لأنه

---

(١) الله بين الفلسفة والمسيحية ١٥

لو كان يطلب لكان يطلب أزلا ، وطلبه أزلا يستلزم وجود أزليين نظيره ، وهذا محال . . لأنه لاشريك له على الإطلاق » .

ويقول أيضا فى نفى « للعلم » عن الله : « الله لايعلم الكائنات ، لأنه لو كان يعلمها لكان يعلم أزلا ، وعلمه أزلا يستلزم أزليين نظيره كان . يعلمهم وهذا محال ، للسبب السالف ذكره ! » (١) .

فأرسطو ينفى عن الله سبحانه ما نصفه به من صفات عاملة . . كالإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام . . وذلك لما وقع فى تصوره من أن أى صفة يوصف بها الله تبدو ذاتا أخرى إلى جانب ذاته ، وبهذا تتعدد الذات . . وهذا محال !

رأى أفلوطين :

لا يرى أفلوطين أن يوصف الله بأية صفة ، وإن وصف بصفة ما ، وجب أن يسبق هذا الوصف بكلمة «فوق» . . فيقال إنه فوق الوجود ، وفوق الكمال ، وفوق العلم ، وفوق السمع . . . .

ويعلق الأستاذ عوض سمعان على رأى أفلوطين هذا بقوله : « هذا الوصف وإن كان موجبا فى الظاهر إلا أنه سالب فى الحقيقة » .

ونحن نرى أن أفلوطين يريد أن يوصف الله سبحانه بصفات الكمال كلها ، ولكنه لايجد الوصف المناسب اللائق بالله فيما تتعامل البشرية من صفات ، ولهذا هو يعلى الله سبحانه عن كل وصف من أوصافنا . ! .

وهذا الاضطراب الذى يبدو فى تلك الآراء ، من نفى الصفات عن الله — سبحانه — وإثباتها له ، إنما هو بسبب إقحام العقل ودفعه للبحث فى ذات الله ، وهو أمر فوق

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٣٦ ، ٣٨ وقصه الفلسفه اليونانيه لاحمد أمين ص ١٣١ .

المعقول ، فكان طبيعيا أن تضل عقول الفلاسفة وتتخبط . !

رأى موسى بن ميمون : (١)

يرى موسى بن ميمون أنه يمكن وصف الله بالصفات السلبية ، وهى التى تنفى عنه كل نقص ، لأنها صفات لا تلحق ذاته ولا تتصل بها ، لأنها عدم . . أما الصفات الإيجابية فلا يجوز وصفه بها .

يقول ابن ميمون : « وصف الله عز وجل بالسوالب هو الوصف الصحيح ، الذى لا يلحقه من جهته تكثر . . أما وصفه بالإيجابيات ففيه خطر عظيم » .

رأى سبينوزا : (٢)

يقول سبينوزا : « الله ليس له عقل ! ولا يوصف بالإرادة أو السمع أو البصر أو الرضا . . لأن هذه الصفات تقتضى الانتقال من حال إلى حال » .

رأى جون سكوت : (٣)

« صفات الله هى موضوع اعتقاد فقط ، أى أنها اعتبارية وليست حقيقية ، لا يبلغ العقل إلى أدلة قاطعة عليها » . . هكذا يقرر جون سكوت .

وسنرى فى تعليقنا على هذا الآراء أن هذا الرأى هو أعدل الآراء وأقربها إلى الصواب ، فى تصور صفات الله ، وما ينبغى أن يكون له من كمال . . إذ يجعل الصفات التى نصف بها الله « اعتقادية » ، لا تخضع لنظر العقل ، ولا تستجيب لحكمه ، لأنها مما هو من شأن ذات الله وحده . . ثم هى اعتبارية من جهتنا نحن . . إذ لا بد أن يكون الله الذى نؤمن به ونعتقده ، ذا صفات — فى نظرنا — تملأ قلوبنا حباً له ، وخشية منه ، وخشوعا لجلاله وعظمته !

---

(١) فيلسوف يهودى . (٣) فيلسوف يهودى . (٣) فيلسوف مسيحى .

رأى علماء المسلمين :

يقول الأستاذ عوض سمعان: « وقد شغلت هذه المشكلة ـ مشكلة الصفات ـ فلاسفة المسلمين(١) »! (لافقهاؤهم) .

ثم ينقل مقولات الفرق المختلفة فى هذه المشكلة . .

ا — فرقة الصفاتية :وهى تقول « إن صفات الله غير ذاته » .. والتأكيد وجهة نظرها قالت : « لوكشف الحجاب عن الإنسان لاستطاع أن يرى صفات المعانى» !

ب — فرقة المعتزلة : وقالت المعتزلة : « صفات الله عين ذاته » . . ولتأكيد وجهة نظرها قال واصل بن عطاء ـ أحد زعمائها ـ من أثبت وجود صفة قديمة لله فقد أثبت وجود إلهين .

ج — الأشاعرة : وقالت الأشاعرة : «صفات الله ليست هى عين ذاته ولاهى غيرها » .. وقول الأشاعرة هذا هو الذى يعتقده المسلمون ، وهو التسليم بالعجز عن إدراك كنه الصفات .. كما سنرى ذلك بعد قليل .

* * *

ونقول تعليقا على هذه المقولات كلها ، التى تنفى الصفات عن الله ، أو تثبتها له، أو تتردد فى النفى والإثبات نقول : إن الله سبحانه ـ كما نتصوره بعقولنا القاصرة ـ هو ذات ، وكل ذات لابد لها من صفات ، وإلا ما كان يمكن تصورها .

وهذه الصفات التى نصف بها الله ، أو يدعونا الله سبحانه أن نصفه بها ، هى غاية مايتصوره العقل ، ونهاية مايمكن أن يحتمله من تصور صفات الكمال .. حيث هذه الصفات التى نتصورها بعقولنا القاصرة هى التى تربطنا برباط العبودية لله على أكمل الكمال الذى يتناسب وعقولنا .

---

(١) إذن فهى مسألة فلسفية يردها العقل للرياضة الذهنية .

أما الوصف الحق لذات الله فهو مما لاتحيط به العقول، ولاتحتمله الخواطر، وكما أنه لايعلم كنه ذاته إلا هو ، فكذلك لايحقق صفات ذاته إلا هو !

والمسلمون إذ يصفون الله بصفات إنما ينظرون إلى هذه الصفات على أنها صلوات وابتهالات يمجدون الله فيها، ويضرعون إليه بجلالها وعظمتها وكمالها .. لا أنها ذات علاقة قريبة أو بعيدة بالله !

وانظر . .

إننا نصف الأشياء من جهتنا بأوصاف مختلفة حسب مايقع فى مداركنا لها ، ويعلق بنفوسنا منها.. وهذه الأوصاف التى نلقيها على الأشياء، من حسن وقبح،ومن كمال ونقص ،لاتؤثر أى تأثير فى هذه الأشياء ولاتغير من طبيعتها .. وإنما يقع أثر هذه الأوصاف علينا وحدنا ، فنقترب منها أو نبتعد ، ونحبها أو نبغضها ، ونكرمها أو نهينها ! .حسب مايقع فى نفوسنا منها .

وأكثر من هذا !

إننا نصف كثيرا من الأشياء ببعض الصفات ،ويقع فى يقيننا أن تلك الصفات هى الأوصاف الكاشفة لها، المجلية عن حقيقتها ، ونعيش معها على هذا اليقين، ونتعامل معها على ماعرفناها عليه . . ثم تمضى أجيال وأجيال،وإذا الذى نصفها به ، ونعرفها عليه ليس هو الوصف اللائق بها ، وليست هى المعرفة الحق لها . . حين يكشف لنا العلم جديدا عنها ، ويرينا مالم نره منها !

الأرض مثلا . . عاشت أجيال الإنسانية معها قرونا عديدة ، وهى تعتقد أنها مبسوطة ثابتة ،قائمة على دعائم وعمد كما يقوم البيت ، أو محمولة على قرن ثور! . . ثم كشف لنا العلم أنها تدور فى فلك حول الشمس . . وفى فلك آخر حول نفسها . . وأنها كروية وليست مبسوطة !

وهذه الأوصاف القديمة أو المستحدثة التى نصف بها الأرض، لا تغير من حقيتها، فهى هى .. سواء كان علمنا بها أنها ثابتة أو متحركة، وأنها مبسوطة أو كروية !

وهكذا . تخلع الإنسانية أوصافا متعددة متناقضة على الأشياء .... دون أن تترك هذه الأوصاف المتناقضة أثرا على حقيقة هذه الأشياء .. إنها أثواب نُلبسها إياها ثم نخلعها عنها ، كلما نسجنا لها ثوبا جديدا ! !

فإذا كان هذا مبلغ علمنا بالأشياء المادية المحسوسة التى تعيش معنا، وتتحرك فى محيط حياتنا ، لا نعلم إلا القليل منها ، ولا نكشف إلا على القشور من حقيقتها .. فكيف بذات الله ؟ وبعلمنا بها ومعرفتنا لها ؟

أيستطيع العقل البشرى أن يحيط بذات الله وأن يدرك كنهها ويكشف حقيقتها ؟ إن ذلك قول بالمحال بداهة .. لا يجرؤ على القول به إلا أحمق أو جهول !

وإنه ليس من الإسلام ألبتة البحث فى صفات الله ، ولا فى صلتها بالذات وصلة الذات بها . . تماما مثل البحث فى ذات الله .. إنه ليس من الإسلام مطلقا !

سئل الإمام مالك — رضى الله عنه — عن قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فقال: « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة ! »

هذا هو مقطع الأمر فيما نصف به الله سبحانه وتعالى من صفات ... فالوصف معلوم لنا ، مدرك بعقولنا على نحو ما ، وأما الكيف الذى لهذا الوصف فهو مجهول لا تناله العقول . . وإذن فالبحث فى كنه هذه الصفات بدعة وضلالة ، ليس وراءها إلا التيه والضلال !

ولكن العقل الإسلامى ورد هذه الموارد حين اتصل بالفلسفة اليونانية ، فجعل هذه المباحث فى ذات الله وفى صفاته وفى صلة الذات بالصفات وصلة الصفات بالذات ، وهل هى عين الذات أم خارجة عنها . ؟ وإذا كانت عين الذات فأين الذات ؟ وإذا

كانت خارجة عن الذات .. فهل هى قديمة قدم الذات ؟ وإذن فهناك قديمان !

وهكذا.. إلى مئات من الأسئلة التى تدور بها الرءوس وتتبلد العقول !. . نقول : جعل العقل الإسلامى هذه المباحث فى مجال الدراسة والبحث، كرياضة ذهنية،لا تصح عليها عقيدة أو يقوم عليها إيمان !

ولقد مضى عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة وشطر من الدولة الأموية ـ دون أن تثار هذه المسائل و يُشغل بها المسلمون .

ثم كان القول بخلق القرآن فى العصر العباسى بعد أن طال الجدل حول صفات الله ،وهل وهى قديمة أومحدثة..والكلام صفة من صفات الله .. فما وصف هذه الصفة؟ أهى قديمة أو محدثة ؟. . والقرآن ؟ أهو قديم أو محدث ؟ وكادت تكون فتنة ، بل كانت فعلا . . ولكن الله لطف بالناس فأخمد نارها ، ولن تعود أبدا . ولو جرى الأمر إلى غايته فى هذه المماحكات وتلك المجادلات بين المسلمين حول صفات الله ، وحول كلامه خاصة — لو جرى هذا الأمر إلى غايته فربما وصل بالمسلمين إلى حال أشبه بحال المسيحية فى تصور الألوهية . . ! !

وقد تعلق بعض علماء المسيحية بهذه الفتنة الطارئة وحسبوها على الإسلام ، وأضافوها إلى معتقد المسلمين . بل وعدوها أصلا من أصول الشريعة التى تقوم عليها ، وذلك فى مجال التدليل على تجسد « الكلمة » فى المسيح ، وأن القرآن يقول بها ولا ينكرها !

يقول « إميل درمنغم » صاحب كتاب « حياة محمد » :

وعلماء التوحيد حينما قالوا بعدم خلق القرآن (١) « كلام الله » لم يقولوا

---

(١) لم يقل علماء التوحيد بخلق القرآن أو عدم خلقه وإنما أنكروا على القائلين بخلقه هذا القول وعدوه بدعة تسوق إلى الضلال . . وقالوا لا نقول فى القرآن إنه مخلوق أو غير مخلوق .. وإنما هو كلام الله .

غير ماذهب إليه النصارى بشأن ألوهية المسيح الذى نعته القرآن « بكلمة الله » . . .
وهذا مالاحظه يوحنا الدمشقى — فى القرن الثامن الميلادى — حين قال فى مواجهة علماء الكلام من المسلمين : « إذا كنتم تقولون إن كلمة الله وروحه قديمان « فإننا نكون متفقين ، وإذا كنتم تقولون « إنهما مخلوقان » فهل يقال إذاك إنه لم يكن لله قبل ذلك كلمة ولاروح ؟

ثم يعلق على كلام يوحنا الدمشقى بقوله :

« وهذا إنما يحقق مَثَل المسلم الأعلى ، الذى يكون لله به العابدَ الكاملَ الخليقَ به . . وهذا إلى ماله من المعنى الربانى والأخلاق ، وما فيه من معنى إملاء الهوة التى بين الله والإنسان ! !

ثم يقول :

« وغاية القول أن جميع مانص عليه القرآن حول مبادىء النصارى حق ، والقرآن إذا لم يُحط بكل ماهوحق فى الأمر ، أصبح لزاما عليه إتمامه بما جاء فى الكتب المنزلة قبله » ! (١)

وواضح من هذه الفقرة أن الكاتب يشعر بتهافت استدلاله من القرآن على تجسد الكلمة ، فأحال فى توضيح هذة المقولة ، وتحقيقها ـ على ماجاء فى الكتب المنزلة قبل القرآن !

والقرآن كما ينطق عن نفسه هو مهيمن على الكتب المنزلة قبله ومصدق لها ، لا أنها مهيمنة عليه ومصدقة له : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه (٢) » .

---

(١) حياة محمد .. لاميل درمنغم (ترجمة عادل زعيتر) ص ١٣٤
(٢) سورة المائدة : ٤٨

أما أن تجسد الكلمة يملأ الهوة التى بين الله والإنسان، وأن بين الخالق والمخلوق هوة تحتاج إلى ملأ، فذلك — فيما نرى — تجديف على الله، وتصور خاطىء لجلاله وعظمته وقدرته . . فالله يملأ الوجود كله، لا بكيانه الجسدى، بل بعلمه وحكمته وقدرته !

وإذا كان تجسد الكلمة قد ملأ الهوة التى بين الله والإنسان . . فماذا عن الهوة التى بين الله وسائر المخلوقات ؟

إن ذلك تصور خاطىء لذات الله، وفهم سقيم لقدرته وعلمه وحكمته ! !

ويقول الأستاذ « الحداد » فى كتابه « الإنجيل فى القرآن » وقد قدم لذلك بهذا النص ينقله من إنجيل يوحنا :

« كما أن الأب له الحياة فى ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة فى ذاته » (يوحنا ٥ : ٢٦)

يقول « الحداد » تعليقا رشرحا :

« فالمسيح هو ابن الله . . أى فكر الله الجوهرى . . أو نطق الله الجوهرى !

ثم يسأل :

« هل يمكن أن يكون الله بدون عقل [1] .

« وهل يكون عقله إلا غير محدود كذاته ؟

ثم يخلص من هذين السؤالين إلى مقولة يقررها، فيقول :

« وفكره — أى فكر الله — الذى هو منتوج عقله ! وهو غير محدود فى الله كعقله — هو ما يسميه الإنجيل بلفظ علمى فلسفى لاهوتى « كلمة الله » وبتعبير شعبى تفهمه الجماهير « ابن الله » !!

---

(١) هذا سؤال لا يستطيع العقل أن يجيب عليه، لأنه يتعلق بذات الله وكنه حقيقته، ولا يستطيع عقل بشرى أن يتصور ذات الله أو يحقق شيئا منها .

انظر كيف يندفع العقل إلى هذه الهوة السحيقة من الضلال ، فيدخل فى ذات الله ، يقلبها ويحللها ويركبها كيف يشاء.. ثم يدعى مع هذا أنه يقرر حقيقةواقعة تقيم دينا ، وتبنى معتقدا ! !

ثم يقول شارحا هذه المقررات :

« الشعب البسيط نفسه . . ألا يسمى الأفكار بنات العقل ؟

« وعندما يستعمل الإنجيل لفظ « كلمة » يدل بصراحة على أن بنوة الابن من الأب وفى الأب ضمن الذات أو الطبيعة الإلهية الواحدة — هى بنوة فكرية نطقية ، عقلية ! ! . . وأن الولادة فى الجوهر الإلهى الفرد هى روحية إلهية فوق الزمان والمكان وفوق الجسد المخلوق ، بتسلسل كلمة الله من جوهر الله ، كما يصدر نطقنا من عقلنا.. وهذا التسلسل أو الصدور ، غير المخلوق ، نتيجة (التفاعل الإلهى) — لا يمكن التعبير عنه بكلام المخلوق، فيسميه الإنجيل بلغة بشرية تقرب غير المدرك من إدراكنا. يسميه « ولادة وبنوة » ثم أبا وابنا ! !

« فكلمة الله ، أو نطق الله الصادر من القوة العاقلة فى الله ،هو فى وضع يشبه عند البشر وضع ابن من أبيه ، وفى علاقة ولادة روحية وبنوة عقلية تشبه فينا ولادة الفكرة من العقل!! (ونقول بل ولادة الجنين من الرحم فكلاهما يصدر عن جهد ومعاناة) ! !

« فليس فى ذلك إذن رفع مخلوق إلى صفة الخالق ، ولاحط الخالق إلى درجة المخلوق ، بل هو (تفاعل) روحى وتسلسل عقلى ، بل هو ولادة روحية ،وبنوة عقلية فى الذات الإلهية الواحدة » ! (١)

ونسأل : هل تحول الإله إلى إنسان فى كل صفاته ومشخصاته؟هل يعقل الله كما

---

(١) الإنجيل فى القرآن (١) ص ٣٧٤

تعقل؟ ويفكر كما نفكر؟ ويلد الأفكار كما نلدها؟ وهل يتفاعل العقل الإلهي ـ بفعل الاحتكاك بين القوى العاقلة فيه ـ كما تتفاعل قوانا العاقلة؟ وهل ندرك نحن كيف تتفاعل قوانا العاقلة تلك؟ وهل نستطيع أن نعرف ميلاد الكلمات والأفكار فى عقولنا، حتى نعرف ميلاد الكلمات والأفكار فى العقل الإلهي؟

إن هذه التصورات كلها هى من نسيج الأوهام والظنون، ومن مخلفات أحلام الطفولة الإنسانية، ومن مواليد العقل الوثنى الذى يجسد الله وينزله إلى العالم الأرضى، ويعايشه معايشة الإنسان للإنسان !!

ونعود بعد هذا، فنقرر أن القرآن قد حارب فكرة التثليث، وكفّر الذين يدينون بها . .

وفى هذا يقول القرآن الكريم : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة، وما من إلٰه إلا إلٰه واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (١) .

ويقول سبحانه فى مغالاة أتباع المسيح، فى تقديسه، ورفعه إلى مرتبة الألوهية: «يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق .. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ..فآمنوا بالله ورسله، ولاتقولوا ثلاثة . . انتهوا خيرا لكم . . إنما الله إلٰه واحد (٢) :

ويكفى أن يصف القرآن الكريم المسيح بهذه الأوصاف التى تكسوه ثوب البشرية دائما، حتى لاتزيغ القلوب وتضل العقول.. كلما واجهت معجزة من معجزاته.

فالقرآن يحرص دائما على أن يضيف المسيح إلى أمه مريم :

« المسيح بن مريم » . .

---

(١) سورة المائده : ٧٣ (٢) سورة النساء : ١٧١

« المسيح عيسى بن مريم » ..

« عيسى بن مريم » . .

« ابن مريم » . .

هكذا يجىء على تلك الصفات كما جاء ذكره فى القرآن الكريم . .

ويصفه القرآن أيضا بأنه « عبد » وأنه « رسول » قد خلت من قبله الرسل، فالقول بأن القرآن يدخل فى هذه العقيدة التى يعتقدها المسيحيون فى المسيح دخولَ المزكىّ لها، المجيز للاعتقاد بها ـ قول فيه افتراء مفضوح على كتاب الله، وعلى كلماته البينات، التى لاعوج فيها ! والتى تفضح ببيانها المبين كل من يحاول أن يلوى وجهها إلى غير الحق الذى نزلت ، به وقامت عليه .. « وبالحق أنزلنا وبالحق نزل ». « قرآنا عربيا غير ذى عوج » .

هذا،وقد آن لنا أن نلتقى بعقيدةالتثليث لقاء مواجها ، كما يصورها أصحابها، وكما يؤلفون بين وجوهها الثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس..فيجعلون من ثلاثتها وجها واحدا هو « الله » ! أو المسيح المجسِّد لذات الله .

* * * *

الفصل الخامس

المسيحية وفلسفة التثليث

« بولس » ودوره فى قضية التثليث :

لقد استعرضنا مقولات الأناجيل عن التثليث ، فلم نجد فيها شيئا يمكن إن تقوم عليه عقيدة مفهومها أن الله ذو أقانيم ثلاثة ، هى : الأب والابن وروح القدس !

وغاية ما رأيناه هو ورود هذه الكلمات: الأب والابن، وروح القدس.. فى عبارات وتراكيب مختلفة، من غير أن نجد عبارة واحدة تجمع بينها فى سياق واحد ، وذلك باستثناء كلمة المسيح التى رويت عنه فى إنجيل يوحنا ، والتى قالها لتلاميذه ـ كما قيل ـ بعد أن صلب – كما زعموا – وقد قلنا إن هذا الجمع بين هذه الكلمات الثلاث لا يجعل منها ذاتا واحدة ، بل هى ثلاث ذوات مستقل بعضها عن بعض . ! هى الأب (الله) والابن (رسول الله) وروح القدس (المَلَك).

واستعرضنا كذلك أعمال الرسل ورسائلهم التى ألحقت بالأناجيل وصارت جزءا متمما لها ،فوجدنا كذلك أنها لم تحدّث عن شىء مما أصبح عقيدة مقررة عند المسيحيين بعد مؤتمر « نيقية » ، الذى قرر أن « المسيح » هو أقنوم الابن فى الله ذى الثلاثة أقانيم !

غير أننا رأينا أن رسائل « بولس » الرسول تحتوى على عبارات لاهوتية غامضة، يمكن أن تحمل على محاميل شتى ، من بينها أن يكون المسيح ابن الله ،بمعنى لاهوتى، هو الولادة العقلية !! ولهذا اعتمدت المسيحية كثيرا على مقولات « بولس » فى تصوير العقيدة على النحو الذى تشكلت به فى المؤتمرات التى تحدثنا عنها من قبل !

يقول « ول ديورانت » فى موسوعته « قصة الحضارة » :

« وأضاف بولس إلى اللاهوت الشعبى الموسى بعض آراء صوفية غامضة ، كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار « سفر الحكمة » و « فلسفة فيلمون[1] » . . . من ذلك قول « بولس » : (إن المسيح هو حكمة الله ، وابن الله الأول .. وبكر كل خليقة . . فإن فيه الكل .. الكل به ، وله قد خلق .. الذى هو قبل كل شىء ، وفيه يقوم الكل . . وليس هو المسيح المنتظر « المسيا » اليهودى الذى سينجى إسرائيل من الأسر . . بل هو الكلمة الذى سينجى الناس كلهم بموته[2]) .

لقد تحدى بولس بهذه المقولات الأقوال الصريحة الواردة فى الأناجيل على لسان المسيح ،وهو أنه إنما جاء لهداية خراف إسرائيل الضالة . . وأمثال هذا من مقولاته الصريحة . . ووصاته إلى تلاميذه بقوله : (إلى طريق أمم لا تمضوا . .) كما أشرنا إلى ذلك من قبل فى حديثنا عن الإنجيل ! .

لقد عزل بولس « المسيح » عن اليهود ،وجعله مسيحاً غير « المسيا » الذى ينتظرونه لخلاصهم ! وذلك ليستطيع أن يجعل منه الإله الذى تجسد ، ثم صلب من أجل خلاص العالم ، لا من أجل خلاص اليهود وحدهم! وبهذا يضمن لدعوته مجالاً يتحرك بها فيه،فى الامبراطورية الرومانية ،بين الرومان والشعوب الخاضعة لدولتهم ! وبهذا أيضاً يُفسح الأمل لليهود فى مسيح منتظر بعد (يسوع) الذى صلبوه !

ومن قبل رأينا « بولس » ينسخ أحكام التوراة حتى يطوعها لطبيعة الرومانيين والأثينيين وغيرهم من الذين نفروا من عملية « الختان » ، فأعفاهم منها ، وجعلهم مختونين بالقلب لا بالجسد ! كذلك أحل لهم لحم الخنزير الذى تحرمه شريعة التوراة

(١) هو يهودى من أكبر فلاسفة اليهود ، ولد سنة ٣٠ ق م ومات سنة ٥٠ م

(٢) هذه مقولات متناثرة لبولس فى رسائله قد جمعها « ول ديورانت » هنا ليكشف بها عن رأى بولس فى المسيح .

حيث كانوا قد ألفوا طعامها واستساغوه ، وأصبحت قطعانها رءوس أموال ذات قيمة في أيديهم !

وأكثر من هذا ، فقد قام « بولس » يناهض بدعوته روح التحرر التي بدأت تستيقظ في نفوس العبيد والأرقاء ، وبدأت ثوراتهم تقلق الرومانيين ، وتهز أركان الامبراطورية!

يقول بولس في إحدى رسائله :

« الدعوة التي دُعي فيها كل واحد ـ يقصد المسيحية ـ فليثبتْ فيها ... دُعيتَ وأنت عبد فلا يهمّك ! بل إن استطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحرى ، لأن من دعي في الرب وهو عبد فهو عتيق الرب ، وكذلك أيضاً الحر المدعو ، هو عبد المسيح .. »

ثم يقول: (لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة مرتبة من الله [١]) .

لقد رد بولس الأفكار التي كانت سائدة في محيط الرومانيين ، والتي نادى بها « أرسطو » في كتابه «السياسة» ، وهي أن الناس ولدوا أحراراً وعبيداً ، وسادة ومسودين ، وحاكمين ومحكومين ، بحسب الفطرة .

وبهذه الدعوة التي دعا بها بولس الأرقاء إلى البقاء في قيد العبودية إلى الأبد ، كما دعا الناس إلى الخضوع والاستسلام للسلاطين ، لأنهم يأخذون سلطانهم من الله ـ بهذه الدعوة وجد بولس سنداً قوياً من حكام روما وولاتها ، وسادتها . . .

وفي هذا يقول « ول ديورانت » في تعليقه على آراء بولس هذه : « لقد كان خليقاً بروما أن تُبقي على فيلسوف طيّع إلى هذا الحد [٢] ! ! » .

---

(١) رسالة بولس الى أهل رومية ١٣ : ١

(٢) قصة الحضارة جزء ١٢ ص ٢٦٦ .

بولس ودوره فى قيام المسيحيـة :

والواقع أن «بولس» — لا المسيح — هو مؤسس المسيحية، وواضع لاهوتها، فما جاء المسيح — كما تصرح الأناجيل — ليقيم ديناً جديداً يحمل اسمه . . . إنه ماجاء لينقض الناموس والأنبياء — ناموس إسرائيل وأنبياء إسرائيل — ولكنه جاء، ليتمم، كما تقول الأناجيل ذلك على لسانه .

ولقد وجد بولس فى شخصية المسيح، وفى الجو الذى تركه بعده مايصلح لأن يقيم منه ملحمة شعرية رائعة، تأخذ بمجامع القلوب وتأسر الألباب . . . بما فيها من مواقف مثيرة يقصر عنها خيال الشعراء !

ففى ميلاد المسيح موقف يلتفت له الدهر، وفى موته وقيامته موقف يناظر موقف مولده بل ويُرْبى عليه .. وفيما بين مولده وموته، وفى كل خطوة كان يخطوها، وفى كل لفتة كان يلتفتها — بين مولده وموته — آيات تخلب وتروع وتذهل !

فما فى الدنيا حياة تشبه حياة المسيح هذه، فى تحريكها للعقل وإثارتها للوجدان، وبعثها للخيال !

والقديس بولس مهيأ بحكم نشأته وثقافته، ومولده لأن يكون «هوميروس» هذه الملحمة !

كان والده مواطناً رومانياً، ورث عنه ابنه بولس هذا الحق الثمين، فكان يعيش بين اليهود وفى اليهود بهذا الامتياز الذى انتفع به فى كثير من مواقفه، وفى أثناء دعوته بنوع خاص !

ولا شك أن هذه «الرعويّة الرومانية» التى كانت ميراثاً فى بيته، قد أثرت تأثيراً مباشراً وغير مباشر فى حياة الأسرة المادية والعقلية، ووثقت الصله بينها وبين العقلية الرومانية .

وكان كلما مضى الزمن بهذه « الرعوية » ازداد تقارب الأسرة ــ أسرة بولس ــ من الرومان ، بقدر بعدها عن أصلها اليهودى . .

وقد التقى بولس بالمسيح — أو على الأصح بأتباع المسيح — بتلك العقلية المزدوجة ، وبهذه المشاعر المختلطة ،التى تجمع بين اليهودية والرومانية .. فكان يهودياً رومانياً فى شخص واحد . .

فبشخص اليهودى انضم إلى اليهود فى مطاردة أتباع المسيح ، وتضييق الخناق عليهم ، وملاحقتهم بالضر والأذى أينما وجدوا . . وذلك أول الأمر .

ثم هو بشخصية الرومانى استمد سلطاناً قويا يضرب به أتباع المسيح . . فجعل من نفسه قوة متحكمة فيهم وفى دمائهم ! !

ويحدث تاريخه الذى يحفظه كل مسيحى أن بولس كان أشد الناس إيذاء لأتباع المسيح ، وأكثرهم إرهابا لهم وعدوانا عليهم .

يقول « ول ديورانت » عن المقطع الأول من حياة بولس : « وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعا عن اليهودية وانتهى بنبذ اليهودية دفاعاً عن المسيح . . وكان فى كل لحظة من لحظاته داعيا ورسولا . فلما هاله احتقار اسطفانوس للناموس انضم إلى قتلته وتزعم الاضطهاد الأول للمسيحيين فى أورشليم . . ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له أتباع كثيرون فى دمشق تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق.. إلى الجماعات:حتى إذاوجدأناسا فى الطريق رجالا أونساء يسوقهم موثقين إلىأورشليم (١) »

وكان مولده فى «طرسوس» فى السنة العاشرة من ميلاد المسيح ، وكان يغلب على هذه المدينة الطابع الرومانى ، فتعلم اللغة الرومانية ، ووقع لأذنيه كثير من المعتقدات السائدة فيها . . وكان فى « طرسوس » كما فى غيرها من المدن اليونانية أتباع « للأرفية » وغيرها من العقائد الخفية . . يعتقدون أن الإله الذى يعبدونه قد مات

(١) قصه الحضارة جزء /١١ ص ٢٥١ .

من أجلهم ، ثم قام من قبره ، وأنه إذا دعى بإيمان حق ، وصحب الدعاء بعض الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم ، وأشركهم معه فى مهبة الحياة الخالدة المباركة . . »(١)

ثم دخل بولس فى المسيحية دخولا مفاجئا ، على أثر حلم يقول إنه رآه فغير مجرى حياته كلها ، فأصبح داعية المسيحية الأول ، والمطوف بها شرقا وغربا ، والشارح لدعوتها ، والمحتمل فى سبيلها كل أذى واضطهاد . .

يقول ول ديورانت : (لقد عثر بولس فى حنايا الشريعة اليهودية على حلم يصور لليهودية فلسفة الحشر والنشر ، فحرره ووسع نطاقه وجعله عقيدة ذات قوة تستطيع أن تحرك العالم بأسره . .

«واستطاع بصبره الشبيه بصبر رجال السياسة أن يمزج مبادىء اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة ، وأوجد طقوسا خفية جديدة ... وأحل العقيدة محل العمل فى اختبار الفضيلة ، وكان من هذه الناحية بداية العصور الوسطى .

ثم يقول :

« ولسنا ننكر أن هذا كان تغيراً يؤسف له كل الأسف ، ولكن لعل الإنسانية هى التى شاءت أن يكون . . ذلك أن الذين يستطيعون أن يحذوا حذو المسيح هم أقلية من القديسين .

ثم يقول أيضا :

«ومرت خمسة عشر قرنا من الزمان قبل أن يجعل (لوثر) بولس رسول الإصلاح الدينى ، ويجد فيه « كلفن » النصوص القائمة التى أخذ عنها عقيدته الجبرية

---

(١) قصة الحضارة جزء / ١١ ص ٢٥٢ .

«وبهذا كانت البروستنتية نصراً لبولس على بطرس، وكان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة — نصراً لبولس على المسيح (١) !» .

ويقصدول ديورانت بقوله : «كان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة ـ نصراً لبولس على المسيح» أن المسيح لم ينقض الناموس، ولم يلغ الشريعة وما يتصل بها من طقوس وأعمال، بينما «بولس» جعل مجرد الإيمان والعقيدة ـ كما صورها فى حياة المسيح ـ هى سفينة النجاة، التى تنقل الإنسان من الهلاك والفناء إلى الحياة والخلود، بعد أن كفّـر المسيحُ بصلبه خطايا البشر جميعاً ..

فالمسيح يقول : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل .. الحق أقول لكم إنه إلى أن تزول السموات والأرض لايزول من الناموس بناء ولا نقطة ولا حرف حتى يتم الكل (٢) » .

ولكن القديس بولس فسّر فى رسالته إلى الرومانيين وإلى العبرانيين معنى هذا التكميل بقوله : « فالعقيدة واحدة والشريعة الخالدة واحدة قد طبعها الله فى طبيعتنا قبل أن ينزّل على موسى فى الألواح ..

« فإذا ما الأمم الذين ليس عندهم — ناموس — عملوا طبيعياً بما هو فى الناموس، فهؤلاء الذين ليس عندهم ناموس هم ناموس لأنفسهم، إذ يظهرون أن ما يفرضه الناموس مكتوب فى قلوبهم، وضميرهم يشهد »!

وقد استطاع « بولس » بهذا أن يفتح للدعوة المسيحية طريقاً واسعاً إلى الأمم كلها، وخاصة الشعب الرومانى الذى كان يواجهه بتلك الدعوة، ويبشر بها فى ربوعه، ثم استطاع أخيراً أن يمزج ماعند الرومان من معتقدات بما يمكن مزجه من الشريعة

---

(١) قصة الحضارة جزء / ١١ ص ٢٧٠

(٢) متى : ٥ : ١٧

اليهودية ، وأن يوحى إلى الرومانيين أنهم ليسوا بعيداً عن دعوة المسيح،ولا عن شريعة اليهود ! . .

هذا ،وقد أثبت المؤرخون أن إدخال الخداع فى الدين من القرون الأولى كان ضرورياً كما قال « موشيم » المؤرخ المشهور فى بيان علماء القرن الثانى فى الصحيفة ٦٥ من المجلد الأول من تاريخه المطبوع — سنة ١٨٣٢ . . « كان بين متبعى رأى أفلاطون وفيثاغورس مقولة مشهورة هى : « أن الكذب والخداع لأجل أن يزداد الصدق وعبادة الله ليسا بجائزين فقط ، بل إنهما قابلان للتحسن »!! وتعلم منهم يهود مصر هذه المقولة كما يظهر هذا فى كثير من الكتب القديمة ، ثم أثروا بهذا الغلط السوء فى المسيحيين ، كما يظهر هذا الأمر فى الكتب الكثيرة التى نسبت إلى الكبار كذباً » .

والحق أن (بولس) كان يعيش بعقل رومانى ، وفلسفة رومانية ، وأنه استطاع أن يخلق من حياة المسيح وما كان يروى من أخباره العجيبة المثيرة « إلياذة » جديدة ، متنزلة من العالم العلوى لتمثل على الأرض !

يقول ول ديورانت : « وقد استطاع « بولس » بهذه التفسيرات كلها أن يغض النظر عن حياة يسوع الواقعية ، وعن أقواله التى لم يسمعها منه مباشرة ، واستطاع بذلك أن يقف على قدم المساواة مع الرسل الأولين[1] الذين لم يكونوا يجارونه فى آرائه الميتافيزيقية . . لقد كان فى وسعه أن يخلع على حياة المسيح وعلى حياة الإنسان نفسه ، أدواراً عليا فى مسرحية فخمة ، تشمل النفوس على بكرة أبيها، والأبدية بأجمعها .

« وكان فى وسعه فوق هذا أن يجيب على الأسئلة المربكة ، أسئلة الذين قالوا :

---

(١) يقصد الاثنى عشر حوارياً الذى عاشوا مع المسيح وتتلمذوا على يديه .

إنه إذا كان المسيح إلهاً حقاً فلم رضي أن يقتل ؟ فقال : إن المسيح قد قتل ليفتدي بموته العالم الذي استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم!! فكان لابد أن يموت ليحطم أغلال الموت ، ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله!![1] » .

لا شك أن بولس قد غير وجه المسيحية ، أو بمعنى أدق غير وجه رسالة المسيح وخلع عليها من ذات نفسه تلك الصورة التي نمت وترعرعت على يد من جاءوا بعده من تلاميذه .

وفي هذا يقول ول ديورانت :

« ومن حقنا أن نعتقد أن بعض المبادىء الدينية والأخلاقية الرُّواقية انتقلت من البيئة المدرسية في « طرسوس[2] » إلى مسيحية « بولس ».. فهو يستعمل اللفظ الرواقي « نيوما » أي النفس، للدلالة على المعنى الذي يستعمل فيه مترجموه الإنجليز لفظ « الروح » ، وكان في طرسوس كما كان في معظم المدن اليونانية أتباع للأُرفية وغيرها من العقائد الخفية ، يعتقدون أن الذي يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره ، وأنه إذا دعي بإيمان وحق وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم .. وهذه الأديان الغامضة هي التي أعدت اليونان لاستقبال بولس ، وأعدت بولس لدعوة اليونان ! » .

ثم يقول ول ديورانت :

« وعرض بولس الإنجيل على غير اليهود من أهل « كورنثة » (بلد يوناني) ودخل كثيرون منهم في دينه . . ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة أخرى من الأديان الخفية ، التي طالما حدثتهم عن المنقذين الذي يبعثون بعد موتهم . . ولعلهم

(١) قصة الحضارة جزء / ١١ ص ٢٦٥ .

(٢) مدينة على الساحل السوري عاش فيها بولس وبدأ فيها التبشير بدعوته وكانت تحت حكم الرومان !

حين تلقوها ـ أى المسيحية ـ مزجوها بتلك العقائد القديمة، وأثروا فى بولس، وجعلوه يفسر المسيحية تفسيراً يقبله العقل « الهلنستى »(١) .

وكفى برأى هذا العالم الفيلسوف المسيحى شاهداً على أن بولس هو واضع حجر الأساس فى عقيدة التثليث ، التى يدخل بها المسيح فى شركة ثالوثية مع الله ، ثم يصبح هو الإله المشتمل على الأقنومين الآخرين .

لقد فتح « بولس » للمسيحية الباب إلى القول « بالتثليث » وأصبحت كلماته التى ضمت عليها رسائله كتاباً مقدساً ، له ما للإنجيل من حرمة واحترام . فتناولها الشراح والدارسون من علماء الكنيسة ورجال اللاهوت بكل ما يملكون من طاقات البحث والنظر ، وخرّجوها على كل وجه ممكن أو غير ممكن . . فكانت منها تلك الفلسفة اللاهوتية التى شغلت العقل المسيحى ولا تزال تشغله . . بل وتقلقه وتزعجه !

فلنقف وقفة قصيرة مع مقولات القديس « بولس » فى مواجهة العقل المسيحى لها ، وتأثره بها ، وبناء اللاهوت المسيحى كله عليها .

العقل المسيحى فى مواجهة التثليت :

كان لابد للعقيدة المسيحية وقد صورت على هذا النحو الذى جعل الإله ذا أقانيم ثلاثة ، تعمل منفردة ومجتمعة ، وذلك كله ليدخل المسيح فى شركة مع الله، ثم ليكون هو الإله آخر الأمر محتوياً الأقنومين الآخرين فى كيانه على حين يحتويانه هذان الأقنومان فى كيانهما أيضاً — كان لا بد للعقيدة المسيحية ـ وهذا شأنها — أن تعتمد على فلسفة تفسر كثيراً من هذه المتناقضات التى تواجه العقل حين ينظر إليها ويقلب وجوهها . . فلسفة تردّ على ما يَحيك فى ضمير الإنسان من

---

(٢) قصة الحضارة جزء / ٢ ص ٢١٠

الشكوك والظنون والتهم ،حين يمارس العقيدة ويعايشها ، ويحاول النظر إلى الله من خلالها . . وإنه لكى نعرف شيئاً من هذه الفلسفة ، ينبغى أن ننظر من وراء النظر المسيحى إلى الأقانيم الثلاثة: الأب والابن ، وروح القدس.. فى تفرقها وفى اجتماعها.. فنرى الأب والابن وروح القدس ، بعين المسيحى ، كما يراهم أو يتصورهم .

الأب ما هو ؟

هو فى التصور المسيحى أحد الأقانيم الثلاثة التى تصور حقيقة الذات الإلهية !

فالأب ليس هو الإله — كما يقع ذلك لفهم كثير من الذين لم يدرسوا المسيحية دراسة خاصة ، ولم يدانوها مداناة قريبة . . وإنما هو إله بالإضافة إلى الأقنومين الآخرين.. كما أن كلا من الأقنومين الآخرين: الابن وروح القدس، إله بالإضافة إلى الأقنومين المتصلين به !

فإنك إذا قلت (الأب) مثلا،فمعناه أنه الأب والابن وروح القدس ، وإنما سميته بالصفة التى نظرت بها إلى الله ، وتصورته عليها . . وإذا قلت الابن ، كان معناه الإله الذى يجمع الأب والابن وروح القدس ، وكذلك إذا قلت روح القدس ، كان معناه الإله المنظور إليه من خلال روح القدس !

كيف كان هذا ؟

إنه لكى يكون للمسيح ابنا لله ، ثم ليكون لله — مع ذلك — صفة التفرد بالألوهية التى لم يكن للمبشرين الأولين بالمسيحية أن يقولوا بغيرها ، خاصة وأن الكتاب المقدس هو شريعة المسيحية ، وهذا الكتاب نفسه يقرر التوحيد ويؤكده، على لسان الأنبياء والرسل جميعاً — نقول إنه لكى يكون المسيح ابنا لله مع هذه الاعتبارات القائمة جميعها،فقد جعلت المسيحية تنظر إلى بنوة المسيح نظرة فلسفية عميقة، عمقاً يلقى عليها ظلالا كثيفة من الإبهام والغموض ، حتى تجد فى ذلك مخرجاً من

الحرج الذى أسلمها إليه قولها فى المسيح إنه ابن الله على الحقيقة لا المجاز ! وحتى تكون هذه البنوة شفيعاً للقول بخلاص المسيح من اللعنة ، التى أوجبها الصلب على كل من عاق على خشبة .

لقد بدأت مقولة المسيحيين فى المسيح أنه « ابن الله » — بدأت فى أول الأمر على أنها تعنى البنوة الحقيقية التى نعرفها فيما بين الأبناء والآباء من قرابة ونسب . . وذلك لما بهر الناس من أمر المسيح، ولما وقع بين يديه من معجزات، ثم لما كان من اتصال المسيحية بالوثنيات القائمة فى الأمم التى نقلت إليها دعوة المسيح وبشر بها فى ربوعها ، حيث كانت العقول مهيأة لاستقبال آلهة أو أبناء آلهة تنزل من السماء . .

فإذا قيل لليونانيين والرومانيين مثلا — فى ذلك الحين — إن ابنا لله قد نزل إلى هذه الأرض وكان لهذا الابن من المعجزات ما رآه الناس رأى العين وتناقلته الأخبار إلى أسماع العالم — كان لهذا القول مكانه الذى يستقر فيه من تلك العقول استقراراً مطمئناً !

وقد ألقى دعاة المسيحية بهذه المقولة فى آذان اليونانيين والرومانيين والمصريين والفرس وغيرهم ، فاستمعوا لهم ، وصدقوا دعوتهم ، وآمنوا بالمسيح ابناً حقيقياً لله .. قرابة ونسباً .

ولكن التوراة والأسفار الملحقة بها . . والتى هى شريعة المسيح والمسيحيين — لم تقل شيئاً من هذا ، ولم تنسب لله ابنا . . ثم إنه من جهة أخرى كانت العقول الوثنية قد بدأت تنفصل عن الآلهة التى كانت تتمشى بينها ، وتغض الطرف عنها ، وأخذت ظلالها تنكمش وتختفى رويداً رويداً، بعد أن عاشت فى الناس أزماناً طويلة انكشف فيها أمرها ، واستبانت مواطن الضعف والعجز فيها .

وكان على المسيحية إزاء هذا أن تواجه المشكلة وأن تجد الحل أو الحلول المناسبة لها!!

فهى أولا : تثبت لله إبنا .. ثم هى ثانياً تعود فتقرر أن الله واحد لا شريك له .. إذ ما كان لها أن تقول بغير هذا !

ثم إنها لكى توفق بين هذين المتناقضين عمدت إلى ذات الله تتفحصها وتستولد منها هذا الوليد بغير حبل — كما قلنا .

ما القضية ؟

وتبدأ القضية هكذا :

الله واحد لا شريك له ! هذا أمر مسلم به ، لا جدال فيه !

ولكن .. ما الله ؟ ما كنهه ؟ ما وحدانيته هذه ؟

أهى وحدانية مغلقة صامتة سلبية .. لا عمل لها ؟

أم هى وحدانية مطلقة جامعة ، تدبر ، وتنظم ، وتخلق ؟

لا شك أن الفرض الثانى هو الذى يليق بمقام الألوهية .. هذا الفرض الذى يجعل لله الخلق والأمر فى هذا الوجود .. فلا يمكن أن يتصور العقل أن الله الذى خلق السموات والأرض وما فيهن من أكوان وموجودات ، فى حال ركود وصمت !

وإذن فالله خالق ، مدبر !

ولكن كيف يخلق ، وكيف يدبر ؟

هذا سؤال فرضت المسيحية — أعنى دعاتها — على نفسها أن تجيب عليه ، وأن تدخل فى ذات الله ، وتطلع على مجريات الأمور فيها ، لحاجة فى نفسها ، ستظهر لك بعد قليل !

والإجابة على هذا السؤال لن تكون خالصة لله وحده .. « فالله » — فى هذا التصور المسيحى الثالوثى — ليس ذاتاً واحدة باعتبار واحد ، وإنما هى ذات تجمع فى كيانها ثلاث ذوات .. تعمل ، وتتحرك ، وتتفاعل ، وتتسامر !

« فالأب تكلم على الابن كما قال داود النبى : « قال الرب لربى اجلس على يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك « ١ » (مزموز ١:١) « والابن تكلم على الأب والأب رد عليه كما قال المسيح : أيها الأب مجد اسمك : فجاء صوت من السماء مجدت وأمجد أيضاً » « يوحنا ١٢ : ٢٨ » .

والابن يتكلم عن الروح القدس، قائلا «ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » (يوحنا ١٦ : ٤) .

ويقول صاحب رسالة التثليث والتوحيد . (٢)

« وكل أقنوم يرسل الآخر . .

« فالأب أرسل الابن .. قال الرسل الحواريون : « نحن نظرنا ونشهد أن الله أرسل الابن مخلصاً للعالم » (يوحنا ٤ : ١٤) .

وقال المسيح : خرجت من عند الأب وأتيت إلى العالم وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الأب » (يوحنا ١٦ : ٢٨) .

« والأب والروح القدس أرسلا المسيح كقوله : « منذ وجوده أنا هناك ، والآن السيد الرب أرسلنى وروحه » (أشعياء ٤٨ : ١٦) .

« والمسيح أرسل الروح القدس : كقوله : متى جاء المعزّى الذى سأرسله أنا إليكم روح الحق الذى من الأب ينبثق (يوحنا ١٥ : ٢٦)

---

(١) أهل التثليث يجعلون الرب الأول الأب ،والرب الثانى الابن ويقولون إنه المسيح ، وهذه الآية بشارة به.. والواقع — فضلا عن المفهوم اللفظى للعبارة ـ يكذب هذا التخريج،فالمسيح عليه السلام لم يوضع أعداؤه فى مواطىء قدميه ، بل الذى حدث أنه أهين وصلب .. على ما يزعمون .

(٢) رسالة التثليث والتوحيد ص ١٩٨ .

ويقول صاحب رسالة التثليث أيضاً :

« ولكل أقنوم عمل خاص به .. فللأب نسب الاختيار ، والتعيين والدعوة!!

« وللابن نسب التجسد والفداء والشفاعة ! !

« فالأب لم يتجسد ، ولكن الابن تجسد » .

« والأب لم يصلب ، ولكن الابن صلب »

« والأب لم يقم بدور الوسيط ولكن الابن هو الذى قام بدور الوسيط .

« وللروح القدس نسب الميلاد الثانى والتجديد والتقديس »(١).

فهذا التصور للإله لا يقيم لله وجهاً .. إنما هو ذات موزعة إلى ذوات ثلاث ــ كل ذات لها دائرة اختصاص تعمل فيها ..

فالابن مثلا : يتجسد ويفدى ويشفع !

والأب لا يتجسد ولا يفدى ولا يشفع !

وهكذا.. ننظر إلى الله من خلال هذه الذوات القائمة فيه ، فلا نجده ذلك الإله الذى يملك الوجود كله والذى بيده كل شىء ، وإليه كل شىء .. وإنما هناك ثلاثة أرباب ، كل رب يذهب مذهباً ، ويملك سلطاناً !

وندع الأب لننظر فى وجه الابن ، حيث تتضح الصورة أكثر ، ويتحدد وجه كل أقنوم ! .

الابن .. ما هو ؟

يقول الأستاذ عوض سمعان فى كتابه : (الله .. ذاته ونوع وحدانيته) :

---

(١) رسالة التثليث والتوحيد ص١٧٩

« يظن البعض أن المسيحية هى أول من قال بوجود أقنوم « الابن » .. لكن الحقيقة غير ذلك ، لأنه بالرجوع إلى التوراة نرى إشارات واضحة عن هذا الأقنوم فقد قال الله تعالى على لسان « داود » النبى سنة ألف قبل الميلاد عن شخص يجب أن تخضع له كل ملوك الأرض .

« أنت ابنى » (مزمور ٢ : ٧)[١] .. كما خاطب « أجور » — أحد رجال الله الأتقياء — صديقاً له سنة ٩٥٠ ق. م قائلا له بالوحى: «من ثبّت جميع أطراف الأرض ؟ .. ما اسمه ؟ وما اسم ابنه إن عرفت ؟ « أمثال ٣٠ : ٢ ـ ٥) ثم يعلق الأستاذ عوض على هذا بقوله : « ولذلك كان علماء التوراة يعرفون تمام المعرفة أن لله ابناً ، وهذا الابن هو المعلن لله، وهو ذاته ـ أى ذات الله — معلناً وظاهراً[٢] ».

وندع ما ينسبه الأستاذ « عوض » إلى التوراة وما يأخذه من مقولاتها فقد تحدثنا عن استشهاد أصحاب التثليث بالتوراة ومقولاتها وكشفنا عما فى هذه الاستشهادات من تهافت واعتلال .

وننظر فى قوله إن الله ابناً وهذا الابن هو المعلن لله أو هو ذات الله معلناً وظاهراً » .. فهذا القول صريح فى أن الله قد أعلن ذاته فى ابنه وأنه بغير هذ الإعلان ما كان لله وجود يعرف به ! .

وهذا القول ليس جديداً على العقل البشرى ، بل هو مما وقع فى تصورات

---

(١) نص عبارة التوراة الواردة على لسان داود هكذا : « إنى أخبر من جهة قضاء الرب ، قال لى : أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك ، اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك . . . »

وواضح أن هذا النص لم يتحقق فى شخص المسيح ولا فى غيره ... فليس هناك من خضعت له كل ملوك الأرض ..

(٢) الله : ذاته ونوع وحدانيته صـ ٤٨ .

الفلاسفة والعلماء قبل المسيحية بعدة قرون . . إذ كان مما وقع لتصورات الفلاسفة عن الله أنه فى علوه وعظمته لا يليق له أن يتصل اتصالا مباشراً بالوجود والموجودات ! وأنه لكى يظل فى جلاله ينبغى أن يكون بينه وبين العالم وسيط ! :

فقد كان أفلاطون يقول عن الله : (إن الله أزلى أبدى . . وهو منزه عن الحركة تنزيها مطلقا .. وكان معه فى الأزل كائن يدعى « الديموريج » . : هو صورة الخير أو الله والنموذج الحى لذاته والحاوى لجميع المُثُل . .)

وقال الفيلسوف « فيلون » اليهودى : (الله من البعد عن كل مايدركه العقل، بحيث لا نستطيع أن نعلم عنه شيئا ، ولذلك فعنايته بالعالم ليست مباشرة ، بل تتخذ وسيطا ، والوسيط الأول هو « اللوغوس » أو « ابن الله » !

وهذا التصور لله قد أمد المسيحية الأولى بالجواب عن قولها فى المسيح بأنه ابن الله ، وأن نسبته إلى الله ليست بعيدة عن تصور العقل ، إذ كان هذا التصور قد أصبح فلسفة يدين بها كثير من الناس !

ولكن لم تقف المسيحية عند هذا ، بل جعلت الابن بعد ذلك هو الله نفسه، معلنا عن نفسه فى « المسيح » .

يقول الأستاذ عوض سمعان : (أما فى العصر الحديث فقد أدرك معظم فلاسفة المسيحية (لا كلهم !) أن « ابن الله » هو الله : أو الله معلنا [1] » .

وهذه المقولة صريحة فى أن المسيحية قد لبست أثوابا مختلفة ، واتخذت صوراً وأشكالا متباينة ، وأن لها قديما وحديثا ، وأنها كانت فى القديم على مفهوم خاص، ثم أصبحت فى الحديث ذات مفهوم يخالف هذا المفهوم ، وأوضح مثل لهذا ، أنها كانت تعتقد فى بنوة المسيح لله ، ثم تغيرت نظرتها إليه فأصبحت تراه هو الله ذاته ، معلنا فى شخص إنسان هو المسيح !

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨

ولهذا فإننا نقع فى حيرة كبيرة ،إذا نحن اعتبرنا هذه المقولات التى تقال فى التثليث وتشرح حقيقته ، قد وردت موردا واحدا ، وصورت فى حال واحدة . . وذلك لما بينها من اختلاف بعيد ، لا يمكن تسويته حتى ولو باصطناع الغفلة ومجافاة العقل . . ولكن يمكن أن يكون لهذه الاختلافات والمتناقضات مدخل إلى العقل ،إذا نحن اعتبرناها مقولات متلبسة بظروف وأحوال مختلفة ، وأنها وليدة تطورات فى العقل المسيحى ،ونتيجة تسويات لما كان يدور فى محيط العقيدة المسيحية من خلاف ، تكاد تتصدع به العقيدة ، وينهار بناؤها !

فالابن مثلا.. قد لبس — كما قلنا — أثوابا متعددة ، وتشكل فى صور مختلفة

فهو الكلمة . . كلمة الله

وهو الابن . . ابن الله

وهو الابن . . الذى يجلس على يمين الأب .

والتوفيق بين هذه الآراء المتعارضة المتضاربة ، كان من عمل الكنيسة ومهمتها ، فى إقناع أتباعها به ، بعد أن أصبحت هذه المقولات كلها عقيدة يجب التسليم بها جميعا، والإيمان بها كوحدة واحدة !

وإنه لا بأس هنا من أن نعرض بعض مايقول المثلثون فى مواجهة هذه التحديات الصريحة ، لبديهة العقل .

يقول الأستاذ الشماس « يسّى منصور » واعظ بطريكية الأقباط الأرثوذكس بالإسكندرية :

« إن هذا الكون العظيم لا يدل لنّا على وجود الله وقدرته فقط ، ولكنه يدل لنا أيضا على طبيعة لاهوته ، وما به من تعدد فى الأقانيم !

وكيف هذا ؟

خذ الجواب من الأستاذ يسّى منصور : يقول :

« فإذا تأملنا فى ماهية الله[1] على ضوء الخليقة لوجدنا فيه — أى فى الله — النسبة، والقدرة ، والانفعال المتبادل ، والمماثلة ! .

وهذه الأمور الأربعة تدعم عقيدة التثليث ، وتجعلها مطابقة المنطق والعقل ! »

ويتجه الأستاذ يسّى منصور إلى المسلمين ومعتقدهم فى الله . . فيقول :

« وهنا نسأل إخواننا المسلمين الأعزاء الذين يعتقدون بتنزيه الله المطلق : كيف استطاع الإله الخالق أن ينتقل من حيز التنزه عما سواه إلى قيامه بالخلق وصيرورته خالقا ؟ .

« أليس عمل الخلْق هو بدء علاقة أو نسبة بين الخالق وماسواه ؟

« فقد حدث حادث جديد مع الله ، حيث صار خالقا لخليقة وجدت معه ، فى بدء ظرف من الزمن ، وصار ربا للعالمين ، والعالمون صاروا عبيدا له !

ويبنى الأستاذ « يسّى » على هذا القول نتيجة يرى أنها لازمة ، فيقول فى جزم وتوكيد :

« إن الاعتقاد بالله مثلث الأقانيم يدل على أن خلق العالم لم يكن بدء تعلقات الذات، لأنه يجعل الله ذا علاقات منذ الأزل قائمة به ، باعتبار تعدد أقانيمه المباركة ، فكل أقنوم له علاقة وله نسبة بجانب الآخر ، وله علاقة بغيره » !

ولاندع هذا الكلام يمضى هكذا ، دون أن ننظر فى هذا التناقض الصارخ الذى ينطوى عليه .

فالمسيحية إذ تريد أن تنزه الخالق — جل وعلا — عن أن يكون للحادثات

---

(١) ونقول إن التأمل فى ماهية الله هو أول خطوة إلى التيه الذى لا يرجى لسالكه رجعة . . فإن التأمل فى ماهية الله مضلة ومعثرة للعقول .

المخلوقة تعلق بذاته الأبدية ـ إذ أن الله قديم، والمخلوقات وجدت بعد عدم ، فكيف يكون للحادث تعلق بالقديم ؟ — المسيحية إذ تريد أن ترفع هذا التناقض وأن تجد له التصور الصحيح، دخلت فى دروب ومتاهات ملتوية مظلمة ، ثم عادت وملء يديها ألغاز ومعميات ، لا يعرف لها وجه ولا ذنب !

فأولا : جعلت بين الله وبين ذاته نسبة . . فالله — كما تتصوره — ليس ذاتا مغلقة على نفسها ، بل هو ذات منفعلة متفاعلة مع نفسها فى أقانيمها الثلاثة : الأب والابن ، وروح القدس . . وبين هذه الأقانيم الثلاثة علاقة ونسبة أبدية أزلية !

ثانيا : إذ ساغ أن يكون لذات الله علاقة ونسبة فى أقانيمها ، ساغ أن يكون لهذه الأقانيم علاقة بينها وبين الحادثات ، دون أن يكون فى ذلك مايلحق النقص فى ذات الله . . إذ أن الذات لم تتعلق بالحادثات ، وإنما الذى تعلق بها أقانيمها التى هى واسطة بين الذات وبين الحادثات !

ومفهوم هذا أن الذات الإلهية لايليق بها أن تقوم بينهـا وبين الحادثات علاقة ، ولكن هذه الذات حين تتوزع إلى أقانيم يكون من المقبول أن تنشأ بين هذه الأقانيم وبين الحادثات علاقات ونسب !

وهذا منطق عجب ، لا ندرى كيف نجد الصفة المناسبة له !

فالله — كما تقول المسيحية — هو الأب والابن وروح القدس . .

والأب والابن وروح القدس هم الله ، كما تقول المسيحية أيضا .

فكيف يكون الله بأقانيمه مجتمعة على وصف خاص ، ثم يكون بأقانيمه متفرقة على وصف مخالف لهذا الوصف ؟ إن هذه المخالفة بين الحالين تعنى تغيراً طرأ على الذات ، فتغيرت به صفتها . . فكانت فى حال بعيدة عن مماسة الحادثات ، ثم كانت فى الحال الأخرى مماسّة لها . . كيف يكون هذا ؟

ولكن صبرا ، فإن الصورة لم تكتمل بعد . . يقول الكاتب :

« إننا نستدل من خلق الخليقة أن الله قادر على كل شيء !

« فإن قلنا إن قدرته قد ظهرت فى الخلق فقط . . فأين كانت هذه القدرة فى الأزل ؟

« وإن قلنا إنها كانت كامنة لاظاهرة ، وممكنة لاعاملة ، ولم تظهر ولم تعمل إلا عند الخليقة : فكيف يليق هذا القول بالله وهو غنى عن عباده ؟ أليس فى هذا القول نسبة النقص والافتقار لله . . إذ يجعله تعالى يعتمد على وجود الخليقة الحادثة لينال كمال صفاته ؟ .

ثم يقول :

« ولكننا نحن المسيحين نقول : إن الله كامل منذ الأزل ، وقدرته ظاهرة وعاملة فيه بالمحبة المغتبطة القوية المتبادلة بين الأقانيم منذ الأزل .. والخلق العارض لم يجيء غريبا على الله ، بل صدر عن المحبة الفعالة ، وهى ملخص مجموع صفات الذات الظاهرة والعاملة فيه أزلاً ، بوجودها الأزلى بين الأقانيم » (١) .

ونسأل :

أحقا هذه المقولات هى من تعاليم المسيح ؟ وهل هى رسالة المسيحية ؟

وهل جاء المسيح عليه السلام ليعلّم الناسَ هذه الفلسفة ويبشر بها ؟

إن يكن ذلك هو المسيحية ومادعا إليه المسيح وبشر به ، فإنه يعنى أن رسالة السيد المسيح لم يكن لها من داعية، إذ أن هذه المقولات قد عرفها الناس — أعنى الفلاسفة — قبل المسيح والمسيحية بعدة قرون ، وقد عرفنا من قبل رأى « أفلاطون » و« فيلون » فى الوسيط الذى يقوم بين الله والحادثات .. كما عرفنا تصورهما لله ، وأنه

---

(١) رسالة التثليث والتوحيد ص ١٩٨ ومابعدها !

— سبحانه — كما يتصورانه ، لايليق له أن يتصل اتصالا مباشرا بالوجود . .

وإنه لا بأس من أن نعيد قول « أفلاطون » مرة أخرى ، ليكون إزاء هذا القول الذى تقول به المسيحية فى الله وفى أقانيمه (الوسطاء بينه وبين المخلوقات) . .

يقول أفلاطون : « الله أزلى أبدى . . وهو متنزه عن الحركة تنزيها مطلقا .

« وكان معه فى الأزل كائن يدعى « الديمورج » أى الصانع . .

« وهو النموذج الحى لذاته . .

« الحاوى لجميع المثل . .

« فكان من الطبيعى أن يتأمل الله فيه . .

« لأنه تعالى خير . .

« وكان من الطبيعى أن يريد بعد ذلك صنع عالم خير على مثاله .

« فأثر « الديمورج » فى عالم الحس تأثيرا متوافقا مع الخير الأعلى .

« وحوله إلى النظام الذى تسمح به طبيعته .

« وأول ماظهر من تأثير « الديمورج » هو نفس العالم .

« ثم ظهر بعد ذلك جسمه » ! ! (١) .

إن هذه النظرة إلى الله هى نفس نظرة المسيحية ، أو بمعنى أصح ، إن نظرة المسيحية إلى الله هى نفس هذه النظرة التى نظربها أفلاطون إلى الله ، وهى شرح لها ، وبناء قائم على أساسها .

وهذه النظرة ترى أن تنزيه الذات الإلهية لايكون إلا إذا كان مع تلك الذات وسيط أو وسطاء منذ الأزل.. هى التى تخلق ، وهى التى تنعقد بينها وبين العالم روابط ونسب !

---

(١) الله بين الفلسفة والمسيحية ص ٧٠

ويقول الفيلسوف اليهودى « فيلون » فى تصوره لله :

« الله لعدم تنزله للاتصال بالمادة . . لم يخلق العالم مباشرة !

« بل أوجد وسطاء ليقوموا بالخلق !

« والوسيط الأول هو « اللوغوس » أو الكلمة ، أو العقل !

و « اللوغوس » كلمة يونانية يراد بها القوة العاقلة التى تمد الكون بالحياة ، وتدبر أموره ، أو العقل الإلهى ، الظاهرة آثاره فى الكون . . وقد ترجمت إلى اللغة العربية بمعنى «الكلمة» وترجمت إلى اللغات الأخرى بما يتفق مع معنى هذا اللفظ تماما ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن « كلمة الله » ـ كما هو مصطلح عليه عند الناس ـ هى التى تعبر عن مكنونات الله وتنفيذ مقاصده !

وقد خطت الفلسفة المسيحية بهذا المعتقد خطوة أخرى ، فأقامت من « كلمة الله » أو « اللوغوس » جسدا إنسانيا أعلن الله فيه ذاته أو مشيئته هو « المسيح » !

بل نقول إن المسيحية لم تخط هذه الخطوة أيضا ، وإنما كل ماعملته أنها جعلت كلمة الله أو مشيئة الله هى « المسيح » ثم عادت فجعلت المسيح هو الله ! .

يقول سليمان جيرول (فيلسوف يهودى) : الله منزه عن الاتصال بالعالم ، لذلك كان لابد من وسيط بينه وبين العالم ، وهذا الوسيط هو المشيئة الإلهية » . .

وتقول المسيحية: إن المشيئة الإلهية .. هى المسيح.. والمسيح هو المشيئة الإلهية ، والمشيئة الإلهية والإله ذات واحدة ! !

«لأنه يوجد إله واحد، ووسيط واحد، بين الله والناس.. الإنسان يسوع المسيح» (رسالة بولس ا ت ٢ : ٥)

ويقول أفلاطون :

« الله أزلى أبدى . . وهو منزه عن الحركة تنزيها مطلقا »

« وكان معه منذ الأزل كائن يدعى « الديمورج » أى الصابع .

« وهو صورة الخير ، أو صورة الله ! »

وتقول المسيحية عن المسيح :

« الذى هو صورة الله الغير منظور . . بكر كل خليقة .. الذى هو قبل كل شيء ، وفيه يقوم الكل (رسالة بولس إلى أهل كورنثة ١ : ١٧) .

ونعود فنسأل مرة أخرى :

أين هى المسيحية ؟ وأين جديدها الذى جاءت به إلى الحياة ؟

إنه لاجديد إلا فى وجه المسيح الذى طلعت به على الناس ، وأرتهم منه الصورة المجسدة التى كانت تعيش فى عقول الفلاسفة باسم « اللوغوس » أو « الكلمة » أو « العقل الإلهى » . . !

هذا ، وقد تأثر بعض علماء المسلمين — لا العقيدة الإسلامية — بهذه الفلسفة الأفلاطونية والمسيحية ، وتخلق منها هذا الشعور الذى أغرى كثيرا من علماء المسلمين بالجدل الكلامى ، فى ذات الله وفى صفاته ، والذى تجمعت منه المدرسة الكلامية المعروفة فى الإسلام .

يقول أبو الهزيل العلاف « أحد المتكلمين المسلمين » : « إرادة الله فى الخلق ليست أزلية ، بل إن كلمة « كن » أو « التكوين » التى تعبر عن الإرادة الإلهية حادثة فى محل ، والإرادة تغاير المريد والمراد . . وعلى هذا فكلمة التكوين هى المكان الوسط بين الخالق الأزلى ، وبين المخلوق الحادث »

وهكذا جرى بعض علماء الكلام من المسلمين على هذا ! الفهم لصفات الله وتصور ذاته من خلالها . .

فالله عندهم .. عقل ، وعاقل ، ومعقول ، وعلم وعالم ، ومعلوم . . . الخ

ولـكن الذى ينبغى أن يـكون مفهوما هناهو أن مثل هذه النظرات من العقل الإسلامى لاتحسب على العقيدة الإسلامية ، ولا تدخل عليها بشىء من تصوراتها ، وإنما هى بمعزل عن العقيدة ، لاتعدو أن تـكون رياضة ذهنية ، أشبه بما يقوم به العقل فى مجال البحث العلمى .. فى الرياضة والفلك والطب وغيرها .

إن هذه النظرات المحدقة فى ذات الله ، والمتطلعة فى تطفل وفضول إلى كنه الذات — هى لحساب الفلسفة ، التى هى رياضة ذهنية يهيم بها العقل فى كل واد .

فالعقل أن يتحرك كيف يشاء ، وأن يمدّ نظره إلى كل اتجاه ، غير محجور عليه حتى النظر إلى ذات الله . . ولـكن ذلك لايقيم له عقيدة دينية سليمة عن الله ، إذ كثيرا مايشرد العقل ويضل ، حين يحدق فى هذا النور الوهاج ! ولهذا جاء الرسل والأنبياء ليقيموا الناس على فهم سليم صحيح لله ، وليروهم منه مايصلح عليه إيمانهم به ، وإجلالهم وحبهم له !

ولـكن المسيحية سلـكت طريقا غير هذا الطريق . .

إنها جعلت الفلسفة هى الـكتائب التى جمع دعاة المسيحية أطرافها من العقل اليونانى ، ثم غزوا بها هذا العقل نفسه واقتحموا عليه معاقله . .

إن ماوقعت فيه المسيحية من متناقضات ، كان من هـذه الجهة . . إذ أقامت عقيدتها على الفلسفة ولم تقم الفلسفة — إن كان لابد من فلسفة — على العقيدة !

كانت الفلسفة اليونانية هى البناء الأول فى العقل المسيحى .

ثم كانت العقيدة المسيحية هى المولود الشرعى لهذه الفلسفة !

يقول ول ديوارنت :

«ولما أن فتحت المسيحية «رومة» انتقل إلى الدين الجديد ـ أى الدين المسيحى ـ بناءُ الدين الوثنى القديم !

« انتقل إليه — أى إلى الدين المسيحى — لقب الجدّ الأعظم ! . .

« وعبادة الأم العظمى . .

« وعدد لا يحصى من الأرباب التى تبثّ الراحة والطمأنينة فى النفوس . .

« والإحساس بوجود كائنات فى كل مكان لا تدركها الحواس . .

« إن هذه كلها انتقلت إلى المسيحية كما ينتقل دم الأم إلى ولدها !

« وأسرت « روما » الأسيرةُ فاتحهَا

« وأسلمت الإمبراطورية المحتضرة أزمة الحكم والمهارة الإدارية إلى البابوية القوية .

« وشحذت الكلمة المواسية بقوة سحرها مافقده السيف المسلول من قوته ، فحل مبشرو الكنيسة محل الدولة ! .

« إن المسيحية لم تقض على الوثنية . . بل ثبتتها . .

« ذلك أن العقل اليونانى عاد إلى الحياة فى صورة جديدة . . فى لاهوت الكنيسة وطقوسها !

« وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الرهيبة !

« فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس، ويوم الحساب، وأبدية الثواب والعقاب، وخلود الإنسان فى هذا أو ذاك .

« ومن مصر جاءت عبادة أم الطفل والاتصال الصوفى بالله !

« ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية واللاأدرية وطمس معالم العقيدة المسيحية !

« ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام (١) »

إذا كان فى هذا القول مبالغة بإضافة هذا الحساب كله إلى المسيحية ، إذ أن

---

(١) قصة الحضارة جزء ١١ ص ٤١٨

المسيحية التى جاء بها المسيح والتى سجلت الأناجيل لقطات منها - هذه المسيحية بشرت بيوم الحساب، وأبدية الثواب والعقاب وخلود الإنسان فى النعيم أو العذاب — نقول إذا كان فى هذا القول مبالغة، فإن فيه كثيرا من الصدق الذى يتمثل فى اتخاذ المسيحية ذات الله وتحليلها وتجسيدها أساسا للإيمان بالعقيدة، جارية فى هذا على ما كان واقعا فى تصورات الفلاسفة، وفى معتقدات الشعوب الوثنية، التى قامت معتقداتها على هذه التصورات الفلسفية، وبهذا قطعت على العقل السبيل إلى الله، إذ مثلته إلهاً فى صورة إنسان، وإنسانا فى ذات إله، وجعلته إلها فى ثلاثة وثلاثة آلهة فى إله . .

ثم إنها — أى المسيحية — إذ رأت العقل يتخبط فى هذه الألغاز والأحاجى عزلته عن النظر فيها، وجعلت ذلك من الأسرار المحجبة التى لا يدركها العقل ولا يعيها الفكر . . وللكنيسة وحدها أمر هذه الأسرار تنفق منها كيف تشاء . . بحساب وبغير حساب !

وحسناً فعلت الكنيسة حين عزلت العقل عن أن ينظر فى هذه المقولات . . فأراحت الناس من هم ثقيل، ورفعت من كواهلهم هذا الحمل الذى تنوء به الجبال . !

ولكنها أساءت من جهة أخرى إساءة تربو على إحسانها هذا إذ فتحت على الناس هذا الباب وأطلقت عليهم منه هذه المقولات وتركتها تغدو وتروح بينهم . . لا تنام ولا تنيم . !

لقد فتحت الباب . . وأطلقت منه هذه الوحوش الكاسرة .. تنهش فى عقول الناس وقلوبهم !

ثم عادت فأوصدت هذا الباب . !

ولكن بعد أن نفذ السهم وأصاب الرمية فى حرم الكنيسة نفسها !

فإنه لا يدخل حرم الكنيسة داخل من أتباعها إلا وفى عقله وقلبه، وعلى لسانه : الأب، والابن، وروح القدس !

إنه لايرفع وجهه إلى الله إلا وهو ينظر إليه بعقل موزع بين هـذه الأقانيم الثلاثة !

وإنه لايفتح قلبه لله إلا ليستقبل فيه الله موزعا فى هذه الأقانيم !

وإنه لايحرك لسانه داعيا ومناجيا ومصليا إلا وهو يدعو ويناجى ويصلى لـكل أقنوم منها بدعاء خاص ، ومناجاة خاصة ، وصلاة مقصورة عليه !

لقد أوقعت الـكنيسة العقل المسيحى فى حيرة دائمة بهذه المقولات عن الله، حين جعلت هذه المقولات أساس العقيدة ،التى لا يـكون المسيحى مسيحيا إلا إذا اعتقدها وآمن بها !

ويـكفى أن نستحضر هنا بعض رجال الدين المسيحى الذين كان إليهم أمر هذه الأسرار الـكنسية كيف كان تصورهم لذات الله وأقانيمها . . وكيف اختلفت أقوالهم وتضاربت تصوراتهم — يـكفى هذا لنعرف مدى الحيرة والاضطراب الذى يركب عامة المسيحيين ،ممن لم يكن لهم علم هؤلاء الأعلام ولا سعة عقولهم ومداركهم !

يقول « سابليوس » الذى كان أسقفا « لباطليماس » :

« الأب والابن وروح القدس.. ليسوا أسماء أقانيم ، بل أسماء ظهورات (تجليات) لأقنوم واحد !

« سمى « الأب » لأنه الخالق ، « والابن » لأنه الفادى، « والروح القدس » لأنه المقدس !

وقال بولس الذى كان أسقفا « لساموسطا » (فى القرن الثالث) :

« الـكلمة والروح صادران من الله أزلا ! »

وقال « أريوس » (فى القرن الرابع) :

« الأب وحده هو الإله الأصلى الواجب الوجود !!

« أما الابن وروح القدس فهما كائنان ،خلقهما الله فى الازل ! ! لكى يكونا وسيطين بينه وبين العالم ،وهما متشابهان له فى الجوهر ، ولكن ليس واحدا منهما فيه !.

وقال « أمورى بين » (فى القرن الثالث عشر) :

« الأقانيم الثلاثة ليست هى الله ، بل هى كائنات سامية خلقها الله أزلا . . . لتقوم بتنفيذ أغراضه ! .(١) »

إن العقل الذى يرفض أن يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا هو الذى حمل هؤلاء الفلاسفة من رجال الكنيسة وقادتها على أن يبحثوا عن تفسير ملائم ، يجد فيه العقل بعض الطمأنينة إلى عقيدة التثليث التى فرض عليه الإيمان بها !

فكان من هذه التفسيرات مارأينا . .

الكلمة والروح صادران من الله أزلا . . .

أى أن الله هو الذى تفرد وحده بالوجود . . ثم كان أول ماصدر عنه الكلمة والروح القدس ، وبهذا يمكن أن يقبل « الثالوث » . . مع تفرد الله وحده بالألوهية أزلا . . كما يقول « آريوس » الأب وحده هو الإله الأصلى الواجب الوجود .. أما الابن وروح القدس فهما كائنان خلقهما الله فى الأزل . . . . .

أما « أمورى » فقد عزل الأقانيم الثلاثة عن الله عزلا تاما .. إذ جعلها كائنات سامية ، خلقها الله أزلا ، لتقوم بتنفيذ أغراضه! .. وبهذا يكون الله وحده..ويكون الثالوث فى خدمته !

ويقول « بوهمى » « فى القرن السابع عشر » :

(١) أنظر رسالة التثليث

« الله فى ذاته أب وابن وروح قدس ..

« فالأب إرادة وقوة .

والابن هو موضوع إرادة الأب وقدرته .

« فالأب بدون الابن هو إرادة وقوة بدون موضوع .. أو بتعبير آخر: هو هاوية وموت ، ولاوجود[١] .

« ولذلك فالابن هو النور الذى ينير الوجود الإلهى ..

« أما الروح القدس فهو الإشعاع المتصل بالابن أو بالحرى المتصل بالنور » .

ويقول « كانت » (فى القرن الثامن عشر) :

« الأب والابن والروح القدس : ثلاث صفات أساسية فى اللاهوت، وهى القدر والحكمة والمحبة ، أو ثلاثة فواعل هى : الخلق والحفظ والضبط » !

وقال سويد نبرغ (فى القرن التاسع عشر) :

« يُطلق الثالوث على المسيح وحده، فلاهوته هو الأب، وناسوته هو الابن، ولاهوته الصادر عنه هو الروح القدس » .

وقال « أكليمنص » مدير مدرسة اللاهوت بالاسكندرية (فى القرن الثانى) « ليس كل أقنوم عين الآخر !

« ومع ذلك فإن الأقانيم ليسوا ثلاث ذوات .

« بل هم ذات واحدة .. هى ذات الله .. لأن جوهرهم واحد وهو اللاهوت .

---

(١) يعلق الأستاذ عوض سمعان على هذه العبارة بقوله لعل غرضه من هذه العبارة هو أن اللاهوت بدون الابن يكون أشبه بالسكون والخلاء منه بالكائن الذى يتصف بصفات واضحة تدل على أن له وجودا ذاتيا !

وقال القديس « ايزيناوس » أسقف ليون (فى القرن الثانى) :

« الابن والروح القدس أزليان كالأب تماما ، ولا فرق بين أقنوم وآخر فى الجوهر أو الخصائص أو الصفات على الإطلاق ، لأنهم هم الله الواحد » .

ونسأل :

إذا كانت هذه الأقانيم الثلاثة متساوية تماما فى كل شىء . . فى الجوهر وفى الخائص والصفات فبماذا أو لماذا تكون ثلاثة ؟ بل كيف تكون ثلاثة.. ثم تكون واحداً ؟

ويقول القديس ديونسيوس بطريرك الإسكندرية (فى القرن الرابع) :

« الأب والابن والروح القدس هم الله.

« لأن الله لاينقسم أو يتجزأ على الإطلاق . .

« لذلك لاينفصل أقنوم عن الآخر بأى حال من الأحوال » !

ونسأل :

ولماذا هذا الفصل ؟ ولماذا كان الله ثلاثة ؟

وكيف يتميز أقنوم عن أقنوم إذا لم يكن منفصلا ؟

ويقول القديس أثناسيوس الرسولى (القرن الرابع) :

« إن كل أقنوم غير الآخر.

« لكن الأقانيم الثلاثة معاً .. هم الله الواحد .

« لأن جوهرهم وهو اللاهوت واحد !

« ليس فى الثالوث أول أو آخر . . ولا أكبر ولا أصغر !

« فالأب . . هو الله !

« والابن . . هو الله !

« والروح القدس.. هو الله

« وكلهم هو الله !

ونسأل أيضاً:

ألسنا نرى هنا ثلاثة آلهة ؟

الأب وحده هو الله ؟

والابن وحده هو الله ؟

والروح القدس وحده هو الله ؟

والثلاثة معاًهم الله ؟

الله يتفرق فيكون ثلاثة آلهة .

ويجتمع فيكون إلهاً ؟

فأين العقل الذى يقبل هذا ؟ أو يحتمل هذا ؟

وإذا قبله العقل أو احتمله فى حال ما .. فكيف يصبر عليه ؟

وبعد ، فلست أدرى ماذا يحمل أتباع الرسالة العيسوية الكريمة الرقيقة، الصافية صفاء الروح، المشرقة إشراق النور ، الوضيئة، وضاءة الضحى ـ لا أدرى ماذا يحملهم على الذهاب بها هذا المذهب الوعر المتعسف الذى يعصف بالعقول ويذهب بالألباب، ويوقع أذكى الأذكياء فى بحر متلاطم من الحيرة والبلبال.. فكيف بالعامة والدهماء، وهم معظم الناس فى كل زمان ومكان ؟ ؟

ونظرة فى كلمات السيد المسيح عليه السلام التى التقطتها الأناجيل من فمه الطهور ترينا وجه هذه الرسالة المشرقة الوضيئة ، وأنها نور من نور!

إن كلمات السيد المسيح التى كان يُلقى بها إلى أتباعه، مشرقة الديباجة ، بينة القصد ، واضحة الدلالة ، مستقيمة المعنى ، لاغموض فيها ولاخفاء معها . .

ثم إنه — صلوات الله عليه — كان لا يقف عند هذا الحد من إرسال كلماته

البينات الوضيئات ، بل كان يرفدها بالأمثال التي تـكاد تشـكّل كلماتها شخوصا تتحرك ،و تنطق ، وتجادل ، وتفحم !

إنه عليه السلام — ما استقبل شبهة من اليهود ولا ووجه بمـكر ، أو سيق إلى مُعمـّاة من معميات الضالين والماكرين إلا ألقى على ذلك كله من نور الحق الذى يملأ كيانه مايفحم القوم ويفضحهم ويلبسهم الخزى والوجوم !

وليس يقوم لدينا أدنى شك فى أن السيد المسيح لم يتحدث بشىء من هـذا الذى عرفته المسيحية من بعده عن الثالوث . . وعن الأب ،والابن ،والروح القدس . .

وقد استعرضنا ـ الأناجيل على مابها وعلى رأينا فيها ـ ، كما استعرضنا رسائل الرسل ـ على مابها وعلى رأينا فيها أيضاً — فلم نجد شيئا عن هذا التثليث ، اللهم إلا ما كان من « بولس» وما حملت رسائله من عبارات لاهوتية غامضة توحى بإيحاءات عن بنوة المسيح وألوهيته وعن الأقانيم الثلاثة المنطوية فيه . . ولـكن كل ذلك كان فى همس وخفوت وتلميح !

يقول الأستاذ (الحداد) فى دفاعه عن التثليث،وأنه عقيدة التوحيد الخالص لله!

« النصرانية منذ كانت هى دين التوحيد . . مع قولها بعقيدة التثليث فى الطبيعة الإلهية الواحدة !

« فالتثليث المسيحى الصحيح لايعدّد ولايجزّىء اللاهوت الواحد فى الله الأحد!»

«فالنصرانية أولا وأخيراً تؤمن بإله واحد كما ينص عليه مطلع دستور إيمانها الذى هو شهادتها تحت السماء !

ثم يقول :

« ومن ثَمّ فالإيمان فى ألوهية عيسى ـ لافى تأليهه ـ وفى تأنسه وتجسده،لايزيد شيئاً ولاينقص من طبيعة الخالق الواحدة ! !

فالمسيح عيسى بن مريم هو كلمة الله الذاتية ألقاها إلى مريم، روحا منه، والكلمة الذى صار من مريم جسدا وحل فيما بيننا ،هو الكلمة الذى كان فى البدء .. « الكلمة كان عند الله ، وكان الله الكلمة! »

آمنّا أن المسيحية لاتقول بالتثليث الذى يجعل الله ثلاثة !

ولكن كيف الإيمان بالمسيح إلٰها ؟

وكيف الإيمان بإله يُحبل به فى بطن امرأة ، ويولد من رحم امرأة ، ويرضع من ثدى امرأة ، ويربّى فى حجر ، امرأة ، وتغذوه ، وتكسوه وتقوم على حاجاته امرأة ؟

كيف يليق بجلال الله وعظمته أن يمر بهذه الأدوار كلها ، ويخضع وجودُه لضرورات الأجنّة والطفولة ليعلن نفسه للناس ؟

وندع هذا الآن .. فلنا حديث آخر عنه ؟

ثم يقول الأستاذ الحداد :

« وإذن فالعقيدتان المسيحيتان:التثليث والتجسيد،لاتمتان إلى الشرك بصلة.. إنما هما من صميم التوحيد ! ! وتعتبرهما النصرانية القديمة فى معناها الصحيح تفسيرا منزلا لحياة الحى القيوم السامية .. كما نزل به الإنجيل ! »

ويستشعر « الحداد » أن هذه المقولات غريبة عما جاء فى الأناجيل وفى رسائل الرسل ، وأنها مما دخل على المسيحية فى تطورها مع الزمن ، فيحاول أن يلتمس لهذا مخرجا . . فيقول :

« وهذا التعليم الكامل (يعنى القول بالتثليث والتجسيد) لم يكن الرسل الحواريون يبشرون به لأول وهلة ! بل كانوا ينادون بالتوحيد « الأركان الأولى لأقوال الله » فى ديار الوثنية والشرك !

ثم يعقب على هذا بقوله :

« وبعد توطيد الإيمان كانوا يفسرون للمؤمنين غنى (الطبيعة الإلهية !) فى تفاعلها اللامحدود ، وتسلسها الذاتى اللامتناهى ، على قدر ما يمكن للعقل البشرى المحدود أن يستوعب حياة الحى القيوم اللامحدود ! »

ومفهوم هذا الكلام :

أولا : أن عقيدة التثليث والتجسيد ليست مما كان يبشر به المسيح فى دعوته، ولا كانت مما تعرض له حواريوه . . وإنما هى إضافات وشروح ومفاهيم جديدة، دخلت على تعاليم المسيح ، بعد أن التقت المسيحية بالأمم الوثنية ذات العقائد التى تعدد الآلهة وتجسدها . . وقد عرضنا الأناجيل الأربعة فلم نر فيها إشارة إلى التثليث أو ما يعرف بالأقانيم الثلاثة !

ثانياً : أن القول بأن الدعوة المسيحية التقت بالوثنيين فأنكرت عليهم وثنيتهم ، وعرضت عليهم العقيدة الخالصة لتوحيد الله، دون أن يكون للتثليث والتجسيد حديث فى هذه الدعوة . . ثم إنه لما دخل الإيمان فى القلوب واستقر فى النفوس ، بدأت الدعوة تكشف عن مضمونها الذى كانت تنطوى عليه !

— هذا القول فيه مغالطة وقلب للحقائق التى سجلها تاريخ المسيحية . .

فلقد التقت المسيحية بالوثنية فصافحتها مصافحة المسالمة والموادعة ، بل والمصادقة !! فلم تنكر عليها وجها من وجوهها . . بل إن دعاة المسيحية ورسلها الأولين قد غيروا وبدلوا فى صميم الشريعة ، لكى تجىء على سمت التفكير الوثنى وما استقر فى نفوس الوثنيين وحياتهم من تقاليد وعادات . . وقد تحدثنا من قبل عن « قضية الختان » الذى هو من صميم الشريعة ، وكيف أباح الرسل للرومانيين واليونانيين والمسيحيين جميعا — غير اليهود — أباحوا لهم التحلل منه ، وترك الأخذ به ، بعد أن نفروا منه

ونفروا من المسيحية من أجله . . وكذلك كان الشأن فى « الخنزير » الذى تحرمه الشريعة . . فلقد أباح رسل المسيحية للمسيحيين أكله ، استجابة للعادة التى كانت قد رسخت فى الوثنيين ، من استطابة طعامه والحرص على اقتنائه !

ومن جهة أخرى ...

هل بدأت دعوة المسيح فى ديار الوثنية والشرك .. أم أنها كانت لقوم يؤمنون بالله ، ويقرون بوحدانيته ، وهم اليهود ؟

وإذا كان الجواب بنعم ، وهو لابد أن يكون بنعم .. كان على المسيح أن يتولى بنفسه لهؤلاء المؤمنين « تفسير غنى (الطبيعة الإلهية) فى تفاعلها اللامحدود وتسلسلها المتناهى . . الخ » .

لقد واجهت دعوة المسيح جماعة مؤمنة بالله.. ولكنها كانت غارقة فى العصيان، خارجة على الحدودالتى أمر الله بالوقوف عندها،فكانت رسالة المسيح فى هذه الجماعة، أو الخراف الضالة — كما وصفها — أن يقيمها على جادة الطريق ، وأن يرد هذا القطيع المعربد ، إلى الله ، بعد أن شرد شرودا بعيدا عن شريعته !

لهذا فلم يكن للمسيح مع جماعة اليهود التى واجهها حديث عن الله ، وإنما توجيه إلى الله ، وترغيب فى ثوابه وتخويف من عقابه .

سأل يسوعَ أحدُ علماء إسرائيل : أى وصية هى أولى الوصايا جميعا ؟

« فأجابه يسوع بالشهادة الموسوية التى يتلوها اليهود كل يوم :أولى الوصايا جميعاً هى :

« اسمع ياإسرائيل . . الرب إلهنا هو الرب الوحيد

« فأحبِبْ الرب إلهك بكل قلبك ، وكل نفسك ، وكل ذهنك ، وكل قوتك !

« والثانية ، هى : أحبب قريبك كنفسك !

« وليس وصية أخرى أعظم من هاتين . .

« فقال له الكاتب : حسن يامعلم ، فقد أصبت إذ قلت إنه[1] الوحيد ، ولا آخر سواه .

«وإن محبته بكل العقل وكل القلب وكل القوة ومحبة القريب كالنفس لأفضل من جميع المحرقات والضحايا (مرقص ١٢ : ٢٨ — ٣٤)

وواضح من هذا النص أن المسيح لم يشرح قضية الألوهية ، ولم يتعرض لذات الله ، ولا لما يقال من أقانيم فيه ، وإنما تحدث عن إله واحد لاشريك له ، ولاتعدد لذاته . .

ونعود فنقرر مرة أخرى . . إنه لو كان « التثليث » من عقيدة الإيمان بالله والتعرف عليه ، لكان المسيح أولى الناس بالتبشير به وشرح خفاياه ، ولكان بعمله هذا قد أضاف جديداً إلى ماعند اليهود المرسل إليهم ، من علم بالله ومعرفة به . .

ثالثاً : إذا كان التثليث من صميم العقيدة . . فكيف ساغ للمبشرين الأولين بها فى دار الوثنية أن يحجبوا عنهم هذه الحقيقة وأن يحدثوهم عن الله الواحد دون أن يطلعوهم على الله ذى الثلاثة أقانيم ؟

وكيف صح إيمان من آمنوا بالله على هذا الوجه ، دون أن يعرفوا أقانيمه الثلاثة ؟

بل كيف صح، إيمان الحواريين والرسل الذين لم يكن لهم نظر إلى هذه الوجوه الثلاثة من ذات الله ؟

---

(١) أى الله سبحانه وتعالى

بل كيف كان إيمان المسيح الذى ما نطق لسانه بكلمة أقنوم ، ولا وجه وجهه إلى الله وخاطب فيه هذه الأقانيم الثلاثة ؟

وإذا أعفى المسيح نفسه من هذا لأنه هو الله ذو الثلاثة الأقانيم . . فمن أعفى الحواريين والرسل ، إذا كان المسيح قد حمّلهم رسالته وجعلها أمانة فى أيديهم ؟

إننا لا نملك إزاء هذا الموقف الذى يعتقل العقول ويقلب منطقها ـ لا نملك إلا أن نتعلل ببيت أبى العلاء الذى لا نملك غيره حيال هذه المصادمات ، التى تورث الحيرة والبلبال . . فنقول

هذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول

وإذا حمدَ الناس العقل فى كل موطن ، وحرصوا على صحبته فى كل حال ، فإنه هنا فى مواجهة هذه الطلاسم ، وفى حمله على أن يعتبر الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا — إنه هنا صاحب مخالف ، لا تحمد صحبته ، ورفيق مزعج ، من الخير مجافاته ومفارقته !

* * * *

الباب الرابع

الصلب .. والقيامة

« لقد مات ابن الله !! ذلك شيء معقول: لا لشيء ، إلا لأنه مما لا يقبله العقل ! !

« وقد دفن المسيح ، ثم قام من بين الموتى ، وذلك أمر محقق ! لأنه مستحيل !

« الأسقف ترتليان »

الفصل الأول

الخطيئة الغفران

يقول القديس « بولس » فى إحدى رسائله:« نحن نكرز بالمسيح مصلوبا . . لليهودية عثرة ، ولليونانيين جهالة.. وأما للمدعوين[1] يهودا ويونانيين ، فبالمسيح قوة الله ، وحكمة الله » (كورنثوس ١ : ٢٣ و ٢٤) .

---

(١) أى الذين دعاهم الله (المسيح) إلى الشركة معه فى الحياة الأبدية وأجابوا دعوته

لقد كانت خاتمة حياة المسيح، هى مفتتح تاريخه، ومنطلق دعوته، وفحوى رسالته، كما قدمها للناس أتباعه وبشروا بها فى الأمم ! إن الخاتمة التى ختمت بها حياة المسيح تمثل فى ثوبها التاريخى، أروع المآسى التى شهدتها الإنسانية على مسرح الحياة، فيما حفلت به هذه الحياة فى جميع مستوياتها من خطوب وفواجع .

إن الساعات الأخيرة القليلة التى احتوت حياة المسيح منذ العشاء الأخير فى « جتسمانى » والقبض عليه فى الهزيع الأخير من تلك الليلة، ثم اقتياده إلى المحاكمة ومثوله بين يدى « بيلاطس » الحاكم الرومانى، وما ووجه به البرىء من تهم، ثم إصرار اليهود على إدانته وتوقيع العقوبة عليه، ثم تنفيذ هذا الحكم فيه صلبا — إن كل لحظة من لحظات هذه الساعات القليلة المحدودة لتختصر فى كيانها أحداث الأزمان والأجيال كلها، وتجسدها فى كل خطوة كان يخطوها المسيح إلى تلك النهاية، وفى كل كلمة كان ينطق بها، وفى كل كلمة كانت تلقى إليه، وفى كل نظرة حانقة أو راحمة كانت تتجه نحوه وهو معلق على الصليب . !!

ولكن أين يبلغ هذا الذى سجله التاريخ وأمسك به من هذه المأساة، وسطر كلماته بالدم البرىء ممزوجا بإفرازات النفس البشرية ومايموج فيها من شر وخير — أين يبلغ هذا كله مما وقع فى نفوس أتباع المسيح والمؤمنين بصابه ؟

إنه لا يعدّ شيئا إلى جانب التصوير اللاهوتى الذى صورت به هذه المأساة وخُرّجت عليه، ولك — لكى تحقق بُعد مابين الأمرين — أن تستحضر بخيالك ذلك الجمع الذى كان يشهد عملية الصلب فى «المسيح»، ثم أسقط من هذا الجمع تلك الكثرة التى كانت على عداوة ظاهرة للمسيح وماتت على عداوتها وشنآنها له . . وخذ بعينيك أولئك النفر القليل الذين شهدوا عن بُعد هذا المشهد.. من تلاميذه وحوارييه وذوى قرابته، والذين سعوا إلى قبره بعد دفنه ولم يجدوه !

استحضر أولئك النفر، وا كشف لهم الحجاب عن شخص المسيح الذى رأوه معلقا عن خشبة الصليب، متوجا بتاج من الشوك، يصرخ صرخات يائسه مذعورة، حتى يسلم الروح — ثم حدثهم عن المسيح كما تحدث عنه بعد ذلك اللاهوت المسيحى، بأن هذا المصلوب لم يكن إلا الله رب العالمين، قد تجسد فى تلك الصورة البشرية التى عُرفت باسم « المسيح » وعاشت بينهم، وتحدثت إليهم، وأكلت وشربت مما يأكلون ويشربون، وكما يأكلون ويشربون، وأن هذا المصلوب الذى رأوه بأعينهم يصرخ ويتألم، ويستسقِى فيُسقى المر المذاب، لم يكن هو عيسى بن مريم. ولكنه كان هو « الله » ذاته، قد اتخذ له جسدا بشريا وحل فى إهابه، وظهر به فى الناس ! !

ترُى ما ذا كانت أم المسيح — مثلا — صانعة، لوأنها كانت تعلم عن ابنها مالم تكن تعلم ؟

أ كانت وهى تعلم أن ابنها هو « الله » الذى بيده كل شىء وإليه كل شىء أ كانت تصدق ماترى عيناها من أن « الله » هذا يسلم نفسه للصلب، ويسيل دمه على الصليب، ثم يُلف فى الكفن، ثم يوارى فى القبر؟ ثم أ كان يبلغ بها الشك فى قدرة الله إلى هذا الحد الذى يملك عليها نفسها فتذهب إلى القبر مع الذاهبين إليه، لتذرف عليه من عواطف الأمومة دمعا ودما ؟

أإلى هذا الحد يكون تصور إنسان لله الذى يعبده، ويتمثل قدرته وسلطانه على هذا الوجود ؟

أهذا إله يعبد ؟

أهذا رب يُدان له بالاحترام والولاء .. أيا كانت الحقيقة التى تختفى وراء هذه الصورة التى تتحرك على مسرح الواقع المشهود ؟

وأى حقيقة يمكن أن تختفى وراء هذه الصورة ، ثم لا يكون لأم المسيح علم أو شبه علم بها ؟

وإذا لم تكن أم المسيح هى التى تعرف هذا السر المتخفى وراء هذا الظاهر الواقع المتحرك ، فمن يعرفه إذن ؟ لقد حملته فى بطنها جنينا ، وأرضعته من ثديها وليدا ، وضمته إلى صدرها واحتوته بين ذراعيها طفلا ، وخالطت أنفاسه أنفاسها ، وروحه روحها ، وعالجت من شئونه ما تعالج الأمهات من شئون أطفالهن ، مما تفرضه ضرورات الحياة عليهم ــ أفما كان ذلك كله كافيا ليكشف لها شيئا من سر هذا الإله الذى سكن فى بطنها زمنا ، وتربى على يديها أياما وسنين ؟ أفما كانت هذه المخالطة التى تكاد تكون امتزاجا بين الوليد وأمه ، بالتى ينكشف للأم منها بعض مافى ابنها من هذا السر العظيم الذى ستكشفه الأيام بعد قليل ؟

إن أم المسيح لم تكن تعلم من ابنها إلا أنه إنسان على حظ عظيم من النعمة السماوية ، التى بشرها ملاك الرب بها ، فى شخص هذا الابن من بين أبنائها ، وكذلك كان الشأن عند « يوسف » أبوه ، أو زوج أمه ، بمعنى أدق !

وقد حدثت الأناجيل عن أحد إخوة المسيح من أمه وهو « يعقوب » أنه كان من اليهود الذين خالفوا المسيح ، ولم يستمعوا له ، وأنه كان فاتر الحماس فى الاستجابة له بعد أن دخل فى زمرة أتباعه ، بعد موته .

فهل تكون هذه هى المشاعر من أم المسيح وزوجها وإخوته ، للمسيح الذى هو فى حقيقته الإله رب العالمين ، وهو الذى عاش معهم وخالطهم تلك المخالطة التى تكون بين الإنسان وأهله؟ ألا يقع فى نفوسهم شىء من جلال هذا الإله وعظمته ؟ وما الفرق بين الله والإنسان إذن ؟

وندع هذا إلى لقاء قريب

وننظر فى قضيه الصلب أو المصلوب !

وليكن معلوما لنا — مما عرفناه من قبل ومما سنعرف — أن الذى صلب باسم المسيح هو الله ذاته ، مجسدا فى المسيح .. فما المسيح فى اللاهوت المسيحى إلا الله ، حقيقة لا مجازا .. هو الله فى جميع المراحل التى تنقل بها المسيح فى حياته ، من وجوده جنيناً فى بطن أمه .. إلى موته مصلوبا .. كما يقولون ويعتقدون .

ونبدأ القصة من أولها ، كما يقال :

نتيجة ثم عللها :

يعتقد المسيحيون ، وكذلك اليهود أن المسيح عيسى بن مريم قد صُلب ، وأنه مات على الصليب .

هذه حقيقة لا خلاف عليها بينهم ، بل هى الأمر الوحيد الذى التقوا عنده ، واتفقوا عليه فى شأن المسيح !

ولكنهم يختلفون فى دوافع الصلب نفسه ، وفى النتائج المترتبة عليه . فاليهود يرون أن الصلب هو العقوبة الطبيعية العادلة التى كان يستحقها « يسوع » الذى جدف على الله ، وادعى فيما ادعى أنه ابن الله .. وعقوبة التجديف حسب الشريعة الموسوية هى الموت صلبا ، لكل يهودى يجدف على الله .. ويسوع هو واحد من اليهود ، وقد شهدوا عليه بالتجديف على الله ، وأدانوه بهذه الجريمة .. فهو بهذا يوفى عقوبة محتومة ويلقى جزاءً عادلا ، هو الصلب الذى حكم به الكتاب المقدس على المجدفين والمارقين !

أما عند المسيحيين فالأمر مختلف اختلافا عظيما . .

إنه يمثل عقيدة بدأت تتخلق وتنمو شيئا فشيئا ، وحالا حالا ، كما يتخلق الكائن الحى وينمو ، منذ جرثومته الأولى إلى أن يستكمل وجوده ونضجه ورشده .

فصلب « المسيح » هو البذرة التى تخلقت منها شجرة المسيحية ، وترعرعت ، ثم صارت دوحة عظيمة مترامية الأطراف ، يستظل بظلها ويطعم من ثمرها ملايين البشر .

فى أجيال الحياة، جيلا بعد جيل، منذ صُلب المسيح، وإلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، وإلى ماشاء الله!

إن حادثة الصلب هى المحور الذى تدور عليه المسيحية، وهى التى ولد منها المسيح ميلادا جديدا، فكان على هذه الصورة التى تملأ وجود المسيحيين، وتشغل عقولهم وقلوبهم!

ولو لم يصلب المسيح ـ حسب اعتقاد المسيحيين ـ لما كان للمسيحية هذا الوجه الذى تبدو فيه، بل لما كان لها وجه أصلا، ولمضى المسيح كما مضى مَن سبقه من أنبياء بنى إسرائيل ورسلهم، ولما كان له حساب أكثر من هذا الحساب!

ولكن حادثة «الصلب» أحدثت هذا الانقلاب العظيم فى تاريخ المسيح، وفى نظرة الناظرين إليه، ممن كانوا قد تتلمذوا له وأخذوا عنه.

يقول الكاتب العالم المسيحى الأستاذ عوض سمعان:

«إذا رجعنا إلى تاريخ علاقة الرسل بالمسيح، وجدنا أنهم لم يجرءوا فى أول الأمر على الاعتراف بأنه ـ أى المسيح ـ هو الله، لأنهم كيهود كانوا يعلمون تمام العلم أن الاعتراف بأن إنسانا هو الله، يعتبر تجديفاً، يستحق الرجم فى الحال (تثنية ١٣: ١٠)، ولأنهم كيهود أيضا كانوا يستبعدون أن يظهر الله فى شبه إنسان!! نعم كانوا ينتظرون «المسيا»، لكن «المسيا» بالنسبة إلى أفكارهم التى توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز من عند الله، وليس هو ذات الله! (١)».

ونسأل إذا كان هذا هو معتقد اليهود فى المسيح المنتظر، وإذا كان ذلك هو حديث الكتاب المقدس إليهم عنه، وما تلقوه عن رسلهم فى شأنه، فكيف ساغ إذن أن يقوم الكتاب المقدس بعد هذا شاهداً بآيات كثيرة وتنبؤات عديدة، تحدّث عن المسيح

---

(١) الله .. طرق إعلانه عن ذاته، للأستاذ عوض سمعان صـ ٨

الإله ؟ ولماذا كانت هذه الآيات وتلك النبوءات إذا لم تُتمم اليهود على معتقد واضح مفهوم فى المسيح ، الذى هو الله فى حقيقته ، وقد اتخذ له جسدا بشريا ؟

ثم يقول الأستاذ عوض سمعان :

«ولكن ما بعد ماعاشوا — أى أتباع المسيح — مع المسيح زمنا طويلا ، وشاهدوا فيه تصرفاته وأعماله فى كل ناحية من نواحى الحياة — أدركوا كل الإدراك أنه لم يكن إنسانا عاديا ، ومن ثم أخذوا يفكرون فى شخصيته ،ويجتهدون فى الكشف عن حقيقتها ، فقالوا مرة إنه « ملك إسرائيل » مع أنه كان فقيرا كل الفقر وبعيدا كل البعد عن أسباب السياسة والملك ، وقالوا مرة : إنه المسيح أو « المسيا » مع أنه كان موضع استهزاء رجال الدين الذين كانوا يعتبرون أكثر الناس معرفة بصفات المسيح ! !

« . . . وهكذا استمروا فى الارتقاء بأفكارهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى ، ليروا أية مرتبة تتناسب مع ذاته وصفاته ، حتى مات على الصليب موتة العار والشنار ، وحينئذ خامرهم الشك فى حقيقته ، واعتقدوا أنهم كانوا مخدوعين فى الاعتراف بأنه ملك إسرائيل ، والمسيا . وابن الله الحىّ . . ! !

ثم يقول:و« لكن عندما رأوا أنه قدقام بعد ذلك من القبر تبددت كل شكوكهم وتحولت إلى يقين ما بعده من يقين من جهة شخصيته أو حقيقة ذاته . . (١)

ألم تر إلى حادثة الصلب وما أعقبها من خيبة أمل ، وإلى واقعة القيامة وما تلاها من دوى هائل ، بدد الشكوك والأوهام — ألم تر إلى هاتين الواقعتين وكيف كان النظر إلى المسيح من خلالها نظرا مجددا ، تغيرت به معالم شخصيته ، حتى عند أقرب المقربين إليه ؟

---

(١) الله (طرق إعلانه عن ذاته للأستاذ عوض سمعان ص ٨)

(٢) المصدر السابق ص ٢٩

وندع هذا لننظر فى هذه القضية — قضية الصلب والقيامة — نظرا موضوعيا، لنرى ماذا هناك .

الصلب وماوراءه :

كان يمكن أن يسلّم أتباع المسيح الذين شهدوا موته على الصليب أنه إنما صلب ظلما وعدوانا من اليهود ، وأنه لايعدو أن يكون شأنه فى هذا شأن كثير من الأخيار الذين قتلهم اليهود ظلما وبغيا ، من الأنبياء والرسل . . وأقرب مثل واقع بين أيديهم لهذا هو يوحنا المعمدان (يحيا بن زكريا) ومن قبله أبوه زكريا — عليهما السلام! فلقد ماتا مقتولين، ووقعا صريعين بيد اليهود ، ظلما ، وبغيا ، وعدوانا .

كان يمكن أن يسلّم أتباع المسيح وحواريوه بهذا ، وأن يضيفوا المسيح إلى قائمة الأنبياء الشهداء ، لو أن المسيح مات بأية ميتة على يد اليهود ، غير ميتة الصلب هذه!

أمّا وقد مات « المسيح » مصلوباً فهذا أمر آخر ،له حساب غير هذا الحساب وتقدير هذا التقدير !

فهذه الميتة التى مات عليها المسيح أو حكم عليه بها،هى حكم عليه باللعنة الأبدية ، وبالطرد من ملكوت الله ! لأنه هكذا مكتوب فى التوراة:ملعون من علق على خشبة!

ولهذا لاتُدين الشريعة الموسوية أحدا ولا تأخذه بهذا الحكم إلا إذا جدف على الله وكفر به ، ومقترف هذا الإثم العظيم لامكان له فى ملكوت الله . ! وإذن فهذا الصلب هو الموت المقضىّ به على المسيح ، ليخرج من هذه الدنيا إلى الفناء الأبدى، حسب معتقد اليهود !

وإذن فهذا هو مصير « المسيح » المصلوب ! ! اللعنة والطرد من رحمة الله ومن ملكوت الله .. حسب الناموس !

فكيف يكون هذا ؟

أيكون ذلك المصير الأسود المشئوم خاتمة هذا البار الكريم ، الذى لم يفعل خطيئة ، ولم يوجد فى فمه مكر ، والذى إذا شتم لم يكن يشتم عوضا (١) ؟

فماذا إذن للأشرار والمفسدين ؟

إن أقل ما كان يرجى لهذا البار الطيب الطاهر أن يحسب فى الشهداء ، الذين أخذوا بيد البغى والسفاهة والجهالة ، والذين مُثّل بهم أشنع تمثيل ، فقطعت رءوسهم ومزقت أشلاؤهم ، ولم يكن الموت وحده بالذى يقف بهذه السفاهة عند حد !

أما أن يخرج « المسيح » من هذه الحياة بهذه الوصمة التى تحول بينه وبين ملكوت الله ، وتلقى به فى زمرة الأشرار الآثمين ، الخارجين عن الناموس ، والمحاربين لله ، فذلك مالا يقبله عقل ولا يطمئن إليه قلب !

إنه انقلاب لأوضاع الحياة ، وعدوان صارخ على الفضيلة ، وتجريم سافر لكل ما هو حق وخير وجميل !

ومن هنا تبدأ نقطة التحرك للبحث عن تعاليل لهذه النهاية ، التى تبدو فى ظاهرها حكما قاسياً على الفضيلة والطهر والخير !

جاء فى سفر التثنية (٢١ : ٢٣) « ملعون من علق على خشبة » .

وقد فهم أعضاء « السنهدريم » اليهود ، من صلب المسيح ، ونفاذ هذا الحكم فيه ، أنه واقع تحت اللعنة الإلهية ، فاطمأنوا إلى حكمهم العادل فيه ، ورضوا عن أنفسهم ، إذ أخذوه به !

ولكن دعاة المسيحيه الأولين إذ شهدوا صلب المسيح بأعينهم وقعوا فى حيرة

---

(١) ١ — بطرس (٢ : ٢٢ـ٢٣)

محيرة ، واستبد بهم الأسى ، واستولى عليهم الذهول ، والحيرة ، وأخذهم العجب والدهش ، فمايدرون ماذا يأخذون وماذا يدعون من أمر المسيح !

لقد رأوه بأعينهم إنساناً يسامت الملائكة ، طهرا وعفة وسماحة ، ثم رأوا الآيات الباهرة تتفجر من بين يديه ، كما يتفجر الماء الزلال من الصخر !

واستمعوا إلى الحكمة المشرقة ، تطلع من بين شفتيه ، وشهدوا النعمة والعافية تسير فى كل اتجاه يسير فيه.. إن هذه أمور محققة ،رأوها بأعينهم ، ولمسوها بأيديهم.. وليس ثمة من سبيل إلى مغالطة الحواس فيها ، وإخلاء النفس منها ، أوخداع العقل عنها .

ثم من جهة أخرى .. ها هم أولاء يرون تلك الخاتمة المفجعة المؤلمة التى تختتم بها هذه الحياة الطاهرة الطيبة ، وقد احتوتها اللعنة ، وأعملت فيها مخالبها وأنيابها ! ! فهم يهود قبل كل شىء ، يؤمنون بالناموس ، وبكل كلمة منه ، ويؤمنون تبعاً لهذا بأن اللعنة واقعة لا محالة على كل من علق على خشبة ، ولو كان المسيح ! !

وتلك حقيقة واقعة لاسبيل إلى إنكارها ومخادعة الحواس فيها ! فماذا يصدّق العقل من هذا أو يكذّب ؟ وماذ يأخذ منها أو يدع ، وهى جميعها واقعة فى العقل متشبثة به ؟ إنه لامخرج من هذا إلا أن يحتال العقل ويجد فى الاحتيال ليفك هذه الطلاسم ، وليجمع بين هذه المتناقضات ، وإلا كان على العقل أن يصبر على هذه الحيرة ، وأن يتقلب على جمرها حتى يحترق ! وما أكثر العقول التى تقلبت على هذا الجمر ، حتى صارت فحماً وذهبت فى مذاهب الضلال والهلاك ! ثم ما أكثر العقول التى تحركت وسعت سعيها وألقت بشباكها فى بحر الحيلة والاحتيال ، فجاءتها بألوان من المسكنات أو المخدرات . فخدرت وسكنت !

الحاجة تفتق الحيلة :

ولقد كان الفداء والتضحية بالحيوان عملا مألوفاً عند كثير من الأمم والشعوب، لتكفير الذنوب وغفران الخطايا !

فمنذ قدّم ابنا آدم — قابيل وهابيل — قربانيهما إلى الله ، والبشرية تتوارد على هذا العمل ، مع اختلافٍ فى المراسم والغايات ، بفعل الزمن وتغير الأفكار !

وفى شريعة اليهود ، اتخذ القربان مكاناً بارزاً فى هذه الشريعة ، فكان لزاماً على كل عائلة يهودية أن تقدم « حملا » مذبوحاً ، وترش دمه على العتبة والقائمين فى كل بيت ..وبهذا القربان وحده نجوا من غضب الله ، كما بهذا القربان أيضاً نجوا من عبودية مصر ، وخلصوا من يد فرعون !

ومن هذه الكوة أخذت العيون تتطلع إلى مكان تستطيع أن تجد لصلب المسيح مكاناً فيه ، ثم ما زالت هذه العيون تدور هنا وهناك حتى وجدت آفاقا فسيحة يغطى بها صلب المسيح كل ما قدمت الإنسانية على مذابحها من ضحايا وقرابين .

فماذا إذن لو كان المسيح نفسه هو الفادى ؟.. هو الذبيحة .. ؟ هو «حمل الله» الذى يُذبح لرفع الخطايا . . خطايا الشعب اليهودى . . أو الجنس البشرى كله إن أمكن ؟

ماذا لو يكون هذا ؟

إنه لا بأس !

فى هذا التدبير يكون لصلب المسيح معنى، ويكون لدمه الزكى الطهور ثمنه فلا يذهب هباء ، ولا يضيع فى الأرض بدداً ، وتكون اللعنة التى حملها شفاء للإنسانية كلها ، من اللعنة التى لبستها ، واندست فى كيان كل إنسان منها .

ومن جهة أخرى . . فإنه إذا كان الكتاب المقدس قد نطق بهذا القول: « ملعون من علق على خشبة » وإذا كان اليهود قد تعلقوا بهذا القول ، وأدخلوا به المسيح تحت اللعنة — فإن الكتاب المقدس أيضا يقول : « ملعون كل من لا يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى الناموس ليعمل فيه » . !

وإن للذين يلتمسون لصلب المسيح حكمة ، ويبحثون له عن طريق للخروج من اللعنة التى عقدها اليهود على رأسه — إن لهؤلاء فى هذا القول لمتعلقا يتعلقون به ، وإن لهم فيه لحجة يدفعون بها حجة اليهود وينقضونها !

فالبشرية كلها — بحكم هذا النص — واقعة تحت اللعنة ، لأنه لا أحد يستطيع أن يثبت فى جميع ماهو مكتوب فى الناموس ويعمل فيه !

إن أبناء آدم جميعا يحملون جرائم الخطيئة الأولى ميراثا عن أبيهم آدم ، الذى عصا ربه ، وأ كل من الشجرة المحرمة ، وطرد من الجنة التى أسكنه الله فيها .

ففى كل إنسان من أبناء آدم ميراث من هذه الخطيئة ، التى لاتدع لأحد سبيلا إلى البر والطهر والاتساق والتوافق الكامل مع الناموس ! إن كل إنسان خاطىء لايتبرر أبدا . . حتى الرسل والأنبياء !

ومن هنا تنفتح كوة ، فيدخل منها بصيص من النور ، ينكسر به بعض هذا الظلام المتكاثف من اللعنة التى عقدها اليهود على رأس المسيح ! ثم لاتزال هذه الكوة تتسع شيئا فشيئا ، والنور من خلفها يتدفق حالا بعد حال ، حتى تنقشع هذه الظلمات المتكاثفة حول المسيح ، ويعود إليه صفاؤه ، وبهاؤه ، فيراه أتباعه كما عهدوه ، فى طهره وعفته ووداعته ونبله . . ثم لاتزال هذه الأضواء تتكاثف وتتكاثف حتى تتجسد وتصبح ثوبا إلهيا يلف جسد المسيح ، وإذا هو ابن الله الحى . . ثم هو الله ذاته ! .

وتبدأ القصة هكذا . . .

المسيح تقبل الصلب ووقع تحت اللعنة ليحمل اللعنة الشاملة الممسكة بتلابيب ناقضى الناموس . . وكل أبناء آدم ناقض للناموس . . « لأنه لاإنسان صدّيق فى الأرض ، يعمل صلاحا ولايخطىء »[1]

---

(١) سفر الجامعة ٧ : ٢

واللعنة التى كانت واقعة على كل إنسان قد حملها المسيح فى جسده المصلوب.. فهو «الذى حررنا من اللعنة وحملها عنا ووضعها على نفسه حين مات لأجلنا [١]».. «الذى لم يعرف خطيئة صار خطيئة لأجلنا [٢]» .

وهنا يقف أتباع المسيح ليواجهوا مشكلات جديدة إزاء القول بأن المسيح قد صلب ليكون كفارة عن خطايا، وتطهيرا لخطاة !

فما الخطايا التى يكفرها صلب المسيح ؟ أتلك الخطايا العارضة التى تقع فى حياة الإنسان ؟

وعن من كانت التضحية بهذا الدم الإلهى ؟ أعن تلاميذه وحوارييه ؟ أم عن اليهود الذين جاء إليهم وبشر فيهم؟ أم عن الناس جميعا، لافرق بين يهود وغير يهود، أو بين أموات وأحياء ؟

وتتفتح لدعاة المسيحية أبواب كثيرة ينفذون منها إلى آفاق رحيبة يقيمون فيها بناء فلسفيا ضخما، تستوحى منه الأناجيل بعض فصولها، وتستملى رسائل القديسين بولس وبطرس ورؤيا يوحنا أكثر مافيها من تصورات المسيح ودعوته !

فالمسيح الذى صلبه اليهود ليس واقعاً تحت اللعنة كما كانوا يعتقدون، وإنما هو البار الطهور . !

والتضحية بذاته ليست معادلة للتضحية بحيوان أو إنسان . . إنه ضحية عظمى، تحمل خطايا البشر، وتستولى على الموت الذى كان مستوليا عليهم !

ولكن اليهود الذين صلبوا المسيح وعذبوه ومثلوا به ليسوا أهلا لأن يدخلوا فى عداد الذين يدخلون فى شركة مع المسيح، وينالون الحياة الأبدية فى ملكوت الله!

إذن فما الثمن الضخم الذى يليق أن يكون بعض الثمن لهذا الذبح العظيم ؟

---

(١) المسيحية الأصلية ص ٢٢ (٢) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٥ : ٢١

ولم لاتكون الإنسانية كلها . . ومنها اليهود أيضا ! إن ذلك هو الذى يبسط المسيح سلطانا على البشرية كلها ، ويجعل لذبيحته حكمة وطعما مقبولا فى أفواه المؤمنين به ! !

ولكن أيكون المسيح الذى يتسع دمه لغفران ذنوب الإنسانية كلها منظوراً إليه كإنسان من الناس ؟ أذ لك مما يمكن أن يعقل ؟

وإذن فلا بد أن يكون ذلك الدم من عالم آخر غير عالم الناس والحيوان ، إنه من وارد السماء . . إنه دم إلهى . . إنه دم « الله » ذاته ، أو ابن الله على أقل تقدير !!

وإذن فالمسيح الذى وصفه دعاة المسيحية الأولون بأنه « حمل الله » ليس هو حمل الله ، بل هو ابن الله ، بل هو الله ذاته .

وقد رأينا فيا سبق من بحوث هذا الكتاب كيف كانت نظرة دعاة المسيحية إلى المسيح ، وكيف ارتفعوا به إلى مرتبة الألوهية فكان هو « الله » رب العالمين !

وبقى أن نعرض هنا ما كان للمسيحية من مفاهيم استوحتها من التفكير فى حادثة الصلب ، وفى التعليل لها بعلة تدفع عن المسيح اللعنة المستوجبة على كل من علق على خشبة . . ثم تحقق له من المعانى ماهو أهل له من الكرامة والفضل . .

وقد أقام دعاة المسيحية هذه المفاهيم على تصورات ذهنية اتسع لها التأويل والتخريج للكتاب المقدس وللعهد الجديد ، وقد أسلمتهم هذه التصورات إلى مبالغات أخذت تتزايد شيئا فشيئا حتى انتهت بالمسيح إلى مقام « الله » ، بعد أن كان معلقا على خشبة الصلب ، تحوم حوله سحب اللعنة . على مايعتقد اليهود الذين صلبوه !

المدخل الأول إلى تبرير الصلب :

وكان المدخل الأول لتبرير الصلب هو أن دم المسيح لن يذهب هباء ، وإنما هو كفارة للذنوب ومغفرة للخطايا . .

وليست هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها دم ابن آدم كفارة عن ذنب المذنبين وخطاياهم، فقد تواردت الإنسانية على تقديم الضحايا والقرابين لاسترضاء الإله أو الآلهة الغضبى، وللزلفى إليها.

وفي بني إسرائيل أنفسهم – بعد خروجهم من مصر – كان من شريعتهم ذبح الابن الأول «البكر» وكذلك المولود الأول لكل حيوان، ثم خفف الله عنهم، فرفع ذبح الأبناء.. حتى إذا عبدوا العجل عاقبهم بأن يقتل بعضهم بعضا.. وقد ذكرت التوراة تلك الملحمة أو الذبيحة التي جرت فيها دماء بني إسرائيل أنهارا والتي قيل فيها — حسب رواية التوراة — إنها ذهبت بثلاثة آلاف نفس!

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: «وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم.. «سورة البقرة».

يقول صاحب قصة الحضارة:

«لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مع الكنعانيين والمؤابيين والفنيقيين والقرطاجنيين وغيرهم من الشعوب في عادة التضحية بطفل، بل بطفل محبوب لاسترضاء السماء الغضبى، ثم أصبح في الإمكان على توالي الأيام أن يستبدل بالطفل مجرم محكوم عليه بالإعدام.. وكان البابليون يلبسون الضحية أثوابا ملكية، لكي يمثل بها ابن الملك ثم تجلد وتشنق، وكان هذا يحدث في «روديس» في عيد «كرونس» وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدي في عيد الفصح ليست إلا تخايصا لهذه التضحية البشرية، اقتضاه تقدم المدنية» (١).

وإذن فلم يكن من المستغرب ولا المستبعد، أن تعود هذه الصورة التي لازالت

---

(١) وفي رؤيا إبراهيم عليه السلام — التي ذكرها القرآن الكريم عن ذبح ولده — في هذه الرؤيا دليل على تلك العادة التي كانت مستولية على مشاعر الناس يومئذ.

فى خيال الناس ، ولو فى حالة واحدة ، وفى شخص كان ميلاده معجزة ، فليس مستبعداً أن تعود هذه الصورة ، لتحل هذا اللغز الذى حير العقول بصلب المسيح !

المدخل الثانى لتبرير الصلب :

ثم كان المدخل الثانى لتبرير «الصلب» ، وهو غفران خطايا الناس ، الذين حقت عليهم اللعنة ، كما تنطق بذلك التوراة : « ملعون كل من لا يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى الناموس ليعمل فيه »

فالناس جميعاً خطاة مذنبون مهما عملوا من الصالحات ، وقدموا من القربات والصلوات . . إن الخطيئة تندس فى كيانهم بحكم مولدهم من أب دخلت الخطيئة كيانه ، وأفسدت وجوده حين عصا ربه ، وأكل من الشجرة المحرمة وطرد من الجنة !

لقد خلق الله آدم خلقا كريماً . . « وقال الله نصنع الإنسان على صورتنا ، كشبهنا ! فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورته خلقه »(١)

ولكن هذه الصورة الكريمة المشرقة قد دخل عليها « إبليس » بالغواية والضلال فأفسدها ، وغير خلقها ، وجعلها تخرج عن طاعة الله ، ولا تستقيم على الطريق الذى دعاها إليه . .

وكان جزاء آدم الطرد من الجنة ! !

ولكن هذا لا يحل الإشكال ، ولا ينهى القضية !

فأبناء آدم هم بعض آدم . . وإنهم لابد أن ينالوا من الإثم ما نال ، وإن يحملوا من الخطيئة ما حمل .

« لقد كان آدم نائبا وممثلا لجميع الجنس البشرى الذى كان فى صلبه يوم تعدى وصية الله . . فبعد طرده من الجنة ولد نسلا ساقطا نظيره ، فى حالة الفساد الروحى والأدبى .

---

(١) سفر التكوين ١ : ٢٦ — ٢٧

وتحت حكم الموت والدينونة التى استحقها بعصيانه وتمرده على الله ، وقد ورث هذا النسل عن أبويه الأولين حياة العداوة لله ، والتمرد على شرائعه ووصاياه . . وهذا مايقرره « بولس » فى كلماته : « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم ، وبالخطية الموت ، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» (رومية ٥ : ١٢)(١)

ويتساءل صاحب كتاب قضية الصليب بعد أن استعرض وجوه الشر التى تفيض بها دنيا الناس .. فيقول :

« هل خلق الله الإنسان لهذا الاستهتار وهذا التدهور وهذا الانغماس فى الشر ؟ هل خلقه لهذه الحياة اليائسة البائسة البالية المليئة بالأشواك ؟ هل خلقه مكافحا فى الأرض إلى بضع سنين ثم يكون مثواه الأخير التراب ؟

ثم يجيب على هذا بقوله القاطع :

« يقينا لا . . (٢)

ونقول معه يقينا لا . . فإن الله لم يكتب على الإنسانية الفناء الأبدى بسبب معصية آدم ، بل إنه (سبحانه) قد جعل البعث والقيامة أمرا مقضيا، حيث يلقى كل إنسان جزاءه ، سواء أكان فى الصالحين أم المسيئين . . فهناك جنه ونار . . « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » وذلك هو قضاء الله العادل فى الناس.. بشر به النبيون والمرسلون . . وكان ذلك منذ النسل الأول لآدم . . فقد فرق الله بين ابنى آدم : قابيل وهابيل ، فأعلن رضاه عن هابيل وتقبل قربانه، وأعلن سخطه على قابيل ، ولم يتقبل

---

(١) قضية الصليب للقس لبيب ميخائيل صـ ١٨

(٢) المصدر السابق صـ ١٩

منه ما تقرب به إليه .. فلو كانت الخطيئة مما ورث أبناء آدم عن آدم لكان ذلك واقعا مؤكدا فى ابنيه من صلبه .. قابيل وهابيل ! ولكن الله فرق بينهما .

وأكثر من هذا ، فإن الكتاب المقدس يعلن فى صراحة صريحة أن الأبناء لا يرثون ذنوب الآباء ولا يحملون أوزارهم .

فى العدد العشرين من الإصحاح الثامن من كتاب « حزقيال » نقرأ هذا النص: «النفس التى تخطىء فهى تموت .. والابن لا يحمل إثم الأب ، والأب لا يحمل إثم الابن ، وعدل العادل يكون عليه ، ونفاق المنافق يكون عليه » !

هذا هو حكم الله ، وهو حكم العقل والفطرة !

فكيف يحمل أبناء آدم خطيئة أبيهم آدم ؟ وكيف يتوارثونها جيلا بعد جيل ؟

وأين فى هذا عدل الله ؟

بل أين هو الإنسان ؟

أين البرّ والفاجر ؟ وأين الصالح والطالح ؟ وأين المحسن والمسىء ؟ إنهم فى هذا الحساب الذين يُدين البشرية كلها هم على سواء! كلهم فاسد ، وكلهم شرير ، وكلهم معطوب .. لا فرق بين إنسان وإنسان .

إن الذى صور الأمر على تلك الصورة وأدخل الناس جميعا إلى هذا المدخل المظلم فى التفكير المسيحى ،هو أن يكون للقول بألوهية المسيح وجه مقبول ، حيث يكون صلبه وهو إله مقابلا لخلاص البشرية جميعها من الخطيئة ، وحمل هذه الخطيئة فى جسد إلهى ، وإلا فإنه لا حاجة إلى جسد إلهى لحمل هذا الحمل إذا لم يكن عظيما ، يشمل الإنسانية كلها !! إن الإنسانية يجب أن تغرق أولا فى الإثم ،ثم يجىء المخلص فى شخص « الله » الذى يجعل نفسه ذبيحة لغفران هذه المآثم وتلك الخطايا ، التى لا يمكن أن يستقل بحملها غيره .

ونعود إلى حديث القس (لبيب ميخائيل) وهو يتحدث بما تتحدث به كتب المسيحية كلها .. يقول :

« لقد كان البرنامج الإلهى للإنسان يحوى كل عناصر البركة والسعادة والهناء والبقاء . . ظهر هذا فى أول وثيقة قدمها الله للإنسان ساعة أوجده فى جنة عدن .

« لكن الشيطان دخل فى معركة مع الله وأفسد ذلك المخلوق الساذج الطاهر البرىء وانتزعه من الجنة ، ليكون تحت سلطانه فى العالم الذى دفعه الله إلى يديه ، وقاده إلى الموت . . لأنه سلطان الموت(١) .

« فهل يرضى الله أن يترك خليقته فريسة سائغة بين براثن الشيطان ؟

« هل يرضى بأن يلاشى الشيطان برنامجه الرائع الجميل الذى رتبه للإنسان ؟

« أعود مؤكدا .. يقينا لا .

ثم يعقب على ذلك اليقين القاطع بتلك الأسئلة :

« إذن كيف يستطيع الله أن يعيد الإنسان إلى المركز الذى أراده له فى برنامجه العظيم ؟ كيف يستطيع أن يغفر الله للإنسان بعد أن عصاه وأن يهبه الحياة بعد أن أوقع عليه عقوبة الموت ؟ وأن يرجعه إلى الفردوس الموعود بعد أن رضى باختياره أن يبيع نفسه للشيطان ؟

« كيف يمكن أن يهبه طبيعة جديدة بعد أن فسدت طبيعته الأولى ؟ وأن

---

(١) تعتقد المسيحية أن الشيطان هو القوة المسلطة على الحياة لإفنائها ، وأن من يقع تحت سلطانه لابد أن يفنى ،وقد وقع الإنسان تحت سلطانه فكان مصير الإنسانية كلها الفناء !

يعيد شركته معه ، بعد أن فصلت الخطيئة بينه وبينه ؟ وأن يريه فى صورة مجسمة شناعة تعديه !

«إن عدالة الله تطالبه بتنفيذ القصاص الرهيب !

« ورحمة الله تناديه بأن يرحم خلقه ، وهو أرحم الراحمين !

« فكيف يوفق الله بين عدله ورحمته ؟

« كيف ينقذ الإنسان الساقط ، الذى تمرد على وصيته ؟(١) »

وأنت ترى فى هذه الاستفسارات كيف يُنظر إلى الله سبحانه وتعالى من خلالها. وكيف يُرى الله وكأنه إنسان ضعيف وقع فى « ورطة » فأخذ يضرب يمينا وشمالا ، لعله يجد مخرجا!

وهل «كيف» هذه يُسأل بها عن قدرة الله وعظمته ؟

إنه لا كيف ! ! فالله قائم على كل شىء . « إنْ كل من فى السموات والأرض إلاّ آتى الرحمن عبداً» ! وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا » .

ويجد صاحب قضية الصليب طريق الخلاص لله من هذه الحيرة فيقول :

« وهنا فقط تظهر ضرورة الصليب !

« وهنا لابد أن يأتى المسيح ويُصلب !

« وهنا نستطيع أن نفهم كلمات الرسول الجليل — بولس — :« نحن نكرز بالمسيح مصلوبا ، لليهود عثرة ، ولليونانيين جهالة ، وأما المدعوين يهودا ويونانيين ، فبالمسيح قوة الله وحكمة الله (١ كورنثوس ١ : ٢٣ و ٢٤) (١)

---

(١) قضية الصليب ٢٠

وهـذه النظرة الباهتة إلى الله واعتباره كائنا يعمل فى حدود طاقة معينة ، إذا خرج عنها تعثر واصطدم بالمعوقات والعقبات ، ولا يجد مخرجا إلا إذا أسعفته الحيلة وواتته الظروف الملائمة ، والإفهيهات أن يبلغ مايريد — هذه النظرة تضع الله فى كفة ميزان مع الإنسان على سواء ، وإنه لايبعد عن تلك النظرة أن يلبس الإنسان رداء الألوهية ، أو أن يرتدى الإله جسم بشر !

فالله سبحانه وتعالى ـ فى مفهوم هذه النظرة ـ هو واحد من تلك الآلهة التى كانت تملأ بلاد اليونان، والتى كانت إلى عهد ظهور المسيح تدور فى رءوس الناس وتتمشى خيالاتها بينهم ، وهى أشبه بالناس . . تفرح وتحزن ، وتنتصر وتنهزم ، وتتزوج وتلد ، وتحب وتبغض ، وتغار وتحقد . . ثم تموت ! وهذه النظرة إلى الله على هذا المستوى البشرى أو قريب منه ، كانت هى التى صحبت دعاة المسيحية الأولين وخرّجت عليها مفاهيمهم للمسيح وصلبه . . وقد أصبحت هذه المفاهيم مقولات مقدسة لايستطيع مسيحى أن يخرج عليها أو يجاوز حدودها ، مهما كان موقف عقله منها ـ فإن على العقل حينئذ ـ إزاء النصوص المقدسة ـ أن يشكل نفسه على الصورة الملائمة لها حتى يستطيع التعايش معها !

فالذى يقرره صاحب كتاب « قضية الصليب » هو تكرار مردد لما قرره القديس اثناسيوس الرسولى[1] فى إحدى رسائله : « تجسد الكلمة » .

وهذه الرسالة تشرح عقيدة المسيحية كلها فى ميلاد المسيح وتجسده وصلبه واعتبار أنه « الله » ذاته ، تجسد وصلب لكى يخلص البشرية من خطيئتها ويعيد إليها الحياة الأبدية التى سلبها الشيطان إياها . .

---

(١) ولد هذا القديس سنة ٢٩٧ م بمدينة الاسكندرية وعين بطريركا لكنيسة الاسكندرية سنه ٣٢٦ م

ونستعرض فقرات من هذه الرسالة لنرى كيف كانت خطوات المسيحية الأولى ، وكيف كانت فلسفتها . .

الموت الأبدى بسبب الخطيئة :

يقول القديس أثناسيوس الرسولى :

«لأن الله صالح أو بالأحرى لابد أن يكون هو مصدر الصلاح ، والصالح لا يمكن أن يبخل بأى شيء . . لذلك فإنه إذ لا يضن بنعمة الوجود على شيء — خلق الأشياء من العدم بكلمته ، يسوع ، المسيح ، ربنا — وفضلا عن ذلك فإنه إذ أشفق بصفة خاصة على الجنس البشرى دون سائر المخلوقات على الأرض[1] وإذ رأى ضعفه بطبيعة تكوينه — أن يبقى فى حال واحدة . منحه نعمة أخرى ، فإنه لم يكتف بمجرد خلقته للإنسان ، كما فعل بباقى المخلوقات غير العاقلة على الأرض ، بل خلقه على صورته ومثاله ، وأعطاه نصيبا حتى فى قوة كلمته ، لكى يستطيع — وله نوع من ظل الكلمة ، وقد خلق عاقلا — أن يبقى فى السعادة أبدا ، ويحيا فى الحقيقة حياة القديسين فى الفردوس !

« ولكن لعامه أيضاً أن إرادة الإنسان يمكن أن تميل إلى إحدى الجهتين ، سبق فدعم النعمة المعطاة له بالوصية التى قدمها إليه فى المكان الذى أقامه فيه ، لأنه أتى إلى جنته ، وأعطاه وصيته ، حتى إذا حفظ النعمة واستمر صالحا استطاع أن يحتفظ بحياته فى الفردوس ، بلا حزن ولا ألم ولا هم ، فضلا عن موعد عدم الفساد فى السماء . أما إذا تعدى الوصية وارتد ، وأصبح شريراً ، فليعلم بأنه يجلب على نفسه الفساد بالموت الذى كان يستحقه بالطبيعة . وأنه لا يستحق الحياة فى الفردوس بعد ، بل يطرد منه من ذلك الوقت ، لكى يموت ويبقى فى الموت والفساد .

(١) ولماذا اختص الجنس البشرى ، ورحمة الله قد وسعت كل شيء ؟

« وهذا مايحذرنا منه الـكتاب المقدس قائلا بفم الرب : « من جميع شجر الجنة أكلاتأكل، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منه موتاً تموت » . . وماذا يعنى بقوله « موتا تموت » ؟ ليس المقصود مجرد الموت بل البقاء إلى الأبد فى فساد الموت (١)

وهذا تقرير واضح لايحتاج إلى تعليل .. فالخطيئة التى وقع فيها آدم كانت هوة يتردى فيها أبناؤه واحداً واحداً إلى الأبد ..... حيث الفناء المطلق .

والعجب من القديس الجليل إذ يلتفت لفتة خاصة إلى كلمة « موتا تموت » ويرى فيها موتا غير الموت الذى يقع بالناس،على حين لايلتفت إلى الـكلمة المقابلة لها وهى : « أكلا تأكل » ولا يرى فيها أكلا غير الأكل الذى إعتاده الناس ! !

ثم يمضى القديس أثناسيوس فى طريقه إلى حيث ينتهى الأمر إلى الضرورة الحتمية لصلب المسيح .. فيقول:

«فالله إذن خلق الإنسان وقصد أن يبقى فى عدم فساد ، أما البشر فإذ احتقروا ورفضوا التأمل فى الله، واخترعوا ودبروا الشر لأنفسهم ،فقد استحقوا حكم الموت،الذى سبق أن أنذرهم به . . لأن تعديهم الوصية أعادهم إلى حالتهم الطبيعية حتى أنهم كما نشأوا من العدم كذلك يجب ألا يتوقعوا إلا الفساد الذى يؤدى إلى العدم ، مع توالى الزمن !! لأنه إن كان بحضور « الـكلمة » وتعطفه قد دعوا إلى الوجود من الحالة الطبيعية الأولى وهى عدم الوجود ، فإنهم بطبيعة الحال متى تجردوا من معرفته عادوا إلى العدم ، ويجب أن تـكون النتيجة بطبيعة الحال الحرمان إلى الأبد من الوجود ،طالما كانوا يستمدون وجودهم من الموجود،أو بتعبير آخر يجب أن تـكون النتيجة الانحلال ، وبالتالى البقاء فى حالة الموت والفساد (٢) .

---

(١) تجسد الكلمة:للقديس أثناسيوس الرسولى.. ترجمة القس مرقس داود ص ١٩ ، ٢٠

(٢) المصدر السابق ص ٣١ ، ٢٢

الأمل فى الخلاص من الفناء :

وبعد أن تقرر أن الإنسان قد وقع عليه حكم الفناء والعدم ، . تتحرك الأحداث فى هذه الملحمة الشعرية ، فتندس شعاعات من النور وسط هذه الظلمة المطبقة ، ويشرق أمل جديد على الإنسان ، حيث يلغى هذا الحكم وينال العفو الذى يعيد إليه الحياة.!

ويتحدث القديس أثنا سيوس عن هذا الأمل فيقول (١)

« لأن الله سكن فيهم — يعنى الناس — فحتى فسادهم الطبيعى لم يَجُزْ أن يقترب منهم كما تقول الحكمة أيضا: «لأن الله خلق الإنسان فى عدم البلى ، صنعه على صورة أزلية ، لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم « (حكمة ٢ : ١٣ ، ٢٣) وعندما تم ذلك بدأ البشر يموتون وساد عليهم الفساد من ذلك الوقت فصاعداً ، وصار له سلطان على الجنس البشرى أكثر من سلطانه الطبيعى ، لأنه أتى نتيجة تهديد الله فى حال عصيان الوصية وأصبحت النتيجة فى الحال مرعبة وغير لائقة ، لأنه :

(أولا) كم يكون مرعبا لو أن الله بعد ماتكلم يصير كاذبا ؟ إن كان بعد أن أصدر حكمه على الإنسان بأن يموت موتا، إن تعدى الوصية ـ لايموت ، بل تبطل كلمة الله . . وإن كان إنسان لايموت بعد أن قال الله إننا نموت ، أصبح الله غير صادق .

(ثانيا) وكان أيضا غير لائق أن الخليقة التى خلقت عاقلة والتى شاركت « الكلمة » يصبح مصيرها الهلاك وترجع إلى عدم الوجود بالفساد ! (٢)

---

(١) وقعت المعصية ولم يكن هناك إلا آدم وحواء. ولوكان الموت بسبب هذه الخطيئة لكان موت آدم وحواء هو الجزاء المقضى به عليهما ، ولوجب أن يموتا ولاتترك لها فرصة الامتداد فى الحياة بهذا التناسل المتصل بينهما وبين أولادهما ! ! ولكانت الوقاية فيهما خيرا من العلاج لأبنائهما بعد أن يعم الفساد ويستشرى !

(٢) تجسد الكلمة ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ —

انظر كيف أفلت الأمر من يدى الله ؟ لقد وقع فى « ورطة » !

لقد بدأ الله يلعب لعبته مع الإنسان !

— خلقه من عدم . . . بالكلمة خلقه

— على صورته خلقه !

— سكنت فيه الكلمة !

— شارك الله فى الحياة .

— هكذا أراد الله أن يكون الإنسان متمتعا بالشركة مع الله فى الحياة .

ثم ماذا !

— تحدى الشيطان إرادة الله فى الإنسان ، فأفسد هذا التدبير الحكيم

— عصى الإنسان ربه واستجاب لدعوة الشيطان . .

— اندست الخطيئة فى كيان الإنسان فأصبحت جرثومة هدمه وفنائه .

— عزّ على الله أن تفسد صنعته الجميلة فى الإنسان ، وأن يضيع ماقدّره له من حياة الخلود فى الملأ الاعلى !

ولكن ماذا يعمل الله ؟

إنه يحبّ الإنسان ويريد أن يُبقى عليه وأن يعيده إليه .

وإنه يحترم كلمته التى حذر بها الإنسان أن يعصاه .. فعصاه !

لابد أن يحيا الإنسان !

ولابدّ أن يموت الإنسان ! !

مشكلة ! ! ولكن لها حل

« لأجل ذلك نزل إلى عالمنا « كلمة الله » الخالى من الجسد والعديم الفساد ، وغير المادى، مع أنه لم يكن عنا ببعيد، لأنه لم يترك شيئا من البرايا خلوا منه، إذ هو يملأ كل شىء فى كل مكان وفى نفس الوقت هو كائن مع أبيه (١)

(١) إنهما كائنان إذن : أب وابن .. فكيف يكونان واحدا ؟

ولكنه تنازل وأتى إلينا لكى يعلن شفقته علينا ويتفقدنا .

« وإذ رأى أن كل البشر كانوا تحت قصاص الموت أشفق على جنسنا ، وترفق بضعفنا ورثى لفسادنا ، ولم يحتمل أن يرى الموت تصير له السيادة ، لئلا تفنى به الخليقة ، فتذهب صنعه أبيه فى البشر هباء — فقد أخذ لنفسه جسدا لا يختلف عن جسدنا ، وهكذا إذ أخذ من أجسادنا جسدا مماثلا لطبيعتها ، وإذ كان الجميع تحت قصاص فساد الموت فقد بذل جسده للموت عوضا عن الجميع وقدمه للأب !

« كل هذا فعله شفقة منه علينا ، وذلك :

أولا : لكى يبطل الناموس الذى كان يقضى بهلاك البشر ، إذ مات الكل فيه ، لأن سلطانه ـ يعنى الموت ـ قد أكمل فى جسد الرب — أى أنه أفرغ جميع قوته فى جسد المسيح حين صلب ، فلا يعود ينشب أظفاره فى البشر الذين ناب المسيح عنهم .

ثانيا : لكى يعيد البشر إلى عدم الفساد بعد أن عادوا إلى الفساد ويحييهم من الموت بجسده وبنعمة القيامة وينقذهم من الموت كإنقاذ القش من النار » (١).

الخلاص :

« وإذا «رأى الكلمة» أن ناموس فساد البشرية لا يمكن إبطاله إلا بالموت كشرط لازم ، وأنه يستحيل أن يتحمل « الكلمة » الموت لأنه غير مائت ، ولأنه ابن الأب ، لهذا أخذ لنفسه جسدا قابلا للموت .. حتى باتحاده بالكلمة الذى هو فوق الكل يكون جديرا أن يموت نيابة عن الكل ، وحتى يبقى فى عدم فساد الكلمة الذى أتى ليحل فيه ! !

«وإذ قدّم للموت ذلك الجسد الذى أخذ لنفسه كمحرقة وذبيحة خالية من كل شائبة فقد رفع حكم الموت فورا عن جميع من ناب عنهم ، إذ قدم عوضا عنهم جسدا مماثلا لأجسادهم ! !

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ — ٢٨

« ولأن « كلمة الله » متعال فوق الكل فقد لاق بطبيعة الحال أن يوفى الدين بموته ، بتقديم هيكله وإنسيته البشرية لأجل حياة الجميع !

« وإذ اتحد (ابن الله) عديم الفساد بالجميع بطبيعة مماثلة فقد ألبس الجميع عدم الفساد بطبيعة الحال ، بوعد القيامة من الأموات ، لأنه لم يعد ممكنا أن ينشب فساد الموت الفعلى أظفاره فى البشر ، وذلك بسبب الكلمة ، الذى جاء وحل بينهم بجسده الواحد ! «فإنه إذ الموت بإنسان، بإنسان قيامة الأموات ..لأنه كما فى آدم يموت الجميع ، هكذا فى المسيح سيحيا الجميع » ١ (كو ١٥ : ٢١ و ٢٢)

« وهكذا نحن الآن لا نموت بعد ، كخاضعين للدينونه ، بل كأناس يقومون من الموت ، منتظرين القيامة العامة للجميع ، التى سيبينها فى أوقاتها الله الذى أتمها ، والذى وهبنا إياها .

« إذن .. فهذا هو السبب الذى من أجله تأنس المخلص ! ! » (١) .

تعقيبات :

ونود أن نقف قليلا هنا لنسجل بعض ماورد علينا من خواطر عند استعراضنا لهذه المقولات ، وندع التعليق العام لبحث خاص فيما بعد .

فأولا :

ماسبق أن أشرنا إليه من قبل من النظر إلى الله على أنه فى مستوى بشرى ، أو قريب منه ، إذ تتمشى فى هذه المقولات كلمات تتحدث عن الله بمثل : لايمكن ، ورثى ، ولم يحتمل ، وكيف يفعل الله ؟ ومثل هذه الكلمات لايقبلها كثير من الناس من أصحاب

(١) المصدر السابق ص ٣٢

السلطان والقوة ، ولا يخاطبون بها ، ويعدّون ذلك تحديا لهم . وإنزالا لقدرهم !

وثانيــا :

يريد الله أمرا ويريد الشيطان أمراً . .

والذى يليق بجلال الله وقدرته هو أن يخزى الشيطان ويذل أمام هذا الجلال ، وتلك القدرة .. « إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا » .

ولكن الذى نراه فى هذه المقولات هو أن الشيطان قد غلب على إرادة الله ، وأفسد ما أراد الله له الصلاح ، وأمات ماقدر له الحياة .

أفهذا يليق فى حق ذى الجلال والإكرام ؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا !!

وثالثــا :

إذا كان الله سبحانه قد أذن للشيطان أن يدخل على الإنسان بالشر، وأن يغريه بالعصيان أو الخروج على طاعة الله .

أفما كان فى قدرة الله أن يسلّح الإنسان بقوّى يستطيع بها أن يبطل كيد الشيطان ويفسد تدبيره ؟

أفما كان هناك من تدبير غير هذا التدبير الذى يتجسد الله فيه فى جسد إنسان ، وأن يمثل هذه المسرحية بين « اليهود » وأن يثير الحرب بينه وبينهم ، حتى يسوقوه إلى الصلب ، ويغسلوا أيديهم فى دمه ؟

ورابعــا:

* إذا كان آدم وأبناؤه قد استوجبوا عقاب الله بمعصية وقع فيها أبوهم آدم . .

* وإذا كان الله قد رثى لآدم ورحمه ، وأحب أن يعيده إليه مرة أخرى . .

* وإذا كان حب الله الإنسانية لا يظهر ولا يتأكد إلا إذا جاء الله نفسه إليها على صورة آدمية، وإلا إذا تحمل أمامها تلك الآلام التى تصدعت لها الأرض..

* وإذا كان ذلك كذلك ووجب أن يلبس الله هذا الجسد الآدمى وأن يقدم نفسه ذبيحة للناس، أمام الناس، ليشهدوا حبه لهم، وتضحيته من أجلهم!

- إذا كان هذا ما على الله أن يعمله لكى ينقذ الإنسانية ويخلصها - أفيكون مما يتفق مع العدل والحق والمنطق.. أن يضع الله نفسه بهذا الوضع وأن يغرى أبناء آدم به، فلا يقفون عند حد عصيانه فى أنفسهم، بل يتطاولون عليه « مجسدا » ويغمسون أيديهم فى دمه ؟

أبهذا ينال أبناء آدم المغفرة والعفو ؟

أبقتل الله وصلبه عيانا يغفر الله لهم ويفسح لهم فى مرضاته ؟ ولماذا إذن فرض الله على الناس طاعته وعبادته، والولاء له، إذا كانوا ينالون مغفرته ورضاه ورحمته بالتطاول عليه والوقوع فيه، ثم بقتله وصلبه ؟

وخامسا :

أليس أولى من هذا كله، وليبقى لله جلاله وللإنسان وجوده أن يكون الإنسان نفسه هو الذى يواجه الشيطان وينتصر عليه ؟

إن فى الحرب الدائرة بين الإنسان والشيطان لمجالا فسيحا لترقى الإنسان واستعلائه على أهواء نفسه، وفى ذلك ما يقيم للإنسان وزنا ويعطيه مجدا بين يدى الله، إذا هو جاهد وحارب وانتصر !

وليست رسالات الرسل ودعوات الأنبياء وما أنزل الله من كتب وصحف وما أرسل من رسل، إلا قوى سماوية أمد الله بها الإنسان فى شخص المؤمنين من عباد الله، والصديقين، والقديسين، والشهداء، من أجل الحق والخير !

وسادسا :

لو كان الإنسان واقعا تحت حكم اللعنة والخطيئة ثم العطب والفساد الذى لا يرجى له صلاح إلا بالخلاص على يد الله فى تلك الصورة التى تنتهى بصلب الله وإراقة دمه — لو كان ذلك كذلك لما كان هناك داعية أيضا لأى عمل يعمله الإنسان ، ولما كان هناك فرق بين محسن ومسىء ، إذ الجميع فى يد البوار والهلاك . . كلهم غرقى ، وكلهم مهلكون !

قضية خاسرة :

وقد أحس علماء المسيحية بهذه المفارقات البعيدة بين غفران الله لخطايا الناس بدمه المهراق ، وبين دعوة الضمير وهاتفه الذى يهتف بالناس ويدعوهم إلى التعالى والسمو . .

يقول صاحب كتاب المسيحية الأصلية :

« ومن المدهش أن هذه القضية — قضية الصلب — الخاصة بيسوع ابن الله ، الذى حمل خطايانا ليست محبوبة فى العصر الحاضر ! ويقال عن حمله خطايانا ورفعه قصاصها عنا : إنه عمل غير عادل ، وغير أدبى ، وغير لائق ، ويمكن تحويله إلى سخرية وهزء . . (١)

ونقول إن للناس عذرهم فى هذا ، إذ هم نظروا فرأوا الله الذين بيده كل شىء ، يُدين نفسه بخطيئة آدم ، ولا يكتفى بهذا ، بل يتكلف لذلك ما لا يتكلفه أضعف الناس وأقلهم حيلة فى إصلاح ما أفسد ، فيتحول إلى «آدم» ويتقلب فى أطوار الإنسان كلها ، من حمله جنينا فى بطن أمه إلى ولادته طفلا ورضاعته ... إلى آخر طور من أطوار حياته .. ثم لا يقف الأمر عند هذا ، بل يتلقى لطمات الآدميين ، ويلتقط أقذارهم ووساخاتهم ويضعها على كاهله ، ثم لا يزال بهم يلاحقهم بما يخنق صدورهم ، ويثير ثائرتهم

---

(١) المسيحية الأصلية ص ١٢١

عليه ، حتى يستحكم العداء بينهم وبينه ، وحتى لا يرضوْا منه ، أو لا يرضى هو منهم إلا أن يكون ذبيحة يراق دمها على الصليب !

أفإلى هذا العجز المهين يكون جلال الله وتنزل قدرته ؟ وإلى هذا الحال من الضعف والاستخزاء تنتهي حكمة الله ، كي يحقق أمرا مشكوكا فيه عند الناس ، وهو الخلاص من الخطيئة والتخلص من الفناء الأبدى ؟ فإن أحدا لم يجد لهذا الأمر وقعا فى نفسه ولا أثرا فى حياته .. بل هو مجرد مقولات تقال وفروض تفترض، لا يقوم عليها دليل ، ولا يشهد لها شاهد ! فما زال الناس فى الخطايا يتقلبون !

إن من ينظر إلى الله من خلال تلك الصورة التى تصوره فيها قضية الصلب ، ويستمع إلى تلك الصرخات الضارعة اليائسة من الله وهو يساق إلى الصلب ، ويعتلى خشبته — لمعذور إن هو استخف بهذا الإله أو كفر به . . وهذا ولا شك هو السبب الأول فى صرف العقل عن الدين ، بعد أن تحرر من التقليد واستطاع أن ينظر بنفسه ويمتحن الحقائق التى تحملها إليها عقيدة التثليث ، والتجسيد ، والصلب ، ويختبرها بمخابير التجربة والنظر المباشر .. فى هذا العصر بالذات !

ومن جهة أخلاقية . . ماذا يبقى للإنسان أن يعمله بعد أن حمل المسيح خطاياه على الصليب ؟ ألم يتحرر الإنسان من الخطيئة ، ويتبرر من الإثم بهذا الدم الإلهى الذى أريق من أجله ؟

« يقول » القديس بطرس : « فإن المسيح أيضا تألم مرة لأجل خطايانا »(١)
ويقول « بولس الرسول » : لأن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب »(٢)

---

(١) رسالة بطرس الأولى : ٢ : ٣٤

(٢) رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس ١٥ : ٣

وهذا مايقرره يوحنا صاحب الإنجيل فى إحدى رسالتيه : « وتعلمون أن ذلك أظهر ليرفع خطايانا » (١) .

وقد أكد هذا « بطرس » فى رسالته الأولى بقوله : « الذى حمل هو نفسه خطايانا فى جسده على خشبته » (٢) .

ويقول صاحب « المسيحية الأصلية » : والواقع أن أية محاولة لطلب رضى الله عن طريق جهودنا وأعمالنا ، تحقير ، بل إهانة ليسوع المسيح ، لأن فى مثل هذا دسا وتضليلا على أنه لالزوم لذبيحة المسيح وكفارته ! !

ويقول « بولس » :

« إن كان بالناموس بر (٣) فالمسيح مات بلاسبب ! » . . وإن استطعنا أن نتم خلاصنا فكفارة المسيح باطلة ولالزوم لها . . ! (٤) .

ثم يقول صاحب المسيحية الأصلية : « أما رسالة الصلب فستبقى قوية إلى يومنا هذا ، كما كانت فى أيام بولس.. حجر عثرة للبعض ، وجهالة عند الآخرين.. ولكنها جاءت بسلام عميق إلى ضمير الملايين ! (٥)

ونقول مرة أخرى: ماذا بقى للإنسان أن يعمله فى سبيل الانتصار على النفس والتغلب على أهوائها ؟ وأين هو الإنسان الذى خلقه الله على صورته ؟ وأين كفاحه الذاتى ؟ أين انتصاراته التى ينبغى أن تكون له ، وتضاف إلى حسابه ؟ وأى فرق بين إنسان وإنسان فى حساب الخلق والفضيلة ؟

---

(١) رسالة يوحنا : الأولى : ٣ : ٥ (٢) رسالة بطرس الأولى : ٢ : ٤

(٣) أى إن كان باتباع الشريعة والعمل بمقتضى أمرها ونهيها بر ونجاة ، فالمسيح مات بلاسبب ! ! (٤) المسيحية الأصلية ص ١٢٥

(٥) المسيحية الأصلية ص ١٢٥

وترد مثل هذه الأسئلة على العقل المسيحى ، فينفصل شعوريا عن عقيدة الصلب والغفران ، حين يصطدم بواقع الحيـاة ، ويجد أن الحياة هى الحيـاة ، وأن الشر هو الشر ، وأن عملية الصلب لم تغير من طبيعة الناس التى كانوا عليها ، وأن الاتـكال على غفران المسيح للخطايا بصلبه ، يفتح للناس أبواب الآثام جميعها ، فيتدافعون إليها بلا تأثم أو حرج !

وردت هذه الاعتراضات على العقل المسيحى فحاول دعاة المسيحية أن يعملوا على سد هذه الثغرات ، وأن يسووا وجهها الذى بدأ مختلطا شائها . . فجاءوا يدعون الناس إلى أن يتشبهوا بالمسيح وأن يضحوا بالجسد فى سبيل الله ، وأن يتخففوا من كل مايشدهم إلى حاجات الجسد وشهوته ، وبذلك تتعادل الـكفتان.. كفة التحرر من الخطيئة ، وكفة الترفع عن الخطيئة.. ويرسم بولس الرسول فى الإصحاح الخامس من رسالته إلى « غلاطية » صورة حقيقية للمعركة القائمة فى كيان الإنسان بين الجسد والروح، فيقول : « فالخصمان هما الجسد — وهو الاسم الذى يطلقة الرسول على الطبيعة الموروثة الفاسدة — ثم الروح . . إن الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد . وهذا يقاوم الآخر » .

ويعلق صاحب المسيحية الأصلية على هذا بقوله :

« وعسانا نلاحظ أن هذا ليس رأيا لاهوتيا فحسب،ولـكنه اختبار يومى يجوزه كل مسيحى،فإننا نشعر باستمرار الشهوات الخاطئة والملذات الردية تجذبنا إلى الأسفل، وفى نفس الوقت نلمس قوات معاكسة ترفعنا إلى القداسة ، ولو أطلق للجسد العنان لقادنا إلى مهاوى الفساد والانحطاط والرذائل ! ! (١) .

---

(١) المسيحية الأصلية ص ١٣١

ثم يقول صاحب المسيحية الأصلية « ولا نقصد أن نقول إنه لاشىء قد تُرك لنا لكى نعمله بعد أن حمل المسيح عنا خطايانا !

« بالطبع ينبغى أن نرجع إلى راعى نفوسنا لنموت عن الخطيئة ونحيا للبر [١] »

ونسأل مرة أخرى ماذا كانت غاية الصلب إذن ؟ ألم يكن لأجل التطهير وتكفير الخطايا ؟

فأين التطهير الذى نالته الإنسانية بصلب « الله » ! بل أين مانااله المؤمنون بهذا الصلب إن لم يكن لغير المؤمنين به نصيب فيه ؟

الحق أن مثل هذه المقولات لاترفع التناقض الذى يجده الإنسان فى نفسه ، حين يواجه قضية الصلب ، وماتحمل إلى الناس من طهر ونقاء وشفافية ، ثم يجد أنه لا أثر لهذا فى نفسه أو فى غيره من الناس . . المؤمنين منهم بالصلب وبالمسيح وغير المؤمنين بهما ! !

بل إن هذه المقولات لتزيد الأمر غموضا على غموض !

المعقول واللامعقول:

ولايملك أصحاب هذه القضية آخر الأمر إلا إحالتها إلى القضايا التى لاسلطان للعقل عليها ، ولا نظر له فيها ، لأنها فوق العقل وفوق منطق العقل !

كتب « رتشارد هوكنز » فى عظة ألقاها فى عام ١٥٨٥ م مايأتى ، متحدثا عن الصلب ومايجده العقل إزاءه من حيرة وبلبلة :

« فليحسبه البعض جهالة ، أو جنونا ، أو ثورة غضب . . أو مهما كان ! ! فإنا نحسبه حكمة وتعزية .. على ممر العصور والأجيال ! .

(١) المسيحية الأصلية ص ١٢٢

« ولا نجرى وراء علم أو معرفة فى الوجود سوى هذه :

« الإنسان أخطأ ضد الله !

« وأن الله تألم ! !

« وأن الله قد جعل نفسه خطية للبشر !

« وجعل البشر برّ الله ! » (١)

فالقضية هكذا إذن ؟

لاعقل يرجع فيها إليه . .

وإذن فلتفم موازينها على اللامعقول ، وعلى العقلاء أن يتخلوْا عن عقولهم وأن يقبلوها كما هى !

— الإنسان يخطىء ضد الله !

— الله يتألم لهذه الخطيئة ، أو لهذا الإنسان الخاطىء !

— الله يجعل نفسه خطية للبشر ! !

— والبشر برّ الله !!

ولا نقول شيئا إزاء هذه المتناقضات . . لأن ذلك معناه أننا نحتكم إلى العقل .

وقد خرج الأمر عن أن يعقل !!

ومع أن القضية قد أحيلت آخر الأمر إلى ماوراء المعقول ، فإن أصحاب العقول يأبون إلا أن يعرضوها على عقولهم ويقولوا فيها مايقولون !

وهذا أمر طبيعى ، إذ لاسلطان يحول بين العقل ، وبين أن ينظر فى كل شىء ، سواء أكان مما يعقله أولا يعقله !

---

(١) المسيحية الأصلية ص ١٣٥

ولكن من غير الطبيعى أن يتلقى العقل معتقدا فى أمر هو فى ذاته لا يمكن أنه يقع له على دليل مقنع ، ثم يحاول هذا العقل أن يدخل على إيمانه هذا دليلا مقنعا من صنع العقل نفسه ! .

فأصحاب التجسيد والتثليث والصلب يقولون : إن هذه أمور خارجة عن سلطان العقل ، وإن الإيمان بها لا يكون إلا عن تسليم مطلق .. ثم يجيئون من جهة أخرى فيدخلونها فى دائرة العقل ، ويقيمون الأدلة العقلية لها ! !

وفى هذه الجزئية من القضية نرى الوضع هكذا :

« الإنسان يخطىء ضد الله !

« الله يتألم !

« الله يجعل نفسه خطية !

« ليجعل البشر بر الله !

فى هذه الجزئية نرى: أن الخاطىء هو الذى تكون خطيئته سببا فى تألم الله(!!) ثم يحمل الله خطيئة هذا المذنب ويجعل نفسه مكانه ليظهر بره !

فأى عدل هذا ؟

ولقد أعفينا أنفسنا من قبل من مثل هذا الاعتراض، حين جعلناه أمراً خارجا عن سلطان العقل .

ولكن أصحاب القضية أنفسهم يدفعون العقل إليها دفعا . فيثيرون هذا الاعتراض ثم يجيبون عليه !

يقول قائلهم :

« وهنا قد يعترض معترض قائلا : إن فلسفة البديل (١) فلسفة غير عادلة ، لأنها

---

(١) يعنى البديل الذى يعاقب وهو برىء بدل المذنب الذى يخلص من العقاب .

ترضى أن يموت البرىء عوضا عن المجرم الأصيل ، وأن يؤخذ الذى لم يرتكب الجريمة مكان المعتدى الأثيم .

« ويجيب « جيويلبويد » عن هذا الاعتراض قائلا :

« إن فى كل قضية إنسانية مشابهة يوجد أربعة أطراف إلى جانب المجرم الحقيقى :

أولا : القاضى . ثانيا : البديل . ثالثا : المجتمع الذى أسىء إليه . .
رابعا : رأس الدولة الممثل لقانون البلاد ، والذى أقسم القاضى فى محضره أن يكون نزيها فى تنفيذ القانون .

« وفى قضيةٍ هذه أطرافها لا يمكن للقاضى أن يحكم على شخص برىء حتى ولو رضى ذلك الشخص أن يؤخذ مكان المجرم الأصيل . . لأن عملا كهذا يسىء إلى المجتمع الذى لم يأخذ فيه القانون مجراه فى القاتل الحقيقى لأحد أفراده ، كما يسىء إلى القانون الذى أقسم القاضى على تنفيذه بعدالة وصدق ، ويجعل القاضى فى موقف الراضى عن الظلم والغش والتدليس .

« وأما فى قضية الصليب ، وفى وضع المسيح كبديل برىء عن البشر الآثمين فالأمر يختلف كل الاختلاف . . إذ أننا نرى فى هذه القضية أن المجرم الحقيقى هو « الإنسان الخاطىء الأثيم » .. ولكننا لا نجد أمامه سوى شخص واحد هو « القاضى » وهو نفسه « المجتمع » الذى أسىء إليه وهو « واضع القانون » وهو « ممثل القانون » وهو فى ذات الوقت الذى ارتضى أن يكون « البديل البرىء ! » وهو « الله المحب الشفوق . . العادل البار القدوس » الذى لا يمكن أن توافق عدالته على أن يغفر للناس بغير حساب ، ولهذا فإن الله حين جاء فى المسيح ليموت على الصليب [1] لم

---

(١) « الله جاء فى المسيح ليموت ! » .. إنها نعى صريح لله . . لقد ظل المسيح ثلاثة أيام كما يقولون فى حال الموت ، ثم قام من الأموات فى اليوم الثالث !

يكن منفذا القانون شخص آخر، بل للقانون الذى وضعه هو، والجريمة لم ترتكب ضد شخص سواه .

« وفوق كل هذا لم يأخذ شخصا آخر بعيدا عنه ، ليجعله بديلا للإنسان بل على العكس قد رفض هذا فى وضوح عندما عرض عليه موسى أن يجعله بديلا لإسرائيل وأن يمحوه لأجلهم من كتابه الذى كتب (خروج ٣٢ : ٣٠ — ٣٥) .

« ولكنه [1] جاء بنفسه آخذا صورة العبيد الآثمين(!!) وحل فى الجسد الإنسانى الذى أخذه عقابُ قانونه ، وبهذا وفق بين عدله ورحمته ، وبين قداسته ومحبته ، وبين كراهيته الشديدة للخطية ، ومحبته الفائقة للإنسان !! وبينما تألم ومات على الصليب(!) نجده يعلن عن نفسه أنه القاضى العادل ديان كل من فى الأرض(متى ١٣ : ٤١ — ٤٣، ٢٥ : ٣١ — ٤٦).

ونسأل: أى عدل هذا، فى الحكم الذى أصدره الله على نفسه ؟ وأى قاض يشنق نفسه بدل المجرم القاتل مهما كان عطفه عليه وتقديره لظروفه ؟ وإذا لم يكن فى وسع القاضى أن يجد فى القانون منفذا للعفو عن المجرم فهل يُدين نفسه ، ويأخذها بالعقوبة الواجبة التى يفرضها القانون على هذا المجرم الذى بين يديه ؟

إن القاضى يحكم على المجرم بما يقضى به القانون . . ثم قد يجىء من جهة أخرى — إذا وجد لذلك داعية فى نفسه — فيطلب لهذا المجرم العفو عن كل العقوبة أو بعضها من السلطة التى تملك حق العفو !

فهل يعجز الله إذا حكم على الإنسان بحكم أن يُتبع هذا الحكم بالعفو عنه ، بصورة أو بأخرى ؟

ندع هذا ؟

ونمضى مع العلامة « جويل بويد » فى تصويره لهذه القضية . . يقول :

---

(١) أى الله .. وانظر فى أى وضع يضع الله نفسه !

« وعلى هذا، فنحن لانجد الله القدوس يعاقب شخصا بريئا باعتباره طرفا ثالثا فى القضية ، بل نرى أن القاضى هنا هو الله المثلث الأقانيم وأن الأقنوم الثانى من اللاهوت (١) قد رضى فى محبته أن يأخذ شخصية المجرم ممثلا إياه فى كل شىء ماعدا الخطية ، وأخيرا صار نفسه هو خطية ، وارتضى أن ينفذ فى شخصه عقاب القانون الذى وضعه هو ضد الخطية ، وهو القانون القائل « النفس التى تخطىء هى تموت »

« وكل هذا يرينا بأن « فلسفة » البديل البرىء التى تنادى بها المسيحية هى القمة الشاهقة التى يعلن الله من فوقها عن صفاته الأدبية الكاملة ، التى تظهر فيها حكمة الله ومحبة الله» ! ! (٢)

ونقول : إنه إذا كان الله قد أعلن عن صفاته الأدبية الكاملة التى تظهر فيها حكمته ومحبته إذ صلب نفسه بدلا من الإنسان فإنه فى هذا الإعلان قد كشف عن عجزه وضعفه وقصور حكمته ، إذ أراد أن ينقذ السفينة الغارقة فأغرق نفسه !

وأحسب أن هذه «الفلسفة» ـ فلسفة « البديل » كما يسمونها ـ قد أسرفت إسرافا بعيدا فى الخيال ، فجاوزت حدود الأساطير التى ولدها العقل اليونانى لآلهة «الأولمب» فقد كان ذلك العقل يميت بعض الآلهة على حين يظل محتفظا بآلهة أخرى عاملة فى الحياة ، مصرفة شئون الناس وغير الناس .. أما هذه الأسطورة فقد قضت بحكم الموت على الإله الواحد ، الذى لا إله غيره ، وأخلت الوجود من إله قائم عليه .. ولو للحظة واحدة ! !

وسؤال أخير نسأله ولا نطلب له جوابا :

إذا كانت عملية التجسد والصلب مرادة للقضاء على سلطان الموت وتكفير

---

(١) الأقنوم الثانى هو « الابن » .

(٢) قضية الصليب ص ٦٦ ، ٦٧

الخطايا ، فلم كان مسرح هذه العملية على الأرض وفى مشهد من الناس ؟ أما كان يمكن أن تكون أمراً من أمر الله يقع دون أن يراه الناس ؟

وإذا كان من الحتم أن يكون مسرح هذه العملية على الأرض وبمشهد من الناس ، فلم كانت اليهودية هى مسرحها ؟ ولم كان هذا الوقت الذى وقعت فيه هو الوقت المتخير لها ؟ أما كان الأوفق أن يكون ذلك منذ كان لآدم أولاد حتى يكون للخلاص معنى ؟ وحتى يتوالد الناس وقد خلصوا من لعنة الخطية ؟ ولم ترك الله الإنسانية تتوالد تحت ناموس اللعنة والخطية حتى اللحظة الأخيرة من حياة الإنسانية ؟

لقد أعلن المسيح أن ملكوت الله قد قرب . .

ومعنى هذا أن دور الإنسان على هذه الأرض — يوم جاء المسيح — كان قد أوشك أن ينتهى ! . . فما معنى هذا الخلاص وماقيمته ؟ وما أثره فى ملايين البشر الذين ذهبوا فى غابر الدهور ؟ وما نصيبهم من هذا الحب الذى ضحى فيه الله بنفسه من أجلهم ؟ لقد جاء الخلاص بعد فوات الأوان ! !

ثم ما أثر ذلك فى الحياة بعد الصلب ! ؟

أتغير وجه الدنيا ؟

أتغيرت طبيعة الناس ؟

أسكن الشر الذى يزمجر فى نفوسهم ؟

أوقع السلام على الأرض ؟

أترك الناس عصيان الله ومحاربته ؟

أعاد الإنسانُ إلى صورته الأولى قبل أن تفسدها الخطيئة ؟ وقد قلنا ونقول : إننا لانجيب على هذا السؤال الذى استطال وامتد فكان سلسلة من الأسئلة ! فالأمر أظهر من أن يحتاج إلى جواب ، ولسان الحال أفصح من كل قول يقال !

ولكن مع هذا فللقائلين بالصلب مقال فى تبرير الصلب ، وفى تقديم كشف حساب طويل لمعطياته وآثاره فى حياة الناس . .

يقول قائلهم :

« والآن إذا مات عنا مخلص الجميع ، فإننا نحن الذين نؤمن بالمسيح لانموت بعد، كما كانوا قديما حسب وعيد الناموس : لأن هذا الحكم قد بطل وإذ بطل الفساد وأبيد بنعمة القيامة فإننا من ذلك الوقت إنما ننحل وفقا لطبيعة أجسادنا الفانية فى الوقت الذى حدده الله لكل واحد حتى يمكن أن ننال قيامة أفضل ! (١)

والسؤال هنا هو : هل القيامة والحياة الأبدية للذين يؤمنون بالمسيح وصلبه — وحدهم ؟

وأين يذهب غير المؤمنين به ممن كانوا قبله أو الذين جاءوا بعده ؟ وأين الدينونة إذن ؟

وهل ينجو الذين لايؤمنون بالمسيح وبصلبه من دينونة اليوم الآخر حيث هم فى الفناء الأبدى وبمنأى من الثواب والعقاب ؟

وهل يمضى العصاة والمذنبون إلى حيث لادينونة ولاقصاص !

إن يكن ذلك .. إذن فهم أربح صفقة وأرجح كفة !

أم هل القيامة والحياة الأبدية ـ فى النعيم أو الجحيم ـ للناس جميعا ممن يؤمنون بالمسيح وصلبه وممن لايؤمنون به !

إن يكن هذا فصلب المسيح إن كان نعمة على قوم فهو بلاء ونقمة لآخرين !

نسأل ، ولانتظر جوابا !

---

(١) قضية الصليب ص ٥٢

لماذا كانت عملية الفداء علانية !

وهذا السؤال ليس من عندنا فقد اقترضه أصحاب القضية أنفسهم وأجابوا عليه :

« يقولون لعل متسائلا يقول : إن كان لا بد له — أى الله — أن يسلم جسده للموت نيابة عن الجميع [(١)] فلماذا لم يضع هذا الجسد كأى إنسان سرا ، وعوضا عن أن يشهر به إلى هذا الحد ويموت مصلوبا ؟ لأنه كان أكثر لياقة أن يسلم جسده بكرامة ووقار من أن يحتمل موتا مشينا كهذا !!

والجواب على هذا هو :

« إن اعتراضا كهذا لا يمكن إلا أن يكون بشريا ، بينما الذى فعله المخلص هو إلهى حقا ولائق بلاهوته لأسباب كثيرة . . منها :

أولا : أن الموت الذى يصيب البشر يأتيهم لأنه يتناسب مع ضعف طبيعتهم فإنهم إذ لا يستطيعون البقاء على حال واحد ، بل ينحلون مع الزمن .. بسبب هذا أيضا تنتابهم الأمراض ثم يموتون .. أما الرب فإنه ليس ضعيفا بل هو قوة الله ، وكلمة الله وهو الحياة عينها .

ثانيا : لو أنه سلم جسده فى مكان ما سراً وعلى فراش كعادة البشر لظن أنه فعل ذلك أيضاً نظرا لضعف طبيعته ، ولأنه لم يكن فيه ما يميزه عن سائر البشر !

أما وأنه :

(أولا) كان الحياة وكلمة الله

(ثانيا) كان من الضرورى أن يتم حكم الموت نيابة عن الجميع ، لهذا نال الجسد منه قوة لأنه هو القوة ، وهو الحياة [(٢)] .

---

(١) وهذا يتناقض مع قولهم : « فإننا نحن الذين نؤمن بالمسيح لا نموت »

(٢) لم ينل الجسد أية قوة ، إذ أنه لم يقو على حمل الصليب وتخاذلت قواه وارتخت ساقاه ، كما تقول الأناجيل .

«هذا من جهة ،ومن جهة أخرى فما دام الموت لابد أن يتم ، فإنه ـ أى الله ـ لم يسْعَ إلى الفرصة التى تتم بها ذبيحته، بل قبلها من أيدى الآخرين ، ولم يكن لائقا أن يرقد الرب على فراش المرض وهو الذى شفى أمراض الآخرين ، ولم يكن يكن لائقا أن تنحل قوة ذلك الجسد الذى قوّى به ضعفات الآخرين ! (١)»

ونسأل بدورنا :

هل موت « الله » على هذه الصورة فيه إعلان عن قوة الله وقدرته ، حتى يقال إن موته على الفراش كعادة البشر مما يوقع فى ظن الناس أنه ضعيف مثلهم !؟

ونسأل أيضا : أ كل الناس يموتون بعد أن تنتابهم العلل والأوجاع؟ أفما يموت كثير من الناس موت الفُجاءة ، وهم فى أتم صحة وأوفر شباب ! ؟

واعتراضاتنا هنا لا تمس الصميم من القضية ، وإنما هى اعتراضات « شكلية » تواجه منطق هذه المقولات التى تعرض القضية وتدلل لها ، حسب ماترى أو تعتقد . أما القضية ذاتها فقد فرغنا من النظر فيها .. لأنها ـ كما يقولون ـ فوق المعقول واللامعقول معا !

* * * *

(١) قضية الصليب هو ٥٤

الفصل الثانى

القيـامة

الموتى يبعثهم الله :

يعتقد الذين يؤمنون بصلب المسيح — أى الله — أنه قد قام من بين الأموات فى اليوم الثالث من صلبه !

وقد تحدثت الأناجيل الأربعة عن حادثة الصلب والقيامة . .

والتحقيق العلمى لمقولات الأناجيل فى هاتين الحادثتين يكشف عن كثير من وجوه الخلاف بينها ، فى مواقف متعددة ، الأمر الذى يثير الشك والريبة فيهما معا . .

ولا نعرض هنا لما وقع بين الأناجيل من خلاف فى مسألة الصلب ، فلهذا بحث خاص . . سنلقاه بعد قليل !

وأما الذى نريد أن ننظر فيه الآن فهو مقولات الأناجيل فى القيامة ، ولا بأس من أن نعرض هذه المقولات ونقابل بعضها ببعض ، فهى فى معارضها التى عرضت فيها قصص مثير ، يهز المشاعر ويحرك العواطف ، بما يحمل من صور لا تقع عليها العين فى عالم الواقع أو الخيال ! !

١ — **من إنجيل متى:**

« يقول متى فى إنجيله: « وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى [1] لتنظرا القبر . . وإذا زلزلة عظيمة حدثت ، لأن ملاك الرب نزل

---

(١) هى أم المسيح

من السماء وجاء ودحرج الحجر عند الباب وكان منظره كالبرق، ولباسه أبيض، كالثلج، فمن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كأموات ! فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا أنتما، فإنى أعلم أنكم تطلبون يسوع المصلوب . . ليس هو هنا ، لأنه قام كما قال . . هيا انظرا الموضع الذى كان الرب مضطجعا فيه ، واذهبا سريعا قولا لتلاميذه : إنه قام من الأموات ، ها هو يسبقكم إلى الجليل . . هناك ترونه .. ها أنا قد قلت لكما ، فخرجتا سريعا من القبر بخوف وفزع عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه ، وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه إذا يسوع لاقاهما وقال سلام لكما ، فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له ، فقال لهما يسوع لا تخافا اذهبا قولا لأخوتى أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يروننى .

« وفيما هما ذاهبتان إذا قوم من الحراس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين : قولوا إن تلاميذه أتوا ليلا وسرقوه ونحن نيام وإذا سمع ذلك عند الوالى فنحن نستعطفه ونجعلكم مطمئنين ، فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم .

« وأما الأحد عشر تلميذا فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل ، حيث أمرهم يسوع ، ولما رأوه سجدوا ، ولكن بعضهم شكوا فتقدم يسوع وكلمهم قائلا : « دفع إلىّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر . . آمين » .

والذى يلاحظ فى هذا الخبر :

أولا : أن الملاك لم ينزل إلا عند حضور مريم المجدلية ومريم الأخرى ، وأن الملاك هو الذى دحرج الحجر عن القبر .

ثانيا : أن يسوع يقول للمرأتين « اذهبا وقولا لأخوتى » فهو يسمى تلاميذه إخوة . . وهو الآن إله كامل ، قد نزع لباس الإنسان عنه . . فكيف يقول للناس إنهم إخوته ؟

٢ — من إنجيل مرقس :

« وبعد مامضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب[1] وسالومة ، حنوطا ، ليأتين ويدهنه ، وباكراً جدا فى أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس ، وكن يقلن فيما بينهن : من يدحرج لنا الحجر عند باب القبر ، فتطلعن ورأين الحجر قد دحرج لأنه كان عظيما جدا ، ولما دخلن القبر رأين شابا جالسا عن اليمين لابسا حلة بيضاء فاندهشن فقال لهن لاتندهشن أنتن تطلبن يسوع الناصرى المصلوب . . لقد قام . . ليس هو ها هنا . . هو ذا الموضع الذى وضعوه فيه ، لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إنه يسبقكم إلى الجليل ، هناك ترونه كما قال لكم ، فخرجن سريعا وهربن من القبر لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن ولم يقلن لأحد شيئا لأنهن كن خائفات .

« وبعد ماقام باكرا أول الأسبوع ظهر أولا لمريم المجدلية التى كان قد أخرج منها سبعة شياطين فذهبت هذه وأخبرت الذين كانوا معه وهم ينوحون ويبكون ، فلما سمع أولئك أنه حى وقد نظرته ، لم يصدقوا .

« وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم وهما يمشيان منطلقين إلى البرية ، وذهب هذان وأخبرا الباقين فلم يصدقوا ولاهذين !

«أخيرا ظهر للأحد عشر وهم متكئون، ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام ، وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل

(١) هى مريم أم المسيح ، ويعقوب ابنها من زوجها يوسف وأخو المسيح لأمه.

للخليقة كلها . . من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يُـدَن ، وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمى ويتكلمون بألسنة جديدة ، يحملون حيّـاتٍ ، وإن شربوا شيئا مميتا لا يضرهم ، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرءون .

« ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله ، وأما هم فخرجوا وكرزوا فى كل مكان والرب يعمل معهم ويثبّـت الكلام بالآيات التابعة .. آمين »

ويلاحظ فى هذه الرواية :

١ — الخلاف مع إنجيل متى فى أن النسوة اللائى ذهبن للقبر كن ثلاثا بينما فى إنجيل (متى) كن اثنتين .

٢ — أن مجىء النسوة إلى القبر كان بعد طلوع الشمس ، بينما يذكر متى أن ذلك كان عند الفجر .

٣ — أن النسوة رأين الملاك داخل القبر على حين يذكر متى عن الملاك أنه كان خارج القبر .

٤ — أن الملاك لم يحدث زلزلة ولا انزعاجا للحراس ، بينما يذكر متى ذلك .

٥ — أن المسيح لم يقل هذه القولة التى هى أساس العقيدة المسيحية : « عمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس » على ما ذكره متى فى إنجيله .

٦ — أن المسيح ارتفع إلى السماء بعد ما كلم تلاميذه ، وجلس على يمين الله ولم يقل (متى) شيئا عن هذه الواقعة .

٣ — من إنجيل لوقا :

« ثم فى أول الأسبوع أول الفجر أتين (النسوة) إلى القبر حاملات الحنوط الذى أعددنه ومعهن أناس ، فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر ، فدخلن ولم يجدن

جسد الرب يسوع ، وفيما هن محتارات فى ذلك إذ رجلان وقفا بثياب براقة ، وإذ كنّ خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض قالا لهن : لماذا تطلبن الحى بين الأموات؟ ليس هو هنا لكنه قام ، اذكرن كيف كلمكن وهو بعد فى الجليل قائلا : « إنه ينبغى أن يسلّم ابن الإنسان فى أيدى أناس خطاة ويصلب وفى اليوم الثالث يقوم » . فتذكرن كلامه . ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله . وكانت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب[1] والباقيات معهن اللواتى قلن هذا للرسل ، فتراءى كلامهن لهم كالهذيان ، ولم يصدقوهن فقام بطرس وركض إلى القبر فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها فمضى متعجبا فى نفسه مما كان ! !

«وإذا اثنان كانا منطلقين فى ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة ، اسمها عمواس ، وكانا يتكلمان بعضهما مع بعض ، عن جميع هذه الحوادث .

«وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشى معهما . ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته ، فقال لهما ماهذا الكلام الذى تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين ؟ فأجاب أحدهما الذى اسمه كليوباس ، ، وقال له هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ولم تعلم الأمور التى حدثت فيها فى هذه الأيام ؟ فقال لهما وماهىَ ؟ فقالا المختصة بيسوع الناصرى الذى كان إنسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ، ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل ، ولكن مع هذا كله ، اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك بل بعض النساء منا حيرننا !! إذ كن باكرا عند القبر ولما لم يجدن جسده أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حى . ومضى قوم

(١) مريم أم يعقوب هى مريم أم المسيح ويعقوب هو أخو المسيح من زوج أمه يوسف .

من الذين معنا إلى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضا النساء ، وأما هو فلم يروه فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلوب فى الإيمان بجميع ماتكلم به الأنبياء، أما كان ينبغى أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده ، ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به فى جميع الكتب .

«ثم اقتربوا إلى القرية التى كانا منطلقين إليها وهو متظاهر كأنه منطلق إلى مكان آخر أبعد ، فألزماه قائلين ، امكث معنا لأنه نحو المساء ، وقد مال النهار ، فدخل ليمكث معهما ، فلما اتكأ معهما أخذ خبزا وبارك وكسر وناولهما فانفتحت أعينهما وعرفاه، ثم اختفى عنهما وقال بعضهما لبعض ألم يكن قلبنا ملتهبا إذ كان يكلمنا فى الطريق ، ويوضح لنا الكتب ؟ فقاما فى تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم وهم يقولون : إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان وأماهما فكانا يخبران بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز.

« وفيما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم وقال لهم سلام لكم فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحا ، فقال لهم ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم، انظروا يدى ورجلى وأنى أنا هو ، جسونى وانظروا ،فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى ، وحين قال لهم أعندكم ها هنا طعام فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل قدامهم !

« وقال لهم هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم ، إنه لابدأن يتم جميع ماهو مكتوب فى ناموس موسى والأنبياء والمزامير ، حينئذ فتحوا ذهنهم ليفهموا الكتب ، وقال لهم هكذا ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات فى اليوم الثالث ، وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأً من أورشليم ، وأنتم شهود لذلك وها أنا أرسل إليكم موعد أبى ، فأقيموا فى مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالى .

« وأخرجهم خارجا إلى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم ، وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم وكانوا كل حين فى الهيكل يسبحون ويباركون الله . آمين »

وندع للقارىء النظر فى هذه الصورة ومافيها من خلاف فى الوقائع والأشخاص عما ورد فى الصورتين السابقتين.. وحسب القارىء أن يرجع إلى شعوره وأن يتحسس ماوقع فى نفسه من كل خبر من هذه الأخبار ـ حسبه هذا ليعرف مدى الخلاف الذى بين رواية ورواية !

٤ — من إنجيل يوحنا :

« وفى أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرا ، والظلام باق ، فنظرت الحجر مرفوعا عن القبر فركضت وجاءت إلى سمعان « بطرس » وإلى التلميذ الآخر الذى كان يسوع يحبه (١) وقالت لهما أخذوا السيد من القبر ، ولسنا نعلم أين وضعوه فخرج بطرس والتلميذ الآخر وأتيا إلى القبر وكان الاثنان يركضان معا فسبق التلميذ الآخر بطرس وجاء أولا إلى القبر وانحنى فنظر الأكفان موضوعة ، ولكنه لم يدخل ، ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر ونظر الأكفان موضوعة والمنديل الذى كان على رأسه ليس موضوعا مع الأكفان ، بل ملفوفا فى موضع وحده ، فحينئذ دخل أيضا التلميذ الآخر الذى جاء أولا إلى القبر ورأى فآمن ، لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب ، أنه ينبغى أن يقوم من الأموات ، فمضى التلميذان أيضا إلى موضعهما .

« أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجا تبكى ، وفيما هى تبكى انحنت إلى

(١) التلميذ الآخر هو يوحنا صاحب هذا الإنجيل وهو يكنى بهذا عن نفسه .

القبر فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين (١) واحدا عند الرأس ، والآخر عند الرجلين ، حيث كان جسد يسوع موضوعا فقالا لها : يا امرأة ، لماذا تبكين قالت لهم إنهم أخذوا سيدى ولست أعلم أين وضعوه ، ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفا ولم تعلم أنه يسوع ، قال لها يسوع يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين ؟ فظنت تلك أنه البستانى فقالت له ياسيد إن كنت أنت قد حملته فقل لى أين وضعته وأنا آخذه ، قال لها يسوع يامريم فالتفتت تلك وقالت له : ربونى الذى تفسيره يامعلم! قال لها يسوع لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى، ولكن اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب وأنه قال لها هذا .

« ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود جاء يسوع ووقف فى الوسط وقال لهم : سلام لكم . ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب فقال لهم يسوع أيضا سلام لكم .. كما أرسلنى الأب أرسلكم أنا ، ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس ومن غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت .

« أما توما أحد الاثنى عشر الذى يقال له التوأم فلم يكن معهم إذ جاء يسوع فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب : فقال لهم إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير وأضع أصبعى فى أثر المسامير وأضع يدى فى جنبه لا أومن !

« وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضا داخلا ، وتوما معهم فجاء يسوع والأبواب مغلقة ووقف فى الوسط وقال سلام لكم ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدى وهات يدك وضعها فى جنبى ولا تكن غير مؤمن بل مؤمنا .

(١) وهل تلبس الملائكة ثيابا ؟ ومن أى نسيج هذه الثياب ؟

أجاب توما وقال له ربى وإلهى قال له يسوع لأنك رأيتنى ياتوما آمنت ؟

« طوبى للذين آمنوا ولم يروْا ! !

« وآيات كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب فى هذا الكتاب ، وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكى تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه . .

« بعد هذا أظهر يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية ، ظهر كهذا : كان سمعان بطرس، وتوما الذى يقال له التوأم ونثنائيل الذى من قانا الجليل ، وابنا زبدى واثنان آخران من تلاميذه ، مع بعضهم قال لهم سمعان بطرس أنا أذهب لاتصيد قالوا له نذهب نحن أيضا معك فخرجوا ودخلوا السفينة للوقت ، وفى تلك الليلة لم يمسكوا شيئا ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطىء ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع ، فقال لهم يسوع ياغلمان ألعل عندكم إداما ، أجابوه لا ، فقال لهم ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا ، فألقوا ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك فقال ذلك التلميذ الذى كان يسوع يحبه لبطرس:هو الرب!! فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب ، اتزر بثوبه لأنه كان عريانا وألقى نفسه فى البحر ، وأما التلاميذ الآخرون فجاءوا بالسفينة لأنهم لم يكونوا بعيدين عن الأرض إلا نحو مئتى ذراع وهم يجرون شبكة السمك ، فلما خرجوا إلى الأرض نظروا جمراً موضوعاً، وسمكا موضوعا عليه ، وخبزاً... قال لهم يسوع هلموا تغدوا،ولم يجسر أحد من التلاميذ أن يسأله من أنت إذ كانوا يعلمون أنه الرب.. ثم جاء يسوع وأخذ الخبزوأعطاهم وكذلك السمك . . هذه مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعد ماقام من الأموات . .

« فبعد ماتغدوا قال يسوع لسمعان بطرس ياسمعان بن يونا أتحبنى أكثر من

هؤلاء ؟ قال له نعم يارب أنت تعلم أنى أحبك : قال له : ارع خرافى ، قال له أيضاً ثانية ياسمعان بن يونا أتحبنى ؟ قال نعم يارب أنت تعلم أنى أحبك . قال له : ارع غنمى ، وقال له ثالثة : ياسمعان بن يونا أتحبنى ، فحزن بطرس لأنه قال له ثالثة أتحبنى . فقال له يارب أنت تعلم كل شىء ، أنت تعرف أنى أحبك ، قال له يسوع : ارع غنمى .. الحقّ الحق أقول لك ، لما كنتَ أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشى حيث تشاء ولكن متى شخت فإنك تمد يدك وآخر يمنطقك ويحملك حيث لاتشاء .. قال هذا مشيرا إلى أية ميتة كان مزمعا أن يمجد الله بها ، ولما قال هذا قال له اتبعنى .. فالتفت بطرس ونظر التلميذ الذى كان يسوع يحبه يتبعه ، وهو أيضا الذى اتكأ على صدره وقت العشاء وقال ياسيد من هو الذى يسلمك فلما رأى بطرس هذا قال ليسوع يارب ، وهذا ماله ؟ قال له يسوع إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجىء فماذا لك ؟ اتبعنى أنت ! فذاع هذا القول بين الأخوة أن ذلك التلميذ لايموت ولكن لم يقل له يسوع إنه لايموت ، بل إن كنت أشاء أن يبقى حتى أجىء فماذا لك .

« هذا هو التلميذ (١) الذى يشهد بهذا وكتب هذا . ونعلم أن شهادته حق . وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع ، إن كتبت واحدة منها فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة ! ! آمين »

هذا هو ماسجلته الأناجيل الأربعة من حادثة « القيامة » .. قيامة المسيح من بين الأموات .. وقد أشرنا إلى بعض الخلافات التى بين روايات الأناجيل عنها ، ولانريد أن نعرض وجوه الخلاف التى يمكن للناظر فى هذه الروايات أن يقع عليها من أول نظرة . .

وإنما يكفى أن نشير إلى الأحداث البارزة التى وقع فيها خلاف حاد لايمكن تسويته بحال.

---

(١) أى يوحنا الذى كتب هذا الإنجيل المعروف باسمه

(فأولا) الوقت الذى ذهب فيه الذاهبون إلى القبر . . هو عند الفجر (متى) وبعد طلوع الشمس (مرقس) والظلام باق (يوحنا) .

(وثانيا) الأشخاص الذين ذهبوا إلى القبر: امرأتان (متى) وثلاث نساء (مرقس) ونساء وأناس كثيرون (لوقا) مريم المجدلية وحدها (يوحنا) .

(وثالثا) الملاك الذى ظهر لزائرى القبر . . أحدث زلزلة عظيمة وزحزح الحجر وجلس عليه (متى)شاب جالس داخل القبر على اليمين (مرقس) رجلان وقفا داخل القبر بثياب براقة (لوقا) لاشيء فى الزيارة الأولى ، ثم ملكان جالسان، واحد عند الرأس والآخر عند الرجلين فى الزيارة الثانية (يوحنا) .

(رابعا) ماتحدث به الملاك أوالملاكان : « اذهبا سريعا قولا لتلاميذه إنه قد قام من الأموات . . ها هو يسبقكم إلى الجليل »(متى) . . « ولماذا تطلبن الحى بين الأموات ؟ ليس ها هنا لكنه قام» (لوقا) . . « يا امرأة لماذا تبكين ؟ (يوحنا) .

(خامسا) المسيح عند القبر: ... (متى) ... (مرقس)... (لوقا) ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفا ولم تعلم أنه يسوع (يوحنا) .

(سادسا) الذين رأوا المسيح: التلاميذ الأحد عشرومريم المجدلية ومريم الأخرى (متى) . . مريم المجدلية وحدها واثنان آخران ، والتلاميذ الأحد عشر (مرقس) الأحد عشر تلميذا واثنان آخران ، أما مريم فلم تره (لوقا) مريم المجدلية والتلاميذ الأحد عشر (يوحنا) .

(سابعا) أعمال المسيح بعد قيامته: تقدم إلى تلاميذه وقال لهم: دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض . . . ولم يرهم ولم يروه بعد ذلك (متى) ظهر للأحد عشر تلميذا وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقسوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه

قد قام . . ولم يرهم ولم يروه بعدها (مرقس) صحب اثنين كانا ذاهبين إلى قرية عمواس وتحدث إليهم وقطع معهم الطريق كله ونزل منزلهم وأكل معهم . . دخل على التلاميذ الأحد عشر فجأة فى أورشليم (لافى الجليل) وعرض لهم أن ينظروا إلى يديه ورجليه وأن يجسوه ليتأكدوا من شخصه (لوقا) . . قال لمريم المجدلية لاتلمسيني لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . . دخل على تلاميذه وأراهم يديه وجنبه . . بعد ثمانية أيام من هذا دخل مرة أخرى على تلاميذه وقال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدى وهات يدك وضعها فى جنبى ولاتكن غير مؤمن » (يوحنا)

(ثامنا) إلى أين ذهب المسيح بعد القيامة ؟

« ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر (متى)

« ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله . (مرقس) وأخرجهم خارجا إلى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء » (لوقا)

« . . . . ؟ ؟ ؟ (يوحنا)

وللقارىء أن يعيد النظر مرة أخرى نيقابل هذه الروايات فى الأناجيل الأربعة، وسيرى كثيراً من المفارقات ، لافيا بين الروايات وحسب بل فى الرواية الواحدة ..

ففى (يوحنا) مثلا . . يقول المسيح لمريم المجدلية : « لاتلمسيني » ثم يقول فى هذا الإنجيل نفسه لتوما : هات أصبعك . . . وهات يدك وضعها فى جنبى ! وأمثال هذا كثير . . لاندرى ماذا نقول فيه ولا بماذا نحكم عليه ! ! ؟ ؟

لماذا كانت قيامة المسيح ؟

كان لا بد إذ قام المسيح من الأموات أن تكون لقيامته حكمة تستعلن للناس

الذين شهدوا صلبه ! والذين آمنوا به وعرفوا عن قرب ماينطوى عليه كيانه ، من قوى خارقة ، موصولة بأسباب السماء !

لم يقم المسيح — عند الذين قالوا بقيامته — بروحه بل بجسده الذى عاش فيه .. وقد رأى ذلك تلاميذه عيانا — كما تقول الأناجيل — وتحققوا من ذلك حين طلب إليه أحدهم أن يطلعه على الثقب الذى فى يديه من أثر المسامير التى دقت فيها عند صلبه ! وحين أكل وشرب معهم !

ومع أن قيامة المسيح وظهوره لتلاميذه، ومعاودة هذا الظهور مدة أربعين يوما — مع أن هذا يثير مشكلات كثيرة فى العقيدة المسيحية ، حيث يرد على العقل جملة من الأسئلة المحيرة .. مثل: أين كان يعيش « المسيح » خلال الأربعين يوما التى عاشها على الأرض بجسده ؟ وهل كان لاهوتا وناسوتا معا خلال تلك المدة ؟ وهل تغيرت طبيعته بعد القيامة عنها قبل القيامة ؟ ثم أين جسده الذى قام به ؟ ثم إلى أين ذهب المسيح بعد الأيام الأربعين ؟ هل رفع إلى السماء ؟ وهل رآه أحد يرفع ؟ وهل رفع لاهوتا وناسوتا ؟ أم ترك الناسوت ؟ وأين ذهب الناسوت ؟

مع هذه الأسئلة المحيرة التى تثيرها قيامة المسيح فإنا نجاوزها ولا نقف عندها .. بل نضيفها إلى حساب « اللامعقول » الذى تضخم رصيده عندنا من تلك القضية !

ومع هذا فلا بأس من أن نسمع لمقولة من تلك المقولات التى تقيم الدليل على قيامة المسيح . .

يقول القديس أثناسيوس الرسولى:

« إن كان المسيح قد قَتل الموت، فماذا يمكن أن يحدث إلا أن يقيم جسده ويظهر كعلامة للنصرة على الموت ؟

« وكيف كان ممكنا إظهار إبادة الموت ما لم يكن جسد الرب قد قام ؟

ثم يقول :

« ولكن إن كانت هذه الأدلة على حقيقة القيامة تبدو لأى امرىء غير كافية فليحقق ماقلناه مما يحدث أمام عينيه .

« لأنه إن كان إنسان بموته تبطل قواه ، وينتهى نفوذه وسلطانه عند القبر ، وإن كانت الأعمال والنفوذ على البشر لاتخص إلا الأحياء . . فلينظر كل من أراد وليحكم شاهداً للحق مما يبدو أمام عينيه . لأنه إن كان المخلص يعمل الآن أعمالا عظيمة كهذه للبشر ، ولايزال كل يوم بكيفية غير منظورة يقنع الجماهير العظيمة من كل ناحية سواء من سكان اليونان أو البلاد الغربية ليقبلوا إلى إيمانه ويطيع الجميع تعاليمه . فهل لايزال يوجد من يتطرق الشك إلى عقله أن القيامة قد أتمها المخلص ، أو أن المسيح حى أو بالحرى أنه هو نفس الحياة ؟

« هل يتاح لشخص ميت أن ينخس ضمائر البشر فتثور ضد نواميسهم الموروثة ويخضعوا لتعاليم المسيح ؟

« وإن كان المسيح لم يعد بعد فاعلا متحركا — كما يتفق مع خاصية الميت — فهل يستطيع أن يصد الأحياء عن حركاتهم وأعمالهم ، حتى يكف الزانى عن الزنا ، والقاتل عن القتل ، والظالم عن الظلم والاغتصاب ، وحتى يصبح الدنس متديناً؟ أو كيف يستطيع لو أنه لم يقم ، بل لايزال ميتا — أن يطرد ويطارد ويحطم تلك الآلهة الكاذبة ؟ (١) » .

ولا نملك أنفسنا من أن نسأل :

هل غيرت قيامة المسيح حياة البشر ؟ وهل تحولت تلك القيامة بطبائعهم التى كانوا عليها إلى طبائع أخرى لاتفعل الشر ، ولا تواقع الإثم ؟

---

(١) قضية الصليب ص ٦٩

إن شيئا من ذلك لم يحدث، فالناس هم الناس ، فى خيرهم وشرهم.. قبل قيامة المسيح وبعدها .

فأين هى تلك الأعمال العظيمة التى يعملها « المخلص » ليثبت بها قيـامته من الأموات ، ومباشرة سلطانه التى كانت له عند أبيه قبل الصلب ؟

وهذه أوربا المسيحية ، وأمريكا المسيحية . . أين عمل المسيح فيهما ؟

وأين هدايته لهما ؟ وأين نخسه لضمائر البشر ؟ بل أين هى تلك الضمائر ؟

لقد تحول الناس هناك إلى عباد مال وتجار حروب . . فهل لهـذا أو بهذا جاء المسيح ؟

قد يقال إن مسيحية الغرب ليست هى مسيحية المسيح ، وإن القوم هناك غيروا من وجهها وبدلوا من تعاليمها، ومن ثَمّ فلا يُحسبون على المسيحية ولا يضافون إلى المسيح !

ونقول: وأين إذن عمل « المخلص » فى هؤلاء الذين يتفلتون من يده ويلقون بأيديهم فى أحضان الشيطان ؟

لابد إذن من البحث عن علة أوعلل أخرى لقيامة المسيح من الأموات ؟

والتماس العلل سهل ميسور ، إذا كان مردّ ذلك إلى المناظرة والجدل .. حيث يستطيع العقل فى هذا المجـال أن يقيم الحجة للشىء ولضده معا !

وكان يمـكن أن يُستغنى عن كل نظر وبحث فى هـذا الأمر لوقيل مثلا إنه ما كان « للإله » أن يموت كميتة الناس.. إذ هذا يعنى أنه يترك الوجود بلا موجد ولا مدبر .و هذا إن حدث لم يـكن للوجود وجود ، وهو الأمر الذى لم يحدث .. فالله إذن لم يمت على الصليب ، وإن ظهر فى صورة الأموات ؟

ولـكن مقولات المسيحية فى غفران الخطيئة البشرية وفى القضـاء على سلطان

الموت فرضت على المسيح أن يموت موتاً حقيقياً ، وأن يدخل فى هــذه التجربة التى يعانيها البشر ليتمثلها فى جسده ، وبغير هذا لايمـكن أن يستولى على الموت ويقهره فى جسده !

يقول ج . ر . و . سنوت فى كتابه « المسيحية الأصلية » .

« إن الرب يسوع الذى عاش وتمتع بالشركة الدائمة مع الأب طول أيام تجسده تركة الأب ولو إلى لحظـة ، أو بعبارة أخرى: إن المسيح الذى حمل خطـايانا ذاق عذاب النفس الخاطئة البعيدة عن الله ، ومات موتنا واحتمل القصاص عنا إذ ابتعد عن الله الأب بسبب خطايانا نحن » .

ولاندرى هنا من المصلوب : المسيح « الله » أم المسيح المنفصل بجزء من الله ؟

ولـكن الذى انتهت إليه المسيحية هو أن المسيح هو الله فى جميع أحواله . . هو الله فى تجسده ، وهو الله الذى صلب ، وهو الله الذى قام من القـبر بعـد ثلاثة أيام من دفنــه !

فالفصل بين الله والمسيح هنا هو ممـا يقع للعقل من شرود وذهول ، حين يقفه إزاء هذه القضية ، وقد صورت هذا التصوير الذى لاقبل للعقل بتصوره ! !

ولو أن الذين آمنوا بهذه القضية أحالوها إلى غير المعقول لأراحوا أنفسهم من هذا العناء ، ولتحول إيمانهم إلى عقيدة قائمة على الاستسلام لمـا أخبر به الحواريون والرسل ، وهم الصادقون الذين لايجوز عليهم الـكذب !

والحواريون كما يصفهم القرآن الـكريم أطهار بررة لاتعلق بهم شائبة . . إنهم أنصار الله .. وفى هذا يقول القرآن: « كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله» (الصف : ١٤) ويقول أيضاً: « وإذ أوحيت

إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالو آمنا واشهد بأننا مسلمون (المائدة: ١١١)

فنحن ـ المسلمين ـ لا نرتاب ولا نشك فى أى قول يثبت أنه من أقوال الحواريين، لم يكن مفترى عليهم ، أو محرفا ومبدلا ، لأنهم أمناء لايجوز عليهم الكذب .

ولكن ما أكثر مايتقول الناس عن الرسل والأنبياء !!

والشاهد عندنا — نحن المسلمين — هو تلك الأحاديث الكثيرة التى تقوّلها المتقولون وافتراها المفترون على رسول الله !

ونعود فنقول : لو أن الذين آمنوا بقضية القيامة أحالوها على مافوق العقل — لو أنهم فعلوا هذا لكان لهم أسوة فى الأسقف الفيلسوف « ترتليان » (١) إذ آمن إيمان عجز واستسلام .

ومن مقولاته المشهورة فى هذا قوله :

« لقد مات ابن الله .. ذلك شىء معقول ، لا لشىء إلا لأنه مما لايقبله العقل!!

« وقد دفن المسيح وقام من بين الموتى ،وذلك أمر محقق..لأنه مستحيل (٢).!!»

وإذن فنحن مع قضية — بشهادة أهلها — فوق العقل ، وخارج دائرته ، ومع هذا فإنها تعرض على العقل ، وتساق سوقا إليه !

وعلى هذا فإنا سنمضى معها إلى آخر الشوط ، ونترك العقل يلقاها جادا أو هازلاً فإن جده أوهزله سيان.. إذ كانت أحكام العقل هنا غير مقبولة ، لأنه يحكم فى غير اختصاصه !

---

(١) من علماء المسيحية فى القرن الثالث وأحد فلاسفتها ورجال اللاهوت المعدودين فيها .

(٢) قصة الحضارة جزء / ١١ ص ٢٠٨

الفصل الثالث

هل صلب المسيح ؟

سؤال وأجوبة ومتعلقات :

هل صلب المسيح ؟

اليهود والنصارى على سواء فى الإجابة على هذا السؤال ، بنعم ، بلا تردد ولاتوقف . فهم جميعاً يعتقدون اعتقاداً قاطعا متيقنا أن المسيح صلب ، بمشهد وبمحضر من أعداد كثيرة منهم ، لايمكن أن يقع بينهم التواطؤ على الكذب لكثرتهم أولا ، ولاختلاف متعلق كلّ من اليهود والمسيحيين فى هذه القضية ثانيا .

فاليهود يقولون إن المسيح صلب بحكمنا عليه بهذه العقوبة ، التى استحقها بالتجديف على الله !

وهو — بهذا — ليس إلا واحدا من أولئك العصاة الخارجين على الشريعة ، وقد نال العقاب الذى يستحقه ، وبهذا طويت صفحته بالنسبة لهم ، وسوّى حسابه عندهم على هذا الوجه !

والمسيحيون يقولون : إن المسيح صلب ، لأنه أراد هو أن يصلب ، وأن يسلّم نفسه لهذه العقوبة ، ليحمل خطايا البشر ،ويرفع عنهم اللعنة ، والموت الأبديين!! أما المسلمون فإنهم يقولون إن المسيح لم يصلب ، كما نطق بهذا القرآن الكريم الذى هو حجتهم ، وعمدة شريعتهم !

وواضح أن الإجابة على هذا السؤال فى هذه المقولات الثلاث ، إنما هى من وجهة العقيدة الدينية ، عند هؤلاء ، وهؤلاء ، وأولئك جميعا .

أما الجواب الذى يعطيه التاريخ عن هذا السؤال، فهو جواب ملتبّس غالبا بروح المعتقد الدينى الذى يدين به المؤرخ، ولهذا فإن الأمر لا يختلف كثيرا فى شأن المسيح، بين مقولات التاريخ فيه، وبين معتقد المؤمنين به وغير المؤمنين!

فالأناجيل التى روت تاريخ المسيح وصوّرت صَلْبه وقيامته، يمكن أن تحسب صحفا تاريخية، إذا نحن جعلنا فى اعتبارنا حسابا للعاطفة الدينية فى تلوين الحوادث وفى تفسير الظواهر.. كذلك يمكن أن نعتبر صحف التاريخ التى كتبت عن المسيح معتقداً دينياً لكتّابها.. فى شأن المسيح.. إذ كان هؤلاء الكتاب واقعين ـ فى أغلب الأحوال — تحت تأثير عاطفتهم الدينية، من جهة، ثم هم متأثرون بالجانب اللاهوتى من حياة المسيح أكثر من تأثرهم بالجانب التاريخى منه، من جهة أخرى، إذ كانت حياة المسيح كلها لحساب الدين، وكان المجتمعون حوله والمختلفون عليه، إنما يجتمعون ويختلفون فى مجال العقيدة الدينية فيه!

وعلى أىّ فإن للأناجيل مقولات فى صلب المسيح وفى قيامته، وللتاريخ مقولات كذلك فى صلب المسيح وفى قيامته، وبين هذه المقولات وتلك وجوه كثيرة من وجوه الاتفاق فى رواية الأخبار وعرض الأحداث، إذ كانت الأناجيل ـ كما قلنا ـ هى عمدة المؤرخين فى التعرف على حياة المسيح. ولكن الاختلاف بين مقولات الأناجيل ومقولات التاريخ إنما ينشأ غالباً من تفسير الظواهر، وتأويل الأخبار وتلوينها!.

وعلى هذا، فإن النظر فى مقولات التاريخ عن قضية الصلب لا يعطى من الوقائع فى جملتها غير ما تعطيه الأناجيل. ولهذا فإنا سنكتفى بالنظر فى مقولات الأناجيل، ومناقشتها ومقابلة بعضها ببعض، فإذا فرغنا من ذلك وانتهينا إلى رأى فى هذه القضية عرضناه عليها بما يقول القرآن الكريم فيها، وقابلناه به، لنرى قرب أو بعد ما بينه وبين ما قرره القرآن، وشهد به!

الصلب والأناجيل :

المقطوع به فى أمر الأناجيل أنها جميعها كُتبت بعد صلب « المسيح » بزمن غير قليل ، وأن أسبق هـذه الأناجيل فى غالب الظن وهو إنجيل « مرقس » كتب بعد نحو أربعين سنة تقريبا من حادثة الصلب !

وقد أشرنا من قبل إلى أن صلب المسيح أحدث انقلابا مروعا فى الحياة العقلية والنفسية لأتباعه ، وأنه أوجد هوة عميقة فى مجرى تفكيرهم عنه ، وتصورهم له ، قبل الصلب وبعد أن صلب !

وتحدثنا كذلك عن تلك المحاولات المضنية التى حاولها تلاميذ المسيح وحواريوه ليقيموا على هـذه « الهوة » جسرا يمكن أن يصل بين حياة المسيح قبل الصلب وبعده !! وقد أقيم هذا الجسر فعلا ، وإن لم يظل على حال واحدة . . فكان أولا هو : المسيح « كلمة الله » ثم كان المسيح « ابن الله » .. ثم كان هو المسيح « ذات الله »! ثم كان أخيراً وربما ليس آخرا هو « الله » ، ذو الثلاثة أقانيم !! ونود أن نشير هنا إلى أن أحداً من أتباع المسيح لم يحاول أن يملأ هـذه الهوة بأن يرفع جسد المسيح المعلق على الصليب ، وأن يقول لنفسه ، أو للناس : إن المسيح لم يصلب !

لم يحاول أحد من أتباع المسيح أن يقول ولو لنفسه هذه المقولة . . وما كان فى مستطاعه أن يقولها وهو يرى بعينيه جسد المسيح مشدودا إلى الصليب ويسمع صرخاته تدوى كهزيم الرعد على خشبة الصليب !

وماذا لو أن المسيح لم يصلب ؟ وليكن هذا فرضا نفترضه فى أول مراحل هذا البحث ، ولندع الآن النتائج التى يمكن أن ينتهى بنا هذا الفرض إليها !

لو أن المسيح لم يصلب لتغير وجه المسيحية — كما قلنا من قبل — ولكانت

رسالة المسيح لا تخرج عن كونها دعوة كريمة من دعوات الرسل والأنبياء ، ولكان تعلق أتباعه برسالته أكثر من تعلقهم بشخصه ، بل لما كان لشخصه مكان فى مضمون الرسالة ، أكثر من مكان القدوة الحسنة ، والمثل الطيب الكريم !

ولو أن المسيح لم يصلب لما امتد نظر أتباعه إلى تأليهه ، وتجسيد الذات الإلهية فى شخصه ، ولما ركب العقل المسيحى هذا الطريق الموحش الذى تعترض سالكه المزالق والعثرات !

ولو أن المسيح لم يصلب لما كان لليهود شهادة قائمة عليه من الكتاب المقدس ، ولما كان لتلك الآية التى علقوها على رأسه سبيل إليه .. تلك الآية التى تقول : « ملعون من علق على خشبة » . ثم لما كان لتلاميذه وحوارييه أن يدوروا فى كل مدار ، ليبحثوا عن قوارب النجاة التى يخلصون بها المسيح « المخلص » من الغرق فى لجة اللعنة ، التى شده اليهود إليها ؟

ولو أن المسيح لم يصلب لتغيرت صورة الأناجيل ، ولأخذت أوضاعا أخرى غير تلك التى جاءت عليها ، ولانقطعت كثير من تلك الحبال التى تشدها قسراً إلى أسفار التوراة ، لتستدعى منها الشواهد التى تشهد ببنوة المسيح لله ، وبألوهيته ، وبأقانيمه الثلاثة ، ثم بصلبه وقيامته !

ولو أن الأناجيل كتبت قبل صلب المسيح لما كان هناك مكان لهذه التنبؤات التى استدعاها كتاب الأناجيل من العهد القديم ، سواء ما كان منها خاصا بمولد المسيح أم صلبه وقيامته ! وكان الوضع الصحيح للإنجيل أن يكتب فى حياة المسيح وألا يضاف إليه شىء من الأحداث التى وقعت بعد حياته ، باعتبار أنه كتاب منزل من عند الله !

ولكن المسيح صلب ! والأناجيل كتبت بعد صلبه !

فماذا تقول الأناجيل عن واقعة الصلب .. وكيف وقعت ؟ وعلى من وقعت ؟

وليس يمنع من هذا السؤال الثانى أن الأناجيل تتحدث عن المسيح المصلوب ؟ وأنها تتحدث كذلك عن المسيح الذى قام من الموتى بعد صلبه — نقول ليس يمنع من هذا السؤال أن الأناجيل تتحـدث عن المسيح المصلوب ، والمسيح المقـام من بين الأموات ، ذلك أننا نناقش هذه القضية مناقشة علمية ، نحتكم فيهـا إلى العقل الذى هو بمعزل عنها من الناحية اللاهوتية .

والخطوات التى سار فيهـا « المسيح » نحو الصليب ثم الموت حسب روايات الأناجيل — يمـكن أن نحصرها فى المراحل الآتية :

١ — إرهاصات قبل القبض على المسيح .

٢ — عملية القبض ، وكيف تمت .

٣ — المحاكمة ومادار فيها .

٤ — المسيح على الصليب.

وكل مرحلة من لهذه المراحل لهـا ذكر فى الأناجيل الأربعة ، مع اختلاف فى ترتيب الأحداث وتصويرها .

وسنتناول كل مرحلة على حدة ، ونجمع مقولات الأناجيل الأربعة فيهـا ، ثم نقابل هذه المقولات بعضها ببعض .

الإرهاصات التى وقعت بين يدى القبض على المسيح

أولا:(من إنجيل متى) « ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها ، قال لتلاميذه: تعلمون أنه بعد يومين يـكون الفصح ، وابن الإنسـان يسلم ليصلب . حينئذ اجتمع رؤساء الـكهنة والـكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الـكهنة الذى يدعى « قَيَافَا » وتشاوروا لـكى يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه ، ولـكنهم قالوا ليس فى العيد ، لئلا يكون شغب فى الشعب !

* « وفيما كان يسوع فى بيت عَنْيَا ، فى بيت سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فسكبته على رأسه وهو متكىء ، فلما رأى تلاميذه ذلك اغتاظوا قائلين: لماذا الاتلاف ؟ لأنه كان يمكن أن يباع هذا الطيب بكثير ويعطى للفقراء ! فعلم يسوع ، وقال لهم : لماذا تزعجون المرأة فإنها عملت بى عملا حسنا ، لأن الفقراء معكم فى كل حين ، وأما أنا فلست معكم فى كل حين ؟ فإنها إذ سكبت هذا الطيب على جسدى إنما فعلت ذلك لأجل تكفينى ! الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى كل العالم يخبر أيضاً بما فعلته هذه ليكون تذكارا لها ..

* « حينئذ ذهب واحد من الاثنى عشر الذى يدعى يهوذا الأسخريوطى إلى رؤساء الكهنة وقال: ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أسلمه لكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة ، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه .

* « ولما كان المساء اتكأ مع الاثنى عشر ، وفيما هم يأكلون قال : الحق أقول لكم إن واحداً منكم يسلمنى ، فحزنوا جدا ، وابتدأ كل واحد منهم يقول له : هل أنا هو يارب ؟ فأجاب وقال : الذى يغمس يده معى فى الصفحة هو يسلمنى ! ! إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه ، ولكن ويل لذلك الرجل الذى يسلم ابن الإنسان .. كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد ! فأجاب يهوذا مسلمه وقال: هل أنا هو ياسيدى ؟ قال له : أنت قلت .

* « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وأعطى التلاميذ وقال : خذوا كلوا . هذا هو جسدى .. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا : اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل الكثير لمغفرة الخطايا ..

«حينئذ قال لهم يسوع: كلكم تشكون فىّ فى هذه الليلة ، لأنه مكتوب : أنى

أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية ، ولكن بعد قيامى أسبقكم إلى الجليل . . .

* « حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جَثْسَيمانى فقال للتلاميذ اجلسوا ههنا حتى أمضى ، وأصلى هناك ، ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم: نفسى حزينة جدا حتى الموت . امكثوا هاهنا واسهروا معى، ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يصلى قائلا : يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا ، بل كما تريد أنت . ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياما فقال لبطرس :

« أهكذا ؟ماقدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة ؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف ، فمضى أيضاً ثانية وصلى قائلا :

«ياأبتاه إن لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلاأن أشربها فلتكن مشيئتك، ثم جاء فوجدهم أيضاً نياما إذ كانت أعينهم ثقيلة ،فتركهم ومضى أيضاًوصلى ثالثة قائلا ذلك الكلام بعينه . . ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم ناموا الآن واستريحوا هو ذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم إلى أيدى الخطاة .. قوموا ننطلق ، هوذا الذى يسلمنى قد اقترب ! ! » .

ثانياً : (من إنجيل مرقس).. يتفق مرقس ومتى فى رواية هذه الواقعة .. كلمة كلمة ، وهذايؤكد ماذهب إليه بعض الباحثين من أن إنجيل متى قد نقل عن مرقس ، ولهذا شك كثير من النقاد فى نسبة هذا الإنجيل إلى متى ونسبوه إلى أحد تلاميذه (١)

ثالثاً :(من إنجيل لوقا)

١ — «وقرب عيدالفطر الذى يقال له الفِصْح ، وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه لأنهم خافوا الشعب .

(١) قصة الحضارة الجزء ١١ ص ٢٠٨

٢ — «فدخل الشيطان فى يهوذا الذى يدعى الأسخريوطى وهو من جملة الاثنى عشر فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند ، كيف يسلمه إليهم ، ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة فواعدهم ، وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم خلواً من جمع».

٣ — «وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح فأرسل بطرس ويوحنا قائلا . اذهبا وأعدا لنا الفصح لنأكل ، فقالا له أين تريد أن نعد ؟ فقال لهما : إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرة ماء اتبعاه إلى البيت حيث يدخل وقولا لرب البيت : يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى ؟ فذاك يريكما علية كبيرة مفروشة ، فانطلقا ووجدا كما قال لهما فأعدا الفصح .

٤ — «ولما كانت الساعة اتكأ والاثنا عشر رسولا معه ، وقال لهم : شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم ، لأنى أقول لكم إنى لا آكل منه بعد حتى يكمل فى ملكوت الله . . ثم تناول كأسا وشكر وقال خذوا هذه واقتسموها بينكم لأنى أقول لكم إنى لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتى ملكوت الله ، وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلا : هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم ، اصنعوا هذا لذكرى ، وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم ، ولكن هو ذا يد الذى يسلمنى هى معى على المائدة . . وابن الإنسان ماض كما هو محتوم ، ولكن ويل لذلك الإنسان الذى يسلمه فابتدءوا يتساءلون فيما بينهم من ترى منهم هو المزمع أن يفعل هذا ؟

٥ — «وكانت بينهم أيضاً مشاجرة، مَن منهم يظن أنه يكون أكبر ؟ فقال لهم : ملوك الأمم يسودونهم ، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين ، وأما أنتم فليس هكذا بل الكبير فيكم ليكن الأصغر والمتقدم كالخادم ، لأن من هو أكبر ؟ الذى يتكىء

أم الذى يخدم؟ أليس الذى يتكىء؟ ولكن أنا بينكم كالذى يخدم، أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى، وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر.

٦ — «ثم قال لهم حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية.. هل أعوزكم شىء؟ فقالوا لا، فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا، لأنى أقول لكم إنه ينبغى أن يتم فى أيضاً هذا المكتوب: «وأحصى مع أثمة» لأن ماهو من جهتى له انقضاء.. فقالوا يارب هوذا هنا سيفان، فقال لهم هذا يكفى!

٧ — «وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه أيضاً تلاميذه، ولما صار إلى المكان قال لهم صلوا كى لاتدخلوا فى تجربة، وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبته وصلى قائلا يا أبتاه إن شئت أن تعبر عنى هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتى بل إرادتك، وظهر له ملاك من السماء يقويه، وإذا كان فى جهاد كان يصلى بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض».

رابعاً: (من إنجيل يوحنا)

١ — «سمع الفريسيون الجمع يتناجون بهذا من نحوه، فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداما ليمسكوه فقال لهم يسوع أنا معكم زمانا يسيرا بعد، ثم أمضى إلى الذى أرسلنى. ستطلبوننى ولا تجدوننى وحيث أكون أنا لاتقدرون أنتم أن تأتوا (٧ : ٣٣ — ٣٤). قال لهم يسوع أيضاً أنا أمضى وستطلبوننى وتموتون فى خطيئتكم.. حيث أمضى لاتقدرون أنتم أن تأتوا (٨ : ١).

٢ — «لما قال يسوع هذا اضطرب بالروح وشهد وقال: الحق أقول لكم إن واحدا منكم سيسلمنى، فكان التلاميذ ينظرون بعضهم إلى بعض وهم محتارون فى من

قال هذا عنه ، وكان متكئا فى حضن يسوع واحد من تلاميذه وكان يحبه [1] فأومأ إليه سمعان بطرس أن يسأل من عسى أن يكون الذى قال عنه ، فاتكأ على صدر يسوع وقال له : ياسيد من هو ؟ أجاب يسوع : هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه ، فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الأسخريوطى ، فبعد اللقمة دخله الشيطان فقال له يسوع : ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة (١٣ : ٣١ - ٢٧) .

تعليق :

ونقف هنا وقفة قصيرة مع ماحدّثت به الأناجيل عن هذه الواقعة من قضية الصلب ، فنجد :

(أولا) أن متى ومرقس ينقل أحدهما عن الآخر نقلا حرفيا . . ولهذا نعتبرها مصدراً واحداً فى هذه الجزئية .

(ثانياً) أن متى ومرقس ذكرا أن امرأة جاءت ومعها قارورة طيب غالية الثمن فسكبتها على رأس المسيح ، وأن تلاميذه رأوا فى ذلك إسرافا لامبرر له ، على حين رأى المسيح ذلك عملا طيبا ، وأن هذا الطيب الذى سكب على رأسه إنما هو لأجل تكفينه . . إذ كان يعلم أن نهايته قربت . . وأن هذا العمل من المرأة قد جعل لها ذكرا باقيا ، حيث يذكر اسمها فى كل العالم ، وفى أى مكان يكرز فيه بالإنجيل !

وهذه الواقعة لم يرد لها ذكر فى إنجيلى لوقا ويوحنا . . وهى حادثة لها شأن عظيم فى هذا الأمر .. إذ نطق فيها المسيح بما ينبىء عن خاتمة حياته .. ثم إن المسيح وعد فيها وعداً صادقاً بأن يظل ذكر المرأة باقياً مذكوراً فى كل مكان يكرز فيه بالإنجيل .. فكيف تسقط هذه الواقعة وملابساتها من إنجيل لوقا ويوحنا ؟ أليس كل إنجيل منهما هو إنجيل يكرز به ؟ فكيف يكرز به ولا ذكر لتلك المرأة فيه ؟

(١) يقصد يوحنا بهذا التلميذ نفسه هو

(ثالثاً) يهوذا الأسخريوطى الذى يقال إنه أسلم المسيح لليهود ،يقول متى عنه إنه أخذ ثلاثين فضة من اليهود . ويقول مرقس إنهم وعدوه أن يعطوه فضة ولم يذكر قيمتها . وبهذا القول يقول « لوقا » . . أما يوحنا فلم يذكر شيئاً عن تآمر يهوذا مع اليهود ولا أخذه فضة منهم . وهذا أمر يدعو إلى التساؤل عن نبوءة « أرميا » القائل : وأخذوا الثلاثين من الفضة ، ثمن المثمن الذى ثمنوه من بنى إسرائيل (متى ٢٧ – ٩)

فكيف يغفل كتاب الأناجيل الثلاثة عن هذه النبوءة ؟ وكيف لم يعقدوا صلة بينها وبين ما كان من يهوذا ومن قبضه ثمن خيانته ؟

(رابعا) فى كشف المسيح عن شخصية التلميذ الذى سيسلمه لليهود .. يقول عنه « متى » على لسان المسيح: « الذى يغمس يده معى فى الصفحة وهو يسلمنى »

ويقول عنه « لوقا » على لسان المسيح أيضاً : « ولكن هو ذا يد الذى يسلمنى معى على المائدة »

ويقول عنه السيد المسيح فى إنجيل يوحنا: «هو ذا الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه ، فغمس اللقمة وأعطاها يهوذا سمعان الأسخريوطى »

ولا نقف عند اختلاف الروايات فى هذه الواقعة وإنما نسأل : إذا كان المسيح قد وضع يده على « يهوذا الأسخريوطى » أمام تلاميذه .. فهل يمضى هذا الموقف دون أن يحدث انفجارا مدويا فى نفوس هؤلاء التلاميذ وأن يثيرهم على هذا التلميذ الخائن؟ أفلا أقل من أن يطردوه من زمرتهم ، أو يقتلوه ، أو يحبسوه ؟ إن شيئا من ذلك لم يحدث . ثم يهوذا الأسخريوطى نفسه.. ألا يتنبه لهذا الشر الذى يندس فى كيانه؟ ألا يوقظ مشاعره ويلفت إليه وجوده كله ، حتى لا يتردى فى تلك الهوة المهلكة ؟

(خامسا) يقول يوحنا بعد قول السيد المسيح عن يهوذا مشيراً إليه : هو ذاك

الذى أغمس أنا اللقمة وأعطية — يقول « فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الأسخريوطى ، فبعد اللقمة دخله الشيطان !

ومعنى هذا أن السيد المسيح هو الذى أدخل الشيطان على يهوذا!! وهل عرفت يد المسيح إلا الخير والإحسان؟ وهل امتدت يده إلا كانت بردا وسلاما وشفاء من كل سقم وعلة !

فهل يلتقى هذا مع ذاك ؟

(سادسا) : فى إنجيل لوقا : يروى على لسان السيدالمسيح هذا القول : « إنى لا أشرب من نتاج هذه الكرمة حتى يأتى ملكوت الله » . . وهذا القول أيضا : « لأنى أقول لكم إنى لا آكل منه بعد حتى يكمل فى ملكوت الله » ! !

فهل المسيح مع هذا القول ، هو الله ؟ وهل أعد له طعام وشراب فى ملكوت الله أو ملكوته هو بعد قيامته ؟ وهل « الله » يأكل ويشرب بعد أن يترك هذا الجسد ؟ .

(سابعا) : فى إنجيل « لوقا » يتحدث المسيح إلى تلاميذه وقد أعلنهم بأن خاتمته قد قربت فيقول : « حين أرسلتكم بلا كيس ولامزود هل أعوزكم شىء ؟ فقالوا : لا ، فقال لهم:أقول لكم الآن من له كيس فليأخذه ومزوده كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترى سيفا !! لأنى أقول لكم ينبغى أن يتم فى المكتوب : «وأحصى مع أثمة » لأن ماهو من جهتى له انقضاء ، فقالوا له يارب : هوذا هنا سيفان فقال : هذا يكفى » !

وهذا إن كان من كلامه السيد المسيح فهو تحول كبير بالدعوة التى قامت على السلم ، والموادعة ، بل وعلى الاستسلام الذى يكمن وراء قولة السيد المسيح : « من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا « (متى ٥ : ٣٨) — إنه تحول بالدعوة

من هذا الاستسلام إلى مقابلة الصفعة بالصفعة ، أو بالسيف إن أمكن !

ولا نسأل عن هذه المفارقة البعيدة بين الأمرين ولكن الذى نسأل عنه هو هل يكون هذا التحول فى الدعوة بهذا القدر الكبير الذى يغير من وجهها ويعدل بها عن طريقها ، ثم لا يذكره الحواريون متى ، ومرقس ، ويوحنا فى أناجيلهم ، وقد سمعوه من المسيح ؟ وكيف ينفرد به لوقا وحده من بين أصحاب أناجيل ؟ إن الأمر يحتاج إلى جواب يملأ هذا الفراغ الهائل ، ويسد تلك الهوة العميقة . . وهيهات !

ثانياً : عملية القبض وكيف تمت ؟

١ — (من إنجيل متى) : « وفيما هو يتكلم (أى المسيح) إذ يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب .. والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا : الذى أقبّله هو .. أمسكوه .. فللوقت تقدم إلى يسوع وقال السلام ياسيدى وقبله ، فقال له يسوع ياصاحب : لماذا جئت ! حينئذ تقدموا وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه ، وإذ واحد مع يسوع مدّ يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة . . فقطع أذنه فقال له يسوع : رد سيفك إلى مكانه ، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون .. أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة ؟ فكيف تكمل الكتب ؟ إنه هكذا ينبغى أن يكون !

فى تلك الساعة قال يسوع للجموع : كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى ؟ كل يوم كنت أجلس معكم ، أعلّم فى الهيكل ولم تمسكونى . . وأما هذا كله فقد كان لكى تكمل كتب الأنبياء .. حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا »

٢ — (من إنجيل مرقس) : فى إنجيل مرقس نجد زيادة عما ورد فى إنجيل

متى عن هذه الواقعة.. هذا الخبر: (وتبعه شاب لابسا إزارا على عُريه ، وأمسكه الشبان فترك الإزار وهرب منهم عريانا » أما بقية جزئيات الواقعة فهى فى الإنجيلين على سواء.

٣ — (من إنجيل لوقا): « وبينما هو يتكلم — أى المسيح — إذا جمع ، والذى يدعى يهوذا أحد الاثنى عشر يتقدمهم ، فدنا من يسوع ليقبله فقال له يسوع : يايهوذا : أبقبلة تسلم ابن الإنسان ؟ فلما رأى الذين حوله مايكون ، قالوا : يارب أنضرب بالسيف ! وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأجاب يسوع وقال : دعوا إلىّ هذا .. ولمس أذنه وأبرأها .

« ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه ، كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى ، إذ كنت معكم كل يوم فى الهيكل لم تمدوا علىّ الأيادى ، ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة ! »

٤ — (من إنجيل يوحنا): « قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادى قدرون حيث كان بستان دخله ، هو وتلاميذه ، وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع لأن يسوع اجتمع هناك كثيرا مع تلاميذه فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح . فخرج يسوع وهو عالم بكل مايأتى عليه وقال لهم من تطلبون ؟ أجابوه : يسوع الناصرى . . وكان يهوذا مسلمه أيضا واقفا معهم فلما قال لهم: « إنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض . . فسألهم أيضا من تطلبون ؟ فقالوا : يسوع الناصرى : أجاب يسوع: قد قلت لكم : إنى أنا هو ! فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون .. ليتم القول الذى قاله : « إن الذى أعطيتنى لم أهلك منهم أحدا » (١)

(١) هذا ليس من قول السيد المسيح وإنما تعليق من كاتب الإنجيل أو من مترجمى الانجيل بعد ذلك . والذى يستوقف النظر من هذا القول المنسوب إلى السيد المسيح هو « أن الذى أعطيتنى لم أهلك منهم أحدا » هو أن أحدهم وهو يهوذا الاسخريوطى قد هلك وهلك بيد السيد المسيح نفسه ! فما تأويل هذا ؟

« ثم إن سمعان بطرس كان معه سيف فاستله وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى وكان اسم العبدملخس، فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك فى الغمد.. الكأس التى أعطانى الأب ألا أشر بها !؟ ».

تعليقات :

فى هذه الواقعه نرى :

١ — اختلاف روايات الأناجيل فى الموقف الذى وقفه يهوذا الأسخريوطى من السيد المسيح ، وموقف المسيح منه ساعة القبض عليه .

فمتّى ومرقس يقولان: «فتقدم إلى يسوع وقال السلام عليك ياسيدى وقبّله...» فلم يزد السيد المسيح على أن يقول له : ياصاحب.. لماذا جئت ؟! ولكن « لوقا » يقول فى هذه الواقعة : « فدنا من يسوع ليقبله ، فقال له يسوع يايهوذا . . أبقبلة تسلّم ابن الإنسان ! ؟

ففى متى ومرقس : . يهوذا يقبل السيد المسيح ، بينما فى لوقا .. يريد أن يقبله !

وفى متى ومرقس . . يقول السيد المسيح قولا ليهوذا ، بينما يقول له قولا آخر فى « لوقا » وهـذا الاختلاف وإن بدا غير ذى خطر فى الأخبار التاريخية إلا أنه خطير بالغ الخطورة فى كتاب سماوى يستملى كلماته من روح القدس ! كلمة كلمة وحرفا حرفا !

٢ — تروى الأناجيل أن السيد المسيح كان مع تلاميذه قبيل القبض عليه ، ولم يشر واحد منها إلى يهوذا بأنه كان غائبا ، خاصة وأن غيابه يلفتهم منه ماسبق أن حدثهم به السيد المسيح عما ينوى أن يفعله يهوذا به ! . . . أفيتركهم يهوذا فى هذه الليلة ولايكون ثمة سؤال أو تساؤل عنه ! ألا تذكر الأناجيل ما كان من حديث

وتساؤل حول غياب يهوذا وماوراء هذا الغياب ؟ إن الأناجيل لم تقل هنا شيئا فى هـذا الأمر الذى يفتح طرقاً كثيرة للقيل والقال فيه ! !

٣ — انفرد « يوحنا » من بين أصحاب الأناجيل بتصوير هذا الموقف المثير الذى وقفه المسيح من هذا الجمع الذى جاء ليقبض عليه . . وأنه تقدم إليهم وسألهم من تطلبون ؟ ثم دلهم على شخصه قائلا : أنا هو! وقد أخذوا بهذا النبأ فتراجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض ! ولاندرى كيف تغفل الأناجيل الثلاثة الأخرى عن رواية هذا الخبر ، وهو — كما يرويه يوحنا — أبرز لون فى صورة هذه الحادثة !

٤ — تختلف روايات الأناجيل كذلك فى الـكلمات التى نطق بها السيد المسيح بعد أن ضرب أحدُ تلاميذه بالسيف اُذنَ عبد رئيس الـكهنة ، وبعد أن أمره السيد المسيح برد السيف إلى غمده !

فمتى يروى عن السيد المسيح أنه قال : رد سيفك إلى مكانه . . لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلـكون . . أتظن أنى لاأستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم إلى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائـكة ؟ »

أما «لوقا» فالذى نقله عن السيد المسيح هو كلة واحدة . . هى : « دعوا إلىّ هذا » مشير إلى العبد الذى قطعت أذنه ثم لمس أذنه فأبرأها !

هـذا بينما يوحنا ينطق السيد المسيح بهذا القول: « الـكأس التى أعطانى الأب ألا أشربها ؟ »

فبأى هذه الأقوال نطق السيد المسيح ! ؟

أبها جميعها ؟ فلم إذن يأخذ كل إنجيل بعضها ويترك بعضها الآخر !

أم بواحد من هذه الأقوال ؟ وإذن فـكيف لم تتفق الأناجيل على هذا القول؟ ونحن نقيم هذه الاعتراضات على أساس أن الأناجيل هى صورة الإنجيل المنزل على

« عيسى » عليه السلام ، أو أنها إلهامية مستمدة من الوحى الذى يتلقاه كتابها من روح القدس — كما تقول بذلك رسالة أعمال الرسل — ولكن يظهر أن هذا القول حين لم يظاهره الحال الذى عليه الأناجيل من متناقضات واختلافات عُدل عنه إلى القول بأنها من ذكريات أصحابها الذين يكتبونها ومن تصوراتهم للأحداث ووقعها عليهم . . فكان لكل واحد نظرته وتقديره وتأويله لما يسمع أو يرى من تلك الأحداث.. ثم إنهم نسبوها إلى الحواريين وإلى تلاميذ المسيح المعروفين ، لتكتسب قبولا وثقة .

يقول الأستاذ عوض سمعان فى كتابه « الله — طرق إعلانه عن ذاته : —

« إن الاختلاف بين كَتبة الأناجيل فى بعض التعبيرات يرجع إلى أن كلاًّ منهم كتب عن المسيح من ناحية خاصة ، وإلى جماعة خاصة من الناس ، فمتّى كتب لليهود عن المسيح بوصفه ملك العالم الذى تنبأت التوراة عنه ، ومرقس كتب للرومان عن المسيح بوصفه عبدَ الرب الكامل ، المنفذ لمشيئة الله فى كل حين . . ولوقا كُتب لليونان عن المسيح ، بوصفه ابن الإنسان الذى يعطف على الإنسانية . ويوحنا كتب لجميع المؤمنين ، عن المسيح ، بوصفه ابن الله الأزلى .

« ولذلك كان من البديهى أن يقتبس كل منهم من أقوال المسيح وأعماله ما يتناسب مع الغرض الذى كتب لأجله ومع حالة الناس الذين كتب لهم أيضا ، وقد كتب الإنجيل إلى هذه الجماعات دون غيرها لأن العالم فى القرن الأول كان ممثلا فيها تقريبا ، كما أن هذا الاختلاف ـ وقد عرفنا الأسباب التى تبرره ـ هو دليل قانونى على صدق شهادة الرسل وقيام كل منهم بتسجيل سيرة المسيح بالاستقلال عن غيره ، إذ أنه لو كانت أقوالهم واحدة فى مبناها لكان هناك مجال لاتهامهم بأن بعضهم قد نقل عن الإنجيل الذى كتبه البعض الآخر . . أما والأناجيل التى كتبوها هى بهذا

الوضع فلا مجال لاتهامهم بهـذه التهمة إطلاقا !!» [١] .

وهذا قول قاطع بأن الأناجيل ليست عن مصدر واحد وإلا لالتقت جميعها عنده . . فهى بهذا المعنى أشبه بمذكرات تاريخية . . ولاندرى ماذا كان يقوله المؤلف عن الأناجيل التى بلغت عدتها ستين إنجيلا عدا هذه الأناجيل الأربعة ،ماذا كان يقول عن الاتجاهات التى اتجه إليها كاتبوها والغايات التى قصدوا إليها منها ؟

وعلى هذا ، فهذه الأقوال المختلفة التى ترويها الأناجيل فى الحادثة الواحدة يمكن أن ينظر إليها على أنها روايات تاريخية يؤخذ بالأرجح منها .. ! !

ثم شىء آخر ، وهو أن قول السيد المسيح الذى يرويه متى عنه وهو : «أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة » — هذا القول الذى يذكر فيه عدد الجيوش « باثنى عشر » ..ألا ينبىء عن إشارته إلى التلاميذ الاثنى عشر ويهوذا الأسخريوطى منهم ؟

وكأن السيد المسيح يريد أن يقول لهم : إذا كنتم أنتم الاثنى عشر جنديا من جنودى تريدون أن تقوموا الآن لنصرتى . . ألا أستطيع أن أطلب إلى أبى فيمدنى بأكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة ؟ أنا لا أريد هذا . . بل سأمضى لما أراد الله !

هذا مايقع فى تصور من يرى الاثنى عشر حواريا ملتفين حول المسيح فى تلك الساعة ، سواء أكان ذلك المسيح نفسه أم كاتب الإنجيل !

وهذا مايقوّى تساؤلنا عن يهوذا الأسخريوطى ، الذى لم تتحدث الأناجيل عن غيبته عن مجلس المسيح . . ثم تصوره مقبلا فى ذلك الجيش أو على رأس هـذا الجيش الزاحف للقبض على المسيح . . وكيف لم تثر غيبته تلك شـكا فى نفوس

(١) الكتاب المذكور ص ٧٧ (هامش)

أصحابه؟ وكيف لم تسجل الأناجيل هذا؟وهذا مايقوى من ظننا فى أنه كان مع المسيح وتلاميذه ولم يتركهم حتى ساعة القبض على المسيح ! !

٥ — المعجزة التى جرت على يد المسيح حين لمس أذن العبد التى قُطعت بالسيف — هذه المعجزة ألا تترك آثارها المثيرة فى نفوس هذه الجموع التى جاءت للقبض عليه ؟ ألا يحدث هذا العمل تغيرا فى مشاعر القوم نحوه ؟

إن شيئا من هذا لم يحدث ، بل لقد بالغ القوم فى إهانته والتجديف عليه . . ! فهل كانت هناك معجزة ولم يكن من القوم إهانة ولاتجديف ؟ أم كان من القوم ما كان أو ماقيل إنه كان من إهانة وتجديف ولم تكن هناك معجزة ؟ إن الأمر لايعدو هذا التصور بحال !

ثالثا : المحاكمة ومادار فيها

١ — (من إنجيل متى) « والذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى (قيافا) رئيس الكهنة ، حيث اجتمع الكتبة والشيوخ . . وأما بطرس فتبعه من بعيد إلى داخل وجلس بين الخدم لينظر النهاية .

« وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه ، فلم يجدوا ، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا . . ولكن أخيرا تقدم شاهدا زور وقالا : هذا ، قال إنى أقدر أن أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه !

« فقال رئيس الكهنة له : أما تجيب بشىء ؟ ماذا يشهد به هذان عليك ؟ وأما يسوع فكان ساكتا ! .

«فأجاب رئيس الكهنة وقال له : أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت

المسيح ابن الله ؟ قال له يسوع . أنت قلت ؟ وأيضا أقول لكم : من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء !

« فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلا: قد جدف ، ماحاجتنا بعد إلى شهود ؟ هاقد سمعتم تجديفه ! ماذا ترون ؟ فأجابوه وقالوا إنه مستوجب الموت . . حينئذ بصقوا فى وجهه ولكموه ، وآخرون لطموه قائلين تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

« أما بطرس فكان جالسا خارجا فى الدار فجاءت إليه جارية قائلة : وأنت كنت مع يسوع الجليلى ! فانكر قدام الجميع قائلا لست أدرى ماتقولين .. ثم إذ خرج إلى الدهليز رأته أخرى فقالت للذين هناك ، وهذا كان مع يسوع الناصرى فأنكر أيضا بقَسَم إنى لست أعرف الرجل ! وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقا أنت أيضا منهم ، فإن لغتك تظهرك فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف أنى لا أعرف الرجل ! وللوقت صاح الديك فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له : إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات . . فخرج إلى خارج ، وبكى بكاء مرا !

« ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه !

« فأوثقوه ، ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس البنطى الوالى .

«حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد أُدين ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤوساء الكهنة والشيوخ قائلا قد أخطأت إذ سلمت دما بريئا ! فقالوا: ماذا علينا؟ أنت أبصر ! فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف ثم مضى وشنق نفسه . . . . فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحل أن نلقيها فى الخزانة لأنها ثمن دم ! فتشاوروا

واشتروا بها حقل الفخارى مقبرة للغرباء . لهذا سمى ذلك الحقل حقل الدم إلى هذا اليوم .

« حينئذ تم ماقيل بأرميا النبي القائل: « وأخذوا الثلاثين من الفضة ثمن المثمن الذى ثمنوه من بنى إسرائيل وأعطوها عن حقل الفخارى كما أمرنى الرب » .

« فوقف يسوع أمام الوالى فسأله الوالى قائلا : أأنت ملك اليهود ؟ فقال له يسوع أنت تقول . . ! وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء فقال له بيلاطس : أما تسمع كم يشهدون عليك ؟ فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالى جدا !

«وكان الوالى معتادا فى العيد أن يطلق للجميع أسيرا واحدا ،من أرادوه ،وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس من تريدون أن أطلق لكم: باراباس أم يسوع الذى يدعى المسيح؟ لأنه علم أنهم أسلموه حسداً . . وإذ كان جالسا على كرسى الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة : إياك وذلك البار لأنى تألمت اليوم كثيرا فى حلم من أجله ، ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهلكوا المسيح ، فأجاب الوالى وقال لهم: مَن من الاثنين تريدون أن أطلق لكم ؟ فقالوا باراباس ! ! قال لهم بيلاطس فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح ؟ قال له الجميع ليصلب ! فقال الوالى : وأى شر عمل ؟ فكانوا يزدادون صراخا قائلين ليصلب ! فلما رأى بيلاطس أنه لاينفع شيئا بل بالحرى يحدث شغب ، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا إنى برىء من دم هذا البار !! أبصروا أنتم . . فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا .. حينئذ أطلق لهم باراباس ، أما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب »

٢ — (من إنجيل مرقس) :

يتفق مرقس مع متى فى رواية هذه الواقعة ولم يختلفا إلا فى بعض العبارات التى غالبا ماتجىء من اختلاف الترجمات . ولكن هناك عبارات وردت فى إنجيل مرقس ولم ترد فى متى ،ولهذه العبارات دلالة لها قيمتها فى تقييم الحادثة، وفى استخلاص النتائج المرتبة عليها . . وذلك .

١ — الشهادة التى شهدها شهود الزور على المسيح . . يقول عنها مرقس إنها جاءت هكذا : « لأن كثيرين شهدوا عليه زورا ولم تتفق شهاداتهم ثم قام قوم وشهدوا عليه زورا قائلين نحن سمعناه يقول : إنى أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادى وفى ثلاثة أيام ابنى آخر غير مصنوع بأياد . . بهذا كانت شهادتهم تتفق »

وقد رأينا أن « متى » فى روايته لهذه الشهادة لم يصف الهيكل بأنه مصنوع بالأيادى بل قال عنه إنه « هيكل الله » وينبنى على هذا الخلاف أن الذين قالوا بقيامة المسيح استندوا إلى قوله الذى جاء فى إنجيل متى وهو : إنى أقدر أن أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه » وقالوا إن المسيح كان يشير بهذا الهيكل إلى جسده وأنه سيهدمه وفى ثلاثة أيام يقيمه من بين الأموات . ورواية « مرقس » التى تقول عن الهيكل إنه مصنوع بالأيادى لاتسمح بهذا التأويل، إذ هى نص صريح فى أن المراد بالهيكل هو هيكل سليمان ، وهو المعبد الذى يتعبد فيه اليهود ! .

(ب) لم يذكر مرقس ماذكر متى عن يهوذا الأسخريوطى من أنه ردّ الثلاثين فضة التى قبضها من اليهود كما لم يذكر أنه خنق نفسه !

(جـ) يروى « متى » أن بيلاطس قال للكهنة : « من تريدون أن أطلق لكم باراباس أم يسوع الذى يدعى المسيح » أما « مرقس » فيروى على لسان

بيلاطس أنه قال لهم : أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود ؟ » .

(د) يذكر متى أن امرأة بيلاطس قد رأت حلما تألمت فيه من أجل المسيح وأنها حذرت زوجها من أن يعرض المسيح بأذى كما يذكر أن بيلاطس غسل يديه أمام الجميع وقال إني برىء من دم هذا البار . . .

وهذا ما لم يذكره مرقس !

(ه) ويذكر متى أيضا أن اليهود أجابوا بيلاطس قائلين : دمه علينا وعلى أولادنا . . وهذا ما لم يذكره « مرقس » كذلك .

وإذا علمنا أن « متى » أو من كتب إنجيل « متى » ونسبه إليه إنما كان ينقل عن « مرقس » ويعتمد عليه فى هذا الإنجيل — إذا علمنا ذلك كان لنا أن نقول إن هذه الزيادات التى جاءت فى إنجيل « متى » كانت تعليقات وتفسيرات لهذه الأخبار التى ذكرها « مرقس » وهذا يعنى أن تلك الأحداث كانت بمعرض النظر والرأى ولم تكن تصدر عن جهة واحدة فى تصويرها وفى عرضها ، وإنما كان لكل إنسان نظرته إليها ، ورأيه فيها ، وتأويله لها .

٣ — (من إنجيل لوقا) :

« فأخذوه — أى المسيح — وساقوه وأدخلوه إلى بيت رئيس الكهنة وأما بطرس فتبعه من بعيد ، ولما أضرموا نارا وسط الدار وجلسوا معا جلس بطرس بينهم فرأته جارية جالساً عند النار ، فتفرست فيه وقالت : وهذا كان معه ! فأنكره قائلا : لست أعرفه يا امرأة ، وبعد قليل رآه آخر وقال : وأنت منهم ! فقال بطرس : يا إنسان لست أنا ! ! ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلا : بالحق إن هذا أيضا كان معه . لأنه جليلى أيضا ، فقال بطرس : يا إنسان ! لست أعرف ما تقول ، وفى الحال بينما هو يتكلم صاح الديك ، فالتفت الرب ونظر إلى بطرس

فتذكر بطرس كلام الرب كيف قال له : « إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات » فخرج بطرس إلى خارج ، وبكى بكاء مرا ! .

« ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب : رؤساء الكهنة والكتبة ، وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين : إن كنت أنت المسيح فقل لنا ، فقال لهم إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني ! منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله ، فقال الجميع : أفأنت ابن الله ! فقال لهم : أنتم تقولون إني أنا هو ، فقالوا ماحاجتنا بعد إلى شهادة ، لأننا نحن سمعنا من فمه !

« فقام كل جمهورهم وجاءوا إلى بيلاطس وابتدأوا يشتكون عليه قائلين : إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ، ويمنع أن نعطى جزية لقيصر قائلا : إنه هو المسيح ملك اليهود ! فسأله بيلاطس قائلا : أنت ملك اليهود ؟! فأجابه وقال: أنت تقول! فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع : إني لا أجد أية علة في هذا الإنسان ! فكانوا يشددون عليه قائلين إنه يهيج الشعب ، وهو يعلّم في كل اليهودية مبتدئا من الجليل إلى هنا ، فلما سمع بيلاطس ذِكر الجليل سأل : هل الرجل جليلي ! ؟ وحين علم أنه من سلطنة « هيرودس » أرسله إلى هيرودس إذ كان هو أيضا تلك الأيام في أورشليم .

« وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جدا لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجّى أن يرى آية تصنع منه . وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء ! ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتداد فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباسا لامعاً ورده إلى بيلاطس ...

« فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب وقال لهم : قد قدمتم إلىّ

هذا الإنسان كمن يفسد الشعب ، وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه ولاهيرودس أيضاً ، لأنى أرسلتكم إليه ، وها لاشيء يستحق الموت صُنع منه. فأنا أؤد به وأطلقه،وكان مضطرا أن يطلق لهم كل عيد واحدا فصرخوا بجملتهم قائلين : خذ هذا وأطلق لنا باراباس ... فناداهم أيضا بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا قائلين : اصلبه اصلبه : فقال لهم ثالثة : فأى شيء عمل هذا ؟ إنى لم أجد فيه علة للموت فأنا أؤد به وأطلقه، فكانوا يلحون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب، فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة، فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم وأسلم يسوع لمشيئتهم ! »

ونرى فى هذه الرواية :

(ا) أن بيلاطس قد بعث بالمسيح إلى هيرودس ليحاكمه . وهذا مالم يذكره مرقس ومتى فى إنجيليهما ،وإذا كانت هذه الواقعة صحيحة فكيف يغفل عن ذكرها صاحبى إنجيلى متى ومرقس ؟ إن هذه الواقعة إن صحت تعنى أن المسيح قد واجه موقفا جديدا ، وانتقل من يد سلطان إلى يد سلطان آخر ، ثم عاد من جديد إلى موقفه الأول من بيلاطس .. ولاشك أن كل ساعة من ساعات هذه الأيام كانت ثقيلة على تلاميذه وحوارييه تطرقهم فيها الهواجس المزعجة والخواطر المفزعة ، والتصورات السوداء ، فكيف تغيب عن أبصارهم هذه الواقعة ! وكيف يعقل أن تمحى أحداث هذه الأيام من ذاكرة أتباع المسيح وحوارييه ؟ وكيف لايكون لهم موقف خلال تلك الفترة ؟ ثم كيف لايكون للحادثة ذكر فى إنجيلين هما فى المقام الأول من الأناجيل ؟

(ب) لم يذكر « لوقا » ماذكره «متى» عن يهوذا من أنه ردالثلاثين فضة إلى اليهود ، وأنهم اشتروا بها مدفنا للغرباء ، كما لم يذكر أن يهوذا قد خنق نفسه .

(ج) لم يذكر « لوقا » أيضا ماذكره «متى» عن امرأة بيلاطس وحلمها وتألمها من أجل المسيح وتحذيرها لزوجها من أن يؤذيه .. الخ

(د) لم يذكر «لوقا» كذلك ماروواه « متى » من أن اليهود قالوا لبيلاطس : دمه علينا وعلى أولادنا .

٤ — (من إنجيل يوحنا) :

« ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه ومضوا به إلى « حنان » أولا ، لأنه كان حما (قيافا)الذى كان رئيسا للكهنة فى تلك السنة وكان قيافا هو الذى أشار على اليهود : أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب !

« وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر — أى يوحنا — يتبعان يسوع ، وكان التلميذ الآخر معروفا عند رئيس الكهنة فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة وأما بطرس فكان واقفا عند الباب خارجا فخرج التلميذ الآخر الذى كان معروفا عند رئيس الكهنةوكلم البوابة فأدخل بطرس ، فقالت الجارية البوابة لبطرس:ألست أنت أيضا من تلاميذ هذا الإنسان ؟ قال ذاك : لست أنا ! وكان العبيد والخدام واقفين وهم قد أضرموا جمرا لأنه كان برد ، وكانوا يصطلون وكان بطرس واقفا معهم يصطلى !

«فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه، وعن تعليمه .. أجابه يسوع أنا كلمت العالم علانية . . أنا علّمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع اليهود دائما ! وفى الخفاء لم أتكلم بشىء ..لماذا تسألنى ؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم؟ هو ذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا ! !

«ولما قال هذا لطم يسوعَ واحدٌ من الخدام كان واقفا قائلا:أهكذا تجاوب رئيس الكهنة ؟ أجابه يسوع : إن كنتُ قد تكلمت رديا فاشهد على الردى ،

وإن حسنا فلماذا تضربنى [1] ؟ . ... وكان حنّان قد أرسله موثقا إلى قيافا رئيس الكهنة . .

« وسمعان بطرس كان واقفا يصطلى فقالوا له ألست أنت أيضا من تلاميذه ؟ فأنكر ذلك وقال : لست أنا ! قال واحد من عبيد رئيس الكهنة وهو نسيب الذى قطع بطرس أذنه : أما رأيتك أنا معه فى البستان ؟ فأنكر بطرس أيضا ، وللوقت صاح الديك !

« ثم جاءوا بيسوع من عند «قيافا» إلى دار الولاية وكان صبح ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكى لا يتنجسوا فيأكلون الفصح ، فخرج بيلاطس إليهم وقال أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان ؟ أجابوا وقالوا له لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك! فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم ! فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحدا ، ليتم قول يسوع الذى قاله مشيرا إلى أية ميتة كان مزمعا أن يموت !

« ثم دخل بيلاطس أيضا إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له : أنت ملك اليهود ؟ أجابه يسوع : أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عنى؟ أجابه بيلاطس ألعلّنى أنا يهودى ؟ أمّتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلى . . ماذا فعلت ؟ أجاب يسوع : مملكتى ليست من هذا العالم ! لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم إلى اليهود ! ولكن الآن ليست مملكتى من هنا، فقال له بيلاطس : فأنت إذن ملك ؟ أجاب يسوع أنت تقول إنى ملك . لهذا قد ولدت أنا ؟ ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق ؟ كل من هو من الحق يسمع صوتى . فقال له بيلاطس ماهو الحق ؟

---

(١) أهذا هو الله ؟ إله يقف بين يدى عبد من عبيده يلطمه بغير جريرة ؟

ولما قال هذا خرج أيضا إلى اليهود وقال لهم : أنا لست أجد فيه علة واحدة ، ولكم عادة أن أطلق لكم واحدا فى الفصح أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ فصرخوا أيضا جميعهم قائلين : ليس هذا ، بل باراباس ، وكان باراباس لصا .

« فحينئذ أخذ بيلاطس يسوع وجلده وضفر العسكر إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وألبسوه ثوب أرجوان وكانوا يقولون : السلام ياملك اليهود وكانوا يلطمونه ! .

« فخرج بيلاطس أيضا خارجا وقال لهم : ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أنى لست أجد فيه علة واحدة فخرج يسوع خارجا وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان فقال لهم بيلاطس هو ذا الإنسان فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا قائلين اصلبه ، اصلبه ! قال لهم بيلاطس : خذوه أنتم واصلبوه لأنى لست أجد فيه علة ، أجابه اليهود : لنا ناموس ، وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله ! فلما سمع بيلاطس هذا القول ازداد خوفا . فدخل أيضا إلى دار الولاية وقال ليسوع من أين أنت ؟ وأما يسوع فلم يعطه جوابا فقال له بيلاطس أما تكلمنى ؟ ألست تعلم أن لى سلطانا أصلبك ، وسلطانا أن أطلقك ؟ أجاب يسوع : لم يكن لك علىّ سلطان البتة لو لم تكن أعطيت من فوق ، فذلك الذى أسلمنى إليك له خطية أعظم ! . . من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يطلقه ، ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين : إن أطلقت هذا فلست محبا لقيصر ! ! كل من يجعل نفسه ملكا يقاوم قيصر !! فلما سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع وجلس على كرسى الولاية فى موضع يقال له « البلاط » وبالعبرانية « جبّاثا » وكان استعداد الفصح ، وكان نحو الساعة السادسة فقال لليهود هذا ملككم فصرخوا خذه خذه اصلبه ، قال لهم بيلاطس أأصلب ملككم ؟ أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر ، فحينئذ أسلمه إليهم ليصلب ! »

تعليقات :

فى هذه الواقعة ينفرد يوحنا من بين أصحاب الأناجيل بأنه كان شاهد عيان لمحاكمة المسيح منذ أن قبض عليه إلى أن صلب ودفن !

ويتحدث يوحنا عن نفسه فى رواية هذه الواقعة بأنه « التلميذ الآخر الذى كان يسوع يحبه » ! .

وعلى هذا فإننا سنتخذ من رواية « يوحنا » لهذه الواقعة أصلا نحتكم إليه ونقابل عليه الروايات الواردة فى بقية الأناجيل !

ولكن قبل أن نمضى فى مقابلة النصوص بعضها ببعض وعرضها على ماورد فى إنجيل يوحنا ، نريد أن نشير إلى ماجاء فى هذا الإنجيل عن حادثة دخول بطرس إلى دار رئيس الكهنة لمراقبة مايجرى للسيد المسيح هناك . . فيوحنا يقول عن نفسه إنه كان معروفا عند رئيس الكهنة ، وبالتالى يكون معروفا عند كل من فى هذه الدار . . ومع هذا فإنه يدخل ويشهد مايدور بين المسيح ورئيس الكهنة دون أن يعترض عليه أحد أو يحاول أن يأخذه بجريرة صحبته للمسيح وتلمذته عليه .. على حين يعترض الخدم على بطرس ، وينادون بالقبض عليه وإلحاقه بصاحبه المسيح وهو غير معروف لديهم، وغير معقول أن تكون هناك تفرقة فى معاملة تلاميذ المسيح عند اليهود الذين قبضوا على المسيح ، فكيف يقع هذا ليوحنا ، فيغدو ويروح فى بيت رئيس الكهنة دون أن يسأله أحد ؟

ثم من جهة أخرى نرى الأناجيل الثلاثة : متى ومرقس ولوقا لم تذكر من تلاميذ المسيح غير بطرس فى محاولة تتبع أثر المسيح ومراقبة مايحدث له فى بيت رئيس الكهنة .. أما يوحنا فلم يرد له ذكر فى هذا الموقف إلا فى إنجيله !

فما تأويل هذا ؟

إن « يوحنا » من حواريى السيد المسيح.. وما كان لهذا الحوارى أن يكذب متعمدا ، ولا تأويل لهذا عندنا إلا بأن هذا الخبر قد دس على صاحب الإنجيل قبل أن يذيع إنجيله وينتشر فى أيدى الناس .

هذا وبمقابلة نصوص الأناجيل بعضها ببعض فى هذه الواقعة نرى ما يأتى :

أولا : يذكر (متى) أن يهوذا قد رد الثلاثين فضة إلى رؤساء الكهنة وأنهم رفضوا أن يأخذوها منه أو أن يقبلوها فى مال الهيكل لأنها ثمن دم ، واشتروا بها حقل الفخارى ليكون مقبرة للغرباء . . ولم يذكر مرقس ولوقا ويوحنا هذه الواقعة التى انفرد متى وحده بذكرها .

وقد ترتب على هذه الواقعة استجلاب آية من العهد القديم كنبوءة لما فعله يهوذا بالمسيح ، وفى هذا يقول « متى » : حينئذ تم ماقيل بأرميا النبى القائل : وأخذوا الثلاثين من الفضة ثمن المثمن الذى ثمنوه من بنى إسرائيل وأعطوها عن حقل الفخارى كما أمرنى الرب » .

ويلفتنا من النص الذى استدعاه « متى » من التوراة — أمران :

(أولهما) أن متى يضيف هذا القول فى إنجيله منسوبا إلى أرميا ، على حين أنه لا يوجد فى سفر أرميا هذا النص ، لا بلفظه أو بمعناه .. وهذا ـ كما أشرنا فى غير هذا الموضع — أمر يثير الحيرة والعجب ، إذ كيف يقع فى كتاب سماوى مثل هذا الخطأ المادى ! وكيف يقيم الإنجيل حجة سماوية بهذه المقولة التى ينقضها الواقع المحسوس ؟

(ثانيهما) : أن هذا النص الذى عزاه « متى » إلى أرميا قد ورد فى سفر زكريا هكذا : « فقلت لهم : إن حسن فى أعينكم فاعطونى أجرتى وإلا فامتنعوا ، فوزنوا أجرتى ثلاثين من الفضة ، فقال لى الرب : ألقها إلى الفخارى ، الثمن الكريم

الذى ثمنونى به ، فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى الفخارى فى بيت الرب[1] »

وهذا القول هو على لسان زكريا يحدث به عن واقعة كانت فى حياته ، وقد تصرف فيها حسب ما أمره الله ، وليس فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى المسيح ، وما سيكون من أمره ! .

وإذ كان المعروف عن زكريا عليه السلام أنه ليس من أصحاب النبوءات ، على حين أن « أرميا » كان أكثر أنبياء بنى إسرائيل تنبؤاً ـ فلعل هـذا هو الذى جعل كاتب إنجيل « متى » يعدل عن نسبة هذا النص إلى صاحبه زكريا ، وينسبه إلى « أرميا » صاحب النبوءات المعروفة فى سفره المعروف باسمه .

ثانياً : يتحدث « متى » عن بطرس حين سئل فى بيت رئيس الكهنة عن صلته بالمسيح بأنه أنكر أن تكون له معرفة به ، ولم يكتف بهذا الإنكار ، بل حلف، ولم يكتف بالحلف، بل سبّ ولعن! سب المسيح ولعنه ، ليؤكد نفى صلته به !

وذلك عين ما ذكره « مرقص » فى إنجيله !

أما لوقا ويوحنا فلم يذكرا عن بطرس أنه حلف أو سب ولعن ، وإن كان قد أنكر أنه تلميذ المسيح !

وإذا قبلنا من « بطرس » وهو الحوارى الأول المسيح أن ينكر تلمذته للمسيح ومعرفته به، تحت هذه الظروف القاهرة ، وأن يكون له فى هذا متأول يتأوله أو عذر يقوم له .. فإنه لا يقبل منه أن يحلف كاذباً. ثم يتجاوز هذا الحلف إلى السب واللعن ! فذلك ما لا يكون من تلميذ المسيح وحواريه .. أن يلعن المسيح ويسبه ! .

ولهذا فإنا نرجح ما جاء فى إنجيلى يوحنا ولوقا ، ويبقى ما ذكر فى إنجيلى متى

---

(١) سفر زكريا : ١١،٢

ومرقس محتاجاً إلى تعليل وتأويل ! إن كان هناك وجه للتعليل والتأويل !!

ثالثاً . انفرد لوقا من بين أصحاب الأناجيل بالخبر الذى يقول إن بيلاطس لما سمع أن المسيح من الجليل وأنه ليس من اليهودية بعث به إلى حاكم الجليل « هيرودس » وأن هيرودس التقى بالمسيح وسأله ، وتوقع أن يرى على يديه بعض المعجزات التى تحدث بها الناس عنه ، وأنه حين لم ير من المسيح شيئاً ولم يتبين حقيقته ولا حقيقة الخلاف الذى بينه وبين اليهود ألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس.

وهذه واقعة ما كانت تغيب عن شاهد العيان « يوحنا » الذى كان ـ كما يقول فى إنجيله ـ قريباً من المسيح يتبع خطوه أينما سار وهو فى طريقه إلى الصليب ! هذا فضلا عن أن متى ومرقس لم يذكرا هذه الواقعة ! .

ونحن فى هذه الواقعة بين أمرين : إما أن يوحنا لم يحضر محاكمة المسيح ولم يكن من بين شهودها ، وهذا يخالف ما سطر بقلمه من أنه كان هو وبطرس التلميذين الوحيدين اللذين كانا على مقربة من المسيح منذ القبض عليه ، وأنه ظل على مشهد منه إلى أن أسلم روحه !

وإما أن تكون هذه الواقعة لم تقع أصلا ، وقد سجلها لوقا فى إنجيله على السماع من بين تلك الأخبار الكثيرة التى تشيع فى الناس فى مثل هذه الأحوال .

ومما يضعف هذا الرأى القول بأن الأناجيل كتبت بالوحى .

وكلا الأمرين إن سلم به كان رمية قاتلة ، إن أخطأت أحد العصفورين أصابت الآخر ! !

رابعاً : انفرد مرقس وتابعه متى أو كاتب إنجيل متى فيما تحدثا به عن بيلاطس ، وأنه حين يئس من اليهود ومن تركهم المسيح — أخذ ماء قدام الجميع وغسل يديه وقال : إنى برىء من دم هذا البار .

ولم يذكر هذا الخبر فى إنجيل « لوقا » ولا فى إنجيل « يوحنا » . وإذ كان يوحنا شاهد رؤية لهذه الأحداث .. فكيف يفوته مثل هذا الحدث الذى كان بمشهد من الجميع ؟ ولا يخرج بنا القول فى هـذا الخبر عن القول فى الخبر السابق الذى انفرد به « لوقا » ! فهذا من ذاك سواء بسواء ! .

خامساً : انفرد يوحنا بتصوير موقف مثير بين المسيح وبيلاطس فى دار الولاية حيث تحدث إلى المسيح حديثاً خاصاً لم يكن على مشهد من اليهود الذين لم يدخلوا الدار لئلا يتنجسوا ، كما يزعمون ! !

وفى هذا الحديث ينطلق لسان المسيح الذى كان قد حبسه عن الكلام ، فيجيب على أسئلة بيلاطس إجابات يشرح فيها رسالته ويكشف عن شخصيته ، وقد كان من قبل يجيب إجابات مقتضبة لا تتجاوز كلمة أو كلمتين ، أو لا يجيب أبداً .

والذى يدعو إلى النظر فى هـذا الموقف هو أن المسيح يتحدث إلى بيلاطس حديثا لا هوتيا لا يعنى بيلاطس كثيرا أن يسمعه وإن سمعه فهيهات أن يعقله !

يقول بيلاطس مخاطبا المسيح : ماذا فعلت ؟

فيجيبه المسيح : مملكتى ليست من هـذا العـالم ! لو كانت مملكتى من هـذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم إلى اليهود ، ولكن الآن ليست مملكتى من هنا !

فيقول له بيلاطس : أفأنت إذن ملك اليهود ؟

فيجيب المسيح : أنت تقول إنى ملك ! ألهذا قد ولدت أنا ؟ ولهـذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق ؟ كل من هو من الحق يسمع صوتى !

فيقول له بيلاطس : ما هو الحق ؟

ولا يسمعنا المسيح رده القاطع لهذا السؤال المحير ، الذى لا يجد من يجيب عليه الجواب المقنع المفحم غيره . . ولكن هكذا تجىء الخاتمة لهذا الموقف المثير ، وهى خاتمة غير منتظرة من المسيح الذى ما عيِي عن جواب قط !

وندع القول فى هذا لمن يتأول أو يتقول .. إن كان الأمر يحتمل تأويلا أو يقبل تقولا ! !

رابعاً : المسيح على الصليب

١ — « من إنجيل متى » :

« فأخذ عسكر الوالى يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة ، فعروه وألبسوه رداء قرمزيا وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه ، وقصبه فى يمينه ، وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين : السلام يا ملك اليهود !! وبصقوا عليه وأخذ القصبه وضربوه على رأسه ، وبعد ما استهزءوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ، ومضوا به للصلب ! ، وفيما هم خارجون وجدوا إنسانا قيروانيا اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه ، ولما أتوا إلى موضع يقال له جُلجثة ، أعطوه خلا ممزوجا بمرارة ليشرب ، ولما ذاق لم يرد أن يشرب .

« ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها ، لكى يتم ماقيل بالنبىّ : « اقتسموا ثيابى بينهم وعلى لباسى ألقوا قرعة » ثم جلسوا يحرسونه هناك وجعلوا فوق رأسه علّته مكتوبة : « هذا يسوع ملك اليهود » حينئذ صلب معه لصان ، واحد على اليمين وواحد على اليسار !

« وكان المجتازون يجدفون عليه ويهزون رءوسهم قائلين : يا ناقض الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام خلص نفسك .. إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب ! ! وكذلك رؤساء الكهنة أيضا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا : خلّص

آخرين وأما نفسه فلم يقدر أن يخلصها . . إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن من الصليب . فنؤمن به . . قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده ، لأنه قال : أنا ابن الله ، وبذلك أيضا كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه .

« ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض حتى الساعة التاسعة ، ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : إيلى إيلى لم شبقتنى ؟ أى إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟ .. فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادى « إيليا » وللوقت نهض واحد منهم وأخذ إسفنجة وملأها خلا وجعلها على قصبة وسقاه وأما الباقون فقالوا : اتركه . لنرى هل يأتى إيليا يخلصه فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح !

« وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين ، من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامه ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين !

« وأما قائد المئة والذين كانوا يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جدا وقالوا حقا كان هذا ابن الله . . وكانت نساء كثيرات ينظرن من بعيد وهن قد تبعن يسوع من الجليل يخدمنه وبينهن مريم المجدلية ، ومريم أم يعقوب ويوسى أى (أم المسيح) وأم ابنى زبدى » .

« ولما كان المساء جاء رجل غنى من الرامة اسمه « يوسف » وكان هو أيضا تلميذا ليسوع فهذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع ، فأمر بيلاطس حينئذ أن يُعطى الجسد ، فأخذه يوسف ولفه بكتان نقى ، ووضعه فى قبره الجديد الذى كان قد نحته فى الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا كان على باب القبر ومضى . . .

« وفى الغد الذى بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس

قائلين: ياسيد.. قد تذكرنا أن هذا المضل قال وهو حى: إنى بعد ثلاثة أيام أقوم فمُر بضبط القبر إلى الثالث لئلا يأتى تلاميذه ليلا ويسرقوه ويقولوا للشعب : إنه قام من الأموات ، فتكون الضلالة الأخيرة أشرّ من الأولى ! ! فقال لهم بيلاطس عندكم حراس ! اذهبوا واضبطوه كما تعلمون ، فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر ! »

٢ — (من إنجيل مرقس) .

ويتفق مرقس مع متى فى رواية هذه الواقعة ولا يختلفان اختلافا يذكر إلا فى موضعين :

(الموضع الأول) وهو المقطع الأخير من الواقعة حين جاء يوسف الذى من الرامة إلى الوالى وطلب منه جسد يسوع ، وهنا يقول مرقس فتعجب بيلاطس أنه مات هكذا سريعا ، فدعا قائد المئة وسأله : هل له زمان قد مات ؟ ولما عرف من قائد المئة وهب الجسد ليوسف .

وإذا عرفنا أن إنجيل « متى » منقول عن إنجيل مرقس فإن ناقل هذا الإنجيل ضرب صفحا عن هذه الواقعة التى تثير شكا حول موت المسيح موتا محققا ، والتى تفسح المجال للقول بأنه لم يمت ،وإنما كان فى غيبوبة وأنه لما سُلّم إلى يوسف الذى من الرامة ووجد فيه الحياة أخذه إلى مكان بعيد حتى أفاق من غشيته ، ثم عمد إلى قبر جديد وأودع فيه شيئا قيل إنه جسد المسيح ! . . هذا شىء يمكن أن يقال ! !

لهذا لم يذكر ناقل إنجيل « متى » هذه الواقعة حتى لا تثير مثل هذه المقولات أو نحوها شكا فى شأن موت المسيح على الصليب موتا إن لم يكن محققا فينبغى أن يكون محققا، نظرا لما بُنى على صلب المسيح وموته من معتقدات لا يمكن التسليم بنقضها!! (أما الموضع الثانى) وهو ما ذكره « متى » من موقف اليهود مع الوالى بعد صلب

المسيح وطلبهم منه أن يحرس القبر . . . الخ . . . فهذا لم يذكره مرقس !

وتلك الزيادة التى انفرد بها « متى » أو كاتب إنجيل متى هى من قبيل ما أدخله كاتب هذا الإنجيل على مقولات « مرقس » تعليقا عليها وشرحا لها ، وتأويلا لنصوصها على الوجه الذى كشفت عنه أظانين الناس وهو اجسهم، بعد أن تراخى الزمن شيئاً منذ كتب مرقس إنجيله .

ثم إن هـذه الزيادة تقوى الرأى الذى ذهبنا إليه فى الفقرة السابقة وهو أن كاتب إنجيل « متى » قد ترك عمداً ما كان ينبغى أن ينقله من إنجيل « مرقس » من شك الوالى فى موت المسيح بعد هذا الزمن القصير.. فهذه الزيادةالتى لم يذكرها « مرقس » وذكرها « متى » من طلب اليهود إلى الوالى ضبط القبر وحراسته — هذه الزيادة جاءت عمدا لتقوّى القول بموت المسيح موتا حقيقيا لاشك فيه !!

٣ — (من إنجيل ، لوقا):

« ولما مضوا به أمسكوا رجلا قيراونيا كان آتيا من الحقل ، ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع،وتبعه جمهور كثيرمن الشعب والنساء اللواتى كن يلطمن أيضاً وينحن عليه ، فالتفت إليهن يسوع وقال : يابنات أورشليم لا تبكين علىّ ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن ، لأنه هو ذا أيام تأتى ، يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثُّدِىّ التى لم ترضع حينئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقطى علينا وللآكام غطنا لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هـذا ، فماذا يكون باليابس ؟

« وجاءوا أيضاً باثنين آخرين مذنبين ليقتلامعه .

« ولما مضوا به إلىالموضع الذى يدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين،واحداً عن يمينه والآخرعن يساره، فقال يسوع: ياأبتاه اغفر لهم لأنهم لايعلمون ماذايفعلون وإذ اقتسموا ثيابه اقترعوا عليها .

«وكان الشعب واقفين ينظرون والرؤساء أيضاً معهم يسخرون به قائلين خلّص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله ! والجند أيضاً استهزءوا به وهم يأتون ويقدمون له خلاً قائلين : إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك .

«وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية : « هذا هو ملك اليهود » !

«وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدّف عليه قائلا : إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا ! فأجاب الآخر وأنّبه قائلا : أو لا أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه ؟ أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق مافعلنا ، وأما هذا فلم يفعل شيئا ليس فى محله ، ثم قال ليسوع اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك ! ! فقال له يسوع الحق أقول لك .. إنك اليوم تكون معى فى الفردوس !

«وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه ونادى يسوع بصوت عظيم وقال : «ياأبتاه فى يديك أستودع روحى» ! ولما قال هذا أسلم الروح ! فلما رأى قائد المئة ما كان مجّد الله قائلا : بالحقيقة كان هذا الإنسان بارا !

«وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم .. وكان جميع معارفه ونساء كنّ قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك .

« وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيرا ورجلا صالحا بارا هذا لم يكن موافقا لرأيهم وعملهم وهو من الرامة مدينة لليهود ، وكان هو أيضاً ينتظر ملكوت الله .. هذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع وأنزله ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط .. وتبعه نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وُضع جسده ، فرجعن وأعددن حنوطا وأطيابا ، وفى السبت استرحن حسب الوصية . »

٤ — (من إنجيل يوحنا)

« فأخذوا يسوع ومضوا به . . فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذى يقال له موضع الجمجمة، ويقال له بالعبرانية جُلجثة حيث صلبوه وصلبوا اثنين آخرين معه، من هنا ومن هنا ويسوع فى الوسط .

« وكتب بيلاطس عنوانا ووضعه على الصليب وكان مكتوبا : يسوع الناصرى ملك اليهود . . فقرأ هـذا العنوان كثير من اليهود لأن المكان الذى صلب فيـه يسوع كان قريبا من المدينة وكان مكتوبا بالعبرانية واليونانية واللاتينية ، فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس: لاتكتب ملك اليهود ، بل إن ذاك قال أنا ملك اليهود ! أجاب بيلاطس: ما كتبتُ قد كتبتُ!! ثم إن العسكر لما كانوا قد صلبوا يسوع أخذوا ثيابه وجعلوها أربعة أقسام لكل عسكرى قسما وأخذوا القميص أيضاً وكان القميص بغير خياطة منسوجا كله من فوق ، فقال بعضهم لبعض لانشقه بل نقترع عليـه لمن يكون ، ليتم الكتاب القائل : « اقتسموا ثيابى بينهم ، وعلى لباسى ألقوا قرعة » . هـذا فعله العسكر ! وكانت واقفات عند صلب المسيح أمه وأخت أمه مريم ، زوجة كلوبا ومريم المجدلية ، فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذى كان يحبه واقفا (هو يوحنا صاحب هذا الإنجيل!) قال لأمه : ياامرأة هوذا ابنك . ثم قال للتلميذ: هوذا أمك! ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته !

« وبعد هـذا رأى يسوع أن كل شىء قد كمل فلكى يتم الكتاب قال : أنا عطشان!! وكان إناء موضوعاً مملوءا خلاً فملأوا إسفنجة من الخل ووضعوها على زوفا(١) وقدموها إلى فمه ، فلما أخذ يسوع الخل قال: قد أكمل!! ونكس رأسه وأسلم الروح !

« ثم إذ كان استعداد فلكى لاتبقى الأجساد على الصليب فى السبت ، لأن يوم ذلك السبت كان عظيما سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم ويرفعوا ، فأتى

---

(١) الزوفا : نبات له ورق دقيق ، والمراد هنا قصبة من هذا النبات .

العسكر وكسروا ساقى الأول والآخر المصلوب معه ، وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات ! لكن واحدا من العسكر طعن فى جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء !.. والذى عاين شهد (يقصد نفسه ، أى يوحنا) وشهادته حق وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل : « عظم لا يكسر منه »وأيضاً يقول كتاب آخر « سينظرون إلى الذى طعنوه » !

« ثم إن يوسف الذى من الرامة وهو تلميذ يسوع ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع فأذن بيلاطس ، فجاء وأخذ جسد يسوع وجاء أيضاً « نيقوديموس » الذى أتى أولا إلى يسوع ليلا وهو حامل مزيج مر وعود نحو مئة منًا فأخذا جسد يسوع ولفاه بأكفان من الأطياب كما لليهود عادة أن يكفنوا ، وكان فى الموضع الذى صلب فيه بستان وفى البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط ، فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريبا »

تعليقـــات :

بين روايات الأناجيل لهذه الخاتمة من تلك المأساة المروعة كثير من وجوه الخلاف التى تزعج اطمئنان المرء فى قبولها والتسليم بها . . فمن ذلك :

١ — الأناجيل الثلاثة : متى ، ومرقس ، ولوقا . تحدث بأن الذى حمل الصليب هو شخص قيروانى يسميه (متى) سمعان . . بينما يقول (يوحنا) ـ شاهد العيان ـ إن المسيح هو الذى حمل صليبه !

٢ — تتفق الأناجيل الأربعة على أن المسيح صلب بين لصين ، واحد على يمينه والآخر على يساره !

ولكن تختلف الأقوال بينها فيما دار بين المسيح واللصين جميعاوهم على الصليب !!

ففى متى ومرقس أنهما كان يعيّرانه . .

« وأما لوقا » فهو يصور مشهدا روائيا مثيرا تدور فيه الأحاديث فى منطق هادىء وفى حوار متئد بين اللصين ، وقد اختلف أمرهما فى شـأن المسيح . على هذا الوجه :

* أحد اللصين (مستهزئا) : إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا !

* اللص الآخر (ينتهر صاحبه) : أوَلاَ أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه ؟ أما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق مافعلنا وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس فى محله!

ثم يلتفت إلى السيد المسيح فى وداعة ولطف قائلا : اذكرنى يارب ، متى جئت فى ملكوتك !

* السيد المسيح : الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس !!

ونسأل : أين كان هـذا الحديث ؟

وتجيب الأناجيل بأن مسرحه كان على خشبات الصليب المعلق عليها كل من المسيح واللصين !

ولا ندرى إن كانت حالة المصلوب تسمح له بأن يلتفت يميناً ويساراً أم لا ؟ ولكن الذى نعقله أن المعلق على الصليب والذى دقت يداه ورجلاه بالمسامير على الصليب ، لايمكن أن يعى شيئاً مما حوله ، فضلا عن أن يحاور ويجادل ! إنه لايعقل أبداً أن يكون عند المصلوب بقية من عقل أو فضلة من قوة يمكن أن ينفقها فى لفتة يلتفتها أو كلمة ينطق بها.. وأنه إن يكن شىء فليس غير الأنين أو الصراخ ، لا الفلسفة ولا السفسطة ولا التنكيت والتبكيت !

أما « يوحنا » فإنه لم يذكر عن اللصين أكثر من أنهما صلبا مع المسيح!ولم يجر على لسانيهما قول بمدح أو ذم فى شأن المسيح . !

هذا أقرب إلى الواقع الممكن !

أما تلك الأحاديث التى جرت على لسان اللصين فهى من معطيات العاطفة ، لا العقل ، ومن مولدات الخيال لا الواقع ، ويمكن أن يضاف حسابها إلى ماتجمع لنا من تلك المتناقضات الكثيرة التى وقعت بين الأناجيل !

٣ — اتفقت رواية الأناجيل الثلاثة : متى ومرقس ولوقا فى الحديث عن الظلمة التى وقعت فى جميع أنحاء العالم ، من الساعة السادسة إلى التاسعة ، والمسيح على الصليب ، وماصحب ذلك من الزلزلة وانشقاق الهيكل !

ولم يذكر يوحنا شاهد الرؤية شيئاً من هذا !!

وظاهرة كهذه تهز العالم ، وتبسط سلطانها على الوجود لاينبغى إغفالها عند الحديث عن صلب المسيح ، ومظاهرة الظواهر الطبيعية لهذا الحدث العظيم لاتجعل ثمة من داعية لإخفاء هذه الأحداث ، إذ كانت بمرأى ومسمع من كل أحد . . . . وإذا جاز لكاتب سيرة المسيح من تلاميذه وحوارييه أن يتردد فى ذكر المعجزات التى شهدها من المسيح ، خوفا من التكذيب والبهت من اليهود فإن أسباب التردد هنا غير قائمة ، إذ لو كانت هذه الظواهر قد وقعت فعلا على ماصورت به فى الأناجيل الثلاثة — لكانت أكبر من أن تنكر أو تكذب !

والذى نطمئن إليه فى هذ الأمر ، هو أن شيئاً من هذا لم يحدث ، إذ أنه فوق أن يوحنا شاهد الرؤية لم يشهد به ولم يذكرعنه شيئاً ـ هو فى ذاته لاداعية له فى هذا الموقف ، حيث أن الجريمة قد تمت والصلب قد وقع ! ولكن العاطفة فى مثل هذه المواقف تولد كثيراً من الغرائب والعجائب!!

٤ — انفرد « لوقا » من بين أصحاب الأناجيل بالحديث عن موقف جرى بين المسيح وهو فى طريقه إلى الصلب وبين جموع النساء اللائى كن يتبعنه نائحات لاطمات خدودهن . إذ يقول : (فالتفت إليهن يسوع وقال : « يابنات

أورشليم ، لا تبكين عليّ بل ابـكين على أنفسكن وعلى أولادكن . . . .) .

وما كان ليوحنا وقد كان بين هذه الجموع التى تبعت المسيح ترصد كل خطوة من خطواته وتمسك كل كلمة ينطق بها ـ ما كان له أن يترك كلمات السيد المسيح الأخيرة تذهب هكذا ، دون ان يضبطها ويمسك بها فى كيانه كله ! إنها أولى كلمات المسيح بالذكر والحفظ .. إنها الـكلمات التى يودع بها الحياة والأحياء !

فمن أين جاء لوقا وحده بهذا الخبر ؟ ومن أى مصـدر أخذ هـذه الـكلمات المنسوبة إلى السيد المسيح ! ؟

ولعله أولى من هذا السؤال أن نسأل : من الذى أدخل هذه الواقعة على إنجيل « لوقا » ؟ ولأية غاية قصد منها ؟

ذلك أننا نرفع أصحاب الأناجيل الأربعة بشخصياتهم المعروفة فى التاريخ أن يكذبوا ، بله أن يتعمدوا الـكذب . . وكيف وقد صحبوا المسيح واستروحوا أنفاسه الزكية الطاهرة ! ؟

٥ — لم يتفق أصحاب الأناجيل الأربعة على موقف المسيح وهو على الصليب . . فبينما يصوره مرقس ومتى مستيئسا فزعا مكروبا، يصرخ بكلمات راعشة محمومة « إلهى . . إلهى لماذا تركتنى ؟ » ثم صرخ بصوت عظيم وأسلم الروح .

إذ نجد لوقا يصور المسيح هنا راضيا مطمئنا مستسلماً لقدره طالبا المغفرة لهؤلاء المناكيد الذين ساقوه إلى الصليب حيث يقول : « يا أبتاه . . اغفرلهم فإنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » .

أما يوحنا فيقول قولا آخر غير هذين القولين . . فما جزع المسيح ولا صرخ ولا طلب لصالبيه مغفرة ولا عذابا ، وإنما نطق بـكلمة واحدة تـكسرت على شفتيه وهو يجود بآخر أنفاسه : « فقد أكمل ! » .

وفى هذه الأخبار نظر لناظر . .

فإذا كان المصلوب هو المسيح ، فكيف يبلغ به اليأس هذا الحد ؟ وكيف يستولى عليه الخوف وتغشاه حمّى الجزع ؟ كيف هذا وهو الذى دخل مختارا فى هذه التجربة كما تقول الأناجيل ؟ وكيف يكون للموت عنده هذه الرهبة وهو يعلم أنه سيقيم نفسه من بين الأموات بعد ثلاثة أيام؟ أهذا شأن من له مثل هذا السلطان على الموت والحياة معا ؟ وماذا إذن يكون شأن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ؟ وهل يكون المسيح أدنى درجة وأقل صبرا على المكاره وأوهى إيمانا وعزماً من أولئك الرسل الذين استقبلوا الموت راضين مطمئنين مستبشرين !؟

لقد ذكر يوحنا على لسان المسيح أنه أخبر تلاميذه بموته، وأنه وصاهم أن يفرحوا لهذا ، وألا يجزعوا ، إذ يقول لهم: «لا تضطرب قلوبكم، ولا ترهب.. سمعتم أنى قلت لكم أنا أذهب ثم آتى إليكم ! لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الأب ، لأن أبى أعظم منى!!».

فكيف يكون من المسيح هذا الجزع القاتل . . وهو يعلم مستيقنا هذا المصير الذى هو صائر إليه ؟ إننا ننكر أن يكون من المسيح شىء من هذا الجزع على فرض أنه تقدم للصلب أو صلب ، وهذا على حساب أنه إنسان بشر .. فكيف إذا كان هو ذات الله ، على ما يعتقد المعتقدون فى ألوهيته ! ؟

ويعلق « ول ديورانت » على ما ورد فى الأناجيل عن حادثة الصلب فيقول : « ولا يسع الإنسان إلا أن يشك فى هذه التفاصيل التى تناقلها الناس مشافهة فى أغلب الظن ثم دونوها بعد وقوعها بزمن طويل » .

ثم يعلق على قولة المسيح التى عزاها إليه مرقس ومتى وهو على الصليب « إلهُى إلهُى لم تركتنى » ــ وهى مأخوذة من المقطع الأول من المزمور الثانى والعشرين ــ فيقول :

«ذلك هو نداء اليأس البشرى الذى يعزوه مرقس ومتى إلى المسيح وهو يحتضر . . فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذى أعانه فى موقفه أمام بيلاطس قد انقلب فى تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود ؟ ، ولعل «لوقا» قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية فبدلها بقوله « يا أبتاه فى يدك أستودع روحى » وهى عبارة تردد صدى الآية الخامسة من المزمور الحادى والثلاثين ترديدا يثير الريب ، لما فيه من تطابق ودقة » (١) .

٦ — انفرد يوحنا فى إنجيله بذكر هذا الموقف الذى كان بينه وبين المسيح وأم المسيح . . إذ يقول صاحب الإنجيل :

« وكانت واقفات عند صلب المسيح أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية ، فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذى كان يحبه واقفا (وهو يوحنا صاحب الإنجيل) قال لأمه . يا امرأة هـذا هو ابنك ، ثم قال للتلميذ هوذا أمك . . ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته ! »

لم يذكر أصحاب الأناجيل الثلاثة هذه الواقعة !

فهل تركوها حسدا ليوحنا أن ينال هذا الشرف العظيم ؟ ذلك بعيد عن مقام هؤلاء الحواريين الأبرار !

أم هل لم يقل المسيح شيئاً من هذا بل كان ذلك من مقولات « يوحنا » ؟ وذلك بعيد أيضا أن يتقول الحوارى على المسيح !

والفرض الذى يحتمل القبول هو أن هذا الخبر قد أدخله بعض من وقع لديهم إنجيل يوحنا ، عن نية سيئة أو قصد طيب ساذج !

---

(١) قصة الحضارة : الجزء الثالث من المجلد الثالث صـ ٢٣٨ .

٧ — ذكر يوحنا دون أصحاب الأناجيل أن اليهود طلبوا كسر سيقان المصلوبين حتى يعجّل بموتهم ولا يبقوا على الصليب إلى يوم السبت حسب ناموسهم... وقد أجابهم بيلاطس إلى هذا الطلب فكسر العسكر سيقان اللصين، ولما أرادوا أن يكسروا ساق المسيح وجدوه قد مات! فطعنه أحدهم بحربة فى جنبه، وللوقت خرج دم وماء..

وبضميمة هذا الخبر إلى ما ذكره مرقس منفرداً بذكره من أن بيلاطس لما علم بأن المسيح قد مات تعجب من أنه مات كهذا سريعاً ـ بضميمة هذا إلى ذاك تنعقد حول موت المصلوب سحب من الشك تدعو إلى أكثر من سؤال :

— هل مات المصلوب حقاً ! ؟

— وهل المصلوب هو شخص المسيح؟ وإذا كان هو المسيح فكيف يموت هكذا سريعاً وفيه من قوى الحياة ما ليس لغيره !؟

— ثم لماذا يطعن المسيح بحربة فى جنبه ! ومن أذن لطاعنه بهذا العمل ! ؟

٨ — انفرد متى من بين أصحاب الأناجيل بذكر تلك الواقعة التى تقول بأن اليهود طلبوا إلى بيلاطس أن يضبط قبر المسيح حتى لا يسرقه تلاميذه ويذيعوا فى الناس أنه قام من بين الأموات حسبما كان يتحدث بذلك فيكون من ذلك فتنة وفساد كبير . . وقد ترك بيلاطس إلى اليهود أن يتولوا هم بأنفسهم حراسة القبر وضبطه !

ولو صحت هذه الواقعة لما أمكن القول بقيامة المسيح أبدا، ولما أمكن وجود شاهد يشهد لهذه القيامة . . من تلاميذ المسيح أو من غير تلاميذه . . وبهذا تقف حياة المسيح عند الصلب . . ولا يمكن أن ـ تتزحزح عنه بحال . . وهو موقف حرج، يقيم المسيحية على خواء لا تثبت لها فيه قدم !

إن أقوى الأدلة على قيامة المسيح هى شهادة أولئك الشهود من تلاميذه وأتباعه

الذين ذهبوا إلى القبر فى اليوم الثالث ودخلوه فوجدوه خاليا من الجسد ووجدوا الأكفان موضوعة كما هى حسب ما كان الجسد موضوعا فيها !

وهنا تثور أسئلة من كل جهة :

أين كان الحرس الذين أقامهم اليهود على القبر ؟ وأين كان اليهود الذين وقفوا يتصيدون تلاميذه الذين كان من المتوقع أن يحوموا حول القبر ولا يقاربونه ؟ وأين حرص اليهود على حراسة القبر وضبطه ؟

إن العهد لم يتطاول بالحراس وأشباه الحراس الذين قاموا على القبر ومن حوله .. إنها ساعات معدودات . . فكيف ينفذ تلاميذ المسيح إلى القبر ؟ بل كيف يغدون إليه ويروحون .. أفرادا وجماعات . ينظرون فى القبر ، بل ويدخلون إلى داخل القبر ويفتشون فى محتوياته ، دون أن يلقاهم من يقول لهم إلى أين ! ؟

أين كان اليهود ؟ وأين كان حراس اليهود ؟

وإذا كان لأحد التلاميذ أن يتسلل إلى القبر — وهذا مستحيل استحالة مطلقة — فكيف يتكرر هذا العمل علانية ، ويتتابع تلاميذ المسيح عليه يدخلون ويشاهدون الآثار التى خلفها المصلوب وراءه ! ؟

ألا يسارع اليهود والحراس إلى سد هذه الثغرة ! أويعيدون الحجر إلى موضعه ؟ ألا يحولون بين أىّ من الناس وبين الاقتراب منه ! ولم إذن كان تخوفهم من تلاميذ المسيح ؟ ولم كان سعيهم إلى بيلاطس لحراسة القبر وضبطه ؟

وعزاء عقولنا هنا فى هذه المحنة التى تبتلى بها من جحافل المتناقضات هو قول المعرّى :

هـذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول

وأحسب أننا لا نكف أبداً عن صحبة هذا البيت مادمنا فى مواجهة ماتتحدث به الأناجيل عن صلب المسيح وقيامته ! ولمثل هـذا الموقف الذى يقفه العقل مما تتحدث به الأناجيل عن صلب المسيح وقيامته صرح كثير من المسيحين بشكوكهم فى هذه الوقائع، وحُقّ لسائلهم أن يسأل : هل مات المسيح حقا ؟

ولقد سأل هذا السؤال عينه العالم الفيلسوف المؤرخ « ول ديورانت » وكان جوابه عليه الشك والارتياب . . ومستنده فى هـذا ماحدّثت به الأناجيل نفسها فى هذا الأمر . .

يقول « ول ديورانت » :

« لقد كان اللصان اللذان إلى جانبه — جانب المسيح — لايزالان على قيد الحياة وقد كسر الجنود سيقانهم حتى تتحمل أيديهما ثقل جسميهما فيؤثر ذلك فى حركة الدم ويقف القلب بعد قليل . . غير أن هذا لم يحدث فى حالة عيسى ، وإن قد قيل إن جنديا طعنه فى قلبه بحربة فانبثق الدم من الجرح أولا ثم خرج بعد ذلك مصل الدم ، وأبدى بيلاطس دهشة من أن يموت رجل بعدست ساعات من صلبه ، ولم يوافق على أن يرفع الجسد — (جسد المسيح) — عن الصليب إلا بعد أن أكد له قائد المئة المكلف به أنه مات ! .

هذا عن الصلب . . أما من القيامة فيقول :

« بعد يومين من هذا الحادث — حادث الصلب — زارت مريم المجدلية وكان حبها ليسوع ممزوجاً به تلك النشوة العصبية التى تمتاز بهـا عواطفها كلها — زارت قبر المسيح مع مريم أم يعقوب وسالومة فوجدنه فارغا ! فامتلأت قلوبهن خوفا وسروراً معا ، وجرين ليقلن هذا النبأ إلى تلاميذه ، والتقين فى الطريق برجل حسبنه يسوع ! ! فانحنين احتراما له وأمسكن بقدميه ! !

« وفى وسعنا أن نتصور الأمل الذى انبعث فى النفوس الساذجة عن هذا النبأ وما لقيه من ترحيب !! لقد قهر المسيح الموت وأثبت أنه المسيح المنتظر ابن الله !

« وملأ ذلك النبأ قلوب أهل « الجليل » — مسقط رأس المسيح — بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدقوا أية معجزة وأى وحى !

«ويروى الرواة أن المسيح ظهر فى ذلك اليوم نفسه إلى تلميذين من تلاميذه فى الطريق الموصّل إلى عمواس وتحدث إليهم وأكل معهم ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته . . . ثم أخذ خبزا وبارك وكسر . . فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما . . . ورجع التلاميذ إلى الجليل فلما رأوه بعد قليل سجدوا له ولكن بعضهم شكّوا... وبينما كانوا يصطادون السمك رأوا المسيح ينضم إليهم فألقوا شباكهم ولم يستطيعوا أن يجذبوها من كثرة السمك » .

ثم يعقب « ول ديورانت على هذا بقوله » :

« وجاء فى سفر « أعمال الرسل » أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوما من ظهوره لمريم المجدلية ! لقد كانت فكرة « انتقال » القديس بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، فقد رَوَوْها عن « موسى » « وأخنوخ » « واليشع » و « أشعيا » . . !

«وهكذا اختفى المسيح بنفس الطريقة الخفية التى ظهر بها! ولكن يبدو أن معظم تلاميذه كانوا يعتقدون مخلصين أنه قد وجد معهم بجسمه بعد صلبه . . وفى هذا يقول « لوقا » : ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم ، وكانوا كل حين فى الهيكل يسبحون ويباركون الله !!» (١)

---

(١) قصة الحضارة : الجزء الثالث من المجلد الثالث ص ٢٣٩

ونسأل : لماذا صعد المسيح بعد أربعين يوما من قيامته ؟ ما حكمة هذا الصعود بعد تلك المدة القصيرة التى لم يظهر فيها المسيح إلا لماما ، كما تقول الأناجيل ، والتى لم يره فيها — كما تقول الأناجيل أيضاً — إلا أفراد قلة ؟ ما حكمة هذه القيامة إذا لم تستعلن لجميع الذين شهدوا صلبه ، وخاصة اليهود الذين صلبوه ، لتكون قيامته آية تكبت اليهود وتخزيهم !

ثم لنسأل : لماذا كان الصعود بعد تمام الأربعين يوما ! ولم لم يكن بعد يوم أو بعض يوم إن كانت القيامة لمجرد الإشارة العابرة لتلاميذه ! ؟

ولم الأربعون يوما هذه بالذات ! ؟

ألا يحق لنا أن نقول إن هذا الخبر محمول على ما كان شائعا متعارفا بين قدماء المصريين وبين غيرهم من الوثنيين .. وهو أن أرواح الموتى تظل تحوم حول أهلها وفى المنازل التى اعتادتها مدة أربعين يوما . . ثم تصعد إلى السماء ! ؟

هذا، وإذا كان الكثير من المسيحين قد نزع بهم التحقيق العلمى إلى الشك أو الإنكار . . فى هذه القضية ، لما رأوا فى المصادر التى تحدثهم عنها من اختلافات وتناقضات لا يمكن التوفيق بينها فى أى وجه من وجوهها — فإن كثيرين من المسيحيين أيضاً قد وجدوا لهذه المقولات المتخالفة وجها تجتمع عليه وتلتقى عنده . . ! !

ولا بأس هنا من أن نعرض وجها من وجوه الدفاع عن قيامة المسيح، والتى يدفع بها أصحابها التهم والشكوك التى يثيرها الذين لا يؤمنون بهذه القيامة . .

إن القول بأن المسيح قد قام من بين الأموات يستلزم أن المسيح قد مات على الصليب .. فاذا تأكدت قيامة المسيح فقد تأكد صلبه وموته !

ويسوق صاحب المسيحية الأصلية « ج . ر . و . سنوت » أربعة أدلة على قيامة المسيح هى :

أولا : القبر الفارغ :

وفى هـذا يقول :« تبدأ قصة القيامة فى الأناجيل الأربعة بزيارة بعض النساء للقبر باكرا جداً فى صباح أحد القيامة.. وكم كانت حيرتهن شديدة لما لم يجدن جسد الرب فى القبر! وهذا معناه طبعا أن القبر كان فارغا . . وما هى إلا أيام قلائل حتى بدأ الرسل ينادون ويكرزون بأن المسيح قد قام . . وهـذا هو جوهر رسالتهم وكرازتهم . .

«ولم يكن من المعقول أن الرسل يجاهرون بهذا الأمر، وليس بينهم وبين القبر سوى دقائق ! لكن الحقيقة الواقعة هى أن القبر كان فارغا . . ولابد من تقديم تفسير لهذه الوقائع !

ثم يقدم الكاتب هذا التفسير مسوقاً فى اعتراضات ، يردّ عليها :

١ — « نظرية تقول إن النساء ذهبن خطأ إلى قبر آخر ، وكان الظلام باقيا ، الأمر الذى يجعل من السهل عليهن أن يرتكبن خطأ .

«ولو بدا هذا القول مقبولا ظاهريا إلا أنه يحتاج إلى فحص وتدقيق .. فلم يكن الظلام حالكا ، بل كان كما قال يوحنا : « إن النساء أتين والظلام باق » وقال متى: «عند الفجر » وقال لوقا « فى أول الفجر » أما مرقس فيقول بصراحة « أتين إذ طلعت الشمس » ! !

ونسأل صاحب المسيحية الأصلية . ترى لو شهد شهود بواقعة من الوقائع واختلفوا فى توقيتها هذا الاختلاف . . أتقبل شهادتهم ويطمئن قلب القاضى إليهم ؟ فكيف والشهود رسل من رسل الله . . . مقامهم واحد فى العدالة والأمانة.. بحيث لا يمكن قبول بعضهم ورد بعض ! ؟

ثم يمضى صاحب المسيحية الأصلية فيقول:«وزد على ذلك لم تكن النسوة غبيات ، وعلى الأقل عرفت اثنتان منهن أين وضع يوسف ونيقوديموس الجسد، وراقبتا كل عملية

الدفن ، لأنهما كانتا جالستين تجاه القبر ، والاثنتان كلتاهما — مريم المجدلية ومريم أم يوسف — رجعتا عند الفجر وجاءتا بسالومة معهما ، وأيضاً يوسى والباقيات ، ولو أن واحدة ضلت الطريق أو أخطأت القبر لاستطاعت الباقيات أن يصلحن خطأها أو يهدين ضلالها .

ولو أخطأت مريم فى المرة الأولى وذهبت إلى مكان غير المكان المقصود لما أخطأت مرة أخرى عند رجوعها فى وضح الصباح ، حيث بقيت فى البستان إلى أن التقت بيسوع . . فضلا عن ذلك لم يكن الحزن العاطفى هو الذى جاء بهن إلى القبر وإنما أتين بمهمة أخرى .. حاملات الحنوط الذى أعددنه ليدهن جسد يسوع لأن حلول السبت قبل ذلك بيومين لم يترك لهن فرصة لإعداد الحنوط والأطياب اللازمة وليس من السهولة بمكان أن مثل هؤلاء النسوة اللواتى أفرزن أنفسهن لهذا العمل — ليس من السهولة أن يُخدعن ! ! فضلا عن ذلك لو أن النسوة أخطأن القبر فهل يمكن لبطرس ويوحنا اللذين ربضا ليتحققا الخبر ولغيرهما ممن لحقوا بهما بما فيهم يوسف الذى من الرامة ، ونيقوديموس — هل يمكن أن جميعهم يرتكبون نفس الخطأ ؟ »

<u>**تعقيب :**</u>

ونسأل أيضاً :

أين كان اليهود ؟ وأين كان الحراس الذين أقاموهم على القبر ليحولوا بين التلاميذ وبين الوصول إليه ؟

ثم نسأل كذلك :

لماذا هذا الحنوط وهذه الأطياب التى حملتها مريم وصاحبتها إلى قبر المسيح ؟ أكان من الممكن عمليا أن يقتربن من الجسد بعد ثلاثة أيام من دفنه ، وأن يدهنه ويطيبنه ؟ أهذا يمكن أن يكون ؟ ألا يتحلل الجسد ويتعفن بعد مضى تلك المدة ؟!

وإذا كن قد اعتقدن أن المسيح ليس بشراً لا يخضع جسده لما تخضع له أجساد البشر.. فما حاجته إذن إلى مثل هذه الأشياء التي تعالج بها أجساد الموتى من البشر ! ؟

ثم نسأل أيضاً : لماذا هـذا الحنوط وهذه الأطياب ، وقد قام بهـذا العمل يوسف الذي من الرامة ،الذي تولى تكفين المسيح ودفنه ؟ لقد أدى الرجل هذه المهمة على أكمل وجه ، فضمخ جسد المسيح بنحو مئة مَنٍّ من الأطياب حسب رواية الأناجيل ، أي نحو خمسين كيلو جراما . ! فهل يحتاج جسد المسيح إلى مزيد من الأطياب بعد هذا ! ؟

ثم يتابع صاحب « المسيحية الأصلية » القول فيقول :

ثانياً : الإغماء والغيبوبة :

« يذهب أصحاب هذه النظرية إلى القول بأن يسوع لم يمت فوق الصليب ولكن أغمى عليه ، ثم أفاق فى القبر وخرج منه فيما بعد وأظهر نفسه لتلاميذه .

«إلا أنه تحف بهذه النظرية مشاكل عديدة هى فى حد ذاتها باطلة أصلا ،وفصلا، يناقضها الدليل كل التناقض .. لقد تعجب بيلاطس أن يسوع مات هكذا سريعاً فدعا قائد المئة وسأله : هل له زمان قد مات ! ولما اقتنع بيلاطس بذلك وهب الجسد ليوسف . .

« ولعل قائد المئة استطاع أن يعطى بيلاطس التأكيد الكافى لأنه شاهد بأم عينيه « واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء » فأخذ يوسف ، ونيقوديموس الجسد ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت.. فهل يمكن أن نصدق أنه كان طوال هذا الوقت فى غيبوبة وأنه بعد آلام ومرائر محاكمته و لاستهزاء والصلب استطاع أن يعيش مدة ست وثلاثين ساعة فى قبر منحوت فى الصخر ، لا تدفئة فيه

ولا طعام ولا تضميد لجراحه الثخينة ، أو أنه استطاع أن يستجمع قواه ويقوم بعمل فائق للطبيعة فيرفع الحجر الكبير عن القبر ! وإن ذلك تم فى غفلة من الجند الرومانى !

ونقول: ولم لا يقوم المسيح بعمل فائق للطبيعة ، وهو الذى قام بأروع الأعمال الفائقة لها ؟) (ولم لا يتم ذلك فى غفلة من الجند الرومانى إذا كان قد صح أن مريم المجدلية ومن معها قد وصلن إلى القبر فى غفلة من هؤلاء الحراس ! ؟) . .

٣ — لصوص سرقوا الجسد :

« أشاع الأعداء أن بعض اللصوص أتوا ليلا وسرقوا جسد يسوع !

« وليس من دليل أو شبه دليل يؤيد هذا الزعم !

« فكيف نفسر مجىء اللصوص إلى القبر ؟! وكيف دحرجوا الحجر الكبير فى غفلة من الحراس الرومان الساهرين ؟

(والذى يفسر به مجىء اللصوص إلى القبر ، ودحرجتهم الحجر الكبير هو الذى يفسر به مجىء مريم المجدلية وصاحباتها وعزمهن على دحرجة الحجر الكبير ليدهن جسد السيد المسيح !) . .

«ولا يمكن أن يتصور عقل كيف يجرؤ اللصوص على سرقة الجسد وترك الأكفان فى موضعها .. وما الذى دفعهم إلى هذا العمل ؟

(يمكن تأويل هذا بأن الأكفان كانت ثقيلة بما لصق عليها من الحنوط والأطياب . . كما يمكن أن يكون هناك أكثر من دافع لسرقة جسد المسيح) .

٤ — التلاميذ سرقوا الجسد :

«ويسجل لنا متى فى إنجيله أن اليهود ابتدعوا هذه الإشاعة ونشروها حالا بعد القيامة ! . . . . .

« ولكن هذه القصة التى اخترعها اليهود لا يقبلها عقل سليم . . .

تعقيب :

إن قول اليهود بأن تلاميذ المسيح قد سرقوا الجسد — هذا القول هو أقرب الأقوال إلى العقل وأكثرها احتمالا .. وأنه إذا كان من المستبعد أن يسرق التلاميذ جسد المسيح فإنه ليس من المستبعد أن يسرقه اليهود وأن يخفوه إلى الأبد ، وأن يدّعوا على تلاميذه هذه الدعوى حتى يلقوا فى قلوبهم اليأس منه ومن الاتصال به واتخاذ قبره مزارا يحجون إليه ويلتقون عنده !

إن اليهود لا يغفلون عن هذا التدبير ، ولا يتركون لأتباع المسيح وتلاميذه متعلقا يتعلقون به منه !

ولهذا فإنهم أخفوا جسد المصلوب وتركوا القبر فارغا خواء ، وألصقوا تهمة السرقة بأتباع المسيح وتلاميذه !

وشواهد الحال تشهد بهذا :

فاليهود أولا قد طلبوا إلى بيلاطس أن يضبط القبر وأن يوكل به حراسا .. وذلك ليأمنوا أن يتهموا بسرقة الجسد الذى كانوا اعقدوا العزم على سرقته .. وليس يعجزهم أن يفعلوا ذلك وأن يدخلوا على الحرس بكل إغراء وحيلة!

وهم ثانياً: رفعوا الحجر عن القبر وخلّوا بين أتباع المسيح وتلاميذه وبين القبر، فلا حرس يحول بين أحد وبين الوصول إليه ! وذلك ليشهد الناس جميعا وخاصة أتباع المسيح ألا جسد فى القبر ! !

ولو أن اليهود لم يكونوا حريصين على إذاعة هذا الأمر ونشره ، ولو أنّ خلوّ القبر من الجسد كان عن تدبير خارج عن تدبيرهم لأعادوا الحجر إلى القبر وختموه وشددوا الحراسة عليه . وهم أصحاب الأمر فيه بأمر بيلاطس الذى وكل إليهم حراسته ... ولظلت هذه الحراسة سنين طويلة حتى يتحلل الجسد وتذهب معالمه !

إن اليهود قد فعلوا هذه الفعلة ، وشواهد الحال تنطق بأفصح لسان بهذا .

فما تُحدث به الأناجيل من ذهاب النسوة إلى القبر ، ووجوده خاليا من الجسد ، والحجر الذى كان مغطى به قد زايل موضعه . . هو خبر صحيح ؛ وصحة هذا الخبر رهن بأن يكون اليهود هم الذين دبروا هذا الأمر ، وأخلوْا القبر من الجسد المصلوب ، وأفسحوا للناس الطريق إلى القبر حتى يذاع الخبر ويملأ الآفاق !

ويدفع صاحب المسيحية الأصلية القول بأن اليهود هم الذين أخفوا جسد المسيح — يدفعه بقوله :

«وإن هى إلا بضعة أسابيع من إخفاء الجسد أو قيامته ، حتى أخذ التلاميذ ينادون بكل مجاهرة بأن المسيح قد قام .. وقد ذاع الخبر فى سرعة هائلة ، وهددت حركة الناصرى الجديدة بتقويض أركان الديانة اليهودية ، وتعويض سلامة أورشليم وأمنها للخطر ، وخاف اليهود أن يعتنق الناس المسيحية ، وخاف الرومان من ثورة انقلابية ، ولم يكن أمام السلطات الرسمية إذاك إلا إظهار جسد يسوع وإصدار بيان بذلك !ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك لزموا الصمت ولجأو إلى وسائل العنف والتعذيب فألقوا القبض على الرسل ، وهددوهم وجلدهم وسجنوهم وافتروا عليهم وتآمروا ضدهم وقتلوهم ، وما كانوا فى حاجة إلى كل هذا إطلاقا لو وجدوا جسد المسيح . . ومن البديهى أن الكنيسة قامت على أسس القيامة ، فلو كانت القيامة باطلة لتلاشت الكنيسة من الوجود ! — ولكنهم لم يفعلوا لأن الجسد لم يكن فى قبضة يدهم .. ولعل سكوت السلطات برهان قاطع على صدق القيامة ، وله من القوة والتأثير ما لشهادة الرسل ! ! [1] » .

---

(١) المسيحية الأصلية ص ٥٦ وما بعدها !

والقول بأن السلطات كان يمكن أن تبطل دعوى قيامة المسيح بإظهار جسده قول متهافت .. ذلك أن الحركة التى قامت على قيامة المسيح قد جاءت متراخية بعد زمن كان فيه قد ذهب جسد المصلوب ، وتحلل إن كان قد نقل ودفن فى قبر آخر .. أو نهشته السباع ، وعفت عليه الرمال إن كان قد ألقى به فى العراء . . بعيداً عن الأنظار . . !!

وإذن فلم يكن ثمة سبيل إلى إظهار الجسد المصلوب !

ولو كان إظهار هذا الجسد ينفع فى تسكين هذه الحركة التى كانت تموج بها البلاد — لو كان إظهار الجسد ينفع فى هذا الوقت ويجد عند الناس مقنعا أن جسداً قد مضى عليه هذا الزمن لايزال باقيا محتفظاً بملامحه ، لما عجز اليهود أو الرومان عن تصيد جسد آخر ، وعرضه على الناس باسم المسيح المصلوب ، ولكن الزمن كان قد فات، وأخذت الأحداث طريقها بحيث لايمكن ردها أو اللحاق بها ! !

* * * *

الفصل الرابع

القرآن .. والمسيح المطلوب ، وقيامته

المسيح بين الألوهية والبشرية :

لم يلتفت القرآن الكريم إلى المسيح وإلى المعتقدات التى يعتقدها فيه أولياؤه وأعداؤه إلا من جانب واحد ، هو شخصيته ، وتحديد هذه الشخصية على الوجه الذى يراه له ، وهو أنه إنسان بشر ، وليس إلهاً ولا ابن إله على الرغم من الأسلوب الفريد الذى ولد به !

ففى الوقت الذى نزل فيه القرآن كان قد مضى على ميلاد « المسيح » نحو ستة قرون ، دارت فيها الأحداث التى صحبت حياة المسيح ـ من دخوله فى هذا العالم إلى خروجه منه ـ دارت تلك الأحداث فيها دورات كثيرة ، والتقت بأنماط مختلفة لاحصر لها من العقول .

وكاد الأمر يستقر فى معتقد الناس ، فى المسيح وفى الأحداث التى اتصلت به ! سواء عند أتباعه الذين يرونه إلهاً ، أو عند اليهود الذين رموه باللعنة وسوء المنقلب .

فأتباعه كان قد انتهى بهم الرأى فيه إلى أنه « الله » ممثلا أقنوم الابن فى الأقانيم الثلاثة التى لله !

وأعداؤه ـ اليهود ـ لم يتغير رأيهم فيه منذ وقع فى أنفسهم أنهم صلبوه ، متهمين إياه بالتجديف على الله !

وكان على القرآن أن يكشف عن شخص المسيح ، وأن يضعه بالموضع الذى له

فى حساب العقيدة... أهو ابن الله ؟ أم هو إله مع الله ؟ أم هو الله وحده؟ أم هو بشر رسول من عباد الله إلى عباد الله ؟

وقد حرص القرآن على أن يجلّى عن شخصية المسيح ، وأن يدفع عنه كل شبهة تُلبس على الناس أمره ، وتجعل له إلى الألوهية مدخلا من أية جهة ، وعلى أية صفة !

وقد أشرنا من قبل إلى صنيع القرآن فى هـذا ، وفى عرضه لمقولات القائلين بنبوته لله ، أو ألوهيته ، ورده على تلك المقولات ، وكشفه عن تهافتها وتهافت حجج القائلين بها .

هذه هى قضية المسيح فى القرآن : أهو إلـه أو ابن إلـه ؟ . . أم هو إنسان من الناس ، وخلق من خلق الله ؟ وإذ فصل القرآن فى هذه القضية فصلا قاطعا ، وأنزل المسيح من سماء الألوهية إلى أرض البشر — إذ فعل القرآن هذا فإنه لم يلتفت من أمر المسيح إلى شىء وراءه ، مما يجرى على البشر، وينزل بهم من أحداث ويقع فى حياتهم من شئون ! .

فإذا مات المسيح أو قتل أو صلب فليس ذلك بالأمر الذى يُجرى له القرآن حسابا خاصا دون الحساب الذى يجرى على الناس ، حين يموتون أو يقتلون . ولـكنه مع ذلك أكدّ أنه لم يقتل ولم يصاب . ! !

وإذا كان هناك شىء يُلتفت إليه فى هذا الأمر العارض ، فهو هذا العمى وذلك الضلال اللذان يركبان الناس فيغريانهم بالتطاول على تلك الأيدى الـكريمة الممدودة إليهم بالخير والمبسوطة إليهم بالهدى ، وأن يطفئوا بأفواههم هذا النور المتوهج فى ظلام ليلهم البهيم ، وأن يمثلوا بهذا الإنسان الطاهر البرىء ! وأن يوردوه الموت على أشنع صورة وأبشعها !

إنه لا أكثر من الشعور بالحسرة والأسى تندلع نارها فى صدور الأخيار الأبرار

من الناس ، حين يصابون فى مُثُلهم الفاضلة ، ويُفجعون فى أسوتهم الحسنة ، وحين يرون الشر يأكل بناره منابت الخير ويفسد ثمارها !

إنها وقفة . . قد تطول أو تقصر ، يقفها الناس إزاء هـذا الجرم الغليظ . . ثم تمضى الحياة ويمضى الناس معها فى هذا الصراع المتصل بين الحق والباطل ، والخير والشر ، وفى هـذا التدافع الدائم بين المحقين والمبطلين ، وبين الأخيار والأشرار !

المسيح المصـلوب :

فليس بمستنـكر على الحياة إذن أن يصلب المسيح ! وليس بدعا أن تمتد إليـه يد البغى وأن تتمـكن منه وتبلغ ماتريد فيه ! فما أكثر الأنبياء الذين أصابتهم أيدى البغاة وسلطت عليهم قوى الشر والعدوان ، فذاقوا الموت فى أمرّ كئوسه وواجهوه فى أبشع صوره ! .

وما أكثر الصدّيقين والأبرار الذين وقعوا صرعى فى ميادين الجهاد فى سبيل الله ، فمزقوا إربا ، ومُثّـل بهم ، أحياء وأمواتا !

فليـكن المسيح بن مريم رسول الله واحدا من هؤلاء ! ! فما أحد من النـاس قد أخذ على الله عهدا ألايموت ، وما أحد من البشر تخير لنفسه الميتة التى يموت عليها!

وقد حرص القرآن على أن يُخْلى شعور أتباعه المسلمين من كل خاطرة تخطر لهم أن « محمداً » رسول الله بمعزل عن هذا الحـكم الذى ينزل عليه الناس جميعا ، ويردون مورده . فقال تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »(١) . . إن الرسل يموتون أو يقتلون كما يموت الناس وكما يقتلون ، ومحمد رسول الله ، رسول من الرسل وإنسان من النـاس . . .

---

(١) آل عمران .

فليس بِدعا أن يموت أو أن يقتل . . « قل ما كنتُ بدعا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم » . . « إنك ميت وإنهم ميتون » (١) .

ومن أجل هـذا لم يلتفت القرآن فى موقفه من أهل الكتاب ، وفى تسويته لحساب المسيح عندهم — لم يلتفت إلى حادثة « الصلب » ولم يجعل منها قضية يناقشها معهم ، ويفْصل فيها بحكمه بينهم !

وقد يبدو هذا الموقف الذى وقفه القرآن الكريم من أمر « الصلب » وإغفاله له ، تسليما به وبالمعتقد الذى قام عليه ، وهذا يعطى لأصحاب هذا المعتقد القائم على صلب المسيح حجة على القرآن بأنه لم يواجههم مواجهة صريحة فى هذه القضية ، ولم يأخذ عليهم معتقدهم فى أن المسيح قد صلب !

ونقول ـ كما قلنا من قبل ـ إن القرآن لا يعنيه كثيرا أن يكشف حقيقة هـذا الحدث ، وأن يقيم الناس على رأى فى أن المسيح صلب أو أنه لم يصلب . فذلك الأمر على أى وجهيه وقع — لا يقدم ولا يؤخر فى أصل القضية التى ينازع فيها القرآن أولئك الذين يعتقدون فى بنوة المسيح لله أو فى ألوهيته !

فالمسيح إلٰـه ، أو ابن إلٰـه . . كما يقولون ويعتقدون . .

والمسيح ليس إلٰهـا ولا ابن إلٰـه ، وإنما هو عبد من عباد الله ورسول من رسل الله . . كما ينطق الحق ، ويحدث القرآن !

هذا هو أصل القضية . .

فإذا فصل فيها القرآن على هذا الوجه الذى ارتضاه فى المسيح ، فقد فصل ضمنا فى هذه الجزئية العارضة من حياة المسيح وهى الصلب ، ومن ثمّ يكون القول بصلب

---

(١) سورة الزمر آية ٢٠

المسيح أو عدم صلبه سيان . . فهو إنسان من الناس وليس موته على أية ميتة كانت بالذى يحدث له وضعا جديدا فى الحياة ، أو بالذى ينشىء له فى النفوس مكانا يقوم عليه دين وتستند إليه عقيدة ! !

إن القرآن إذ يواجه أتباع المسيح لم ير فى حديثه إليهم عن حادثة الصلب التى يؤمنون بها ويقيمون معتقدهم عليها — لم ير فى هذا الحديث جدوى ، لأن هذا الحديث لا يعنى فى نظر الدعوة الإسلامية أكثر من أنه خبر من أخبار التاريخ ، لا يتعلق بوقوعه أو عدم وقوعه شىء يتصل بالعقيدة فى ذات الله . . إنه مثل الحديث عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، واختلاف الناس فى شأنهم وفيما يروى من أخبارهم . . فإذا قال القرآن فى مثل هذه الأخبار قولا فهو امتحان للقرآن ذاته .. فى أنه متلقى من عند الله ، أو مستوحى من الأساطير وتكهنات الكهان .!

وفى حياة المسيح عليه السلام أكثر من حدث ، أثار تضارب الآراء فيه واختلاف الناس عليه ...

فأولا : ميلاده من عذراء :

كان هذا الميلاد مشكلة ضخمة . . إذ أن هذا الميلاد غير طبيعى ، وغير جار على مألوف الحياة . . وذلك مما يدير الرءوس نحوه ، ويلفت العقول إليه ، ويفتح للناس طرائق شتى للقول فيه والتقول عليه .

فاليهود — مثلا — لم يعترفوا بهذا الميلاد ولم يقبلوه . . بل اعتبروه ولادة غير شرعية ، جاءت على غير رِشدة . . من اتصال محرم ، بين مريم ويوسف النجار ! !

وبهذا وضعوا المسيح وأمه هذا الوضع الذى يصِمُهما بالدنس .. والعار !

وثانياً : صلبه ، ووقوعه بهذا الصلب تحت حكم الناموس الذى يقضى بلعن كل من علق خشبة !

وثالثاً : ألوهيته . . وخروجه بهذه الألوهية عن وجوده البشرى الذى رآه الناس عليه والقضاء على شخصيته وإفنائها .

فهذه ثلاث شُبه أو تهم تحوم حول شخص المسيح ، وتفسد الرأى فيه ، وتجعل منه شخصية أسطورية أكثر منها شخصية حقيقية . .

والقرآن الكريم هو وحده الذى تولى الدفاع عن المسيح وكشف الشبه عن شخصه الكريم ، ووضعه بالمقام المحمود الجدير به ، كإنسان يأخذ مكانه فى الذروة بين النـاس !

« إنمـا المسيح عيسى بن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » . . « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة . . كانا يأكلان الطعام »

إن الأخذ بمـا يقول القرآن فى المسيح هو الذى يرفع هذه الشبهة التى كانت ولا تزال داعية لسوء القالة فيه عند أعدائه اليهود ، أو باعثة للاضطراب والقلق النفسى والروحى والعقلى عند أتباعه ، إذ يرونه إنسانا فى شخص إله أو إلٰها فى جسد إنسان !

كان المسيح قد تنبأ لهذا الخلاف الذى يكون فى شأنه ، ولهـذه المقولات التى قيلت أو تقال فيه . . وقد أشفق على نفسه إذ كان بعضها يطعنه فى شرف مولده وفى طهارة أمه وعفافها ، على حين كان بعضها الآخر يسلخه من بشريته ويخرجه من إنسانيته إلى صورة مختلطة تجمع الإله والإنسان ، فى ذات واحدة ، وفى جسد واحد . . صورة يلتفت إليها فلا يجد فيها وجوده ، ولا يحقق ذاتيته .

كان المسيح قد تنبأ لهذا ، وأشفق منه ، بل وتألم له !

ولكن الله طمأنه وأذهب مخاوفه ، إذ أوحى إليه أن هناك من سيتولى الدفاع عنه ، ورفع الشبهات التى ستدخل على الناس من أمره . . فى حال حياته ، وبعد أن يفارق الحياة ! !

يقول السيد المسيح فيما روت الأناجيل على لسانه مخاطبا تلاميذه وحوارييه :
« لكنى أقول لكم : الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأن إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ومتى جاء ذاك يبكت العالم، على خطيّة، وعلى برّ، وعلى دينونة.. أما على خطية فإنهم لا يؤمنون بى ،وأما على بر فإنى ذاهب إلى أبى ولا ترونى أيضاً ، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دِين !

« إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق،لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم ، كل ما للأب هو لى ، لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ويخبركم ! بعد قليل لا تبصروننى، ثم بعد قليل أيضاً تروننى ، لأنى ذاهب إلى الأب(١) » .

يتحدث المسيح إلى أتباعه هنا عن شخص سيجىء بعده ، إذا هو ترك مقامه فيهم ، وفارق هذه الدنيا .

وصفات هذا الشخص كما يحددها السيد المسيح هى :
أولا : أنه المعزّى ، الذى يجىء مواسيا ومعزيا فيما أصيب به المسيح فى شخصه وما رمى به من تهم . . وكلمة « المعزى » هى إحدى المعانى التى فسرت بها كلمة « باركليت » اليونانية ، والتى فسرت أيضاً بمعنى المحامى أو مستشار الدفاع » .(٢)

ثانياً : أنه سيبكّت العالم على أمور ثلاثة :

---

(١) إنجيل يوحنا ١٦ : ٦ — ١١
(٢) أنظر « المسيحية الأصلية » ص ٢٧

ا — على خطية : هى أنهم لم يؤمنوا بالمسيح على الوجه الذى جاء عليه .

ب — وعلى برّ : وهو أن « المسيح » ذاهب إلى الله لينزل المنزل الكريم الذى أعده له ، ولكن الناس أنزلوه فى غير هذه المنزلة ، حيث رفعه أتباعه إلى مقام الإله ذاته ، على حين أنزله اليهود منازل الضالين ، الغاوين ، المفسدين .

ج — وعلى دينونة : وهى هذا الحكم الظالم الذى حكم به اليهود على المسيح .

ثالثاً : أن هذا المعزّى سيرشد أتباع المسيح إلى الحقيقة كلها ، ومعنى هذا أن هناك أشياء لم يكشف عنها المسيح ، ومعنى هذا أيضاً أن هذه الأشياء هى مما جدّ بعد المسيح من أمور اختلط على الناس وجه الحق فيها ، وهذا هو موضوع القضية الذى سيكون من عمل المحامى الدفاع عنه فيها ، ودفع الشبه التى ألقيت عليه منها .

رابعاً : أن هذا المحامى أو المعزى ، لايتكلم من عند نفسه بل بماقد سمع .. إذ أنه إنما يأخذ دفاعه تلقيا من جهة غير جهته ، هى التى تلقنه المقولات والحجج التى يلقيها على الشُّبه المتلبسة بتلك القضية .

خامساً : أن هذا المحامى سيمجد المسيح .

سادساً : أن هذا التمجيد الذى يقدمه المحامى فى شأن المسيح ليس مديحا تُستجلب به صفات لم يكن متصفا بها ، وإنما هو تمجيد يكشف حقيقته للناس ، ويزيل ماعاق بذاته من شبه وضلالات . .

هذا ماتنطق به كلمات الإنجيل على لسان السيد المسيح فى أوصاف المحامى أو المعزى الذى سيجىء بعده ! ولكن أتباع السيد المسيح خرّجوا هذه الكلمات تخريجا على غير هذا الوجه ، على ماسنرى :

يقول صاحب المسيحية الأصلية :

« وقد بلغ الأمر بيسوع من حيث ثقته واقتناعه بمكانه الرئيسى فى قصد الله — بلغ به حدا جعله يأخذ على عاتقه أن يرسل شخصا ليحل محله بعد صعوده إلى السماء، ألا وهو الروح القدس وقد دعاة (المعزى)، أو (بارا كليت) وهى تسمية مشروعة ومعناها المحامى أو مستشار الدفاع .

وبذلك يكون عمل « الروح القدس » هو الدفاع عن قضية يسوع أمام العالم ، وقال عنه يسوع « هو يشهد لى » (يوحنا ١٥ : ٢٦) ثم : « ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » (يوحنا ١٦ : ١٤)(١)

ومفهوم هذا القول الذى يقول به صاحب المسيحية الأصلية أن الشخص الذى سيرسله المسيح هو « روح القدس » .

وإذا علمنا أن معتقد المسيحية هو أن المسيح هو « الله » وأن « روح القدس » هو الله أيضاً ، بمعنى أن كلامنهما هو الله ، أوأقنوم من أقانيمه الثلاثة _ إذا علمنا ذلك كان عجبا أن يكون « المعزى » شخصا ، وأن يكون هذا الشخص هو الله ، ثم أن يكون المسيح وهو « الله » يرسل « روح القدس » وهو « الله » ! ! أى أن الله يرسل الله !

الله يذهب فى صورة المسيح « الابن » ويجىء مرسلا من الابن فى صورة روح القدس ! ثم من جهة أخرى . . مامعنى أن المحامى — إذا كان هو روح القدس ، الذى هو الله ذاته — مامعنى أنه لايتكلم من عند نفسه . . « بل يتكلم بما يكون قد سمع ، ويخبركم ؟ » أروح القدس — أوالله بمعنى أوضح — ينتظر من يلقنه مايقول ، ويأذن له به ؟ فيتكلم بما يكون قد سمع ؟

---

(١) المسيحية الأصلية ص ٢٧ — ٢٨

هذا من حيث الشكل — كما يقال فى لغة القضاء — أما من حيث الموضوع فإذ ننظر نجد :

أولا : أن « روح القدس » الذى يقال إن المسيح وعد بإرساله بعد أن يمضى — لم ير له أحد وجها ، لا من أتباع المسيح ولا من غيرهم ! !

ثانياً : أن روح القدس هذا وهو المحامى أو مستشار الدفاع لم يعرف له أحد موقفا ، ولم يكن له قول مأثور فى شأن المسيح وفى تمجيده . .

فأين إذن هو روح القدس ؟ وأين أعماله أو أقواله التى واجه بها الناس لتمجيد المسيح ؟ ولسنا نجد جوابا لهذا إلا إذا نظرنا فى القرآن الكريم ووقفنا عند ما جاء فيه من دفاع مشرق مفحم عن السيد المسيح . . هذا الدفاع المشرق المفحم هو تمجيد وتعزية للسيد المسيح ، لما أصابه فى شخصه وفى شخص أمه من ضر وأذى ، بيد أتباعه وأوليائه أكثر مما ناله من أعدائه والشاغبين عليه !

جاءت بعثة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه — وقد مضى على الدعوة المسيحية نحو ستة قرون ، وكان هذا الزمن الممتد كافيا لأن يفسح للدعوة المسيحية مجال الحركة فى الحياة ، وأن يبلغ بها أقصى ما تبلغه فى عقول الناس وقلوبهم ، من أولياء الدعوة وأعدائها على السواء . . إذ قد استنفد أعداؤها كل ما لديهم من مقولات يقولونها فى المسيح ودعوته ، كما استنفد أولياؤها كل ما عندهم من مقولات فى تصويرها ، وتقرير حقائقها والاحتجاج لها . .

ومن هذا الشد والجذب ، والهجوم والدفاع ، تشكلت للمسيح « قضية » من أشد ما عرف الناس من القضايا ، غموضا وتعقيداً . . والمسيح هو « الضحية » التى تنوشها رميات المتنازعين فيه والمختلفين عليه . . . من أعدائه وأوليائه جميعاً !

وهنا تبرز الحكمة فى الحاجة إلى محام ، أو مستشار للدفاع ، ليقول فى هذه القضية لا شيئا من عند نفسه ، بل بما يكون قد سمع ، ويخبر به !

وليس ثمة شك فى أن هذا المحامى أو مستشار الدفاع أو المعزى هو « محمد » عليه الصلاة والسلام .

فهو كما تنطق كلمات السيد المسيح :

أولا : هو المحامى الذى كان له دور معروف فى قضية المسيح ، وكان بمشهد وبمسمع من الناس جميعاً !

ثانيا : هو الذى دافع فى هذه القضية دفاعه المعروف عن شخص المسيح وعن أمه ، وكان دفاعه هذا تمجيداً وعزاء لهما مما أصابهما من رميات وطعنات ! !

ثالثاً : لم يقل هذا المحامى كلمة من عند نفسه ، بل كل ماقاله هو مما تلقاه وحياً من ربه ، « لأنه لايتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » كما يقول السيد المسيح .

رابعاً : أن هذا الذى سمعه « محمد » وحيا من ربه لم يحتفظ به لنفسه ، بل أخبر به وبلغه للناس كما أمره ربه بقوله : « يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ».. وفى هذا يقول السيد المسيح: « بل يتكلم بما يكون قد سمع ، ويخبر » .

لقد كان « محمد » بما تلقى من كلمات الله هو المحامى الذى رد للمسيح ولأمه اعتبارهما ، وهو الذى مجدهما ورفع قدرهما فى العالمين ، وكان فى ذلك العزاءُ الجميل لهما ، والمواساة الكريمة لما أصابهما من بلاء عظيم . !

وننظر فى كلمات السيد المسيح مرة أخرى . .

ونقف من كلمات السيد المسيح عند هذه الكلمات :

١ — « إن فى انطلاقى لخيراً لكم » . : فهذا الخير هو ماينكشف لهم من

أمر المسيح على لسان «المحامى» الذى يتولى الدفاع عن قضيته ويعرضه لهم فى المعرض الذى يجلّى حقيقته ، ويكشف لهم شخصه الكريم ، فيرونه على حقيقته .

٢ — «فإنى أرسله إليكم» . . وهذه القولة توحى بأن المسيح هو الذى يرسل هذا المحامى ، أو بمعنى آخر هو الذى يملك إرسال الرسل ، أو بمعنى ثالث أنه هو الإله المتصرف فى هذا الوجود .

وهى مقولة إن حُملت على ظاهرها هذا كانت إقرارا من الله تعالى الذى هو المسيح بالعجز عن الدفاع عن نفسه ، فيقيم محاميا يتولى الدفاع عنه . .

وعلى هذا فإن هذه القولة إما أن تكون قد حرفت ليستقيم عليها الفهم الذى وقع لأتباع المسيح من أنه هو الله ، وإما أن تحمل على غير ظاهرها ، ويكون قول المسيح « إنى أرسله إليكم » محمولا على المجاز السببى ، إذ لما كان وجود المسيح مانعا من وجود المحامى إلا بعد أن يذهب المسيح وتكثر المقولات فيه . فإن ذهاب المسيح هو الذى يهىء المحامى سبيلا إلى الظهور ، وبهذا يمكن القول بأن المسيح هو الذى أرسله ، بمعنى أنه كان سببا من أسباب إرساله !

٣ — فى قوله « ويخبركم بما يأتى » فيه إشارة إلى تلك المقولات التى ستقال فى المسيح بعد ذهابه ، والتى ستشكل منها تلك القضية التى تولى القرآن الكريم الكشف عن وجه الحق فيها .

٤ — فى قوله « يأخذ مما لى ويخبركم » إشارة إلى أن مايقوله المحامى الذى يتولى الدفاع عن المسيح ليس شيئا غريبا عن المسيح ، بل هو له ، أى مما اشتملت عليه ذاته ، سواء أكان ذلك عن مولده أو عن بشريته ، كما نطق بذلك القرآن الكريم .

لماذا أخبر القرآن عن الصلب ؟

إنه مجرد خبر لا أكثر ولا أقل !

خبر يبهت اليهود ويفجعهم ويملأ قلوبهم حسرة وكمدا !

إن اليهود على يقين من أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم ! الذى عرفوه وعرفهم وسمع منهم وسمعوا منه .

ولم يكن قتلهم إياه لأنه جدف على الله كما ادعوا عليه.. وإنما كان لأنه جاءهم بأنه « المسيح » الذى وُعدوا به ، وطال انتظارهم له . !

والمسيح الذى رأوه فى شخص « عيسى » ليس هو المسيح الذى عاشوا فى أجيالهم يحلمون به ، ويتوقعون الخلاص على يديه !

كان اليهود يحلمون بالخلاص من هذه الفواجع والمآسى التى كانوا يتقلبون على جمرها بين الأسر والتشريد . . !

لقد كانت الضربات القاسية المدمرة تنزل بهم متلاحقة متعاقبة ، كما يتعاقب الليل والنهار . . فما يكادون يخلصون من محنة حتى تستقبلهم أكثر من محنة ! ولهذا استبد بهم اليأس واستولى عليهم الجزع من توقعات الفواجع المباغتة وطلوع النوازل المهلكة.. فلم يكن لهم — والأمر كذلك — من أمل فى الخلاص إلا أن تتعلق آمالهم وأحلامهم برب الجنود « يهوه » !

وقد امتلأت أسفار التوراة بالرؤى والأحلام والتنبؤات التى تلقى إليهم من من وراء الغيب بحبال النجاة، على ألسنة المتنبئين وأصحاب الشطحات والترنحات ،فيمدون أيديهم إليها وهم يضطربون فى هذا البحر اللجّى المتلاطم الأمواج ، فلا يجدون إلا سرابا ، لا تمسك أيديهم بشىء منه ! !

وكانوا كلما تطاول بهم الزمن – وهم فيما هم فيه من بلاء وهوان – أفسحت لهم التنبؤات فى الآمال ، ووسعت لهم فى آفاق المستقبل المشرق السعيد ، فأرتهم الخلاص القريب ، وأطلت عليهم بوجه المخلص مقبلا بين عشية وضحاها !

ولهذا باتوا يحلمون أحلاما ملحة بأن عهد الشر هذا الذى خيم على ربوعهم قد آن له أن يزول ، وأن عهدا جديدا سيشرق عليهم بصبحه المشرق الوضىء ، وبهذا يقضى على عهد الشر والآلام ، إما بتدخل الله نفسه ، وإما بإرسال ابنه أو ممثله (المسيح) إلى الأرض ، أو لم ينبىء به إشعيا قبل ذلك العهد — أى عهد المسيح عيسى — بمائة عام ، إذ يقول : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا ، أبا أبديا ، رئيس السلام ؟ »

يقول « ول ديورانت » :

« وكان كثير من اليهود يتفقون مع « إشعياء » فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى ، يولد من بيت داود الملكى ، ومنهم من يسمونه باسم « ابن الإنسان » كأخنوخ ودانيال ، ويصورونه بأنه سينزل من السماء !

« أما الفيلسوف صاحب « سفر الأمثال » ، والشاعر صاحب « حكمة سليمان » فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون ، فتصوراه — أى المخلص — الحكمة مجسدة ، التى هى أول شىء « قناها » الرب ، وهى الكلمة أو العقل !!

« ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصارا سريعا ، ويتفقون جميعا على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر « إسرائيل » ويتخذ إسرائيل عاصمة له ويضم إليه الناس جميعا ، ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية ، ويسود بعد ذلك عصر طيب تسعد به الدنيا بأجمعها ، فتكون الأرض كلها خصبة وتحمل كل حبة قدر ما كانت تحمله ألف مرة ، ويصير الخمر موفورا ، ويزول الفقر ،

ويصبح الناس كلهم أصحاء متمسكين بالفضيلة ، وتسود العدالة والصداقة والسلام في الأرض !!» (١)

هـذا هو بعض جوانب الصورة التي يتصورها اليهود عن المسيح ، والتي عاشوا الأزمان الطويلة يحلمون بهـا . . فلما التقوا بالمسيح في شخص « عيسى ابن مريم» — كما قلنا — ولم يطلع عليهم بتأويل هذه الأحلام التي طال انتظارهم لها وتطلعهم إليها، أنكروا وجه المسيح وتنـكروا له وأبوا أن يفتحوا أعينهم على هذا « المسيح » الذي لم يقع على يديه تأويل أحلامهم على الوجه الذي يتصورون ، ويتوقعون .

من أجل هذا عجل اليهود بالقضاء على المسيح عيسى بن مريم وإجلائه من بينهم . لأنه ليس « المسيح » الذي ينتظرون ، ومازالوا إلى اليوم على انتظار لهذا المسيح . . وقد أشار المعري إلى هذا بقوله :

يا آل إسرال . . هل يرجى مسيحكمُ ؟
هيهـات . . قد ميز الأشياء من خلبا !
قلنـا أتـانا ولم يصلب ، وقولكمُ
ماجاء بعدُ ، وقالت أمة صُلِبـا

فإذا دخل القرآن في أمر « الصلب » فإنما يدخل فيه من هذه الجهة التي تطلع منها أحلام اليهود بالمسيح الذي ينتظرون الخلاص والحياة المستقرة الطيبة على يديه .

وقد جاء القرآن إلى اليهود بما لم يكونوا يحتسبون . . فكشف لهم عن هذا الضلال الذي عاشوا أزماناً متطاولة فيه ، ورفع لهم عن ستر الغيب ليروا أن «المسيح» الذي طال انتظارهم له وتعلقت آمالهم به هو « عيسى » بن مريم ! ! وألاّ مسيح

---

(١) قصة الحضارة ـ الجزء الثاني من المجلد الثالث ص ١٨٢

يُرجى لهم بعده ! وأنهم وقد فاتهم حظهم منه فقد أفلت من أيديهم الخير الذى توقعوه وانتظروه . .

هذه واحدة !

وأخرى .. هى أنهم ارتكبوا بجهالاتهم وحماقاتهم وغرورهم أبشع جريمة ، إذ قتلوا بأيديهم أملا عاشوا له ، وأضاعوا بأيديهم الشحيحة الممسكة خيرَهم المدخر لهم، وبددوا — مع بخلهم القاتل — ثروة طائلة لاتنفد على الإنفاق !

وثالثة . . هى أنهم . . وقد حملوا دم المسيح ، دنيا ، وديانة، لم يقتلوا المسيح ، ولم يصلبوه !

إنها حسرة ، وحسرة ، وحسرات ، تملاقلوب اليهود حزنا وكمدا ، حين يكشف لهم القرآن عن المسيح ، الذى حسبوا أنهم صلبوه !

هـذا ، ولم يعرض القرآن لهذا الأمر إلا عرضا فى سياق الزّراية على اليهود ، وفضح طواياهم وما اشتملت عليه نفوسهم من سوء !

وفى هذا يقول القرآن الكريم : « فبما نقضهم ميثاقَهم وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياءَ بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسولَ الله ، وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ، فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا » (١)

---

(١) النساء : ١٥٥ — ١٦٠

هذه هى المرة الوحيدة التى ذكر فيها القرآن حادثة الصلب ، وهو إنما يواجه بهذا ، اليهود ، لا أتباع المسيح الذين يؤمنون بالصلب ، ويقيمون معتقدهم الدينى عليه . .

وننظر فى هذه الآيات فنرى :

أولا : يقرن القرآن الكريم مقولة اليهود بأنهم قتلوا المسيح — يقرنها بعملين من أعمال اليهود ، بحيث تبدو هذه الفعلة — وإن لم تقع — ممكنة الوقوع منهم ، وذلك :

(١) أن لهم تاريخا أسود مع أنبياء الله ورسله ، يؤذونهم بألسنتهم وبأيديهم ، وربما بلغ بهم الشر إلى جريمة القتل . . « وقتلهم الأنبياءَ بغير حق » . . .

(٢) ثم إنهم مع المسيح خاصة ،قد اتصل أذاهم له ، وامتد عدوانهم عليه ، فتطاولوا على أمه البتول الطاهرة ، ورموها بالفاحشة . . « وقولهم على مريم بهتانا عظيما » .

فإذا ادعوْا أو ادعى عليهم أنهم قتلوا المسيح فتلك الدعوى أشبه بحالهم وأقرب إلى طبيعتهم . إنها على الطريق الذى ساروا فيه مع أنبيائهم ، وكم قتلوا من أنبياء وأبرياء !

ثانيا : يسجل القرآن على اليهود اعترافهم بألسنتهم بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . . فهذا الاعتراف منهم يقضى عليهم بتبعة هذه الجريمة المنكرة . ! وليس يدفع عنهم وزرها أن يكون الذى قتلوه شخصا آخر غير المسيح ، أو أن يكون المسيح قد دفع عن نفسه سلطان الموت ، فقام من بين الأموات . . ذلك أن الجريمة وقعت على شخص عيسى بن مريم ، حسب اعتقادهم وتقديرهم ، وأنهم لم يتركوه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، ولف فى الكفن وأودع القبر .

فإذا وقع بعد هذا ما ليس فى تقديرهم ، فكان المصلوب شخصا آخر غير عيسى ،

أو كان عيسى لم يمت كما يموت الناس ، فذلك مالا دخل له بحالٍ أبداً كعنصر من عناصر التخفيف لجناياتهم أو حمل وزرها عنهم !

ثالثا : أخذ القرآن شهادتهم على أنفسهم بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ـ أخذها من أفواههم ، وجعل ذلك اعترافاً منهم بالجريمة لايحتاج إلى استدعاء شهود غيره ، بعد أن وصفوا الشخص الذى قتلوه وصفاً كاشفا . . فهذه ثلاث صفات يصفون بها الشخص الذى قتلوه . . فهو :

— المسيح . .

— عيسى بن مريم . .

— رسول الله . .

وظاهر حالهم تنبىء عن أنهم ينكرون على عيسى بن مريم أنه المسيح وأنه رسول الله . . فهم إنما قتلوا حين قتلوا ذلك الشخص الذى يدعى « يسوع » والمعروف بعيسى بن مريم ! ولو عرفوا أنه « المسيح » لما قتلوه ، أو لو عرفوا أنه رسول الله لما صلبوه !

ولكن القرآن ينفذ إلى الصميم من أعماقهم ، ويضبط الشوارد من عقولهم ، وإذا حصيلة هذا هو أنهم يعرفون أن عيسى بن مريم رسول الله وأنه المسيح ، ومع هذا فإنهم قتلوه وصلبوه !

ذلك أنهم ـ كما قلنا ـ كانوا ينتظرون مسيحاً يحقق لهم تلك الرؤى وهذه الأحلام التى انتظروا تأويلها على يد المسيح الموعود ، والذى حدثهم عنه أنبياؤهم وتنبأوا لهم بقرب مجيئه وبالخلاص المنتظر على يديه !

وإذ طلع عليهم « يسوع » بأنه المسيح أنكروا أن يكون هو المسيح ثم لا يكون بين يديه هذا الخلاص الذى انتظروه . . فليكن « يسوع » مسيحا ، ولكنه ليس مسيحهم . وإلا فيا لخيبة الآمال ويالطول الشقاء . !

ثم إنهم لكى يقضوا على هذا الكابوس المزعج الذى جاء فطرد أحلامهم المسعدة ، كان لابد من أن يقتلوا هذا المسيح، وأن يعجلوا بقتله وأن يمثلوا به ، شفاء لما امتلأت به صدورهم من خيبة أمل وسوء مصير ، فكان أن صلبوا المسيح ،لا لأنه جدف على الله ، بل لأنه قضى على أحلامهم !!

« لما سمع يوحنا المعمدان وهو فى السجن بأعمال المسيح أرسل إليه اثنين من تلاميذه ليقولا له : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ » (متى ١١ : ٣)

أما يوحوحنا فقد أيقن أنه هو المسيح . . وأما اليهود فقد أنكروا أنه هو مسيحهم الموعودون به ، لأن مسيحهم كما خيل إليهم يفتح لهم خزائن الأرض ويقيمهم منها مقام المالك المطلق !

إنهم يستعجلون مجىء المسيح وها هو ذا يقول إنه قد جاء ولكنهم لايجدون عنده ما يتمنون ويشتهون . ولهذا كانوا معه على حال من الحيرة القاتلة والشك المؤرق !

« كان عيد فى أورشليم، وكان شتاء ، وكان يسوع يتمشى فى الهيكل ، فى رواق سليمان ، فاحتاط به اليهود ، وقالوا له : إلى متى تعلق أنفسنا ؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا ! . . أجابهم يسوع : إنى قلت لكم ، ولستم تؤمنون . . الأعمال التى أنا أعملها باسم أبى هى تشهد لى ، ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافى كما قلت لكم ، خرافى تسمع صوتى وأنا أعرفها فتتبعنى . (يوحنا ١ : ٢٢ — ٢٨)

مصيبة اليهود مع دعوات الحق التى يدعوهم رسل الله إليها أنهم لايفتحون لها قلوبهم ، ولا يتعاملون معها بعواطفهم ووجدانهم ، وإنما ينظرون إلى هذه الدعوات من جانب عملى واقعى، يقاس بمقياس المادة ، ويحسب بحسابها، ويوزن بميزان النقد المعجل المقبوض !

وليس بهذا القياس تقاس الأمور العقائدية ، ولا بهذا الحساب تحسب مسائل الإيمان . . !

ذلك أن الإيمان بمعناه الصحيح ، إنما يقوم على أشواق ومواجد ، تولدها العاطفة المنقدحة من الوجدان ! وبغير هذا لا يكون إيمان ، وإن كان فهو إيمان قائم على خواء ، لا يلبث حتى يضمر ويموت !

أن الإيمان استجابة لدعوة من دعوات الفن الرفيع الجميل . . فإذا لم يكن المدعو إلى الإيمان على حظ من سلامة الوجدان ، ورفاهة الحس ، لم تبلغ الدعوة موطن الإيمان منه ، ولم تمس شغاف قلبه ، وتسكن إلى جوانحه .

وهؤلاء هم اليهود ، قد شهدوا على أنفسهم بأنهم أصحاب طبيعة جفت منها موارد العاطفة ، فقالوا ما أخذه القرآن من أفواههم: « قلوبنا غلف » أي لا تتأثر كثيرا لهذه المعجزات ، ولا تهتز بتلك الآيات ، فكان رد الله عليهم وحكمه على قلوبهم: « بل طبع الله عليها » وكانت نتيجة هذا التبلد الغبي أنهم لا يخطون إلى الايمان إلا خطوات بطيئة متخاذلة . . « فلا يؤمنون إلا قليلا » أي إيمانا ضعيفا ، متردداً قائماً على شفا جرف هار ، من الريبة والشك !

ولهذا كان إيمانهم بالمسيح عيسى بن مريم إيمانا من هذا القبيل ، إيمانا متلبسا بالكفر ، ويقينا محوطا بالشك ! إيمانا قليلا !

وهكذا ظل حالهم معه ، حتى غلب الكفرُ إيمانَهم ، وقهر الشك يقينهم ، فجدّفوا عليه ، وحاكموه ، وأسلموه إلى الصلب !

إنهم كانوا يعرفون عن يسوع أنه المسيح ، وأنه رسول الله ، ولكن غلب عليهم طبعهم المشئوم ، فحجزهم عن الخير ، وقصر بهم عن السعي إليه ! ومازال بهم طبعهم

النكد حتى أراهم الصبح ليلا ، والحق باطلا ،فأنكروا المسيح على علم ، وجحدوه على معرفة . . « الذين آتيناهم الكتاب ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . » (١) هكذا شأن اليهود دائما مع آيات الله ، ومع رسل الله !

رابعا : كشف القرآن الكريم لليهود عن تلك الواقعة التى خيل إليهم أنهم طمسوا معالمها ، وعاشوا على زيفها ، واطمأنوا إلى باطلها . .

لقد خيل إليهم الوهم الذى أدخلوه على أنفسهم وألبسوه لباس الحقيقة فى تصورهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم .! ووقر فى أنفسهم أنه لو كان هو المسيح المنتظر لما استطاعوا أن يصلوا إليه ، لأنه سماوى لايخلص إليه أذى الناس ! أو أنه نبى لايقع تحت حكم اللعنة ، فيعلق على خشبة !

فجاءهم القرآن — وهم يعرفون أنه الحق — جاءهم ليوقظهم من هذه النومة التى نعموا بها ، وليزعجهم عن هذا الموطن الذى اطمأنوا إليه ،فى شأن المسيح. جاءهم ليعلن هذه الحقيقة المرة على أفواههم :

« وما قتلوه ، وما صلبوه » ! !

هكذا يعلنهم القرآن بهذا الحكم القاطع الجازم !

يعلنهم بهذا الحكم ، دون أن يقيم له حيثيات ، أو يأتى له بأدلة وبراهين !

وحسب القرآن أن يقول قولا ، وأن يحكم حكما ، فيقوم الوجود كله شاهدا له ، وبرهانا عليه . واليهود يعرفون القرآن أنه وحى سماوى لاشك فيه ، كما يقول القرآن عنهم: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »(١) وهذا الحكم

---

(١) البقرة : ١٤٦

ماقلنا — يقطع اليهود عن أحلامهم بالمسيح المنتظر، ويملأ قلوبهم حسرة وكمدا ، لأنهم تركوا الخير الذى كان بين أيديهم ، تعلقوا بأوهام وخيالات لاتقع أبدا . . وهذا بعض مايشير إليه القرآن فى قوله تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم (١) » . فقد ظلموا أنفسهم وخسروا خسرانا مبينا ، بتطاولهم على المسيح ، وبتكذيبهم له ، فكان أن حرمهم الله هذا الخير الطيب الذى مد إليهم من يد كريمة طاهرة ، وكان أن أصبح هـذا الخير محرماً عليهم إلى الأبد ، لاينالون منه شيئا !

ولكن شبه لهم

وهنا نقف أمام حقيقه تاريخية لاسبيل إلى إنكارها ، وهى أن هناك شخصا صلب تحت اسم « يسوع » بن مريم . .

فمن هو ذلك الشخص ؟

اليهود على زعم أنه هو « يسوع » بن مريم ، الذى كان يدّعى أنه المسيح ابن الله . وأتبـاع المسيح على اعتقاد أنه هو « يسوع » المسيح ابن الله . . . أو هو المسيح « الله » !

والقرآن يقول إن المسيح عيسى بن مريم هذا لم يقتل ولم يصلب !

وإذ يقول القرآن هذا القول ، فهو إنما يقول الحق الذى لالبس فيه ، ويبقى بعد ذلك أن تقوم الأدلة على نقض هـذا القول . . ونقض هذا القول بالبرهان القاطع حكم على القرآن كله بالبطلان ، وأنه ليس من عند الله ، وإنما هو من قول بشر يجىء بالصدق وبالكذب ، وينطق بالحق وبالباطل !

---

(١) النساء : ١٦٠

والقرآن وإن يكن قد واجه اليهود بهذا الحكم ، فإنه قد ألزم به أتباع المسيح وأدخلهم ضمنا فيه . .

وقد كشفنا من قبل عن العلة التى من أجلها لم يواجه القرآن أصحاب المسيح ، بهذا الحكم الذى هو أصل معتقدهم الدينى ، وقلنا إن صلب المسيح فى ذاته ، لا يقدم ولا يؤخر فى موضوع العقيدة ، متى عرفت حقيقة المسيح : أهو إنسان من الناس وعبد من عباد الله ، أم هو الله أو ابن الله ؟.. وهذا هو ما التفت القرآن إليه ، واهتم له ، وفصل فيه .. من أمر المسيح عيسى بن مريم .

ونعود إلى حديثنا عن شخص المصلوب . . ومن هو ؟

شخص مصلوب . . هذا ما لاشك فيه بشهادة الأخبار التاريخية المتواترة ، وبشهادة القرآن نفسه ، إذ يقول « ولكن شبه لهم » أى خيل إليهم أو خيلوا هم لأنفسهم أن المقتول المصلوب هو « المسيح » !

والأناجيل هى المصدر التاريخى الذى سجل حياة المسيح ، ورصد الأحداث التى وقعت له ، ومنها حادثة الصلب ، التى كانت أبرز تلك الأحداث وأهمها !

وقد رأينا كيف اختلفت الأناجيل فى رسم صورة الحادثة اختلافا يقيم كثيرا من الشكوك والشبه حول شخصية « المصلوب » بحيث لايرى المتأمل فى الصورة أنه على يقين من أن المصلوب هو المسيح بعينه !

وشواهد هذا كثيرة، أشرنا إلى بعضها ، ولا نرى بأسا فى أن نجملها ، وأن نشير إلى بعضها الآخر هنا .

فأولا — الأناجيل الثلاثة — مرقس ومتى ولوقا — تحدث بأن السيد المسيح وقد جاهره اليهود بالشر وتوعدوه بالقتل، فزع إلى الله يناجيه ويبثه ما به ، وقد أعلن تلاميذه أنه قد لايلقاهم . . ! وفى هذا تقول الأناجيل : « وفيما هو يصلى على انفراد

كان التلاميذ معه ، فسألهم قائلا : من تقول الجموع أنى أنا ؟ فأجابوا وقالوا : يوحنا المعمدان ! قال لهم . وأنتم من تقولون أنى أنا ؟ فأجاب بطرس وقال : مسيح الله ! « فانتهرهم وأوصى ألا يقولوا ذلك لأحد !! إنه ينبغى أن ابن الإنسان يتألم كثيرا ويرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة وفى اليوم الثالث يقوم ! »

« وقال للجميع : إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى . . . .

« وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلى ، وفيما هو يصلى صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضا لامعا ، وإذا رجلان يتكلمان معه ، وهما موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد ، وتكلما عن خروجه الذى كان عتيدا أن يكمله فى أورشليم ، وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تثقلوا بالنوم ، فلما استيقظوا رأوا مجده والرجلين الواقفين معه ، وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع : يامعلم جيد أن نكون هنا فلنصنع ثلاث مظال ، لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة ، وهو لايعلم مايقول وفيما هو يقول ذلك كانت سحابة فظللتهم فخافوا عندما دخلوا فى السحابة وصار صوت من السحابة قائلا : هذا هو ابنى الحبيب له اسمعوا .

« ولما كان الصوت وُجد يسوع وحده . » (لوقا ٩ : ١٨ — ٣٧)

ونجد فى هذا الخبر أمورا تستلفت النظر :

فمنها ، أن شعورا كان متسلطا على اليهود يومذاك بأن القديسين والأنبياء يمكن أن يقوموا من الأموات ، وأن يصلوا من حياتهم ما انقطع بسبب الموت .. ولهذا كان معتقد كثير من اليهود أن المسيح هو يوحنا المعمدان قام من الأموات!

ومنها أيضا،أن بطرس حين قال للمسيح : أنت مسيح الله ، انتهره ، وأوصى .

تلاميذه ألا يقولوا ذلك لأحد . . وعلل لذلك بأن ابن الإنسان ـ أى المسيح ـ ينبغى أن يتألم كثيرا ، وأن يرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، وفى اليوم الثالث يقوم .

ولا ندرى ـ إذا كان المسيح هو المسيح ـ لماذا ينكر نفسه ؟ ولماذا لا يلقى الناس على الصفة التى جاء بها ؟ إن ذلك هو أول ماينبغى أن يتحدث به إلى الناس، حتى يعرفوا شخص من يتعاملون معه ، والصفة التى له ، وإلا تقطعت بينه وبينهم الأسباب ، وكانت دواعى التناكر والتنابذ أشد وأقوى من دواعى التعارف والتآلف!

فكيف ينكر المسيح صفته ؟ وكيف للناس أن يعرفوه ، وهو يأبى إلا أن يستر حاله عنهم ، ويقيم بينهم وبينه حجبا وأستارا ، ويكلمهم من وراء حجاب ؟ فبأى وجه يلقاهم ؟ ومن هو ؟ وماصفته التى يخاطبهم بها ؟

ندع هذا .

وننظر فيما يتكشف من هذا الخبر من ملابسات ، تتصل بشخصية المسيح قبل حادثة الصلب . .

فها نحن أولاء نرى السيد المسيح يكشف لتلاميذه عن شخصيته ، وأنه المسيح، مسيح الله . . ! ولكن — فى الوقت نفسه — يحذرهم من أن يحدّثوا بأنه المسيح.

ونراه أيضا يدعوهم إلى التمسك برسالته واحتمال الأذى فى سبيلها .. فهو مزمع أن يرحل ، ومن أراد أن يلحق به فى الملكوت الأعلى . . فلينكر نفسه ! وليحمل صليبه كل يوم !

ثم نرى السيد المسيح كذلك وقد انفرد بثلاثة من خاصة تلاميذه بطرس ، ويوحنا ويعقوب . . وصعد بهم إلى جبل ، ثم أخذ يصلى ! إنه هنا على موعد مع ربه . . ولقد تغيرت هيئته وصار لباسه مبيضا لامعا ، وظهر له موسى ، وإيليا ،

وأخذت تلاميذه سِنَـة من النوم ، فلما استيقظوا رأوا هذا المشهد العجيب الرائع . . ثم رأوا المسيح وصاحبيه قد أظلتهم سحابة ، وصار صوت من السحابة يقول: « هذا هو ابنى الحبيب له اسمعوا . » .

ثم تعقـّب الأناجيل على هذا الخبر بقولها: «ولما كان الصوت وجد يسوع وحده»!

ونقول : ألا يحق لنا أن نفترض — مجرد افتراض — أن المسيح قد صعد مع صاحبيه، موسى وإيليا ؟ ثم ألا يقوّى هذا الافتراض أن يقوم إلى جانبه زعم آخر، وهو أن موسى وإيليا إنما ظهرا ليسوع فى هذا الوقت الذى قطع فيه الشوط إلى آخره من رسالته ، ليصحباه وليؤنساه فى طريقه إلى العالم العلوى ! ؟

ويعترضنا هنا قول الأناجيل « ولمـا كان الصوت وجد المسيح وحده » !

ونقول إنه كان لابد أن يوجد المسيح أو أن يُحتفظ له بهذا الوجود ! . . إنه لابد أن يُملأ هذا الفراغ بأية صورة ! ! وإلا فـكيف يكون موقف هؤلاء التلاميذ الثلاثة الذى صحبوه ، إذا هم عادوا بغيره ؟ ثم كيف يـكون موقف تلاميذه وأتباعه إذا رآهم الناس ولم يروا المسيح معهم ؟ أيقولون مثلا : إن المسيح قد رفع إلى السماء ! فمن يشهد لهم بهذا ؟ ومن يقبل هذا القول منهم ؟

لقد أنـكر اليهود على المسيح أنه المسيح وأنـكروا عليه أنه رسول من عند الله . وها هم أولاء يتوعدونه ويعدون العدة للإيقاع به ، والقضاء عليه ، ثم ها هو ذا يختفى من الميدان . . أفيقبل بعد هذا من أحد أن يقول إن المسيح قد رفع إلى السماء ؟ إن هذا القول لأشد نـكرا عند اليهود من كل ماتحدث به المسيح إليهم ، وكان داعية لثورتهم عليه ، وتربصهم به !

لابد إذن أن يظل المسيح قائما فى الميدان !

وأين المسيح ؟ بل أين من يأخذ مكان المسيح ! ؟

تلك هى المشكلة !

ولاسبيل إلى حل هذه المشكلة إلا إذا تخففنا كثيرا من منطق العقل — خاصة وأن القضية كلها خارجة عن سلطان العقل — وإلا إذا سمحنا للخيـال القصصى أو الأسطورى أن يقوم بدوره هنا لحل هذه المشكلة !

عندئذ يتغير وجه الصورة التى تمثلت لنا فى حادثة الصلب ، كما ترويها الأناجيل . فنرى ـ مثلا ـ يهوذا الأسخريوطى، وهو أحد الحواريين الاثنى عشر الذين اختارهم المسيح ورباهم على يديه ، نراه وقد أسرع إلى اليهود الذين كانوا يتربصون بالمسيح ، فيدخل عليهم الهيكل ويهتف بهم أن الفرصة قد سنحت لهم ليـأخذوا المسيح ويفعلوا به مايشاءون . . وكان ذلك على علم من أصحـابه الذين بعثوا به ليتم مادبروه . وكان تدبير التلاميذ قد سبق هذا العمل ، فتخيروا واحداً من أتباع المسيح فيه بعض مشابه منه ، ليـكون هو البديل عن المسيح ، ويتقبل المصير الذى كان اليهود مزمعين أن يصيروا بالمسيح إليه ! .

وكان من التدبير أيضاً أن تخير «يهوذا» الوقت الذى يُقبض فيه على « المسيح» المدّعى ، وهو الليل، كما كان من التدبير أيضاً أن يكون المكان بستانا، لا بيتا ولا خلاء! وفى الزمان والمكان المختارين تختلط أشباح الناس ، بالأشجار والأغصان التى تتراقص وتضطرب فى ضوء الشموع والمشاعل والمصابيح التى يحملها القوم معهم ليروا طريقهم فى هذا الليل البهيم !

وقد كان! فجاء القوم، وخرج إليهم « المسيح » البديل ،يسألهم : من تطابون ؟ فيقولون : يسوع ! فيقول : ها أنذا ! .

إنهم كانوا بلاشك يعرفون شخص المسيح الذى تعلقت الأنظار به فى أكثر من موقف من مواقفه الرائعـة المذهلة . . ولـكنهم فى هذا الظلام أو فى هذا النور المظلم لم يـكن فى مقدورهم أن يتبينوا شخوص الناس ، وأن يتحققوا من ذواتهم . .

ولهذا كان سؤال ، وكان جواب ! وقد وضع القوم يدهم على هذا الذى دعاهم إليه وقال : إنه يسوع !

ثم إنهم ما كانوا يضعون أيديهم عليه حتى تتعاوره الأيدى والأرجل صفعاً وركلا ، وحتى لتتغير لذلك هيأته ، وتكاد تذهب كل معالم شخصيته !

وفى صورة هذا المسيح « البديل » نستطيع أن نفسر كثيراً من تلك المواقف الغامضة التى كانت تبدو متأبية على كل تفسير وتأويل !

فهذا يهوذا الأسخريوطى الذى بدا لنا من قبل خائنا ساقط المروءة ، يبيع أستاذه ومعلمه بدراهم معدودة ، وهو الذى كان إلى يده بيت مال المسيح وأتباعه !. هاهو ذا يبدو لنا هنا حواريا قائماً على العهد الذى بينه وبين المسيح ، محتفظا بمكانه بين الاثنى عشر حواريا، الذين يقول المسيح عنهم، مخاطبا ربه — كما تروى الأناجيل — « إن الذى أعطيتنى لم أفقد منهم أحداً » ! !

ثم هاهو ذا بطرس الذى تبع «المسيح» وأنكره ثلاث مرات ، ثم لم يكتف بهذا ، بل سبه ولعنه ، وهو فى هذا الموقف أسوأ حالا من يهوذا — نراه هنا لم يكذب حين أنكر معرفته بهذا الرجل الذى يقال عنه إنه المسيح، كما أنه لم يأت كبيرة حين سب ولعن ! لأنه لم يسب المسيح ولم يلعنه ، وإنما أنكر البديل وسبه ولعنه ! ثم هذا الذى كنا نستغربه وندهش له من صمت المسيح ومن عيّه عن رد الجواب .. أمام رئيس الكهنة قيافا .. وإمام الوالى بيلاطس .. ثم هذا العجز الظاهر وهذه الشخصية الباهتة التى رآها فيه « هيرودس » .. ثم هذا الجزع وهذا الضعف وهذا الصراخ اليائس ، الذى كنا نسمعه من المصلوب ، وندهش له .. كل هذا يبدو مقبولا يقوم على مألوف الحياة وعلى مستوى الطبيعة البشرية ، على حين كان ذلك كله يبدو غريبا ممعناً فى الغرابة أن يصدر من مسيح الله ، أو من أحد حوارييه وتلاميذه الذين وطنوا أنفسهم على الموت فى سبيل الله !

فهل رأيت إلى هذا الفرض الذى افترضناه ، وكيف حل كثيراً من المشكلات ، وقضى على كثير من المتناقضات التى كانت تصادفنا فى قصة صلب المسيح ؟ لقد استقرت أجزاء هـذه الصورة ، وثبتت ملامحها ، بعد أن كانت تبدو مهزوزة مضطربة تجمع المتناقضات !. ثم ألا ترى أن قبول هذا الفرض أولى من الأخذ بتلك الأخبار المتواترة عن صلب المسيح ، واعتبار أن المسيح نفسه هو الذى صلب ؟

ألا يعفينا هـذا الفرض من كثير من المشكلات التى واجهها العقل ، واضطرب فيها حين وجد نفسه بين يدى « الله » أو ابن الله مصلوبا معلقا على خشبة ؟

فإذا جاء بعد هذا شاهد يشهد بأن المسيح لم يصلب ، ولم يقتل .. أفلا يلفتنا هذا الشاهد إليه ، وإلى كل كلمة يقولها فى هذه القضية ؟ ثم ألا تقوى هذه الشهادة من الفرض الذى افترضناه ، وتـدنيه من الواقع ، وتدفع به إليه ؟

فـكيف إذا كان هذا الشاهد منزها عن الـكذب ، لا يشهد إلا بالحق ، ولا يقول غير الحق ؟ ثم كيف إذا كان هذا الشاهد هو القرآن الـكريم ، والقول هو قول رب العالمين ؟. وكيف إذا قال هذا الشاهد فى صلب المسيح : « وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولـكن شبه لهم » ؟

إنه الحـكم الفصل فى هذه القضية ولن ينقض بحال أبدا !

فالمسيح لم يصلب .. أى لم يعلق على خشبة الصليب . ولم يكن هو الذى مُثّـل به هذا التمثيل ، قبيل الصلب ، وساعة الصلب !

يقول إميل درمنغم :

« ومن عقـائد الإسلام أن اليهود لم يصلبوا المسيح ، لمـا فى الصلب من معنى

بالخزى والإهانة ، ولكن شبه لهم — أى لليهود — وأن شبحا أو رجلا آخر صلب خطأ (١) بدلا من المسيح الذى رفعه الله إليه !

ثم يعلق على هذا بقوله : « فبهذا الاعتقاد ، الذى يستغرب به العقل والتاريخ ، والذى ينقض أجمل قصة فى العالم — تكون النصرانية قد قامت على أساس خاطىء ويكون الله قد سمح بقيام دين على خطأ أراده ! (٢)

وفى هذا القول مغالطات كثيرة منها :

أولا : الاعتقاد فى عدم صلب المسيح ـ الذى هو عقيدة المسلمين ـ ليس هو الذى يستغرب به العقل والتاريخ . . بل العكس هو الصحيح . . فإن العقل لا يقبل بأى منطق أن يجعل الله نفسه أو أن يجعل ابنه ـ الذى هو « الله » فى حقيقته — ذبيحةً تفتدِى البشر وتغسل خطاياهم بدمها !. وإن العقل لا يقبل أن يمثل الله هذا الدور الذى يتقبل فيه الصفعات واللطمات من يدى خلقه وصنعة يديه ، ثم يتحول بين أيديهم إلى جثة هامدة ، يلفونها فى الأكفان ويحملونها إلى القبر ، ويهيلون عليها التراب ، ثم يعود فيلقاهم وقد لبس الحياة من جديد !

لا يمكن أن يقبل العقل أى وضع من هذه الأوضاع فى جانب الله ، أو ابن الله إلا فى مجال الأساطير وفى آلهتها وأربابها !

والحال التى يقبل فيها العقل هذه القصة ، هى أن يكون المسيح إنسانا من الناس ورسولا من رسل الله ، وأن يكون قد أكره إكراهاً على هذا المصير ، لا أن يكون

---

(١) فى الفرض الذى افترضناه أن هذا الشخص المصلوب صلب عمدا بتدبير من بعض أتباع المسيح !

(٢) حياة محمد لأميل درمنغم ، ترجمة عادل زعيتر ص ١٣٥

هو الذى اختاره لنفسه وعمل فى سبيل الوصول إليه . . وإلا كان انتحارا لا استشهادا ، وكان ظالما لنفسه ، يقتص الله لنفسه منه ، لا مظلوما ينتقم الله له من ظالميه ! .

أما أن هذه العقيدة — عقيدة أن المسيح لم يصلب — مما استغرب به التاريخ ، فقد رأينا كيف كان حديث الأناجيل عن قصة الصلب ، وكيف أن هذا الحديث لم يستقم على وجه أبدا . . وقد رأينا ذلك من قبل ، ويكفى أن نعرض على سبيل المثال حادثة صغيرة مما ترويها الأناجيل فى هذه القصة ! .

فلقد تحدثت الأناجيل عن أن أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر ـ وهو يوحنا صاحب الإنجيل المعروف ـ قد أبى أن يصدق أن المسيح قام من بين الأموات، وأنه يأخذ بشهادة الشهود من الرسل الحواريين ، بل وبشهادة عينيه اللتين رأتا المسيح ، وأذنيه اللتين سمعتا صوته ، وقال إنه لا يصدق أن هذا الشخص الذى يراه ويتحدث إليه باسم المسيح أنه المسيح إلا إذا وضع إصبعه فى موضع المسامير التى دقت بها يداه على خشبة الصليب !.

وتُحدّث الأناجيل أن المسيح قد دعاه إليه وأدناه منه ،وأخذ بأصبعه فوضعه على موضع المسامير من يديه ، وعندئذ آمن هذا الرسول الحوارى بأنه هو المسيح !

هذه واقعة روتها الأناجيل ، وهى فيا تروى إنما تستملى من الوحى .

ولكن لنا عقول تأبى أن تسلم إلا بما يُعقل ، وأنه إذا جاز لرسول من رسل الله أن يشك فيما تحدثه به عيناه وأذناه وأن يعطى عقله الحق فى أن يطلب الدليل الذى يطمئن إليه ، فنحن ـ ولسنا رسلا ـ أولى بأن نعطى عقولنا الحق فى أن تطلب مزيداً من النور الذى يكشف لها معالم الطريق إلى الغاية التى تُدعى إليها !

ولعقولنا أن تسأل هنا : ترى لو كان المسيح قد مات ميتة يوحنا المعمدان ، بأن

قطعت رأسه ، وفصلت عن جسده . . أكان هذا الحوارى لايؤمن بقيامة المسيح إلا إذا رأى الجسد فى جانب ورأسه فى الجانب الآخر ؟ ثم لعقولنا أن تسأل أيضاً : أيبعث الناس على الصورة التى ماتوا عليها ؟ وهل إذا مزقت أشلاء إنسان بقذيفة مدفع أو بمخالب أسد ، هل يبعث وفيه تلك الجراحات وهذه الأجزاء المتناثرة من جسده ؟ وكيف يقوم المسيح من الموت وفى جسده طعنة الحربة وثقوب المسامير ؟ وهل التأمت تلك الجروح أم مازالت تنزف دماء ؟

فهل الاعتقاد فى صلب المسيح ـ وهذه صوره وتلك وقائعه ـ هو الذى يستغربه العقل والتاريخ ، أم عدم الاعتقاد فى صلبه ؟ ماذا يقول العقل وماذا يقول التاريخ فى هذا وفى وذاك ؟

ثانيا : أما القول بأن الاعتقاد فى أن المسيح لم يصلب ينقض أجمل قصة فى العالم، فهذا مسلّم به ، لأن قصة صلب المسيح. وما بنى عليها من تصورات تمثل أجمل وأروع قصة.

ولكن القصص شىء ، والمعتقد الدينى شىء آخر !

ولو كان القصص يصلح كمعتقد دينى لكانت إلياذة « هوميروس » أجمل وأروع من قصة الصلب !

المعتقد الدينى بناء فنى رائع ، يستمد وجوده كله من الحق الذى لاشبهة من باطل معه .

والقصص الفنى الرائع بناء من الخيال ، لحمته الأوهام وسداه الأباطيل ! !

ثالثا : وأما القول بأن الاعتقاد فى أن المسيح لم يصلب يكون معناه أن النصرانية قد قامت على أساس خاطىء ، ويكون الله قد سمح بقيام دين على خطأ أراده .. فهذا قول مردود من وجوه :

١ — للمسيحية مجالات واسعة يمكن أن تتحرك فيها خارج دائرة الصلب . .

ففى تعاليم المسيح الكريمة الرفيعة منهج متكامل من التربية العالية للمجتمع الإنسانى.

ولو أن المسيحية لم تُشغل بقضيه الصلب وأعطت وجودها كله لكلمات المسيح وتعاليمه التى جاءت الأناجيل بكثير منها ، لكان لها دور خطيرفى هداية الإنسانية ،وفى تغيير خط سيرها المنحرف الذى ساقها إلى متاهات الغواية والضلال ، ولتخففت الإنسانية كثيراً من أثقال المادية . وكَلَبها ، ولكان للناس أن يبيتوا علىغيرمايبيتون عليه اليوم من هموم ومخاوف وآلام .

إن المسيحية فى صميمها،أمن وسلام ، وحب وإخاء ، ومودة ورحمة ، ومنبعذلك كله إنما يفيض من دعوة المسيح الإنسانية النبيلة التى تدعو أتباعه إلى التخفف من الدنيا ، والتعالى على ماديات الحياة ، الأمر الذى إن لم يستقم الناس عليه ، فلن يقوم بينهم إخاء ، ولن تطلع فيهم شمس الأمن والسلام !.

فهل فى العالم المسيحى اليوم إلا الخوف والحرب والكراهية والشره والشر والعدوان؟وإنه ماجاء المسيح وماقامت دعوته إلا ليطفىء هذا الشرّ الذى كان يكمن فى صدور الجماعة اليهودية ، وإلا ليغسل هذه الحقود السوداء التى يحملها اليهود للناس، وإلا ليقتل هذا الحيوان الشره الذى يتحرك فى صدورهم لامتصاص دم البشر ! !

ولوأن دعوة المسيح خالطت اليهود ووقعت فى نفوسهم الموقع الذى أرادته منهم لسكنَ كل شر خطير فى هذا العالم ، ولنامت كل فتنة مستطيرة تعبث بمقدراته ، ولما قامت هذه الحروب المدمرة التى تؤذن العالم كله بالفناء !

ولكن كان ماقدر الله !

فأغلق اليهود قلوبهم عن هذه الدعوة الكريمة ،وأبت نفوسهم أن تتقبل هذا الدواء الذى يذهب بعللها وأسقامها ؛ فمضى هذا القطيع المعربد بهذه الأدواء الخبيثة

التى تملأ كيانه ؛ ثم أبى إلا أن يملأ بها وجوه الأرض ، وأن يحمل جراثيمها إلى كل بقعة ، وإذا اليهود فى كل مجتمع ، وبين كل جماعة وفى مجرى حياة كل شعب . . وإذا الداء الذى بهم هو داء الإنسانية كلها ، وإذا الشر الذى فيهم قائم متمكن فى كل مجتمع .. وما انتشار اليهود فى بقاع الأرض إلا وباء منتشر ، وإلا عقوبة حلت بالإنسانية ، وإلا لعنة قائمة فى الناس ، مادام اليهود فى دنيا الناس ! !

فحاجة الإنسانية إلى تعاليم المسيح أكثر من حاجتها إلى صلبه، إن كان لها فى صلبه حاجة !

وإذا كان صلب المسيح يغفر خطايا الإنسانية ويضمن لها قيامة من الأموات . ـ كما يقول بذلك القائلون ـ فإن تعاليمه هى التى تقيم وجودها فى هذه الحياة ! وتحفظ عليها أمنها وطمأنينتها ، وتغرس فيها مغارس الحب والرحمة والمودة !

إن دعوة المسيح مطلوبة أولا للمجتمع البشرى فى تثبيت خطوه على الطريق القويم فى هذه الدنيا ، وفى إشاعة العواطف الإنسانية الكريمة فى هذه الأسرة الكبيرة . ثم ليكن بعد ذلك ما للدعوة من ثمرات إذا التقت هذه الدعوة بالناس فى عالم وراء هذا العالم .. فى عالم الأموات !

ب : ومن جهة أخرى فإنه ليس لأية دعوة سماوية أوغير سماوية أن تحول بين الناس وبين أن يؤلوها تأويلا فاسداً ، وان يغيروا وجهها ويقلبوا حقائقها .. ثم لا يكون شىء من هذا بالذى يؤثر على الدعوة فى ذاتها .

والدعوة الإسلامية نفسها قد ذهب بها كثير من المبتدعين والمضللين مذاهب شتى، وكادوا يغلبون على أهلها، ويقيمون منها شريعة غير شريعة الله ،ودينا غير دين الله. لولا أن أخزى الله هذه الجماعات وأبطل كيدها، فكثير من فرق الشيعة الغلاة والخوارج وجماعة إخوان الصفا التى انتسبت إلى الإسلام قد عبثت بمفاهيم الإسلام وجعلت من كلام الله المبين ألغازا وطلاسم تستخرج منها ما تشاء من كفر وضلال وتستولد منها ما تهوى من مواليد الباطل والزور .

فليس إذن حجة على الله ولا على أية رسالة من رسالاته أن ينحرف الناس عن سواء السبيل بما يحمل إليهم رسل الله من رسالات، وما يدعونهم إليه من دعوات! «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»!

ثم يمضى صاحب كتاب «حياة محمد» فيعلق على حجة المسلمين فى اعتقادهم بأن المسيح لم يصلب .. فيقول:

«والمسلمون فى هذا ـ الاعتقاد أى الاعتقاد بعدم صلب المسيح استندوا إلى آى القرآن الغامضة التى تقول: «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما».

ثم يقول شارحا الآية الكريمة:

«المعنى الذى يفهم من هذا النص يؤكد أمر البعث ـ بعث المسيح ـ أكثر مما يدل على الموت، لإكثار القرآن من استعمال «الرفع» بمعنى الموت، كما جاء فى سورة آل عمران: «إذ قال الله ياعيسى بن مريم إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا» (١) من أن الله أبطل مكايد اليهود ومكرهم، وأن المسيح خرج من أيديهم ظافرا غير هالك.

«ومثل هذا ما قالته النصرانية التى ذهبت إلى أن اليهود اعتقدوا أنهم أهلكوا المسيح، وأن المسيح لم يلبث أن بعث بعد موته . .

«وأن أعداءه أتموا عن غير قصد ما أراد الله تمامه من المقاصد الرفيعة، مع ظنهم أنهم قضوا على عمله وأنهم حققوا ما فيه خلاص العالم من حيث أرادوا السوء! (٢)

---

(١) سورة آل عمران: ٤٨.

(٢) حياة محمد ص ١٢٦

ولازال السيد المؤلف يمد فى حبل المغالطات إلى مالانهاية له ! فهو : أولا: قد أوّل الآية القرآنية الكريمة تأويلا يجرى مع هواه .. إذ جعلها دليلا على قيامة المسيح أكثر من دلالتها على موته ، والآية إنما جاءت لتقرير هذه الحقيقة ، وهى أن المسيح لم يصلب ولم يقتل .. فكيف يكون ماجاء فيها فى قوله تعالى : « بل رفعه الله إليه » دليلا على قيامة المسيح من الأموات بعد أن قرر أنه لم يمت ! وهل لا يكون رفع إلا بعد القتل والصلب ! أليس أولى من ذلك وأقرب إلى منطق اللغة أنه رفع حيا ! وأن هـذا الرفع رفع معنوى لمقـامه ودرجته عند الله ! ثم لِمَ لم يكن هذا الرفع قد حدث حين التقى بموسى وإيليا كما تحدث بذلك الأناجيل ؟ ثم هو (ثانيا) : يقول « إن الله بموت المسيح قد أبطل مكايد اليهود ومكرهم وأن المسيح قد خرج من أيديهم ظافرا غير هالك !! وهذا مالا يمكن أن يكون أبدا ، إذ كانت حقيقة الأمر هى أن « المسيح قد قتل فعلا ! فإذا كان المصلوب المقتول هو المسيح عيسى ابن مريم فإن كيد اليهود لم يبطل وإن المسيح لم يخرج ظافرا .. فهذه الدنيا كلها تشهد أن المقتول المصلوب قد مات اشنع ميتة ، وقد نال اليهود بغيتهم فيه وشفوا مابصدورهم منه ! ويكون القول بأن الذى صلب ومات هو المسيح قولا يحقق لليهود ماتمنوا فى يسوع المسيح ، لا أن الله بصلبه قد أبطل مكايد اليهود ، كما يقول المؤلف .

أما إذا كان المصلوب المقتول شخصا آخر غير المسيح ، وأما إذا عرف اليهود ذلك ، وظهرت لهم هذه الحقيقة واستبانت لهم بعد أن تخضبت أيديهم بدم غيره ، على حين حسبوا أنه المسيح ـ فذلك هو الذى يكبتهم ويؤرق ليلهم ! ويمكن أن يقال فيه إن الله أبطل به كيدهم !

وقد يكون للقول بأن المسيح خرج ظافرا غير هالك مايعطى الآثار التى يرتبها المؤلف عليه من إبطال كيد اليهود ومكرهم — لو أن قيامة المسيح من الأموات أخذت

مكانها من جديد فى الحياة ، فجاء المسيح بعد قيامته ودخل على الكهنة فى هيكلهم، وحاجهم بما كان يحاجهم به من قبل، ثم سار فى طريقه بين تلاميذه وأتباعه يدعو بدعوته ، ويبشر بها . . هنا كان الخزى والحسرة ، وكان الندم الذى لا يعقب إلا البلاء والنقمة ، تحيط باليهود وتأخذ منهم بالنواصى والأقدام !

ولكن هذه القيامة — التى يقال عنها — لم تكن — إن كانت — إلا لحظات عابرة مرت بخواطر أتباعه أو وقعت فى وهمهم أو استعلنت فى أحلامهم ، وهؤلاء وهؤلاء نفر لا يجاوزون أصابع اليدين عدًّا ، وكلهم من أتباع المسيح وتلاميذه ، وليس بينهم واحد من الذين حاكموه ، أو صلبوه .

ثم يعرض المؤلف بعد هذا لبعض آراء المفسرين لقوله تعالى : « ولكن شبه لهم » فيقول :

«إن قول القرآن (ولكن شبه) لهم قد فسر بصلب رجل مشابه للمسيح بدلا من المسيح ، وهذا ما يجعلنا نفكر فى نصوص من العهد الجديد ومن القديس بولس (فى حَمَل الله) الذى كفر به خطايا العالم ، فى آدم الجديد ، الذى حل محل آدم القديم ، فأنقذ البشرية ، بأن ضحى به ، وفى أن نصوص القرآن الحالية (١) (!!) هى ما جاء فى مصاحف عثمان والحجاج اللذين أتلفا غيرها من المصاحف ، وفى خلو المصاحف القديمة من الشكل والحركات وإمكان تلاوتها على أوجه مختلفة — نسأل :

« أفتكفى تلك الآية المستغربة (ماقتلوه ، وماصلبوه ، ولكن شبه لهم) التى يعارضها فى سورة آل عمران (إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا» (آل عمران:٥٥) وفى سورة المائدة (وكنت عليهم شهيدا...«المائدة: ١٧٧) وسورة مريم : « وسلام على يوم ولدت ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا « (مريم : ٣٣)»

---

(١) ليس فى القرآن نصوص حالية وغير حالية .. وإنما هو نص واحد نزل من السماء فوعته الصدور وحملته الصحف !

من أن المسيح مات ، وبُعث ورفع من غير أن تقول هـذه الآيات إن ذلك الموت والرفع لم يقعا بعد ، وإن ذلك يكون آخر الزمن ، أفتكفي تلك الآية المستغربة لتقيم بين الإسلام والنصرانية حاجزاً يتعذر اقتحامه ، مع اتفاقهما فيما عدا ذلك اتفاقاً وثيقا .؟»

والذي يريد المؤلف أن يقوله هو أن هذه الآية : « وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم » التي هي نص صريح في أن المسيح لم يصلب ولم يقتل ، تعارضها آيات أخرى من القرآن ، تقول إن المسيح مات وبعث ورفع . هذا إلى أن قرآنا آخر قد كان غير هذا القرآن الحالي (يقول المؤلف) وقد تكون هذه الآية واردة على القرآن من وضع الواضعين ، أو أنها قرئت قراءة خاطئة أول الأمر ، حيث لم يكن ضبط ولا نقط ، ثم استقرت هذه القراءة الخاطئة !!

وإذا كان حرص « المؤلف » على التقريب بين المسيحية والإسلام بإيجاد فهم مشترك لقضية الصلب التي هي الحجاز القائم بينهم ، والذي لو زال لالتقوا على وفاق ـ نقول إذا كان المؤلف حريصاً على هذا ، فإننا نحن أشد حرصاً على هـذا التقارب بيننا وبين إخواننا المسيحيين ، ولكن ذلك لايكون على حساب الحق ، ولا بتأويل آيات القرآن الكريم تأويلا ملتويا فاسدا ، ولا بالافتراء على الواقع ، وتزييف ماشهد به الله لكتاب الله وحفظه من أي تبديل وتحريف .

ونحن مع ثقتنا بالكتاب الذي بين أيدينا ، وبإيماننا بصدق كل آية فيه وكل حرف منه ، ومع إيماننا بأن المسيح لم يقتل ولم يصلب ، الأمر الذي يبقى على الخلاف بيننا وبين أتباع المسيح ، فإن هـذا كله لايذهب بشيء من صلات المودة والإخاء بيننا وبينهم . إنه لايعدو أن يكون خلافا في الرأي ، وإن يكن هـذا الرأي عقيدة ودينا .. فلكلٍّ دينه الذي يدين به .. لهم دينهم ولنا ديننا !!.

ورحم الله شوقي إذ يقول:

اقد اختلفنا والمعا شر قد يخالفه العشير
في الرأي تضطغن العقو ل وليس تضطغن الصدور

إننا نختلف رأيا وعقيدة ، ولكن هذا الخلاف لا يفسد أخوة ، ولا يقطع مودة.. إنه خلاف رأي ، واختلاف مذهب ! .

ثم يعود المؤلف بعد هذا فيجد للآية الكريمة وجهاً من التأويل ، تلتقي فيه مع تعاليم النصرانية فيقول :

« ويمكننا عند قبول تلك الآية كما هي أن نجدها ملائمة لتعاليم النصرانية مع ذلك ، فقد قال آباء الكنيسة : إن اليهود قتلوا طبيعة المسيح البشرية لا المسيح ابن الله . فيكون اليهود بذلك قد قتلوا الرجل الذي شابهها (أي شابه تلك الطبيعة) ، ورُبّي في حجر مريم ، لا كلمة الله القديمة التي عجزوا عن قتلها !

« والقرآن بذلك قد عارض فرق النصرانية الضالة ، لا النصرانية الصحيحة التي ترى طبيعتين في شخص عيسى [1]» .

وتأويل الآية على هذا الوجه مما لا نسمح به كلماتها الصريحة في أن المسيح لم يقتل ولم يصلب ، والمسيح كما يتحدث عنه القرآن ذات واحدة وشخص واحد . . لا ينظر إليه القرآن إلا بهذا الاعتبار ، وأنه إنسان كسائر الناس ، فإذا قيل إنه صلب أو قتل ، أو قيل إنه لم يصلب ولم يقتل ، كان هذا الحكم أو ذاك واقعا على « المسيح » الذي عرفه الناس ورأوه إنسانا يعيش بينهم ، والذي ولد ، وربي ونشأ ، وعلّم وبشّر في ربوع اليهودية وبين اليهود — إنسانا ذا طبيعة واحدة ، هي طبيعة البشر !

---

(١) حياة محمد ص ١٣٦

هذا ، وقد حاول كثير من مفسرى القرآن الكريم من علماء المسلمين أن يقولوا بآرائهم فيما أجمله القرآن هنا ولم يفصله ويكشف عن وجهه . ومثل هذه المقولات إنما هى لحساب أصحابها ، وليس على القرآن شىء منها ، إذ لاتعدو أن تكون أنظاراً متجهة إلى آية من آيات الله . . قد تهتدى إلى بعض أسرارها ، وقد تضل الطريق ، فلا تعرف شيئا !.

وللإمام الرازى قصب السبق فى هذا المجال ، فهو أكثر مفسرى القرآن تقليبا لوجوه الرأى وجلباً للآراء والأخبار ، من كل واد ، شرحا لمجملات القرآن وإشاراته . وفى تفسير قوله تعالى « ولكن شبه له » مثل لهذا المنهج فى تفسير القرآن .

يقول الرازى فى تفسيره لهذا المقطع من الآية الكريمة : اختلفت مذاهب العلماء فى هذا الموضوع ، وذكروا طرقا .

الأول : قال كثير من المتكلمين إن اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء ، فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم ، فأخذوا إنسانا وقتلوه وصلبوه وشبهوا على الناس أنه المسيح !

الثانى : أنه تعالى ألقى شبهه على إنسان آخر .. ثم فى هذا وجوه :

١ — دخل طيطاوس اليهودى المكان الذى فيه المسيح فلم يجده ، فألقى شبهه عليه ، فلما خرج ظن أنه عيسى ، فأخذ وصلب !

٢ — وكلوا بعيسى رجلا يحرسه ، فرفع عيسى إلى السماء وألقى الله شبهه على ذلك الرقيب ، فقتلوه ، وهو يقول لست بعيسى !

٣ — تطوع أحد أصحابه ، فألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخرج وقتل ورفع عيسى .

٤ — نافق أحد تابعيه ، ودلهم على عيسى ليقتلوه ، فلما دخل اليهود لأخذه ألقى الله شبهه عليه ، فقتل وصلب !

وهذه الوجوه متعارضة متدافعة ، والله أعلم بحقائق الأمور ! » .

ويثير الرازى مناقشة حول هـذه المقولات فيجرحها جميعها ، ولا يرتضى واحدة منها .. فيقول :

« فـكيفما كان ففى إلقاء شبهه على الغير إشكالات :

« الإشكال الأول : أنه إن جاز أن يقال إن الله يلقى شبه إنسان على إنسان آخر فهذا يفتح باب السفسطة ، وأيضاً يفضى إلى القدح فى التواتر ففتح هذا الباب ، أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات بالـكلية !

« الإشكال الثانى : أن الله أيده بروح القدس جبريل ، فهل عجز هنا عن تأييده ؟ وهو ـ المسيح ـ كان قادراً على إحياء الموتى ، فهل عجز عن حماية نفسه ! ؟

« الإشكال الثالث : أنه تعالى كان قادراً على تخليصه برفعه إلى السماء ، فما الفائدة فى إلقاء شبهه على غيره ؟ وهل فيه إلا إلقاء مسكين فى القتل من غير فائدة إليه ؟

« والإشكال الرابع : بإلقاء شبهه على غيره اعتقد اليهود أن هذا الغير هو عيسى ، مع أنه ما كان عيسى ، فهذا إلقـاء لهم فى الجهل والتلبيس ، وهذا لا يليق بحكمة الله !

« والإشكال الخامس : أن النصارى على كثرتهم فى مشارق الأرض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح ، وغلوهم فى أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولا مصلوبا ، فلو أنكرنا ذلك طعنّا فيما ثبت بالتواتر ، والطعن فى التواتر يوجب الطعن فى نبوة محمد وعيسى وسائر الأنبياء !

« الإشكال السادس : ألا يقدر المشبوه به أن يدافع عن نفسه أنه ليس بعيسى ؟ والمتواتر أنه ما فعل ، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هـذا المعنى ، فلما لم يوجد شىء من هذا علمنا أن الأمر ليس على ما ذكرتم !

هذه هى الإشكالات التى أثارها « الرازى » على القول بأن المصلوب شخص آخر ، ألقى شبه المسيح عليه .

وقد عرضنا نحن من قبل رأيا افترضناه فرضا ، وهو أن الشخص المصلوب شخصية قدّمها أتباع المسيح — لا اليهود — لتحاكم وتقتل ، وذلك بعد أن رفع المسيح إلى السماء مع موسى وإيليا . . ذلك لكى يسدّوا هذا الفراغ الهائل الذى تركه المسيح !

وهذا الفرض لايثير إلا إشكالا واحداً ، وهو أن اليهود قتلوا شخصا هوالمسيح ابن مريم فى اعتقادهم ، على حين أن المقتول شخص آخر غيره . وهذا — كما يقول الرازى — إلقاء لهم فى الجهل والتلبيس، وهذا لايليق بحكمة الله ! وقد قلنا إن ذلك كان عقوبة لليهود ، إذ حملوا دم المسيح دون أن يقتلوه ، وفى ذلك مافيه من الكبت والحسرة لهم ! .

هذا وقد عرض صاحب كتاب « الفاصل بين الحق والباطل:[١] » ـ لقضية الصلب ، وما تلبس بها من شبهات ، وفى هذا يقول :

« يستدل المسيحيون على التنبؤ بصلب المسيح بقول « عاوص » : إن الله تعالى قال على لسانه : «ثلاثة ذنوب أقبل لبنى إسرائيل والرابع لا أقبله ... وبيعهم الرجل الصالح» . وهذا المقول حجة عليهم لا لهم، لأن الله لم يقل بيعهم إياى ولا قال بيعهم ابنى ،ولا إلـها متساويا معى .

«ويجرى تأويل هذا القول على وجهين : إما أن يكون عنى بالمبيع المسيح — كما يزعمون — فيكون حينئذ رجلا صالحا . كما قال عاموس: وليس إلـها..وإما أن يريد

---

(١) هو كتاب يبحث فى قضية المسيح ، وقد أطلق مؤلفه على نفسه اسم « عزالدين المحمدى » وهو يرد بهذا الكتاب على من دعاه « حنا مقار العيسوى » (طبع سنة ١٣١٦ هـ بمصر)

بالمبيع غيره وهو الذى شبه لليهود ، فابتاعوه وصلبوه ، ويلزم حينئذ إنكار صلوبية عيسى !.

« ومما يدل على أن المصلوب غير عيسى من واقع الأناجيل هو :

١ — فى الإنجيل أن عيسى صعد إلى الجبل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا ، فبينما هو يصلى إذ تغير منظر وجهه عما كان عليه وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق ، وإذا بموسى بن عمران وإيليا قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلتهم ، فوقع النوم على الذين معه !

«فأى مانع يمنع من أن يكون ذلك وقع فى اليوم الذى طلبته فيه اليهود ؟ وإنما اختلفتم فى نقله كما اختلفتم وتناقضتم فى غير ذلك وغيرتم الكلم عن مواضعه ؟ وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم على التلاميذ يكون حينئذ دليلا ظاهراً على الرفع إلى السماء وعدم الصلب ، وإلا فما معنى ظهور هذه الآيات !؟

٢ — فى الإنجيل أيضاً أن المصلوب استسقى اليهود فأعطوه خلا مذاباً بمر ، فذاقه ولم يشربه ، ونادى : إلٰهى إلٰهى لِمَ خذلتنى !. والأناجيل كلها مصرحة بأن المسيح عليه السلام كان يطوى أربعين يوما وأربعين ليلة ويقول للتلاميذ لى طعام لستم تعرفونه ، ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوما وليلة كيف يظهر الحاجة والمذلة والمهانة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد ؟ هذا ما لا يفعله أدنى الناس . فكيف بخواص الأنبياء ، وكيف بالرب (تعالى) على ما تدعونه. حينئذ يكون المدّعِى للعطش غيره وهو الذى شبه لهم !

٣ — قوله إلٰهى إلٰهى لم خذلتنى وتركتنى .. هو كلام يقتضى عدم الرضا بالقضاء وعدم التسليم لأمر الله تعالى .. والمسيح عليه السلام منزه عن ذلك . فيكون المصلوب غيره .. لاسيا وأنتم تقولون إن المسيح إنما نزل ليؤثر العالم على نفسه ويخلصه

من الشيطان ورجسه .. فكيف تروّون عنه ما يؤدّى إلى خلاف ذلك ؟

٤ — الأناجيل متفقة على أن المسيح نشأ بين ظهور اليهود وشارك فى مواسمهم وأعيادهم وهيا كلهم ، يعظهم ويعلمهم ويناظرهم ، وكانوا يعجبون من براعته وكثرة تحصيله ، حتى كانوا يقولون — كما تقول الأناجيل — أليس هذا ابن يوسف النجار ؟ أليس أمه مريم ؟ أليس أخوه عندنا ؟ فمن أين له هذه الحكمة ؟ . وإذا كان ذلك فى غاية الشهرة والمعرفة عندهم فكيف يقول الإنجيل إنهم وقت أن أرادوا القبض عليه لم يحققوه ، حتى دفعوا لأحد تلاميذه وهو يهوذا ثلاثين درهما ليدلهم عليه ؟ . فجاء ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من نيسان ومعه جماعة من اليهود ومعهم السيوف والعصى من عند رؤساء الكهنة وقال لهم التلميذ المذكور : الرجل الذى أقبله هو مطلوبكم فأمسكوه ، فلما جاءه قال: السلام عليكم ثم قبله ، فقال له يسوع لماذا جئت ياصاحب ؟ فوضعوا أيديهم عليه وربطوه ، وتركه تلاميذه كلهم وهربوا ، وتبعه بطرس من بعيد ، فقال له رئيس الكهنة :أستحلفك بالله الحىّ أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟ فقال له أنت قلت ذلك ، وأنا أقول لكم من الآن ترون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة آتيا فى سحاب السماء ؟

«فلا شك أن هذا الالتباس العظيم مع تلك الشهرة العظيمة نحو ثلاثين سنة فى المحاورات العظيمة ، والمجادلات البليغة تدل على وقوع الشبه قطعا !! خصوصا أن فى الأناجيل أنه أخذ فى حندس من الليل مظلم ، من بستان ، فشوهت صورته ،وغيرت محاسنه بالضرب والسحب ، وأنواع النكال ، ومثل هذه الأحوال توجب الالتباس بين الشىء وخلافه ، فكيف بين الشىء وشبهه؟ فمن أين لكم أو لليهود بأن المصلوب هو عيسى عليه السلام ، دون شبهه ؟ بل إنما حصل الظن والتخمين كما قال تعالى : « وماقتلوه يقينا بل رفعه الله إليه »

٥ — ثم إن فى الأناجيل أيضاً أن يسوع عليه السلام كان مع تلاميذه بالبستان

فجاء اليهود فخرج إليهم وقال لهم: من تريدون ؟ قالوا: يسوع ! وقد خفى شخصه عنهم ففعل ذلك مرتين (يوحنا ١٨ : ٥) وهم ينكرون صورته .. وماذلك إلا دليل الشبه ورفع عيسى عليه السلام !

٦ — فى إنجيل يوحنا (٢٦ : ٣) بينما التلاميذ يأكلون طعاما مع يسوع ، قال: كلكم تشكون فىّ هذه الليلة ، فإنه مكتوب : أنى أضرب الراعى فتفترق الغنم . فقال بطرس : فلوشك جميعهم ما أشك أنا . فقال يسوع : الحق أقول لك : إنك فى هذه الليلة تنكرنى قبل أن يصيح الديك !

« فقد شهد بالشك على خيارهم « بطرس » إذ أنه خليفته عليهم ، فقد انخرم حينئذ الوثوق بأقوالكم وجزم بإلقاء الشبه على غير عيسى عليه السلام ويصح قوله تعالى: « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه » ، ومن هذا نعلم أن الأناجيل ليست قاطعة فى صلبه ، بل فيها اختلافات وشكوكا كثيرة كما رأينا !

« ومما يزيد الأمر وضوحا مافعله يهوذا ، ويحتمل أن يكون قد كذب فى قوله لليهود: هوذا ، ويدل على ذلك وقوع الندم منه بعد ذلك وقول المسيح له :ياصديق، وياصاحب.. لم أقبلت؟ ولو كان مصرا على الفساد لما سمّاه صديقا .. ثم لاننسى أن المسيح شهد للتلاميذ الاثنى عشر بالسعادة (متى ١٩ : ٢٨) وشهادته حق ، ولاشك أن السعيد لايتم منه هذا الفسادالعظيم إذا شرع فيه ، ويهوذا أحد الاثنىعشر فيلزم أن يكون يهوذا لم يدل عليه أو يكون المسيح مانطق بالصدق أو يكون الإنجيل قد تحرف وتبدل [١] » .

وبعد: فإن « قضية صلب المسيح » ينبغى أن يعاد النظر فيها ، وأن تحقق تحقيقا علميا ، وأن تفند الحجج التى تؤيدها والتى تنكرها . . بل إن هذا هو الذى ينبغى أن

---

(١) الفاصل بين الحق والباطل

يقوم له العلماء والدارسون على اختلاف عقائدهم منذ نزل القرآن الكريم وأعلن هذا النبأ العظيم فى قوله تعالى « وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن..وماقتلوه يقينا .. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما »

ولو أن البحث فى قضية الصلب انتهى بالباحثين إلى تلك الحقيقة التى يقررها القرآن — وهو لابد منته بهم إليها — لا التقت الديانات السماوية الثلاث على سواء.

فأولا : كاد اليهود يقطعون الشك باليقين فى أمر مسيحهم المنتظر الذى يعدون العدة لاستقباله ، الأمر الذى يملأ صدورهم شعورا بالعزلة عن الناس والتعالى عن العالمين، باعتبارهم شعب الله المختار ، ولنظروا إلى أنفسهم من جديد ، فرأوا أنهم قد فاتهم خير كثير كان يمكن أن يصل إليهم من هذا الميراث العظيم من تعاليم المسيح وأدبه ، وبهذا كانوا يلتقون بتلك التعاليم السمحة الكريمة التى تذهب بالكثير من أدوائهم وعللهم التى تنشر الشر والبلاء فى العالم كله .

وثانيا : كان أتباع المسيح يعيشون مع تعاليم المسيح على هذه الأرض ويغرسون مغارس الرحمة والحب والأخوة فى كل مكان ، فلا تظل عيونهم معلقة به فى ملكوته ، بينما تخلو قلوبهم وتصفر أيديهم من هذا الثمر الكريم الذى غرسته يداه فى هذه الأرض!

وثالثا : كان المسلمون لايرون هذه الحواجز القائمة بينهم وبين أتباع المسيح فى دراسة الأناجيل والتأدب بآدابها والانتفاع بتعاليمها . . فالمسلمون وإن كانوا على يقين بأن المسيح لم يصلب ولم يكن إلها ولا ابن إله ،فإن اعتقاد أتباع المسيح بهذا كله يُدخل على المسلمين شعورا خفيا بالحذر من مخالطة الأناجيل ، والتلقى عنها ، لما فيها من هذه المقولات التى تخالف معتقدهم الدينى وتأخذ طريقا غير طريقه !

ونسأل :

تُرى أتكشف الأيام عن جديد فى قضية الصلب والقيامة ؟ وهل تجىء الأيام بتأويل مانطق به القرآن فى هذه القضية ؟

الذى لاشك فيه ،أن ذلك واقع لامحالة .. أما متى يكون ذلك فهذا مالانعلمه.. ومن يدرى ؟ فلعلّ مايقال عن رجعة المسيح هو إرهاص بكشف هذه الحقيقة من أمره وتصحيح ما ألبس على الناس منه ، على ما نطق به القرآن .

وأحسب أن كثيرا من إخواننا المسيحيين قد يسيئهم أن يقع هذا ، وأن يقول قائلهم — كما يقال — وأين المسيحية التى ندين بها إذا لم يكن المسيح قد صلب وقام من بين الأموات ؟ أمسيحية بغير المسيح مصلوبا ومقاما من بين الأموات ؟

ونقول لأولئك الذين يجزعون من القول بأن المسيح لم يصلب ولم يقم من بين الأموات ولم يكن إلها ولا ابن إله ، وإنما كان عبدا من عباد الله ورسولا من رسل الله — نقول لهم: لاعليكم . . فإنكم لوأقمتم نظركم على المسيح إنسانا رسولا، والتقيتم به على هذا الوجه وتعاملتم معه على تلك الصفة ، لتضاعف هذا الخير الذى تركه المسيح وراءه . . . فى كلماته المشرقة وآياته الوضيئة ، وكان لكم من هذا الزاد الطيب غذاء صالحا، تحيا به النفوس وتطهر الأرواح وتعمر القلوب .. بالحب والمودة والإخاء . ولكان لكم فى المسيح الإنسان ،المثلَ الأعلى والقدوة الصالحة لما تنزع إليه النفوس من حق وخير وكمال فى عالم البشر . . لاتجده الحياة على تمامه وكماله إلا فى رسل الله وأنبيائه ، وفى الصف الأول منهم المسيح . . الإنسان . . ابن الإنسان !

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل !

ولكن طال بنا الطريق ، ونخشى أن يمل القارىء صحبتنا إذا نحن أردناه على السير معنا إلى أبعد من هذا . !

وإذن فليطمئن القارىء إذ نقول له ،إننا على مشارف الغاية. وماهى إلا خطوات ثم نودعه وندعه ليأخذ طريقه إلى وجهات أخرى تهتف به وتدعوه إليها . .

وعلى هذا ، فإننا سنجعل خاتمة هذا البحث هى التفصيل لذلك الإجمال الذى أشرنا إليه . . ثم هى من جهة أخرى إجمال لما فصل فى مباحث الكتاب كلها !

الباب الخامس

تذييل

مع أننا قد آذنا القارىء بأننا معه على مشارف الغاية من هذا البحث، فإنا نستأذنه في أن نعرج على حدثين من الأحداث المتصلة بقضية المسيح ، وإن لم يكونا في الصميم منها ، ولهذا فقد حكمنا في هذه القضية دون استدعائهما أو النظر فيهما .. ولكننا نرى أن من تمام البحث أن يشار إليهما ، وأن يودعا « ملف » القضية ، إذ قد يكون لهما شأن عند من يريد أن يعيد النظر في هذه القضية ، وينقض علينا حكمنا الذي حكمناه فيها ، أو يؤيده . . ثم إن للقارىء أن يقطع رحلته منذ الآن ، أو يتابع السير معنا خطوات أخرى ، إلى حيث يرى معنا هذين الحدثين . . فقد فرغنا من القضية ، وهذه الوقفة لا تعدو أن تكون صدى مرجعاً للحكم الذي صدر فيها ! !

وهذان الحدثان هما :

١) كلام المسيح فى المهد .

٢) ظهور المسيح . . آخر الزمان .

وهذه كلمة مجملة فى كل منهما :

كلام المسيح فى المهد

ذكر القرآن الكريم فى أكثر من موضع منه أن المسيح عليه السلام تكلم فى المهد .. وذلك ليكون آية على طهر أمه وعفافها ، وبراءة عرضها من أن يعلق به شىء مما تلوكه الألسنة ، وتوسوس به الظنون ، فى حال كحال مولود يولد من غير زواج معترف به شرعاً أو عرفاً !

فى البشارة الأولى التى تلقتها مريم من السماء ، يكشف لها الوحى عن وجه هذا الغلام ، الذى ستلده العذراء هذا الميلاد العجيب ، الذى لم تعهده فى الناس، ولم تره فى واحدة من بنات جنسها .. وفى هذا يقول القرآن الكريم : « إذ قالت الملائكة يامريم : إن الله يبشرك بكلمة منه . . اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد ، وكهلا ، ومن الصالحين » (١) .

والصفة البارزة لهذا الوليد هنا هى نطقه وهو فى المهد ، وحديثه إلى الناس حديثا واضحا مفهوما . . أما وجاهته فى الدنيا والآخرة ، وأما صلاحه فهذه أمور معنوية ، لاتنكشف انكشاف الكلام فى المهد ،ولاتقع من الناس موقع هذا الكلام الذى يثير فى الناس العجب والدهش ، ولايدع لأحد سبيلا إلى الإنكار أو المغالطة !

ولكن هنا سؤال هو : ما وجه الحكمة فى الإخبار عن كلام المسيح كهلا ، إلى جانب الإخبار عن كلامه فى المهد . . مع أن كلامه كهلا أمر مفروغ منه والإخبار به نافلة غير مطلوبة ، فى ظاهر الأمر ؟

ونقول — والله أعلم — إنه لما كان النطق فى المهد أمرا واقعا على غير مألوف الحياة فى الناس ، خارجا عن طبيعة البشر ، فقد يقع فى حساب الناس وتقديرهم أن هذا الوليد الذى تكلم فى المهد سيسلك فى الحياة مسلكا غير مسلكهم، ويسير فى طريق غير طريقهم ، وأنه إذا بدأ حياته متكلما يوم مولده ، فغير مستبعد أن يكون كلامه بعد أن يشب ويكبر واقعا على صورة أخرى مفارقة لكلامه فى المهد . . فالطفل يدرج إلى الكلام بأصوات أشبه بأصوات الحيوان . . ثم تستبين تلك الأصوات شيئا شيئا ، حتى تصبح لغة واضحة ، ذات دلالة محددة مفهومة ! فهل يتدرج كلام المسيح فى المهد هذا التدرج ؟ يبدأ كلاما واضحا ولغة سليمة مكتملة البناء ، ثم ينتهى إلى عزيف كعزيف الجن أو وحيا كوحى الملائكة مثلا ؟ هذه

---

(١) سورة آل عمران : ٤٥ — ٤٦

بعض المفاهيم التى يمكن تقع فى الخواطر وتدور فى الأفهام عن هذا الحديث العظيم !

وهذا مايدفعه قوله تعالى : « ويكلم الناس فى المهد وكهلا . . » فكلام عيسى فى المهد ، وكلامه فى كهولته على سواء لا اختلاف بينهما . . إنهما من جنس واحد ، وأنه إذ يكلم الناس فى المهد ، ويتحدث إليهم بلغة إنسانية مبينة فإنه سيتحدث إليهم كذلك بتلك اللغة حين يستوى ويبلغ أشده ! ! وبهذا تعلم مريم من أول الأمر أن وليدها الذى سيتكلم فى المهد لايخرج به ذلك عن الطبيعة البشرية ، ولايجعل منه مولودا شاذا تشقى به أمه ، وتعانى من شذوذه هذا ما تعانى الأمهات من مواليدهن الذين يجيئون على غير مألوف الناس والحياة .

وقد يكون لمعترض هنا أن يلقانا بهذا السؤال: لم نص القرآن على دور الكهولة وحده دون أدوار الحياة الإنسانية الأخرى ؟

ولم لم ينص على الصبا والشباب والشيخوخة ، فقد يكون للمسيح فى تلك الأدوار كلام ليس من نوع كلامه فى المهد ؟

والجواب على هذا ، هو أن دور الكهولة هو الدور الذى يبلغ فيه الإنسان تمام نضجه الجسدى ، والعقلى . . فإذا كان كلام المسيح على حال واحدة فى المهد وفى الكهولة كان ذلك هو المعيار الذى تنضبط عليه لغته ، وطريقة حديثه إلى الناس فى جميع أدوار حياته . !

وندع هذا ، لنصل ما انقطع من حديثنا عن كلام المسيح فى المهد — فنقول :

إن مريم عليها السلام — إذ تلقت هذه البشرى قد لفتها منها أمران: أن يكون لها ولد من غير أن يمسسها بشر . . ثم إن هذا المولود على صفات خاصة ، أهمها : أن يتكلم فى المهد . .

ولعل مريم لم تلتفت كثيرا إلى ماهذا الوليد من صفات ، إذ كان شغلها الشاغل هو أن تلد من غير زوج يتصل بها ! !

ولهذا كان عجبها ودهشها فى هـذا الاستفهام الإنـكارى الذى ذكره القرآن الكريم على لسانها : « قالت رب : أنّى يكون لى ولد يمسسنى بشر ؟ [١] » فهذه هى مشكلتها ، وهذا هو موضع عجبها ودهشها فى تلك الحال ، وفى هذا الوقت الذى تلقت فيه هذا النبأ المثير !

ثم إنها حين تم ما أراد الله لها ، وجاءها المخاض ، ووجدت نفسها أمام الأمر الواقع وأنها فى مواجهة فضيحة لادافع لهـا — كان ما أُخبرت به من قبل من أن وليدها سيكلم الناس فى المهد — كان هـذا هو العزاء الوحيد الذى لهـا فى سـاعة العُسرة هذه . .

« فأجاءها [٢] المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : يا ليتنى متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباجنيا، فكلى واشربى وقرّى عينا،فإما ترَيِنّ من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا . . فأتت به قومها تحمله ، قالوا يامريم لقد جئتشيئا فَرِيًّا ! يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه ! ! قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال: إنى عبد الله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّاوجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام علىّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أُبعث حيا» [٣]

فى هذا الموقف المتأزم جاءت المعجزة لتواجه القوم ولتخرس الألسنة المتطاولة ولتأخذ على المتقولين كل سبيل . . فهذا الوليد الذى ولد بغير أب ، قد نطق فى

---

(١) سورة آل عمران : ٤٧
(٢) أجاءها المخاض : أى ألجأها
(٣) سورة مريم ٢٣ — ٣٣

المهد ، وتكلم فى حال لا يتكلم فيها مثله . . فكان هذا الكلام فى المهد معجزة خارقة ، تتلاقى مع معجزة المولد من غير أب ! . .

« فأشارت إليه .. قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا . . »

وكلام السيد المسيح هنا كلام صريح واضح ، على شاكلة مايتكلم قومه ، وباللغة التى يتعاملون بها ، ففهموا عنه ماقال ، ولم يكن ذلك محتاجا إلى تأويل أو تخمين ..

وقد ذكر القرآن الكريم مرة ثالثة هذا الخبر فى معرض الامتنان على « المسيح » بما كان لله من نعم عليه وألطاف به . . حيث يقول جل ذكره . . « إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . . » (١) ويلاحظ هنا أيضا الجمع بين كلام المسيح فى المهد وكلامه كهلا . . وذلك ليذكره المسيح أن كلامه فى المهد كان من جنس ماتكلم به فى صباه وفى كهولته . . فيه العقل والمنطق والحكمة ، وليس أصواتا كأصوات الأطفال ، ولا لغوا كلغو الصبيان !

والسؤال هنا هو :

هل كان كلام المسيح فى المهد حدثا وقع فى موقف الدفاع عن التهمة التى رميت بها مريم من قومها ، ثم أمسك المسيح بعدها عن الكلام ليأخذ الحياة على مألوف الناس ، وليدرج فى مدارجها ، خطوة خطوة — أم أنه استمر متكلما مبينا طوال فترة طفولته ، كما كان فى أدوار عمره بعدها ؟

ونقول : إن كلام المسيح فى مهده هو معجزة متحدية ، كإحياء الموتى ، وإبراء

---

(١) سورة المائدة : ١١٠

الأكمه والأبرص .. وشأن تلك المعجزات المادية أن تظهر فى الحال الداعية لها، ثم تختفى، فلا يرى الناس لها وجها آخر الأبد، إلا إذا دعاها نبى من أنبياء الله فى صورة معجزة متحدية.

ومن الحكمة فى هذا ألا تعيش المعجزة المادية وقتا طويلا فى حياة الناس حتى لا يألفوها هذا الإلف الذى يذهب بالكثير من هيبتها وجلالها.. ثم إن المعجزة المادية القاهرة امتحان وابتلاء، وما كان هذا شأنه فإن من الحكمة أن يلم بالناس إلماما، وألا يقيم إقامة دائمة، وبهذا يتمايز الناس ويتفاضلون فى الإفادة من الفرص المتاحة لهم، والارتواء من دفعة الغيث الهاطل فى آفاقهم!

والقرآن الكريم وإن قطع بأن المسيح تكلم فى المهد، فإنه لم يذكر شيئا عن صمته أو كلامه بعد هذه الواقعة التى دافع فيها عن شرف مولده، وطهر أمه وعفافها، لأن ذلك لا يقدم ولا يؤخر فى هذا الموقف..

ولكنا — مع ذلك ومع احترامنا لصمت القرآن — نستطيع أن نقول إن المسيح تكلم فى المهد، وهذا أمر مقطوع به بشهادة القرآن — وأن كلامه فى المهد لم يكن إلا فى هذا الموقف الذى واجه به تلك الوجوه المحدقة فى أمه، والمنكرة لما أتت به، ولمن أتت به! ثم عاد بعدها إلى الطفولة فى صمتها ونطقها! وهذا مالم نقطع به وإن كانت دلائل الحال تشهد له وتظاهره.

القرآن يتحدى:

والذى يدعو إلى العجب من هذا الذى يحدّث به القرآن من كلام المسيح فى المهد هو أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لم تشر إلى هذا الحدث العظيم أية إشارة، كما أن دعاة المسيحية ومبشريها الأولين لم يذكروا شيئا عنه!

فما تأويل هذا؟

ولماذا انفرد القرآن بهذا الخبر الذى يخرج به عما انعقد عليه إجماع أهل الكتاب من مسيحيين ويهود ! ؟

ونجيب على السؤال الثانى أولا . . فنقول إن القرآن إذ يقف هذا الموقف لَيعلم علم اليقين أنه يواجه بهذه الحقيقة عالماً متربصا به ، متلهفا إلى اصطياد المعاثر والمزالق له ، فإذا جاء يحدِّث أهل الكتاب عن أمر هو فى أيديهم ومن خاصة أمورهم ، قد عرفوه وقلبوا وجوهه ، وعرفوا صغير أحواله وكبيرها — فإن المتوقع أن يكون حديثه هنا جاريا مع مايعرفون منه ، ومايروون عنه ، فإن كان اختلاف فى شىء ففى ترتيب الأحداث وتلوينها ، فإن زاد الخلاف شيئا ، ففى الأحداث العارضة التى لاتدخل فى الصميم من ذاتية هذا الأمر . .

أما إذا كان هذا الحديث عن أمر له شأنه وخطره فى إقامة بناء العقيدة ، ثم كان مما يقيم لأصحاب العقيدة حجة دامغة ، ودليلا قاطعا لمقولاتهم التى ينكرها عليهم خصومهم ، فإن ذلك هو أعجب العجب . . حيث يجىء القرآن إلى هذه الدعوى التى ينكرها فيضع بين يدى أصحابها حجة أقوى من حجتهم لها ، ودليلا أوضح من دليلهم عليها . . إن ذلك لعجب عجيب ! !

ولكن القرآن لايلتفت إلى شىء من هذا ، ولايجعل له شأنا فى حسابه مع مايدعيه المدعون . . وإنما الذى يلتفت إليه ، ويحسب له حسابا هو الحق ، والحق وحده . . سواء وافق واقع الناس وجرى مع معارفهم ومعتقداتهم ، أم جاء على طريق غير طريقهم ، وبعلم غير علمهم . .

وهذا شاهد من شهود القرآن ، بأنه ليس من عمل بشر ، ولا من تدبير إنسان ، وإلا كان عليه أن يتجنب هذا الصدام الصريح مع الواقع ، الذى لايعلم ما وراءه إلا علام الغيوب !

أمّا والسماء هي التي تتكلم ، فإن لها أن تقول ماتقول ، وعلى الأرض وما على الأرض ومن على الأرض أن يسمعوا ويطيعوا !

وقد تكلمت السماء في القرآن الكريم عن المسيح ، أنه تكلم في المهد .. وإن على الوجود كله أن يسمع ويخشع !

وما كان لغير الحق السماوي أن يقف هذا الموقف إزاء أمر يشتبه أهله وهم له منكرون ، ويتمنونه وهم عنه معرضون . . خوفاً من البَهت والتكذيب !

لو كان القرآن من عمل « محمد » وكانت الدعوة الإسلامية لحساب « محمد » لما كان من حسن التدبير – وهي تواجه دعوة تقف في سبيلها – أن تدافع عن هذه الدعوة ، وأن تمجد صاحبها ، وترفع قدره ، وتضيف إليه معجزة لم يجرؤ أتباعه على الجهر بها ، بل كان عليها – لكي تضعف من أمرها – أن تلقى إلى ساحاتها الريب والشكوك ، وأن تدفع إليها بالأضاليل والمفتريات ،حتى تزيدها غموضا وخفاء ، وحتى تمتد وتتداح دائرة الخلاف عليها والفرقة فيها ! !

ولكن الدعوة الإسلامية إذ لم تكن من عمل أحد ولالحساب أحد ، وإنما هي دعوة سماوية ، تصل ما انقطع من دعوات السماء في رسالات المرسلين ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، وغيرهم من النبيين والمرسلين – لم يكن لها أن تسلك طريقا غير الحق ، أو أن تنطق بغير ما يقضي به الحق .

ولهذا،فإن القرآن إذ يقول ماقال في عيسى وأمه ، مما تنكره اليهود وتقول بخلافه فيهما،وأنه إذ يقول مايقول في عيسى وفي كلامه في المهد ،مماينكره المسيحيون ولايجدون شاهدا عليه ممافي أيديهم من أناجيل – إن القرآن إذ يقول هذا ، إنما يقول الحق الذي غُمّ على الناس أمره ، وعميت عليهم سبله ، ولاعليه إن هم صدقوه وآمنوا به ، أو كذبوه وأعرضوا عنه . . فإن الحق الذي نزل به سيظل هكذا قائما على الدهر

يتحدى المكابرين والمعاندين ، ويواجه أبصار المتشككين والمنحرفين : « فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها .. (١) » .. والعاقبة دائما للحق ، فإنه وإن غامت عليه سحب الضلال وانعقدت من حوله ظلمات الجهل ، فإن هذه أمور عارضة لاتلبث أن تزول وإن طال مقامها : « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » (٢) !

وهكذا يظل قول القرآن فى « المسيح » وفى كلامه فى المهد آية تتحدى مايبلغ الناس من علم ، وستكشف الأيام عن واقع الأمر فى عاجل أو آجل ، حين تنطمس معالم الحق ،فلا يبقى عند المعاندين والمكابرين شبهة من شك ،فى أن المسيح لم يتكلم فى المهد ، ويومها يطلع على الناس من حيث لا يحتسبون من ينبئهم نبأ اليقين بأنه قد تكلم فى المهد ! وأن مانطق به القرآن هو الحق الذى لامرية فيه .

وذلك تقدير العزيز الحكيم وتدبيره ، فى فضح الباطل ، وتعريته ، فى يوم يبلغ فيه مداه ، ويخيل للناس منه أنه سيد الموقف بلا منازع ! ولايقولن قائل : إنه قد مضى على القول بأن المسيح لم يتكلم فى المهد ، نحو عشرين قرنا ، وأن الأيام تزيد المؤمنين بهذا القول إصرارا عليه وتشبثا به — وأن ما يقول به القرآن مخالفا لهذا لم يخرج عن كونه دعوى لايقوم لها شاهد يشهد بصدقها ! !

لايقولن قائل هذا ..

فطول الزمن أو قصره لاحساب له فى الصراع بين الحق والباطل . . بل إن طول الزمن كان ولايزال عنصرا من عناصر التمكين للحق واستيلائه بضربة قاضية على قوى الباطل ، التى تكون قد تجمعت وتوالدت خلال هذا الصراع الممتد ، فلا يقوم للباطل بعدها قائمة !

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٤ (٢) سورة الرعد : ١٧

إن العلة إذا ألحت على الجسد وغادته وراوحته ، ثم جاء الشفاء بعدها وأقبلت العافية فى أعقابها ، كان ذلك سعادة غامرة ، ونعمة شاملة ، تجد فيها النفس الروح والراحة ، وتستشعر منها السعادة والرضى !

أما أن قول القرآن فى هذه الواقعة لا يخرج عن كونه دعوى لا يقوم لها شاهد يشهد بصدقها — فقول غير مقبول ، لأن القرآن فى غنى عن أن يطلب الشهادة على صدقه من شىء غيره هو . . فإنه ما نطق بغير الحق ، ولا قال قولا إلا شهدت الدنيا كلها بصدقه ، فلم تؤخذ عليه سقطة ، ولا وقع أحد له على زلة ، مع كثرة العيون المحدقة فيه ، والقلوب المضطغنة عليه ، والعقول المنحرفة عنه . . فالحاضر يشهد للغائب ، وما وقع يشهد لما لم يقع ! وإن أقل ما ينبغى أن يستقبل به العقلُ العلمى هذا الخبر الذى أخبر به القرآن فى شأن المسيح — هو أن يتوقف فيه ، فلا يكذب ولا يصدق ، حتى يقع على البرهان القاطع بهذا أو ذاك !

لماذا لم تذكر الأناجيل كلام المسيح فى المهد ؟

قلنا إن كلام المسيح فى المهد حقيقة مقررة ، لا شك فيها ، إذ كان القرآن الكريم هو المحدث بها والمخبر عنها . . وقلنا كذلك إن الأناجيل لم تذكر هذا الخبر من أمر المسيح ، وإن أتباع المسيح لم يذكروه ولم يعتقدوه . وهذا من شأنه أن يضع القرآن من جهة ، والأناجيل من جهة أخرى ، فى موقف الخصومة فى هذه القضية .

وإذا تركنا جانبا النظر فيما وقع فى الأناجيل من تحريف أو تبديل ، وقلنا إنها والقرآن على سواء فى صحتها وسلامتها — كانت ظاهر الحال تشهد بأن كفتها هى الراجحة فى هذه القضية ، وأن عدم ذكرها لكلام المسيح فى المهد يقطع بأن المسيح لم يتكلم فى المهد ، إذ لو كان قد تكلم فى المهد لما كان هناك من سبب يدعو كتّاب الأناجيل إلى إغفال هذه

الحادثة التى تعلى من شأن المسيح ، وترفع من قدره ، وتكاد تخرج به عن حدود البشر، وترتفع به إلى الملأ الأعلى — الأمر الذى يقوى من القول بألوهية المسيح أو بنوته لله . بل إن عدم ذكر الأناجيل لهذا الحدث العظيم لدليل على أنها كانت تلتزم جانب الحق فى كل ماتقول فيه ، وأنها لم تقل فيه قولا لم يكن له أومنه ! ثم إننا نجد من جهة أخرى أن القرآن قد مجد المسيح بهذا القول ورفع قدره .. فلماذا قاله ، أو تقوله إذا كان لم يقع ؟ وماذا يقصد به ، وهو فى مواجهة إنزال المسيح من مقام الألوهية الذى رفعه إليه أتباعه ، وإقامته على أرض البشر ، وإلباسه لباس الناس ظاهراً وباطناً ؟ إن ذلك دليل أيضاً على أن القرآن إنما يقول الحق فى المسيح ويقرر الواقع من أمره !!

فإذا أعدنا النظر فى هذه المسألة على ضوء الظروف والملابسات التى كتبت فيها الأناجيل ، ووضعنا فى حسابنا تلك المتناقضات الكثيرة التى وقعت فيها ، والتى أشرنا إلى كثير منها — إذ فعلنا ذلك رأينا أنه ليس مستحيلا أن ينخرم من الأناجيل هذا الخبر ، وأن يسقطه الذين كتبوها من حسابهم ، لأمر قدروه ، ولحساب حسبوه !

ويمكن أن يعلل لهذا بعلل كثيرة منها : أن الأناجيل قد كتبت فى وقت كان اليهود يضطهدون فيه أتباع المسيح ويلاحقونهم بالأذى ، وأنهم كانوا يطلقون ألسنتهم فى المسيح ، وفى أمه ،وفى المعجزات التى وقعت منه ، ويتهمونه بأشنع التهم وأبشعها ، فليس معقولا ـ والأمر كذلك ـ أن يفتح كتاب الأناجيل جبهة جديدة للحرب بينهم وبين اليهود ، وأن يلقوا إلى النار المشبوبة وقودا جديدا يزيدها ضراما ولهيبا ! ويزيد اليهود سفاهة فيه ، وتطاولا عليه ، وتكذيبا له .

هذا ، ولنا أن نجعل فى اعتبارنا أن كلام المسيح فى المهد لم يكن معجزة قائمة تعيش بين الناس ، وإنما كان للحظة عابرة أطفأ بها ثورة ثائرة على أمه . . وأنه وإن كانت هذه المعجزة قد أحدثت هزة عميقة ودوياً عاليا ، كان حديث الناس وموضوع

سمرهم وجدلهم زمنا ـ فإن صمت المسيح بعدها إلى أن جاوز دور الطفولة قد جعل حَمْوَها يبوخ فى الصدور ، ويتبخر من العقول .. ومن جهة أخرى ، ننظر فنجد أن الذين لم يشهدوا المعجزة من معاصريها ، كانوا عند سماعهم بها بين مصدّق ومكذب ، فإذا جاءوا إلى « المسيح » الطفل ورأوه على صمت الأطفال ، رجعوا وهم على شك أقوى من اليقين ، وعلى تكذيب أثبت من التصديق .. أما الذين شهدوا المعجزة وسمعوا نطقها البليغ — وهم نفر قليل — فقد دخل على إيمانهم وارد التأويل والتعليل ، إذ وقفوا بين نطق الوليد وصمته . . ! وليس ببعيد عندهم — بعد هذا — أن تهجس فى نفوسهم هواجس الشك بأن ملاك الرب هو الذى تحدث إليهم بفم الطفل ، أو من فمه .. ثم مضى !!

والصورة التى تبدو لنا من هذا الموقف هى كما يأتى :

عدّة من الناس . . قد يكونون عشرة أو مادون العشرة أو أكثر ، هم رهط مريم الأقربون ، قد رأوا وسمعوا الطفل يسوع يتكلم ، ويدفع عن أمه العار الذى واجهوها به ، فلما صمتوا ، صَمَتَ إلى أن فارق طور الطفولة .

وأعداد لاحصر لها من الناس ، ترامى إلى سمعها هذا الخبر العجيب المثير . . فجاءت تطلب له الشاهد من فم هذا الطفل الذى نطق .. فلم تجد إلا صمتا ، ولم تشهد فيه إلا ملامح الطفولة ومخايلها !!

ثم يمضى الزمن بهؤلاء وهؤلاء . . ويتقلب هؤلاء وهؤلاء بين اليقين والشك .

أما أصحاب اليقين — على قلتهم — فتذهب بهم الأيام واحدا واحدا . . حتى إذا بلغ المسيح أشده وطلع على الناس بمعجزاته ، لم يكن منهم فى الحياة إلا بضعة أفراد ، أو مادونهم .

وأما المتشككون والمترددون فقد أنساهم الزمن هذا الأمر، وما عاق فى نفوسهم منه ،من شك أو تردد !

فلما كان وقت كتابة الأناجيل، كانت تلك الحادثة قد ضاعت فى طوفان الأحداث التى اتصلت بحياة المسيح ، والتى انتهت بهذا الحدث العظيم ، فى صلبه وقيامته من الأموات !

لقد كانت حادثة الكلام فى المهد حين كتبت الأناجيل شيئاً باهتا أشبه بأضغاث أحلام ، لم يمسك منها الناس إلا بذكريات غامضة مضطربة، فكان إعلانها وإذاعتها فى هذا الوقت ، مما يقوى جبهة أولئك الذين يجدفون على المسيح ، ويرمونه وأمه بالمنكرات من الأباطيل والمفتريات !

وشبيه بكلام المسيح فى المهد مولده من « عذراء » . . فهذا الميلاد العجيب لا يقل عن الكلام فى المهد إثارةً للعجب والدهش . . ومع هذا فإن إنجيلى مرقس ويوحنا لم يشيرا أية إشارة إلى هذا الميلاد ..والقديس « بولس » مؤسس المسيحية وداعيتها الأول لم يتحدث عن ميلاد المسيح من عذراء،ولم يشر إلى شىء من ذلك فى رسائله !

وإنجيلا متى ولوقا اللذان تحدثا عن هذا الميلاد العذرى ، ذكرا ذلك على استحياء، وفى غير إلفات إليه أو احتفاء به! بل إنهما إذ يقولان بميلاد المسيح من عذراء يعودان فيرجعان نسبه إلى داود عن طريق يوسف . وكأنما أرادا أن يسدا هذه الفجوة ، فنسبا المسيح إلى يوسف ، زوج أمه !!

ولو أن المسيحية اعتمدت على إنجيلى مرقس ويوحنا ، وألغت ماعداهما ، وهذا ما كان ممكنا أن يحدث ، إذا قد ألغيت عشرات من الأناجيل — لو أن هذا حدث لما كانت هناك إشارة من قريب أو من بعيد إلى ميلاد المسيح من عذراء ! ويكون مصير

هذا الخبر الضياع والنسيان ، ثم الإنكار .. كما ضاعت ونُسيت ثم أنكرت أخبار كثيرة كانت للمسيح !

كذلك تذكر بعض الأناجيل الأربعة المعتمدة سجود الرعاة والمجوس للمسيح الوليد وعبادتهم له ، كما تذكر تلك المذبحة العظيمة التي قام بها الحاكم الروماني لأطفال اليهود وفرار مريم ويوسف بالمسيح إلى مصر ـ على حين أن بعض هذه الأناجيل لاتذكر من هذه الأحداث شيئا !

فقد جاء في إنجيل « متى » أن « ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم . قائلا : خذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ، لأن « هيرودس » مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه ، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف إلى مصر ، وكان هناك إلى وفاة هيرودوس » (متى ٢ : ١٣ — ١٥)

وفي متى أيضاً : « لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جداً ، فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون » (متى ٢ : ١٦)

وهذا كله لم تذكر الأناجيل الثلاثة الأخرى شيئاً عنه .

فكيف يكون الحال لو ألغى إنجيل متى كما ألغيت عشرات الأناجيل ؟

وأعجب ما في هذا الأمر أن يكون هذا الخبر الذي يخبر به القرآن عن المسيح ليس موضع توقف عند أتباع المسيح وحسب . بل إنهم ليتخذون من هذا دليلا على أن القرآن ليس من عند الله ، وأنه يجيء بالأكاذيب والمفتريات ، ويجعلون من ذلك حجة على أن القرآن مفترى على الله ، وأنه من عمل « محمد » .. إذ لو كان من عند الله لأخبر بما يعرف المسيحيون عن المسيح ، وهم لايعرفون أنه تكلم في المهد ! وهم خاصته وأعلم الناس به !!

ولقد دارت في هذا الأمر مساجلات بين المسلمين والمسيحيين في الفترة التي

ازدهر فيها علم الكلام ، وكثر احتكاك العقول بأمور الدين من أتباعه وغير أتباعه !

وقد شهد الجاحظ هذا الصراع العقلى وشارك فيه ، وكتب رسالته المعروفة « فى الرد على النصارى » وقد أورد فيها اعتراضهم على القرآن فيما أخبر به عن كلام المسيح فى المهد ..

ولا بأس من أن نورد بعض ما أورده الجاحظ فى هذه المسألة من اعتراضات ودفوع ، وإن كنا نرى « الجاحظ » هنا قد استغنى ببلاغة قلمه ، عن كثير مما كان ينبغى أن ينظر فيه من مصادر القضية وتقليب وجوهها .

يقول الجاحظ : « فأما مسألتهم — أى النصارى — فى كلام عيسى فى المهد ، فهى أن النصارى مع حبهم لتقوية أمره لايثبتونه ! (١) وقولهم إنا تقولناه ورويناه عن غير الثقاة ، وأن الدليل على أن عيسى لم يتكلم فى المهد أن اليهود لايعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند ، والخزر والديلم !!

« فنقول فى جواب مسألتهم عن إنكارهم كلام المسيح فى المهد . . . « لعمرى لو كانت اليهود تقر لكم بإحياء الأربعة الذين تزعمون ، وإقامة المقعد الذى تدعون(٢) وإطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة وتصيير الماء خمرا والمشى على الماء . ثم أنكرت الكلام فى المهد من بين جميع آياته وبراهينه — لكان لكم فى ذلك مقال، وإلى الطعن سبيل ، فأما وهم يجحدون ذلك أجمع ، فمرة يضحكون ومرة يغتاظون ويقولون : إنه صاحب رُقى ونيرنجات ، ومداوى مجانين، ومتطبب وصاحب حيل .. فكيف تستشهدون قوما هذا قولهم فى صاحبكم ، حين قلتم كيف يجوز أن يتكلم صبى

---

(١) أى لايثبتون أن المسيح تكلم فى المهد

(٢) إنه ليس عن زعم ولا عن دعوى وإنما هو الحق ، فالمسيح قد أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ، كما يقول القرآن

فى المهد مولودا ، فيجهله الأولياء والأعداء ؟ (ثم يورد الجاحظ مثل هذا الرد على المجوس والهند والخزر والترك .. حتى ينتهى إلى الرد على النصارى) فيقول: فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : مالنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن أحد بتة ؟ فجوابنا أنهم — أى النصارى — إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريين بزعمهم — يوحنا ومتى واثنان من المستجيبة [1] وهما « مارقش، مرقس » ولوقش « لوقا » وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ، ولا تعمد الكذب ولا التواطؤ على الأمور .. فإن قالوا إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا وأحفظ من أن ينسوا شيئا ، وأعلى من أن يغلطوا فى دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهدا _ قلنا إن اختلاف روايتهم فى الإنجيل وتضاد معانى كتبهم واختلافهم فى المسيح مع اختلاف شرائعهم دليل على صحة قولنا فيهم وغفلتكم عنهم !

« وما ينكر من مثل « لوقش » أن يقول باطلا ، وليس من الحواريين. وقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة ! » [2]

ونحن لا نقبل قول الجاحظ فى هؤلاء الحواريين من أنه لا يؤمن عليهم الغلط والنسيان وتعمد الكذب والتواطؤ على الأمور _ فإن حواريى المسيح وتلاميذه أجل من أن يكذبوا أو يعمدوا الكذب أو يتواطئوا عليه ، إذ كان الله سبحانه وتعالى هو الذى اختارهم للمسيح أعوانا وأنصارا كما يصرح بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون» [3].

---

(١) أى الذين استجابوا للمسيح ودخلوا فى الدعوة

(٢) انظر رسالة الجاحظ « فى الرد على النصارى » ص ٢٢ ، ٢٦ ضمن ثلاث رسائل طبعت بمعرفة « يوشع فنكل » المطبعة السلفية ١٣٤٢ هـ

(٣) سورة المائدة: ١١١

والذى يمكن أن يقال فيما وقع فى الأناجيل من اختلاف ، وماجاء فيها من مقولات ، يقف العقل إزاءها موقف الشك أو الإنكار — الذى يمكن أن يقال فى هذا هو أن الأناجيل إما أن تكون قد كتبت بأيدى أصحابها المعروفين ، ثم دخل عليها ماليس منها مما هو موضع خلاف أو شك أو إنكار، وذلك عن طريق الناقلين والمترجمين ، وإما أن تكون قد كتبت بأيد غير أيدى أصحابها ، ثم أضيفت إليهم وحسبت عليهم لتكتسب ثقة وذيوعا . . وهنا يتسع المجال لوقوع تلك الاختلافات بين الأناجيل ، وما تحمل فى ثناياها من تلك المقولات !!

أما الحواريون فإنهم أبعد من أن يكونوا موضع ظنة أو تهمة !!

وبعد ، فإن القرآن قد أخبر بأن المسيح تكلم فى المهد ، وهذا الخبر — كما قلنا — هو معجزة متحدية ، إذ ينكره ، من هم أشد الناس حرصا على وقوعه ، ليكون حجة تقوى معتقدهم فى ألوهية المسيح وفى خروجه عن طبيعة البشر !

إن ذلك عند المؤمنين بالقرآن معجزة متحدية ، وهو عند غير المؤمنين دعوى ينقصها الدليل والبرهان ، أو فرية يرددها المنتفعون بها .

فهذه منازل ثلاث .. للقول بأن المسيح تكلم فى المهد . . والناس على منازلهم فيها إلى أن يأتى أمر الله ، فينكشف وجه الحق . . ويومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه !

ثانيا

رجعة المسيح أو المسيح المنتظر

الواقع والمتوقع :

قلّ أن يرضى الناس حتى فى أحسن أحوالهم عن الواقع الذى يعيشون فيه ، إذ تطل عليهم دائما من الغد المقبل صور زاهية معجبة ، تحملها الرؤى والأحلام ، فتتوالد

منها الأمانى والآمال المسعدة، التى توسع للناس فى آفاق الحياة، وتمد لهم فى أسباب الرجاء، فيما هو أحسن وأطيب مما هم فيه.

ولهذا فإن دعوات الإصلاح كلها ترتكز على ماتَعِد به فى المستقبل من جزاء حسن، أكثر من اعتمادها على ماتقدمه للناس فى يومهم الذى هم فيه.. إنها تعد دائما بأكثر مما أعطت أو تعطى.. إذ لو كان كل ماعندها هو ماصار إلى أيدى الناس لنفضوا أيديهم منها، حيث لاشىء ينتظرونه من جهتها!

فالذى يصل الناس بالحياة ويوثق صلتهم بها، هو المستقبل، وما فيه من آمال. وقد يكون المستقبل أسوأ حالا وأنزل درجة من الحاضر، ولكنه — وهو ملفف فى أستار الغيب — مشرق مسعد، بما يترقرق على آفاقه من طيوف الآمال والأحلام!

من أجل هذا قامت فى الناس «عقيدة» المخلّص المنتظر، فكان فى كل أمة وفى كل جيل «المسيح المنتظر» على اختلاف تصورهم له، ورجائهم فيه.

والصورة العامة لهذا «المسيح» أنه قوة خارقة، تجىء على غير موعد محدد، وتطلع من جهة غير معروفة، فتقضى على الشرور والآلام، وتقيم الناس على العدل والرحمة والمودة، وتمد الفقراء والمحرومين بكل ماتشتهى أنفسهم من مال ومتاع!

إن «المسيح» أو المخلص هو حلم الإنسانية المكدودة المجهدة، يتردد فى خاطرها، ويطرقها فى أحلامها، كلما ألمت بها المكاره، وألحت عليها المحن.

مسيح اليهود:

وليس من همنا هنا أن نؤرخ لهذه الظاهرة الإنسانية، ولا أن نتتبع سيرها فى الحياة، ولا أن نضبط آثارها فى التفكير الإنسانى..

وبحسبنا، ونحن بصدد الحديث عن رجعة المسيح عيسى بن مريم — أن نقف وقفة مع «مسيح» اليهود الذى كانوا ينتظرونه، ويرقبون الخلاص على يديه!

وقد أشرنا فى ثنايا هذا البحث إلى أن اليهود كانوا ينتظرون « مخلّصا » يجمع شتاتهم ، ويرد عليهم ماسلبت يد الدهر منهم ، بعد أن وقع بهم ماوقع على أيدى جيرانهم الأقوياء ، من أسر وتقتيل وتشريد ، أما هذا المسيح المنتظر فإنه « سيقضى على عهد الشر والإثم — كما تقول أسفار الرؤيا — إما بتدخل الله نفسه ، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله « المسيح » (١) .

وقد تنبأ به إشعيا إذ قال : « ويولد لنا ولد ونُعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلٰهاً قديرا أبا أبديا رئيس السلام » .

« وكان كثيرون من اليهود يتفقون مع « أشعيا » فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى ، يولد من بيت داود الملكى ، ومنهم من يسمونه « ابن الإنسان » كأخنوخ ودانيال ، ويصورونه بأنه سينزل من السماء !

« ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يُجمعون على أن المسيح سينتصر انتصارا سريعا ، ولكن « أشعيا » تصوره فى فقرةٍ من أروع فقَراته ، بأنه محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ، ومختبر الحزن .. لكن أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحملها ، وهو مجروح لأجل آثامنا . . وبجبره شفينا . . « بيد أنهم جميعا — أى اليهود — متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائيل ويتخذ « أورشليم » عاصمة له ، ويضم إليه الناس جميعا ليؤمنوا بيهوه ، والشريعة الموسوية . ويسود بعد ذلك عصر طيب تسعد به الدنيا بأجمعها ، فتكون الأرض كلها خصبة ،

---

(١) وردت كلمة مسيح (وهى بالعبرية مَشيح) فى كثير من المواضع فى العهد القديم وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٣٨ ق . م) باللفظ اليونانى الذى معناه الشخص الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به .

ويحمل كل حبة قدر ما كانت تحمله ألف مرة ، ويصير الخمر موفورا ، ويزول الفقر ويصبح الناس كلهم أصحاء مستمسكين بالفضيلة !! وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض !!»(١)

وقد جاء المسيح عيسى بن مريم إلى اليهود ، لا ليقيم لهم ملك سليمان ولا ليملأ أيديهم من زينة الحياة الدنيا وزخارفها ، ولكن ليطب لأرواحهم المريضة ، ولينزع الدّخل الذى ملأ قلوبهم ، والذى عزلهم عن المجتمع الإنسانى وأغرى بهم الناس أن يعاملوهم معاملة العدو الذى يتربص بهم الدوائر . . جاء المسيح « عيسى » بن مريم إلى اليهود ليخلصهم من تلك الأمراض الخبيثة المندسة فى نفوسهم ، المتسلطة على عقولهم، وفى هذا خلاص لهم من كل شر، وأمن لهم من كل سوء .. لو كانوا يعقلون!!

ولكن القوم : استقبلوا هذه الدعوة بوجوه منكرة ، وقلوب مغلقة ، فلم يروا فيها بارقة من بارقات الخير لهم ، فأداروا لها ظهورهم ، ثم لم يلبثوا أن تخلصوا من المسيح المزعوم بزعمهم ، ليستقبلوا المسيح المرسوم بوهمهم ، وإنهم ما زالوا فى معرض الاستقبال ينتظرون وينتظرون . . وهيهات !

إنهم ينتظرون مسيحا يملأ أيديهم بالذهب، ويفتح عليهم كنوز الأرض، لا مسيحاً يبشر فيهم بملكوت السماء !

مسيح المسيحيين:

والمسيح عيسى بن مريم الذى رفضه اليهود قد قبله كثير من الناس ، على أساس الدعوة التى جاء بها، وهى الخلاص من آفات النفس ، والاستعلاء على مطالب الجسد ونوازعه !

ولقد سار وراء المسيح ألوف مؤلفة من اليهود ، مبهورين بآياته ومعجزاته ؛

(١) قصة الحضارة الجزء الحادى عشر ص ١٨١ — ١٨٢

مأخوذين بالحكمة تشرق من فمه ، وبالإنسانية الرحيمة الحانية الودود تتدفق فى قوله وفى عمله . .

فكان هذا الجيش الجرار من المؤمنين برسالته من رجال ونساء ، ومن أصحاء ومرضى ، ومن شيوخ وشباب . كانوا — فى جملتهم — يؤمنون بأن « يسوع » هو المسيح المنتظر الذى خلص الكثير من أوجاعهم وعللهم ، وهو بسبيل أن يخلص الجميع من آلامهم وأحزانهم !

ولكن وقع مالم يكن فى الحسبان !

لقد ذهب المسيح فى ريعان شبابه ، فانقطعت الآمال التى كانت معاقة عليه ، والتى كانت تشد الكثير من أتباعه نحوه ، وتحملهم على أن يتخففوا من كل مافى أيديهم من مال ومتاع ! فكان هذا الفراق المفاجىء مخيبا لآمال أتباعه . . إلا قلة قليلة ممن عصم الله !

ثم كانت الصورة التى تراءت للناس فى صلب المسيح ، وفى التنكيل به هى القاضية على ما كان يمكن أن يحتفظ به بعض أتباعه من إيمان بأنه هو « المسيح » !

لقد استكثروا على « المسيح » أن يخلى مكانه من بينهم وهم على أول الطريق معه ، ثم استنكروا أن تكون نهايته على تلك الصورة المخزية المؤلمة . . هكذا الناس مع من يحبون ، ويقدرون أو يقدسون ! !

ولعمر بن الخطاب موقف عند موت الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — أشبه بهذا الموقف ، لولا أنه وجد من يراجعه ، ويتلو عليه قول الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : « إنك ميت وإنهم ميتون »

لقد أحدث موت المسيح فراغا هائلا لايملؤه شىء إلا أن يعود « المسيح » نفسه إلى أتباعه ، وأن يلقاهم من جديد ، ويصل ما انقطع من حياته معهم !

وكان أن قام المسيح أو أقيم من بين الأموت ، وذلك بعد حادثة الصلب بثلاثة أيام ، وتناقل أتباعه هذا الخبر ، وتلقفته الجماهير المحزونة المفجوعة بلهف عظيم !!

ومع أن هذا الخبر كان عن سماع ، فإنه قد أفلح إلى حد بعيد فى إعادة ماعزب من إيمان المؤمنين ، فأمسكوا به وشدوا أيديهم عليه ، إذ لم يكن ثمة سبيل غيره ، إلا الاستلام لليأس والضياع ، وإلا اليقظة المباغتة من هذا الحلم الجميل المسعد ، الذى عاشوا فيه مع المسيح ، فى نشوة غامرة . وسلام روحى خالص .

وبهذا الإيمان الجديد المهزوز واجهت جماهير المؤمنين من أتباع المسيح الحياة ، وخطت نحو المستقبل بخطوات راجفة مضطربة . .

« فالمسيح » الذى تعلقت آمالهم به قد ذهب مسرعا . . ومات مصلوبا !

« والمسيح » الذى أقاموه من بين الأموات لم يكن إلا مجرد خبر يروى ، وحتى هذا الخبر لم يدم أكثر من أيام معدودات ! ثم رحل المسيح رحلة أبدية إلى العالم العلوى !! .

عودة المسيح .. مرة ثانية :

وكان لابد أن يعود المسيح مرة أخرى ، وأن تكون عودته هذه المرة فى صورة واقعية ، يلتقى فيها المسيح بالناس ، ويتحدث إليهم ، ويقضى فى أمورهم . ويغير من أوضاع حياتهم !

وإذا كان لابد من أن يجىء المسيح فإنه لابد أيضا أن يقوم القول بهذا على نص سماوى من التوراه أو الإنجيل !

وقد قلنا إن « مسيح » التوراة لازال منتظرا من اليهود .

أما مسيح المسيحيين فقد كانت قيامته من الأموات مستندة إلى نص فى الأناجيل . كما أشرنا إلى ذلك فى مبحث: « قيامة المسيح » ! !

وأما رجعته فقد أقيمت لها نصوص فى الأناجيل وفى رسائل الرسل . .

وموضع الضعف فى هذه النصوص أنها كُتبت بعد أحداث الصلب والقيامة، ولهذا خلت من الاختلاف الحاد والتناقض البعيد ، على حين أن النصوص التى تحدثت عن رجعة المسيح المنتظرة ، قد اختلفت وتناقضت . . وهذا أقل مافيه أنه يدعو إلى القول بأن ماحدثت به الأناجيل عن « القيامة » قد سُوّى على حدث وقع . . أما ماحدثت به عن الرجعة ، فإنه حديث عن أمر متوقع ،ولهذا تطابق الخبر مع الحدث فى الأول ، ولم يتطابق فى الآخر . . كما سنرى !

تتحدث الأناجيل على لسان المسيح ، عن رجعته ، وعن العلامات التى تسبق هذه الرجعة . .

ففى إنجيل « مرقس » نجد هذا النص :« وفيما هو — أى المسيح — جالس على جبل الزيتون ، تجاه الهيكل ، سأله بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس على انفراد: قل لنا متى يكون هذا ، وماهى العلامة عند مايتم جميع هذا ؟ فأجابهم يسوع وابتدأ يقول : انظروا ..لايضلكم أحد ، فإن كثيرين سيأتون باسمى قائلين : إنى أنا هو ، ويضلون كثيرين . . فإذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا ، لأنها لابد أن تكون ، ولكن ليس المنتهى بعد . . وينبغى أن يكرز أولا بالإنجيل فى جميع الأمم.. فمتى رأيتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة حيث لاينبغى، ليفهم القارىء (١) فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال،والذى على السطح فلاينزل

(١) هذه العبارة واردة فى الإنجيل هكذا ، وهى لاشك ليست من كلام المسيح فسياق الحديث أخذ طريقا غير طريق هذه العبارة !! ولا أدرى ما حكمة وضعها هنا،إلا أن يكون أحد نساخ الأناجيل قد ألحقها بالنص الأصلى ليلفت القارىء إلى مايجب أن يكون منه من التدقيق والنظر فى التعرف على رجسة الخراب !!!

إلى البيت ولا يدخل ، ليأخذ من بيته شيئا . . والذى فى الحقل فلايرجع إلى الوراء ليأخذ ثوبه ... حينئذ إن قال لكم هوذا المسيح هنا أو هو ذا هناك فلاتصدقوا ، لأنه سيقوم مسحاء كذبة ، وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا.. فانظروا أنتم.. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم بكل شىء .

« وأما فى تلك الأيام بعد ذلك الضيق فالشمس تظلم ، والقمر لايعطى ضوءه، ونجوم السماء تتساقط،والقوات التى فى السماء تتزعزع،وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيا فى سحاب بقوة كثيرة ومجد ، فيرسل حينئذ ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض إلى أقصاء السماء . .

« الحق أقول لكم.. لايمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله ... السماء تزول ولكن كلامى لايزول .. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلايعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن ، إلا الأب). [(١)]

وقد ذكر إنجيلا متى ولوقا هذا الخبر على صورته تلك مع اختلاف قليل . . ولكن العجب فى هذا ألا يذكر «يوحنا» هذا الخبر فى إنجيله ، وهو أحد الحواريين الأربعة الذين سألوا المسيح على انفراد ، فأفضى إليهم به ! ولكن « يوحنا » يتحدث فى إنجيله على لسان المسيح مرة ، فلم يخبر بأنه آت بعد أن يذهب ، ويتحدث عنه مرة أخرى بأنه أخبر بأنه سيعود .

يقول يوحنا « فأجابه الجميع — يقصد المسيح : نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد . . فقال لهم يسوع : النور معكم زمانا قليلا بعد ، فسيروا مادام النور لئلا يدرككم الظلام . . (يوحنا ١٢ : ٣٤ : ٣٦)

وفى مرة أخرى يقول يوحنا على لسان المسيح مخاطبا تلاميذه : « بعد قليل لاتبصروننى،ثم بعد قليل أيضا تروننى ، لأنى ذاهب إلى الأب » (يوحنا ١٦ :١٦) .

---

(١) إنجيل مرقس ١٣ .

وفى مرة ثالثة ـ يقول المسيح لتلاميذه ـ كما جاء فى إنجيل يوحنا.. « وإلا فإنى كنت قد قلت لكم أنا أمضى لأعدّ لكم مكانا ، وإن مضيت وأعددت لكم مكانا آتى أيضا وآخذكم ، إلى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضا » (١٤ : ١ — ٣)

ورجعة المسيح ـ كما تبدو فى هذه الأخبار ـ واقعة بين يدى الساعة ، حيث تجىء أشراطها بهذا الانقلاب العظيم الذى يضطرب له نظام الكوكب الأرضى كله !

وهذا يتفق مع ماجاء فى القرآن الكريم عن الأحداث والإرهاصات التى تسبق يوم الساعة ، فمن ذلك قوله تعالى: « إذا السماء انفطرت .. وإذا الكواكب انتثرت (سورة الانفطار) .

وعلى هذا يمكن أن يكون « المسيح » عَلَمًا من أعلام الساعة ، وهذا ماتشهد له الآية الكريمة : « وإنه لعلم للساعة » فى قراءة « لعلم » بفتح اللام والعين واللام بعدها .

ولنا هنا وقفتان :

(الأولى) : فى هذا التناقض فيما ينسب للمسيح من مقولات عن موعد هذا اليوم الذى يجىء فيه « المسيح » أو « ابن الإنسان » كما يقول هو عن نفسه إذ لم تصدّق الأيام ماحدثت به الأناجيل على لسان المسيح :

ففى إنجيل متى ومرقس يحدد المسيح مجيئه بقوله : « الحق أقول لكم إنه لايمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله » وفى إنجيل متى أيضا على لسان المسيح : « الحق أقول لكم إن من القيام ها هنا قوما لايذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته » (متى ١٦ — ٢٨) .

وقد مضى الجيل الذى تحدث إليه المسيح ، وتعاقبت أجيال وأجيال كثيرة بعده وابن الإنسان لم يجىء بعد !

(والثانية) أن المسيح المنتظر هو مسيح يعمل فى الحياة ويبدل من أوضاعها ، فيقيم فيها موازين الحق والعدل ، ويفتح للناس خيرات وبركات من السماء والأرض . .

ولكن المسيح الذى تحدثت عنه الأناجيل إنما يكون مجيئه مع أحداث الساعة ، يوم تتبدل الأرض غير الأرض والسموات !

فماذا يؤمل الذين ينتظرون المسيح من خير وقد عصفت بهم العاصفة واجتاحهم الردى ؟ .

إن « المسيح » أمل لحياة طيبة ، آمنة ، مستقرة . .

فأين هذا من ذاك ؟

إن « المسيح » الذى وعدت به الأناجيل ليس هو المسيح الذى يتلاقى مع آمال أتباعه ، ويحقق بعض أحلامهم ، ولهذا فإن هؤلاء الأتباع كانوا يستدعون المسيح المنتظر ويهتفون به كلما اشتد بهم الأذى ، وكاد اليأس يذهب بالبقية الباقية من إيمانهم ! ثم يبيتون على أمل لقائه فى مطلع الغد !

فإذا لم يحقق لهم الغد هذا الأمل المنتظر ضربوا له موعداً آخر . . وهكذا . . !

فقد كان القديس بولس يفزع إلى « المسيح » المنتظر ، ويلفت الأتباع إليه ، وبشخص بأبصارهم نحو مقدمه القريب فيجدون فى هذا سكَنا وعزاء !

وإذ تكررت هذه اللفتات إلى « المسيح » وإذ كلّت الأبصار من الشخوص إليه ، فقد رأى الداعية الحكيم أن يتجه إلى أتباعه يلومهم على هذا القلق وهذه اللهفة فى انتظار « المسيح » !

ففى رسالة «بولس» إلى أهل فلبى يقول لهم. « ننتظر مخلصا هو الرب « يسوع » المسيح . . الرب قريب ! »

ويقول فى رسالته إلى أهل « كورنثة »: الوقت منذ الآن مقصر، لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم .. والذين يشترون كأنهم لا يملكون .. لأن هيئة العالم تزول »

وفى رسالته الثانية إلى أهل « تسالونيكى » يلوم أتباعه هناك على أنهم مهملون شئون العالم انتظارا لمجىء « المسيح » فيقول: « لا يأتى ـ أى المسيح ـ إن لم يأت الارتداد، ويستعلن إنسان الخطيئة (الشيطان) مظهراً نفسه أنه إله [1] » .

ويمضى « بولس » ولا يجىء المسيح . . ولكن النفوس لا تزال متشوقة إليه ، والأبصار شاخصة نحوه !

فالمسيحية المضطهدة كانت فى أشد الحاجة إلى « المخلّص » فى هذا الوقت . . فإذا لم يجىء مسرعا ، لينقذها من مخالب العدو الناشبة فيها ، فهيهات أن يمتد بها العمر ، أو تعود إليها الحياة من جديد !

من أجل هذا فقد عمد كثيرون من رجال الكنيسة إلى التبشير بالمسيح المنتظر ، وأن يومه قد أظلّ ، وأن ساعته قد دنت !

يقول « ول ديورانت » !

« كان ثمة عقيدة مشتركة وحّدت بين الجماعات المسيحية المنتشرة فى أنحاء العالم ، هى أن المسيح ابن الله ، وأنه سيعود ليقيم مملكته على الأرض ، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم فى الدار الآخرة !

---

(١) وإنسان الخطيئة هنا هو ما يعرف « بالمسيخ » الدجال

« ولكن المسيحيين اختلفوا فى موعد عودة المسيح . .

« ولما أن مات « نيرون » وخرّب « تيطس » الهيكل ، ولما أن دمر « هدريان » أورشليم رحب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث ، وعدوها بشائر بعودة المسيح !!. »

أرأيت كيف كانت فكرة المسيح المنتظر عاملا قويا فى تعزية المصابين والمضطهدين وفى تصبيرهم على ماهم فيه من بلاء .. فإن الفرج قريب!

ثم يقول ول ديورانت :

« ولما أن هددت الفوضى الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الثانى ظن « ترتليان » وغيره أن آخرة العالم قد دنت ! وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق ! وأفسد أسقف آخر نظام أتباعه إذ أعلن أن المسيح سيعود خلال عام واحد !!

« ولما لم تصدق كل هذه المقولات ، ولم يعد المسيح ، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هـذه الخيبة ، بتفسير موعد عودته تفسيراً جديداً ، فقيل فى رسالة معزوّة إلى « برنابا » إنه سيعود خلال ألف عام . وقال أشد هؤلاء حذرا : إن عودته ستكون حين ينقرض جيل اليهود أو شعبهم عن آخره ، أو حين لم يبق أحد من اليهود لم يصل إليه الإنجيل !! .

وينهى ول ديورانت حديثه عن رجعة المسيح ، وتأثر المسيحية بها .. بقوله :

« وملاك القول أن الاعتقـاد بعودة المسيح ثانية هى التى أقامت المسيحية ، وأن الأمل فى الدار الآخرة هو الذى أبقى عليها !! »(١) .

---

(١) قصة الحضارة جزء ١٣ ص ٢٩٠ و ٢٩١

لمـاذا يعود المسيح ثانية ؟:

وهذا السؤال إنما يوجه إلى أتباع المسيح وحدهم !

ألم يجئهم المسيح ؟ ألم يمكث فيهم من عمره سنين ؟
ألم يبشر فيهم بدعوته ؟ ألم ينشر فيهم إنجيله ؟ ألم يعطهم كل ماعنده ؟

فلم الرجعة ثانية ؟

وإذا كان فى العودة شىء جديد يقدمه المسيح لأتباعه أو للعالم ، فلماذا أمسك به وحرم الأجيال المتعاقبة من هذا الخير الذى ينتظره المنتظرون من عودته ؟

وما الوجه الذى يعود به ؟

أيولد ميلادا جديدا ؟

أيتخذ له جسدا من عذراء ، ويتجسد فيه ؟

أيدرج فى الحياة كما درج فيها أول مرة . . فيكون طفلا فصبيا ، فغلاما ، فشابا ، فكهلا ؟

أم أنه يجىء على الصوره التى كان عليها فى آخر أيامه . . فيصل من حياته على الأرض ما انقطع ؟ !

أسئلة تكثر الإجابة عليها ، وتختلف الأقوال فيها . لأن كل إجابة إنما تستند أولا وأخيراً إلى مشاعر أصحابها ، وإلى مايتلبس بهم من ظروف وأحوال .

المسيح المنتظر . . والإسلام

فى كتب الأحاديث والأخبار مرويات كثيرة عن ظهور المسيح آخر الزمان ، وقتله المسيحَ الكذاب الذى يطلق عليه « المسيح الدجال » . . أو « المسيح » أو « الدجال » فكلها من أسمائه وصفاته !

وهذه المرويات من الأحاديث والأخبار فى شأن المسيح عيسى بن مريم ، أو فى شأن المسيح الدجال لا متعلق لها بالعقيدة الإسلامية ، إذا ثبتت صحتها أو لم تثبت .

فسواء ظهر الدجال أو لم يظهر ، وسواء أجاء المسيح أم لم يجىء ، فذلك لا حساب له فى أمر العقيدة ، التى يقيمها الإسلام فى كيان أتباعه .

فالعقيدة الإسلامية تقوم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وليس الإيمان بمجىء المسيح بن مريم أو المسيخ الدجال واحداً من هذه الحقائق التى لا يكون المؤمن مؤمنا إلا بها جميعها .

ويُذكر المسيح عيسى بن مريم والمسيخ الدجال فى كتب الأحاديث والأخبار عند معرض الحديث عن يوم القيامة ، وما يقوم بين يديها من أشراط وعلامات !

ولا بأس من أن نذكر هنا بعض الرويّات فى هذا الأمر .

ففى سنن أبى داود عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال . « كنا جلوسا فى ظل غرفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرنا الساعة ، فارتفعت أصواتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن تكون — أو لن تقوم — حتى يكون قبلها عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال ، وعيسى بن مريم ، والدخان ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمغرب وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك تخرج نار من اليمن ، ومن قعر عدن ، تسوق الناس إلى المحشر (١) » .

وعن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليس بينى وبينه نبى — يعنى عيسى — وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه :

---

(١) سنن أبى داود جزء ٦ ص ١١ وقد أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة .

رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، بين معصفرين (٢) كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويهلك اللهُ فى زمانه المللَ كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون (٣) .

والأحاديث والأخبار المروية فى هذا البـاب كثيرة .

والذى نقف عنده من هـذه الأحاديث وتلك الأخبار أنها جميعهـا جاءت فى مساق الحديث عن أمر الساعة ، ومايقع بين يديها من علامات ، وأن المسيح والدجال يُذكران فيما ذُكر من أشراطها وعلاماتها .

والقرآن الكريم يحدث عن الساعة بأنها آتية لاريب فيها ، ولـكن لا يـكشف عن يومها ، فذلك مما استأثر به سبحانه وتعالى .

فالله سبحانه وتعالى يقول مخاطبا نبيـه الـكريم « يسألونك عن الساعة أيَّـانَ مُرساها ، فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها » (سورة النازعات : ٤٢)

ويقول سبحانه أيضاً « يسألونك عن الساعة أيّـان مُـرساها؟قل إنمـا علمها عند ربى لايجلّـيهـا لوقتها إلا هو » (سورة الأعراف ١٨٧)

ويقول سبحانه « إن الله عنده علم الساعة » (سورة لقمان : ٣٤)

فهذا حديث القرآن الـكريم عن الساعة .. علمها عند الله .. « لاتأتيكم إلا بغتة » إنه يؤكد مجيئها ويخفى يومها الذى تجىء فيـه . . أما الوجه الذى تجىء عليه فقـد كشف عنه القرآن الـكريم كشفا واضحا صريحا ، ليرى الناس على هذا الوجه أهوال

(٢) المعصفر من الثياب : الملون بالصفرة وليست صفرته بالمشبعة

(٣) سنن أبى داود جزء ٨ صـ ١٧٧

هذا اليوم، وما ينتظر فيه العصاة المعاندين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر من عذاب ونكال .. ففي هذا يقول الله تعالى فى وصف هذا اليوم وما يقوم بين يديه أو يجرى فيه .. « يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا » ، « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميا » ، « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر » ويقول « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

فإذا رُويت أحاديثُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذا ـ تحدث عن أشراط الساعة ، وعما يقع بين يديها ، فليس ذلك للاعلام بها والرصد ليومها والتنبؤ بوقوعها ، وإنما ذلك للكشف عن الأهوال العظيمة التى تقع فى هذا اليوم العظيم .. وأنه مسبوق بأحداث جسام ، تنقلب بها أوضاع الحياة ، وتتغير معالم الكون الذى يحوى العالم الإنسانى .. ورجعة المسيح بين يدى الساعة حدث عظيم ، تدور له الرءوس فى ذلك الوقت الذى أصاب الناس ما أصابهم فيه من وجوم وذهول !

ولكن لماذا المسيح بالذات ؟

أليس إنسانا بشرا عند المسلمين .. فلم له العودة وحده من دون الناس فى هذا الوقت ؟

أليس ذلك بالذى يجعل القول بأنه إله ، أو ابن إله أقرب من القول بأنه إنسان وابن إنسان ؟

ونقول :

أولا : لم يقل الإسلام فى كتابه الكريم بأن للمسيح رجعة إلى هذه الدنيا .. ولو كان ذلك من متعلقات العقيدة لما ترك القرآن الكريم بيانه !

وعلى هذا فالقول برجعة المسيح ليس من المقولات المحسوبة على الإسلام فى عقيدته أو شريعته .

ثانيا : هذه المرويات من الأحاديث ليست من الأحاديث المتواترة، ذات الدلالة القاطعة ، التى تعطى أحكاماً ملزمة.. وإنما هى أخبار تضاف إلى كثير من تلك الأخبار التى أراد بها واضعوها ـ عن سذاجة وحسن نية ـ أن يضيفوا إلى الإسلام بعض ما كان فى الكتب السابقة من أخبار .. حتى إذا حدث أهل الكتاب بشىء منها كان المسلمين أن يقولوا إن عندنا مثل ما عندكم ! !

ثم ينبغى أن نذكر هنا أن « اليهود » ينتظرون ـ فى يقين ـ « المسيح » الذى تحدثت عنه أسفار التوراة ، وأنهم وقد رفضوا « المسيح » عيسى بن مريم ، فقد بات أملهم معلقا بالمسيح الموعود ، ولهذا فقد حدثوا به من كانوا يلتقون بهم فى الجزيرة العربية. ثم إن من دخل منهم الإسلام دخل ومعه هذه العقيدة التى آمن بها وتلقاها عن كتاب سماوى مقدس ، وقد استمع كثير من علماء المسلمين وفقهائهم إلى هذه « المرويات » وتناقلوها ولم ير بعضهم بأسا من قبولها ، وخاصة إذا تلقوها منسوبة إلى إلى رسول الله !

وأكثرُ هذه المرويات عن المسيح ، والمسيخ ، والمهدى، إنما حدث بها فى الإسلام جماعات ممن دخلوا فى الإسلام من علماء أهل الكتاب ، مثل كعب الأحبار وغيره ، فتلقاها المسلمون عنهم ، فكانت أحاديثَ تروى ،حتى إذا جاء عصر التدوين وجدت طريقها إلى المفسرين وإلى المحدثين . . ولأنها لم تكن ذات شأن فى العقيدة أو الشريعة فقد تُسومح فيها،ووقف علماء المسلمين منها بين مسرف يأخذ كل مايقع له ، ومقتصد يأخذ القليل ويدع الكثير .. وفى حساب هؤلاء وأولئك أن شيئا من ذلك لايغير من وجه الإسلام ، ولايبدل شيئاً من حقائقه !.

ثالثا : لو كانت للمسيح رجعة .. بين يدى الساعة ، فليس ذلك إلا إعلانا للناس بقدرة الله سبحانه وتعالى ، وأن البعث الذى هم فى شك منه قد وقع على صورة لاشك فيها ، فهاهو ذا المسيح الذى عرفوا من أخباره ماعرفوا وأنه قد صلب ومات منذ كذا من آلاف السنين .

هاهو ذا يعود إليهم ـ لا فى صورة متخيلة كما رآه عليها الراءون ـ بعد صلبه ـ وإنما فى صورة حقيقية واقعة حيث يتحدث إليهم ويعيش معهم .

ومن جهة أخرى فإن الاشارة إلى رجعة المسيح تذكّر منه بأمور :

منها :

١ — أنه مرتبط بالوجود البشرى .. يولد فى الناس ويبعث مع الناس .

٢ — أنه ليس إلهًا ولا ابن إله .. وإلا لكان له شئون أخرى غير هذه الشئون

٣ — أنه آية فى مولده ، وفى موته ، وفى بعثه .. « وسلام علىّ يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

* * * *

خاتمة

المسيح الإله .. والمسيح الإنسان

نريد فى هذه الخاتمه أن نتحرر بعض الشىء من الاحتكام إلى النصوص الدينية التى عالجنا بها قضية المسيح — فيما سبق من فصول هذا البحث ، وأن نعيد عرض هذه القضيه على العقل ومنطقه ، وأن نجعل إليه أمر الحكومة فيها ، والأخذ بالوجه الذى يرتضيه منها ، وذلك فى طريق بحثه عن الله ، الذى يريد أن يتعرف إليه ويدين له بالولاء والعبودية ، بحثا متحررا من متعلقات النصوص الدينية التى يلقاها العقل مسلمّا مستسلما !

العقل فى مواجهة المسيح :

وإذ يواجه العقل المسيح ، فإنما يواجه شخصية تاريخية ، لها وجود مادى محقق، رآها الناس رأى العين ، كما يرون أنفسهم . . فالمسيح هو « يسوع » الذى ولد فى قرية الناصرة من مقاطعة الجليل بأرض اليهودية من بلاد الشام ،وأمه «مريم» وأبوه الذى ولد على فراشه ، ونسب إليه ، «هو» يوسف[1] ..وكان مولده إبان حكم الرومان لبلاد الشام،فى السنة الثالثة أو الرابعة قبل الميلاد، على خلاف فى تحديد السنة التى ولد فيها .

والتاريخ يتحدث عن « يسوع » أنه ولد ميلادا طبيعيا حملت به أمه مدة الحمل المعتادة للناس ، فاحتواه رحمها تسعة أشهر ، وأرضعته من ثدييها ، وكفلته كفالة

---

(١) يقول إنجيل يوحنا : « ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة . وهو على ما كان يظن بن يوسف بن هالى (وحنا ٣ : ٣٣)

الأمهات لأطفالهن. ثم كان له صِبيً وشباب، وكهولة، وطريق فى الحياة يسلكه، ورساله يقوم عليها، وأنه فى سبيل هذه الرسالة — شأنه شأن أصحاب الرسالات — قد دخل فى صراع مع القائمين فى طريقه والمتصدين لرسالته، حتى انتهى به الأمر إلى الموت صلبا!

هذا هو مجمل الصورة التى تقع لعينى من يطالع حياة يسوع « المسيح » ويقرأ ماسطر التاريخ من سيرته!

إنه إنسان قبل كل شىء، وفى كل شىء. لم تنكر أمّه التى امتزج دمها بدمه ولحمه بلحمها وخالطت روحها روحه، وأنفاسه — لم تنكر شيئا من أمره، ولم تر فيه غير ماترى الأمهات من أبنائهن .. وإن كانت مخايل النبل والطهر والحكمة تفوحان من أردانه! أوليس هو مع هذا إلاّ بكرها، وواحدا من أولادها الذين استقبلتهم بعده .. ولو أنها رأت فيه شيئا لم تعرفه الأمهات فى أبنائهن لأنكرته، أو لأنكرت نفسها، ثم لكانت منها نفرة من الاتصال برجلها « يوسف » ومعاودة الحمل والولادة! فهو إن يكن إلٰها فقد ولدته، ولا يعقل أن تلد إلٰها أو إلٰهة غيره .. وإن يكن خلقا آخر غير الإله وغير البشر فلن تطاوعها نفسها على الدخول فى تجربة جديدة تلد بها أعجوبة أخرى! ولكنها إذ لم تنكر من وليدها يسوع شيئا، ولم تر فيه غير ماترى الأمهات، واتصلت برجلها « يوسف » فولدت منه بنين وبنات، كما تحدث الأناجيل بهذا.

فقد جاء فى إنجيل متى: « وفيما هو — أى المسيح — يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلموه فقال له واحد: هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك .. » (متى ١٣ : ٤٦ — ٤٧).

وجاء فى إنجيل مرقس: « وخرج — أى المسيح — وجاء إلى وطنه، وتبعه تلاميذه، ولما كان السبت ابتدأ يعلم فى الجموع، وكثيرون إذ سمعوا بهتوا قائلين

من أين لهذا هذا ؟ وما هذه الحكمة التى أعطيت له حتى تجرى على يديه قوات مثل هذه ؟ أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسى ، ويهوذا وسمعان ؟ أو ليست أخواته هنا عندنا ؟ » (مرقس ٦ : ١ — ٤) .

فالمسيح فى نظر أمه هو واحد من أبنائها الذين ولدتهم ليوسف زوجها ، وإن كان له فى نفسها المنزلة الأولى لميلاده الذى جاء على تلك الصورة الفريدة .

أين يضع العقل المسيح ؟

والعقل إذ يواجه المسيح وإذ يلقاه على هذا الوجه الذى عرفته الحياة منه ، وسجله التاريخ له — لا يمكن أن يخرجه عن دائرة البشرية ، أو يعزله عن عالم الإنسان . .

والمسألة هنا هى : أين يأخذ المسيح مكانه من الناس ، وأين المكان الذى يُنزله العقل فيه ؟

وهنا نرى « المسيح » يأخذ أوضاعا مختلفة ، وينزل منازل متباينة ، حسب وزن العقول له . وتقديرها لشخصيته وحسابها لمقومات تلك الشخصية !

وإذن فلا نستبعد أن نرى « المسيح » يأخذ مكان القمة من الإنسانية ، كما لا نستغرب إذا رأيناه ينزل منزلة الحضيض فيها .. ففى هذا الفراغ الهائل بين السطح والقاع يتحرك الناس ، وفيه يتقلبون بحيث يُملأ بهم هذا الفراغ كله !

والمسيح — فى هذه النظرة — واحد من آحاد الناس ، وللناس أن ينزلوه فيهم بالمكان الذى يرونه ، صعودا ونزولا . . مغالين ، أو مقتصدين ، دون أن يخرج فى هذا كله عن دائرة الإنسانية أو يتعدى حدودها !

فكل قول يقال فى « المسيح » مما يقع فى محيط الإنسانية يمكن أن يوضع موضع البحث والنظر ، وأن يعتبر فى معرض القبول والتسليم . . فإذا قال فيه

قوم إنه نبيّ أو صديق . . لم يكن هذا القول مستحيلا . . إذ فى الناس الأنبياء والصديقون !

وإذا قال قوم إنه فارس مغوار ، أو فيلسوف عظيم أو عالم كبير . . لم يكن هذا القول مستحيلا أيضا ، إذ فى الناس الفرسان والفلاسفة والعلماء ! وإذا قال قوم إنه مشعوذ محتال . . لم يكن هذا القول مستحيلا كذلك ، لأن فى الناس المشعوذين والمحتالين !

وهكذا كل قول يقال فيه، مدحا أو ذما ، مما هو واقع فى عالم البشر، لم يكن مستحيلا ولا مستغربا . . والبحث والنظر ، هو الذى يكشف عن صدق أو كذب كل مايقال فيه ، ويَمْحَض مافيه من حق أو باطل . .

ماذا عن المسيح الله ؟

فإذا جاء إلى الناس من يقول لهم : إن « يسوع » هذا الذى رأيتموه أو سمعتم أخباره ، والذى عرفتم من أمره أنه كان بشرا سويا . . فى هيأته وملامحه ، وفى طعامه وشرابه ، ويقظته ونومه ، وفرحه وحزنه ، ورضاه ، وسخطه، وفى كل ماتعرفون من شئونكم ، وما تتقبلون فيه من حياتكم — « يسوع » هذا لم يكن بشرا ، وإنما هو الله رب العالمين ! عاش تلك الفترة المحدودة من الزمان ، فى هذا الموضع المحدود من المكان .. فى مسلاخ الإنسان «يسوع» وفى جسده.. ثم ترك هذا الجلد وزايل ذلك الجسد وارتفع إلى ملكوته — نقول إذا جاء أحد يقول للناس هذا القول فى شأن المسيح ، أو فى أى إنسان غيره من الناس فى طول الإنسانية وعرضها ، فبأى آذان يستمع الناس إلى هذا القول ؟ وبأى عقول يلقونه ؟

ولنذكر أننا هنا بمعزل عن مقولات الكتب المقدسة فى أمر « المسيح » ، وأننا إنما نواجه « المسيح » من خارج الدائرة العقيدية ، وأننا إنما ننظر إليه كظاهرة

إنسانية كان لها فى حياة الناس — ولاتزال — دور كبير ، دارت وتدور حوله فى شئون لهم وشئون !

ونعيد سؤالنا مرة أخرى : بأى آذان يستمع الناس إلى هذا القول الذى يقال فى المسيح الإله ، وبأى عقول يلقونه ؟

ولا نتكلف لهذا السؤال جوابا ، فالجواب حاضر نأخذه من فم التاريخ الذى يحدث عن أعداد كثيرة من الناس قد لبسوا أثواب الآلهة أو ألبسوا هذه الأثواب. ويحدث التاريخ — قبل المسيح وبعده — أن الناس انخدعوا لهذه الآلهة ،وآمنوا بها، وأنزلوها من قلوبهم وعقولهم منزلة الإله الذى يؤمن به المؤمنون بالله !

فى مصر والهند وفارس وفى بلاد اليونان والرومان دان الناس أحقابا طويلة للآلهة البشرية ، من فراعنة وقياصرة وأباطرة وهراقلة ، وعبدوهم عبادة المؤمنين بالله رب العالمين . . ولازالت بقايا هذه الظاهرة باقية ممتدة فى القرن العشرين إلى الحرب العالمية الثانية حيث كان امبراطور اليابان « الإله » — المعبود من دون الله ، فى أمة بلغت من الحضارة والمدينة حظا كاد يجعلها على رأس العالم المتحضر فى هذا العصر ! . .

وفى التاريخ الإسلامى ادعى المدعون ألوهية « على » رضى الله . . . وكادت تكون فتنة لولا أن صدمتها العقيدة الإسلامية صدمة قاتلة بيد « على » نفسه ، الذى أرادوا أن يلبسوه ثوب الإله . !

ويحدث التاريخ الإسلامى أيضا أن « المقنّع » الخراسانى — واسمه عطاء — كان صاحب فرقة من فرق الشيعة وكان مشعوذا،وقد بلغ به الأمر أن ادعى الألوهية لنفسه ، وكان لايسفر عن وجهه ، وقد اصطنع لذلك وجها من ذهب ، تقنع به ، فسمى المقنع . . وكانت له شعوذات ، خدع بها الأغرار من الناس فتبعه خلق كثير مماوراء النهر ، وآمنوا بألوهيته وكادت تكون فتنة !

« ولما اشتهر أمره ثار عليه الناس وقصدوه فى قلعته التى اعتصم بها ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وسقاهن سما فمتن منه ، ثم تنال شربة من ذلك السم فمات أيضا ، وذلك فى سنة ثلاث وستين ومئة هجرية » (١) .

ويحدث التاريخ الإسلامى كذلك عن بعض الفرق المنحرفة من الشيعة وعن تأليههم للخليفة الحاكم بأمر الله ، الذى لازالت بقايا هذه الفرقة المارقة تتعبد له فى جهات منعزلة من بلاد الشام !

وليس ببعيد خبر (سليمان المرشد) الذى ظهر فى بلاد الشام منذ سنوات وادعى الألوهية ، ووجد فى الناس من يستجيب له ويؤمن به !

وتستند دعوى الألوهية لإنسان من الناس على قوة غيبية احتوت هذا الإنسان الإلهى ، أو احتواها هو .. وبهذه القوة الغيبية المندسة فيه صار فوق مستوى الناس، ونزل منازل الالهة !

وقد كان الناس قبل عصر العلم التجريبى يفتحون آذانهم وعقولهم وقلوبهم للقوى الغيبية هذه ، ويتشوفون إليها فيما وراء المادة ، وكانت حياتهم موصولة بها ، مشدودة إليها ، فإذا جاءهم من يحمل إليهم — إن صدقا أو كذبا — خبرا من تلقائها ، أو حديثا من عندها ، وجد من يصغى إليه ويلهث جريا وراءه! وبهذا الشعور خلق الفنانون الأساطير ، ونسجوا الخرافات التى كانت المورد الذى تتزاحم عليه الإنسانية ، وتروى منه أشواقها ومواجدها،وتغذى به آمالها وأحلامها.. وإذ طلع عصر العلم التجريبى على الناس واستقامت العقول على منطق التجربة وحكم الواقع المادى — لم يعد للقوى الغيبية هذا السلطان المتسلط على العقول والقلوب ، ولم يعد فى الناس من تستهويه هذه القوى أو تحمله على الوقوف طويلا عندها .. فإن يكن

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : جزء أول صـ ٤٠٢

للناس مع هذه القوى وقفة فى هذا العصر فهى وقفة اللاهى العابث . الذى يلتمس التخفف من ضغوط المادة وثقل الواقع . . ثم لايلبث أن يأخذ طريقه إلى عالم المادة الواقع الذى يتقلب فيه ويتعامل معه !

ولهذا فإن أى لباس يلبسه الإنسان اليوم غير جلده البشرى وثوبه الإنسانى لايمكن أن يحجب أعين الناس عن حقيقته ، أو أن يخيل إليهم أنه غير إنسان !!

فقد يلبس الناس على المسارح جلود الحيوانات وأثواب الشياطين والجن والآلهة ثم هم مع هذا فى أعين المتفرجين أناس كسائر الناس . . وأن هذه الأثواب وتلك الأصباغ أشياء مستعارة .. لاتغير ولاتبدل من الحقيقة الواقعة شيئا ! ولايخرج الحال بأولئك الذين يدعون لأنفسهم أو يدعى لهم فى هذا العصر — أنهم من طينة غير طينة الناس ومن جلود غير جلود الناس — لايخرج بهم الحال عن تلك الصور المتضاربة التى يلبسها الممثلون والمهرجون !

إن الناس قد استقلوا اليوم بعالمهم الأرضى ، وأجلوا عنه كل قوى غيبية كانت تعيش مع أسلافهم فيه ، وتتحكم فى مصائرهم وتبدل من أحوالهم ، وإنهم إذا شاقهم لقاء تلك القوى الغيبية أطلعوها بقدر ، للتسلية والترفيه ، ثم أرسلوها لتعود من حيث جاءت ! .

والسؤال هنا هو : ترى لو جاء « الله » إلى الناس اليوم فى صورة إنسان من الناس.. يعرفون وجهه ، وليدا ، وطفلا ، وصبيا ، وشابا ، وكهلا . . ثم دعاهم هو أو دعاهم داع غيره إلى الإيمان به إلها ، والتعبد له — أكان يجد من الناس أذنا صاغية وقلبا واعيا لتلك الدعوة ؟ ربما كان بعض الأغرار وأصحاب الأهواء والبدع ممن تستهويهم المواقف الشاذة، وتروقهم الانحرافات والشطحات.. ربما كان بعض هؤلاء يلتفتون إلى هذه الدعوة ، ويستجيبون لها.. ولكنهم مهما بلغ عددهم يظلون فى عزلة عقلية واجتماعية عن المجتمع الإنسانى العصرى . . لاينظر إليهم الناس إلا نظرة الشذاذ

الخارجين على الجماعة الإنسانية ! ينكرهم الناس أينما التقوا بهم .. ثم لايلبث أمرهم أن ينتهى إلى ماينتهى إليه كل أمر لايقوم على واقع التجربة ولايستند إلى برهانها !

والصورة التى ظهر بها « يسوع » المسيح وإن تشابهت مع هذا التصور فى بعض ملامحه إلا أنها تخالفه من وجهين :

(الوجه الأول) هو أن « المسيح » ظهر فى عصر غير هذا العصر .. فى عصر كانت فيه صور الآلهة البشرية تعيش فى تفكير الناس، وفى أحلامهم ، لاينكرونها إذا هى التقت بهم وتحدثت إليهم — فطالما التقى آباؤهم بالآلهة ، وتحدثوا إليها وتعبدوا لها .

(والوجه الثانى) هو أن ألوهية المسيح لم تعلن إلى الناس وهو حى قائم فيهم ، حتى يمكنهم أن يعيدوا النظر إليه ، ويملئوا عيونهم منه ، وهم يلتقون به على تلك الصفة . . وإنما كان ذلك بعد أن انتهى المسيح تلك النهاية المعروفة .. فقيل للناس بعد هذا : إنه بعد أن صلب عاد إلى الحياة ، بعد ثلاثة أيام ، ثم صعد بعد أربعين يوما إلى ملكوته السماوى الذى نزل منه !

وهنا تكثر الأحاديث عن « المسيح» وعن شخصيته ، وتنفسح آفاق الأحلام والهواجس ، وتشيع فى الناس مقولات حول « المسيح »تدخل عليهم من كل باب ، بلاحساب ولاتقدير .

فلقائل أن يقول يومذاك : إنه ليس مجرد إنسان ! وشاهد ذلك معجزاته الكثيرة التى عرفها الناس منه فى حياته . .

ولآخر أن يحدث الناس أنه ابن الله . ! . . وشاهد هذا أنه ولد من عذراء ! فليس « يوسف » النجار أباه ، وإنما هو زوج أمه ! فلا أب له إلا الله !

ولقائل ثالث أن يدعى له أنه هو الله ذاته ! وشاهد ذلك أنه أمات نفسه ثم أحياها . . والله وحده هو الذى يحيي ! ويميت ! « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحى » !

وهكذا استدبر الناس حياة « المسيح » إلها ، بعد أن استقبلوا حياة المسيح إنسانا بشرا !

ولهذا لم يكن للشاهد أكثر مما للغائب فى شأن البحث عن ألوهية المسيح والتحقق منها . . إذ أن الذين شاهدوا المسيح عيانا لم يكن يقع لتفكيرهم إنهم يعيشون مع إله ، ويتحدثون أو يستمعون إلى إله .. وإنما هم مع إنسان ، وإن عظم فى الناس أمره وسما قدره .. فهم والذين لم يروه على سواء فى التحقق من الصفة الجديدة التى كان عليهم أن يروه من خلالها .. إنهم يستعيدون ذكريات ويتذكرون أحداثا ، على حين يطالع غيرهم — ممن غاب عنهم شخص المسيح — تلك الذكريات وهذه الأحداث مسطورة فى كتب ، مصورة فى رسائل !

وأين الإله إذن فى هذا الإنسان « يسوع » ؟

إن أحداً لم يره !

إنه مجرد تخريجات وتأويلات لذكريات وأحداث وأخبار عن تلك الذكريات وهذه الأحداث !

فالله الذى تجسد فى « يسوع » المسيح لم يعلن نفسه للناس الذين ظهر فيهم وولد وعاش وصلب وقام بينهم !

وإنما كان هذا الإعلان بعد أن ترك « الله » هذا الجسد وزايل هذا المكان الذى كان فيه !

ثم قيل للناس : هنا كان « الإله » !

ويلتفت الناس نحو هذا « الإله » فلا يجدون شيئا : وعهد الناس حين يبشر فيهم بألوهية أحد أن يروا هذا الإله عياناً ، وأن يعرفوا الكثير من حركاته وسكناته . . أما أن يُدْعى الناس إلى الإيمان بألوهية إنسان بعد أن يترك هذا العالم فأمر لم يجرؤ أحد على مواجهتهم به ، إلا فى تلك الحال التى للمسيح وحده !

.. هذه واحدة !..

وأخرى ، يقف العقل إزاءها متسائلا :

لماذا ظهر « الله » فى هذا الجسد المحدود ؟ فى هذا الزمن المحدود ؟ فى هذا المكان المحدود ؟

إنه لو كان الله يريد أن يكشف ذاته للناس لكان غير ذلك أولى وأجدى ! !

كان ينبغى أن يظهر ظهوراً متجدداً متكررا . . فى أجساد كثيرة ، وفى أمكنة متعددة ، وفى أزمنة متجددة ! حتى يستطيع الناس أن يأخذوا جميعا حظهم من هذا الإعلان .. إن كان لهذا الإعلان حكمة .. وكان له أثر ! !

إن مثل هذه الاعتراضات قد دارت فى كثير من الرءوس ، التى واجهت تلك المقولات التى تقال فى المسيح ، وفى تجسد الله فى الجسد الذى اتخذه من عذراء !

وقد أجاب عليها الذين آمنوا بهذه المقولات ورضوا بها واطمأنوا إليها .

وهانحن أولاء نسوق بعض الاعتراضات وردّ المؤمنين بألوهية المسيح عليها :

اعتراض :

إن الأنبياء كانوا يقومون بإعلان الله للبشر وهدايتهم إليه . . لذلك لم يكن هناك داع لأن يقوم الله تعالى بمهمة كان يقوم بها نفر من عبيده ، فما تأويل هذا ؟ أى لماذا يظهر الله معلناً عن نفسه ، وقد كان الرسل يقومون بهذا الأمر ؟

وجواب :

« إن الأنبياء لم يعلنوا للبشر ذات الله ، بل قاموا فقط بتبليغ أقواله لهم . . إذ فضلا عن أنهم مثل غيرهم من الناس غير معصومين من الخطيئة ، الأمر الذى لايجعلهم أهلا لإعلان ذات الله ، فهم أيضاً محدودون فى ذواتهم ، والمحدودون لا يستطيعون أن يعلنوا غير المحدود .. فإذا أضفنا إلى ذلك أن غرض التجسد لم يكن مجرد إعلان

ذاته للبشر ، بل الظهور بينهم بحالة مدركة لهم ، لكى يستطيعوا معرفته والاقتراب منه ، والتوافق معه ـ اتضح لنا أن هـذا الاعتراض لامجال له إطلاقا » (١) .

والذى يرد على هـذا الاعتراض رجل من رجال الدين المسيحى ، وعالم من علماء المسيحية .

وندع مقولته فى عصمة الأنبيـاء وأنهم ليسوا أهلا لإعـلان ذات الله ، ونسأل : ما الغاية من إعلان ذات الله ؟ وما أثر هذا الإعلان ؟ ألا يـكفى الإعلان عن آثاره وأعماله لتـكون عند الناس شاهدا على وجوده ، وعلى ماله من صفات الجلال والـكمال ؟

إن الناس يتمثلون ذوات القـادة والزعماء والعلماء فى آثارهم وأعمالهم ،دون أن يروهم ويتصلوا بهم . . وهم مع هـذا يحبون منهم من يحبون ويطيعون من يطيعون ، وينقادون لمن ينقادون ، بقدر مايقع فى نفوسهم مما لهم من آثار وأعمال !

ثم ألا يكون هـذا الوجود كله بمـا فيه من آيات ومايشتمل عليه من عجـائب وأسرار ،تقف أمامها العقول مشدوهة وتنظر إليها الأبصار خاشعة ـ ألا يـكون هذا إعلانا واضحا عن الله ؟ ثم ألا يـكون فيما يجىء به رسل الله وأنبياؤه من دعوات تـكشف عن هذا الوجود وتجلى للأبصار والعقول ماغشى عليها الجهل والضلال منه ـ ألا يكون فى هذا ما يكشف للناس عن وجود الله ، وجلال الله ، حتى يجىء الله ذاته للناس ليقول لهم : ها أنذا ؟

اعتراض آخر :

إن التوافق مع الله لايتوقف على رؤيته بالعين ، بل على إدراك النفس لمحبتـه

---

(١) الله ـ طرق إعلانه عن ذاته .. الأستاذ عوض سمعان صـ ٨٢

وكماله وجماله ، ولذلك لم يكن هناك داع لأن يتجسد الله . . إذ أنه موجود فى كل مكان .. وفى أقواله ما يكفى نفوسنا لإدراك كل شىء عنه ، وبالتالى للتوافق معه !

وجواب :

« حقا إن التوافق مع الله لايتوقف على رؤية العين ، بل على إدراك النفس لمحبته وكماله وجماله .. لكن هل تستطيع النفس أن تدرك شيئا عن الله من مجرد السماع أو القراءة عنه ؟ الجواب : طبعا لا — لأن النفس كما قلنا محدودة ، والله غير محدود ؛ والمحدود لايدرك من تلقاء ذاته غير المحدود ، لذلك كان من البديهى أنه إذا أراد الله أن يجعل ذاته مدركا لنفوسنا — وعمل مثل هذا يتفق مع ذاته وصفاته كل الاتفاق — أن يظهر لنا بهيئة محسوسة ، نستطيع عن طريقها الاتصال به ، وهذه هى الهيئة التى تنازل واتخذها ، له المجد ! » (١)

هذا الجواب ليس بالذى يسد هذه الثغرة التى أوجدها الاعتراض الذى يجاب عليه بهذا الجواب !

فإذا كان الإيمان بالله لا يكمل ولا يتم بمجرد السماع أو القراءة عن الله ، بل لابد من رؤيته مجسدا ، فمعنى هذا أن جميع الذين لم يروا الله مجسدا فى المسيح هم على تلك الصفة.. إيمانهم ناقص ، لا يتم إلا برؤية الله مجسدا فى « المسيح » ، ومعنى هذا أيضاً أن إيمان جميع الذين سبقوا المسيح من الأنبياء والرسل وأتباعهم إيمان ناقص ، وكذلك إيمان أتباع المسيح جميعا الذين لم يروه رأى العين ! فما الجواب ؟

اعتراض ثالث :

إن كان ولابد من تجسد الله .. فلماذا لم يظهر بالهيئة التى تليق بمجده وبهائه ، حتى تهابه الناس وتخضع له ؟

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨

وجواب :

«إن غرض الله من التجسد لم يكن لإظهار عظمة ، أو إثارة إعجاب الناس به ، (لأن تصرفاً كهذا لا يصدر إلا من الناقص الراغب فى تعظيم الناس له) بل هو جمعهم حوله لكى يمتعهم بحبه وعطفه (١) ويخلصهم من خطاياهم وضعفاتهم ، حتى تكون لهم معه حياة روحية سعيدة ، وبما أنه لو كان تعالى قد ظهر لهم بهيئة تناسب مجده الأزلى لارتهب الناس منه ، ولما استطاع واحد منهم أن يدنو إليه — كان البديهى أن يظهر لهم بالهيئة المألوفة لديهم ، وهى الهيئة البشرية ، لكى تتحقق أغراضه هذه ، كما أنه لو كان قد تجنب الظهور بمجده الخاص الذى يرعب الناس ، وظهر فقط بإحدى مظاهر العظمة الأرضية لحرم متوسطو الحال والفقراء من التمتع به. وهؤلاء — كما نعلم — هم السواد الأعظم من البشر، وهم فى جملتهم أكثر من الأغنياء استعداداً لمعرفته ، والسير فى سبيله ، لذلك كان من البديهى أيضاً ألا يظهر بأى مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية كذلك ، بل يظهر بالمظهر العادى الذى ظهر به فعلا .. إنه هو الذى يفسح المجال أمام جميع الناس للاقتراب إليه والاتصال به والإفادة منه» (٢) .

وهذا الجواب أيضاً أبعد من أن يلاقى الاعتراض المجاب عنه . .

فالله قد ظهر هذا الظهور الذى هو أقرب إلى الخفاء والتستر منه إلى أى شىء آخر ، إذ لم ير الناس — الذين رأوه — شيئاً منه .. إنهم لم يروا إلا إنساناً .. مجرد إنسان يقال عنه أو قيل عنه — فيما بعد — إنه هو الله ؟

---

(١) وكم يبلغ هؤلاء الذين جمعهم حوله فى الإنسانية ؟ إنهم قطرات من محيط ، لا يعدون شيئاً إلى جانب الذين أظهروا له البغضة وأخذوه بالبأساء والضراء ، ثم ساقوه إلى الموت صلباً .

(٢) المصدر السابق ص ٨٥ .

فأين الله الذى رآه الناس على أنه الله ؟ وأين الناس الذين رأوه على تلك الصفة ؟ لاجواب ! .

ثم إن الذين رأوه هم قله فى الناس لايكادون يذكرون إلى تلك الأعداد التى لاحصر لها ، من الذين لم يروا المسيح ولم يضمهم إليه ويمتعهم بمحبته !

واعتراض رابع :

« إذ كان المسيح هو الله . . فلماذا لم يعلن ذلك صراحة أمام الناس ، حتى يؤمنوا جميعا به ؟ » .

وجواب :

«لايخفى لدى العاقل أنه لو كان المسيح قد أعلن للناس عن حقيقة ذاته قبل أن يختبروها بأنفسهم لكانوا قد اعتبروه مجدفا ومدعيا ، ولما كانوا قد آمنوا به إطلاقا .. لكن شاء أن يستنتجوا هم حقيقة ذاته ، من حياته وأعماله ، لكى لا يكون إيمانهم به نظريا أو سماعيا ، بل إيمانا اختباريا عمليا . .

« ومع كلٍّ فقد أعلن السيد المسيح عن حقيقة ذاته بكل صراحة للذين كانوا يشكّون فى شخصيته أو لايستطيعون الكشف عنها .. فقد قال مرة لأعمى ، كان — له المجد — قد شفاه : أيؤمن بابن الله ؟ فلما سأله هذا من هو ياسيد لاؤمن به ؟ أجابه — له المجد —: لقد رأيتَه ، والذى يتكلم معك هو هو » فقال له الأعمى : أومن ياسيد . وسجد له » (١) .

والمسيح كما هو ظاهر من هذا القول لم يعلن عن نفسه أنه هو الله . بل قال إنه « ابن الله » وللبنوة هذه معنى كان معروفا عند الناس إذاك فى الكتب المقدسة . .

(١) المصدر السابق ص ٨٨

وطبيعى أن هذا الأعمى لم يكن عنده علم بالأقانيم الثلاثة التى يمثل الابن وجها من وجوه الله بها . . فإذا اعترف بأن المسيح هو ابن الله كان اعترافه بأن المسيح ذات مستقلة عن الله . . فالمسيح ابن ، والله أب ، والأب غير الابن .. ثم إن هذه النبوة لاتعنى بنوة نسبية ، بل هى بنوة رعاية وعناية مثل قول القائل : هذا رجل الله .

أما القول بأن المسيح لم يعلن عن ألوهيته حتى يختبرها الناس فى أعماله وآثاره.. فقد كانت نتيجة هذا الاختبار هو صلب المسيح.. وهى نتيجة ناطقة ببطلان هذا القول!!

واعتراض خامس :

« إن كان ولا بد من تجسد الله ، فلماذا لم يظهر فى العالم رجلا كامل النمو ، بدلا من ولادته من امرأة ، ومروره فى أدوار الطفولة والصبا التى لم يفعل فيها شيئا مذكورا ! ؟ »

وجواب :

«إن السنّة التى وضعها الله للأفراد والجماعات هى النمو والتقدم، وبناءً على ذلك كان من البديهى أن يظهر المسيح ، وقد رضى أن يكون إنسانا طفلا يتدرج فى النمو، قامة وعقلا ، وتتدرج معه الجماعة المحيطة به يقظة ووعيا ، تتهيأ بسببه لقبول المسيح والاستماع إليه . .

«كما أننا إذا وضعنا قبلة أنظارنا أن غرض الله من التجسد لم يكن مجرد إعلان ذاته لنا ، بل الاتحاد الجوهرى بنا لكى يكون الرأس الفعلى ، أو الحقيقى لجنسنا (عوضا عن آدم الأرضى الذى بانتسابنا إليه وتوالدنا منه قد ورثنا الطبيعة الخاطئة وورثنا معها قضاء الموت الأبدى) حتى نستطيع بدورنا أن نتحد بالله اتحادا عمليا حقيقا — اتضح لنا أنه لو كان قد ظهر فى العالم رجلًا كامل النمو ، أو بتعبير آخر ظهر فيه دون أن يأخذ جسدا من جنسنا ، لكان قد ظل غريبا عنا ومفارقا لنا ، وبالتبعية لما كان رأسا لنا ، ولما كان لنا نحن صلة فعلية به ، لكن بتفضله بالولادة من جنسنا قد اتحد بنا ، وأصبح لنا بدورنا أن نتحد به اتحاد الأغصان

بالكرمة ، وبذلك تحققت أغراضه السامية بالتجسد » (١) .

ونقول : لقد انحرف الجواب هنا أيضا عن الرد المباشر على الاعتراض ، وهو: لماذا لم يظهر الله حين تجسد رجلا كامل النمو ، بدلا من أن يمر فى تلك الأدوار التى مر فيها ؟ وقد أجاب المجيب إجابة متهافتة، وإذ شعر بهذا فقد اتجه اتجاها آخر ، بالإجابة على هذا الاعتراض ، وهو أن الله قد اتحد بجنسنا لكى نتحد نحن به ، لأن الجنس أشكل بجنسه ! وكان على المتصدى للرد على هذا الاعتراض أن يعلل لتجسد الله لا فى جسد إنسانى وحسب بل وبمرور هذا التجسد فى جميع أدوار الحياة الإنسانية، من الميلاد إلى الممات . ! ولو أنه فعل لوجد أن المسيح الذى تجسد الله فيه قد مات شابا فلم يمر فى أدوار الكهولة والشيخوخة ، وكان منطق التعليل يقضى بأن يمر المسيح أو الله المتجسد فى المسيح فى جميع هذه الأدوار ، حتى يلبس الإنسانية كلها ، وبهذا يمكن أن يكون رأسا لها !

اعتراض سادس :

« إذا كان المسيح هو الله .. فلماذا ظهر فى أماكن محددة ، ولم يظهر فى جميع الأمكنة حتى يراه جميع الناس ويؤمنوا به ؟

وجوابه :

« إذا رجعنا إلى العصر الذى عاش فيه المسيح على الأرض ، وجدنا أن الشعب الوحيد الذى كان يؤمن بالله إيمانا خالصا من كل زيغ هو الشعب اليهودى ؛ ولذلك كان من البديهى أن يظهر المسيح بوصفه «الله» المتأنس ، بين اليهود ، لأنهم أقرب الناس إلى الإيمان به ! .. وكان من البديهى أيضا أن يظل معهم حتى يعرفوه

(١) المصدر السابق ص ١٠٠

(١) وشاهد هذا أنهم كذبوه وبهتوه وطعنوه فى شرف مولده وفى عفة أمه . ثم ساقوه إلى الصلب وصلبوه ! ! ؟ ؟

ولكن لما رفضوه على الرغم من الأدلة الكتابية والاختبارية التى تثبت حقيقة ذاته (١) اختار من بينهم أشخاصا كانوا أكثر استعدادا من غيرهم لمعرفته والتوافق معه ، وقضى مدة طويلة فى تدريبهم وتعليمهم (٢) حتى عرفوا بعد قيامته من بين الأموات حقيقةَ ذاته كل المعرفة (٣) ، ثم كلفهم بعد ذلك أن يحملوا رسالته ليس إلى اليهود وحدهم بل وإلى كل الأمم (متى ٢٨ : ١٨) (وهذا يناقض مانطق به المسيح فى وصاته لهؤلاء الرسل بقوله لهم: « إلى أمم لا تمضوا »)

« وإذا أضفنا إلى هذا :

« أولا : أن فلسطين التى ظهر فيها المسيح لم يره كل شخص من سكانها ، بل إن كثيرين لم يروه إطلاقا ، وأنه لو كان قد انتقل إلى كل بلاد العالم لكان كثيرون أيضا من سكانها لا يرونه .

« ثانيا : أن معرفة الله فى المسيح لا تتوقف على رؤية العين ، بل على الإيمان به بالقلب، وفى هذه الحالة يستوى الذين رأوه والذين لم يروه إذا كانوا قد آمنوا به !! ويستوى الذين رأوه والذين لم يروه ، إذا كانوا لم يؤمنوا به »(٤)

ونقف عند هذا المقطع الأخير من الجواب ونسأل : إذا كانت معرفة الله فى المسيح لا تتوقف على رؤيته بالعين بل على الإيمان به بالقلب ، وفى هذه الحالة يستوى

---

(١) مفهوم هذا أن الله قدر فلم يحسن التقدير واختار فلم يحسن الاختيار ، ولن يكون الله الذى يلبس ثوب الإنسان ويضع نفسه فى إهابه منزها عن هذا النقص.

(٢) انظر إلى الله هذا الذى يعانى مايعانى فى تعليم الناس وتدريبهم إنه لم يخرج عن طبيعة البشر العاجزين الضعفاء .

(٣) وانظر كيف عجز الله هذا عن أن يعرف نفسه للخاصة الذين اختارهم من بين البشر؟ إنه لم يستطع أن يعرفهم به إلا بعد أن مثل أمامهم عملية الموت فى نفسه ، فقبر ، ثم قام من الأموات !!

(٤) الله طرق إعلانه عن ذاته : ص ١٠٤

الذين رأوه والذين لم يروه من المؤمنين وغير المؤمنين» .. فلماذا إذن هذا التجسد لله ؟ وما حكمته إذا كان يستوى فى ذلك الذين رأوه والذين لم يروه ؟ ثم لم هذه البلبلة وهذا الاضطراب وهذه الفتن التى تجىء وراء القول بتجسد الله . . ؟ وإن أقل مافيه أنه يفتح باب الادعاء على مصراعيه، لـكل من يدعى أنه الله ، أوأن الله قد تجسد فيه. وفى هذا مافيه من التعمية على الناس والتشويش على المؤمنين بالله ، فلماذا هذا التجسد إذا كان لايقدم شيئاً جديدا فى مجال الإيمان ؟ لاجواب ! !

واعتراض سابع:

« إن تجسد الله إما أن يظل إلى آخر الدهور ، فتدوم فوائده ، وإما أن يكون مؤقتا ، وحينئذ لايـكون هناك مبرر لتمتع جيل خاص برؤيته فى الجسد دون غيره من الأجيال »

وجوابه :

« بما أنه مع ظهور الله فى الجسد فى العالم ورؤية الناس لأعماله ومعجزاته ، استمر معظمهم فى شرورهم وآثامهم (١) ، وبما أنه تعالى يريد أن يكون الإيمان به مقترنا كل الاقتران بحياة القداسة .. وبما أن حياة القداسة لاتتأتى بواسطة الاقتناع النظرى بحقيقة الله ، بل بواسطة الاتصال الروحى به .. وبمـا أن هذا الاتصال لايتولد عن النظر إليه بعين الجسد الخارجية بل عن النظر إليه بعين الإيمان الباطنية ، إذن كان من البديهى أن يقتصر الرب فى أمر ظهوره بالجسد على المدة التى قضاها فى العالم ، وهذه والحمد لله — يقول المؤلف — كانت كافية كل الـكفاية لإثبات شخصيته ، وإظهار

(١) هذا إقرار صريح بأن التجسد لم يفعل شيئا فى سبيل القضاء على ماورث الناس من خطيئة آدم التى يقال إن التجسد والصلب قد كانا لعلاج هذا الداء ، وإعادة الإنسان إلى وضعه الأول مع الله !

محبته للبشر أجمعين ، حتى تكون علاقتهم به ليس العلاقة الجسدية ، بل العلاقة الروحية !! » (١)

وإذن فقد كان ظهور الله متجسدا فى تلك المدة وتلك الرقعة المحدودة فى الزمان والمكان ، كان ذلك لمجرد إثبات شخصيته ،ولكن لمن ؟ لجماعة محدودة من الناس، فى جيل محدود من أجيالهم ، وفى رقعة محدودة من أوطانهم .. إذن فقد كان على الله أن يقدم « بطاقة » شخصية إلى كل إنسان ، فى كل زمان وفى كل مكان .. وإلا كان من حق الناس أن يجهلوه وألا يعترفوا به ، إذ هو لم يلقهم فى صورة مجسدة ، كما فعل حين ظهر فى شخص المسيح فى تلك الرقعة المحدودة من الأرض ، لهذه الجماعة المحصورة من الناس .

***

مشكلات كثيرة أثارها تجسد الله فى المسيح .. فى إنسان معروف للناس ، رأوه رأى العين ، يعالج من شئون الحياة مايعالجون .. يأتى منها مايأتون ويذر مايذرون، ثم يعود فيطلع عليهم من عالم الأموات ، فإذا هو « الله » رب العالمين !!

كان يمكن أن تكون هذه الدعوى أكثر احتمالا وأقرب إلى الواقعية لو أن الناس قد التقوا بدعوى ألوهية المسيح حال حياته ، حيث يتاح لهم النظر إليه من قرب ،واختبار أحواله عن واقع .. وأدخل من هذا فى باب الاحتمال والواقعية لو أن المسيح لم يلتق بالناس ولم يلتق به الناس إلا رجلا كاملا ، لم يروا فيه ضعف الطفولة وعجزها ، وتحكم الضرورات الإنسانية فيه ، وخضوعه خضوعا مطلقا ليد من يرعاه ويقوم بأموره . وقد رأينا الدفوع التى دفعت بها هذه الاعتراضات وأشباهها ، وأنها كانت دفوعا هزيلة متهافتة لاتغنى من الحق شيئا ، ولاتزيد الأمر إلا غموضا على غموض ، وشبها فوق شبه !

---

(١) الله — طرق إعلانه عن ذاته ص ١٠٤

حل أضاف إلى المشكلات مشكلة :

وأمر آخر من أمر المسيح « الإله » زاد العقد عقدا ، وأضاف إلى المشكلات مشكلة . . وهو هذا الفهم الجديد للألوهية ، ذلك الفهم الذى لم تعرفه الدعوات السماوية من أمر الإله فى هذا الوصف الكاشف لذاته ، والتشريع المكّيف لتلك الذات .. حيث ظهر القول بتلك الأقانيم أو التعينات الثلاثة « لله » ، واعتباره ثلاثة فى واحد ، وواحداً فى ثلاثة ، هم : الأب . والابن ، وروح القدس !

وهذه المقولة قد وضعت المسيح « الله » وضعا جانبيا فى الذات الإلهية . . فلم يكن هو « الله » كل الله ، وإنما هو « الابن » ظاهرا ، ثم هو فى الوقت نفسه الأب والروح القدس ، قائما وراء هذا الظاهر !

إنها عملية معقدة ! وحلقة مفرغة لايدرى أحد أين طرفاها ! !

فالمسيح إنسان ، وإله !

إنسان كامل .. وإله كامل !

وانظر كيف يجتمع الإنسان والإله فى كيان واحد ؟ شخصية مزدوجة ، وجهها إنسان وظهرها إله ! !

والمسيح .. أب ، وابن ، وروح قدس !

والابن هو الله ! .

والأب هو الله .!

وروح القدس هو الله !

والأب ، والابن ، وروح القدس ، هم الله !

إنها ألغاز وطلاسم لايمكن أن يتصورها العقل إلا اذا اصطنع لها التشبيهات والتخيلات !

ولعل أقرب صورة تمثل هذا المفهوم لله ، هو القمر ، ومنازله المختلفة .. فالقمر يكون هلالا .. فبدرا .. فمحاقا .

وهو هو القمر .!

فإذا كان هلالا .. ففى كيانه البدر والمحاق !

وإذا كان بدرا .. فمن ورائه المحاق والهلال !

وإذا كان محاقا .. فبين يديه الهلال والبدر !

ومع هذا فإن الناس لايقولون عن الهلال إنه بدر أومحاق ،ولا يقولون عن البدر إنه محاق أو هلال .. إن لكل وجه من هذه الوجوه مفهوماً خاصاً عند الناس ، ولكن لو كان لله تعينات ، ووجوه كوجوه القمر فإن معنى هذا أن الله . . متحول متغير .. يلبس أثوابا مختلفة ، ويبدو فى وجوه متعددة !

والمؤمنون بالله — ومنهم أتباع المسيح — مؤمنون بأن الله لايتغير ولايتبدل، ولايتحول من حال إلى حال أبدا !. ثم من جهة أخرى لايرى الذى يؤمن بألوهية المسيح على هذا المفهوم إلا وجها واحدا من « الله » ،وهو وجه « الابن » أو أقنوم الابن . . ولهذا فإنه يحدق دائماً فى هذا الوجه وحده ، ويتعامل معه دون أن يكون الوجهين الآخرين حساب وتقدير فى مجال الشعور والوجدان ، وإن كان لهمافى مجال البحث والدرس حساب وتقدير ، عند من لهم قدرة على البحث والدرس !

إن « المسيح » الذى يمثل أقنوم « الابن » فى « الله » هو وحده الذى يتعامل معه المؤمنون بألوهية أتباع المسيح . . فهو الله المسيح ، والله الابن ، أما بقية الله ، أو الجوانب الأخرى من الله ، فهى شىء وراء هذا الحساب وهذا التقدير ! .

والإيمان الذى يقوم فى كيان « المؤمن » بالله على هذا الوجه إيمان يتسلط عليه إحساس بإيثار بعض « الله » على بعض ، وهذا الإحساس لايمكن أن يتخلص منه أى مؤمن بالله المسيح ، ولوحاول ذلك وأجهد نفسه فى المحاولة !

فالمؤمن بالله المسيح . إنما يعنيه من الله هذا الوجه المطل عليه فى شخص المسيح ، وهو أقنوم « الابن » الذى تجسد الله به فى هذا الجسد . أما الله «الأب» ، وأما الله «روح القدس» فلا يكاد يحس به المؤمنون بالله المسيح «الابن» ، الذى هو الوجه المطل عليهم دائما ، والمتحدث إليهم فى الأناجيل المروية عنه !!

إن الحل الذى أريد به إيجاد تسوية لألوهية « المسيح » قد أضاف إلى المشكلة مشكلات ، وزاد عقدها عقدا !

ونعم : فإن القول بأن المسيح هو « الله » كل الله . . بجميع صفاته وأقانيمه وتعيناته — هذا القول أقرب إلى العقل من القول بأن « المسيح » هو الله متجسداً فى أقنوم « الابن » دون الأقنومين الآخرين اللذين يقال إنهما لله . وهما الأب وروح القدس !

إن القول بتجسد « الله » فى أقنوم الابن ، الذى منه كان المسيح ، ثم القول بأن المسيح هو الله — يجعل المسيح ذا صور ثلاث : إنسانا ، وإلٰها ، وبعض إلٰه .

وهذه الصور الثلاث تتخايل دائما ـ مجتمعة ومتفرقة ـ فى عينى من يعتقد فى ألوهية المسيح .. فكلما ذكر المرء « المسيح » وقعت فى تصوره هذه الصور الثلاث، تجتمع ، وتتفرق،ويختلط بعضها ببعض ، فتتشكل منهاصور وأشكال يَعْشَى بها نظر الناظر ، ويضل فى غياهبها كل وارد .

العقل .. والمسيح الإنسان :

الوجه الإنسانى فى المسيح هوأبرز هذه الوجوه الثلاثة التى تتخايل منه ،لمن ينظر إليه على اعتبار أنه « الله » مصمتا مجملا ، أو « الله » مفككا مفصلا !.

فالمسيح الإنسان قد رآه الناس رأي العين ، وقد وصفه الواصفون وصف رؤية

وعيان . . فهو حقيقة إنسانية ماثلة فى عين من يؤمنون بألوهيته . . فضلا عن الذين لايؤمنون به إلهـا ! !

وقد استجاب المؤمنون بالمسيح الإله لهذه المعطيات التى أعطاها الشهود الحسى لهم منه ، فتمثلوه — وهو الله — حاضرا معهم فى جسده الذى رأوه رؤية بصرية ، أو خبرية . . فصوروه.. وصنعوا له التماثيل، واليداً ، ومصلوبا ،وصاعدا إلى السماء، بعد قيامته من الأموات ، واتخذوا من هذه الصور وتلك التماثيل مقتنيات يحرصون عليها ويتنافسون فى الاستكثار منها ، وفى إحاطتها بمظاهر التقديس والإجلال ، والاتصال بها اتصال العابد بمعبوده .

إن المسيح الإنسان هو الذى يملأ قلوب المؤمنين بأنه هو « الله ». وإنهم مهما جهدوا فلن يستطيعوا أن يتمثلوا الله فى حال من الأحوال ، إلا فى صورة المسيح الإنسان ، فى صوره المختلفة التى تمثلوها له ، وصوروه أومثلوه عليها !

ولهذا فقد غلبت صورة المسيح الإنسان على تصوره إلها ، ولهذا أيضاً فإن صورة المسيح فى عينى وفى قلب كل مؤمن به إلها — هى صورة إنسانية كاملة !

ونسأل :

ماذا لو استقام المسيح على وجه واحد .. فكان إنسانا لم يخالطه شيء من الألوهية، أو كان إلها لم تشبه شائبة من البشرية ؟

إن أعدل صورة للإنسان هو أن يكون إنسـانا فى كل شيء ، فى ظاهر أمره وباطنه جميعا .

فأعضاء الإنسان وحواسه إذا خرج منها شيء عن حدود البشرية ومألوفهـا . . فسدأمره ، واضطرب وجوده بين الناس!. وانظر كيف يكون حال إنسان له رجل واحدة بدل اثنتين ، وكان له أربع عيون بدلا من عينين ، أو أن عينيـه ركبتا فوق

رأسه ، أو أن حاسة بصره كانت أشبه بالمجهر ، أو أن حاسة سمعه كانت كمكبرات الصوت ؟. أترى مثل هذا الإنسان يستقيم له أمر أوتطيب له حياة ؟

وقل مثل هذا فى كيانه الداخلى.. فى عواطفه ونوازعه ، وفى أفكاره وخواطره، إنه إن خرج فى شىء من ذلك عن حدود البشرية ،فى أعلا ذراها أو أدنى مستوياتها، تعس وشقى !

إن الغراب الذى يلبس جلد الطاووس .. ليس غرابا وليس طاووسا ، بل ليس من عالم الطير إطلاقا ! وإن أنكد الغربان وأسوئها خلقا، لهو خير منه وأهنأ حالا .

* * *

والمسيح — صلوات الله وسلامه عليه — تحدث سيرته عن إنسان كَرُم فى الإنسانية غرسه ، وطاب ثمره ، فكان غرة فى جبينها ، ودرة فى تاجها ، ونجماً لامعاً فى سمائها ، ومصباحا هاديا فى أرضها . . هيهات أن تلد الأمهات من يدانيه نبلا وطهرا واستقامة وعفة .. إلا من كان من الصفوة المتخيرة من رسل الله وأنبيائه !

فالمسيح الإنسان. أمل من آمال الإنسانية ،ومنزع من منازعها،وحلم من أحلامها، قد ظفرت به حقيقة واقعة ، فرأت فيه الإنسان كيف يستعلى على شهواته ، وكيف يقهر هواه ، وكيف يبلغ به خُلقُه فى العالم الأرضى مالا تبلغ الملائكة فى عالمها العلوى !.

وإنه لكسب عظيم للإنسانية أن يكون « المسيح » الإنسان واحدا منها ، إذ به وبمن شابهه أو داناه من الأنبياء والحكماء والقادة والمصلحين ، تثقل موازينها ، ويرتفع قدرها ، ويستقيم خطوها ، وتثبت أقدامها على طريق الحق والخير والسلام !

وانظر كيف يكون حال الإنسانية من الجدب والعقم ، فى خلقها وفى تفكيرها ، لو أن هؤلاء العباقرة وأولئك الرءوس الشوامخ الذين تلدهم الحياة بين الحين والحين —

أضيفوا إلى عالم غير عالم البشر ، فكانوا من الجن أو الملائكة أو الآلهة . . أو أى خلق آخر مما يكبر فى صدور الناس ؟

إن هذه الفتوح العظيمة التى حققتها الإنسانية على هذه الأرض ، فى ميادين العلم والفن وما أخرج العلم والفن من ثمرات عمرت بها الحياة ، وقامت بها تلك الحضارة التى تملأ وجوه الأرض حياة وعمرانا — هذه الفتوح العظيمة هى من صنع الإنسان ، ومن وحى العباقرة والملهمين من الناس !

فلو أن الإنسانية لم تلد هؤلاء العباقرة والملهمين من أبنائها ولم ينتسبوا إليها لظلت تحبو فى طفولتها ، وتعيش فى هذا المستوى الطفولى الذى لا يرتفع بها كثيراً عن مرتبة الحيوان .

وحول الإنسانية وفى محيطها قوى غيبية لاحد لقدرتها ، ولا نفاد لحولها وقوتها . كالجن والملائكة مثلا .. ومع هذا فإن الإنسان لم يفد منها شيئا ، لا فى صراعه مع الحياة ، ولا فى غزواته لكشف أسرارها ، وإنما كان التقدم الإنسانى فى جميع صوره نابعاً من كيان الإنسانية نفسها ، ومن تلك القوى المشتملة عليها فى العباقرة الأفذاذ منها .

ولقد تتعلق عيون الناس وآمالهم قرونا وأجيالا طويلة بهذه القوى الغيبية ، تريد عونها ومساندتها فى الإمساك بسفينتها المضطربة بين متلاطم الأمواج .. ولكن الذى كان يطلع على الإنسانية دائما هو واحد من أبنائها يستجيب لندائها ، ويحقق ما اتجهت إليه أنظارها وتفتحت له آمالها .

ولو ارتفع المسيح إلى مرتبة الألوهية .. وخرج من حساب الإنسانية لخف ميزان الناس ، ولحرموا هذا الخير الكثير الذى يجدونه فى تلك الكلمات المشرقة المسعدة التى تطلع عليهم من فم إنسان ، ومن قلب إنسان ، ومن تفكير إنسان . . ثم لما كانت قد نزعت بهم نازعة إلى تمثل سيرته ، واقتفاء أثره ، إلا إذا حسبوه فى سجل الإنسانية ، وعدوه إنسانا من الناس .

أما إذا أضيف إلى الآلهة وحسب فى عدادها ، فلايقع فى نفس إنسان أن يتشبه به أو يحذو حذوه .. فذاك إله ، وهذا إنســان .. وأين الإنسان من الإله ؟ لذلك طريق ولهذا طريق ! .

والأمر أكثر من هذا خسارة على الإنسانية ، وتفويتاً لما يرجى لها من خير ، لو أن « المسيح » كان هو « الله » الذى يؤمن به المؤمنون ، ويتعبد له المتعبدون !

وانظر يكون هذا الحساب !

إن « الله » الذى يؤمن به المؤمنون . . أزلى أبدى . !

فهو هو لم يتغير ولم يتبدل ،ولن يتغير أو يتبــدل ، ولم يزد ولم ينقص ولن يزيد ولن ينقص ! والمسيح الذى ظهر فى فترة ما لأعين الذين رأوه على أنه « الله » الأزلى الأبدى . . لم يغير من ذات الله شيئا !

فالله ، هو الله ـ فى جسد المسيح ، وفى غير جسد المسيح.. أو فى أى جسد آخر.. بشرى أو غير بشرى ! عند من يؤمنون بالله متجسداً .

وإذن فليس هناك « الله » والمسيح .

وإنما هو « الله » المسيح .. أو المسيح الله !

وإذن — أيضاً — فلا ذات إلا ذات واحدة تمثل الألوهيــة : الله أو المسيح ! فالله — كما قلنا — هو المسيح ، والمسيح هو الله ! ذات واحدة ، لم ولن تتبدل أو تتغير ، ولم ولن تزيد أوتنقص . وهــذا هو مايقول به أتبــاع المسيح كما يقول به المؤمنون بالله !

فالقول بألوهية المسيح ، وبأنه الله — هذا القول — لايدخل منه على الألوهية شىء ، فلايضيف إلى ذات الله بهاء ولاجلالا ، بل إن العكس هوالصحيح ، إذ نزل بقدر الله وعفّر ذاته بتراب الأرض ، وعرض وجهه للبصق والصفع ، وأقام جسده على

الصليب مشدوداً، تدق يداه وقدماه بالمسامير، ويستسقى فيسقى المر المذاب، ويصرخ صرخات ضارعة مستيئسة، ولا راحم ولا مجيب !

إن « الله » المسيح قد كشف فى هذه الأحوال عن إله لاحول له ولا قوة .. يصارع الخطيئة التى غرسها بيده فى كيان الإنسان[1]، فيحتال لذلك فلا تسعفه الحيل إلا بأن يتخلق فى رحم امرأة، ويولد منها، ويرضع من ثديها، حتى يشب ويكون رجلا، فيتخذ له تلاميذ وأتباعا يدعوهم إلى مايدعوهم إليه .. ثم ينتهى أمره إلى الموت صلبا، ليكون بهذا الموت ذبيحة لغفران الخطيئة التى أخطأها آدم فى عصيانه أمر الله !

أرأيت أعجب من هذا العجب ! ؟

إنسان يخطىء فى حق الله ويخرج عن طاعته ..

فلا يعاقبه الله ولا يأخذه بجريرته !

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان مفهوما مقبولا .. إنسان أخطأ، ورب غفور رحيم !

ولكن الذى لا يُفهم ولا يقبل هو أن يجىء الله، لكى يغفر جريمة هذا الإنسان، فيربّى نفسه فى حجر الإنسانية، ويُخضع وجوده لضرورات البشر، ويكشف عن سوأته، ويبول ويغوط ..! ثم إذا أصبح « حملا » صالحا للذبح، ذبح نفسه، ليكون كفارة لهذا الذنب الذى ارتكبه فى حقه عبد من عبيده !

إن العقل الذى يرى الله كاملا الكمال كله، فى ذاته وفى صفاته، لا يقبل أن

---

(١) إذ أن الله سبحانه وتعالى هو القائم على كل شىء، واليه يرجع الأمر كله .

تنقسم هذه الذات على نفسها ، أو أن تتحول من حال إلى حال ، إذ من المسلَّم به بداهة أن الذات الإلهية فى مقام ليس بعده مقام ، وفى حال ليس وراءه حال !

ولا بأس هنا من أن نستمع إلى تلك المحاورة الذكية الرائعة التى أجراها أفلاطون على لسان أستاذه « سقراط ».. بين هذا الحكيم العظيم وبين من يدعى «أديمنتس»، فيما ينبغى أن يكون عليه « الله » من كمال وجلال :

يقول سقراط لصاحبه وهو يحاوره :

« أتظن أن الله تعالى «مشعوذ» فيظهر بمختلف المظاهر، فى مختلف الأغراض..؟ فتارة يظهر فى شكل ما ، ثم يغير مشكله ويتخذ صورة جديدة ، وآونة يخدعنا ويدعونا إلى الاعتقاد بأن تلك الصور حقيقية..أفتسلم بذلك؟ أو ترى أن الله جوهر بسيط ، فلا يتكيف ، ولا يخرج عن المظهر اللائق بذاته ؟

أديمنتس : لا أقدر أن أجيب فورا !

سقراط : فأجبنى عما يأتى :

« إذا تغير كائن عن شكله العادى ، أفليس بالضرورة أن ذلك التغير قد حصل حتما بفعله هو ، أو بتأثير كائن آخر ؟

أديمونتش . حتما ! !

سقراط : أو ليس أفضل الأشياء فى الوجود أقلها قبولا للتغير بتأثير خارجى ، كتغير الجسم بالطعام والشراب والإجهاد ، وكتغير النبات بحرارة الشمس والرياح والعواصف ، ونحوها من العوامل.. أو ليست هذه التغيرات تكون فى أضعف حال مع أقوى الأجسام وأصحها ؟

أديمونتس : بلاشك !

سقراط : ومن جهة العقل.. أليست الاضطرابات الخارجية أقل تأثيرا فى العقل الأوفر شجاعة وحكمة ! ؟

أديمونتس : بلى !

سقراط: أولا يصح هذا القول فى كل مصنوع..من أثاث وبيوت وثياب، فأمتنها صنعا أقلها تغيرا بتأثير الزمان وغيره من العوامل ؟

أديمونتس : هكذا يظهر !

سقراط : فالله والأشياء المختصة بالألوهية فى أفضل الحالات وأكملها !

أديمونتس : دون شك !

سقراط : فهو تعالى أقل الأشياء تغيرا وتبدلاً بفعل المؤثرات الخارجية ؟

أديمونتس : نعم . . أقلها !

سقراط : أفيغير تعالى ذاته بذاته ؟

أديمونتس: الأمر الواضح أنه إذا كان تغيره تعالى ممكنا فهو الفاعل لذلك التغيير!

سقراط : أفإلى مَثَل أفضل وأجمل يغير الله ذاته . . أم إلى مَثَل أقل جمالا وصلاحا مما هو ؟

أديمونتس : لو كان تغيره تعالى ممكنا فلا يمكن أن يكون ذلك التغير إلا إلى مثل أدنى لأننا لا نقدر أن نقول بوجه من الوجوه إن فيه تعالى شيئا من النقص ، جمالا وسموا .

سقراط: أصبت ! وإذا تقرر ذلك أفتظن يا أديمونتس : أن عاقلا ، إلها كان أو إنسانا يختار تغير نفسه إلى إلى ما هو أدنى ؟

أديمونتس: مستحيل !

سقراط : فمستحيل إذن أن يرضى إله بأن يغير نفسه ، بل إن كل إله على قدر ما هو فائق جمالا وسموا ، يرغب فى استمرار جماله وسموه بدون تغيير مظاهره ؟

أديمونتس : وأظن أن هذا الاستدلال ضرورى .

سقراط : فلا ندعنّ أن شاعرا أيها الوقور أديمونتس يقول فيه تعالى ماورد فى هذا البيت :

يغير شكله فى كل حين كسفار يجول بكل أرض

أديمونتس : أظن ذلك ! » (١)

هذا هو موقف العقل من الذات الإلهيه، ونعنى به العقل الذى لم تستبدّ به الأوهام والخرافات ، ولم تتسلط عليه الرؤى والخيالات التى تهجم عليه من وراء الحس ، فيقيم منها عالماً تتصارع فيه القوى المحبوسة فى كيانه، ويتخذ من الالهة وقدرتها على التحول والتشكل متنفسا لعجزه وقصوره ، ومنطلقا لآماله وأحلامه التى تراود نفسه ، وتقصر عنها يده ، ولا يطولها حوله وحيلته !

فإذا قبل العقل الإنسانى فى طفولة الإنسانية تصور الإله أو الالهة على تلك الصورة التى تتبدل بها أحوالهم، وتتغير فيها صورهم، فإن الإنسانية ـ وقد رشدت ـ يأبى عليها عقلها أن يجيز التحول والتغير على الله ، وهو أكثر إباء أن يرى الله ثلاثة فى واحد وواحدا فى ثلاثة ! .

* * *

وندع هذا الحساب المغلوط . . لمن يقيم خلله إن كان فى الناس من يحسن البناء على خواء ! .

ونسأل : أين « المسيح » ؟

---

(١) جمهورية أفلاطون . ص ١٠٦ وما بعدها ، (نقلها إلى العربية حنا خباز)

أين ذلك الوجه المشرق الوضىء الذى طالع فيه الناسُ سمات الإنسانية كلها .. فى نبلها وطهرها وعفتها ورحمتها وحكمتها ؟ أين ذلك الإنسان الذى عاش فى الناس فآنس وحشتهم ، وفتح لهم طرقا مستقيمة إلى معالم الخير والنور والسلام ؟

إنه لاوجود له فى عالم الناس . !

إنه لم يكن إلا « الله » . . ولم تكن تلك الفترة التى التى رآه الناس فيها فى صورة إنسان إلا حلما من تلك الأحلام المسعدة التى يصحو الناس بعدها على الواقع الذى يعيشون فيه !

إن المسيح « الله » . . لاحساب له فى عالم الناس . !

وإنها لخسارة فادحة محققة للإنسانية إذ تفتقد المسيح إنسانا حين تراه إلٰها . . !!

ثم تتطلع إليه فى مقام الألوهية فلا ترى إلا الله . . !

الله وحده . . لاشريك له !

الله فى عظمته وجلاله . . قبل المسيح . . وبعد المسيح !

الله الذى آمن به آدم ونوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وجميع أنبياء الله ورسله ، ومن استجابت لهم وسلك سبيلهم !

* * *

وبعد .

فإن هذه المقولات التى نقول بها فى هذا البحث ليست لحساب الدين بقدر ماهى لحساب الرأى !

إنها ليست لمقابلة دين بدين ، أو مناقضة عقيدة لعقيدة !

فللعقيدة منطق . . وللرأى منطق . !

منطق العقيدة . . أرحب وأوسع .

إنه يستمع إلى صوت العقل والقلب . . ويستجيب لداعى الشعور والوجدان . . والإدراك .. على حين لايقوم الرأى إلا على منطق العقل ، ولا يستجيب إلا لما يقول به .

ولسنا ندعى بأننا قد استجبنا للعقل وحده فى كل ما كان لنا من مقولة هنا ، فذلك أمر قد أردناه وعقدنا النية عليه منذ الخطوة الأولى فى هذا البحث ..

ولكن ـ والحق أحق أن يتبع ـ لم نستطع أن نتخلص تماما من آثار الدين الذى ندين به ، والعقيدة التى نعتقدها ..

وعلى هذا،فإننى لم أقصد فى هذا البحث إلا لغاية واحدة .. هى إتمام مابدأت به فى البحث عن الألوهية والتعرف على الإله ..

فلقد عالجت قضية الألوهية فى كتابين أذعتهما فى الناس ! (١) وكان من مباحث هذه القضية البحث فى تجسد الإله ، وفى تصوره فى صور مختلفة .. من إنسانية وحيوانية وجمادية وغيرها . مما وقع فى تصور الإنسانية لذات الله ..

وإذ كان المسيح ـ بوصفه التاريخى ـ قد كان إنسانا ثم إلها متجسدا ، فقد اقتضى الأمر أن يدرس تاريخ « المسيح » ومعتقد المعتقدين فى ألوهيته ، كما كان التدبير أن يفرد للمسيح بحث خاص حتى يتسع لبعض الجوانب الكثيرة من شخصيته ، ولاستعراض بعض المقولات الكثيرة المتشعبة التى قيلت فى ألوهيته .

هذا مادعانا إلى البحث فى « المسيح » !.

فلم يكن هذا البحث — كما قلنا — لمقابلة دين بدين ، أو مناقضة عقيدة لعقيدة .

فإن يكن قد وقع فى فهم أحد شىء من هذا عند إخواننا المسيحيين ، فليحمله

---

(١) الكتابان هما: قضية الألوهية: الله ذاتا موضوعا .وقضية الألوهية: الله الإنسان.

على محمل الرأى ، فى قضية إن يكن للعقيدة الدينية جانب فيها فللرأى العلمى جانب أفسح وأرحب !

وفى مجال الرأى نتفق ونختلف .

نتفق ونحن أصدقاء .

ونختلف ونحن أصدقاء !

ورحم الله « شوقى » إذ يقول :

لقد اختلفنا والمعا … شر قد يخالفه العشيرْ
فى الرأى تضطغن العقو … ل وليس تضطغن الصدورْ

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ؟

القاهرة فى : غرة المحرم سنة ١٣٨٦ هـ
٢٢ ابريل سنة ١٩٦٦ م

* * * *

رجاء .. واعتذار

أما الاعتذار فهو عن تلك الأخطاء المطبعية ، التىوقعت فى صفحات هذا الـكتاب ، والتى قدتشوش على القارىء ، أو ترهقه فى التماس الصواب الذى أخفته وراءها . .

وأما الرجاء . . فهو ألا يضيق القارىء بهذه الأخطاء ، وأن يغفرها فيما يغفر من عثرات وزلات .. فى معالجة الموضوع ، أو تصوير الأفـكار . . ثم ليقف وقفةقصيرة ، قبل أن يلتقى بالـكتاب ليعالج بعضهذه الأخطاء بيده.

وهذه بعض الأخطاء ، والوجه الذى تصح به :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤٤	١٥	المتصلة	المنفصلة
٥٠	١٩	القرن	القرآن
٦٤	١٣	ذا شأن	ذى شأن
٧٧	١١	مما	ممن
٧٩	٥	المجتمع	المجمع
٧٦	١٣	قد وكنت	وقد كنت
٩٧	٩	القدر	العذر
١٠٣	١٧	لتبيئنة	لتبيينه
١٠٨	٢	القرا آن	القرآن
١٠٩	١	جاف	بجاف
١٠٩	٤	خلا وجهين	خير من وجهين
١١٠	١١	يفصح	يفضح
١٢١	٩	قول	قولا
١٣٣	٥	وأن	ولن

مراجع البحث

كان من أهم ماعوّلنا عليه فى إعداد هذا البحث الكتب الآتية .

أولا : كتب عقائدية

من الإسلام :

* القرآن الكريم
* تفسير ابن كثير
* تفسير الطبرى
* تفسير الفخر الرازى
* موطأ مالك
* صحيح البخارى
* صحيح مسلم
* سنن أبى داود

الإتقان فى علوم القرآن ... ... لجلال الدين السيوطى

الملل والنحل ... ... للشهرستانى

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ... لابن تيمية (أربعة أجزاء)

تنوير الأذهان فى الرد على مدعى تحريف القرآن { لمحمد زكى الدين سند على هامش السيف الصقيل

الفاصل بين الحق والباطل ... ... لعز الدين المحمدى (طبع سنة ١٣١٦ ﻫ)

السيف الصقيل ... ... للشيخ أبو بكر عمر التميمى الدارى (المحروسة بمصر سنة ١٣١٣ ﻫ)

دعوة الحق أو الحقيقة بين المسيحية والإسلام : للأستاذ منصور حسين عبد العزيز

كتب مسيحية :

* التوراة وأسفارها
* الأناجيل الأربعة

* رسائل الرسل

المسيحية الأصلية ... ... تأليف : ج . ر . و . ستوت
تعريب القس ريد زخارى

تجسد الكلمة ... ... للقديس اثناسيوس الرسولى
نقله إلى العربية القس مرقص داود

رسالة التثليث والتوحيد ... ... للقس يسى منصور

المسيح أمام المسلمين ... ... للدكتور ميشيل الحائك

الإنجيل فى القرآن ... ... ثلاثة أجزاء : تأليف هيئة علمية
تحت اسم مستعار « الحداد »

الله . . طرق إعلانه عن ذاته
الله . . ونوع وحدانيته } للأستاذ عوض سمعان
الله . . بين الفلسفة والمسيحية

قضية الصليب ... ... للقس إبراهيم ميخائيل

ثانياً : كتب فلسفية وتاريخية

جمهورية أفلاطون نقلها إلى العربية حنا خباز (طبع دار الكتاب ببيروت)
ثلاث رسائل للجاحظ : طبعت بمعرفة يوسف فنكل (المطبعة السلفية بالقاهرة)
حياة محمد ... ... لإميل درمنغم ترجمة عادل زعيتر
اللزوميات ... ... للمعرى
عبقرية المسيح ... ... للعقاد
قصة الحضارة ... تاليف ول ديورانت (فى عشرين مجلداً)
(الناشر : الجامعة العربية)
تاريخ الفلسفة اليونانية ... ... ليوسف كرم
قصه الفلسفة اليونانية ... ... لأحمد أمين
رسائل إخوان الصفا
وفيات الأعيان ... ... لابن خلكان

فهرست الموضوعات

الموضـوع | الصفحة

كتب للمؤلف

١ — قضية الألوهية : بين الفلسفة والدين : كتابان
الكتاب الأول : الله ذاتا وموضوعاً
الكتاب الثانى : الله .. والإنسان
٢ — النبي محمد صلى الله عليه وسلم : إنسان الإنسانية ، ونبى الأنبياء
٣ — إعجاز القرآن: كتابان
الكتاب الأول : الإعجاز فى دراسات الأقدمين
الكتاب الثانى : الإعجاز فى مفهوم جديد
٤ — القضاء والقدر . . بين الفلسفة والدين
٥ — السياسة المالية فى الإسلام
٦ — عمر بن الخطاب : الوثيقة الخالدة للدين الخالد
٧ — من الحقل الإسلامى . .
٨ — الدعاء المستجاب
٩ — فى طريق الإسلام : دراسة كاشفة للمعوقات التى تحجز المسلمين عن ثمرات الإسلام .
١٠ — القصص القرآنى
١١ — محمد بن عبدالوهاب (الدعوة الوهابية)
١٢ — الخلافة والإمامة : ديانة وسياسة
١٣ — نشأة التصوف
١٤ — الأدب الصوفى فى مفهوم جديد
١٥ — التعريف بالإسلام

تحت الطبع

الإمام على كرم الله وجهه :

مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بالمالية ٢١٨٢٥

هذا الكتاب

هو كتاب عقيدة ، وكتاب رأى .. معًا

فهو كتاب عقيدة عند من لم تستول عليهم الحياة المادية في هذا العصر ، ولم تصرفهم عن مطالب الروح جملة ، فبقى في كيانهم قدر صالح للنظر فيما وراء المادة ، والأمل في حياة بعد هذه الحياة !

وهو كتاب رأى .. يواجه قضية من أعسر القضايا ، التى شدت العقل إليها ، وألقت به في شراكها ، فعاش فيها نحو عشرين قرنًا ، يدور حولها ، ويحاول جاهدًا أن يتعرف إلى مغالقها ، ويفك رموزها .. وهيهات !
فإن قضية المسيح - في ميلاده ، وصلبه ، وقيامته لا تزال - بعد هذا الزمن الطويل - وكأنها بنت يومها ، في جدتها ، وغرابتها ، واستغلاقها !!

والحق أن الكتاب - قبل هذا وذاك . هو تحية صلاة وسلام ، على السيد المسيح ، الذى أهدر المجمع المسكونى في هذا العام دمه ، وأصدر حكمه ببراءة ساحة اليهود .. صالبيه وقاتليه !!

الثمن ١٠٠ قرش